

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد...

فإن الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفة ما من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، وقد أصبح أدب القصة اليوم فناً خاصاً من فنون اللغة وآدابها، ومن أبلغ صوره القصص في الكتاب والسنة.

معنى القصص:

القص تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر، قال تعالى: ((فَارْتَدًّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا)) [الكهف: ٦٤]. وقال على لسان أم موسى: ((وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه)) [القصص: ١١]، أي تبعي أثره حتى تنظري من يأخذه،

والقصص كذلك: الأخبار المتتبعة، قال تعالى: ((إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)) [آل عمران: ٦٢]، وقال: ((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)) [يوسف: ١١١]. والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

وقصص السنة: أخبارها عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتملت السنة على كثير من وقائع الماضي، وأحوال الناس وأخبارهم، وما جرى لهم، وحكت عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه.

أنواع القصص في السنة:

والقصص في السنة على أنواع منها:

النوع الأول: قصص الأنبياء، بذكر شيء مما وقع لهم من الحوادث؛ كقصة إبراهيم مع زوجته وابنه إسماعيل في قدومهما إلى مكة، وموسى مع الخضر وغيرهما.

النوع الثاني: قصص تتعلق بالحوادث الغابرة، والأخبار الماضية، كقصة أصحاب الغار، والرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ومن كان يتجاوز من الموسر ويخفف عن المعسر ونحوهم.

فوائد القصص:

وللقصص فوائد كثيرة، منها ما يلي:

- ١- تصديق الأنبياء، وإحياء ذكراهم، وبيان فضائلهم، كما في قصة إبراهيم في بناء الكعبة.
- ٢- ألها ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السمع، وترسخ عبره في النفس، ((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)) [يوسف: ١١١].

إن النظر في آثار الغابرين يهز القلوب. حتى قلوب المتحجرين. ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويحيئون، يخافون ويرجون، يطمعون ويتطلعون .. ثم إذا هم ساكنون، لا حس ولا حركة. آثارهم حاوية، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم، ودنياهم الماثلة للعيان والمستكنة في الضمائر والمشاعر .. إن هذه التأملات لتهز القلب البشري هذا مهما يكن جاسيا غافلا قاسيا. ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» .. لم يكونوا ملائكة ولا خلقا آخر. إنما كانوا بشرا مثلك من أهل الحاضرة، لا من أهل البادية، ليكونوا أرق حاشية وألين جانباً .. وأصبر على احتمال تكاليف الدعوة والهداية، فرسالتك ماضية على سنة الله في إرسال رجال من البشر نوحى إليهم .. «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟» .. فيدركوا أن مصيرهم كمصيرهم وأن سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستناهم وأن عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب: «وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا». خير من هذه الدار التي ليس فيها قرار. «أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟» .. فتتدبروا سنن الله في الغابرين؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير؟^١

٣- الحث على الأعمال الصالحة والترغيب فيها، بذكر ثمراتها العاجلة والآجلة، كما في قصة أصحاب الغار.

٤- التنفير من الأعمال السيئة، وبيان سوء عاقبتها، كما في قصة النفر الثلاثة، ومنهم الأقرع والأبرص.

القصص في السنة حقيقة لا خيال:

إننا نؤمن إيماناً جازماً بأن محمداً ﷺ صادق في نبوته وصادق في دعوته وصادق في كلامه، إذ ما ينطق فهو من الوحي، كما قال تعالى: ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)) [النجم: ٣-٤]. وبالتالي فالحقائق التي توجد في القصص كلها حقيقة لا خيال، بل القصص في السنة الصحيحة من أوثق المصادر، وما ورد فيها فهو موافق للواقع تماماً.

أهمية القصص النبوي

لقد ذخرت السنة النبوية بالكثير من النصوص ذات الطابع القصصي لترشد الناس نحو مبادئ الدين وتعاليمه السامية، متعاونة في هذا مع وسائل الدعوة الأخرى في إيجاد الفرد الصالح والجمتمع السليم،

^١ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٦٨١)

كما أسهمت القصة في التأكيد على كثير من مبادئ العقيدة والعبادة والأخلاق، بحيث يمكن لأي إنسان — فضلا عن أن يكون عالما — أن يستلهم من نصوص السنة القصصية الصحيحة ما ينفعه في دينه ودنياه.

ولم يكن غريبا أن تحتذي السنة النبوية بالقرآن الكريم في اشتغالها على عدد كثير من القصص، فقد استحوذت القصة على جانب كبير من توجهات القرآن الكريم، وأسهمت في تأسيس قواعد الدين وتوضيح معالمه، يقول الله تعالى: نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين، (يوسف: ٣) وفي بيان الغاية من سوق القصص في القرآن يقول سبحانه: فاقصص القصص لعلهم يتفكرون، (الأعراف: ١٧٦)، ويقول: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، يوسف: ١١١، وإنما اتجه القرآن الكريم إلى أسلوب القصص في ترسيخ مبادئ الدعوة لما له من فوائد في تحقيق المراد من هداية العباد، فضلا عن رغبة العربي في القصص واستملاحه لها، فقد ورد الرمنحشري في تفسير قوله تعالى: ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا، (لقمان: ٦)، أن النضر بن الحارث كان يشتري كتب الأعاجم ويحدث بما قرىشا ويقول: إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بأحداث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستمحلون حديثه ويتركون استماع القرآن،^٢

وكان لجوء القرآن الكريم إلى استخدام القصة كأسلوب من أساليب الدعوة مشجعا لكل من ارتبط بالقرآن لينهج نهجه في توظيف القصة لخدمة الدعوة، وبدا هذا واضحا في سنته — ﷺ — فقد ظهر تأثره بقصص القرآن في سلوكه وأخلاقه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، أَثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَسًا فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الْأَفْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أَنَسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَأَثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدَلُ فِيهَا، وَمَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَيْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»^٣

كما ظهر اقتداؤه ﷺ بالقصص القرآني في طريقة عرضه، فكان يختار القصص من تاريخ السابقين ليشرح لنا ما يريد من المعاني بالأمثلة التي تجسد الواقع في صورة الماضي المعروف سلفا ليرسخ في ذهن المتلقي فلا ينساه.

^٢ - (تفسير الكشاف: ٣/٢٣٩).

^٣ - صحيح البخاري (٤/ ٩٥) (٣١٥٠)

[ش (آثر أناسا) اختارهم وخصهم بشيء عن غيرهم. (القسمه) أي قسمه الغنيمه. (رجل) قيل هو معتب بن قشير وهو من المنافقين]

وإنما كان هذا الاهتمام البالغ بالقصة لما لها من أثر واضح في التوجيه والتربية وإيصال المفاهيم، إذ الإنسان يولع بالقصص ويميل بفطرته إليها، وإذا ما قص عليه جزء من قصة حرص على متابعة أحداثها ليعرف مدى ماوصلت إليه، فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بشفتي القصصي البارع استشرافا لمعرفة ماخفي من بقيتها، ومما يدل على هذا الميل الفطري نحو القصة والرغبة في تتبع أحداثها ماورد عنه ﷺ أنه لما ذكر قصة موسى مع الخضر قال: وَدِدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبْرًا فَقَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا،^٤

والقصص أسلوب تربية عملية يشد من أزر المتمسكين بالحق والثابتين عليه، أسوة بمن سبقوهم على الطريق، ومن ثم كان النبي ﷺ يوجه أصحابه إلى استقرار تاريخ الثابتين على الحق إذا أراد أن يقوي عزائمهم، ويشد من أزرهم في مواجهة الصعاب. فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ، قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».^٥

إن القصة أداة سهلة الفهم تحظى بالقبول من العامة والخاصة على السواء، ومن ثم فقد لازمت الإنسان منذ وجوده، ومازالت تؤدي دورها في عالمنا المعاصر بصورة كبيرة جعلتها صاحبة المكانة الأولى في عالم الأدب اليوم، وما من شك هنا أن إقبال الناس على القصص النبوي وتعلقهم بأحداثها يعمق مضامينها في نفوسهم ويمكنهم من الاستيعاب الجيد والتأثر بالأحداث واستخراج العبر والعظات، فضلا عن إستنباط الأحكام الشرعية والقيم النبيلة من السنة النبوية والتي لا تختلف لدى الإنسان عبر الزمان والمكان.^٦

أثر القصص في التربية والتهذيب:

مما لا شك فيه أن القصة الحكيمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف، وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل، ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة، وإلى أمد قصير، ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعاً، وأكثر فائدةً. والمعهود من النفوس أنها تميل إلى سماع الحكايات والقصص، وهي أطول أمداً في الذاكرة ولذا ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم والتربية.

^٤ - صحيح البخاري (١٥٦ / ٤)

^٥ - صحيح البخاري (٢٠ / ٩) (٦٩٤٣)

^٦ - <http://www.ahram.org.eg/> ٢٠١٢/٨٢/٢٠/٢٥/١٠/٢٤٧٤/١٣٣٢١٩.aspx

وفي القصص النبوية مادة خصبة تساعد المربين على النجاح في مهمتهم، وتمدهم بزيادة تهذيبي، من سيرة النبيين، وأخبار الماضين.

ويستطيع المربي أن يصوغ القصص النبوية بالأسلوب الذي يلائم المستوى الفكري للمتعلمين، في كل مرحلة من مراحل التعليم.

ولأهميته القصص في السنة النبوية اخترنا طرفاً صالحاً منها من كتب السنة، وفق المنهج الآتي:

١- الإقتصار على ما صح سنده منها، ففيها الكفاية والغنية.

٢- تخريج الأحاديث من كتب السنة المعتمدة.

٣- شرح المفردات الغريبة في متن الحديث، مع شرح إجمالي للحديث عند الحاجة إلى ذلك.

٤- ذكر أهم الفوائد المستنبطة من القصة.

٥- الرجوع إلى المصادر الرئيسية، من شروح السنة، وغريب الحديث، وكتب اللغة، مع الإشارة إلى ذلك في الحاشية.^٧

قال تعالى: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) } [النجم]:

أسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والذال عليه في الدارين .

الباحث في القرآن والسنة

وعضو الهيئة العامة لعلماء سورية

علي بن نايف الشحود

في ٣٠ شعبان ١٤٣٣ هـ الموافق ل ١٦/٩/٢٠١٢ م



^٧-انظر:

إبليس وعرشه الذي على الماء

عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ إبليسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنَزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيَذْنِبُهُ مِنْهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ أَنْتَ " قَالَ: «فَيَلْتَزِمُهُ»^٨

وَعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ إبليسُ بَثَّ جُنُودَهُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَضَلَّ الْيَوْمَ مُسْلِمًا أَلْبَسْتُهُ النَّجَاحَ، قَالَ: فَيَخْرُجُ هَذَا، فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى طَلَّقَ امْرَأَتَهُ، فَيَقُولُ: أَوْشَكَ أَنْ يَتَزَوَّجَ، وَيَجِيءُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى عَقَّ وَالِدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَوْشَكَ أَنْ يَبْرَّ، وَيَجِيءُ هَذَا، فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى أَشْرَكَ فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ، وَيَجِيءُ، فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى زَنَى فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ، وَيَجِيءُ هَذَا، فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى قَتَلَ فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ، وَيُلْبِسُهُ النَّجَاحَ»^٩

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ إبليسَ يَبْعَثُ جُنُودَهُ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ فَيَقُولُ: مَنْ أَضَلَّ رَجُلًا أَكْرَمْتُهُ، وَمَنْ فَعَلَ كَذَا فَلَهُ كَذَا فَيَأْتِي أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى طَلَّقَ امْرَأَتَهُ قَالَ: فَتَزَوَّجَ أُخْرَى فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى زَنَى فَيَجِيزُهُ وَيُكْرِمُهُ وَيَقُولُ: لِمِثْلِ هَذَا فَاغْمَلُوا، وَيَأْتِي آخَرَ فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِفُلَانٍ حَتَّى قَتَلَ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الْجَنُّ فَيَقُولُونَ لَهُ: يَا سَيِّدَنَا مَا الَّذِي فَرحَكَ فَيَقُولُ: أَخْبَرَنِي فُلَانٌ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي آدَمَ يُفْتِنُهُ وَيَصُدُّهُ حَتَّى قَتَلَ رَجُلًا فَدَخَلَ النَّارَ فَيَجِيزُهُ وَيُكْرِمُهُ كَرَامَةً لَمْ يُكْرِمَ بِهَا أَحَدًا مِنْ جُنُودِهِ ثُمَّ يَدْعُو بِالنَّجَاحِ فَيَضَعُهُ عَلَى رَأْسِهِ وَيَسْتَعْمِلُهُ عَلَيْهِمْ " ^{١٠}

وَعَنْ أَبِي رِيحَانَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ إبليسَ لَيَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْبَحْرِ وَدُونَهُ الْحُجُبُ يَتَشَبَّهُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَبْعَثُ جُنُودَهُ فَيَقُولُ: مَنْ لِفُلَانٍ الْآدَمِيُّ فَيَقُومُ اثْنَانِ فَيَقُولُ: قَدْ أَجَلْتُكُمَا سَنَةً فَإِنْ أَغْوَيْتُمَاهُ وَسَعَتْ عَنْكُمَا الْبُعْثَ وَإِلَّا صَلَبْتُكُمَا " قَالَ: فَكَانَ يُقَالُ لِأَبِي رِيحَانَةَ لَقَدْ صُلِبَ فِيكَ كَثِيرًا " ^{١١}

المعنى العام :

^٨ - صحيح مسلم (٤/٢١٦٧) - ٦٧ - (٢٨١٣) [ش (فيلترمه) أي يضمه إلى نفسه ويعانقه]

^٩ - صحيح ابن حبان - مخرجا (٦٨/١٤) (٦١٨٩) صحيح

^{١٠} - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/١٢٨) صحيح

^{١١} - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/٢٩) حسن

وفي سنده يحيى بن طلحة بن أبي كثير اليربوعي مختلف فيه : الراجح أنه حسن الحديث : الميزان ٣٨٧/٤ والتهذيب ٢٣٣/١١ و٢٣٤ والتقريب (٧٥٧٣)

(وَعَنْ جَابِرٍ) : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ) أَي: سَرِيرَهُ (عَلَى الْمَاءِ) : وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى الْبَحْرِ، وَالصَّحِيحُ حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَيَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ تَمَرُّدِهِ، وَطُغْيَانِهِ وَضَعُ عَرْشِهِ عَلَى الْمَاءِ يَعْنِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَادِرًا عَلَيْهِ اسْتِدْرَاجًا لِيَعْتَرَّ بِأَنَّ لَهُ عَرْشًا عَلَى هَيْئَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: ٧] وَيَعْرِثُ بَعْضَ السَّالِكِينَ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ أَنَّهُ الرَّحْمَنُ كَمَا وَقَعَ لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي التَّفَحَّاتِ الْأُنْسِيَّةِ فِي الْحَضَرَاتِ الْقُدْسِيَّةِ، وَيُؤَيِّدُهُ قِصَّةُ ابْنِ صَيَّادٍ حَيْثُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - : «أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ فَقَالَ لَهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : (تَرَى عَرْشَ إِبْلِيسَ) » ، وَقِيلَ: عَبَّرَ عَنِ اسْتِيلَائِهِ عَلَى الْخَلْقِ، وَتَسَلُّطِهِ عَلَى إِضْلَالِهِمْ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ (ثُمَّ يَنْعَثُ) أَي: يُرْسِلُ (سَرَايَاهُ) : جَمْعُ سَرِيَّةٍ، وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْجَيْشِ تُوجَّهُ نَحْوَ الْعَدُوِّ لِتَنَالَ مِنْهُ، وَفِي النِّهَايَةِ هِيَ طَائِفَةٌ مِنَ الْجَيْشِ يَبْلُغُ أَقْصَاهَا أَرْبَعَمِائَةٍ تُبْعَثُ إِلَى الْعَدُوِّ، وَاسْمُهَا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ خُلَاصَةَ الْعَسْكَرِ، وَخِيَارَهُمْ مِنَ الشَّيْءِ السَّرِيِّ، وَهُوَ النَّفِيسُ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ يَبْعَثُونَ سِرًّا وَرَدًّا بِأَنَّ لَامَهُ رَاءٌ، وَلَامُهَا يَاءٌ (يَفْتَنُونَ النَّاسَ) : بَفَتْحِ الْيَاءِ، وَكَسْرِ التَّاءِ أَي: يُضِلُّونَهُمْ، أَوْ يَمْتَحِنُونَهُمْ بِتَزْيِينِ الْمَعَاصِي إِلَيْهِمْ حَتَّى يَقَعُوا فِيهَا (فَأَدْنَاهُمْ) أَي: أَقْرَبُهُمْ (مِنْهُ) أَي: مِنْ إِبْلِيسَ (مَنْزِلَةً) : مَرْتَبَةً (أَعْظَمُهُمْ فَتْنَةً) أَي: أَكْبَرُهُمْ إِضْلَالًا، أَوْ أَشَدَّهُمْ ابْتِلَاءً (يَجِيءُ أَحَدُهُمْ) : جُمْلَةً مُبَيَّنَةً لِقَوْلِهِ: أَعْظَمُهُمْ فَتْنَةً (فَيَقُولُ) أَي: أَحَدُهُمْ (فَعَلْتُ كَذَا، وَكَذَا) أَي: أَمَرْتُ بِالسَّرْفَةِ، وَشَرْبِ الْخَمْرِ مِثْلًا (فَيَقُولُ) أَي: إِبْلِيسُ (مَا صَنَعْتَ شَيْئًا) أَي: أَمْرًا كَبِيرًا، أَوْ شَيْئًا مُعْتَدًّا بِهِ (قَالَ) أَي: النَّبِيُّ (ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ) أَي: فَلَانَا (حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ) : هَذَا، وَإِنْ كَانَ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ أَمْرًا مُبَاحًا، وَظَاهِرُهُ خَيْرٌ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ} [النساء: ١٣٠] ، وَلَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَدْ يَجُرُّ إِلَى الْمَفَاسِدِ يَصِيرُ مَذْمُومًا، وَيَحْتُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، وَيَفْرَحُ بِهِ كَبِيرُهُمْ، وَلِذَا قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : «أَبْعُضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ» .

وَقَالَ تَعَالَى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [البقرة: ١٠٢] (قَالَ) : عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - (فَيَدْنِيهِ مِنْهُ) أَي: فَيُقَرِّبُ إِبْلِيسَ ذَلِكَ الْمُعْوِي مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الْإِدْنَاءِ، وَهُوَ التَّقَرُّبُ (فَيَقُولُ) : وَفِي نُسَخَةٍ صَحِيحَةٍ، وَيَقُولُ أَي: إِبْلِيسُ لِلْمُعْوِي (نَعَمْ أَنْتَ) أَي: نَعَمْ الْوَلَدُ، أَوْ الْعَوْنُ أَنْتَ عَلَى أَنَّهُ فَعْلٌ مَدْحٌ، وَفَاعِلُهُ مُضْمَرٌ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ، وَقِيلَ: حَرَفُ إِيجَابٍ، وَأَنْتَ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحذُوفٌ أَي: أَنْتَ صَنَعْتَ شَيْئًا عَظِيمًا، وَقَوْلُ ابْنِ الْمَلِكِ هُوَ الصَّوَابُ هُوَ الْخَطَأُ؛ لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلنَّسْخِ الْمُصَحَّحَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الرِّوَايَةِ مَعَ احْتِيَاجِهِ إِلَى التَّكْلُفِ، وَالتَّعَسُّفِ فِي تَوْجِيهِ صِحَّةِ الدَّرَاقَةِ، (قَالَ الْأَعْمَشُ) : وَهُوَ أَحَدُ رَوَاةِ هَذَا الْحَدِيثِ (أَرَاهُ) : بِضَمِّ أَوَّلِهِ أَي: أَظُنُّ أَبَا سُفْيَانَ طَلْحَةَ بْنَ نَافِعِ الْمَكِّيِّ، وَهُوَ الرَّاوي عَنْ جَابِرٍ كَذَا فِي الْأَزْهَارِ نَقَلَهُ السَّيِّدُ جَمَالَ الدِّينِ، وَقَالَ الطَّبْيِيُّ: ضَمِيرُ الْفَاعِلِ لِلْأَعْمَشِ، وَضَمِيرُ الْمَفْعُولِ لِحَابِرٍ، وَقِيلَ: أَظُنُّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ (قَالَ: فَيَلْتَزِمُهُ) : فَإِنَّهُ إِمَّا عَطَفُ عَلَى فَيَدْنِيهِ، أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ كَذَا قِيلَ، وَالْأَقْرَبُ أَنَّهُ عَطَفُ عَلَى فَيَقُولُ،

وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَالْمَعْنَى فَيَعَانِقُهُ مِنْ غَايَةِ حُبِّهِ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مُحِبٌّ كَثْرَةَ الزَّنا، وَغَلَبَةُ أَوْلَادِ الزَّنا لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَيَهْتَكُوا حُدُودَ الشَّرْعِ، وَمِنْ ثَمَّ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدٌ زَانِيَةٌ) . رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ فِي سُنَنِهِ؛ لِأَنَّ وَلَدَ الزَّنا يَعْسُرُ عَلَيْهِ اكْتِسَابُ الْفَضَائِلِ، وَيَتَيَسَّرُ لَهُ أَخْلَاقُ الرَّذَائِلِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) ^{١٢}

الدروس والعبر :

١- فيه أن إبليس يضع سريره ملكه فوق الماء وأن العرش هو سرير الملك، فيقال: عرش الملك الفلاني، أي: كرسي الملك الذي يجلس عليه، ومقعده الخاص به، ومعناه: أن مركز إبليس هو البحر، فيجلس على سطح الماء، ثم يوزع سراياه وبعوثه وجيوشه في نواحي الأرض. ^{١٣}

٢- وفيه أنه يجتمع بجنوده في ذلك المكان .

٣- وفيه أن أقرب الجن إليه هو أكثرهم شراً وفساداً في الأرض .

٤- وفيه أن الشيطان أخذ عهداً على الله تعالى بإضلال بني آدم ، قال تعالى: {وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأُمَرِّيَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأُمرِّيَنَّهُمْ فليَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيَنَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)} [النساء: ١١٧ - ١٢٠]

٥- وفيه سؤال إبليس جنوده ما فعلوا بين آدم ...

٦- وفيه أن من يسعى منهم للتفريق بين الأحبة ولاسيما الزوجين فهو من كبار المقربين إليه ، قال تعالى: {وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٢]

٧- وفيه أن إبليس يثني كثيراً على من فرق بين الزوجين وهدم أسرة مسلمة ...

٨- وفيه أنه يدعو جنوده لإضلال المسلمين ومن أضل مسلماً جعله من ملوك الجن وألبسه تاج الملك ...

٩- وفيه أنه يميز بين عمل شيطان وشيطان ، ففي الرواية الثانية عندما يقول له أحدهم "لَمْ أَرْزَلْ بِهِ حَتَّى طَلَّقَ امْرَأَتَهُ"، فيقول له إبليس لعنه الله: أَوْشَكَ أَنْ يَتَزَوَّجَ

^{١٢} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٤١)

^{١٣} - شرح صحيح مسلم - حسن أبو الأشبال (٥٨/ ١٩)، بترقيم الشاملة آليا

١٠- ويقول له من وسوس للإنسان البار بوالديه حتى عقهما وهو من أكبر الكبائر عند الله ، فيقول له إبليس : يمكن أن يراجع نفسه ويبر والديه

١١- وفيه أن الشياطين تحت الناس على الشرك بالله تعالى... فيقول لهم إبليس: أنتم أنتم ، يعني أنتم أقرب إلي من غيركم

ويؤيده ما جاء عن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: "يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟، وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟، فَيَقُولُ: اللَّهُ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ" ١٤

١٢- وفيه أنه يفرح كثيرا إذا جاءه شيطان وقال له : ما زلت أسوس له حتى وقع بجرمة الزنى ، فيقربه منه أكثر

١٣- وفيه أنه يقرب إليه الذي وسوس للمسلم حتى قتل أخاه بغير حق، كما وسوس لأحد أولاد آدم عليه السلام بقتل أخيه على سبب تافه.. قال تعالى: {وَإِثْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)} [المائدة: ٢٧ - ٣٠]

ويجعله ملكاً وزعيماً على كثير من الجن

١٤- وفيه أن إبليس يبعث جنوده كل يوم في الصباح والمساء من أجل إضلال المسلمين ، ويغريهم بقوله: "أَصْلَ رَجُلًا أَكْرَمْتُهُ"

١٥- ولذلك عندما يأتيه من زين للمسلمين جريمة الزنا حتى وقع فيها فيجيزه ويكرمه على فعله الخبيث هذا ، بل ويقول لهم إبليس : لِمِثْلِ هَذَا فَاعْمَلُوا "

١٦- وفيه أنه يفرح فرحاً شديداً بقتل المسلم أخاه المسلم حتى يصبح صحة عظيمة لكي يجتمع إليه جنوده من الجن ، "فَيَقُولُونَ لَهُ: يَا سَيِّدَنَا مَا الَّذِي فَرَحَكَ فَيَقُولُ: أَخْبَرَنِي فُلَانٌ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي آدَمَ يُفْتِنُهُ وَيَصُدُّهُ حَتَّى قَتَلَ رَجُلًا فَدَخَلَ النَّارَ فَيَجِيزُهُ وَيُكْرِمُهُ كَرَامَةً لَمْ يُكْرَمْ بِهَا أَحَدًا مِنْ جُنُودِهِ ثُمَّ يَدْعُو بِالنَّاجِ فَيَضَعُهُ عَلَى رَأْسِهِ وَيَسْتَعْمِلُهُ عَلَيْهِمْ"

١٧- وفيه أن عرش إبليس دونه الحجب الكثيرة فلا يدخل إليه إلا من أذن له بذلك ...

١٨- وفيه كيفية إضلال بني آدم حيث يقول : "مَنْ لِفُلَانٍ الْآدَمِيَّ فَيَقُومُ اثْنَانِ فَيَقُولُ: قَدْ أَجَلْتُكُمَا سَنَةً فَإِنْ أَغْوَيْتُمَاهُ وَسَعَتْ عَنْكُمَا الْبُعْثَ وَإِلَّا صَلَبْتُكُمَا "

١٤ - الإيمان لابن منده (١/ ٤٧٨) (٣٥٣) صحيح

وهذا يدل على الإصرار الشديد في غواية أتباع الشيطان للإنس ، قال تعالى : { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ
عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [فاطر: ٦]
١٩ - وفيه أن إبليس قد يصلب من لا ينفذ أوامره من الجن ... "١٥



^{١٥} - يمكن مراجعة التفاصيل كتابي: "الإيمان بالجن بين الحقيقة والتهويل"

قصة خلق آدم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَئِكَ، النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، جُلُوسٌ، فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحْيِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَادَوْهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَ حَتَّى الْآنَ ^{١٦} .

شرح المفردات:

(آدَمَ): وهو أبو البشر عليه السلام. و(الأدمة): السمرة، و(الآدم) من الناس: الأسمر. ومن الإبل: الشديد البياض، وقيل: الأبيض الأسود المقلتين. يقال: بعير (آدم)، وناقاة (أدماء). ^{١٧}

(ذِرَاعًا): ذراع اليد، يذكر ويؤنث. وهو: ما بين طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى ^{١٨} .
(سِتُونَ ذِرَاعًا) قال ابن التين: المراد ذراعنا لأن ذراع كل أحد مثل ربعه ولو كانت بذراعه لكانت يده قصيرة في جنب طول جسمه.

(يُحْيُونَكَ): فعل مضارع من التحية، وهي: السلام. قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا } [النساء: ٨٦].
يقول ابن كثير: " أي: إذا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْمُسْلِمُ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ أَفْضَلَ مِمَّا سَلَّمَ، أَوْ رَدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلَّمَ [به] فَالزِّيَادَةُ مَنْدُوبَةٌ، وَالْمُمَاتَلَةُ مَفْرُوضَةٌ. ^{١٩} .

(ذُرِّيَّتِكَ): ذراً: خلق، ومنه الذرية: وهي: نسل الثقلين، وذرية الرجل: ولده، والجمع: الذراري، والذريات.

(السَّلَامُ): الاسم من التسليم، والسلام اسم من أسماء الله تعالى ^{٢٠} .

(الْخَلْقُ): أي: المخلوق، والمراد بنو آدم.

(يَنْقُصُ): من نقص الشيء، من باب نصر، يتعدى ويلزم ^{٢١} .

شرح الحديث: ^{٢٢}

^{١٦} - صحيح البخاري (٥٠ / ٨) (٦٢٢٧) وصحيح مسلم (٤ / ٢٨١٨٣) - (٢٨٤١)

^{١٧} - مختار الصحاح للرازي، ص: ١٠.

^{١٨} - مختار الصحاح، ص: ٢٢١، ولسان العرب ٥ / ٤٤٧. حرف العين، فصل الذال.

^{١٩} - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢ / ٣٦٨)

^{٢٠} - مختار الصحاح للرازي، ص: ٢٢٠-٢٢١ بتصرف. وص: ٣١١.

^{٢١} - مختار الصحاح للرازي، ص: ٦٧٦ بتصرف.

^{٢٢} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٦ / ٣٦٦) (٣٣٢٦)

في الحديث إشارة إلى خلق آدم، وأنه خلقه الله تعالى بيديه الشريفتين وطوله ستون ذراعاً، ولم ينتقل في النشأة أحوالاً كما هو حال أولاده، بل خلقه الله على الهيئة التي هو عليها.

قال ابن حجر: وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَدَهُ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي خَلَقَهُ عَلَيْهَا لَمْ يَنْتَقِلْ فِي النِّشْأَةِ أَحْوَالًا وَلَا تَرَدَّدَ فِي الْأَرْحَامِ أَطْوَارًا كَذُرِّيَّتِهِ، بَلْ خَلَقَهُ اللَّهُ رَجُلًا كَامِلًا سَوِيًّا مِنْ أَوَّلِ مَا نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ. (فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ) أَيُّ عَلَى صِفَتِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صِفَاتِ النَّقْصِ مِنْ سَوَادٍ وَغَيْرِهِ تَنْتَفِي عِنْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَوَقَعَ عِنْدَ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "كَانَ طُولُ آدَمَ سِتِّينَ ذِرَاعًا فِي سَبْعَةِ أَذْرُعٍ عَرَضًا"^{٢٣}.

(فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ) أَي: أَنَّ كُلَّ قَرْنٍ يَكُونُ نَشْأَتُهُ فِي الطُّولِ أَقْصَرَ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي قَبْلَهُ، فَانْتَهَى تَنَاقُصُ الطُّولِ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ قَوْلُهُ: "فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ" أَي: كَمَا يَزِيدُ الشَّخْصُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَلَا يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ فِيمَا بَيْنَ السَّاعَتَيْنِ وَلَا الْيَوْمَيْنِ حَتَّى إِذَا كَثُرَتِ الْأَيَّامُ تَبَيَّنَ، فَكَذَلِكَ هَذَا الْحُكْمُ فِي النَّقْصِ، وَيَشْكُلُ عَلَى هَذَا مَا يُوجَدُ الْآنَ مِنْ آثَارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَدَيَارِ تَمُودَ فَإِنَّ مَسَاكِينَهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَامَاتِهِمْ لَمْ تَكُنْ مُفْرَطَةً الطُّولِ عَلَى حَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ التَّرْتِيبُ السَّابِقُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ عَهْدَهُمْ قَدِيمٌ، وَأَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آدَمَ دُونَ الزَّمَانِ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

(قال ابن حجر): وَلَمْ يَظْهَرْ لِي إِلَى الْآنَ مَا يُزِيلُ هَذَا الْإِشْكَالَ.

من فوائد الحديث:

- ١ - كمال قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته، فهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار.
- ٢ - مشروعة السلام، وأنه تحية أهل الإسلام، من آدم عليه السلام، إلى محمد عليه الصلاة والسلام وأُمَّتِهِ.
- ٣ - في الحديث دليل على فساد النظريات الغربية التي تحدثت عن أصل الإنسان، رجماً بالغيب، وقد جلت النصوص الشرعية ذلك وبينته غاية البيان، كما في هذا الحديث وغيره.^{٢٤}



^{٢٣} - مسند أحمد ط الرسالة (١٦/ ٥٣٢) (١٠٩١٣) حسن

^{٢٤} - [http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac-3661&t=0fc9erbv026ad01ee324aea.d46fr9](http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac-3661&t=0fc9erbv026ad01ee324aea.d46fr9http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac-3661)

جُودُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَسِيَانُهُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيَّ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبٍّ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبٍّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تُعْطِهَا ابْنُكَ دَاوُدَ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ ٢٥١

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ تَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَعَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَرَأَى فِي وَجْهِ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ لَهُ وَبَيْصٌ أَعْجَبُهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا يَا رَبِّ؟ قَالَ: هَذَا مِنْ وَلَدِكَ اسْمُهُ دَاوُدُ، قَالَ: كَمْ عُمْرُهُ يَا رَبِّ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ: إِذَنْ يُكْتَبُ وَيُخْتَمُ وَلَا يُبَدَّلُ " قَالَ: " فَلَمَّا نَفَدَ عُمْرُ آدَمَ إِلَّا الْأَرْبَعِينَ الَّتِي وَهَبَهَا لِدَاوُدَ أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ آدَمُ: إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً، فَقَالَ: أَلَمْ تُعْطِهَا ابْنُكَ دَاوُدَ؟ " قَالَ: " فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ، فَرَأَى فِيهِمُ الْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ، وَالْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ، وَالصَّحِيحَ وَالْمُبْتَلَى، قَالَ: يَا رَبِّ، أَلَا سَوَّيْتَ بَيْنَهُمْ، قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْكُرَ ٢٦

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَفَخَّ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَحَمِدَ اللَّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ، أَذْهَبَ إِلَى أَوْلَئِكَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى مَلَأَ مِنْهُمْ جُلُوسٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ، وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْتُ أَيْهَمَا شِئْتَ، فَقَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكَلَّمْنَا يَدَيَّ رَبِّي مُبَارَكَةً، ثُمَّ بَسَطَهُمَا فَإِذَا فِيهِمَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبٍّ مَا هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضَوُّهُمْ أَوْ مِنْ أَضْوَائِهِمْ لَمْ يَكُتَبْ لَهُ إِلَّا أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ: يَا رَبِّ، مَا هَذَا؟

٢٥ - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٦٧) (٣٠٧٦) صحيح

٢٦ - القدر للفريابي مخرجا (ص: ٣٧) (٢٠) صحيح

قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ، وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ عُمُرَهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ فِي عُمُرِهِ، قَالَ: ذَاكَ الَّذِي كَتَبْتُ لَهُ.

قَالَ: فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ اسْكُنِ الْجَنَّةَ، فَسَكَنَ الْجَنَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَهْبِطَ مِنْهَا، وَكَانَ آدَمُ يَعُدُّ لِنَفْسِهِ، فَأَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: قَدْ عَجَلْتُ، قَدْ كُتِبَ لِي أَلْفُ سَنَةٍ، قَالَ: بَلَى، وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ لَابْنِكَ دَاوُدَ مِنْهَا سِتِّينَ سَنَةً، فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ فَنَسِيتُ ذُرِّيَّتَهُ، فَيَوْمَئِذٍ أَمَرَ بِالْكِتَابِ وَالشُّهُودِ»^{٢٧}

المعنى العام :

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ) : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:) «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ» (: تَقَدَّمَ (فَسَقَطَ) أَيُّ: خَرَجَ (مِنْ ظَهْرِهِ) : وَفِي نُسخة صحيحة: عَنْ ظَهْرِهِ أَيُّ: بِوَاسِطَةِ وَغَيْرِهَا (كُلُّ نَسَمَةٍ) أَيُّ: ذِي رُوحٍ، وَقِيلَ: كُلُّ ذِي نَفْسٍ مَأْخُوذَةٍ مِنَ النَّسِيمِ قَالَهُ الطَّبِيُّ، وَفِي " الْقَامُوسِ " النَّسِمُ مُحَرَّكَةً؛ نَفْسُ الرُّوحِ كَالنَّسَمَةِ مُحَرَّكَةً، وَنَفْسُ الرِّيحِ إِذْ كَانَ ضَعِيفًا كَالنَّسِيمِ (هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ) : الْجُمْلَةُ صِفَةُ نَسَمَةٍ ذَكَرَهَا لِيَتَعَلَّقَ بِهَا قَوْلُهُ (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) : وَمِنْ بَيَانِيَّةٍ. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ بَيْنٌ عَلَى أَنَّ إِخْرَاجَ الذَّرِّيَّةِ كَانَ حَقِيقِيًّا («وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ») ، أَيُّ: مِنْهُمْ عَلَى نُسخة، وَالْأَصَحُّ بَيْنَ عَيْنِي ثَانِي مَفْعُولِي جَعَلَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى خَلَقَ فَيَكُونُ ظَرْفًا لَهُ (وَبَيَّضًا) أَيُّ: بَرِيقًا وَلَمَعَانًا (مِنْ نُورٍ) : وَفِي ذِكْرِهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَفِي قَوْلِهِ: (بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ) إِذْ بَانَ الذَّرِّيَّةُ كَانَتْ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى مِقْدَارِ الذَّرِّ، («ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ») تَعَالَى: هُمْ («ذُرِّيَّتُكَ. فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيَّصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، قَالَ») : بَغَيْرِ الْفَاءِ (أَيُّ رَبِّ! مَنْ هَذَا؟ قَالَ) : تَعَالَى (هُوَ دَاوُدُ) : قِيلَ: تَخْصِيصُ التَّعَجُّبِ مِنْ وَبَيَّصِ دَاوُدَ إِظْهَارًا لِكِرَامَتِهِ، وَمَدْحٌ لَهُ، فَلَا يَلْزَمُ تَفْضِيلُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِأَنَّ الْمَفْضُولَ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَزِيَّةٌ، بَلْ مَزَايَا لَيْسَتْ فِي الْفَاضِلِ، وَلَعَلَّ وَجْهَ الْمُلَاءَمَةِ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكُ نَسَبَةِ الْخِلَافَةِ (فَقَالَ: رَبِّ) : وَفِي نُسخة صحيحة أَيُّ رَبِّ (كَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟) : بِضَمِّ الْعَيْنِ، وَالْمِيمِ، وَقَدْ تُسَكَّنُ، وَكَمْ مَفْعُولٌ لِمَا بَعْدَهُ، وَقَدْ لِمَا لَهُ الصَّدْرُ أَيُّ: كَمْ سَنَةً جَعَلْتَ عُمُرَهُ (قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً. قَالَ: رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِي) أَيُّ: مِنْ جُمْلَةِ الْأَلْفِ، وَمِنْ عُمْرِي صِفَةُ أَرْبَعِينَ قُدِّمَتْ فَعَادَتْ حَالًا، وَقَوْلُهُ: (أَرْبَعِينَ سَنَةً) مَفْعُولٌ ثَانٍ لِقَوْلِهِ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: { رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } [طه: ١١٤] قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: زَادَ يُسْتَعْمَلُ لَزِمًا كَقَوْلِهِ: زَادَ الْمَاءُ، وَيُسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّيًّا إِلَى مَفْعُولَيْنِ كَقَوْلِهِ: زِدْنُهُ دِرْهَمًا، وَعَلَى هَذَا جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) كَذَا ذَكَرَهُ الطَّبِيُّ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّيًّا لِوَاحِدٍ كَزَادَ الْمَالُ دِرْهَمًا. قَالَ السَّيِّدُ حَمَالُ الدِّينِ: وَفِيهِ أَنَّ الْأَمْثِلَةَ لَيْسَتْ نَصًّا فِي التَّعَدِّيَةِ إِلَى مَفْعُولَيْنِ لِاحْتِمَالِ التَّمْيِيزِ

^{٢٧} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٤ / ٤١) (٦١٦٧) صحيح

تأمل. (قال رسول الله - ﷺ - : «فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرُ آدَمَ إِلَّا أَرْبَعِينَ») أي: سَنَةً كَمَا فِي نُسخة (جاءه ملك الموت، فقال آدم: أَوَلَمْ يَبْقَ) : بفتح الياء، والقاف (من عمري أربعون سنة؟ !): بهمة الاستفهام الإنكاري المنصب على نفي البقاء فيفيد إثباته، وقدمت على الواو لصدارتها، والواو استئنافية لمجرد الربط بين ما قبلها وما بعدها. فإن قلت: ما الفرق بين انقضى عمره إلا أربعين، وبين بقي من عمر آدم أربعون؟ قلت: في الاستثناء تأكيد ليس في غيره قاله الطيبي، قلت: لأن غيره يحتمل الأكثر، وهو نص في بقاء الأربعين كلها، كقوله تعالى: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} [العنكبوت: ١٤] مع زيادة الإفادة في الآية من الأقربية إلى الضبط والدلالة على العدد المشهور في الكثرة، والإشارة إلى جواز إلغاء الكسر كما هو جار على السنة العامة (قال: أولم تُعْطَهَا) أي: أتقول ذلك، ولم تُعْطَهَا أي: الأربعين (إبنك): مفعول ثان (داود؟ !)، بدل، أو عطف بيان (فجحد آدم) أي: ذلك لأنه كان في عالم الدر فلم يستحضره حالة مجيء ملك الموت له قاله ابن حجر.

(فجحدت ذريته): لأن الولد سر أبيه (ونسي آدم): إشارة إلى أن الجحد كان نسياناً أيضاً إذ لا يجوز جحده عناداً (وأكل من الشجرة) قيل: نسي أن النهي عن جنس الشجرة، أو الشجرة بعينها فأكل من غير المعينة، وكان النهي عن الجنس، والله أعلم (فنسيت ذريته): ولذا قيل: أول الناس أول الناسي (وخطأ): بفتح الطاء أي: في اجتهد من جهة التعيين، والتخصيص، (وخطأت ذريته): والأظهر أن خطأ بمعنى عصي؛ لقوله تعالى {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ} [طه: ١٢١] ولقوله - عليه الصلاة والسلام - : «كُلُّكُمْ خَطَّاءُونَ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ» . قال الطيبي: وفي الحديث إشارة إلى ما نقله الشيخان: «يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان: الحرص على المال، والحرص على العمر، وابن آدم وارد على سبيل الاستطراد، وابن آدم محبوب من أصل خلقته على الجحد والنسيان، والخطأ إلا من عصمه الله» . (رواه الترمذي) ٢٨.

(وعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَفَخَّ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ») : بفتح الطاء ويكسر (فقال: الحمد لله) أي: فأراد أن يقول: الحمد لله (فحمد الله بإذنه)، أي: بتيسيره وتوفيقه أو بأمره وحكمه أو بقضائه وقدره. قال الطيبي: وتخصيص الحمد بالذكر إشارة إلى بيان قدرته الباهرة ونعمته المتظاهرة؛ لأن الحمد هو الثناء على الجميل من الفضل والإفضال، وذلك أنه تعالى أبدعه إبداعاً جميلاً وأنشأه خلقاً سويّاً صحيحاً فعطس، فإنه مشعر بصحة المزاج، فوجب الحمد على ذلك، وكذا ارتباب أن وقوفه على قدرة الله تعالى، وإفضاله عليه لم يكن إلا بتوفيقه وتيسيره. قلت: ومن جملة التوفيق والتيسير حكمه وأمره

وَالْكُلُّ بِقَضَائِهِ وَتَقْدِيرِهِ. قَالَ: وَفِي فَأَيْ التَّعْطِيبِ إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ. قُلْتُ: وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى كُلِّ مِمَّا ذُكِرَ هُنَالِكَ.

(فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا آدَمُ!) يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مُتَمَمَّةً وَمُقَدِّمَةً، لَكِنَّ الثَّانِي أَظْهَرُ، ثُمَّ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْخِطَابَ الْمُسْتَطَابَ بَعْدَ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ كَمَا يُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر: ٢٩] وَالْمَعْنَى: يَا آدَمُ. (اذهبْ إِلَى أَوْلَيْكَ الْمَلَائِكَةِ): الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمْ جَمْعٌ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، أَوِ الْمُوَكَّلِينَ عَلَى الْحَسَنَاتِ مِنْ أَرْبَابِ الْيَمِينِ، وَقَوْلُهُ: (إِلَى مَلَأَ مِنْهُمْ): يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا فَيَكُونُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا، فَيَكُونُ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بَيَانًا لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ إِلَى الْحَالِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى الْبَدَلِ، يَعْنِي: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلَيْكَ مُشِيرًا بِهِ إِلَى مَلَأَ مِنْهُمْ (جُلُوسٍ): بِالْجَرِّ صِفَةً مَلَأَ، أَيِ: جَالِسِينَ أَوْ ذَوِي جُلُوسٍ (فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ).

قَالَ الطَّبِيبِيُّ: لَمَّا وَفَّقَهُ تَعَالَى لِقِيَامِ الشُّكْرِ عَلَى نِعَمِهِ السَّابِقَةِ، وَأَوْفَقَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ عِلْمُهُ كَيْفِيَّةَ الْمُعَاشِرَةِ مَعَ الْخَلْقِ حَتَّى يَفُوزَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ مَعَ الْخَلْقِ بَعْدَ تَعْظِيمِ الْحَقِّ، وَأَمَّا تَخْصِصُ السَّلَامِ بِالذِّكْرِ، فَإِنَّهُ فَتَحَ بَابَ الْمَوَدَّاتِ، وَتَأَلَّفَ قُلُوبَ الْإِخْوَانِ الْمُؤَدِّي إِلَى اسْتِكْمَالِ الْإِيمَانِ. (فَقَالَ) أَيِ: فَذَهَبَ آدَمُ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ). وَفِي بَعْضِ النُّسخِ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَحْدُوفَةٌ لِلْعِلْمِ بِهَا (فَقَالُوا: عَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ)، أَيِ: إِلَى مَكَانِ كَلِمَةِ رَبُّهُ فِيهِ تَبَرُّكًا بِهِ وَتَيْمُنًا بِمَقَامِهِ، وَلَمَّا فِي الْعَادَةِ أَنْ يَرْجِعَ الْمَأْمُورُ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ الْأَمْرُ وَيَنْتَظِرُ بَيَانَ حِكْمَةِ الْأَمْرِ (فَقَالَ): أَيِ: الرَّبُّ سُبْحَانَهُ (هَذِهِ) أَيِ: الْكَلِمَاتُ الْمَذْكُورَةُ (تَحِيَّتِكَ وَتَحِيَّةَ بَنِيكَ): فِيهِ تَغْلِيبُ أَيِ ذُرِّيَّتِكَ (بَيْنَهُمْ)، أَيِ: فِيمَا بَيْنَهُمْ عِنْدَ مُلَاقَاتِهِمْ، فَهَذِهِ سُنَّةٌ قَدِيمَةٌ وَمِنَّةٌ حَسِيمَةٌ (فَقَالَ لَهُ اللَّهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ): الْجُمْلَةُ حَالٌ وَالضَّمِيرُ لِلَّهِ، وَحَقِيقَةُ مَعْنَاهُ يَعْجَزُ عَنْهُ مَا سِوَاهُ، وَمَذْهَبُ السَّلَفِ مِنْ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَإِثْبَاتِ التَّنْزِيهِ مَعَ التَّفْوِيزِ أَسْلَمَ، وَسَيَأْتِي كَلَامُ بَعْضِ أَهْلِ الْخَلْفِ مَعَ خُلْفٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ أَعْلَمُ، وَكَانَ بَعْضُ مَشَايخِنَا يَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ تَجَلِيَّاتٍ صُورِيَّةً مَعَ تَنْزِهِ ذَاتِهِ عَنْ أُمُورٍ عَارِضِيَّةٍ، فَيَزُولُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْإِشْكَالَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالصِّفَاتِ الْمَفْهُومَةِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآيَاتِ، وَأَقْرَبُ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنَ التَّأْوِيلِ: أَنَّهُ أَرَادَ بِالْيَدَيْنِ صِفَتَيِ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ، وَأَنَّ الْجَمَالَ هُوَ الْيَمِينُ الْمُطْلَقُ، وَإِنْ كَانَ الْيَمِينُ فِي الْجَلَالِ أَيْضًا قَدْ تَحَقَّقَ، وَبِهَذَا يَتَّضِحُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى لِآدَمَ: (اخْتَرْ أَيْتَهُمَا)، أَيِ مِنَ الْيَدَيْنِ (شَفْتَ) أَيِ: أَرَدْتَ (فَقَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكَلْنَا يَدَيَّ رَبِّي يَمِينَ): مِنْ كَلَامِ آدَمَ أَوْ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ - ﷺ -، وَقَوْلُهُ: (مُبَارَكَةٌ)، صِفَةٌ كَاشِفَةٌ (ثُمَّ بَسَطَهَا)، أَيِ: فَتَحَ الرَّبُّ تَعَالَى يَمِينَهُ (فَإِذَا فِيهَا) أَيِ: مَوْجُودُ (آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ) أَيِ: مِثَالُهُ وَأَمَثَلُهُ أَوْلَادِهِ. قَالَ الطَّبِيبِيُّ: يَقُولُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَعْنِي رَأَى آدَمَ مِثَالَهُ وَمِثَالَ بَنِيهِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ (فَقَالَ: أَيِ رَبِّ! مَا هَؤُلَاءِ؟) ظَاهِرُهُ مُشْعِرٌ بِأَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ قَبْلَ الْمِيثَاقِ (قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ)، الظَّاهِرُ مِنْ كَوْنِهِمْ فِي الْيَمِينِ اخْتِصَاصُهُمْ

بِالصَّالِحِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَالْمُقَرَّبِينَ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ: (فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ أَيْ: مِنْهُمْ) «مَكْتُوبٌ عُمُرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضَاوَهُمْ» (فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ لِكُلِّهِمْ ضِيَاءٌ، لَكِنَّهُ يَخْتَلِفُ فِيهِمْ بِحَسَبِ نُورِ إِيْمَانِهِمْ، هَذَا وَقَدْ قَالَ الطَّبِيبِيُّ: قَوْلُهُ: وَكَلَّمْنَا يَدَيَّ رَبِّي يَمِينٌ كَالْتَّامِيمِ صَوْنًا لِمَا يُتَوَهَّمُ مِنْ إِبْتَاتِ الْجَارِحَةِ مِنَ الْكَلَامِ السَّابِقِ. قُلْتُ: هَذَا غَيْرُ ظَاهِرٍ، بَلْ إِنَّهُ تَذْيِيلٌ وَتَكْمِيلٌ احْتِرَاسًا لِمَا يُتَوَهَّمُ مِنْ قَوْلِ آدَمَ اخْتَرْتُ يَمِينُ رَبِّي أَنَّ لَهُ سُبْحَانَهُ يَسَارًا وَشَمَالًا، فَتَكُونُ أَحَدُهُمَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى أَوْ أَبْرَكَ وَأَيْمَنَ وَأُخْرَى، ثُمَّ قَالَ: وَلِلشَّيْخِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ فُورِكَ كَلَامٌ مَتِينٌ فِيهِ قَالَ: وَالْيَدَانِ إِنْ حُمِلَتَا عَلَى مَعْنَى الْقُدْرَةِ وَالْمَلِكِ صَحَّ، وَإِنْ حُمِلَتَا عَلَى مَعْنَى النِّعْمَةِ وَالْأَثَرِ الْحَسَنِ صَحَّ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا حَدَثَ فِي مَلِكِهِ بِتَقْدِيرِهِ وَعَنْ ظُهُورِ نِعْمَتِهِ عَلَى بَعْضِهِمْ. قُلْتُ: لَا ارْتِيَابَ فِي صِحَّةِ هَذَا الْكَلَامِ فِي نَفْسِهِ، وَأَمَّا إِرَادَةُ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ هَذَا الْمَبْنَى فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَيَحْتَاجُ إِلَى بَسْطٍ فِي الْكَلَامِ لِيُظْهَرَ الْمَقْصُودُ وَيَتَّضِحَ الْمَرَامُ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ فُورِكَ: قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ مَشَايخِنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِيَدِ الصِّفَةِ لَا بِيَدِ الْجَارِحَةِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ يَدُ الْجَارِحَةِ يَمِينًا وَيَسَارًا ؛ لِأَنَّهُمَا يَكُونَانِ لِمَتَّبِعِ وَمُتَحَزِيٍّ ذِي أَعْضَاءٍ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مَا وَصَفَ الرَّبُّ بِهِ يَدَ جَارِحَةٍ بَيَّنَّ بِمَا قَالَ أَنَّ لَيْسَتْ هِيَ يَدَ جَارِحَةٍ، قِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا وَصَفَ بِالْيَدَيْنِ، وَيَدَا الْجَارِحَةِ تَكُونُ إِحْدَاهُمَا يَمِينًا وَالْأُخْرَى يَسَارًا، وَالْيُسْرَى نَاقِصَةٌ فِي الْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ. عَرَفْنَا - ﷺ - كَمَالَ صِفَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ لَا نَقْصَ فِيهَا، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قِيلَ لَهُ اخْتَرْتُ أَيْتَهُمَا شِئْتَ فَقَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينُ رَبِّي وَكَلَّمْنَا يَدَيَّ رَبِّي يَمِينُ أَرَادَ بِهِ لِسَانَ الشُّكْرِ وَالنِّعْمَةِ، لَا لِسَانَ الْحُكْمِ وَالْاعْتِرَافِ بِالْمُلْكِ فَذَكَرَ الْفَضْلَ وَالنِّعْمَةَ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ مَا يُبْدِيهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَنِّهِ فَضْلٌ وَطَوْلٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ؛ فَمِنْ مَنْفُوعٍ يَنْفَعُهُ، وَمِنْ مَدْفُوعٍ عَنْهُ يَحْرُسُهُ، فَقَصَدَ قَصْدَ الشُّكْرِ وَالتَّعْظِيمِ لِلْمَنَّةِ. وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِغَايَةِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ وَالْإِحْسَانِ وَالتَّفَضُّلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ كَلَّمْنَا يَدَيْهِ يَمِينُ، وَإِذَا نَقَصَ حَظُّ الرَّجُلِ وَبُخَسَ نَصِيبُهُ قِيلَ جُعِلَ سَهْمُهُ فِي الشَّمَالِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ اجْتِلَابُ مَنْفَعَةٍ وَلَا دَفْعُ مَضَرَّةٍ قِيلَ: لَيْسَ فَلَانُ بِالْيَمِينِ وَلَا بِالشَّمَالِ.

وَقَالَ ابْنُ فُورِكَ أَيْضًا فِي حَدِيثٍ آخَرَ نَحْوَهُ: إِنْ ذَلِكَ كَانَ مِنْ مَلِكٍ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِجَمْعِ أَجْزَاءِ الطِّينِ مِنْ جُمْلَةِ الْأَرْضِ أَمَرَهُ بِخَلْطِهَا بِيَدَيْهِ، فَخَرَجَ كُلُّ طَيْبٍ بِيَمِينِهِ، وَكُلُّ خَبِيثٍ بِشِمَالِهِ، فَتَكُونُ الْيَمِينُ وَالشَّمَالُ لِلْمَلِكِ، فَأَضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ كَانَ عَنْ أَمْرِهِ، وَجَعَلَ كَوْنُ بَعْضِهِمْ فِي يَمِينِ الْمَلِكِ عَلَامَةً لِأَهْلِ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، وَكَوْنُ بَعْضِهِمْ فِي شِمَالِهِ عَلَامَةً لِأَهْلِ الشَّرِّ مِنْهُمْ، فَلِذَلِكَ يُنَادُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَصْحَابِ الشَّمَالِ.

قَالَ الطَّبِيبِيُّ: وَأَقُولُ - وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ - وَتَقْرِيرُهُ عَلَى طَرِيقَةِ أَصْحَابِ الْبَيَانِ، هُوَ أَنَّ إِطْلَاقَ الْيَدِ عَلَى الْقُدْرَةِ تَارَةً، وَعَلَى النِّعْمَةِ أُخْرَى مِنْ إِطْلَاقِ السَّبَبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ وَالنِّعْمَةَ صَادِرَتَانِ

عَنْهَا، وَهِيَ مَنْشُؤُهُمَا، وَكَذَا الْقُدْرَةُ مَنْشَأُ الْفِعْلِ وَالْفِعْلُ إِمَّا خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ وَهِدَايَةٌ وَإِضْلَالٌ، وَالْيَدَانِ فِي الْحَدِيثِ إِذَا حُمِلَتَا، عَلَى الْقُدْرَةِ حُمِلَتَا عَلَى خَلْقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، فَالْيَمِينُ عِبَارَةٌ عَنْ خَلْقِ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضَوُّهُمْ عَلَى أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ الَّذِي يَقْتَضِي الشَّرَكَةَ، وَالشَّمَالُ عَلَى عَكْسِهَا، وَمَعْنَى كَلَّتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ أَنَّ كُلًّا مِنْ خَلْقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَدْلٌ وَحَكْمَةٌ؛ لِأَنَّهُ عَزِيزٌ يَتَصَرَّفُ فِي مُلْكِهِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا مَانِعَ لَهُ فِيهِ وَلَا مُنَازِعَ، حَكِيمٌ يَعْلَمُ بِلُطْفِ حِكْمَتِهِ مَا يَخْفَى عَلَى الْخَلْقِ، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فَمَعْنَى الْيَمِينِ كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ ... لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ

أَيُّ: بِتَدْيِيرِهِ الْأَحْسَنَ وَتَحْرِيهِ الْأَصَوْبَ، وَإِذَا حُمِلَتَا عَلَى النِّعْمَةِ كَانَ الْيَمِينُ الْمَبْسُوطَةُ عِبَارَةٌ عَنْ مَنْحِ الْأَلْطَافِ وَتَيْسِيرِ الْيُسْرَى عَلَى أَهْلِ السَّعَادَةِ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَالشَّمَالُ الْمَقْبُوضَةُ عَلَى عَكْسِهَا. وَمَعْنَى كَلَّتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ عَلَى مَا سَبَقَ قَالَ تَعَالَى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [العنكبوت: ٦٢]، فَالْفَاصِلَتَانِ فِي الْآيَتَيْنِ أَعْنِي: " {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت: ٤٢] " وَ " {بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [العنكبوت: ٦٢] "، مُلَوِّحَتَانِ إِلَى مَعْنَى مَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِ: كَلَّتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ. كَلَامُهُ.

وَحَاصِلُ مَرَامِهِ، أَنَّ الْيَدَيْنِ كِنَايَتَانِ عَنْ آثَارِ صِفَتَيْ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ مِنَ الضِّيَاءِ وَالظُّلْمَةِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِمَا مِنَ النَّارِ وَالْجَنَّةِ، فَأَصْلُ إِجْبَادِ الْخَلْقِ بَعْدَ عَدَمِهِمْ وَقَعَ عَلَى وَجْهِ الْجَلَالِ إِظْهَارًا لِلْكِبَرِيَاءِ وَالْجَبَرُوتِ النَّاشِئِ عَنْ صِفَةِ الْعَدْلِ، ثُمَّ أَظْهَرَ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ كَمَالَ الْجَمَالِ النَّاشِئِ عَنْ صِفَةِ الْفَضْلِ، وَيُشِيرُ إِلَيْهِ مَا وَرَدَ عَنْهُ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَاهُ فَقَدْ ضَلَّ وَغَوَى، وَلَا شَكَّ أَنَّ نُورَ الْمُؤْمِنِينَ وَالنَّبِيِّاءِ وَالْمُرْسَلِينَ فِي مَرَاتِبٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَقَوْلُهُ: فِيهِمْ رَجُلٌ أَضَوُّهُمْ، أَيُّ: أَضَوُّ مِنْ بَعْضِهِمْ، وَهُوَ أَهْلُ زَمَانِهِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (- أَوْ مِنْ أَضْوَوْتِهِمْ -): وَهُوَ يُحْتَمَلُ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْإِسْتِدْرَاكِ أَيُّ: بَلْ مِنْ أَضْوَوْتِهِمْ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ شَكًّا مِنَ الرَّأْيِ، وَوَجْهُ تَخْصِيصِهِ مِنْ بَابِ تَفْوِيضِ عِلْمِهِ إِلَى عَالِمِهِ، وَلَعَلَّهُ كَوْنُهُ مِنْ أَقَلِّ الْأَنْبِيَاءِ عُمْرًا، أَوْ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْبُكَاءِ كَادَمَ عَلَى مَا ظَهَرَ مِنْهُمَا مِنَ الْخَطَا.

قَالَ الطَّبَيْبِيُّ: هُوَ مِنْ شَكِّ الرَّأْيِ، فَعَلَى هَذَا مِنْ أَضْوَوْتِهِمْ صِفَةُ رَجُلٍ وَفِيهِمْ خَبْرَةٌ، وَعَلَى إِسْقَاطِ مَنْ هُوَ مُسْتَأْنَفٌ أَيُّ: هُوَ أَضَوُّهُمْ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: أَضَوُّهُمْ أَنَّ سَائِرَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الضَّوِّ وَالْإِشْرَاقِ دُونَهُ، بَلْ لِبَيَانِ فَضْلِهِ وَجَمْعِهِ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ، وَإِفَاضَةِ نُورِ الْعَدْلِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ. قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} [ص: ٢٦]، قُلْتُ: لَوْ كَانَ هَذَا الْمَعْنَى مُرَادًا لَكَانَ سُلَيْمَانُ أَوْلَى بِذَلِكَ، مَعَ أَنَّ الْمُلْكَ لِدَاتِهِ لَيْسَ لَهُ نُورٌ هُنَالِكَ، بَلْ لَهُ حِجَابٌ ظُلْمَانِيٌّ يَمْنَعُ

صَاحِبُهُ غَالِبًا عَنْ كَمَالِ نُورَانِيٍّ، وَلِذَا يَدْخُلُ سُلَيْمَانُ الْجَنَّةَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَذَا يَدْخُلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بِسَبَبِ مَالِهِ الْكَثِيرِ الْمُشَبَّهَ بِالْمُلْكِ الْكَبِيرِ بَعْدَ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ. (قَالَ: يَا رَبِّ! مَنْ هَذَا؟) : قَالَ الطَّبِيُّ: ذَكَرَ أَوَّلًا مَا هُوَ لَاءٍ ؛ لِأَنَّهُ مَا عَرَفَ مَا رَأَى، ثُمَّ لَمَّا قِيلَ لَهُ هُمْ ذُرِّيَّتُكَ فَعَرَفَهُمْ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ («قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ وَقَدْ كَتَبْتُ لَهُ عُمُرَهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً») . وَفِي نُسْخَةٍ: عُمُرُهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى ضَمِيرِهِ. قَالَ الطَّبِيُّ قَوْلُهُ: عُمُرَ أَرْبَعِينَ مَفْعُولٌ كَتَبْتُ، وَمُؤَدَّى الْمَكْتُوبِ ؛ لِأَنَّ الْمَكْتُوبَ عُمُرَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَنُصِبَ أَرْبَعِينَ عَلَى الْمَصْدَرِ عَلَى تَأْوِيلِ كَتَبْتُ لَهُ أَنْ يُعَمَّرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. (قَالَ: يَا رَبِّ زِدْ فِي عُمُرِهِ) . أَيُّ: مِنْ عِنْدِكَ وَفَضْلِكَ (قَالَ: ذَلِكَ الَّذِي كَتَبْتُ لَهُ) . أَيُّ: قَدَّرْتُ وَقَضَيْتُ لِأَجَلِهِ، وَلَا مَرَدَّ لِقَضَائِي، وَلَا تَبْدِيلَ لِقَدَرِي. قَالَ الطَّبِيُّ: ذَلِكَ الَّذِي مُتَبَدِّأً وَخَبِرَ مُعْرِفَتَانِ فَيَفِيدُ الْحَصَرَ أَيُّ: لَا مَزِيدَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا نُقْصَانَ، وَكَانَ كَذَلِكَ حَيْثُ وَهَبَ، ثُمَّ رَجَعَ. قُلْتُ: لَكِنْ رُوِيَ أَنَّهُ أَعْطَى مَا وَهَبَ لَهُ وَكَمَلَ لِأَدَمَ عُمُرُهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَهَذَا أَظْهَرُ، وَفِيهِ اسْتِحَابَةُ لِدَعْوَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا، وَقَدْ يَكُونُ الْعُمُرُ الْمُعْلَقُ يَزِيدُ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١] ، وَكَذَا مَا فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مِنْ أَنَّ الصَّدَقَةَ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ.

(قَالَ) : يَعْنِي آدَمُ (أَيُّ رَبِّ) أَيُّ: يَا رَبِّ (فَإِنِّي) أَيُّ: إِذَا أَبَيْتَ الرِّيَادَةَ مِنْ عِنْدِكَ، فَإِنِّي (قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمُرِي) أَيُّ: مِنْ جُمْلَةِ مُدَّةِ عُمُرِي وَسَنَةِ (سِتِّينَ سَنَةً) . أَيُّ: تَكْمِلَةً لِلْمِائَةِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْخَبَرَ الدُّعَاءُ وَالِاسْتِدْعَاءُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَهُ سُبْحَانَهُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى هَذَا الْجَعْلِ، وَفِي الْحَدِيثِ إِشْكَالٌ؛ إِذْ تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ بَابِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ مَا يُخَالِفُ هَذَا، وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بَأَنَّهُ جَعَلَ لَهُ مِنْ عُمُرِهِ أَوَّلًا أَرْبَعِينَ، ثُمَّ زَادَ عَشْرِينَ فَصَارَ سِتِّينَ. وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} [البقرة: ٥١] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمِ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} [الأعراف: ١٤٢] ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَتَكَرَّرَ مَا تَى عِزْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلَامْتِحَانِ بِأَنْ جَاءَ وَبَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ سِتُونَ، فَلَمَّا جَحَدَهُ رَجَعَ إِلَيْهِ بَعْدَ بَقَاءِ أَرْبَعِينَ عَلَى رَجَاءٍ أَنَّهُ تَذَكَّرَ بَعْدَ مَا تَفَكَّرَ فَجَحَدَ ثَانِيًا، وَهَذَا أُبْلَغُ فِي بَابِ التَّسْيَانِ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ وَقَعَ شَكٌّ لِلرَّأَوِي، وَتَرَدَّدُ فِي كَوْنِ الْعَدَدِ أَرْبَعِينَ أَوْ سِتِّينَ، فَعَبَّرَ عَنْهُ تَأْرَةً بِالْأَرْبَعِينَ وَأُخْرَى بِالسَّتِّينَ، وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَأَجَابَ عَنْهُ بِمَا ذَكَرْنَا بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ، وَمَهُمَا أُمُكِنَ الْجَمْعُ فَلَا يَجُوزُ الْقَوْلُ بِالْوَهْمِ وَالْعَلَطِ فِي رِوَايَةِ الْحُفَاطِ الْمُتَقِينَ، وَأَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ سَاعَاتِ أَيَّامِ عُمُرِ آدَمَ كَانَتْ أَطْوَلَ مِنْ زَمَانِ دَاوُدَ، فَمَوْقُوفٌ عَلَى صِحَّةِ النَّقْلِ، وَإِلَّا فَبِظَاهِرِهِ يَأْبَاهُ الْعَقْلُ كَمَا حَقَّقَ فِي دَوْرَانِ الْفَلَكَ عِنْدَ أَهْلِ الْفَضْلِ.

(قَالَ: أَنْتَ وَذَلِكَ) . يَحْتَمِلُ الْبَرَاءَةَ، وَيَحْتَمِلُ الْإِجَابَةَ. قَالَ الطَّبِيُّ: هُوَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ كُلُّ رَجُلٍ وَضِيعَتِهِ أَيُّ: أَنْتَ مَعَ مَطْلُوبِكَ مَقْرُونَانِ (وَكَانَ) أَيُّ: (آدَمُ) : كَمَا فِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ (يَعُدُّ لِنَفْسِهِ) ، أَيُّ:

يُقَدَّرُ لَهُ وَيُرَاعَى أَوْقَاتُ أَجَلِهِ سَنَةً فَسَنَةً (فَأَتَاهُ) أَي: امْتَحَانًا (مَلَكُ الْمَوْتِ) ، أَي: بَعْدَ تَمَامِ تَسْعِمَائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً (فَقَالَ لَهُ آدَمُ: قَدْ عَجَلْتَ) ، بِكَسْرِ الْجِيمِ أَي: اسْتَعْجَلْتَ وَجِئْتَ قَبْلَ أَوَانِهِ. («قَدْ كُتِبَ لِي أَلْفُ سَنَةٍ. قَالَ: بَلَى، وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ لِبَنِكَ دَاوُدَ سِتِينَ سَنَةً، فَجَحَدَ») أَي: أَنْكَرَ آدَمُ (فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ) : بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ الْوَلَدَ مِنْ سِرِّ أَبِيهِ (وَنَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ) : لِأَنَّ الْوَلَدَ مِنْ طِينَةِ أَبِيهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَعْنَاهُ: أَنَّ آدَمَ نَسِيَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ فَجَحَدَ فَيَكُونُ اعْتِدَارًا لَهُ، إِذْ يَبْعُدُ مِنْهُ - ﷺ - أَنْ يُنْكَرَ مَعَ التَّذَكُّرِ، فَقَوْلُ الطَّبِيِّ يُشِيرُ بِهِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [طه: ١١٥] ، لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ إِذِ الْآيَةِ فِي قَضِيَّةِ أَكْلِ الشَّجَرَةِ. (قَالَ) أَي: النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ (فَمِنْ يَوْمَئِذٍ أُمِرَ) : بِصِغَةِ الْمَجْهُولِ أَي: أُمِرَ النَّاسُ أَوْ الْغَائِبُ، وَقَوْلُهُ (بِالْكِتَابِ) أَي: بِكِتَابَةِ الْحُجَّةِ (وَالشُّهُودِ) . فِي الْقَضِيَّةِ وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا احْتِيَاظًا .^{٢٩}

الدروس والعبر :

١- خلق الله تعالى آدم خلفاً سوياً كاملاً في خلقته بعكس ما يروج الملاحظة أنه تطور من كائن وحيد الخلية إلى ما هو أعقد حتى وصل لمرتبة الإنسان. قال تعالى : { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [التين: ٤]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيُونَكَ، تَحِيَّتِكَ وَتَحِيَّةَ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَرَادَوْهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ "٣٠

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ، النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، جُلُوسٌ، فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةَ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَادَوْهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَ حَتَّى الْآنَ "٣١

٢٩ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٩٥٣)

٣٠ - صحيح البخاري (٤/ ١٣١)(٣٣٢٦) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٨٣) - ٢٨ (٢٨٤١)

[ش (تحيتك) أي ما يحيونك به هو تحيتك وتحية ذريتك من بعدك. (على صورة آدم) على هيئته في الطول والحسن والجمال والسلامة من النقائص والعيوب. (ينقص) من حيث الطول واستقر على القدر المألوف الآن]

٣١ - صحيح البخاري (٨/ ٥٠) (٦٢٢٧)

[ش (الاستئذان) طلب الإذن في الدخول لخل لا يملكه المستأذن. (نفر) في نسخة (النفر) مجرور في الروايتين ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هم نفر. أو هم نفر. (جلوس) مرفوع خبر ثان للمبتدأ المحذوف]

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُرِيدُ بِهِ صُورَةُ الْمَضْرُوبِ، لِأَنَّ الضَّارِبَ إِذَا ضَرَبَ وَجْهَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ ضَرْبَ وَجْهِهَا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٤٢٠)

- ٢- فيه كثير من علوم الغيب التي علمها الله تعالى لرسوله ﷺ، قال تعالى : { وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } [النساء: ١١٣]
- ٣- التحية وغيرها من ميراث الأمم السابقة ومن شرع الله تعالى المحكم
- ٤- وفيه إثبات القدر ، وأن الله تعالى قد حدد أعمار المخلوقات ، فلن تزيد ولن تنقص ، قال تعالى : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف: ٣٤] وقال تعالى : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [النحل: ٦١]
- ٥- وفيه فضل نبي الله داود عليه السلام
- ٦- وفيه قدرة آدم عليه السلام على العد والحساب
- ٧- وفيه بيان عمر آدم عليه السلام الحقيقي وهو ألف عام بعكس أكاذيب بني إسرائيل التي ألصقوها بالتورات زورا وبهتاناً
- ٨- من طبيعة آدم عليه السلام وبنيه الجحود والنكران. قال تعالى : { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصْلِينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) } [المعارج: ١٩ - ٢٣]
- ٩- وفيه مشروعية كتابة العهود والمواثيق لكي لا تنسى أو تجحد .^{٣٢}



^{٣٢} - انظر صحيح القصص النبوي - القصة الأولى قصة جحود آدم وذريته ص ١٩ فما بعد .

قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النَّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِيُغْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مِنْطَقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مَرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضِيعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهِؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ {إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [إبراهيم: ٣٧] - حَتَّى بَلَغَ - {يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٣٧] " وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصِّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَّتْ مِنَ الصِّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا [ص: ٤٣]، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا» فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَه - تُرِيدُ نَفْسَهَا -، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَصْبًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِيهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَقُورُ بَعْدَ مَا تَعْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " يَرْحِمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكْتَ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَعْرِفْ مِنَ الْمَاءِ -، لَكَانَتْ زَمْزَمَ عَيْنًا مَعِينًا " قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافُوا الصَّيِّعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الْعِلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّايَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُقُقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَتَزَلُّوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَكْدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَارْجَعُوا فَأَخْبَرُواهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ» فَتَزَلُّوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ فَتَزَلُّوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَنْبِيَاءٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْعِلَامُ

وَتَعْلَمُ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفُسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرْكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ نَحْنُ بَشَرٌ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَأَقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ أَبِيهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ أَنْسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ غَيْرَ عَتَبَةَ أَبِيكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدَ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى [ص: ١٤٤] امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَنْتَ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حُبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُؤَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَأَقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِّيهِ ثُبْتُ عَتَبَةَ أَبِيهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَنْتَ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ أَبِيكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكَ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْرَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَ كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعِ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]، قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧].^{٣٣}

شرح المفردات: ٣٤

(الْمِنْطَقُ): بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الثُّونِ وَفَتْحِ الطَّاءِ هُوَ مَا يُشَدُّ بِهِ الْوَسْطُ.
(عِنْدَ دَوْحَةٍ): بِفَتْحِ الْمُهِمْلَةِ وَسُكُونِ الْوَاوِ ثُمَّ مُهِمْلَةٌ: الشَّجَرَةُ الْكَبِيرَةُ.
(فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ): أَي: مَكَانَ الْمَسْجِدِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حِينَئِذٍ بُنِيَ.

^{٣٣} - صحيح البخاري (١٤٣/٤) (٣٣٦٤)

^{٣٤} - ينظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ٦/ ٤٠٠-٤٠٦.

(وَسَقَاءَ): السَّقَاءُ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ؛ قَرِيبَةٌ صَغِيرَةٌ.
(ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمَ): أَي: وَلَّى رَاجِعًا إِلَى الشَّامِ.
(يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ): وَمَعْنَى "يَتَلَبَّطُ" وَهُوَ بِمُوحَدَةٍ وَمُهْمَلَةٍ يَتَمَرَّغُ وَيَضْرِبُ بِنَفْسِهِ الْأَرْضَ.
(ثُمَّ سَعَتْ سَعَى الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ): أَي: الَّذِي أَصَابَهُ الْجَهْدُ وَهُوَ الْأَمْرُ الْمُسْتَقُ.
(فَقَالَتْ: صِهْ): بَفَتْحِ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْهَاءِ وَبِكَسْرِهَا مُنَوَّنَةً، كَأَنَّهَا خَاطَبَتْ نَفْسَهَا فَقَالَتْ لَهَا: أَسْكُتِي.

(غَوَاثُ): بَفَتْحِ أَوَّلِهِ لِلْكَثَرِ وَتَخْفِيفِ الْوَاوِ وَآخِرِهِ مُثَلَّثَةً، قِيلَ: وَلَيْسَ فِي الْأَصْوَاتِ فَعَالٍ بَفَتْحِ أَوَّلِهِ غَيْرُهُ، وَحَكَى ابْنُ الْأَثِيرِ ضَمَّ أَوَّلِهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ عَلَى هَذَا الْمُسْتَعِثِ، وَجَزَاءُ الشَّرْطِ مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ فَأَعْتَنِي.

(فَجَعَلْتُ نُحُوضُهُ): بِحَاءِ مُهْمَلَةٍ وَضَادٍ مُعْجَمَةٍ وَتَشْدِيدِ، أَي: تَجْعَلُهُ مِثْلَ الْحَوْضِ.
(لَوْ تَرَكْتُ زَمْزَمَ، أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَعْرِفْ مِنْ زَمْزَمَ): شَكٌّ مِنَ الرَّأْيِ، وَهَذَا الْقَدْرُ صَرَحَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِرَفْعِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ جَمِيعَ الْحَدِيثِ مَرْفُوعٌ.
(عَيْنًا مَعِينًا): أَي: ظَاهِرًا جَارِيًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.
(لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ): بَفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ وَسُكُونِ التَّحْتَانِيَّةِ أَي: الْهَلَاكِ.
(رَفْقَةً): بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِ الْفَاءِ ثُمَّ قَافٍ وَهُمْ الْجَمَاعَةُ الْمُخْتَلِطُونَ سَوَاءً كَانُوا فِي سَفَرٍ أَمْ لَا.
(عَائِفًا): بِالْمُهْمَلَةِ وَالْفَاءِ هُوَ الَّذِي يَحُومُ عَلَى الْمَاءِ وَيَتَرَدَّدُ وَلَا يَمْضِي عَنْهُ.
(فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا): بَفَتْحِ الْجِيمِ وَكَسْرِ الرَّاءِ وَتَشْدِيدِ التَّحْتَانِيَّةِ أَي: رَسُولًا، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْوَكِيلِ وَعَلَى الْأَجِيرِ، قِيلَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى مُرْسِلِهِ أَوْ مُوَكَّلِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ يَجْرِي مُسْرِعًا فِي حَوَائِجِهِ.
(فَأَلْفَى ذَلِكَ): بِالْفَاءِ أَي: وَجَدَ.

(وَهِيَ تُحِبُّ الْأُنْسَ): بِضَمِّ الْهَمْزَةِ ضِدِّ الْوَحْشَةِ، وَيَجُوزُ الْكَسَرُ أَي: تُحِبُّ جَنْسَهَا.
(وَأَنْفُسَهُمْ): بَفَتْحِ الْفَاءِ بِلَفْظِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ مِنَ النَّفَاسَةِ، أَي: كَثُرَتْ رَغْبَتُهُمْ فِيهِ.
(يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ): بِكَسْرِ الرَّاءِ أَي، يَتَفَقَّدُ حَالَ مَا تَرَكَهُ هُنَاكَ.
(خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا): أَي: يَطْلُبُ لَنَا الرِّزْقَ.

(عَتَبَةُ بَابِكُ): بَفَتْحِ الْمُهْمَلَةِ وَالْمُثَنَاءِ وَالْمُوحَدَةِ كِنَايَةً عَنِ الْمَرَاةِ، وَسَمَّاهَا بِذَلِكَ لِمَا فِيهَا مِنَ الصِّفَاتِ الْمُوَافِقَةِ لَهَا؛ وَهُوَ حِفْظُ الْبَابِ، وَصَوْنُ مَا هُوَ دَاخِلُهُ، وَكَوْنُهَا مَحَلَّ الْوَطْءِ.
(يَبْرِي نَبْلًا): بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ الْمُوحَدَةِ، وَالتَّبَلُّ بَفَتْحِ الثُّونِ وَسُكُونِ الْمُوحَدَةِ السَّهْمِ قَبْلَ أَنْ يُرَكَّبَ فِيهِ نَصْلُهُ وَرِيشُهُ، وَهُوَ السَّهْمُ الْعَرَبِيُّ.
(فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ): يَعْنِي: مِنَ الْإِعْتِنَاقِ وَالْمُصَافَحَةِ وَتَقْبِيلِ الْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ): يَعْنِي الْمَقَامَ.

من فوائد الحديث :

١- المؤمن يستسلم لأوامر الله، ويؤثر طاعته ومحبته على كل شيء، ولو كان الزوجة الصالحة أو الولد الوحيد، فإبراهيم ينفذ أمر الله تعالى حينما أمره أن يحمل زوجته (هاجر) وولدها الرضيع (إسماعيل) إلى واد غير ذي زرع، لا أنيس فيه ولا زاد.

٢- أن هاجر كانت مطبوعةً لزوجها ومؤمنةً برها، ومتوكلةً عليه حق التوكل، حيث صبرت وصابرت، ورضيت بالإقامة في واد غير ذي زرع لا أنيس فيه ولا زاد، بعد أن اطمأنت أن إبراهيم عليه السلام أسكنها في هذا الوادي بأمر من الله تبارك وتعالى، ففي الحديث: "ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ؟ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟" فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مَرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَلَلَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ".

وهكذا المرأة الصالحة تستجيب لأمر الله، على قضائه، وتعين زوجها على طاعة الله تعالى.

٣- إبراهيم يترك زوجته الوفية، وولده الصغير في الوادي بعد أن زودهم بكيس من التمر، وسقاء فيه ماء، ثم دعا لهم: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادي غير ذي زرع عند بيتك المحرم). وبذلك يعلمنا إبراهيم عليه السلام أن نجمع بين الدعاء والأخذ بالأسباب.

٤- أن الله تعالى سنّ للحجاج والمعتمرين أن يسعوا بين الصفا والمروة لكي يتذكروا ما جرى لأمرهم هاجر، فصار ذلك الفعل منسكاً إلى يوم القيامة يتعبد ويتقرب به إلى الله تبارك وتعالى.

٥- أم إسماعيل تبحث عن الماء عندما نفذ من عندها، وتأخذ بالأسباب وتسعى بين الصفا والمروة عدة مرات حتى يسر الله تعالى لها ولولدها الماء (زمزم).

٦- أن الله تبارك وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، حيث إن إبراهيم ترك أهله في مكة امتثالاً لربه تعالى، ومؤمناً به ومتوكلاً عليه، ولا يوجد يومئذ هناك أحد من بني آدم غيرهم، فلم يضيع الله أهله، بل رزقهم من عنده، وأجرى لهم بئر زمزم ماءً مباركاً يستقي منه الناس إلى اليوم، وجاء بأناس من قبيلة جرهم لكي يسكنوا معهم فيأنسون بهم، وتذهب وحشتهم.

٧- يجوز للإنسان أن يطلب الغوث والعون من غيره فيما يقدر عليه كما فعلت أم إسماعيل

٨- إن الله اصطفى آل إبراهيم، وجعل من ذريته الأنبياء والمرسلين، فكيف يرضى إبراهيم لولده إسماعيل بزوجة لا تحيا بروحها، بل تعيش لجسدها، ولا يهتمها إلا الطعام والشراب، فتزدرى ضيفها أبا زوجها، فتجحد نعمة رها، وتشكو سوء معيشتها، لذلك أشار إبراهيم على ولده إسماعيل بفراقها، والتخلص منها.

٩- الزوجة الثانية لإسماعيل صالحة، تحترم ضيفها، وتشكر نعمة ربها، لذلك يشير إبراهيم على ولده إسماعيل بإمساكها ورعايتها.

١٠- الطاعة والصبر لهما عاقبة محمودة، وذكرى خالدة، فالمكان الموحش الذي نزلت فيه هاجر أم إسماعيل، وهو مجذب يصبح فيما بعد حرماً آمناً، وبلداً مسكوناً، فيه ماء مبارك (زمزم) تهوي إليه أفئدة الناس، وتأتية الثمرات، وتقصده الوفود للحج من كل فج عميق، ليشهدوا المنافع الدنيوية والآخروية.

١١- أن التربية الحسنة لها أثر كبير في صلاح الأولاد - بعد توفيق الله تبارك وتعالى - وقد تجلّى هذا في امتثال إسماعيل أوامر أبيه إبراهيم - عليهما السلام-؛ في طلاق زوجته، وفي إعانته على بناء الكعبة، وقبل ذلك حين قال له أبوه: ((يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)) [الصافات: ١٠٢].

١٢- مشروعية سؤال الله تعالى قبول الأعمال الصالحة فقد بنى إبراهيم الكعبة بيديه وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يدعوان الله تبارك وتعالى أن يتقبل منهما، قال عز وجل: ((وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)) [البقرة: ١٢٧-١٢٨]. فتقبل الله منهم هذا الدعاء ورفع شأنهم، وأعلى منزلتهم.^{٣٥}



قصة الأعمى والأقرع والأبرص

عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، حَدَّثَهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، ح وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَجَاءٍ، أَخْبَرَنَا هَمَّامٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَمْرَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَدَّثَهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: " إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، بَدَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، وَقَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ، - أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ، هُوَ شَكٌّ فِي ذَلِكَ: إِنَّ الْأَبْرَصَ، وَالْأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا الْإِبِلُ، وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ -، فَأُعْطِيَ نَاقَةً عَشْرَاءَ، فَقَالَ: يُبَارِكُ لَكَ فِيهَا وَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا، قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، قَالَ: فَأَعْطَاهُ بَقْرَةً حَامِلًا، وَقَالَ: يُبَارِكُ لَكَ فِيهَا، وَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَردَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ: فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا، فَأُتِنِحَ هَذَانِ وَوُلِدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٌ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٌ مِنْ بَقَرٍ، وَلِهَذَا وَادٌ مِنْ غَنَمٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مَسْكِينٌ، تَقَطَّعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ الْوَنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبْلُغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ [ص: ١٧٢] لَهُ: إِنَّ الْحَقَّ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدُرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِثْلُ مَا قَالَ لِهَذَا، فَردَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَردَّ اللَّهُ بَصَرِي، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ، فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ " ٣٦

شرح المفردات: ٣٧

٣٦ - صحيح البخاري (٤/ ١٧١) (٣٤٦٤) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٥) ١٠ - (٢٩٦٤)

٣٧ - ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ٦/ ٥٠٢-٥٠٣.

(بَدَأَ لِلَّهِ): بِتَخْفِيفِ الدَّالِ الْمُهْمَلَةِ بِغَيْرِ هَمْزٍ، أَي: سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ فَأَرَادَ إِظْهَارَهُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ ظَهَرَ لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ خَافِيًا لِأَنَّ ذَلِكَ مُحَالٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

(قَدَرَنِي النَّاسُ): بِفَتْحِ الْقَافِ وَالدَّالِ الْمُعْجَمَةِ الْمَكْسُورَةِ أَي: اسْتَأْزَمُوا مِنْ رُؤْيِي.

(فَمَسَحَهُ): أَي: مَسَحَ عَلَى جِسْمِهِ.

(فَأَعْطَى نَاقَةَ عُشْرَاءَ): أَي: الَّذِي تَمَنَّى الْإِبِلَ، وَالْعُشْرَاءُ بِضَمِّ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَفَتْحِ الشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ مَعَ الْمَدِّ هِيَ الْحَامِلُ الَّتِي أَتَى عَلَيْهَا فِي حَمْلِهَا عَشْرَةَ أَشْهُرٍ مِنْ يَوْمِ طَرَفِهَا الْفَحْلَ، وَقِيلَ: يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَلِدَ وَبَعْدَ مَا تَضَعُ، وَهِيَ مِنْ أَنْفَسِ الْمَالِ.

(فَمَسَحَهُ): أَي: مَسَحَ عَلَى عَيْنَيْهِ.

(شَاةٌ وَالدَّاءُ): أَي: ذَاتُ وَلَدٍ، وَيُقَالُ: حَامِلٌ.

(فَأَنْتَجَ هَذَانِ): أَي: صَاحِبِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ.

(وَوَلَدَ هَذَا): أَي: صَاحِبِ الشَّاةِ، وَهُوَ بِتَشْدِيدِ اللَّامِ.

(ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ): أَي: فِي الصُّورَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا لَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ وَهُوَ أَبْرَصٌ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ.

(تَقَطَّعَتْ بِهِ الْحَبَالُ فِي سَفَرِهِ): الْحَبَالُ بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ بَعْدَهَا مُوَحَّدَةٌ خَفِيفَةٌ جَمَعَ حَبْلٌ، أَي: الْأَسْبَابُ الَّتِي يَقْطَعُهَا فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَقِيلَ: الْعَبَّاتُ، وَقِيلَ: الْحَبْلُ؛ هُوَ الْمُسْتَطِيلُ مِنَ الرَّمْلِ.

(رَجُلٌ مِسْكِينٌ): قَالَ ابْنُ التَّيْنِ: قَوْلُ الْمَلِكِ لَهُ " رَجُلٌ مِسْكِينٌ إِنْخ " أَرَادَ أَنَّكَ كُنْتَ هَكَذَا، وَهُوَ مِنَ الْمَعَارِضِ، وَالْمُرَادُ بِهِ ضَرْبُ الْمَثَلِ لِيَتَّقِظَ الْمُخَاطَبُ.

(أَتَبَلَّغَ عَلَيْهِ): بِالْعَيْنِ الْمُعْجَمَةِ مِنَ الْبُلْغَةِ، وَهِيَ الْكِفَايَةُ. وَالْمَعْنَى: أَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى مُرَادِي.

(لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ): فِي رِوَايَةِ الْكُشَمِيهَنِيِّ " كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ " وَفِي رِوَايَةِ شَيْبَانَ " إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ " أَي: كَبِيرٌ عَنْ كَبِيرٍ فِي الْعِزِّ وَالشَّرَفِ.

(فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ) أَوْرَدَهُ بِلَفْظِ الْفِعْلِ الْمَاضِي لِأَنَّهُ أَرَادَ الْمُبَالَغَةَ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِ.

(لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ) وَالْمَعْنَى: لَا أَحْمَدُكَ عَلَى تَرْكِ شَيْءٍ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَالِي، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ وَلَيْسَ عَلَى طُولِ الْحَيَاةِ تَنْدُمٌ، أَي: فَوْتُ طُولِ الْحَيَاةِ، وَفِي رِوَايَةِ كَرِيمَةَ وَأَكْثَرِ رِوَايَاتِ مُسْلِمٍ " لَا أَجْهَدُكَ " بِالْجِيمِ وَالْهَاءِ، أَي: لَا أَشُقُّ عَلَيْكَ فِي رَدِّ شَيْءٍ تَطْلُبُهُ مِنِّي أَوْ تَأْخُذُهُ.

(فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ): أَي: أُمْتَحِنْتُمْ.

من فوائد الحديث:

١ - اختبار الله لعباده، وامتحانه لهم ليتبين الصادق من الكاذب.

٢ - أن الابتلاء يكون في النفس والمال والأولاد وغيرها .

٣ - لا شيء أحب للمبتلى بالمرض من ذهاب مرضه ومعافاته .

٤- أن الله تعالى هو الذي يعطي ويمنع ، ويغني ويفقر ، بتقديره وحكمته، فعلى المسلم أن يعلق قلبه بالله تعالى فلا يخاف إلا منه ولا يرجو إلا إياه.

٥- من التوحيد والأدب أن تنسب الشفاء والغنى إلى الله وحده (قد كنت أعمى فرد الله بصري).

٦- الإنسان الجاهل يبخل وقت الغنى ، والعاقل يعطي بسخاء متذكراً ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا " ٣٨.

٧- بعض الأغنياء ينسون ماضيهم وأيام بؤسهم وفقرهم ويغضبون ممن يذكرهم به، مع ما فيه من الخير لهم بتذكر نعمة الله تعالى والزيادة في شكرها .

٨- من شكر النعمة، وأعطى الفقراء زاده الله غنى ، وبارك له ، ومن بخل فقد عرض نفسه لزوال النعمة وسخط الرب القائل : (لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) [سورة إبراهيم: ٧].

٩- الكرم وبذل الحقوق الواجبة يجلب النعمة ويذهب بالنقمة ، ويرضي الرب ، والبخل ومنع الحقوق الواجبة يجلب السوء ويسخط الرب كما قال تعالى: (هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) [سورة محمد: ٣٨].

١٠- وفي الحديث جواز ذكر ما اتفق لمن مضى ليتعظ به من سمعه ولا يكون ذلك غيبة فيهم، ولعل هذا هو السر في ترك تسميتهم، ولم يفصح بما اتفق لهم بعد ذلك، والذي يظهر أن الأمر فيهم وقع كما قال المملك.

١١- وفيه التحذير من كُفران النعم والترغيب في شكرها والإعتراف بها وحمد الله عليها.

١٢- وفيه فضل الصدقة والحث على الرفق بالضعفاء ، وإكرامهم وتبليغهم ما يطلبون مما يمكن ، والحد من كسر قلوبهم واحتقارهم .

١٣- وفيه الزجر عن البخل، لأنه حمل صاحبه على الكذب، وعلى جحد نعمة الله تعالى ٣٩.

٣٨ - صحيح البخاري (١١٥/٢) (١٤٤٢) وصحيح مسلم (٧٠٠/٢) ٥٧ - (١٠١٠)

[ش (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان) ما من يوم يعني ليس من يوم وكلمة من زائدة ويوم اسمه وقوله يصبح العباد فيه صفة يوم وقوله إلا ملكان مستثنى من متعلق محذوف وهو خبر ما والمعنى ليس يوم موصوف بهذا الوصف ينزل فيه أحد إلا ملكان يقولان كيت وكيت (أعط منفقاً خلفاً) قال العلماء هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيقات والصدقات ونحو ذلك بحيث لا يذم ولا يسمى سرفاً والإمسك المذموم هو الإمساك عن هذا]

٣٩ - ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ٦/ ٥٠٣.

١٤- لا يُعَدُّ الْمَلِكُ كَاذِبًا عِنْدَمَا ادَّعَى أَنَّهُ رَجُلٌ مُسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِهِ الْحَبَالُ فِي سَفَرِهِ ؛ لِأَن قَوْلَ الْمَلِكِ لِلْأَبْرَصِ: « رَجُلٌ مُسْكِينٌ » أَرَادَ أَنَّكَ كُنْتَ هَكَذَا ، وَهُوَ مِنَ الْمَعَارِضِ وَالْمُرَادِ بِهِ ضَرْبُ الْمَثَلِ.

١٥- كَثْرَةُ الْمَالِ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى حُبِّ اللَّهِ لِلْعَبْدِ ، بَلْ هِيَ اخْتِبَارٌ كَمَا حَدَّثَ مَعَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ.

١٦- قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى شِفَاءِ الْأَمْرَاضِ الْمُسْتَعْصِيَةِ كَالْعَمَى وَالْبَرَصِ وَالْقَرَعِ.

١٧- الْمَلَائِكَةُ تَتَصَوَّرُ أحيانًا عَلَى هَيْئَةِ الْبَشَرِ ، وَتَتَكَلَّمُ ، وَتَمْسَحُ عَلَى الْمَرِيضِ فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ .

١٨- إِنْكَارُ النِّعْمَةِ يَجْلِبُ النِّقْمَةَ ، وَيَسَبِّبُ الشَّقَاءَ .

١٩- الْمُؤْمِنُ يَفِي بِمَا وَعَدَ وَلَا يَخُلُ ، وَالْمُنَافِقُ يَعَاهِدُ وَيَعِدُ ، وَلَكِنْ لَا يَفِي بِعَهْدِهِ وَوَعْدِهِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ : { وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) } [التوبة: ٧٥ - ٧٨] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِيَ خَانَ "٤٠ .



٤٠- صحيح البخاري (١/ ١٦) (٣٣) وصحيح مسلم (١/ ٧٨) ١٠٧ - (٥٩)

[ش (آية) علامة. (كذب) أخبر بخلاف الحقيقة قصدا. (اخلف) لم يف بوعده]

:

انظر

قصة أم زرع

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَخْبَارِ أزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا، قَالَتِ الْأُولَى: زَوْجِي لَحْمٌ جَمَلٌ غَثٌّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ: لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى وَلَا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلُ، قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أَبْتُ خَبْرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرُهُ، إِنْ أَذْكُرُهُ أَذْكُرْ عَجْرَهُ وَبُجْرَهُ، قَالَتِ الثَّلَاثَةُ: زَوْجِي الْعَشَنُّ، إِنْ أَنْطَقَ أُطْلُقْ وَإِنْ أَسْكُتَ أُعَلِّقْ، قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلِيلُ تَهَامَةٍ، لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ، وَلَا مَخَافَةٌ وَلَا سَامَةٌ، قَالَتِ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهَدَى، وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ، قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفٌ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَى، وَإِنْ اضْطَجَعَ التَّفَّ، وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ. قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَايَاءُ - أَوْ عَيَايَاءُ - طَبَاقَاءُ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَّكَ أَوْ فَلَكَ أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكَ، قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْتَبٍ، وَالرَّيْحُ رِيحُ زَرْبٍ، قَالَتِ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ النَّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ، قَالَتِ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمَرْهَرِ، أَتَقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكٌ، قَالَتِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ، أَنَسَ مِنْ حُلِيِّ أُذُنِي، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمِ عَضُدِي، وَبَجَحَنِي فَبَجَحَتِ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةِ بِشَقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ، وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَفْتَحُ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، عُكُومُهَا رَدَاحٌ، وَيَنْثُهَا فَسَاحٌ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، مَضْجَعُهُ كَمَسَلٍ شَطْبَةٍ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارَتِهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، لَا تَبْتُ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا، وَلَا تُنْقِثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا، قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَوْطَابُ ثُمَخَضُ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ [ص: ٢٨]، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَانَتَيْنِ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِيًّا، وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةِ زَوْجًا، وَقَالَ: كُلِّي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكَ، قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ، مَا بَلَغَ أَصْغَرُ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لَأُمِّ زَرْعٍ»^{٤١}

شرح المفردات: ٤٢

(لَحْمٌ جَمَلٌ غَثٌّ): الْمُرَادُ بِالْغَثِّ الْمَهْزُولِ.

٤١ - صحيح البخاري (٢٧/٧) (٥١٨٩) وصحيح مسلم (٤/١٨٩٦) ٩٢ - (٢٤٤٨)

٤٢ - ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ١٥/٢١٣-٢٢١.

(عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَغَرٍّ) أَي: صَعِبُ الْوُصُولِ إِلَيْهِ. فَالْمَعْنَى أَنَّهُ قَلِيلُ الْخَيْرِ مِنْ أَوْجُهٍ: مِنْهَا كَوْنُهُ كَلْحَمٍ لَا كَلْحَمِ الضَّانِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ غَثٌّ مَهْزُولٌ رَدِيءٌ، وَمِنْهَا أَنَّهُ صَعِبُ التَّنَاضُلِ لَا يُوصَلُ إِلَيْهِ لَا بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ.

(عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ): أَي: يَتَرَفَّعُ، وَيَتَكَبَّرُ، وَيَسْمُو بِنَفْسِهِ فَوْقَ مَوْضِعِهَا كَثِيرًا، أَي: أَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى قَلَّةٍ خَيْرِهِ تَكْبِيرَهُ وَسُوءَ الْخُلُقِ.

(وَلَا سَمِينَ فَيَنْتَقِلُ) أَي: تَنْقُلُهُ النَّاسُ إِلَى بُيُوتِهِمْ لِيَأْكُلُوهُ، بَلْ يَتْرُكُوهُ رَغْبَةً عَنْهُ لِرَدَائَتِهِ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: لَيْسَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ يَحْتَمِلُ سُوءَ عَشْرَتِهِ بِسَبَبِهَا. (لَا أَبْثُ حَبْرَهُ) أَي: لَا أَنْشُرُهُ وَأُشِيعُهُ.

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرَهُ): فِيهِ تَأْوِيلَانِ أَحَدُهُمَا لِابْنِ السَّكَيْتِ وَغَيْرِهِ: أَنَّ الْهَاءَ عَائِدَةٌ عَلَى حَبْرِهِ، فَالْمَعْنَى أَنَّ حَبْرَهُ طَوِيلٌ إِنْ شَرَعْتَ فِي تَفْصِيلِهِ لَا أَقْدِرُ عَلَى إِيْمَامِهِ لِكَثْرَتِهِ. وَالثَّانِيَةُ أَنَّ الْهَاءَ عَائِدَةٌ عَلَى الزَّوْجِ، وَتَكُونُ (لَا) زَائِدَةٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ) وَمَعْنَاهُ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُطَلَّقَنِي فَأَذَرَهُ.

(عُجْرَهُ وَبُجْرَهُ): فَالْمُرَادُ بِهِمَا عُيُوبُهُ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ: أَرَادَتْ بِهِمَا عُيُوبُهُ الْبَاطِنَةَ، وَأَسْرَارَهُ الْكَامِنَةَ.

وَأَصْلُ الْعُجْرِ: أَنْ يَعْتَقِدَ الْعَصَبُ أَوْ الْعُرُوقُ حَتَّى تَرَاهَا نَاتِيَةً مِنَ الْحَسَدِ. وَالْبُجْرُ: نَحْوَهَا لَا أَنَّهَا فِي الْبَطْنِ خَاصَّةً، وَاحِدَتُهَا بُجْرَةٌ، وَمِنْهُ قِيلَ: رَجُلٌ أَبْجَرُ إِذَا كَانَ نَاتِي السُّرَّةِ عَظِيمَتِهَا، وَيُقَالُ أَيْضًا: رَجُلٌ أَبْجَرُ إِذَا كَانَ عَظِيمَ الْبَطْنِ، وَامْرَأَةٌ بَجْرَاءُ وَالْجَمْعُ بُجْرٌ. (فَالْعَشَنُّ): بَعَيْنٌ مُهْمَلَةٌ مَفْتُوحَةٌ ثُمَّ شَيْنٌ مُعْجَمَةٌ مَفْتُوحَةٌ ثُمَّ ثُونٌ مُشَدَّدَةٌ ثُمَّ قَافٌ، وَهُوَ الطَّوِيلُ، وَمَعْنَاهُ: لَيْسَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ طَوْلٍ بِلَا نَفْعٍ، فَإِنْ ذَكَرْتَ عُيُوبَهُ طَلَّقَنِي، وَإِنْ سَكَتَ عَنْهَا عَلَّقَنِي، فَتَرَكَنِي لَا عَزَبَاءَ وَلَا مُزَوَّجَةً.

(زَوْجِي كَلِيلٌ تَهَامَةٌ لَا حَرَ وَلَا قَرًّا، وَلَا مَخَافَةً وَلَا سَامَةً): هَذَا مَذْحُ بَلِيغٌ، وَمَعْنَاهُ: لَيْسَ فِيهِ أَدَى، بَلْ هُوَ رَاحَةٌ وَلَذَاذَةٌ عَيْشٍ، كَلِيلٌ تَهَامَةٌ لَذِيذٌ مُعْتَدِلٌ، لَيْسَ فِيهِ حَرٌّ، وَلَا بَرْدٌ مُفْرِطٌ، وَلَا أَخَافُ لَهُ غَائِلَةً لِكَرَمِ أَخْلَاقِهِ، وَلَا يَسْأَمُنِي وَيَمَلُّ صُحْبَتِي.

(زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فِهْدٌ، وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهْدُ) هَذَا أَيْضًا مَذْحُ بَلِيغٌ، فَقَوْلُهَا: فَهْدٌ بَفَتْحِ الْفَاءِ وَكَسْرِ الْهَاءِ تَصِفُهُ إِذَا دَخَلَ الْبَيْتَ بِكَثْرَةِ النَّوْمِ وَالْعَفْلَةِ فِي مَنْزِلِهِ عَنْ تَعَهُدِّ مَا ذَهَبَ مِنْ مَتَاعِهِ وَمَا بَقِيَ، وَشَبَّهَتْهُ بِالْفِهْدِ لِكَثْرَةِ نَوْمِهِ، يُقَالُ: أَنْوَمَ مِنْ فَهْدٍ.

(وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهْدُ): أَي: لَا يَسْأَلُ عَمَّا كَانَ عَهْدُهُ فِي الْبَيْتِ مِنْ مَالِهِ وَمَتَاعِهِ، وَإِذَا خَرَجَ أَسَدٌ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ السَّيْنِ، وَهُوَ وَصْفٌ لَهُ بِالشَّجَاعَةِ، وَمَعْنَاهُ: إِذَا صَارَ بَيْنَ النَّاسِ أَوْ خَالَطَ الْحَرْبَ كَانَ كَالْأَسَدِ، يُقَالُ: أَسَدٌ وَاسْتَأْسَدَ.

قَالَ الْقَاضِي: وَقَالَ ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ: مَعْنَى فَهَدَ إِذَا دَخَلَ الْبَيْتَ وَتَبَّ عَلَى وَثُوبِ الْفَهْدِ فَكَأَنَّهَا تُرِيدُ
 ضَرْبَهَا، وَالْمُبَادَرَةَ بِجَمَاعِهَا، وَالصَّحِيحَ الْمَشْهُورَ التَّفْسِيرَ الْأَوَّلَ.
 (الْلَفَّ): فِي الطَّعَامِ الْإِكْثَارُ مِنْهُ مَعَ التَّخْلِيطِ مِنْ صُنُوفِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ.
 (وَالِاشْتِفَافُ): فِي الشُّرْبِ أَنْ يَسْتَوْعِبَ جَمِيعَ مَا فِي الْإِنَاءِ، مَأْخُودٌ مِنَ الشُّفَافَةِ بِضَمِّ الشَّيْنِ، وَهِيَ مَا
 بَقِيَ فِي الْإِنَاءِ مِنَ الشَّرَابِ، فَإِذَا شَرِبَهَا قِيلَ: اشْتَفَفَهَا، وَتَشَافَهَا.
 (وَلَا يُوَلِّجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثُّ): قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: أَحْسَبُهُ كَانَ بِجَسَدِهَا عَيْبٌ أَوْ دَاءٌ كُنْتُ بِهِ، لِأَنَّ الْبَثَّ
 الْحُزْنَ، فَكَانَ لَا يُدْخِلُ يَدَهُ فِي ثَوْبِهَا لِيَمَسَّ ذَلِكَ فَيَشُقَّ عَلَيْهَا، فَوَصَفَتْهُ بِالْمُرُوءَةِ وَكَرَمِ الْخُلُقِ.
 وَقَالَ الْهَرَوِيُّ: قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: هَذَا دَمٌ لَهُ، أَرَادَتْ: وَإِنْ اضْطَجَعَ وَرَقَدَ التَّفَّ فِي ثِيَابِهِ فِي نَاحِيَةٍ،
 وَلَمْ يُضَاجِعْنِي لِيَعْلَمْ مَا عِنْدِي مِنْ مَحِيَّتِهِ. قَالَ: وَلَا بَثَّ هُنَاكَ لَا مَحَبَّتَهَا الدُّنُو مِنْ زَوْجِهَا.
 وَقَالَ آخَرُونَ: أَرَادَتْ أَنَّهُ لَا يَفْتَقِدُ أُمُورِي وَمَصَالِحِي.
 (عَيَايَاءَ) بِالْمُهْمَلَةِ، وَفِي أَكْثَرِ الرُّوَايَاتِ بِالْمُعْجَمَةِ، وَأَنْكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُ الْمُعْجَمَةَ، وَقَالُوا:
 الصَّوَابُ الْمُهْمَلَةُ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُلْقَحُ.
 وَقِيلَ: هُوَ الْعَيْنُ الَّذِي تَعِيْبُهُ مُبَاضَعَةُ النِّسَاءِ، وَيَعْجَزُ عَنْهَا.
 (عَيَايَاءَ) بِالْعَيْنِ الْمُعْجَمَةِ؛ مِنَ الْعَيِّ، وَهُوَ الْإِنْهَمَاكُ فِي الشَّرِّ، أَوْ مِنَ الْعَيِّ الَّذِي هُوَ الْخِيْبَةُ. قَالَ اللَّهُ
 تَعَالَى: (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا).
 (طَبَاقًا) فَمَعْنَاهُ: الْمُطَبَّقَةُ عَلَيْهِ أُمُورُهُ حُمَقًا.
 وَقِيلَ: الَّذِي يَعْجَزُ عَنِ الْكَلَامِ، فَتَنْطَبِقُ شَفَتَاهُ.
 وَقِيلَ: هُوَ الْعَيِّ الْأَحْمَقُ الْفَدَمُ.
 (شَجَّكَ) أَي: جَرَحَكَ فِي الرَّأْسِ، فَالشَّجَاجُ جِرَاحَاتُ الرَّأْسِ، وَالْجِرَاحُ فِيهِ وَفِي الْجَسَدِ.
 (فَلَّكَ) الْفَلُّ الْكَسْرُ وَالضَّرْبُ.
 وَمَعْنَاهُ أَنَّهَا مَعَهُ بَيْنَ شَجِّ رَأْسٍ، وَضَرْبٍ، وَكَسْرٍ عُضْوٍ، أَوْ جَمْعٍ بَيْنَهُمَا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْفَلِّ هُنَا
 الْخُصُومَةُ.
 (كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ) أَي: جَمِيعُ أَدْوَاءِ النَّاسِ مُجْتَمِعَةٌ فِيهِ.
 (الزَّرْنَبُ): نَوْعٌ مِنَ الطَّيْبِ مَعْرُوفٌ. قِيلَ: أَرَادَتْ طِيبَ رِيحِ جَسَدِهِ.
 وَقِيلَ: طِيبَ ثِيَابِهِ فِي النَّاسِ.
 وَقِيلَ: لِيَنْ خُلُقُهُ وَحُسْنُ عَشْرَتِهِ.
 (وَالْمَسَّ مَسَّ أَرْتَبَ) صَرِيحٌ فِي لِيْنِ الْجَانِبِ، وَكَرَمِ الْخُلُقِ.
 (رَفِيعُ الْعِمَادِ): وَصَفَهُ بِالشَّرَفِ، وَسَاءَ الذِّكْرُ. وَأَصْلُ الْعِمَادِ عِمَادُ الْبَيْتِ، وَجَمَعَهُ عُمَدٌ، وَهِيَ
 الْعِيدَانِ الَّتِي تُعَمَدُ بِهَا الْبُيُوتُ، أَي: بَيْتُهُ فِي الْحَسَبِ رَفِيعٌ فِي قَوْمِهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ بَيْتَهُ الَّذِي يَسْكُنُهُ رَفِيعُ الْعِمَادِ لِيرَاهُ الضَّيْفَانِ وَأَصْحَابُ الْحَوَائِجِ فَيَقْصِدُوهُ، وَهَكَذَا يُبْسُوتُ الْأَجَوَادُ.

(طَوِيلُ النَّجَادِ): بِكَسْرِ النُّونِ تَصِفُهُ بِطُولِ الْقَامَةِ، وَالنَّجَادَ حَمَائِلَ السَّيْفِ، فَالطَّوِيلُ يَحْتَاجُ إِلَى طُولِ حَمَائِلِ سَيْفِهِ، وَالْعَرَبُ تَمْدَحُ بِذَلِكَ.

(عَظِيمُ الرَّمَادِ): تَصِفُهُ بِالْجُودِ وَكَثْرَةِ الضِّيَافَةِ مِنَ اللَّحُومِ وَالْخُبْزِ، فَيَكْثُرُ وَقُودُهُ، فَيَكْثُرُ رَمَادُهُ. وَقِيلَ: لِأَنَّ نَارَهُ لَا تُطْفَأُ بِاللَّيْلِ لِتَهْتَدِيَ بِهَا الضَّيْفَانِ، وَالْأَجَوَادُ يُعْظَمُونَ النَّيْرَانَ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ، وَيُوقِدُونَهَا عَلَى التَّلَالِ وَمَشَارِفِ الْأَرْضِ، وَيَرْفَعُونَ الْأَقْبَاسَ عَلَى الْأَيْدِي لِتَهْتَدِيَ بِهَا الضَّيْفَانِ.

(قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِي) قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: النَّادِي وَالنَّادِ وَالنَّادَى وَالْمُنْتَدَى مَجْلِسُ الْقَوْمِ، وَصَفَتْهُ بِالْكَرَمِ وَالسُّودْدِ، لِأَنَّهُ لَا يَقْرُبُ الْبَيْتَ مِنَ النَّادِي لَا مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ؛ لِأَنَّ الضَّيْفَانَ يَقْصِدُونَ النَّادِي، وَلِأَنَّ أَصْحَابَ النَّادِي يَأْخُذُونَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي مَجْلِسِهِمْ مِنْ بَيْتٍ قَرِيبٍ النَّادِي، وَاللُّثَامِ يَتَبَاعَدُونَ مِنَ النَّادِي.

(قَالَتِ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ، فَمَا مَالِكٌ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتٌ الْمَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ، إِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمَزْهَرِ أَتَيْنَ أَنَّهُنَّ هَوَالِكَ): مَعْنَاهُ: أَنَّ لَهُ إِبِلًا كَثِيرًا فَهِيَ بَارَكَةٌ بِفَنَائِهِ، لَا يُوجِّهُهَا تَسْرَحَ لَا قَلِيلًا قَدْرَ الضَّرُورَةِ، وَمُعْظَمُ أَوْقَاتِهَا تَكُونُ بَارَكَةً بِفَنَائِهِ، فَإِذَا نَزَلَ بِهِ الضَّيْفَانِ كَانَتْ لِأَبْلِ حَاضِرَةٍ؛ فَيَقْرِيبُهُمْ مِنْ أَلْبَانِهَا وَلُحُومِهَا.

(وَالْمَزْهَرُ): بِكَسْرِ الْمِيمِ الْعُودُ الَّذِي يَضْرِبُ، أَرَادَتْ أَنَّ زَوْجَهَا عَوَدَ إِلَيْهِ إِذَا نَزَلَ بِهِ الضَّيْفَانِ نَحَرَ لَهُمْ مِنْهَا، وَأَتَاهُمُ بِالْعِيدَانِ وَالْمَعَارِفِ وَالشَّرَابِ، فَإِذَا سَمِعَتْ لِأَبْلِ صَوْتَ الْمَزْهَرِ عَلِمْنَ أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُ الضَّيْفَانِ، وَأَنَّهُنَّ مَنَحُورَاتٌ هَوَالِكَ. هَذَا تَفْسِيرُ أَبِي عُبَيْدٍ وَالْجُمْهُورِ.

وَقِيلَ: مَبَارِكُهَا كَثِيرَةٌ لِكَثْرَةِ مَا يُنْحَرُ مِنْهَا لِلْأَضْيَافِ، قَالَ هُوَلَاءُ: وَلَوْ كَانَتْ كَمَا قَالَ لَأَوَلُّونَ لَمَاتَتْ هُزْلًا، وَهَذَا لَيْسَ بِإِلَازِمٍ؛ فَإِنَّهَا تَسْرَحُ وَقَدْ تَأْخُذُ فِيهِ حَاجَتَهَا، ثُمَّ تَبْرُكُ بِالْفَنَاءِ.

وَقِيلَ: كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ أَيْ مَبَارِكُهَا فِي الْحُقُوقِ وَالْعَطَايَا وَالْحِمَلَاتِ وَالضَّيْفَانِ كَثِيرَةٌ، مَرَاعِيهَا قَلِيلَةٌ؛ لِأَنَّهَا تُصَرَفُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ. قَالَهُ ابْنُ السَّكَيْتِ.

(أَنَاسٌ مِنْ حُلِيِّ أَذُنِي) هُوَ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ مِنْ (أَذُنِي) عَلَى التَّشْنِيعِ، وَالْحُلِيِّ بِضَمِّ الْحَاءِ وَكَسْرِهَا لُغَتَانِ مَشْهُورَتَانِ.

(وَالنُّوسُ) بِالثَّوْنِ وَالسَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ الْحَرَكَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُتَدَلٍّ، يُقَالُ مِنْهُ: نَاسٌ يَنْوَسُ نَوْسًا، وَأَنَاسُهُ غَيْرُهُ أَنَاسَةً، وَمَعْنَاهُ حَلَانِي قَرِطَةً وَشُنُوفًا فَهُوَ نَوْسٌ أَيْ تَتَحَرَّكُ لِكَثَرَتِهَا.

(وَمَلًا مِنْ شَحْمِ عَضْدِي) قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ أَسْمَنِي، وَمَلًا بَدَنِي شَحْمًا، وَلَمْ تُرِدْ اخْتِصَاصَ الْعَضْدَيْنِ، لَكِنْ إِذَا سَمِنَتَا سَمِنَ غَيْرُهُمَا.

(وَبَحَّحَنِي فَبَحَحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي) هُوَ بِتَشْدِيدِ جِيم (بَحَّحَنِي)، فَبَحَحَتْ بِكَسْرِ الْجِيم وَفَتْحَهَا لُعْتَانِ مَشْهُورَتَانِ، أَفْصَحُهُمَا الْكَسْرُ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْفَتْحُ ضَعِيفَةٌ، وَمَعْنَاهُ فَرَّحَنِي فَفَرَحْتُ، وَقَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ: وَعَظَّمَنِي فَعَظُمْتُ عِنْدَ نَفْسِي. يُقَالُ: فُلَانٌ يَتَبَحَّحُ بِكَذَا أَيْ: يَتَعَظَّمُ وَيَفْتَخِرُ.

(فِي غَنِيمَةٍ) فَبَضَمَ الْعَيْنَ تَصْغِيرَ الْغَنَمِ، أَرَادَتْ أَنْ أَهْلَهَا كَانُوا أَصْحَابَ غَنَمٍ لَا أَصْحَابَ خَيْلٍ وَإِبِلٍ؛ لِأَنَّ الصَّهِيلَ أَصْوَاتُ الْخَيْلِ، وَلَا طِيطَ أَصْوَاتُ الْإِبِلِ وَحَيْنِهَا، وَالْعَرَبُ لَا تَعْتَدُ بِأَصْحَابِ الْغَنَمِ، وَإِنَّمَا يَعْتَدُونَ بِأَهْلِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ.

(بِشَقِّ) أَيْ: بِشَظَفٍ مِنَ الْعَيْشِ وَجَهْدٍ.

(وَدَائِسٍ) هُوَ الَّذِي يَدُوسُ الزَّرْعَ فِي بَيْدَرِهِ.

(وَمُنَقٍّ) هُوَ بَضَمُ الْمِيمِ وَفَتْحُ النُّونِ وَتَشْدِيدُ الْقَافِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الَّذِي يُنْقِي الطَّعَامَ أَيْ: يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ وَقُشُورِهِ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ صَاحِبُ زَرْعٍ، وَيَدُوسُهُ وَيُنْقِيهِ.

(فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ) مَعْنَاهُ لَا يُقْبَحُ قَوْلِي فَيُرَدُّ، بَلْ يَقْبَلُ مِنِّي.

(أَتَصَبَّحُ) مَعْنَاهُ: أَنَامَ الصُّبْحَةَ، وَهِيَ بَعْدُ الصَّبَاحِ، أَيْ أَنَّهَا مَكْفِيَةٌ بِمَنْ يَخْدُمُهَا فَتَنَامَ.

(فَأَتَفَنَّحَ) بِالنُّونِ بَعْدَ الْقَافِ، مَعْنَاهُ أُرَوِّى حَتَّى أَدَعَ الشَّرَابَ مِنَ الشَّدَّةِ الرَّيِّ، وَمِنْهُ قَمَحَ الْبَعِيرُ يَقْمَحُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الْمَاءِ بَعْدَ الرَّيِّ، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَلَا أَرَاهَا قَالَتْ هَذِهِ لَا لِعِزَّةِ الْمَاءِ عِنْدَهُمْ.

(عُكُومُهَا): الْعُكُومُ لِأَعْدَالٍ وَلَا وُعِيَةٍ الَّتِي فِيهَا الطَّعَامُ وَلَا مَتْعَةً، وَاحِدُهَا عَكْمٌ بِكَسْرِ الْعَيْنِ.

(وَرَدَّاحٍ) أَيْ: عِظَامٌ كَبِيرَةٌ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْمَرْأَةِ: رَدَّاحٌ إِذَا كَانَتْ عَظِيمَةً لِأَكْفَالٍ. فَإِنْ قِيلَ: رَدَّاحٌ مُفْرَدَةٌ، فَكَيْفَ وَصَفَ بِهَا الْعُكُومَ، وَالْجَمْعُ لَا يَجُوزُ وَصْفُهُ بِالْمُفْرَدِ: قَالَ الْقَاضِي: جَوَابُهُ أَنَّهُ أَرَادَ كُلَّ عَكْمٍ مِنْهَا رَدَّاحٌ، أَوْ يَكُونُ رَدَّاحٌ هُنَا مَصْدَرًا كَالذَّهَابِ.

(وَيَبِيئُهَا فَسَاحٌ) بِفَتْحِ الْفَاءِ وَتَخْفِيفِ السَّيْنِ الْمُهِمْلَةِ، أَيْ: وَاسِعٌ، وَالْفَسِيحُ مِثْلُهُ، هَكَذَا فَسَّرَهُ الْجُمْهُورُ. قَالَ الْقَاضِي: وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا أَرَادَتْ كَثْرَةَ الْخَيْرِ وَالنَّعْمَةِ.

(مَضْجَعُهُ كَمَسَلٍ شَطْبَةٍ) الْمَسَلُّ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَالسَّيْنِ الْمُهِمْلَةِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ.

(شَطْبَةٍ) بِشَيْنٍ مُعْجَمَةٍ ثُمَّ طَاءَ مُهِمْلَةً سَاكِنَةً ثُمَّ مَوْحَدَةً ثُمَّ هَاءٌ، وَهِيَ مَا شُطِبَ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ، أَيْ شَقٌّ، وَهِيَ السَّعْفَةُ لِأَنَّ الْجَرِيدَةَ تُشَقَّقُ مِنْهَا قُضْبَانٌ رِقَاقٌ، مُرَادُهَا: أَنَّهُ مُهَفَّهٌ خَفِيفَ اللَّحْمِ كَالشَّطْبَةِ، وَهُوَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ الرَّجُلُ.

(الْمَسَلُّ) هُنَا مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَسْلُوقِ، أَيْ: مَا سُئِلَ مِنْ قِشْرِهِ، وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ وَغَيْرُهُ: أَرَادَتْ بِقَوْلِهَا: (كَمَسَلٍ شَطْبَةٍ) أَنَّهُ كَالسَّيْفِ سُلٌّ مِنْ غِمْدِهِ.

(وَتُسْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ) الذِّرَاعُ مُؤَنَّثَةٌ، وَقَدْ تُذَكَّرُ، وَالْجَفْرَةُ بِفَتْحِ الْجِيمِ وَهِيَ لِأُنْثَى مِنْ أَوْلَادِ الْمَعْرِ، وَقِيلَ: مِنَ الصَّانِ، وَهِيَ مَا بَلَغَتْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَفُصِّلَتْ عَنْ أُمِّهَا، وَالذَّكْرُ جَفْرٌ؛ لِأَنَّهُ جَفَرَ جَنْبَاهُ، أَيْ: عَظَّمَا.

وَالْمُرَادُ أَنَّهُ قَلِيلٌ لِأَكْلِ، وَالْعَرَبُ تَمْدَحُ بِهِ.

(طَوَّعَ أَبْيَهَا وَطَوَّعَ أُمَّهَا) أَي: مُطِيعَةً لَهُمَا مُنْقَادَةً لَأَمْرِهِمَا.

(وَمِلْءُ كِسَائِهَا) أَي: مُمْتَلِئَةُ الْجِسْمِ سَمِينَةً. وَقَالَتْ فِي الرَّوَايَةِ لِأُخْرَى: (صِفَرِ رِدَائِهَا) بِكَسْرِ الصَّادِ، وَالصَّفَرُ الْخَالِي، قَالَ الْهَرَوِيُّ: أَي: ضَامِرَةُ الْبَطْنِ، وَالرِّدَاءُ يَنْتَهِي إِلَى الْبَطْنِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: مَعْنَاهُ أَنَّهَا خَفِيفَةٌ أَعْلَى الْبَدَنِ، وَهُوَ مَوْضِعُ الرِّدَاءِ، مُمْتَلِئَةٌ أَسْفَلَهُ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْكِسَاءِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّهُ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ: (وَمِلْءُ إِزَارِهَا). قَالَ الْقَاضِي: وَلَأَوَّلَى أَنَّ الْمُرَادَ امْتِلَاءَ مَنْكِبَيْهَا، وَقِيَامَ نَهْدَيْهَا بِحَيْثُ يَرْفَعَانِ الرِّدَاءَ عَنْ أَعْلَى جَسَدِهَا، فَلَا يَمَسُّهُ فَيَصِيرُ خَالِيًا بِخِلَافِ أَسْفَلِهَا.

(وَعَظِظَ جَارَتُهَا) قَالُوا: الْمُرَادُ بِجَارَتِهَا ضَرَّتُهَا، يَغِظُهَا مَا تَرَى مِنْ حَسَنَتِهَا وَجَمَالِهَا وَعِفَّتِهَا وَأَدَبِهَا. (لَا تَبْتُ حَدِيثَنَا تَبْثِيًا) هُوَ بِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ بَيْنَ الْمُثَنَاءِ وَالْمُثَلَّةِ أَيْ لَا تُشِيعُهُ وَتُظْهِرُهُ، بَلْ تَكْتُمُ سِرَّنَا وَحَدِيثَنَا كُلَّهُ.

(وَلَا تُنْقِثُ مِيرَتَنَا تَنْقِثًا) الْمِيرَةُ الطَّعَامُ الْمَجْلُوبُ، وَمَعْنَاهُ لَا تُفْسِدُ، وَلَا تَذْهَبُ بِهِ وَمَعْنَاهُ وَصَفُهَا بِالْأَمَانَةِ.

(وَلَا تَمَلَا بَيْتَنَا تَعْشِيشًا) هُوَ بِالْعَيْنِ بِالْمُهْمَلَةِ، أَيْ لَا تَتْرُكُ الْكُنَاسَةَ وَالْقِمَامَةَ فِيهِ مُفَرِّقَةً كَعْشِ الطَّائِرِ، بَلْ هِيَ مُصْلِحَةٌ لِلْبَيْتِ، مُعْتَنِيَةٌ بِتَنْظِيفِهِ.

(وَلَا وَطَابَ تُمَخَضُ) هُوَ جَمْعٌ وَطَبٌ بِفَتْحِ الْوَاوِ وَإِسْكَانِ الطَّاءِ، وَهُوَ جَمْعٌ قَلِيلُ النَّظِيرِ. وَفِي رِوَايَةٍ فِي غَيْرِ مُسْلِمٍ: (وَالْوَطَابُ)، وَهُوَ الْجَمْعُ لِأَصْلِي، وَهِيَ سَقِيَّةُ اللَّبَنِ الَّتِي يُمَخَضُ فِيهَا. (يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَانَتَيْنِ) قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مَعْنَاهُ أَنَّهَا ذَاتُ كَفَلٍ عَظِيمٍ، فَإِذَا اسْتَلَقَتْ عَلَى قَفَاهَا نَتَأَ الْكَفَلُ بِهَا مِنْ الْأَرْضِ حَتَّى تَصِيرَ تَحْتَهَا فَجَوْهَةٌ يَجْرِي فِيهَا الرُّمَانُ.

قَالَ الْقَاضِي: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ بِالرُّمَانَتَيْنِ هُنَا ثَدْيَاهَا، وَمَعْنَاهُ أَنَّ لَهَا نَهْدَيْنِ حَسَنَيْنِ صَغِيرَيْنِ كَالرُّمَانَتَيْنِ. قَالَ الْقَاضِي: هَذَا أَرْجَحُ لَا سِيَّمَا وَقَدْ رُوِيَ: مِنْ تَحْتِ صَدْرِهَا، وَمِنْ تَحْتِ دِرْعِهَا، وَلِأَنَّ الْعَادَةَ لَمْ تَجْرِ بِرُمِي الصَّبِيَّانِ الرُّمَانِ تَحْتِ ظُهُورِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَلَا جَرَتْ الْعَادَةُ أَيْضًا بِاسْتِلْقَاءِ النِّسَاءِ كَذَلِكَ حَتَّى يُشَاهِدَهُ مِنْهُنَّ الرِّجَالُ.

(سَرِيًّا) بِالسَّيْنِ الْمُهْمَلَةِ عَلَى الْمَشْهُورِ، مَعْنَاهُ سَيِّدًا شَرِيفًا. وَقِيلَ: سَخِيًّا.

(شَرِيًّا) بِالشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ بِلَا خِلَافٍ، هُوَ الْفَرَسُ الَّذِي يَسْتَشْرِي فِي سَيْرِهِ أَيْ يُلْحَقُ وَيَمْضِي بِلَا فُتُورٍ، وَلَا انْكِسَارٍ.

(وَأَخَذَ خَطِيًّا) هُوَ بَفَتْحِ الْخَاءِ وَكَسْرِهَا، وَالْفَتْحُ أَشْهَرُ، وَالْخَطِيُّ الرُّمَحُ؛ مَنْسُوبٌ إِلَى الْخَطِّ قَرِيَّةٌ مِنْ سَيْفِ الْبَحْرِ أَيْ سَاحِلِهِ عِنْدَ عَمَّانَ وَالْبَحْرَيْنِ.

(وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا) أَي: أَتَى بِهَا إِلَى مُرَاحَتِهَا بِضَمِّ الْمِيمِ هُوَ مَوْضِعُ مَبِيتِهَا. وَالنَّعَمُ لِأَبْلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا بَعْضَهَا وَهِيَ لِأَبْلِ.

(وَالثَّرِيَّ) بِالْمَثَلَةِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَالِ وَغَيْرِهِ، وَمِنْهُ الثَّرْوَةُ فِي الْمَالِ وَهِيَ كَثْرَتُهُ.
 (مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ) أَي: مِمَّا يَرُوحُ مِنَ الْأَيْلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْعَبِيدِ.
 (زَوْجًا) أَي: اثْنَيْنِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا أَرَادَتْ صِنْفًا.
 (ذَابِحَةً) بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ أَي: مِنْ كُلِّ مَا يَجُوزُ ذَبْحُهُ مِنَ الْأَيْلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَغَيْرِهَا،
 وَهِيَ فَاعِلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ.
 (مِيرِي أَهْلِكَ) بِكَسْرِ الْمِيمِ مِنَ الْمِيرَةِ، أَي: أَعْطَيْهِمْ وَأَفْضَلِي عَلَيْهِمْ وَصَلِيهِمْ.
 (تَنْقُثُ) بِفَتْحِ التَّاءِ وَإِسْكَانِ التُّونِ وَضَمِّ الْقَافِ، وَجَاءَ قَوْلُهَا (تَنْقِثًا) عَلَى غَيْرِ الْمَصْدَرِ، وَهُوَ جَائِزٌ.
 قَوْلُهُ ﷺ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعَ لَأَمْ زَرْعَ) قَالَ الْعُلَمَاءُ: هُوَ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِهَا،
 وَإِبْضَاحٌ لِحُسْنِ عَشْرَتِهِ إِيَّاهَا، وَمَعْنَاهُ أَنَا لَكَ كَأَبِي زَرْعَ، (وَكَانَ) زَائِدَةً، أَوْ لِلدَّوَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
 (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أَي: كَانَ فِيهَا مَضَى، وَهُوَ بَاقٍ كَذَلِكَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

سبب الحديث:

قال ابن حجر^{٤٣}: «وَوَقَعَ لِهَذَا الْحَدِيثِ سَبَبٌ عِنْدَ النَّسَائِيِّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «فَخَرْتُ بِمَالِ أَبِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ قَدْ أَلْفَ أَلْفَ وَفِيَّةٍ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اسْكُتِي يَا عَائِشَةُ، فَإِنِّي كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعَ لَأَمْ زَرْعَ»^{٤٤}.

وَوَقَعَ لَهُ سَبَبٌ آخَرُ فِيمَا أَخْرَجَهُ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الْحَكِيمِ بْنُ حَبَّانَ بِسَنَدٍ لَهُ مُرْسَلٍ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ عَفِيرٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ الْحَسَنِ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ عَنِ الْأَسودِ بْنِ جَبْرِ الْمَغْفِرِيِّ، قَالَ: "دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَائِشَةَ وَفَاطِمَةَ وَقَدْ جَرَى بَيْنَهُمَا كَلَامٌ، فَقَالَ: مَا أَنْتِ بِمُنْتَهِيَةٍ يَا حُمَيْرَاءُ عَنِ ابْنَتِي، إِنَّ مِثْلِي وَمِثْلَكَ الْأَسودُ بْنُ جَبْرِ كَأَبِي زَرْعَ مَعَ أُمِّ زَرْعَ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدَّثْنَا عَنْهُمَا، فَقَالَ: كَانَتْ قَرْيَةً فِيهَا إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، وَكَانَ الرِّجَالُ خُلُوفًا، فَقُلْنَ: تَعَالَيْنَ تَنْدَاكِرَ أَزْوَاجَنَا بِمَا فِيهِمْ وَلَا نَكْذِبُ"^{٤٥}، وَوَقَعَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَكُونَ لَكَ كَأَبِي زَرْعَ لَأَمْ زَرْعَ: قَالَتْ: وَكَانَ رَجُلًا يُكْنَى أَبَا زَرْعَ، وَامْرَأَتُهُ أُمُّ زَرْعَ، فَكَانَ يُحْسِنُ إِلَيْهَا فَتَقُولُ أَحْسَنَ إِلَيَّ أَبُو زَرْعَ، وَكَسَانِي أَبُو زَرْعَ، وَأَطْعَمَنِي أَبُو زَرْعَ، وَأَكْرَمَنِي أَبُو زَرْعَ، وَنَحَوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ، فَلَمْ تَزَلْ بِهِ أُمُّ زَرْعَ حَتَّى طَلَّقَهَا، فَتَزَوَّجَتْ أُمُّ زَرْعَ رَجُلًا فَأَكْرَمَهَا أَيْضًا فَكَانَتْ تَقُولُ: أَكْرَمَنِي وَأَعْطَانِي، وَنَحَوُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ وَتَقُولُ فِي آخِرِ ذَلِكَ: وَلَوْ جَمَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ مَا مَلَأَ أَصْغَرَ وَعَاءٍ لِأَبِي زَرْعَ"^{٤٦}.

^{٤٣} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٢٥٧/٩)

^{٤٤} - السنن الكبرى للنسائي (٨/٢٤٩) (٩٠٩٣) والكنى والأسماء للدولابي (٣/١١٠٧) (١٩٣٦) والسنة لابن أبي عاصم ومعها

ظلال الجنة للألباني (١/٢٢٥) (٥١٤) والمعجم الكبير للطبراني (٢٣/١٧٣) (٢٧٢) حسن

^{٤٥} - فيه جهالة

^{٤٦} - معجم ابن الأعرابي (٢/٤٣٧) (٨٥٣) صحيح

وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ " عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لَأُمِّ زَرْعٍ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ قَرِيَّةً مِنْ قُرَى الْيَمَنِ كَانَ بِهَا بَطُونٌ مِنْ بَطُونِ الْيَمَنِ وَفِيهَا إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، وَإِنَّهُنَّ خَرَجْنَ إِلَى مَجْلِسٍ لِهِنَّ، فَقَالَتْ بَعْضُهُنَّ لِبَعْضٍ: تَعَالَوْا فَلْنَذْكُرَنَّ بُعُولَتَنَا بِبَعْضٍ مَا فِيهِمْ وَلَا نَكْذِبُ .. "٤٧

فَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ مَعْرِفَةً جِهَةِ قَبِيلَتَيْهِنَّ وَبِلَادِهِنَّ، لَكِنْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْهَيْثَمِ أَنََّّهُنَّ كُنَّ بِمَكَّةَ. ثَانِيًا: مَنَاسِبَةُ الْحَدِيثِ لِلْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ التِّرْمِذِيُّ:

قال ابن حجر: قال ابن المنير: نبه بهذه الترجمة على أن إيراد النبي - ﷺ - هذه الحكاية يعني حديث أم زرع ليس خلياً عن فائدة شرعية، وهي: الإحسان في معاشرته الأهل، ثم قال: وليست الفائدة من الحديث محصورة فيما ذكر بل سيأتي له فوائد أخرى. ٤٨

وقال القاضي عياض في كتابه النفيس "بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد": وفيه من الفقه التحدث بملح الأخبار، وطرف الحكايات؛ تسلياً للنفس، وجلاء للقلب، وهكذا ترجم أبو عيسى الترمذي عليه: باب ما جاء في كلام رسول الله - ﷺ - وأدخل في هذا الباب هذا الحديث....

قال القاضي: وهذا كله ما لم يكن دائماً متصلاً، وإنما يكون في النادر والأحيان كما قال: ساعة بعد ساعة، وأما أن يكون ذلك عادة الرجل حتى يعرف بذلك ويتخذه ديدناً، ويضطرب به الناس ويضحكهم - دأبه - فهذا مذموم غير محمود، دال على سقوط المروءة، ورذالة المهمة، وخلع برد نزاهة النفس، وإطراح ربة الوقار والسمت، مولجاً صاحبه في باب المجون والسخف أهـ ٤٩.

ثالثاً: هل الحديث من قول النبي - ﷺ - أم من قول عائشة، والراجح في ذلك:

قال ابن حجر: وليس فيما ساقه البخاري التصريح بأن النبي - ﷺ - أورد الحكاية، وقال القاضي عياض: ولا خلاف في رفع هذا الحديث: (كنت لك كأبي زرع لأُم زرع) وإنما الخلاف في بقيته، وقد قال أبو بكر بن ثابت الخطيب البغدادي الحافظ: المرفوع من هذا الحديث إلى النبي - ﷺ - قوله لعائشة - رضي الله عنها -: (كنت لك كأبي زرع لأُم زرع)، وما عداه فمن كلام عائشة - رضي الله عنها - حدثت به هي النبي - ﷺ - ٥٠.

٤٧ - المعجم الكبير للطبراني (١٧٦ / ٢٣) (٢٧٤) والأسماء المبهمة في الأبناء المحكمة (ص: ١٣٢، بترقيم الشاملة آليا) حسن

٤٨ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٢٥٥ / ٩)

٤٩ - بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد ص ٣٨-٣٩.

٥٠ - فتح الباري (١٦٤/٩ - ١٦٥).

وقال أبو الحسن الدارقطني: الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - أنها هي حدثت النبي - ﷺ - بقصة النسوة فقال لها حينئذ: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع)^{٥١}

رابعاً: النسوة الإحدى عشر من أين هن؟ وما أسماؤهن؟

قيل إن النسوة من إحدى قبائل اليمن، قال ابن حجر: ووقع في رواية الزبير بن بكار: "دخل عليّ رسول الله - ﷺ - وعندي بعض نسائه، فقال يخصني بذلك: (يا عائشة أنا لك كأبي زرع لأم زرع) قلت: يا رسول الله ما حديث أبي زرع وأم زرع؟ قال: إن قرية من قرى اليمن كان بها بطن من بطون اليمن، وكان منهن إحدى عشرة امرأة، وإنهن خرجن إلى مجلس، فقلن: تعالين فلنذكر بعولتنا بما فيهم ولا نكذب.

فيستفاد من هذه الرواية معرفة جهة قبيلتهن وبلادهن؛ لكن وقع في رواية الهيثم أنهم كن بمكة، وأفاد أبو محمد بن حزم فيما نقله عياض أنهم كن من خثعم، وهو يوافق رواية الزبير أنهم من أهل اليمن، ووقع في رواية بن أبي أويس عن أبيه أنهم كن في الجاهلية، وكذا عند النسائي في رواية عقبة بن خالد عن هشام^{٥٢}.

وأما أسماؤهن فقد قال ابن حجر: وحكى عياض، ثم النووي، قول الخطيب في المبهمات: "لا أعلم أحداً سمي النسوة المذكورات في حديث أم زرع إلا من الطريق الذي أذكره وهو غريب جداً، ثم ساقه من طريق الزبير بن بكار، قال ابن حجر: قلت: وقد ساقه أيضاً أبو القاسم عبد الحكيم المذكور من الطريق المرسل، فإنه ساقه من طريق الزبير بن بكار بسنده ثم ساقه من الطريق المرسل، وقال النووي: وفيه أن الثانية اسمها عمرة بنت عمرو، واسم الثالثة حن بنت نعب، والرابعة مهدي بنت أبي مرزومة، والخامسة كبشة، والسادسة هند، والسابعة حن بنت علقمة، والثامنة بنت أوس بن عبد، والعاشر كبشة بنت الأرقم، والحادية عشر أم زرع بنت أكهل بن ساعد^{٥٣}

قال ابن حجر: ولم يسم الأولى ولا التاسعة ولا أزواجهن، ولا ابنة أبي زرع ولا أمه، ولا الجارية ولا المرأة التي تزوجها أبو زرع، ولا الرجل الذي تزوجته أم زرع^{٥٤}.

من فوائد الحديث:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: فِي حَدِيثِ أُمِّ زَرْعَ هَذَا فَوَائِدٌ مِنْهَا:

١ - اسْتِحْبَابُ حُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ لِلْأَهْلِ.

٢ - جَوَازُ لَأَخْبَارَ عَنِ لَأَمَمِ الْخَالِيَةِ.

^{٥١} - بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد ص ٢٠-٢١.

^{٥٢} - فتح الباري (٩/١٦٧).

^{٥٣} - فتح الباري (٩/١٦٧).

^{٥٤} - فتح الباري (٩/١٦٧).

٣- أَنَّ الْمُشَبَّهَ بِالشَّيْءِ لَا يَلْزَمُ كَوْنُهُ مِثْلَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

٤- وَمِنْهَا أَنَّ كِنَايَاتِ الطَّلَاقِ لَا يَقَعُ بِهَا طَلَاقٌ لَا بِالنِّبْيَةِ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَائِشَةَ: كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعَ لَأُمِّ زَرْعٍ وَمِنْ جُمْلَةِ أَفْعَالِ أَبِي زَرْعٍ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ أُمَّ زَرْعٍ كَمَا سَبَقَ، وَلَمْ يَقَعِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ طَلَاقٌ بِتَشْبِيهِهِ لِكَوْنِهِ لَمْ يَنْوَ الطَّلَاقَ.

٥- قَالَ الْمَازِرِيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ: وَفِيهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّسْوَةِ ذَكَرَ بَعْضُهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ بِمَا يَكْرَهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ غِيبةً لِكَوْنِهِمْ لَا يُعْرِفُونَ بِأَعْيَانِهِمْ أَوْ أَسْمَائِهِمْ، وَإِنَّمَا الْغِيبةُ الْمُحَرَّمَةُ أَنْ يَذْكُرَ إِنْسَانًا بَعِيْنِهِ، أَوْ جَمَاعَةً بِأَعْيَانِهِمْ.

فقه الحديث والفوائد المستفادة من الحديث: ٥٥

في هذا الحديث من الفوائد:

١. حسن عشرة المرء أهله بالتأنيس، والمحاذلة بالأمر المباحة ما لم يفض ذلك إلى ما يمتنع.
٢. وفيه المزاح أحياناً، وبسط النفس به، ومداعبة الرجل أهله، وإعلامه بمحبته لها ما لم يؤد ذلك إلى مفسدة تترتب على ذلك، من تحنيها عليه وإعراضها عنه.
٣. وفيه منع الفخر بالمال، وبيان جواز ذكر الفضل بأمر الدين، وإخبار الرجل أهله بصورة حاله معهم، وتذكيرهم بذلك لاسيما عند وجود ما طبعن عليه من كفر الإحسان.
٤. وفيه ذكر المرأة إحسان زوجها.
٥. وفيه إكرام الرجل بعض نسائه بحضور ضرائرها بما يخصها به من قول أو فعل، ومحله عند السلامة من الميل المفضي إلى الجور.
٦. وفيه جواز تحدث الرجل مع زوجته في غير نوبتها.
٧. وفيه الحديث عن الأمم الخالية، وضرب الأمثال بهم اعتباراً، وجواز الانبساط بذكر طرف الأخبار، ومستطابات النوادر تنشيطاً للنفوس.
٨. وفيه حض النساء على الوفاء لبعولتهن، وقصر الطرف عليهن، والشكر لجميلهن، ووصف المرأة زوجها بما تعرفه من حسنٍ وسوءٍ، وجواز المبالغة في الأوصاف، ومحله إذا لم يصبر ذلك ديدناً لأنه يفضي إلى حرم المروءة.

٩. وفيه تفسير ما يجمله المخبر من الخير؛ إما بالسؤال عنه، وإما ابتداء من تلقاء نفسه.
١٠. وفيه أن ذكر المرء بما فيه من العيب جائز إذا قصد التنفير عن ذلك الفعل ولا يكون ذلك غيبة، قال بعضهم: ذكر بعض هؤلاء النسوة أزواجهن بما يكرهون، ولم يكن ذلك غيبة لكونهم لا يعرفون بأعيانهم وأسمائهم، قال المازري: وإنما يحتاج إلى هذا الاعتذار لو كان من تحدث عنده بهذا الحديث سمع كلامهن في اغتيال أزواجهن، فأقرهن على ذلك، فأما والواقع خلاف ذلك؛ وهو أن عائشة

حكّت قصة عن نساء مجهولات غائبات فلا، ولو أن امرأة وصفت زوجها بما يكرهه لكان غيبة محرمة على من يقوله ويسمعه، إلا إن كانت في مقام الشكوى منه عند الحاكم، وهذا في حق المعين، فأما المجهول الذي لا يعرف فلا حرج في سماع الكلام فيه؛ لأنه لا يتأذى إلا إذا عرف أن من ذكر عنده يعرفه.

١١. وفيه تقوية لمن كره نكاح من كان لها زوج، لما ظهر من اعتراف أم زرع بإكرام زوجها الثاني لها بقدر طاقتها، ومع ذلك حقرتة وصغرته بالنسبة إلى الزوج الأول.

١٢. وفيه أن الحب يستر الإساءة؛ لأن أبا زرع مع إساءته لها بتطليقها لم يمنعها ذلك من المبالغة في وصفه إلى أن بلغت حد الإفراط والغلو، وقد وقع في بعض طرقه إشارة إلى أن أبا زرع ندم على طلاقها وقال في ذلك شعراً.

١٣. وفيه جواز وصف النساء ومحاسنهن للرجل، لكن محله إذا كن مجهولات، والذي يمنع من ذلك وصف المرأة المعينة بحضرة الرجل، أو أن يذكر من وصفها ما لا يجوز للرجال تعمد النظر إليه.

١٤. وفيه أن التشبيه لا يستلزم مساواة المشبه بالمشبه به من كل جهة لقوله - ﷺ -: (كنت لك كأبي زرع)، والمراد ما بينه بقوله: في رواية الهيثم في الألفة.. إلى آخره، لا في جميع ما وصف به أبو زرع من الثروة الزائدة، والابن والخادم وغير ذلك، وما لم يذكر من أمور الدين كلها.

١٥. وفيه أن كناية الطلاق لا توقعه إلا مع مصاحبة النية فإنه - ﷺ - تشبه بأبي زرع، وأبو زرع قد طلق، فلم يستلزم ذلك وقوع الطلاق لكونه لم يقصد إليه.

١٦. وفيه أن من شأن النساء إذا تحدثن أن لا يكون حديثهن غالباً إلا في الرجال، وهذا بخلاف الرجال فإن غالب حديثهم إنما هو فيما يتعلق المعاش.

١٧. وفيه جواز الكلام بالألفاظ الغريبة، واستعمال السجع في الكلام إذا لم يكن مكلفاً، قال عياض ما ملخصه: في كلام هؤلاء النسوة من فصاحة الألفاظ، وبلاغة العبارة والبديع؛ ما لا مزيد عليه، ولا سيما كلام أم زرع، فإنه مع كثرة فصوله، وقلة فضوله؛ مختار الكلمات، واضح السمات، نير السمات، قد قدرت ألفاظه قدر معانيه، وقررت قواعده وشيدت مبانيه، وفي كلامهن ولا سيما الأولى والعاشرة أيضاً من فنون التشبيه والاستعارة، والكناية والإشارة، والموازنة والترصيع، والمناسبة والتوسيع، والمبالغة والتسجيع، والتوليد وضرب المثل، وأنواع المجانسة والإلزام ما لا يلزم، والإيغال والمقابلة، والمطابقة والاحتباس، وحسن التفسير والترديد، وغرابة التقسيم وغير ذلك؛ أشياء ظاهرة لمن تأملها، وقد أشرنا إلى بعضها فيما تقدم، وكمل ذلك أن غالب ذلك أفرغ في قالب الانسجام،

وأُتِيَ به الخاطر بغير تكلف، وجاء لفظه تابعاً لمعناه، منقاداً له غير مستكره ولا منافر، والله يمين على
من يشاء بما شاء لا إله إلا هو.^{٥٦}



^{٥٦} - فتح الباري (١٨٤-١٨٧).

قصة رجل أوصى بنيه : إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في البحر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قَالَ فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتَ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشِيتُكَ، يَا رَبُّ - أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ - فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ ٥٧

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكَ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبُّ خَشِيتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ " وَقَالَ غَيْرُهُ: «مَخَافَتُكَ يَا رَبُّ» ٥٨

شرح المفردات: ٥٩

(أسرف على نفسه): أي: ظلم على نفسه، وأسرف الرجل: إذا جاوز الحد، وإذا أخطأ.

(اذروني): طيروني. مِنْ قَوْلِهِ أَذْرَتِ الرِّيحُ الشَّيْءَ إِذَا فَرَّقَتْهُ بِهَبِّهَا.

(اسحقوني): سحق الشيء أي: سهكه. وبابه قطع، وَهُوَ الدَّقُّ وَالطَّحْنُ، أي: اجعلوني سحقًا.

(أدِّي): أَمْرٌ مِنَ الْأَدَاءِ.

(قدر علي ربي) حكم وقضى.

شرح الحديث:

قال ابن حجر: قَالَ لِحَطَّابِي: قَدْ يُسْتَشْكَلُ هَذَا فَيُقَالُ كَيْفَ يُغْفَرُ لَهُ وَهُوَ مُنْكَرٌ لِلْبَعْثِ وَلِقْدَرَةِ عَلَى إِحْيَاءِ لَمَوْتِي؟ وَلِجَوَابِ أَنَّهُ لَمْ يُنْكَرْ لِبَعْثٍ وَإِنَّمَا جَهْلَ فَظَنٍّ أَنَّهُ إِذَا فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ لَا يُعَادُ فَلَا يُعَذَّبُ ، وَقَدْ ظَهَرَ إِيمَانُهُ بِأَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ. ٦٠ "وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هَذَا رَجُلٌ جَهْلٌ بَعْضَ صِفَاتِ اللَّهِ وَهِيَ الْقُدْرَةُ، وَلَا يَكْفُرُ جَاهِلٌ بَعْضِهَا، وَإِنَّمَا يَكْفُرُ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ قَالَهُ أَبُو عُمَرَ" ٦١

٥٧ - صحيح مسلم (٤/ ٢١١٠) - ٢٥ - (٢٧٥٦)

٥٨ - صحيح البخاري (٤/ ١٧٦) (٣٤٨١)

٥٩ - ينظر: فتح الباري لابن حجر، ٦/ ٥٢٢، وحاشية السندي على النسائي، ٤/ ١١٢ - ١١٣.

٦٠ - فتح الباري لابن حجر، ٦/ ٥٢٢.

٦١ - شرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ١٢٥)

وقال النووي: اختلف العلماء في تأويل هذا الحديث، فقالت طائفة: لا يصح حمل هذا على أنه أراد نفي قدرة الله، فإن الشاك في قدرة الله تعالى كافر، وقد قال في آخر الحديث: إنه إنما فعل هذا من خشية الله تعالى، ولكافر لا يخشى الله تعالى، ولا يغفر له، قال هؤلاء: فيكون له تأويلان أحدهما أن معناه: لئن قدر عليّ لعذاب، أي: قضاه، يقال منه قدر بالتخفيف، وقدر بالتشديد بمعنى واحد. والثاني: إن قدر هنا بمعنى ضيق عليّ، قال الله تعالى: (فقدّر عليه رزقه) وهو أحد الأقوال في قوله تعالى: (فطن أن لن نقدر عليه) وقالت طائفة: اللفظ على ظاهره، ولكن قاله هذا الرجل وهو غير ضابط لكلامه، ولا قاصد لحقيقة معناه، ومعتقد لها، بل قاله في حالة غلب عليه فيها الدهش والخوف وشدة الجزع، بحيث ذهب تيقظه وتدبر ما يقوله، فصار في معنى لغافل والناسي، وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها، وهو نحو قول لقائل لآخر الذي غلب عليه لفرح حين وجد راحلته: "أنت عبي وأنا ربك"، فلم يكفر بذلك الدهش ولغلبة والسهو.

وقالت طائفة: هذا من مجاز كلام لعرب، وبديع استعمالها، يسمونه مزج الشك بليقين كقوله تعالى: (وإنّا أو إياكم لعلّى هدى) فصورته صورة شك ولمراد به ليقين. وقيل: إنما وصّى بذلك تحقيراً لنفسه، وعقوبة لها لعصيانها، وإسرافها، رجاء أن يرحمه الله تعالى^{٦٢}.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذا رجل شك في قدرة الله وفي إعادته إذا ذري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك وكان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه فعفر له بذلك. والمتأول من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول أولى بالمعفرة من مثل هذا).^{٦٣}

وقال الزرقاني: " (فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم به، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر الله البحر فجمع ما فيه) زاد في رواية الزهري: فإذا هو قائم، وزاد أبو عوانة: في أسرع من طرفة عين، وفيه دلالة على رد من زعم أن الخطاب لروحه؛ لأن التحريق والتذرية إنما وقعا على الجسد وهو الذي جمع وأعيد (ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب، وأنت أعلم) إني إنما فعلته من خشيتك أي خوف عقابك، قال ابن عبد البر: وذلك دليل على إيمانه إذ الخشية لا تكون إلا لمؤمن بل لعالم، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] (سورة فاطر: الآية ٢٨) ويستحيل أن يخافه من لا يؤمن به، وقد روي الحديث، قال رجل لم يعمل خيراً قط إلا التوحيد، وهذه اللفظة ترفع الإشكال في إيمانه، والأصول تُعضدّها: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} [النساء: ٤٨] (سورة النساء: الآية ٤٨) وقد (قال: فعفر له) ولأبي عوانة من حديث حذيفة عن الصديق أنه أخرج أهل الجنة دُخُولاً. قال ابن التين: ذهب المعتزلة إلى أن هذا الرجل إنما غفر له لتوبته التي تابها

^{٦٢} - شرح النووي على صحيح مسلم، ١٧ / ٧١.

^{٦٣} - مجموع الفتاوى (٣ / ٢٣١).

؛ لِأَنَّ قَبُولَهَا وَاجِبٌ عَقْلًا عِنْدَهُمْ، وَالْأَشْعَرِيُّ قَطَعَ بِهَا سَمْعًا، وَغَيْرُهُ جَوَزَ الْقَبُولَ كَسَائِرِ الطَّاعَاتِ. وَقَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ: قَبُولُ التَّوْبَةِ عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ وَاجِبٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَقْلًا، وَعِنْدَنَا وَاجِبٌ بِحُكْمِ الْوَعْدِ وَالتَّفَضُّلِ وَالْإِحْسَانِ، إِذْ لَوْ وَجَبَ الْقَبُولُ عَلَى اللَّهِ عَقْلًا لَأَسْتَحَقَّ الدِّمَّ إِنْ لَمْ يَقْبَلْ وَهُوَ مُحَالٌ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ يَكُونُ مُسْتَكْمِلًا بِالْقَبُولِ، وَالْمُسْتَكْمِلُ بِالْغَيْرِ نَاقِصٌ بِذَاتِهِ وَذَلِكَ فِي حَقِّ اللَّهِ مُحَالٌ، وَلِأَنَّ الدِّمَّ إِنَّمَا يَمْنَعُ مِنَ الْفَعْلِ مَنْ يَتَأَذَى لِسَمَاعِهِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ طَبْعُهُ وَيَظْهَرُ لَهُ بِسَبَبِهِ نَقْصٌ حَالٌ، أَمَّا الْمُتَعَالِي عَنِ الشَّهْوَةِ وَالتَّفَرَّةِ وَالتَّوْبَةِ وَالتَّقْصِ فَلَا يُعْقَلُ تَحَقُّقُ الْوُجُوبِ فِي حَقِّهِ بِهَذَا الْمَعْنَى، وَلِأَنَّهُ تَعَالَى تَمْدَحُ بِقَبُولِ التَّوْبَةِ فِي قَوْلِهِ: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [التوبة: ١٠٤] (سُورَةُ التَّوْبَةِ: آيَةُ ١٠٤) وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا مَا تَمْدَحُ بِهِ؛ لِأَنَّ أَدَاءَ الْوَاجِبِ لَا يُفِيدُ الْمَدْحَ وَالشَّاءَ وَالتَّعْظِيمَ، قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: قَبُولُ التَّوْبَةِ مِنَ الْكُفْرِ يُقْطَعُ بِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِجْمَاعًا، وَهَذَا مُحْمَلٌ آيَةِ. وَأَمَّا الْمَعَاصِي فَيُقْطَعُ بِأَنَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْهَا مِنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْأُمَّةِ. وَاخْتَلَفَ هَلْ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْجَمِيعِ؟ وَأَمَّا إِذَا عَيَّنَ إِنْسَانٌ تَائِبٌ فَيَرْجَى قَبُولُ تَوْبَتِهِ بَلَا قَطْعٍ، وَأَمَّا إِذَا فَرَضْنَا تَائِبًا غَيْرَ مُعَيَّنٍ صَحِيحِ التَّوْبَةِ فَقِيلَ يُقْطَعُ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ، وَعَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْهَا الْفُقَهَاءُ الْمُحَدِّثُونَ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا يُلْزَمُ أَنْ تُقْبَلَ تَوْبَةُ جَمِيعِ التَّائِبِينَ. وَذَهَبَ أَبُو الْمَعَالِي وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يُقْطَعُ بِهِ عَلَى اللَّهِ بَلْ يَقْوَى فِي الرَّجَاءِ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَرْجَحُ. وَلَا فَرْقَ بَيْنَ التَّوْبَةِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّوْبَةِ مِنَ الْمَعَاصِي بِذَلِيلٍ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا، انْتَهَى.^{٦٤}

من فوائد الحديث:

- ١- سعة رحمة الله عز وجل بعباده، وتجاوزه عما صدر عنهم بسبب الجهل أو النسيان أو الإكراه، كما يدل عليه هذا الحديث وغيره.
- ٢- الحذر من المسارعة إلى الحكم على الناس بمجرد صدور ما يستحقون اللوم عليه قبل النظر في أحوالهم وأعدائهم، وقبل إقامة الحجة عليهم.
- ٣- أن القول قد يكون كفرًا، أو فسقًا ولكن لا يلزم من ذلك الحكم على قائله بذلك حتى تقام عليه الحجة.^{٦٥}



^{٦٤} - شرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ١٢٥)

^{٦٥} - <http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac> d46f9aea0d6e324ae01e68d02b7f0e2f&t=3602

قصة الرجل الذي وجد الكنز من العقار الذي اشتراه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَغِ مِنْكَ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الْأَرْضُ: إِنَّمَا بَعْتُكَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ: الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ، وَقَالَ الْآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ، قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلَامَ الْجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا " ٦٦.

شرح المفردات:

(عَقَارًا): العقار في اللغة المنزل والضيعة وخصه بعضهم بالنخل، ويُقال للمناخ النفيس الذي للمنزل عقار أيضًا.

(جرّة): أي: قدر.

(أَلَكُمَا وَلَدٌ؟): يفتح الواو واللام، والمراد الجنس، لأنه يستحيل أن يكون للرجلين جميعًا ولد واحد، والمعنى أكل منكما ولد؟

(فَقَالَ أَحَدَهُمَا لِي غُلَامٌ): يبين في رواية إسحاق بن بشر أن الذي قال لي غلام هو الذي اشتري العقار.

شرح الحديث:

قال ابن حجر: والحكم في شرعنا في مثل ذلك أن القول قول المشتري وأن الذهب باق على ملك البائع، ويحتمل أنهما اختلفا في صورة العقد بأن يقول المشتري لم يقع تصريح ببيع الأرض وما فيها بل يبيع الأرض خاصة، والبائع يقول وقع التصريح بذلك، والحكم في هذه الصورة أن يتحالفا ويستتردا المبيع وهذا كله بناء على ظاهر اللفظ أنه وجد فيه جرّة من ذهب، لكن في رواية إسحاق بن بشر أن المشتري قال إنه اشترى دارًا فعمرها فوجد فيها كنزًا، وأن البائع قال له لما دعاه إلى أخذه ما دفنت ولا علمت، وأنهما قالا للقاضي: ابعت من يقبضه وتضعه حيث رأيت، فامتنع، وعلى هذا فحكم هذا المال حكم الرّكاز في هذه الشريعة إن عُرِفَ أنه من دفين الجاهليّة، ولا فإن عُرِفَ أنه من دفين المسلمين فهو لقطّة، وإن جهل فحكمه حكم المال الضائع يوضع في بيت المال، ولعلهم لم يكن في شرعهم هذا التفصيل فلهذا حكم القاضي بما حكم به. ٦٧

من فوائد الحديث:

٦٦ - صحيح البخاري (٤/ ١٧٤) (٣٤٧٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٤٥) ٢١ - (١٧٢١)

٦٧ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٦/ ٥١٩)

١- فضل الاستعفاف والقناعة والزهد فيما يشتبه فيه. فالقناعة كثر لا يفنى تعود بالخير والبركة على صاحبها .

٢- مشروعية الصلح والتسامح بين المتنازعين، وفضل ذلك، كما يظهر من ذكر النبي ﷺ لها.

٣- إذا وجد الإنسان مالا مدفوناً يُمكنُ معرفته أصحابه، بأن يكون مدفوناً من عهدٍ ليس بالبعيد ، فحكمه حكم اللقطة: يجب البحث عن أصحابه ، ودفع المال لهم. فإذا كان العهد بعيداً ، ولا يُعرف أصحابه بحال، فهو كثرٌ يملكه من عشرٍ عليه بعد أن يُخرج منه الخمس: ٢٠%.

٤- أداء الأمانة مطلوب لقول الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) .

٥- مشروعية الاحتكام إلى عالم بالكتاب والسنة ، دون الذهاب إلى المحاكم المدنية التي تضيع الأموال والأوقات عملاً بقول الله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩]

٦- من رضي بما أعطاه الله كان من أغنى الناس:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَأْخُذْ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلْ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمْ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ عَبْدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»^{٦٨} وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: " ارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَدِّ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ تَكُنْ عَبْدُ النَّاسِ، وَاجْتَنِبْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ تَكُنْ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ".^{٦٩}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى عَنِ النَّفْسِ»^{٧٠}

٧- الرزق مقسوم ، لا بد أن يصل إليك في وقته ومقداره ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَهْرُبُ مِنَ الْمَوْتِ لَأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ»^{٧١} .

٨- على المسلم أن يقنع بالحلal ، ويترك الحرام والطمع فيما ليس له ، ويأخذ بالأسباب المشروعة للرزق ، وأن العمل الصالح يكفل له السعادة في الدنيا والآخرة عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ

^{٦٨} - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٥١) (٢٣٠٥) حسن لغيره

^{٦٩} - الزهد لأبي داود (ص: ١٣٩) (١٣١) صحيح مقطوع

^{٧٠} - صحيح البخاري (٨/ ٩٥) (٦٤٤٦) وصحيح مسلم (٢/ ٧٢٦) (١٢٠) (١٠٥١)

[ش(الغنى) الحقيقي الذي يملأ نفس الإنسان ويكفه عن حاجة غيره. (كثرة العرض) هو متاع الدنيا ومعنى الحديث الغنى الحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها لا كثرة المال مع حرص على الزيادة لأن من كان طالباً للزيادة لم يستغن بما معه فليس له غنى]

^{٧١} - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٢٤٦) حسن

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَا تَسْتَبِطُوا الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ يَمُوتُ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقٍ هُوَ لَهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ،
وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ مِنَ الْحَلَالِ وَتَرَكِ الْحَرَامِ " ٧٢.

٩- الحكم العادل يرضي المحتكمين .

١٠- عدم الطمع فيما ليس للإنسان . ٧٣



٧٢ - شعب الإيمان (٢ / ٤٠٧) (١١٤٢) صحيح لغيره

" وَفِي هَذَا مَا دَلَّ أَنَّهُ أَمَرَ بِطَلَبِ الرِّزْقِ إِلَّا أَنَّهُ أَمَرَ بِإِجْمَالِهِ، وَإِجْمَالُ الطَّلَبِ هُوَ أَنْ يَطْلُبَهُ مِنَ الْحَلَالِ مُعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يُلَاحِظُ فِي طَلْبِهِ قَوَاهُ وَمَكَايِدَهُ وَحِيلَهُ وَلَا يَطْلُبُهُ مِنَ الْحَرَامِ "

٧٣ - &t=٠fc٣٤٢by٠٢٦٨d٥١٤٤٣٢٤aea٠d٤٦f٣٩http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac - ٣٦٥٠

كيفية الطهارة في شريعة بني إسرائيل

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَنَةَ، قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَخَرَجَ وَمَعَهُ دَرَقَةٌ ثُمَّ اسْتَتَرَ بِهَا، ثُمَّ بَالَ، فَقُلْنَا: انْظُرُوا إِلَيْهِ يُبُولُ كَمَا تَبُولُ الْمَرْأَةُ، فَسَمِعَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا لَقِيَ صَاحِبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانُوا إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَوْلُ قَطَعُوا مَا أَصَابَهُ الْبَوْلُ مِنْهُمْ، فَتَهَاَهُمْ فَعُذِبَ فِي قَبْرِهِ»^{٧٤}.

شرح المفردات:^{٧٥}

(دَرَقَةٌ): بَفَتْحَتَيْنِ : الثَّرْسُ مِنْ جُلُودٍ لَيْسَ فِيهِ خَشَبٌ وَلَا عَصَبٌ.
(انْظُرُوا إِلَيْهِ): تَعَجُّبٌ وَإِنْكَارٌ، وَهَذَا لَا يَقَعُ مِنَ الصَّحَابِيِّ، فَلَعَلَّهُ كَانَ قَلِيلَ الْعِلْمِ.
(ذَلِكَ): الْكَلَامُ.
(فَقَالَ): النَّبِيُّ ﷺ.
(مَا لَقِيَ): مَا مَوْصُولَةٌ وَالْمُرَادُ بِهِ الْعَذَابُ.
(صَاحِبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ): بِالرَّفْعِ وَيَجُوزُ نَصْبُهُ، أَي: وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِسَبَبِ تَرْكِ التَّنَزُّهِ مِنَ الْبَوْلِ حَالِ الْبَوْلِ.

(كَانُوا): أَي: بَنُو إِسْرَائِيلَ.
(إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَوْلُ): مِنْ عَدَمِ الْمُرَاعَاةِ وَاهْتِمَامِ التَّنَزُّهِ.
(قَطَعُوا مَا): أَي: الثُّوبَ الَّذِي.
(مِنْهُمْ): أَي: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ هَذَا الْقَطْعُ مَأْمُورًا بِهِ فِي دِينِهِمْ.
(فَتَهَاَهُمْ): أَي: نَهَى الرَّجُلَ الْمَذْكُورُ سَائِرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.
(فَعُذِبَ): بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ، أَي: الرَّجُلَ الْمَذْكُورَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْمُخَالَفَةِ وَعِصْيَانِ حُكْمِ شَرْعِهِ وَهُوَ تَرْكُ الْقَطْعِ.

شرح الحديث:

حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ إِنْكَارِ الْإِحْتِرَازِ مِنَ الْبَوْلِ لَنَلَّا يُصِيبَ مَا أَصَابَ الْإِسْرَائِيلِيَّ بِنَهْيِهِ عَنِ الْوَاجِبِ، وَشَبَّهَ نَهْيَ هَذَا الرَّجُلِ عَنِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ بِنَهْيِ صَاحِبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ مَعْرُوفِ دِينِهِمْ، وَقَصَدَهُ فِيهِ تَوْبِيخُهُ وَتَهْدِيدُهُ وَأَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، فَلَمَّا عَيَّرَ بِالْحَيَاءِ وَفَعَلَ النِّسَاءَ وَبَخَّهُ وَأَنَّهُ يُنْكِرُ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ^{٧٦}.

^{٧٤} - سنن أبي داود (٦/١) (٢٢) صحيح

^{٧٥} - ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، ١/ ٢٧.

^{٧٦} - ينظر: عون المعبود للعظيم آبادي، ١/ ٢٨.

قصة التفاخر بالأنساب بين الرجلين على عهد موسى

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بَنِ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمُّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمُّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانِ ابْنِ الْإِسْلَامِ". قَالَ: "فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ هَذَيْنِ الْمُتَنَسِّبَيْنِ، أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَمَيُّ أَوْ الْمُتَنَسِّبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُتَنَسِّبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ" ٧٨.

شرح المفردات:

(انتسب): أي: اعتزى إلى أبيه ٧٩.

(المتمي): المتنسب.

(لا أم لك): هو ذم وسب أي أنت لقيط لا تعرف لك أم ٨٠.

من فوائد الحديث:

١ - النهي عن التفاخر بالنسب والحسب، أو بالمال، أو بالقبيلة، أو غيرها من الأمور الدنيوية ما عدا الإسلام. وقد جاء النهي عن التفاخر بالآباء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَيْتَنَّهُنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحَمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعَلِ الَّذِي يَدْهَدُهُ الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ» ٨١.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: إِنَّ النَّاسَ رَجُلَانِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ فَهُوَ الْخَيْرُ الْفَاضِلُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَسِيًّا فِي قَوْمِهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ فَهُوَ الدَّنِيءُ وَإِنْ كَانَ فِي أَهْلِهِ شَرِيفًا رَفِيعًا، انْتَهَى ٨٢.

٢ - أن الفضيلة ليست بالحسب والنسب والمال والجاه وغيرها من الفروق الدنيوية، بل المعيار الصحيح للتقديم التقوى وخشية الله جل وعلا في السر والعلانية، كما قال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [سورة الحجرات: ١٣].

٧٨ - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥ / ١١٠) (٢١١٧٨) صحيح

٧٩ - مختار الصحاح للرازي، ص: ٦٥٦.

٨٠ - لسان العرب لابن منظور، ١٢ / ٢٢.

٨١ - سنن الترمذي ت شاكر (٥ / ٧٣٤) (٣٩٥٥) حسن

٨٢ - عون المعبود للعظيم آبادي، ١٤ / ١٦

٣- يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَلَّا يَتَّكِلَ عَلَى شَرَفِ النَّسَبِ، وَيُقَصِّرَ فِي الْعَمَلِ فَيَقَعُ فِي مِثْلِ حَالِ هَذَا الْمُتَكَبِّرِ.^{٨٤}



<http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac74f51d,aeaf4ee01d7,77ab71erfc.&t=7748-14>

قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةً نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيِّنَهُمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبِضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ "، قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ ذُكِرَ لَنَا، أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ^{٨٥}.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَنْتَ قَرِيْبٌ كَذَا وَكَذَا، فَادْرِكْهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ، فَغَفِرَ لَهُ^{٨٦}.

شرح المفردات^{٨٧}:

(راهب): عالم أهل الكتاب.

(نَصَفَ الطَّرِيقَ): هُوَ بِتَخْفِيفِ الصَّادِ أَي: بَلَغَ نِصْفَهَا.

(اخْتَصَمَتْ): أَي: مِنَ الْخُصُومَةِ.

(قِيسُوا): انظروا المسافة بين المكانين.

(نَأَى بِصَدْرِهِ): أَي: نَهَضَ، وَيَجُوزُ تَقْدِيمُ اللَّفِّ عَلَى الْهَمْزَةِ وَعَكْسُهُ.

(فَقَبِضَتْهُ): أَي: تَوَفَّتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ.

^{٨٥} - صحيح مسلم (٢١١٨ / ٤) - ٤٦ - (٢٧٦٦)

^{٨٦} - صحيح البخاري (١٧٤ / ٤) - (٣٤٧٠)

[ش (يسأل) عن طريق التوبة والاستغفار. (راهب) هو المنقطع للعبادة. (فناء) مال إلى تلك القرية التي توجه إليها للتوبة والعبادة فيها.

(فأوحى) أمر أمر تكوين أي جعلها تبتعد وتقرب. (هذه) القرية المتوجه إليها. (هذه) القرية الخارج منها]

^{٨٧} - ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ١٧ / ٨٤.

شرح الحديث:

قال النووي: مذهب أهل العلم، وإجماعهم على صحة توبة القاتل عمداً، ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس. وأما ما نُقِلَ عن بعض السلف من خلاف هذا، فمراد قائله الزجر عن سبب التوبة، لا أنه يعتقد بطلان توبته. وهذا الحديث ظاهر فيه، وهو إن كان شرعاً لمن قبلنا، وفي الاحتجاج به خلاف فليس موضع الخلاف، وإنما موضعه إذا لم يرد شرعاً بموافقتة وتقريره، فإن ورد كان شرعاً لنا بلا شك، وهذا قد ورد شرعاً به وهو قوله تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ) إلى قوله: (إِلَّا مَنْ تَابَ) الآية وأما قوله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمناً مُتَعَمداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالداً فيها) فالصواب في معناها: أن جزاءه جهنم، وقد يجازى به، وقد يجازى بغيره وقد لا يجازى بل يُعفى عنه، فإن قتل عمداً مستحلاً له بغير حق ولا تأويل، فهو كافر مرتد، يخلد به في جهنم بالإجماع، وإن كان غير مستحل بل معتقداً تحريمه فهو فاسق عاصٍ مرتكب كبيرة، جزاؤه جهنم خالداً فيها، لكن بفضل الله تعالى ثم أخبر أنه لا يخلد من مات موحداً فيها، فلا يخلد هذا، ولكن قد يُعفى عنه، فلا يدخل النار أصلاً، وقد لا يُعفى عنه، بل يُعذب كسائر العصاة الموحدين، ثم يخرج معهم إلى الجنة، ولا يخلد في النار، فهذا هو الصواب في معنى الآية، ولا يلزم من كونه يستحق أن يجازى بعقوبة مخصوصة أن يتحتم ذلك الجزاء، وليس في الآية إخبار بأنه يخلد في جهنم، وإنما فيها أنها جزاؤه أي: يستحق أن يجازى بذلك.

وقوله في الحديث: (وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ) قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، والأخذان المساعدين له على ذلك ومقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين ومن يقتدي بهم، ويتنفع بصحبتهم، وتؤكد بذلك توبته.^{٨٨}

من فوائد الحديث:

قال الله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} .

١ - مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل الأنفس، ويحمل على أن الله تعالى إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه.

٢ - فضل العالم على العابد لأن الذي أفناه أولاً بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير، وأما الثاني فغلب عليه العلم فأفناه بالصواب ودله على طريق النجاة.

^{٨٨} - شرح النووي على صحيح مسلم، ١٧ / ٨٢-٨٣

٣- في الحديث إشارة إلى قلة فطنة الراهب لأنه كان من حقه التحرز من اجترأ على القتل حتى صار له عادة بأن لا يواجهه بخلاف مراده وأن يستعمل معه المعاريض مداراة عن نفسه، هذا لو كان الحكم عنده صريحا في عدم قبول توبة القاتل فضلا عن أن الحكم لم يكن عنده إلا مظنونا.

٤- اسْتَحْبَابُ مُفَارَقَةِ التَّائِبِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي أَصَابَ بِهَا الذُّنُوبَ ، وَالْأَصْحَابِ الْمُسَاعِدِينَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ وَمُقَاطَعَتِهِمْ مَا دَامُوا عَلَى حَالِهِمْ ، وَأَنْ يَسْتَبْدِلَ بِهِمْ صُحْبَةَ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمُتَعَبِّدِينَ الْوَرَعِينَ وَمَنْ يَقْتَدِي بِهِمْ ، وَيَنْتَفِعَ بِصُحْبَتِهِمْ ، وَتَتَأَكَّدُ بِذَلِكَ تَوْبَتُهُ .
وفي القصة فضل التحول من الأرض التي يُصِيبُ الْإِنْسَانَ فِيهَا الْمَعْصِيَةُ لِمَا يَغْلِبُ بِحُكْمِ الْعَادَةِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ: إِمَّا لِتَذَكُّرِهِ لِأَفْعَالِهِ الصَّادِرَةِ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْفِتْنَةِ بِهَا ، وَإِمَّا لَوُجُودِ مَنْ كَانَ يُعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ وَيَحْضُرُهُ عَلَيْهِ .

وَلِهَذَا قَالَ لَهُ الْعَالِمُ : « وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ » ، فَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّائِبَ يَنْبَغِي لَهُ مُفَارَقَةُ الْأَحْوَالِ الَّتِي اعْتَادَهَا فِي زَمَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَالتَّحَوُّلُ مِنْهَا كُلِّهَا وَالِاشْتِغَالُ بِغَيْرِهَا.^{٨٩}

٥- أن باب التوبة مفتوح إلى أن يأتي الإنسان الموت، أو تطلع الشمس من مغربها، قال تعالى: (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) * وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [سورة النساء: ١٧-١٨].

وفي الحديث عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ». ^{٩٠} وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ^{٩١}. فعلى المذنب أن يستيقظ من غفلته، و يفيق من سباته ونومه، ويبادر إلى التوبة؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه الموت، قال تعالى: (أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ) [سورة النساء: ٧٨]، وقال تعالى: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) [سورة لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فِإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) [سورة النحل: ٦١].

٦- أن التوبة المقبولة عند الله هي التوبة النصوح، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) [سورة التحریم: ٨] . والتوبة النصوح هي المجتمعة الأركان (شروط)، قال النووي: لِلتَّوْبَةِ ثَلَاثَةٌ أَرْكَانٌ : أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَيَنْدَمَ عَلَىٰ فِعْلِهَا، وَيَعَزِمَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا، فَإِنْ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ لَمْ تَبْطُلْ

^{٨٩} - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ٦ / ٥١٧

^{٩٠} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٣٩٤ / ٢) (٦٢٨) حسن

^{٩١} - صحيح مسلم (٢٠٧٦ / ٤) ٤٣ - (٢٧٠٣) [ش (تاب الله عليه) أي قبل توبته ورضي بها]

تَوْبَتِهِ، وَإِنْ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ وَهُوَ مُتَلَبِّسٌ بِآخِرِ صَحَّتِ تَوْبَتِهِ. هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ. وَخَالَفَتِ الْمُعْتَرِلَةُ فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^{٩٢}.

٧- المذنب لا ييأس من رحمة الله ، ولو ملاً الأرض ذنوباً ، بل يجب عليه أن يتوب إلى ربه حالاً ، قال الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: ٢٥]

٨- لا بد للجاهل من سؤال عالم بالكتاب والسنة حتى يحل مشكلاته .

٩- لا يجوز للعابد أن يفتي الناس إذا كان جاهلاً ، ولو تزيا بزى العلماء ، فإن ضرره أكثر من نفعه ، وقد يعود بالوبال عليه كما في هذه القصة ، ولو كان هذا الراهب عالماً لما سد باب التوبة على من سأل ، ولما عرض نفسه للقتل .

١٠- العالم : هو الذي يفتح للناس باب التوبة ، ويغلق باب القنوط من الرحمة ، فهو كالطبيب يأخذ بيد المريض نحو الشفاء ، ويفتح له باب الرجاء) .

١١- على التائب أن يرافق الصالحين ليعتاد فعل الطاعات وترك السيئات عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^{٩٣}.

١٢- التحاكم إلى عالم بالكتاب والسنة مشروع عند الاختصاص .

١٣- لا تحتقر مذنباً مهما فعل ، لأنك لا تدري بم يختتم له : ففي الحديث عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنْهُمْ، فَقَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» فَتَبِعَهُ رَجُلٌ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَقَالَ بِذُبَابَةِ سَيْفِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، فَتَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ، فِيمَا يَرَى النَّاسُ، عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ، عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا»^{٩٤} .

وعَنْ جُنْدَبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَدَّثَ " أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ " أَوْ كَمَا قَالَ^{٩٥}



^{٩٢} - شرح النووي على صحيح مسلم، ٢ / ٤٥

^{٩٣} - مسند أبي داود الطيالسي (٤ / ٢٩٩) (٢٦٩٦) صحيح

^{٩٤} - صحيح البخاري (٨ / ١٠٣) (٦٤٩٣)

[ش (غناء عنهم) يقال غني عن فلان ناب عنه وأجري مجراه. (بخواتيمها) جمع خاتمة وهي عاقبة الأمر ونهايته]

^{٩٥} - صحيح مسلم (٤ / ٢٠٢٣) - ١٣٧ - (٢٦٢١) [ش (يتألى) معنى يتألى يحلف والألية اليمين]

أهمية خطبة الحاجة وتأثيرها على النفوس

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنْوَعَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدَيَّ مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغَنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَلَى قَوْمِكَ»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً، فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْحَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: رُدُّوْهَا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ ضِمَادٌ^{٩٦}

المفردات والمعنى العام :

قَالَ: إِنَّ ضِمَادًا) : بَكَسِرِ الضَّادِ وَيُضَمُّ وَتَخْفِيفِ الْمِيمِ وَدَالٍ فِي آخِرِهِ، وَيُرْوَى ضِمَامٌ بِمِيمٍ فِي آخِرِهِ (قَدِمَ مَكَّةَ) ، بَكَسِرِ الدَّالِ أَي: نَزَلَ بِهَا مِنْ سَفَرٍ (وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنْوَعَةَ) : بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَضَمِّ ثَوْنٍ فَوَاوٍ سَاكِنَةٍ فَهَمْزَةٍ فَهَاءٍ، قَبِيلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْيَمَنِ، وَالْأَزْدُ قَبِيلَةٌ مِنْهَا. قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: هُوَ بَضَمُ الضَّادِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرُهَا اسْمُ رَجُلٍ كَانَ صَدِيقًا لِلنَّبِيِّ ﷺ - قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ. وَقَالَ الْمُؤَلِّفُ: هُوَ ضِمَادُ بْنُ ثَعْلَبَةَ الْأَزْدِيِّ، كَانَ يَطْتِيبُ وَيَطْلُبُ الْعِلْمَ أَسْلَمَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ (وَكَانَ يَرْقِي) : بَكَسِرِ الْقَافِ أَي: يُعَالِجُ الدَّاءَ بِشَيْءٍ يُقْرَأُ ثُمَّ يَنْفُثُ (مِنْ هَذَا الرِّيحِ) ، قَالَ الطَّبِيبُ: الْإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى جِنْسِ الْعِلَّةِ لَهُ، وَذَكَرَهُ بَاعْتِبَارِ الْجُنُونِ. قَالَ الثَّوْرِيَّ: الْإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى جِنْسِ الْعِلَّةِ الَّتِي كَانُوا يَرَوْنَهَا الرِّيحَ، وَكَانَتْهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْخَبَلَ الَّذِي يُصِيبُ الْإِنْسَانَ، وَالْأَدْوَاءَ الَّتِي كَانُوا يَرَوْنَهَا مِنْ مَسَّةِ الْجِنِّ نَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِ الْجِنِّ فَيُسَمُّونَهَا الرِّيحَ اهـ.

وَقَالَ أَبُو مُوسَى: الرِّيحُ هُنَا بِمَعْنَى الْجِنِّ سَمَّوْا بِهَا لِأَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ كَالرِّيحِ (فَسَمِعَ) أَي: ضِمَادٌ (سُفَهَاءَ أَهْلِ مَكَّةَ) أَي: جُهَالَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ (يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ. فَقَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ) أَي: أَبْصَرْتُ (هَذَا الرَّجُلَ) أَي: بِالْوَصْفِ الْمَذْكُورِ لَدَاوَيْتُهُ، فَجَوَابُ (لَوْ) مُقَدَّرٌ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ لَوْ هَذِهِ لِلْتَمَنِّي كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: (لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَهُ عَلَى يَدَيَّ) . أَي: بِسَبَبِي (قَالَ) أَي: ابْنُ عَبَّاسٍ

(فَلَقِيَهُ) أَي: مُحَمَّدًا (فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي أَرْفِي مِنْ هَذَا الرِّيحِ، فَهَلْ لَكَ) ؟ أَي: رَغْبَةٌ فِي أَنْ أَرْفِكَ وَأُخْلَصَكَ مِنَ الْجُنُونِ (فَقَالَ - ﷺ - (إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ) ، أَي: ثَابِتٌ لَهُ مُخْتَصٌّ بِهِ، سَوَاءٌ حُمِدَ أَوْ لَمْ يُحْمَدْ (نَحْمَدُهُ) أَي: لَوْجُوبِهِ عَلَيْنَا وَلِعَوْدِ نَفْعِهِ إِلَيْنَا (وَنَسْتَعِينُهُ) أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ) أَي: إِلَى طَرِيقِ تَوْحِيدِهِ وَشُهُودِ تَفْرِيدِهِ بِمُقْتَضَى فَضْلِهِ (فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلُّ) أَي: وَمَنْ يُضِلُّهُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ بِمُوجِبِ عَدْلِهِ (فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ) أَي: مُنْفَرِدًا وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ كَقَوْلِهِ: (لَا شَرِيكَ لَهُ) ، أَوْ الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ تَوْحِيدُ الذَّاتِ، وَبِالثَّانِي تَفْرِيدُ الصِّفَاتِ (وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ) أَي: الْمُخْتَصُّ الْمُكَرَّمُ (وَرَسُولُهُ) أَي: الْمَخْصُوصُ الْمُعَظَّمُ - ﷺ .

وَشَرَفَ وَكَرَّمَ (أَمَّا بَعْدُ) أَي: وَأَرَادَ أَنْ يَخْطُبَ لَهُ خُطْبَةٌ عَظِيمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ جَسِيمَةٌ تَعَجُّزُ عَنْهُ الْبَلَّغَاءُ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ الْفُصَحَاءُ، لِيَعْلَمَ الْعُقَلَاءُ أَنَّهُمْ بِجَنِّهِ مِنَ الْمَجَانِينِ وَالسُّفَهَاءِ، (قَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ) ، الْمُتَقَدِّمَةُ الدَّالَّةُ عَلَى جَزَالَةِ الْخَاتِمَةِ (فَاعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) . يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ التَّثْلِيثُ بِالْأَوَّلَى كَمَا كَانَ لَهُ الْعَادَةُ أَوْ بغيرِهَا، كَمَا يُفِيدُ حَقِيقَةُ الْإِعَادَةِ مَعَ زِيَادَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي مَقَامِ الْإِفَادَةِ وَتَمَامِ الْإِسْتِفَادَةِ (قَالَ) أَي: ضِمَادٌ (لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكُهَنَةِ) . بَفَتْحَتَيْنِ جَمْعُ كَاهِنٍ وَهُوَ الْمُخْبِرُ عَنِ الْغَيْبِ بِعِبَارَاتٍ مُسَجَّعَةٍ وَإِشَارَاتٍ مُبْدَعَةٍ (وَقَوْلَ السَّحَرَةِ) جَمْعُ سَاحِرٍ وَهُوَ الْمُخِيلُ فِي الْعَيْنِ وَالذَّهْنِ مِنْ جِهَةِ قَوْلِهِ أَوْ مِنْ أَجْلِ فِعْلِهِ (وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ) ، جَمْعُ شَاعِرٍ وَهُوَ الْمُحَلِّي بِاللِّسَانِ فِي كُلِّ شَأْنٍ حَتَّى شَأْنِ مَا زَانَ وَمَا شَانَ، يُرِيدُ أَنَّهُمْ يَنْسُبُونَكَ تَارَةً إِلَى الْكُهَانَةِ وَمَرَّةً إِلَى السَّحَرِ، وَأُخْرَى إِلَى الشُّعْرِ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَهَ أَصْحَابَهَا (فَمَا سَمِعْتُ) أَي: مِنْهُمْ (مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ) . يَعْنِي فَلَوْ كُنْتُ مِنْهُمْ لَأَشَبَّهُ كَلَامَكَ كَلَامَهُمْ، فَإِذَا كَانَ كَلَامُهُ أَبْلَغَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ، فَلَا يَعْدُهُ مَجْنُونًا إِلَّا السُّفَهَاءُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ الْكُهَانَ وَالسَّحَرَةَ وَالشُّعْرَاءَ أَهْلَ الْبَلَاغَةِ وَالْمُتَصَرِّفِينَ فِي الْقَوْلِ عَلَى أَيِّ أُسْلُوبٍ شَاءُوا، فَأَشَارَ بِقَوْلِهِ هَذَا إِلَى الْإِعْجَازِ أَي: جَاوَزَ كَلَامَكَ حَدَّ الْبَلَاغَةِ، وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ - ﷺ - قَابَلَ كَلَامَ ضِمَادٍ بِمَا تَقَدَّمَ لِيُظْهِرَ لَهُ كَمَالَ عَقْلِهِ، وَيَتَبَيَّنَ جَهْلُ أَعْدَائِهِ.

وَقَالَ الطَّبِيُّ: طَابَقَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ - ﷺ - قَوْلَ ضِمَادٍ مِنْ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ مِنْ سُفَهَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ أَنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ اعْتَقَدَ أَنَّهُ كَذَلِكَ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ رَغْبَةٌ فِي الْخُلَاصِ؛ كَأَنَّهُ - ﷺ - مَا التَفَتَ إِلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى الْحَقِّ الْبَحْثِ وَالصَّدَقِ الْمَحْضِ، أَي: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ أَتَكَلَّمُ كَلَامَ الْمَجَانِينِ، بَلْ كَلَامِي نَحْوُ هَذَا وَأَمْثَالِهِ، فَتَفَكَّرَ فِيهِ هَلْ يَنْطِقُ الْمَجْنُونُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَنَحْوِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} - وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ { [القلم: ٥١ - ٥٢] أَي: إِنَّهُمْ حَنَنُوهُ لِأَجْلِ الْقُرْآنِ، وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَمَوْعِظَةٌ لِلْعَالَمِينَ، وَكَيْفَ يُجَنُّ مَنْ جَاءَ بِمِثْلِهِ. قُلْتُ بَلِ الْمَجْنُونُ مَنْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ الْحَقِّ وَاشْتَعَلَ بِكَلَامِ الْخُلُقِ، وَلِذَا قَالَ - ﷺ - (اذْكُرُوا اللَّهَ حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونٌ) ثُمَّ قَالَ الطَّبِيُّ: وَالْعَرَبُ رَبَّمَا اسْتَعْمَلُوا هَؤُلَاءِ فِي غَيْرِ الْعُقَلَاءِ، وَقَدْ شَهِدَ بِهِ التَّنْزِيلُ قَالَ تَعَالَى: {إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦] قَالَ الشَّاعِرُ:

ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنَزَلَةِ اللَّوَى ... وَالْعَيْشَ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْأَيَّامِ

(وَلَقَدْ بَلَّغْنَا) أَي: هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتُ الْجَامِعَاتُ الْمُحِيطَاتُ بِحُرُوفِ كَاللَّائِي الْمَنْظُومَاتِ الَّتِي يَعْجِزُ الْعَوَاصُ عَنْ إِخْرَاجِهَا وَإِثْرَازِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى إِعْجَازِهَا مِنْ كَمَالِ إِيجَازِهَا (قَامُوسُ الْبَحْرِ) ، أَي: مُعْظَمُ بَحْرِ الْكَلَامِ وَوَسَطَ لُجَّةَ الْمَرَامِ، وَالْمَعْنَى بَلَغَتْ غَايَةَ الْفَصَاحَةِ وَنَهَايَةَ الْبَلَاغَةِ. قَالَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ: الْقَمْسُ الْعَوَصُ وَالْعَمْسُ وَالْقَوْمُسُ مُعْظَمُ مَاءِ الْبَحْرِ كَالْقَامُوسِ وَالْقَامُوسُ الْبَحْرُ أَوْ أَبْعَدُ مَوْضِعٍ فِيهِ عَوْرًا (هَاتِ) : بِكَسْرِ التَّاءِ أَي: إِلَخْ (يَدُكَ أَبَايَعُكَ) : بِالْجَزْمِ جَوَابُ الْأَمْرِ (عَلَى الْإِسْلَامِ. قَالَ) أَي: ابْنُ عَبَّاسٍ (فَبَايَعَهُ) . أَي: النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .

(وَفِي بَعْضِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ: بَلَّغْنَا) أَي: بِصِغَةِ الْمُتَكَلِّمِ مَعَ الْغَيْرِ (نَاعُوسُ الْبَحْرِ) . بِالْثَوْنِ وَالْعَيْنِ وَهُوَ تَصْخِيفٌ وَتَحْرِيفٌ، حَيْثُ لَمْ يُذَكَّرِ النَّاعُوسُ فِي الْقَامُوسِ. قَالَ الثَّوْرِبَشْتِيُّ: وَفِي كِتَابِ الْمَصَابِيحِ بَلَّغْنَا وَهُوَ خَطَأٌ لَا سَبِيلَ إِلَى تَقْوِيمِهِ مِنْ طَرِيقِ الْمَعْنَى وَالرَّوَايَةِ لَمْ تَرِدْ لَهُ، وَنَاعُوسُ الْبَحْرِ أَيْضًا خَطَأً، وَكَذَلِكَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِهِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَقَدْ وَهَمُوا فِيهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ الرُّوَادِ أَخْطَأَ فِيهِ، فَرُوِيَ مَلْحُونًا وَهَذَا مِنَ الْأَلْفَافِ الَّتِي تُسْمَعُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، وَالصَّوَابُ فِيهِ قَامُوسُ الْبَحْرِ، وَهُوَ وَسَطُهُ وَمُعْظَمُهُ مِنَ الْقَمْسِ وَهُوَ الْعَوَصُ وَالْقَمَّاسُ الْعَوَاصُ. وَقَالَ الطَّبِّيُّ، قَوْلُهُ: بَلَّغْنَا خَطَأً إِنْ أَرَادَ بِهِ مِنْ حَيْثُ الرَّوَايَةُ، فَلَا نُنْكِرُهُ لَأَنَّا مَا وَجَدْنَاهَا فِي الْأُصُولِ، وَإِنْ أَرَادَ بِحَسَبِ الْمَبْنَى فَمَعْنَاهَا صَحِيحَةٌ أَي: قَدْ وَصَلْنَا إِلَى لُجَّةِ الْبَحْرِ وَمَحَلِّ اللَّائِي وَالذَّرِّ، فَيَجِبُ أَنْ نَقِفَ عَلَيْهِ وَنَعُوصَ فِيهِ اسْتِخْرَاجًا لِفَوَائِدِهِ وَالتَّقَاطُطًا لِفَرَائِدِهِ قُلْتُ: الشَّيْخُ نَفَى الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّ الْحَقِيقِيَّ إِذْ لَيْسَ الْكَلَامُ فِي الْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ الَّذِي هُوَ بِإِشَارَاتِ الصُّوفِيَّةِ أَشْبَهَ فَتَدَبَّرْ وَتَنَبَّهُ. قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُهُ (نَاعُوسُ الْبَحْرِ) أَيْضًا خَطَأً، فَلَيْسَ بِصَوَابٍ، أَمَّا رِوَايَةُ فَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ فِي شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ: (نَاعُوسُ الْبَحْرِ) ضَبْطَاهُ بَوَجْهَيْنِ أَشْهَرُهُمَا بِالْثَوْنِ وَالسَّيْنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَوْجُودُ فِي نُسَخِ بِلَادِنَا، وَالثَّانِي قَامُوسُ الْبَحْرِ بِالْقَافِ وَالْمِيمِ، وَهَذَا الثَّلَاثُ هُوَ الْمَشْهُورُ فِي رِوَايَاتِ الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ. قُلْتُ هَذَا مَا يُنَافِي قَوْلَ الشَّيْخِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُنْكَرْ وَجُوهُ الثَّقَلِ وَالرَّوَايَةِ، بَلْ يَطْعُنُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ اللَّغَةُ وَالذَّرَايَةُ. قَالَ: وَقَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: رَوَى بَعْضُهُمْ (نَاعُوسُ) بِالْثَوْنِ وَالْعَيْنِ. وَقَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْحُسَيْنِ: نَاعُوسُ الْبَحْرِ بِمَعْنَى قَامُوسِهِ. قُلْتُ: وَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ الْقَامُوسَ هُوَ الْأَشْهَرُ وَالْأَكْثَرُ، وَإِنَّمَا جَاءَ النَّاعُوسُ فِي رِوَايَةٍ، وَهُوَ لِكَوْنِهِ لَا يَسْتَقِيمُ فِي الْمَعْنَى حُمِلَ عَلَى أَنَّهُ بِمَعْنَى الْقَامُوسِ، وَإِنْ لَمْ يُسْمَعْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. قَالَ: وَفِي النَّهَايَةِ قَالَ أَبُو مُوسَى: (نَاعُوسُ الْبَحْرِ) كَذَا وَقَعَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَفِي سَائِرِ الرِّوَايَاتِ (قَامُوسُ الْبَحْرِ) ، وَهُوَ وَسَطُهُ وَلُجَّتُهُ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يُجَوِّدْ كَيْفِيَّتُهُ، فَصَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ أَصْلًا فِي مُسْنَدِ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهُوِيَةَ الَّذِي رَوَى عَنْهُ مُسْلِمٌ هَذَا الْحَدِيثَ، غَيْرَ أَنَّهُ قَرَنَهُ بِأَبِي مُوسَى وَرِوَايَتِهِ، فَلَعَلَّهَا فِيهَا قَالَ: وَإِنَّمَا أُوْرِدَ نَحْوُ هَذِهِ الْأَلْفَافِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا طَلَبَهُ وَلَمْ يَجِدْهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ

فَحَجَّرَ، فَإِذَا نَظَرَ فِي كِتَابِنَا عَرَفَ أَصْلَهُ وَمَعْنَاهُ قُلْتُ: وَهَذَا كُلُّهُ يُؤَيِّدُ الشَّيْخَ فِيمَا قَرَّرَهُ، وَيُؤَكِّدُ مَا حَرَّرَهُ مِنْ جِهَةٍ عَدَمِ صِحَّةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الرُّوَايَةِ.

قَالَ الطَّبَّيُّ: وَأَمَّا دِرَايَةٌ فَقَالَ الْقَاضِي نَاصِرُ الدِّينِ: نَاعُوسُ الْبَحْرِ مُعْظَمُهُ، وَتَحْتَهُ الَّذِي يُعَاصُ فِيهَا لِإِخْرَاجِ اللَّائِي، مِنْ نَعَسٍ إِذَا نَامَ لِأَنَّ الْمَاءَ مِنْ كَثَرَتِهِ لَا تَظْهَرُ حَرَكَتُهُ، فَكَأَنَّهُ نَائِمٌ. قُلْتُ: ثَبَتَ الْعَرْشُ ثُمَّ انْقَشَ الْفَرْشُ، فَإِنَّ تَحْقِيقَ الرُّوَايَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى تَدْقِيقِ الدِّرَايَةِ، مَعَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مَعْنَاهُ اللَّغْوِيُّ، بَلْ تَكْلُفٌ وَتَعَسُفٌ فِي تَصْحِيحِهِ بِالْمَعْنَى الْمَجَازِيَّةِ، فَأَنَّى يُقَاوَمُ قَوْلُ الشَّيْخِ، وَهَذَا مِنَ الْأَلْفَافِ الَّتِي لَمْ تُسْمَعْ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، وَأَغْرَبَ الطَّبَّيُّ حَيْثُ قَالَ: وَمِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ النَّاعُوسُ حَقِيقَةً فِي الْقَامُوسِ، وَكَانَتْ لُغَةً عَرَبِيَّةً خَفِيَّ مَكَانِهَا فَلَمْ تُنْقَلْ نَقْلًا فَاشِيًا هـ. وَلَا يَخْفَى أَنَّهُ إِنْ فَتَحْنَا بَابَ الْإِمْكَانِ انْسَدَّ طَرِيقُ التَّحْقِيقِ فِي مَكَانٍ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.^{٩٧}

من فوائد الحديث والقصة :

- ١- العرب قبل الإسلام كانت تعتقد بمس الجن ، ويسمونه (الريح) وجاء الإسلام ، فأقره ، قال الله تعالى : {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}
- ٢- من العرب من كان يرقى من مس الجن ، وربما استعانوا بالجنب ، فأبطل الإسلام هذه الاستعانة ، وقال الله تعالى عنهم : {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} (زاد الكفار خوفاً وإثماً وطغياناً) .

وبعض المسلمين يستعينون بالجن لمداداة المرضى ، أو لفك السحر ، وهذا من الشرك الأكبر الذي يحبط العمل ، ويزيدهم طغياناً وكفراً ، وعلى المسلم أن يتداوى بقراءة المعوذتين .

أ- كان الرسول ﷺ يتعوذ من أعين الجان ، وأعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما .

ب- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين ، وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذتين وأمسح بيده عليه رجاء بركتها .

٣- من العرب في الجاهلية من يعتقد أن الشافي هو الله وحده ، وبعض المسلمين - مع الأسف الشديد - يعتقدون أن الرسول ﷺ وغيره يشفي من الأمراض المختلفة .

فقد قال الأخ (أحمد محمد جمال) في جريدة المدينة : (وفي روايات متعددة يصف الرسول ﷺ نفسه بأنه (رحمة مهداة) إلى الإنسانية ، ليخرجها من الظلمات إلى النور ، ويشفي قلوبها وأبصارها وأبدانها من الأسقام الحسية والمعنوية معاً ، والدليل على رد كلامه ما جاء في القرآن والحديث :

أ- قال الله تعالى على لسان إبراهيم : {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}

^{٩٧} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧٤٩)

ب- وقال الرسول ﷺ : (اللهم رب الناس أذهب البأس ، وأشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً) .

٤- خطبة الحاجة يسمعها (ضماد) فيتأثر بها ويطلب من الرسول ﷺ إعادتها ، ويبايعه على الإسلام مع قومه ، لأنها تحتوي على حمد الله ، والاستعانة ، وأن المعبود بحق هو الله وحده .

النص الكامل لخطبة الحاجة :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: عَلَّمَنَا خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: " الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَفْرَأُ ثَلَاثَ آيَاتٍ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: ١٠٢]، { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء: ١]، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا } [الأحزاب: ٧٠] ٩٨

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةَ الصَّلَاةِ وَخُطْبَةَ الْحَاجَةِ فَأَمَّا خُطْبَةُ الصَّلَاةِ فَالْتَّشَهُدُ ، وَأَمَّا خُطْبَةُ الْحَاجَةِ ، فَإِنْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، ثُمَّ يَفْرَأُ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ : { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } { اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } ثُمَّ تَعْمِدُ لِحَاجَتِكَ. ٩٩

من فوائد الخطبة العظيمة :

- ١- هذه الخطبة وردت من حديث لجابر رضي الله عنه قال فيه : (إن النبي ﷺ يقول ذلك إذا خطب ، كما رواه مسلم والنسائي وغيرهما ، وذلك يشمل الخطب كلها ، وبصورة خاصة خطبة الجمعة ، فقد جاء التنصيص عليها عند مسلم في رواية له ، فعلى الخطاب أن يحيوا هذه السنة .
- ٢- يستفاد من الخطبة عدم الاستعاذة عند قراءة الآيات أثناء الخطبة ، أو الكلام ، أو المحاضرات ، أو غيرها لأن الرسول ﷺ لم يستعذ عند قراءتها ، والاستعاذة شرعت عند قراءة القرآن فقط .

٩٨ - سنن النسائي (٣/ ١٠٤) (١٤٠٤) صحيح لغيره

٩٩ - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبله (٩/ ٤٣٩) (١٧٧٩٨) صحيح لغيره

٣- قول الله تعالى: { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } [النساء: ١] فيه دليل على جواز السؤال بالله تعالى: وأما حديث: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ» فضعيف^{١٠٠}، وعلى فرض صحته، فهو محمول على سؤال الأمور الحقيرة.

٤- يجوز الاختصار على جزء من أول الخطبة كما فعل الرسول ﷺ في أول القصة التي أسلم فيها الصحابي (ضمد).

هذه هي خطبة الحاجة التي كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه أن يقولوها بين يدي كلامهم في أمور دينهم سواء كانت خطبة نكاح أو جمعة، أو محاضرة



^{١٠٠} - سنن أبي داود (٢/ ١٢٧) (١٦٧١) ضعيف

قصة الرجل الذي كان يتجاوز عن الموسر ويخفف عن المعسر

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "مَاتَ رَجُلٌ، فَقِيلَ لَهُ، قَالَ: كُنْتُ أَبَايُعُ النَّاسَ، فَأَتَجَوَّزُ عَنِ الْمُسْرِ، وَأُخَفِّفُ عَنِ الْمُعْسِرِ، فَعُفِّرَ لَهُ" قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ^{١٠١}.

شرح المفردات: ١٠٢

(فقيل له): أي: ماذا كنت تعمل من الخير في حياتك.

(أُبايُعُ): أي: أبيعهم وأشتري منهم.

(أَتَجَوَّزُ): التجاوز المسامحة في الاقتضاء والاستيفاء.

(الْمُسْرِ): صاحب اليد ومن يجد سعة في الرزق.

(أُخَفِّفُ): من التخفيف أي: أضع عنه.

(الْمُعْسِرِ): الذي يضيق عليه العيش، ومن لا يجد سعة.

من فوائد الحديث:

١- فضل إنظار للمعسر والتجاوز عن الموسر، وقد دعا نبينا ﷺ لمن يكون ليناً وسمحاً مع الآخرين؛ فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»^{١٠٣}.

فمن أحب أن تناله هذه الدعوة فليقتد به وليعمل بمثل عمله.

٢- الحض على المسامحة وحسن المعاملة واستعمال محاسن الأخلاق ومكارمها وترك المشاحة في البيع، وترك التضيق على الناس في المطالبة وأخذ العفو منهم. قال ابن حبيب تستحب السهولة في البيع والشراء وليس هي ترك المطالبة فيه إنما هي ترك المضاجرة ونحوها^{١٠٤}.



^{١٠١} - صحيح البخاري (١١٦/٣) (٢٣٩١)

^{١٠٢} - ينظر: عمدة القاري للعيني، ١١/ ١٩٠. ومنحة الباري على هامش صحيح البخاري، ٢/ ٨٤٣

^{١٠٣} - صحيح البخاري (٥٧/٣) (٢٠٧٦)

[ش (سمحاً) جواداً متساهلاً يوافق على ما طلب منه. (اقتضى) طلب الذي له على غيره]

^{١٠٤} - عمدة القاري للعيني، ١١/ ١٨٩.

قصة من نكا قرحته حتى مات

عن شَيْبَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ، يَقُولُ: " إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَتْ بِهِ قَرْحَةٌ، فَلَمَّا أَذْنُهُ انْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ فَنَكَأَهَا، فَلَمْ يَرَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ رَبُّكُمْ: «قَدْ حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: إِي وَاللَّهِ، لَقَدْ حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ جُنْدُبٌ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ. "١٠٥.

وَعَنِ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا جُنْدُبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي هَذَا الْمَسْجِدِ فَمَا نَسِينَا وَمَا نَخَافُ أَنْ يَكْذِبَ جُنْدُبٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ: " كَانَ بَرَجُلٍ جِرَاحٌ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ اللَّهُ: بِدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ "١٠٦.

وَعَنِ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، وَمَا نَسِينَا مِنْذُ حَدَّثَنَا، وَمَا نَخْشَى أَنْ يَكُونَ جُنْدُبٌ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزَعُ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بِادْرِنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ "١٠٧.

شرح المفردات ١٠٨:

(الْقَرْحَةُ): بَفَتْحِ الْقَافِ وَإِسْكَانِ الرَّاءِ وَهِيَ وَاحِدَةُ الْقُرُوحِ وَهِيَ: حَبَّاتٌ تَخْرُجُ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ. (فَجَزَعُ): أَي: فَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى أَلَمِ تِلْكَ الْقَرْحَةِ. (نَكَأَهَا): قَشَرَهَا وَخَرَقَهَا وَفَتَحَهَا وَهُوَ مَهْمُوز. (لَمْ يَرَقَأَ الدَّمُ): أَي: لَمْ يَنْقَطِعْ وَهُوَ مَهْمُوز. يُقَالُ: رَقَأَ الدَّمُ وَالْدَّمْعُ يَرَقَأُ رُقُوعًا مِثْلُ: رَكَعَ يَرْكَعُ رُكُوعًا إِذَا سَكَنَ وَانْقَطَعَ.

معنى الحديث:

(وَعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ)، أَيِ الْبَجَلِيِّ (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ " : الْبَاءُ لِلِإِلْصَاقِ (" جُرْحٌ ")، بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَقَدْ يُفْتَحُ (" فَجَزَعُ ") : بِكَسْرِ الزَّايِ أَيِ خَرَجَ عَنْ حَيْزِ الصَّبْرِ (" فَأَخَذَ سِكِّينًا، فَحَزَّ ") : بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَتَشْدِيدِ الزَّايِ، أَي: قَطَعَ

١٠٥ - صحيح مسلم (١/ ١٠٧) - ١٨٠ (١١٣)

١٠٦ - صحيح البخاري (٢/ ٩٦) (١٣٦٤)

[ش (برجل) من الأمم السابقة. (بدرني) استعجل الموت ولم يصبر حتى أقبض روحه من غير سبب منه]

١٠٧ - صحيح البخاري (٤/ ١٧٠) (٣٤٦٣)

[ش (في هذا المسجد) مسجد البصرة الجامع. (فجزع) لم يصبر على الألم. (فحز) قطع. (فما رقأ) لم ينقطع الدم ولم يسكن. (بادرني) عبدي بنفسه) استعجل الموت]

١٠٨ - شرح النووي على صحيح مسلم، ٢ / ١٢٤.

بَعِيرٍ إِبَانَةً قَالَهُ الْعَسْقَلَانِيُّ. وَقِيلَ: وَرُويَ بِالْجِيمِ وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى، وَفِي الْقَامُوسِ: الْحَزُّ الْقَطْعُ، وَالْحَزُّ بِالْجِيمِ قَطْعُ الشَّعْرِ وَالْحَشِيشِ أَيْ قَطْعَ ("بِهَا") : أَيْ يَتْلَكَ السَّكِينِ، وَهُوَ يُذَكِّرُ وَيُؤَنِّتُ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ بَعْضُ شُرَاحِ الْمَصَابِيحِ ("يَدُهُ") : أَيْ الْمَجْرُوحَةَ ("فَمَا رَفَأَ الدَّمَ") : بَفَتْحَاتٍ أَيْ مَا سَكَنَ وَلَمْ يَنْقَطِعْ حَتَّى مَاتَ ("قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادِرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ") : أَيْ أَرَادَ مُبَادِرَتِي بِرُوحِهِ ("فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ") . قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: مَحْمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ أَوْ عَلَى أَنَّهُ حَرَّمَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ حَتَّى يُذِيقَهُ وَبَالَ أَمْرِهِ إِنْ لَمْ يَرْحَمْهُ بِفَضْلِهِ. (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) ١٠٩ .

من فوائد الحديث: ١١٠

١- قال النووي: قَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِيهِ يُحْتَمَلُ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَحِلًّا أَوْ يُحْرَمُهَا حِينَ يَدْخُلُهَا السَّابِقُونَ وَالْأَبْرَارُ أَوْ يُطِيلُ حِسَابَهُ أَوْ يُحْبِسُ فِي الْأَعْرَافِ هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي قُلْتُ وَيُحْتَمَلُ أَنَّ شَرَعَ أَهْلَ ذَلِكَ الْعَصْرِ تَكْفِيرُ أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ ثُمَّ إِنَّ هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ نَكَأَهَا اسْتِعْجَالًا لِلْمَوْتِ أَوْ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى طَرِيقِ الْمُدَاوَاةِ الَّتِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ نَفْعُهَا لَمْ يَكُنْ حَرَامًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ ١١١ .

٢- أن الاستعجال بالموت حرام، وعقوبته شديدة، فعلى المسلم أن لا يقدم على هذا الفعل الشنيع ولو نزل به أشد أنواع البلية وأشرها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» ١١٢ .



١٠٩ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢٢٦٣ / ٦)

١١٠ - <http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac=٣٦٤٥&t=٠fc9e2b7٠٢٦٨d٥١eer٢٤aea٠d٤٦fr٩>

١١١ - شرح النووي على مسلم (١٢٧ / ٢)

١١٢ - صحيح مسلم (١٠٣ / ١) ١٧٥ - (١٠٩)

[ش (يتوجأ بها في بطنه) معناه يطعن (ومن شرب سماً فهو يتحساه) السم بضم السين وفتحها وكسرهما ثلاث لغات أفصحهن الثالثة وجمعة سمام ومعنى يتحساه يشربه في تمهل ويتجرعه (يتردى في نار جهنم) أي يتزل وأما جهنم فهو اسم لنار الآخرة وهي عجمية لا تنصرف للعجمة والتعريف وقال آخرون هي عربية لم تنصرف للتأنيث والعلمية وسميت بذلك لبعدها قعرها]

قصة كسوف الشمس على عهد النبي ﷺ

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، حَتَّى جَعَلُوا يَخْرُونَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ، ثُمَّ رَفَعَ فَأَطَالَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ، ثُمَّ رَفَعَ فَأَطَالَ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَصَنَعَ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ، فَكَانَتْ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ، ثُمَّ قَالَ: " إِنَّهُ عَرِضَ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ تُولَجُونَهُ، فَعَرَضْتُ عَلَيَّ الْجَنَّةَ، حَتَّى لَوْ تَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا أَخَذْتُهُ - أَوْ قَالَ: تَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا - فَقَصَرْتُ يَدَيَّ عَنْهُ، وَعَرَضْتُ عَلَيَّ النَّارَ، فَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هَرَّةٍ لَهَا، رَبَطْنَهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، وَرَأَيْتُ أَبَا ثُمَامَةَ عَمْرُو بْنُ مَالِكٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَخْسِفَانِ إِلَّا لِمَوْتِ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُرِيكُمُوهُمَا، فَإِذَا خَسَفَا فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ " ١١٣.

شرح المفردات:

(عَرِضَ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ تُولَجُونَهُ) أَي: تَدْخُلُونَهُ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ وَقَبْرِ وَمَحْشَرٍ وَغَيْرِهَا.
(فَعَرَضْتُ عَلَيَّ الْجَنَّةَ وَعَرَضْتُ عَلَيَّ النَّارَ) قَالَ النَّوَوِيُّ: " قَالَ الْعُلَمَاءُ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ رُؤْيَا عَيْنٍ كَشَفَ اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْهُمَا، وَأَزَالَ الْحُجُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا، كَمَا فَرَجَ لَهُ عَنِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَأَنْ تَكُونَ رُؤْيَا عِلْمٍ وَوَحْيٍ عَلَى سَبِيلِ تَفْضِيلٍ وَتَعْرِيفٍ لَمْ يَعْرِفْهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَحَصَلَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ خَشْيَةٌ لَمْ يَسْبِقْهَا، وَالتَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى وَأَشْبَهُ بِالْفَظِ الْحَدِيثِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الدَّالَّةِ عَلَى رُؤْيَا الْعَيْنِ مِنْ تَأَخُّرِهِ لئَلَّا يُصِيبَهُ لَفْحُهَا، وَتَقْدُّمِهِ لِقُطْفِ الْعُنُقُودِ، وَفِيهِ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ مَوْجُودَتَانِ، وَأَنَّ ثَمَارَهَا أَعْيَانُ كَثَمَارِ الدُّنْيَا، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَنَّ التَّأَخُّرَ عَنْ مَوْضِعِ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ سُنَّةٌ، وَأَنَّ الْعَمَلَ الْقَلِيلَ لَا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ، وَأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ مُعَذَّبٌ فِي نَفْسِ جَهَنَّمَ الْيَوْمَ، وَفِي تَعْذِيبِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ بِالنَّارِ ؛ بِسَبَبِ رِبْطِ الْهَرَّةِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ فِعْلَهَا كَانَ كَبِيرَةً ؛ لِأَنَّ رِبْطَهَا وَإِصْرَارَهَا عَلَيْهِ حَتَّى مَاتَتْ إِصْرَارًا عَلَى الصَّغِيرَةِ وَالْإِصْرَارُ عَلَيْهَا يَجْعَلُهَا كَبِيرَةً. ١١٤
(وَالْقُطْفُ): بِكَسْرِ الْقَافِ الْعُنُقُودُ، وَهُوَ فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَالذَّبْحِ بِمَعْنَى الْمَذْبُوحِ.

(فِي هَرَّةٍ): أَي: بِسَبَبِ هَرَّةٍ.

(تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ): بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ وَهِيَ هَوَامُّهَا وَحَشَرَاتُهَا، وَقِيلَ: صِغَارُ الطَّيْرِ.
(يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ): هُوَ بَضْمُ الْقَافِ وَإِسْكَانُ الصَّادِ وَهِيَ الْأَمْعَاءُ.

١١٣ - صحيح مسلم (٢/ ٦٢٢) ٩ - (٩٠٤)

١١٤ - شرح النووي على مسلم (٦/ ٢٠٧) وقرآن المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٧٢)

من فوائد الحديث:

- ١ - المبادرة إلى طاعة الله عز وجل عند حصول ما يخاف منه وما يحذر عنه، وطلب دفع البلاء بذكر الله تعالى وتمجيده وأنواع طاعته.
- ٢ - مشروعية صلاة الكسوف عند كسوف الشمس أو خسوف القمر، على الصفة المذكورة في الحديث.
- ٣ - وفيه معجزة ظاهرة للنبي وما كان عليه من نصح أمته وتعليمهم ما ينفعهم وتحذيرهم عما يضرهم.
- ٤ - بيان تعذيب أهل التوحيد لأجل المعاصي، كما في جرى للمرأة من بني إسرائيل.
- ٥ - وفيه جواز العمل اليسير في الصلاة^{١١٥}.
- ٦ - وفي هذا الحديث إبطال ما كان أهل الجاهلية يعتقدونه من تأثير الكواكب. قال الخطابي: كانوا في الجاهلية يعتقدون أن الكسوف يوجب حدوث تغير الأرض من موت أو ضرر، فأعلم النبي ﷺ - أنه اعتقاد باطل، وأن الشمس والقمر خلقان مسخران لله تعالى ليس لهما سلطان في غيرهما ولا قدرة على الدفع عن أنفسهما، قوله: (ولا لحياته) استشكلت هذه الزيادة؛ لأن السياق إنما ورد في حق من ظن أن ذلك لموت إبراهيم ولم يذكروا الحياة. قال في الفتح: والجواب أن فائدة ذكر الحياة دفع توهم من يقول: لا يلزم من نفي كونه سبباً للفقد أن لا يكون سبباً للإيجاد، فعمم الشارع النفي لدفع هذا التوهم، قوله: (فإذا رأيتموهما) أكثر الروايات بصيغة ضمير المؤنث، والمراد رأيتم كسوف كل واحد في وقته لاستحالة اجتماعهما في وقت واحد، قوله: (فافزعوا) بفتح الزاي: أي التجهوا أو توجهوا. وفيه إشارة إلى المبادرة وأنه لا وقت لصلاة الكسوف معين؛ لأن الصلاة علقت برؤية الشمس أو القمر، وهي ممكنة في كل وقت، وبهذا قال الشافعي ومن تبعه. واستثنت الحنفية أوقات الكراهة وهو مشهور مذهب أحمد، وعن المالكية: وقتها من وقت حل النافلة إلى الزوال^{١١٦}.



^{١١٥} - انظر: عمدة القاري، جزء ٧ - صفحة ٨٥.

^{١١٦} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٧/ ٦٥) وفتح الباري لابن حجر (٢/ ٥٢٨) ومرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/

١٤١) ونيل الأوطار (٣/ ٣٨٨)

٣٦٤٤&t=.fcrc٢bv٠٢٦٨d٥١eer٢٤aea٠d٤٦fr٩http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac

قصة الرجل الذي سقى السحاب أرضه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشَّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَبَعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمَسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ - لِلَّاسِمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ - فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتُ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَأَكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ " ١١٧.

شرح المفردات ١١٨:

(اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ) الْحَدِيقَةُ الْقِطْعَةُ مِنَ النَّخِيلِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْأَرْضِ ذَاتِ الشَّجَرِ.
(تَنَحَّى) مَعْنَاهُ: قَصَدَ، يُقَالُ: تَنَحَّيْتُ الشَّيْءَ وَانْتَحَيْتُهُ وَنَحَوْتُهُ إِذَا قَصَدْتَهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ عِلْمُ النَّحْوِ لِأَنَّهُ قَصَدَ كَلَامَ الْعَرَبِ.

(الْحَرَّةُ) بِفَتْحِ الْحَاءِ فَهِيَ أَرْضٌ مُلَبَّسَةٌ حِجَارَةً سَوْدًا.
(وَالشَّرْجَةُ) بِفَتْحِ الشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَإِسْكَانِ الرَّاءِ، وَجَمْعُهَا شَرَاجٍ بِكَسْرِ الشَّيْنِ، وَهِيَ مَسَائِلُ الْمَاءِ فِي الْحَرَارِ.

من فوائد الحديث:

- ١ - قال النووي: (وَفِي الْحَدِيثِ فَضْلُ الصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ، وَفَضْلُ أَكْلِ الْإِنْسَانِ مِنْ كَسْبِهِ، وَالْإِثْفَاقَ عَلَى الْعِيَالِ) ١١٩.
- ٢ - لزوم البداءة بالنفس ومن تلزم نفقته، كما أوصى بذلك النبي ﷺ في أحاديث أخرى، فعَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ» ١٢٠.
- ٣ - أن الصدقة سبب في نماء الأموال والزروع وحصول البركة فيها، وسلامتها من الآفات، كما أن البخل وإمساك اليد يستوجب رفع البركة منها، وحلول غضب الله على صاحبها، كما يجلب لها

١١٧ - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٨) ٤٥ - (٢٩٨٤)

١١٨ - شرح النووي على مسلم [جزء ١٨ - صفحة ١١٤]

١١٩ - شرح النووي على مسلم [جزء ١٨ - صفحة ١١٤]

١٢٠ - صحيح البخاري (٢/ ١١٢) (١٤٢٦)

[ش (عن ظهر غني) فاضلا عن نفقة العيال. (تعول) تجب عليك نفقتهم]

الدمار والهلاك. قال الله تعالى : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } [إبراهيم: ٧]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، كَذَا قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: " يَا غُلَامُ ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِنَّ؟ " قُلْتُ: بَلَى ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: " احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعْرِفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، فَلَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ، وَلَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرِّضَا وَالْيَقِينِ فَافْعَلْ ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكُرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا " .^{١٢١}

٤- إذا رضي الله لأ عن العبد سخر له ما شاء من الأرض والسماء.

٥- رعاية الله وحفظه للصالحين من عباده.

٦- الاتزان في أمور الحياة وإعطاء كل ذي حق حقه.

٧- تسخير الله الملائكة والمطر لعباده المتصدقين الذين يؤدون حقوق الفقراء من أموالهم .

٨- المؤمن العاقل يحفظ حق الفقراء، وحق عياله، وحق حديقته .^{١٢٢}



^{١٢١} - شعب الإيمان (١٢/ ٣٥٤) (٩٥٢٨) صحيح

^{١٢٢} - http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac - ٣٦٤٣&t=.fc9e٢b٧٠٢٦٨d٥١eer٢٤aea٠d٤٦fr٩

قصة تكلم البقرة والذئب

عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُمَا سَمِعَا أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً لَهُ، قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، التَّفَتَّ إِلَيْهِ الْبَقْرَةُ فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، وَلَكِنِّي إِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ " فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ تَعَجُّبًا وَفَزَعًا، أَبَقْرَةُ تَكَلِّمُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «فَإِنِّي أَوْمِنُ بِهِ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ»

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "بَيْنَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ، عَدَا عَلَيْهِ الذَّبُّ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً، فَطَلَبَهُ الرَّاعِي حَتَّى اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذَّبُّ فَقَالَ لَهُ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبْعِ، يَوْمَ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي؟" فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنِّي أَوْمِنُ بِذَلِكَ، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»^{١٢٣}.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: " بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ " فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقْرَةُ تَكَلِّمُ، فَقَالَ: " فَإِنِّي أَوْمِنُ بِهِذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، - وَمَا هُمَا ثَمَّ - وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذَّبُّ، فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَانَهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذَّبُّ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبْعِ، يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي " فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ذَبُّ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: «فَإِنِّي أَوْمِنُ بِهِذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، - وَمَا هُمَا ثَمَّ -»^{١٢٤}

شرح المفردات^{١٢٥}:

(يوم السَّبْعِ): بِضَمِّ الْبَاءِ، وَهَذَا يَكُونُ عِنْدَ الْفِتَنِ حِينَ تَتْرُكُهَا النَّاسُ هَمَلًا لَا رَاعِيَ لَهَا نُهْبَةً لِلْسَّبَاعِ فَجَعَلَ السَّبْعَ لَهَا رَاعِيًا أَيْ: مُنْفَرِدًا بِهَا.

قَوْلُهُ ﷺ: «فَإِنِّي أَوْمِنُ بِهِذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ» مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ أَخْبَرَهُمَا بِذَلِكَ فَصَدَّقَاهُ، أَوْ أَطْلَقَ ذَلِكَ لِمَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُمَا يُصَدِّقَانِ بِذَلِكَ إِذَا سَمِعَاهُ وَلَا يَتَرَدَّدَانِ فِيهِ. وَمَا هُمَا ثَمَّ: لَيْسَا حَاضِرَيْنِ، وَهُوَ مِنْ كَلَامِ الرَّاوي.

إِذْ عَدَا الذَّبُّ: مِنَ الْعُدْوَانِ.

قال الحافظ ابن حجر /: وَقَدْ وَقَعَ كَلَامُ الذَّبِّ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ فِي نَحْوِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، فَرَوَى أَبُو نُعَيْمٍ فِي (الدَّلَائِلِ) عَنْ أَهْبَانَ بْنِ أَوْسٍ الْأَسْلَمِيِّ، كَذَا قَالَ: " إِنَّهُ فِي غَنَمٍ لَهُ فَشَدَّ الذَّبُّ عَلَى شَاةٍ مِنْهَا، فَصَاحَ عَلَيْهِ فَأَقْعَى عَلَى ذَنَبِهِ، فَخَاطَبَنِي فَقَالَ: مَنْ لَهَا يَوْمَ تُشْعَلُ عَنْهَا، تَنْزِعُ مِنِّي رِزْقًا رَزَقْنِيهِ اللَّهُ؟

^{١٢٣} - صحيح مسلم (١٨٥٧ / ٤) ١٣ - (٢٣٨٨)

^{١٢٤} - صحيح البخاري (١٧٤ / ٤) (٣٤٧١)

[ش (الذئب هذا) أي هذا الذئب. (وما هما ثم) أي وليس أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حاضرين هناك]

^{١٢٥} - شرح النووي على مسلم [١٥٧ / ١٥]

قَالَ: فَصَفَقْتُ بِيَدِي، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَعْجَبَ مِنْ هَذَا، فَقَالَ: تَعْجَبُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ هَذِهِ النَّخْلَاتِ، وَهُوَ يَوْمِي بِيَدِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، يُحَدِّثُ النَّاسَ أَنْبَاءَ مَا قَدْ سَبَقَ، وَأَنْبَاءَ مَا يَكُونُ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَإِلَى عِبَادَتِهِ، فَأَتَى أَهْبَانُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِأَمْرِهِ وَأَمْرِ الذُّبِّ وَأَسْلَمَ^{١٢٦} فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبْعِ: مَعْنَاهُ مَنْ لَهَا يَوْمَ يَطْرُقُهَا السَّبْعُ - أَيُّ الْأَسَدِ - فَتَفِرَّ أَنْتَ مِنْهُ فَيَأْخُذُ مِنْهَا حَاجَتَهُ وَأَتَخَلَّفُ أَنَا لَا رَاعِيَ لَهَا حِينَئِذٍ غَيْرِي .

وَقِيلَ: إِنْ مَا يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ الْإِشْتِغَالِ بِالْفَتَنِ فَتَصِيرُ الْغَنَمُ هَمَلًا فَتَنْهَبُهَا السَّبَاعُ فَيَصِيرُ الذُّبُّ كَالرَّاعِي لَهَا لِإِنْفِرَادِهِ بِهَا .

من فوائد الحديث:

- ١ - قال النووي: قوله ﷺ: (فَإِنِّي أَوْمِنُ بِهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا ثَمٌّ)، قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنْ مَا قَالَ ذَلِكَ ثَقَّةً بِهِمَا لِعِلْمِهِ بِصِدْقِ إِيمَانِهِمَا، وَقُوَّةِ يَقِينِهِمَا، وَكَمَالِ مَعْرِفَتِهِمَا لِعَظِيمِ سُلْطَانِ اللَّهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ. فَفِيهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
- ٢ - وَفِيهِ جَوَازُ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَخَرَقِ الْعَوَائِدِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ^{١٢٧}.
- ٣ - قَالَ الْعُلَمَاءُ: كَلَامُ الْبَقَرَةِ هُنَا لَا يَعتَبَرُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ، فَيَجُوزُ الْحَمْلُ عَلَى الْبَقَرَةِ كَمَا يَجُوزُ الْحَرْثُ عَلَيْهَا إِذَا كَانَتْ تَطِيقُ ذَلِكَ.
- ٤ - يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُصَدِّقَ بِالْأَخْبَارِ الَّتِي جَاءَ يَهَا الْقُرْآنُ أَوْ صَحَّ بِهَا السَّنَدُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَهْمَا كَانَ الْخَبَرُ مُسْتَغْرَبًا، لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْحَدِيثِ الْمَتَوَاتِرِ وَالْأَحَادِ.
- أَمَّا الْقِصَصُ الْمَوْضُوعَةُ وَالْمَكْذُوبَةُ الَّتِي لَمْ تَصَحَّ الْأَحَادِيثُ بِهَا فَلَا تَجُوزُ رَوَايَتُهَا إِلَّا لِبَيَانِ ضَعْفِهَا وَكَذِبِهَا.
- ٥ - يَجُوزُ وَعْظُ النَّاسِ بَعْدَ الصَّلَاةِ.
- ٦ - كَانَ الذُّبُّ - وَهُوَ حَيَّوَانٌ - سَبَبًا فِي إِسْلَامِ أَهْبَانَ بْنِ أَوْسٍ، فَمَاذَا قَدَمْنَا - نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ - لِنُشْرَ دِينَ اللَّهِ لَا فِي الْأَرْضِ.^{١٢٨}



^{١٢٦} - معرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ٢٨٩) (٩٤٤) ضعيف

^{١٢٧} - شرح النووي على مسلم [١٥٧ / ١٥]

^{١٢٨} - <http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?s=ac-3642&t=.fc9e2b70.268d01ee224aea.d46f39>

قصة سقي الكلب العطشان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ رَفَعِي، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»^{١٢٩}.

وفي رواية وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: غُفِرَ لِمَرْأَةٍ مُؤْمِسَةٍ، مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ^{١٣٠}.

شرح المفردات: ١٣١

(فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ) مَعْنَاهُ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى كُلِّ حَيَوَانٍ حَيٍّ بِسَقْيِهِ وَنَحْوِهِ أَجْرٌ، وَسُمِّيَ الْحَيُّ ذَا كَبِدٍ رَطْبَةٍ، لِأَنَّ الْمَيِّتَ يَجِفُّ جِسْمُهُ وَكَبِدُهُ.

(الثَّرَى) التُّرَابُ النَّدِيّ.

(مُؤْمِسَةٍ) وَهِيَ الْفَاجِرَةُ.

(رَكِيٍّ) بِمَعْنَى الْبَثْرِ.

(يَلْهَثُ) لَهَثَ بَفَتْحِ الْهَاءِ وَكَسْرِهِ، يَلْهَثُ بِفَتْحِهَا لَا غَيْرَ، لَهْثًا بِإِسْكَانِهِ، وَرَجُلٌ لَهْثَانٌ، وَامْرَأَةٌ لَهْثَى كَعَطْشَانٍ وَعَطْشَى، وَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَ لِسَانَهُ مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ وَالْحَرِّ.

(رَفَعِي) بِكَسْرِ الْقَافِ عَلَى اللَّغَةِ الْفَصِيحَةِ الْمَشْهُورَةِ، وَحَكَى فَتَحَهُ، وَهِيَ لُغَةٌ طَيِّ فِي كُلِّ مَا أَشْبَهَ هَذَا.

(فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ) مَعْنَاهُ قَبِلَ عَمَلَهُ، وَأَثَابَهُ، وَغَفَرَ لَهُ.

من فوائد الحديث:

١ - قال النووي: فِي الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى الْحَيَوَانِ الْمُحْتَرَمِ، وَهُوَ مَا لَا يُؤْمَرُ بِقَتْلِهِ. فَأَمَّا الْمَأْمُورُ بِقَتْلِهِ فَيُمْتَثِلُ أَمْرَ الشَّرْعِ فِي قَتْلِهِ، وَالْمَأْمُورُ بِقَتْلِهِ كَالْكَافِرِ الْحَرْبِيِّ وَالْمُرْتَدِّ وَالْكَلْبِ الْعَقُورِ وَالْفَوَاسِقِ الْخَمْسِ الْمَذْكُورَاتِ فِي الْحَدِيثِ وَمَا فِي مَعْنَاهُنَّ. وَأَمَّا الْمُحْتَرَمُ فَيَحْصُلُ الثَّوَابُ بِسَقْيِهِ

^{١٢٩} - صحيح البخاري (١١٢/٣) (٢٣٦٣) وصحيح مسلم (٤/١٧٦١) ١٥٣ - (٢٢٤٤)

^{١٣٠} - صحيح البخاري (١٣٠/٤) (٣٣٢١) وصحيح مسلم (٤/١٧٦١) ١٥٥ - (٢٢٤٥)

^{١٣١} - عون المعبود للعظيم آبادي، ١٤/١٦.

وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِإِطْعَامِهِ وَغَيْرِهِ سَوَاءَ كَانَ مَمْلُوكًا أَوْ مُبَاحًا، وَسَوَاءَ كَانَ مَمْلُوكًا لَهُ أَوْ لغيرِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ ١٣٢.

وَقَالَ أَبُو عُمَرَ النَّصَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى الْبَهَائِمِ الْمَمْلُوكَاتِ وَغَيْرِ الْمَمْلُوكَاتِ أَجْرًا عَظِيمًا يُكَفِّرُ اللَّهُ بِهِ السَّيِّئَاتِ وَالذَّلِيلُ أَنَّ فِي الْإِسَاءَةِ إِلَيْهَا وَزُرًّا بِقَدْرِ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَيْهَا إِذَا كَانَ فِيهِ الْأَجْرُ فَفِي الْإِسَاءَةِ إِلَيْهَا - لَا مَحَالَةَ - الْوِزْرُ ١٣٣

وَقَوْلُهُ - ﷺ - «فِي كُلِّ ذِي كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ» عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانِ مَا يُمْلِكُ مِنْهُ وَمَا لَا يُمْلِكُ فَإِنَّ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهَا أَجْرًا. ١٣٤

قَالَ الدَّأودِيُّ: الْمَعْنَى: فِي كُلِّ كَبِدٍ حَيٍّ، وَهُوَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانِ، قَالَ الْأَبِيُّ: حَتَّى الْكَافِرُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: ٨] (سورة الإنسان: الآية ٨) ؛ لِأَنَّ الْأَسِيرَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَغْلَبِ كَافِرًا، انْتَهَى.

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الْمَلِكِ: هَذَا الْحَدِيثُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ أَمَرَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ، وَقَوْلُهُ: فِي كُلِّ كَبِدٍ، مَخْصُوصٌ بِبَعْضِ الْبَهَائِمِ مِمَّا لَا ضَرَرَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ بِقَتْلِهِ كَالْخَنَزِيرِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقْوَى لِيَزْدَادَ ضَرَرُهُ، وَكَذَا قَالَ التَّوَوِيُّ: عُمُومُهُ مَخْصُوصٌ بِالْحَيَوَانِ الْمُحْتَرَمِ، وَهُوَ مِمَّا لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهِ فَيَحْصُلُ الثَّوَابُ بِسَقْيِهِ، وَيَلْتَحِقُ بِهِ إِطْعَامُهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْإِحْسَانِ.

وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ: لَا يَمْنَعُ إِجْرَاؤُهُ عَلَى عُمُومِهِ، يَعْنِي: فَيَسْقِي، ثُمَّ يَقْتُلُ لَأَنَّا أَمَرْنَا بِأَنْ نُحْسِنَ الْقِتْلَةَ، وَنُهَيَّنَا عَنِ الْمِثْلَةِ، وَفِيهِ جَوَازُ حَفْرِ الْبَارِ فِي الصَّحْرَاءِ لِنَتَفَاعَ عَطَشَانِ وَغَيْرِهِ بِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ سَاعَ مَعَ مَظْنَةِ الْاسْتِضْرَارِ بِهَا مِنْ سَاقِطِ بَلِيلٍ، أَوْ وَقُوعِ بِهِيمَةٍ، وَنَحْوِهَا فِيهَا؟ أُجِيبَ بِأَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْمُنْفَعَةُ أَكْثَرَ وَمُتَحَقِّقَةً، وَالْاسْتِضْرَارُ نَادِرًا، أَوْ مَظْنُونًا غَلَبَ الْانْتِفَاعُ، وَسَقَطَ الضَّمَانُ، فَكَانَتْ جُبَارًا، فَلَوْ تَحَقَّقَتِ الضَّرُورَةُ لَمْ يَجْزُ، وَضَمِنَ الْحَافِرُ، وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْإِحْسَانِ وَأَنَّ سَقْيَ الْمَاءِ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرْبَاتِ. ١٣٥

وَقَدْ أُسْتَدِلَّ بِأَحَادِيثِ الْبَابِ عَلَى وَجُوبِ نَفَقَةِ الْحَيَوَانِ عَلَى مَالِكِهِ، وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى الْوُجُوبِ الْمُدْعَى. ١٣٦

٢- فيه دليل على قبول عمل المرتكب للكبائر من المسلمين، وأن الله تعالى تجاوز عن هذا الرجل - أو المرأة - تفضلاً منه، وإلا فالأصل أن الكبائر لا بد فيها من التوبة الخاصة، والله تعالى أعلم.

١٣٢ - عون المعبود للعظيم آبادي، ١٤ / ١٦.

١٣٣ - الاستذكار (٨ / ٣٧٠)

١٣٤ - المنتقى شرح الموطأ (٧ / ٢٤٤)

١٣٥ - شرح الزرقاني على الموطأ (٤ / ٤٨٣)

١٣٦ - نيل الأوطار (٧ / ٨)

٣- على المسلم أن لا يغتر ويتمادى في معصيته، بل عليه إن كان عاصياً أن يبادر إلى التوبة، فقد دلت النصوص على أن طائفة من أهل الكبائر يعذبون بذنوبهم.

٤- وقد استدل بهذا الحديث من أجاز صدقة التطوع على المشركين، لعموم قوله عليه السلام: (في كل كبد رطبة أجر) وفيه أن المجازاة على الخير والشر قد تكون يوم القيامة من جنس الأعمال، كما جاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرَبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»^{١٣٧}

٥- في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم وجميع البهائم والرفق بها. وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان، فلم يخلق الله عبثاً، وكل أحد مسئول عما استرعاه وملكه من إنسان أو بهيمة لا تقدر على النطق وتبين ما بها من الضر، وكذلك ينبغي أن يرحم كل بهيمة وإن كانت في غير ملكه، ألا ترى أن الذي سقى الكلب الذي وجدته بالفلاة لم يكن له ملكاً فغفر الله له بتكلفه التزول فيالبئر وإخراجه الماء في خفه وسقيه إياه، وكذلك كل مافي معنى السقى من الإطعام، ألا ترى قوله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا، فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»^{١٣٨}. مما يدخل في معنى سقى البهائم وإطعامها التخفيف عنها في أحمالها وتكليفها ماتطبيق حملها، فذلك من رحمتها والإحسان إليها، ومن ذلك ترك التعدي في ضربها وأذاها وتسخيرها في الليل وفي غير أوقات السخرة، وقد نهينا في العبيد أن نكلفهم الخدمة في الليل فإن لهم الليل ولواليتهم النهار، والدواب وجميع البهائم داخلون في هذا المعنى.^{١٣٩}



^{١٣٧} - شرح صحيح البخارى لابن بطلال (٥٠٣/٦) والحديث في صحيح مسلم (١٠٣/١) ١٧٥ - (١٠٩)

[ش (يتوجأ بها في بطنه) معناه يطعن (ومن شرب سماً فهو يتحساه) السم بضم السين وفتحها وكسرهما ثلاث لغات أفصحهن الثالثة وجمعة سمام ومعنى يتحساه يشربه في تمهل ويتجرعه (يتردى في نار جهنم) أي يتزل وأما جهنم فهو اسم لنار الآخرة وهي عجمية لا تنصرف للعجمة والتعريف وقال آخرون هي عربية لم تصرف للتأنيث والعلمية وسميت بذلك لبعدها قعرها]

^{١٣٨} - صحيح البخاري (١٠/٨) (٦٠١٢)

^{١٣٩} - شرح صحيح البخارى لابن بطلال (٢١٩/٩)

قصة غرق فرعون

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: { أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بُنُو إِسْرَائِيلَ } [يونس: ٩٠] " فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَخْذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِيهِ مَخَافَةً أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ »^{١٤٠}.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَفَعَهُ أَحَدُهُمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَدُسُّ فِي فَمِ فِرْعَوْنَ الطُّيْنِ مَخَافَةً أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »^{١٤١}.

شرح المفردات:

(وَأَنَا أَخْذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ) أي: طينه الأسود.

(وَأَدُسُّهُ فِيهِ) أي: أَدْخَلُهُ فِيهِ.

(مَخَافَةً أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ) أي: خَشْيَةً أَنْ يَقُولَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فَتَنَالَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ.

معنى الحديث :

والمعنى لو رأيته لرأيت أمراً عجيباً يبهت الواصف عن كنهه، فإني لما شاهدت تلك الحالة بهت غضباً على عدو الله لادعائه تلك العظمة فعمدت إلى حال البحر فأدسه فيه مخافة أن تدركه الرحمة لسعتها، والحاصل أنه إنما فعل ذلك غضباً لله وعلماً منه أنه لا ينفعه الإيمان لا أنه كره إيمانه لأن كراهة الإيمان من الكافر كفر، لكن قال أبو منصور الماتريدي في التأويلات: الرضا بالكفر ليس بكفر مطلقاً إنما يكون كذلك إذا رضي بكفر نفسه لا بكفر غيره^{١٤٢}

من فوائد الحديث:

- ١- سوء عاقبة الطغاة والمتكبرين، وأن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.
- ٢- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ إِيْمَانَهُ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِهِ، وَقَدْ كَانَ فِي مَهْلٍ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِيْمَانُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِيْمَانَ وَالتَّوْبَةَ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْعَذَابِ غَيْرُ مَقْبُولِينَ.
- ٣- قَالَ الرَّازِي: " هَلْ يَصِحُّ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَ يَمَلَأُ فَمَهُ مِنَ الطُّيْنِ لِقَاءِ يَتُوبٍ غَضَبًا عَلَيْهِ. وَالْجَوَابُ: الْأَقْرَبُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ، لِأَنَّ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِمَّا أَنْ يُقَالَ التَّكْلِيفُ كَانَ ثَابِتًا أَوْ مَا كَانَ ثَابِتًا، فَإِنْ كَانَ ثَابِتًا لَمْ يَجْزُ عَلَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ التَّوْبَةِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى التَّوْبَةِ وَعَلَى كُلِّ طَاعَةٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ [الْمَائِدَةِ: ٢] وَأَيْضًا فَلَوْ مَنَعَهُ بِمَا ذَكَرُوهُ لَكَانَتْ التَّوْبَةُ مُمَكِّنَةً، لِأَنَّ الْأَخْرَسَ قَدْ يَتُوبُ بِأَنْ يَنْدَمَ بِقَلْبِهِ وَيَعْزِمَ

^{١٤٠} - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٨٧) (٣١٠٧) صحيح لغيره

^{١٤١} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٤/ ٩٨) (٦٢١٥) صحيح

^{١٤٢} - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/ ١٦٦) وفيض القدير (٤/ ٤٩٩)

عَلَى تَرْكِ مُعَاوَدَةِ الْقَبِيحِ، وَحِينَئِذٍ لَا يَبْقَى لِمَا فَعَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَائِدَةً، وَأَيْضًا لَوْ مَنَعَهُ مِنَ التَّوْبَةِ لَكَانَ قَدْ رَضِيَ بِبَقَائِهِ عَلَى الْكُفْرِ، وَالرَّضَا بِالْكَفْرِ كُفْرٌ، وَأَيْضًا فَكَيْفَ يَلِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى [طه: ٤٤] ثُمَّ يَأْمُرُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَوْ قِيلَ: إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ لَا بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَذَا يُبْطِلُهُ قَوْلُ جِبْرِيلَ وَمَا تَنْزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ [مريم: ٦٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي صِفَتِهِمْ: وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ [الأنبياء: ٢٨] وَقَوْلُهُ: لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [الأنبياء: ٢٧] وَأَمَّا إِنْ قِيلَ: إِنْ التَّكْلِيفَ كَانَ زَائِلًا عَنْ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَحِينَئِذٍ لَا يَبْقَى لِهَذَا الْفِعْلِ الَّذِي نُسِبَ جِبْرِيلُ إِلَيْهِ فَائِدَةً أَصْلًا. "١٤٣"

وقال الخازن رادا عليه : "والجواب عن هذا الاعتراض أن الحديث قد ثبت عن النبي ﷺ فلا اعتراض عليه لأحد.

وأما قول الإمام: إن التكليف هل كان ثابتاً في تلك الحالة أم لا فإن كان ثابتاً لم يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة فإن هذا القول لا يستقيم على أصل المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر، فإنهم يقولون إن الله يحول بين الكافر والإيمان ويدل على ذلك قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ وَقَالَ تَعَالَى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَأخبر الله سبحانه وتعالى أنه قلب أفئدتهم مثل تركهم الإيمان به أول مرة، وهكذا فعل بفرعون منعه من الإيمان عند الموت جزاء على تركه الإيمان أولاً فسد الطين في فم فرعون من جنس الطبع والختم على القلب ومنع الإيمان وصور الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله.

ومن المنكرين لخلق الأفعال من اعترف أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه أن يضلّه ويطبع على قلبه ويمنعه من الإيمان.

فأما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فإنها من هذا الباب فإن غاية ما يقال فيه إن الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الإيمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق وردّه للإيمان لما جاءه.

وأما فعل جبريل من دس الطين في فيه فإنما فعل ذلك بأمر الله لا من تلقاء نفسه.

فأما قول الإمام لم يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا إذا كان تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه ما يجب علينا.

١٤٣ - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٧/ ٢٩٧)

وأما إذا كان جبريل إنما يفعل ما أمره الله به والله سبحانه وتعالى هو الذي منع فرعون من الإيمان وجبريل منفذ لأمر الله فكيف لا يجوز له منع من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه إعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم حين لا ينفعه الإيمان.

وقد يقال: إن جبريل عليه السلام إما أن يتصرف بأمر الله فلا يفعل إلا ما أمر الله به وإما أن يفعل ما يشاء من تلقاء نفسه لا بأمر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه إعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لأنه إنما يجب عليه فعل ما أمر به ويحرم عليه فعل ما نهي عنه والله سبحانه وتعالى لم يخبر أنه أمره بإعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا.

وقوله وإن كان التكليف زائلا عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى هذا الذي نسب إلى جبريل فائدة فجوابه أن يقال إن للناس في تعليل أفعال الله قولين أحدهما أن أفعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يريد هذا السؤال أصلا وقد زال الإشكال.

والقول الثاني: إن أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح لأجلها فعلها وكذا أوامره ونواهيها لها غاية محمودة محبوبة لأجلها أمر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير قد يقال لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وقد علم جبريل أنه ممن حقت عليه كلمة العذاب وأن إيمانه لا ينفعه دس الطين في فيه لتحقيق معانيته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له وأنه وإن كان قالمها في وقت لا ينفعه فدس الطين في فيه تحقيقا لهذا المنع والفائدة فيه تعجيل ما قد قضى عليه وسد الباب عند سدا محكما بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للإيمان فإن موسى عليه السلام لما دعا ربه بأن فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم والإيمان عند رؤية العذاب غير نافع أجاب الله دعاءه.

فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين في فيه ليبأس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتتحقق إجابة الدعوة التي وعد الله موسى بقوله قد أجيب دعوتكما فيكون سعي جبريل في تكميل ما سبق في حكم الله أنه يفعله فيكون سعي جبريل في مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذا لما أمره به وقدره وقضاه على فرعون.

وأما قوله: لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر، فجوابه ما تقدم من أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وجبريل إنما يتصرف بأمر الله ولا يفعل إلا ما أمره الله به وإذا كان جبريل قد فعل ما أمره الله به ونفذه فإنما رضي بالأمر لا بالمأمور به فأبي كفر يكون هنا وأيضا فإن الرضا بالكفر إنما يكون كفرا في حقنا لأننا مأمورون بإزالته بحسب الإمكان فإذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفرا في حقنا لمخالفتنا ما أمرنا به.

وأما من ليس مأمورا كأمرنا ولا مكلفا كتكليفنا بل يفعل ما يأمره به ربه فإنه إذا نفذ ما أمره به لم يكن راضيا بالكفر ولا يكون كفرا في حقه وعلى هذا التقدير فإن جبريل لما دس الطين في في فرعون

كان ساخطا لكفره غير راض به والله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر فغاية أمر جبريل مع فرعون أن يكون منفذا لقضاء الله وقدره في فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به وقوله كيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنع من الإيمان فجوابه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وأما قوله وإن قيل إن جبريل إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فجوابه أنه إنما فعل ذلك بأمر الله منفذا لأمر الله والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.^{١٤٤}



^{١٤٤} - تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٤٦١) وتحفة الأحوذى (٨/ ٤١٨)

قصة عمرو بن عامر الخزاعي

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، قَالَ: " الْبَحِيرَةُ: الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاعِيتِ، فَلَا يَحُلِبُّهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَالسَّائِبَةُ: كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِلْهَتَمِ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ " قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ الْخَزَاعِيِّ يَجْرُ قُصْبُهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»^{١٤٥}.

شرح المفردات:

البحيرة والسائبة : كانت العرب إذا تابعت الناقة بين عشر إناث. لم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، وهي السائبة ، أي أُمهم يسيبونها ويخلونها لسبيلها ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى: شقوا أذنهما ، وخلوا سبيلها مع أمها في الإبل ، وحرّم منها ما حرّم من أمها ، وهي البحيرة بنت السائبة.

والبحيرة : هي المشقوقة الأذن ، وقيل : البحيرة كانوا إذا ولد لهم سقب ، بَحَرُوا أذنه ، وقالوا : اللهم إن عاش ففتي ، وإن مات فذكي ، فإذا مات أكلوه. وأما السائبة : فكان الرجل يسيب من ماله ، فيجيء به إلى السدنة ، فيدفعه إليهم ، فيطعمون منها أبناء السبيل ، إلا النساء. فلا يطعمونهم منها شيئاً حتى يموت ، فيأكله الرجال والنساء جميعاً. درها : الدر : اللبن.

للطواغيت : والطواغيت : الأصنام التي كانوا يعبدونها ، واحدها : طاغوت. قصبة : القصب : المعى. وجمعها : الأقصاب.^{١٤٦}.

شرح الحديث:

جاء في (تفسير ابن كثير): "عَمْرُو هَذَا هُوَ ابْنُ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ، أَحَدُ رُؤَسَاءِ خُزَاعَةَ، الَّذِينَ وَلُوا الْبَيْتَ بَعْدَ جَرِّهِمْ. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، فَأَدْخَلَ الْأَصْنَامَ إِلَى الْحِجَازِ، وَدَعَا الرِّعَاعَ مِنَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَتِهَا وَالتَّقَرُّبِ بِهَا، وَشَرَعَ لَهُمْ هَذِهِ الشَّرَائِعَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا} [الأنعام: ١٣٦] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ..^{١٤٧}"

من فوائد الحديث:

١ - عظم عقوبة من سن شيئاً من الشر فإن عمرو بن عامر الخزاعي أول من سيب السوائب، فتبعه ناس فكان عليه وزره ووزر من عمل بعمله من بعده، ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

^{١٤٥} - صحيح البخاري (٥٤/٦) (٤٦٢٣) وصحيح مسلم (٤/٢١٩٢) ٥١ - (٢٨٥٦)

^{١٤٦} - جامع الأصول في أحاديث الرسول ط مكتبة الحلواني الأولى (١٢٧/٢)

^{١٤٧} - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/٢٠٩)

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^{١٤٨}.

وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمُ الصُّوفُ فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ، فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَأَبْطَأُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرَقٍ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^{١٤٩}.



^{١٤٨} - صحيح البخاري (١٣٣/٤) (٣٣٣٥) وصحيح مسلم (١٣٠٣/٣) ٢٧ - (١٦٧٧)

[ش(كفل) جزء ونصيب من إثم قتلها. (سن القتل) ابتدع القتل على وجه الأرض]

^{١٤٩} - صحيح مسلم (٢٠٥٩/٤) ١٥ - (١٠١٧)

قصة الرجل الذي قال لصاحبه المذنب: والله لا يغفر لك

عَنْ عِكْرَمَةَ بْنِ عَمَّارٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي ضَمُضَمُ بْنُ جَوْسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلَنِي وَرَبِّي أُبْعِثَ عَلَيَّ رَفِيقًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ" قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْ بَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ^{١٥٠}

شرح المفردات^{١٥١}:

(مُتَوَاحِيَيْنِ) أي: اتخذ كل واحد منهما الآخر أخًا له في الله تعالى: يتناصحان لعمل الخير، لذلك كان المجتهد في العبادة ينكر على الآخر الذنب، وكانا مُتَقَابِلَيْنِ فِي الْقَصْدِ وَالسَّعْيِ؛ فَهَذَا كَانَ قَاصِدًا وَسَاعِيًا فِي الْخَيْرِ، وَهَذَا كَانَ قَاصِدًا وَسَاعِيًا فِي الشَّرِّ. (أَقْصِرْ): مِنْ الْإِقْصَارِ وَهُوَ الْكَفُّ عَنِ الشَّيْءِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. (أُبْعِثَ): بِهَمْزَةِ الْاسْتِفْهَامِ وَبَصِيعَةِ الْمَجْهُولِ. (أَوْ بَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ): فِي الْقَامُوسِ: أَوْ بَقِيَ أَهْلُكَهُ، أَي: أَهْلَكَتَ تِلْكَ الْكَلِمَةَ مَا سَعَى فِي الدُّنْيَا وَحَظَّ الْآخِرَةَ.

من فوائد الحديث:

١- في الحديث تحذير شديد من الحكم بالجنة أو النار لأي شخص، قال شارح الطحاوية رحمه الله: والتكفير أمره عظيم وخطره جسيم، وهو بغي شديد. يقول ابن أبي العز الحنفي: "فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار". فالحكم على معين بالكفر يترتب عليه أمور في الدنيا وأمور في الآخرة: أما أمور الدنيا فيترتب عليه قطع الأخوة الدينية بينه وبين إخوانه المسلمين، وفسخ نكاحه، ومنع التوارث بينه وبين قرابته المسلمين، كما يوجب شرعاً قتله للردة، لقوله عليه الصلاة والسلام: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

^{١٥٠} - سنن أبي داود (٤/ ٢٧٦) (٤٩٠١) صحيح

^{١٥١} - عون المعبود للعظيم آبادي، ١٤/ ١٦.

أما أمور الآخرة فهي أخطر وأعظم، وهي حرمان الإنسان من رحمة الله تعالى والخلود في النار، وقطع رجائه من الخروج منها، وعدم استحقاقه للشفاعة^{١٥٢}.

٢- القول على الله لا بغير علم من أعظم الكبائر التي تحبط عمل صاحبها.

٣- وفيه بيان خطر اللسان وذلك يفيد التحرز في الكلام كما جاء عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا تَتَكَلَّمُ بِهِ؟، قَالَ: "تَكَلَّمْتُ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاحِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟" ^{١٥٣}.

٤- الخوف من سوء الخاتمة ، فقد دخل العابد النار ، ودخل العاصي الجنة.

٥- في القصة دليل لأهل الحق — أهل السنة والجماعة — الذين يقولون: إن الله تعالى يغفر ما سوى الشرك من الذنوب من غير توبة إن شاء ، كما غفر لهذا العاصي وهو مصر على ذنوبه ؛ قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨).
وليس معنى ذلك أن يتجرأ الإنسان على معاصي الله ؛ فإن الإنسان لا يدري هل سيغفر الله له كما غفر لهذا العاصي ، أم لا.

٦- أن هذا الرجل المسرف الذي قد غفر الله له، إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فتفضل الله عليه فغفر له، أما لو كان شركاً ومات بدون توبة، فإنه لا يغفر له، لأن الله يقول: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) [النساء: ١١٦].

وهناك أحد عشر سبباً لتخلف الوعيد :

"السبب الأول -التَّوْبَةُ، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ تَعَالَى : {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (٥٣) سورة الزمر

السبب الثاني -الِاسْتِغْفَارُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} (٣٣) سورة الأنفال

السبب الثالث -الحَسَنَاتُ الْمَاحِيَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } (١١٤) سورة هود .

السبب الرابع -دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِ مِثْلُ صَلَاتِهِمْ عَلَى جِنَازَتِهِ

السبب الخامس -مَا يُعْمَلُ لِلْمَيِّتِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ

السبب السادس -شَفَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ - وَغَيْرُهُ فِي أَهْلِ الذُّنُوبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

^{١٥٢} - أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة (٢/ ٤٦)

^{١٥٣} السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٢١٤) (١١٣٣٠) صحيح لغيره

السَّبَبُ السَّابِعُ - الْمَصَائِبُ الَّتِي يُكَفِّرُ اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا فِي الدُّنْيَا
السَّبَبُ الثَّامِنُ - مَا يَحْصُلُ فِي الْقَبْرِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالضَّعْفَةِ وَالرَّوْعَةِ
السَّبَبُ التَّاسِعُ - أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَرْبُهَا وَشِدَائِدُهَا
السَّبَبُ الْعَاشِرُ - رَحْمَةُ اللَّهِ وَعَفْوُهُ وَمَغْفِرَتُهُ بِمَا سَبَبَ مِنَ الْعِبَادِ
السَّبَبُ الْحَادِي عَشَرَ - إِذَا كَانَ مَجْتَهِدًا فَاحْطَأْ فِي اجْتِهَادِهِ^{١٥٤}



^{١٥٤} - انظر تفصيل ذلك في كتابي : "أسباب تخلف الوعيد - ط ١ (ص: ٢٨) فما بعد " ومجموع الفتاوى (٧/ ٤٨٧) فما بعد

قصة المرأة القصيرة من بني إسرائيل

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَصِيرَةً تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، فَاتَّخَذَتْ رَجُلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ، وَخَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ مُعْلَقٌ مُطْبَقٌ، ثُمَّ حَشَتْهُ مِسْكًَا، وَهُوَ أَطْيَبُ الطَّيْبِ، فَمَرَّتَ بَيْنَ الْمَرَأَتَيْنِ، فَلَمْ يَعْرِفُوها، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا» وَنَفَضَ شُعْبَةً يَدَهُ^{١٥٥}.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ الدُّنْيَا فَقَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَاتَّقُوهَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ» ثُمَّ ذَكَرَ نِسْوَةً ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، وَامْرَأَةً قَصِيرَةً لَا تُعْرَفُ، فَاتَّخَذَتْ رَجُلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ، وَصَاغَتْ خَاتَمًا فَحَشَتْهُ مِنْ أَطْيَبِ الطَّيْبِ، فَإِذَا مَرَّتْ بِالْمَسْجِدِ أَوْ بِالْمَلَأِ قَالَتْ بِهِ، فَفَتَحَتْهُ فَفَاحَ رِيحُهُ^{١٥٦}.

غريب الحديث :

المُرَادُ بِالرَّجُلَيْنِ التَّعْلَانِ، فَكَأَنَّهَا اتَّخَذَتْ تَعْلَيْنِ لَهَا كَثَافَةً فَطَالَتْ بِمَا. والمطبق: الَّذِي دَاخِلُهُ فَارِغٌ.

والمسك طيب معروف، وَمِنْ مَنَافِعِهِ أَنَّهُ يَذْهَبُ الْحُزْنَ، وَيَفْرَحُ الْقَلْبَ وَيَقْوِيهِ، وَيُقَوِّي الدِّمَاغَ وَالْعَيْنَ، وَيَنْشِفُ رَطوبَاتِهَا، وَيَنْفَعُ الْأَمْرَاضَ الْبَارِدَةَ السُّودَاوِيَّةَ وَالْبُلْغَمِيَّةَ، وَيَزِيدُ فِي الْقُوَى^{١٥٧}.

من فوائد الحديث:

١- قال النووي: وَأَمَّا اتِّخَاذُ الْمَرْأَةِ الْقَصِيرَةِ رَجُلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ حَتَّى مَشَتْ بَيْنَ الطَّوِيلَتَيْنِ، فَلَمْ تُعْرَفْ، فَحُكْمُهُ فِي شَرْعِنَا أَنَّهَا قَصِدَتْ بِهِ مَقْصُودًا صَحِيحًا شَرْعِيًّا بِأَنَّ قَصِدَتْ سَتَرَ نَفْسَهَا لِغَلَا تُعْرَفَ فَتَقْصِدَ بِالْأَذَى أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَلَا بَأْسَ بِهِ، وَإِنْ قَصِدَتْ بِهِ التَّعَاضُظَ أَوْ التَّشْبُهَ بِالْكَامِلَاتِ تَزْوِيرًا عَلَى الرِّجَالِ وَغَيْرِهِمْ فَهُوَ حَرَامٌ^{١٥٨}.

وقال القرطبي: "يَحْتَمِلُ: أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ فَعَلَتْ هَذَا لِتَسْتَرِ قَصْرَهَا عَنِ النَّاسِ، فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا. وَلَعَلَّ قَصْرَهَا كَانَ خَارِجًا عَنِ غَالِبِ أَحْوَالِ الْقَصْرِ. فَإِنَّ كَانَ هَذَا، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهَا لَصِحَّةِ قَصْدِهَا، وَحَسَنَ تَسْتَرِهَا. وَإِنْ كَانَتْ فَعَلَتْ ذَلِكَ لِتَتَرَبَّسَّ بِإِلْحَاقِهَا نَفْسَهَا بِالطَّوَالِ؛ فَذَلِكَ مَمْنُوعٌ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مِنْ بَابِ تَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَأَمَّا اتِّخَاذُهَا خَاتَمَ الذَّهَبِ: فَجَائِزٌ لِلنِّسَاءِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ. وَأَمَّا اتِّخَاذُهَا الْمِسْكَ: فَمُبَاحٌ لَهَا فِي بَيْتِهَا، وَيَلْحَقُ بِالْمُنْدُوبِ إِذَا قَصِدَتْ بِهِ حَسَنَ التَّبَتُّلِ لِلزَّوْجِ. وَأَمَّا إِذَا خَرَجَتْ: فَإِنَّ قَصِدَتْ أَنْ يَجِدَ الرِّجَالُ رِيحَهَا؛ فَهِيَ زَانِيَةٌ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ —، وَمَعْنَاهُ:

^{١٥٥} - صحيح مسلم (٤/ ١٧٦٥) ١٨ - (٢٢٥٢)

^{١٥٦} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٤٠٣) (٥٥٩١) صحيح

^{١٥٧} - كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ١٨٠)

^{١٥٨} - شرح النووي على مسلم [١٥ - ٩]

أما بميزة الزانية في الإثم . وأما إذا لم تقصد ذلك : فلا تسلم من الإثم ؛ كيف لا وقد قال رسول الله ﷺ — : ((إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسن طيباً)) ، وقال : ((ليخرجن وهنّ ثقلات)) ؛ أي : غير متطيّبات . وكل ذلك هو شرعنا . وهل كان كذلك في شرع بني إسرائيل ، أو لا ؟ كل ذلك محتمل .

وقوله — ﷺ : ((أطيب الطيب المسك)) ؛ دليل واضح على طهارة المسك ، وإن كان أصله دماً ، لكنه قد استحال إلى صلاح في مقرّه العاديّ ، فصار كاللبن . قال القاضي عياض رحمه الله : قد وقع الإجماع على طهارته وجواز استعماله . وما حكى عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما من الخلاف في ذلك لا يصحّ ، قال : والمعروف من السلف إجماعهم على جواز استعماله ، واقتداؤهم بالنبي — ﷺ — في ذلك ١٥٩١ .

٢- أن هذه المرأة بذلت جهداً لتبدو طويلة القامة، والمشروع للمسلم أن يرضى بقدر الله عز وجل، ويعلم أن الله لا ينظر إلى صور العباد وألوانهم، ولكنه ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم كما جاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» رواه مسلم ١٦٠ .

وكم من قصار القامة كبروا بأعمالهم، ولما تحلوا به من كريم السجايا والصفات ولما حصلوه من علوم، وما أتقنوه من أعمال. كعبد الله بن مسعود رضي الله عنه

٣- في القصة تحذير من فتنة النساء، وتفنّهنّ في طرق الغواية والإضلال. ١٦١ .



١٥٩ - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤٨ / ١٨)

١٦٠ - صحيح مسلم (٤ / ١٩٨٧) - ٣٤ - (٢٥٦٤)

١٦١ - <http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?t=٣٦٣٧>

قصة أصحاب الغار

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ، أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يُفَرِّجُهَا عَنْكُمْ، قَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صَبِيَّةٌ صَغَارٌ، كُنْتُ أُرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَإِنِّي اسْتَأْخَرْتُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أُمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصَّبِيَّةَ، وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ عِنْدَ قَدَمَيَّ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا فَرَجَةً تَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ، فَرَأَوْا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهَا كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ أَحَبُّتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ مِنْهَا، فَأَبَتْ عَلَيَّ حَتَّى أَتَيْتُهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَبَعِثْتُ حَتَّى جَمَعْتُهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فَرَجَةً، فَفَرَجَ، وَقَالَ الثَّلَاثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا يَفَرِّقُ أَرْزُ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ، قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ، فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْزَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقْرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرُعَاتِهَا، فَخُذْ، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَخُذْ، فَأَخَذَهُ، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللَّهُ " ١٦٢

شرح المفردات:

(فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ) يَجُوزُ قَصْرُ أَلِفٍ "أَوَوْا" وَمَدَّهَا.

(فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ) أَيِ بَابِ الْغَارِ.

(اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ) فِيهِ إِشْكَالٌ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَأُجِيبَ بِأَنَّهُ تَرَدَّدَ فِي عَمَلِهِ ذَلِكَ هَلْ لَهُ اعْتِبَارٌ عِنْدَ اللَّهِ أَمْ لَمْ يَلْ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ كَانَ عَمَلِي ذَلِكَ مَقْبُولًا فَأَجِبْ دُعَائِي، وَبِهَذَا التَّفْصِيلُ يَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ: "اللَّهُمَّ" عَلَى بَاهٍ فِي النَّدَاءِ، وَقَدْ تَرَدَّدَ بِمَعْنَى تَحَقُّقِ الْجَوَابِ كَمَا سَأَلَ آخَرُ عَنْ شَيْءٍ كَأَن يَقُولَ رَأَيْتُ زَيْدًا يَقُولُ اللَّهُمَّ نَعَمْ، وَقَدْ تَرَدَّدَ أَيْضًا لِنُدْرَةِ الْمُسْتَشْنَى كَأَن يَقُولَ شَيْئًا ثُمَّ يَسْتَشْنَى مِنْهُ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ إِلَّا إِنْ كَانَ كَذَا.

(أَبْوَانٌ) هُوَ مِنَ التَّغْلِيْبِ وَالْمُرَادُ اللَّابُ وَالْأَمُّ.

(يَتَضَاغُونَ) بِالْمُعْجَمَتَيْنِ وَالضُّغَاءُ بِالْمَدِّ الصِّيَاحُ بِكَاءٍ.

(من الجوع): أي بسبب الجوع.

(راودتها عن نفسها) أي بسبب نفسها أو من جهة نفسها.

(فلما وقعت بين رجلين) أي: جلست منها مجلس الرجل من المرأة.

(ولا تفض) بالفاء والمُعجمة أي لا تكسر، والخاتم كناية عن عُذْرته، وكأنها كانت بكرًا وكنت عن الإفشاء بالكسر، وعن الفرج بالخاتم لأن في حديث النعمان ما يدل على أنها لم تكن بكرًا، ووقع في رواية أبي ضمرة "ولا تفتح الخاتم" والألف واللام بدل من الضمير أي خاتمي.

(بحقه) أرادت به الحلال، أي لا أحل لك أن تقرني إلا بتزويج صحيح.

من فوائد الحديث:

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [المائدة: ٣٥]، يقول تعالى أمرًا عبادة المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بالطاعة كان المراد بها الإنكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: { وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ } قال سفيان الثوري، حدثنا أبي، عن طلحة، عن عطاء، عن ابن عباس: أي القرية. وكذا قال مجاهد [وعطاء] وأبو وائل، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي، وابن زيد. وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } [الأنعام: ٥٧] وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه ١٦٣

١- يستحب للإنسان أن يدعو في حال كربه، وغيره بصالح عمله، ويتوسل إلى الله تعالى به؛ لأن هؤلاء فعلوه فاستجيب لهم، وذكره النبي ﷺ في معرض الثناء عليهم، وجميل فضائلهم.

وأما في غيره كالتوسل بالنبي ﷺ وغيره من الصالحين فموضع خلاف بين أهل العلم ١٦٤

٢- يجب على المسلم أن يلجأ إلى الله وحده بالدعاء وخاصة حين نزول الشدائد..

٣- فضل الإخلاص في العمل، حيث قال كل واحد: (اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة).

٤- فضل بر الوالدين وفضل خدمتهما وإيثارهما عن سواهما من الأولاد والزوجة والأهل وغيرهم وتحمل المشقة لأجلهما.

* ما سبب تركه أولاده الصغار يئنون من الجوع طول ليلتهما مع قدرته على تسكين جوعهم؟ قيل: كان في شرعهم تقديم نفقة الأصل (الوالدين) على غيرهم. وقيل: لعلهم كانوا يطلبون زيادة على سد الرمق.

١٦٣ - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٠٣)

١٦٤ - انظر كتابي ((الخلاصة في أحكام الاستغاثة والتوسل))

٥- فَضِّلِ الْعِفَّةَ وَالْإِنْكَفَافَ عَنِ الْحَرَامِ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَأَنْ تَرُكَ الْمَعْصِيَةَ يَمْحُو مُقَدِّمَاتَ طَلَبِهِ، وَأَنْ التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا.

٦- وَفَضِّلْ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ، وَمَنْ ذَلِكَ حِفْظُ حَقُوقِ الْعَمَالِ إِذَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِمْ أَحْذَاهَا، مَعَ لَزُومِ الْمُبَادَرَةِ بِأَدَاءِ حَقُوقِهِمْ وَعَدَمِ تَأْخِيرِهَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرْفُهُ" ١٦٥.

٧- استحباب تنمية مال الأجير الذي ترك حقه، وهو عمل جليل، ولذا كان من أسباب نجاتهم من الغار.

٨- إِبْتِاتِ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

٩- وَفِيهِ الْإِخْبَارُ عَمَّا جَرَى لِلْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ لِيُعْتَبَرَ السَّامِعُونَ بِأَعْمَالِهِمْ فَيَعْمَلَ بِحَسَنِهَا وَيُتْرِكَ قَبِيحَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ١٦٦.

١٠- الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الْخَالِصَةُ لِلَّهِ تَعَالَى وَقْتَ الرِّخَاءِ يَنْتَفِعُ بِهَا الْمُسْلِمُ وَقْتَ الشَّدَةِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، كَذَا قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "يَا غُلَامُ، أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِنَّ؟" قُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعْرِفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشَّدَةِ" ١٦٧.

١١- إِبْتِاتِ الْوَجْهَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى: ١١].

١٢- أَنْ تَرُكَ الْمَعْصِيَةَ يَمْحُو مُقَدِّمَاتَ طَلَبِهَا، وَأَنْ التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا.

١٣- جَوَازُ الْجَارَةِ وَفَضْلُ حُسْنِ الْعَهْدِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَالسَّمَاخَةِ فِي الْمُعَامَلَةِ.

١٤- أَثَرُ التَّقْوَى فِي تَخْلِيصِ الْعَبْدِ مِنْ كَرْبِهِ وَبَلَائِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢).

١٥- الْأَثَرُ الطَّيِّبُ لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَدْ نَهَتْ الْمَرْأَةُ ابْنَ عَمِّهَا لَمَّا وَقَعَ بَيْنَ رَجُلَيْهَا فَقَالَتْ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْحَائِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ»، فَصَانَ اللَّهُ لَأَعْرِضَهَا؛ فَلَمْ تَقَعْ فِي الْفَاحِشَةِ، وَتَرَكَ لَهَا الْمِائَةَ دِينَارًا.

١٦- الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ وَقْتَ الرِّخَاءِ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ وَقْتَ الشَّدَةِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا غُلَامٌ قَالَ: فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، وَاحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعْرِفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشَّدَةِ، وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ

١٦٥ - شرح مشكل الآثار (١٣/٨) (٣٠١٤) صحيح

١٦٦ - ينظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ٥١٠/٦.

١٦٧ - شعب الإيمان (٣٥٣/١٢) (٩٥٢٨) صحيح

لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلَائِقَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُعْطَوْكَ شَيْئًا لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُعْطِيكَه لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، أَوْ يَمْنَعُوكَ شَيْئًا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُعْطِيكَه لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَلَمَ جَفَّ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا سَأَلْتَ فَسَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اعْتَصَمْتَ فَاعْتَصِمِ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^{١٦٨}.

١٧- حب الله مقدم على حب ما تهوى النفوس من الشهوات .

١٨- من ترك الزنى والفجور خوفاً من المولى نجاه الله من البلوى .

١٩- من حفظ حقوق العمال حفظه الله وقت الشدة ، ونجاه من المحنة .

٢٠- الدعاء إلى الله مع التوسل بالعمل الصالح يفتت الصخور .

٢١- شرع من قبلنا هو شرع لنا إذا أخبر به الله تعالى أو رسوله ﷺ على طريق المدح ، ولم يثبت

نسخه ، وهذه القصة قصها علينا رسول الله ﷺ في مدح هؤلاء النفر الثلاثة لثقتي بهم في عملهم .

٢٢- قال الحافظ ابن حجر : " وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ الدُّعَاءِ فِي الْكَرْبِ وَالتَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِذِكْرِ صَالِحِ الْعَمَلِ وَاسْتِنْجَارُ وَعْدِهِ بِسُؤَالِهِ وَاسْتِنْبَاطُ مِنْهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ اسْتِحْبَابَ ذِكْرِ ذَلِكَ فِي الْاسْتِسْقَاءِ وَاسْتَشْكَلَهُ الْمُحِبُّ الطَّبْرِيُّ لِمَا فِيهِ مِنْ رُؤْيَا الْعَمَلِ وَالِاحْتِقَارُ عِنْدَ السُّؤَالِ فِي الْاسْتِسْقَاءِ أَوَّلَى لِأَنَّهُ مَقَامُ التَّضَرُّعِ وَأَجَابَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْغَارِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَشْفِعُوا بِأَعْمَالِهِمْ وَإِنَّمَا سَأَلُوا اللَّهَ إِنْ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ خَالِصَةً وَقُبِلَتْ أَنْ يَجْعَلَ جَزَاءَهَا الْفَرَجَ عَنْهُمْ فَتَضَمَّنَ جَوَابُهُ تَسْلِيمَ السُّؤَالِ لَكِنْ بِهَذَا الْقَيْدِ وَهُوَ حَسَنٌ وَقَدْ تَعَرَّضَ النَّوَوِيُّ لِهَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِ الْأَذْكَارِ بَابُ دُعَاءِ الْإِنْسَانِ وَتَوَسُّلِهِ بِصَالِحِ عَمَلِهِ إِلَى اللَّهِ وَذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ وَنَقَلَ عَنِ الْقَاضِي حُسَيْنٍ وَغَيْرِهِ اسْتِحْبَابَ ذَلِكَ فِي الْاسْتِسْقَاءِ ثُمَّ قَالَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ فِيهِ نَوْعًا مِنْ تَرْكِ الْإِفْتِقَارِ الْمُطْلَقِ وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتْنَى عَلَيْهِمْ بِفِعْلِهِمْ فَدَلَّ عَلَى تَصْوِيبِ فِعْلِهِمْ وَقَالَ السُّبْكِيُّ الْكَبِيرُ ظَهَرَ لِي أَنَّ الضَّرُورَةَ قَدْ تَلَحَّى إِلَى تَعْجِيلِ جَزَاءِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّ هَذَا مِنْهُ ثُمَّ ظَهَرَ لِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ رُؤْيَا عَمَلٍ بِالْكُلِّيَّةِ لِقَوْلِ كُلِّ مِنْهُمْ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَلَمْ يَعْتَقِدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي عَمَلِهِ الْإِخْلَاصَ بَلْ أَحَالَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ فَإِذَا لَمْ يَجْزِمُوا بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ مَعَ كَوْنِهِ أَحْسَنَ أَعْمَالِهِمْ فَغَيْرُهُ أَوَّلَى فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ الَّذِي يَصْلُحُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ يَعْتَقِدَ الشَّخْصُ تَقْصِيرَهُ فِي نَفْسِهِ وَيُسَيِّءَ الظَّنَّ بِهَا وَيَبْحَثَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ عَمَلِهِ يَظُنُّ أَنَّهُ أَخْلَصَ فِيهِ فَيُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَيُعَلِّقَ الدُّعَاءَ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ بِهِ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِذَا دَعَا رَاجِعًا لِلْإِجَابَةِ خَائِفًا مِنَ الرَّدِّ فَإِنْ لَمْ يَغْلِبْ عَلَى ظَنِّهِ إِخْلَاصُهُ وَلَوْ فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ فَلْيَقِفْ عِنْدَ حُدُودِهِ وَيَسْتَحْيِ أَنْ يَسْأَلَ بِعَمَلٍ لَيْسَ بِخَالِصٍ قَالَ وَإِنَّمَا قَالُوا ادْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ عِنْدَ الدُّعَاءِ لَمْ يُطْلَقُوا ذَلِكَ وَلَا قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَدْعُوكَ بِعَمَلِي وَإِنَّمَا قَالَ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ ثُمَّ ذَكَرَ عَمَلَهُ

^{١٦٨} - الآداب للبيهقي (ص: ٣٠٧) (٧٥٨) حسن

انتهى ملخصاً وكأنه لم يقف على كلام المحب الطبري الذي ذكرته فهو السابق إلى التنبيه على ما ذكر والله أعلم وفيه فضل الإخلاص في العمل وفضل بر الوالدين وخدمتهما وإيثارهما على الولد والأهل وتحمل المشقة لأجلهما وقد استشكل تركه أولاده الصغار ييكون من الجوع طول ليلتهما مع قدرته على تسكين جوعهم ف قيل كان في شرعهم تقديم نفقة الأصل على غيرهم وقيل يحتمل أن بكاءهم ليس عن الجوع وقد تقدم ما يردّه وقيل لعلمهم كانوا يطلبون زيادة على سد الرمق وهذا أولى وفيه فضل العفة والائتلاف عن الحرام مع القدرة وأن ترك المعصية يمحو مقدمات طلبها وأن التوبة تجب ما قبلها وفيه جواز الإجارة بالطعام المعلوم بين المتاجررين وفضل أداء الأمانة وإثبات الكرامة للصالحين واستدل به على جواز بيع الفضولي وقد تقدم البحث فيه في البيوع وفيه أن المستودع إذا أئجر في مال الوديعة كان الربح لصاحب الوديعة قاله أحمد وقال الخطابي خالفه الأكثر فقالوا إذا تربت المال في ذمة الوديع وكذا المضارب كأن تصرف فيه بغير ما أذن له فيلزم ذمته أنه إن أئجر فيه كان الربح له وعن أبي حنيفة الغرامة عليه وأما الربح فهو له لكن يتصدق به وفصل الشافعي فقال إن اشترى في ذمته ثم نقد الثمن من مال الغير فالفقد له والربح له وإن اشترى بالعين فالربح للمالك وقد تقدم نقل الخلاف فيه في البيوع أيضاً وفيه الإخبار عما جرى للأمم الماضية ليعتبر السامعون بأعمالهم فيعمل بحسنها ويترك قبيحها والله أعلم^{١٦٩}

٢٣- وقال الحافظ أيضاً: " تنبيه لم يخرج الشيخان هذا الحديث إلا من رواية بن عمر وجاء بإسناد صحيح عن أنس أخرجه الطبراني في الدعاء من وجه آخر حسن وإسناد حسن عن أبي هريرة وهو في صحيح بن حبان وأخرجه الطبراني من وجه آخر عن أبي هريرة وعن النعمان بن بشير من ثلاثة أوجه حسان أحدها عند أحمد والبخاري وكلها عند الطبراني وعن علي وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن أبي أوفى بأسانيد ضعيفة وقد استوعب طرقه أبو عوانة في صحيحه والطبراني في الدعاء واتفقت الروايات كلها على أن القصص الثلاثة في الأجير والمرأة والأبوين إلا حديث عقبة بن عامر ففيه بدل الأجير أن الثالث قال كنت في غنم أرهاها فحضرت الصلاة فقامت أصلي فجاء الذئب فدخل الغنم فكرهت أن أقطع صلاتي فصبرت حتى فرغت فلو كان إسناذه قوياً لحمل على تعدد القصة ووقع في رواية الباب من طريق عبيد الله العمري عن نافع تقديم الأجير ثم الأبوين ثم المرأة وخالفه موسى بن عقبة من الوجهين فقدّم الأبوين ثم المرأة ثم الأجير ووافقته رواية سالم وفي حديث أبي هريرة المرأة ثم الأبوين ثم الأجير وفي حديث أنس الأبوين ثم الأجير ثم المرأة وفي حديث النعمان الأجير ثم المرأة ثم الأبوين وفي حديث عليّ وابن أبي أوفى معاً المرأة ثم الأجير ثم الأبوين وفي اختلافهم دلالة على أن الرواية بالمعنى عندهم سائغة شائعة وأن لا أثر للتقديم والتأخير

فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَأَرْجَحُهَا فِي نَظَرِي رِوَايَةُ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ لِمُوَافَقَةِ سَالِمٍ لَهَا فَهِيَ أَصَحُّ طَرُقٍ هَذَا الْحَدِيثِ وَهَذَا مِنْ حَيْثُ الْإِسْنَادِ ١٧٠

٢٤- وقال الحافظ أيضاً: " أَيْ الثَّلَاثَةُ كَانَ أَنْفَعُ لِأَصْحَابِهِ وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ الثَّلَاثُ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَكَّنَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا بِدُعَائِهِ وَإِلَّا فَلَاوَلَّ أَفَادَ إِخْرَاجَهُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ وَالثَّانِي أَفَادَ الزِّيَادَةَ فِي ذَلِكَ وَإِمَّاكَانَ التَّوَسُّلُ إِلَى الْخُرُوجِ بِأَنْ يَمُرَّ مِثْلًا هُنَاكَ مَنْ يُعَالِجُ لَهُمْ وَالثَّلَاثُ هُوَ الَّذِي تَهَيَّأَ لَهُمْ الْخُرُوجُ بِسَبَبِهِ فَهُوَ أَنْفَعُهُمْ لَهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَمَلُ الثَّلَاثِ أَكْثَرَ فَضْلًا مِنْ عَمَلِ الْآخِرِينَ وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ فَصَاحِبُ الْأَبْوَيْنِ فَضِيلَتُهُ مَقْصُورَةٌ عَلَى نَفْسِهِ لِأَنَّهُ أَفَادَ أَنَّهُ كَانَ بَارًّا بِأَبَوَيْهِ وَصَاحِبُ الْأَجِيرِ نَفْعُهُ مُتَعَدِّ وَأَفَادَ بِأَنَّهُ كَانَ عَظِيمَ الْأَمَانَةِ وَصَاحِبُ الْمَرْأَةِ أَفْضَلُهُمْ لِأَنَّهُ أَفَادَ أَنَّهُ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَشِيَّةَ رَبِّهِ وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ لِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ بِأَنَّ لَهُ الْجَنَّةَ حَيْثُ قَالَ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ وَقَدْ أَضَافَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى ذَلِكَ تَرَكَ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَاهُ لِلْمَرْأَةِ فَأَضَافَ إِلَى النَّفْعِ الْقَاصِرِ النَّفْعَ الْمُتَعَدِّيَّ وَلَا سِيَّمًا وَقَدْ قَالَ إِنَّهَا كَانَتْ بِنْتُ عَمِّهِ فَتَكُونُ فِيهِ صِلَةً رَحِمٍ أَيْضًا وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي سَنَةِ فَحَطَّ فَتَكُونُ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ أُخْرَىٰ فَيَتَرَجَّحُ عَلَىٰ هَذَا رِوَايَةُ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ وَقَدْ جَاءَتْ قِصَّةُ الْمَرْأَةِ أَيْضًا أُخِيرَةً فِي حَدِيثِ أَنَسٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ١٧١

وقفات إيمانية وأخلاقية:

إن هذه القصة تقص علينا حكاية ثلاثة لهم حياتهم وأعمالهم الدنيوية، بينما اشتدت بهم كربة ما فما وجدوا لهم ظهرا يعتمدون عليه ولا يتكئون عليه إلا قوة الله وقدرته، والتي نحن أحوج ما نكون إليها في ذلك الزمان، الذي اشتدت فيه الأزمات بالأمة وقامت ثورات شعوب الأمة على الظالمين والفاستدين.

كانت هذه القصة العظيمة، التي يبقى في ختامها على الأمة الخاتمة أن تتعظ وأن تعتبر وأن تستفيد بهذه القصة في حياتها في ظل ظروف تمر بها بلادنا من كرب وفتن، التي يلزم معها أن نستفيد ما العمل؟ وكيف الطريق إلى الله؟ وأين سبل النجاة في هذه الظروف، ومن نواحي الاستفادة ما يأتي:

أثر العمل الصالح في تفريج الكربات

العمل الصالح في وقت يفرج بسببه الكرب في وقت الشدة، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، أَوْ يَا غُلِيمُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ»، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعْرِفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، فَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا

١٧٠ - فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥١٠)

١٧١ - فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥١١)

أَنْ يَضْرُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، اَعْمَلْ لِلَّهِ بِالشُّكْرِ وَالْبِقِينِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^{١٧٢}

{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الطلاق: ٢]، وهذه قصة نبي الله يونس لما غرق في البحر نجاه الله من الحوت والغرق والضياح؛ لأنه كان من المسيحيين، أما هذا العدو فرعون الطاغية، الذي تكبر، لما غرق ودعا لم يُسْتَجَبْ له؛ لأنه لم يكن ذا رصيد من الحسنات، والعمل الصالح.

أما هؤلاء الثلاثة في رحاب القصة، فقد لجئوا بأعمال صالحة إلى الله وكانت سببا في نجاتهم؛ فلن ينجي هذه الأمة ولا أتباعها إلا العمل الصالح بعد رحمة الله - تعالى -، فأقبلوا أيها المسلمون على العمل الصالح مستشعرين مسئوليتكم نحو أنفسكم ونحو أمتكم.

جواز التوسل إلى الله بالعمل الصالح

هؤلاء نفر الثلاثة، كل واحد منهم توسل إلى الله بما قدم من عمل صالح وظنه أنه سينجيه، ولم يجزم بأنه خالصا لله أو أنه سينجيه بدون رحمة ربه، والدليل على ذلك كان كل واحد منهم يقول: "اللهم إن كنت تعلم أي فعلت... ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه".

والتوسل بالعمل الصالح أمر مشروع ولا بأس به، ولا أدل على ذلك من دعوات صالحة لعباد الله الصالحين؛ في القرآن، يقولون: (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبِرَارِ) [آل عمران: ١٩٣]، وهذا يؤكد جواز الدعاء والتوسل بالعمل الصالح.

قيمة الدعاء وأثره في تفريج الكرب والهم

القرآن الكريم، رسم لنا طريق الاستجابة وتلبية الطلبات والحاجات، فرأينا كيف كان للدعاء الأثر الأكبر في تفريج كرب الناس، قال - تعالى -: [(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...)] (غافر: من الآية ٦٠) (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ) [يونس: ١٠٦] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...) [البقرة: من الآية ١٨٦] (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) [النمل: ٦٢].

وإذا أردت أن تتأكد أكثر والمساءلة في تصوري لا تحتاج إلى كثير تدليل - فعليك بمطالعة قصص الأنبياء حين لجئوا إلى ربهم وهم في أشد حالات الحياة كربة وشدة، [هذا أيوب في مرضه، ويونس في بطن الحوت، ونوح مع قومه، ورسول الله في بدر وغيرها].

^{١٧٢} - أمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص: ٣١٠) وإتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٧/ ٣٨٢) (١٣٢٢ / ١) والآداب للبيهقي (ص: ٣٠٧) (٧٥٨) والزهد لهناد بن السري (١/ ٣٠٤) (٥٣٦) والقدر للفريابي مخرجا (ص: ١٣٢) (١٥٦) صحيح

إن الدعاء هو العبادة الحقيقية للمسلم وهو السلاح الفعال في القضاء على الكربات والشدائد؛ فلا يرد القضاء إلا الدعاء. فيجب على المسلم أن يلجأ إلى الله وحده بالدعاء وخاصة حين نزول الشدائد.

المجاهدة في تحقيق الإخلاص وطلبه ليل نهار

إن العبد منا مأمور بتحقيق الإخلاص وطلبه من الله، كلهم قالوا: "إن كنت تعلم أي فعلت... ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه"؛ فالإخلاص هو السبب وليس العمل ذاته، ولذا قيل بأن النية أهم من العمل في الأمر ذاته.

وإذا أردت أن تحقق الإخلاص فاقرأ في سير المجاهدين بالإخلاص؛ وتلاحظ حينها أنهم كانوا دائماً يستحضرون نواياهم قبل كل خطوة يخطونها في الحياة؛ حتى لا يخسروا الأعمال وثوابها. فجاهد نفسك أخي - في الله - في تحقيق الإخلاص.

بيان قدرة الله البالغة، والذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء

بنظرة متأنية في رحاب القصة وكيف كان الله بقدرته أسبق إلى تفريج كرب هؤلاء من أي سبب آخر، وينظره أخرى إلى واقع تاريخ الأمم نكتشف أن هلاك قارون وفرعون وهامان والنمرود وأقوام سابقين وغيرهم في العصر الحالي من الطغاة والظالمين وقد زج بهم في رحاب السجون والمعتقلات، - اللهم لا شماتة - تلاحظ أن ربك هو القادر بقدرته صنع كل ذلك، وما على الإنسان إلا أن يثق بربه ويلجأ وقلبه مطمئن بذلك.

ثواب وفضل بر الوالدين وأثره

لقد أمر الشارع الحنيف ببر الوالدين لأن من خلاله ينطلق العبد في حياته وقد نال رضا ربه؛ لأن رضا ربه من رضا أبويه عنه، بطاعة خالقه. وبر الأبوين عند الكبر أشد وأوجب. ولتعلم أن كل الذنوب تؤخر عقوبتها إلا عقوبة العقوق، وكما تدين تدان.

العفة وأهميتها في بناء المجتمع الطاهر النظيف

في ظل الفتن والشهوات المنتشرة في واقعنا اليوم، فإننا بحاجة ماسة إلى تربية العفة في حياتنا وحياة أبنائنا وبناتنا. وفي القصة نلاحظ الرجل العفيف، والذي بعفته نجا - هو ومن معه - من كربة!، والعبد العفيف في ظل العرش يوم القيامة. كما أن العفة تنتج مجتمعا طاهرا ونظيفا.

خطورة الفقر وأثره في شيوع الفاحشة

السؤال: ما الذي أحوج هذه المرأة أن تأتي لتقع في الفاحشة؟ لا أجد جوابا إلا الحاجة والفقر!. ولذا يجب أن تجتمع جهود المسلمين في كل مكان لمحاربة الفقر، والذي قرنه نبينا - عليه الصلاة والسلام - بالكفر؛ حين دعا: "اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر"، ويضاف إلى هذه الوقفة

الأخلاقية: دور المرأة في نشر الفضيلة في المجتمع؛ فيقول المرأة: "اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه" ارتدع الرجل وتركها، بل وترك لها المال مساندة ومساعدة لها.

إعطاء الأجير حقه قبل أن يجف عرقه

واقع مرير حين نرى أناسا يأكلون أموال الناس بالباطل، ويأخذون حقوق الأجراء والضعفاء يغير وجه حق، والله لن يتركهم، فقد ورد في الحديث: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، وعد ربنا منهم: رجلا استأجر أجيرو فاستوفى منه ثم لم يعطه أجره".

فضل المراقبة لله في كل وقت وعلى كل حال

أين الله في حياتنا جميعا؟ إننا بحاجة أن نستشعر مراقبة الله لنا؛ لنبتعد عن الذنوب والمعاصي!.
أيها الأحباب: اتقوا الله وأخلصوا في أعمالكم، وساهموا في نصرة أمتكم بأخلاقكم. وتذكروا هذه القصة والتي كانت سببا في تفريج كرب أناس لما اتقوا الله وبقي لهم عمل صالح، فقدموا للشدائد أعمالا صالحة. فرج الله عنا وعنكم كل الكرب. ^{١٧٣}



^{١٧٣} - ثلاثة في غار .. ووقفات إيمانية وأخلاقية - أميمة عبد الفتاح: <http://islamselect.net/mat/> ٩٣٣٩٤

قصة الرجل الذي خسف به وهو يجر إزاره من الخيلاء

عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^{١٧٤}..
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ، إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^{١٧٥}.

شرح المفردات:

(يَتَجَلَجَلُ): وَالتَّجَلُّلُ بِجِيمَيْنِ التَّحَرُّكُ، وَقِيلَ: التَّجَلُّلُ الْحَرَكَةُ مَعَ صَوْتٍ، وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: كُلُّ شَيْءٍ خَلَطَتْ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ فَقَدْ جَلَجَلَتْهُ. وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ: التَّجَلُّلُ أَنْ يَسُوخَ فِي الْأَرْضِ مَعَ اضْطِرَابٍ شَدِيدٍ وَيَنْدَفِعَ مِنْ شِقِّ إِلَى شِقٍّ، فَالْمَعْنَى يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ أَيَّ يَنْزِلُ فِيهَا مُضْطَرَبًا مُتَدَاْفِعًا. قَالَ النُّووي: قِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَقَعُ هَذَا. وَقِيلَ: بَلْ هُوَ إِخْبَارٌ عَمَّنْ قَبْلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ مَعْنَى إِدْخَالِ الْبُخَارِيِّ لَهُ فِي بَابِ ذِكْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^{١٧٦}.

(جمته): بضم الجيم وتشديد الميم، هي مجتمع الشعر إذا تدلى من الرأس إلى المنكبين وإلى أكثر من ذلك، وأما الذي لا يتجاوز الأذنين فهو الوفرة^{١٧٧}.

من فوائد الحديث:

- ١- قال ابن حجر: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ هُوَ مُلَاحَظَتُهُ لَهَا بِعَيْنِ الْكَمَالِ مَعَ نِسْيَانِ نِعْمَةِ اللَّهِ، فَإِنْ احْتَقَرَ غَيْرَهُ مَعَ ذَلِكَ فَهُوَ الْكِبَرُ الْمَذْمُومُ^{١٧٨}.
- ٢- سوء عاقبة الكبر والعجب أنه يوجب العقوبات العاجلة والآجلة.
- ٣- فيه إثبات عذاب القبر، وقد شرع للمسلم أن يستعيز بالله منه في كل صلاة.
- ٤- قال الماوردي: وَأَمَّا الْإِعْجَابُ فَيُخْفِي الْمَحَاسِنَ وَيُظْهِرُ الْمَسَاوِيَّ وَيُكْسِبُ الْمَذَامَ وَيَصُدُّ عَنِ الْفَضَائِلِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعُجْبَ لَيَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ

^{١٧٤} - صحيح البخاري (٤/ ١٧٧) (٣٤٨٥) والتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (ص: ٤١٤) (١٤٦٨)

[ش (الخيلاء) هي الكبر والتبختر مع الإعجاب بالنفس. (يتجلجل) يتحرك في أعماق الأرض والجلجلة الحركة مع الصوت]

^{١٧٥} - صحيح مسلم (٣/ ١٦٥٣) ٤٩ - (٢٠٨٨)

[ش (جمته) الجملة من شعر الرأس ما سقط على المنكبين (يتجلجل) أي يغوص في الأرض حين يخسف به والجلجلة حركة مع صوت]

^{١٧٦} - انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٧٦٦)

^{١٧٧} - انظر: فتح الباري ١٠/ ٢٦١.

^{١٧٨} - فتح الباري ١٠/ ٢٦١.

الْحَطَبَ». . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: الْإِعْجَابُ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ. وَقَالَ بَزْرَجَمَهُرُ: النَّعْمَةُ الَّتِي لَا يُحْسَدُ صَاحِبُهَا عَلَيْهَا التَّوَاضُّعُ، وَالْبَلَاءُ الَّذِي لَا يُرْحَمُ صَاحِبُهُ مِنْهُ الْعُجْبُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: عُجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ. وَلَيْسَ إِلَى مَا يُكْسِبُهُ الْكِبَرُ مِنَ الْمَقْتِ حَدٌّ، وَلَا إِلَى مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْعُجْبُ مِنَ الْجَهْلِ غَايَةٌ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُطْفِئُ مِنَ الْمَحَاسِنِ مَا انْتَشَرَ، وَيَسْلُبَ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا اشْتَهَرَ. وَنَاهِيكَ بِسَيِّئَةٍ تُحْبِطُ كُلَّ حَسَنَةٍ وَبِمَذْمَةٍ تَهْدِمُ كُلَّ فَضِيلَةٍ، مَعَ مَا يُثِيرُهُ مِنْ حَقِّ وَيُكْسِبُهُ مِنْ حَقْدٍ.^{١٧٩} وما كان هذا شأنه فحري بالمسلم أن يحذر منه.

٥- بعض الذنوب يُعَجِّلُ اللَّهُ العقوبةَ لصاحبها في الدنيا قبل الآخرة كما حدث مع هذا المتكبر. كما أن بعض الطاعات يعجل الله لأثوابها في الدنيا. ومن ذلك ماجاء عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَيْسَ شَيْءٌ أُطِيعُ اللَّهُ فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صَلَةِ الرَّحِمِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْجَلَ عِقَابًا مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَالْيَمِينِ الْفَاجِرَةِ تَدْعُ الدِّيَارَ بِلَقَاعٍ "^{١٨٠}. صَلَةِ الرَّحِمِ: الْإِحْسَانُ إِلَى الْأَقَارِبِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ. الْبَغْيُ: التَّعَدِّي عَلَى النَّاسِ.

قَطِيعَةُ الرَّحِمِ: تَكُونُ بِإِسَاءَةٍ أَوْ هَجْرٍ أَوْ نَحْوِهَا.

الْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ: الْكَاذِبَةُ.

تَدْعُ: تَتْرُكُ .

بِلَقَاعٍ: جَمْعُ بَلَقَعَ وَهِيَ الْأَرْضُ الْقَفْرَاءُ الَّتِي لَا شَيْءَ فِيهَا ، أَيْ أَنَّ الْحَالِفَ كَذِبًا يَفْتَقِرُ وَيَذْهَبُ مَا فِي بَيْتِهِ مِنَ الرِّزْقِ.^{١٨١}



^{١٧٩} - أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٧) والحديث لم أجده

^{١٨٠} - السنن الكبرى للبيهقي (١٠ / ٦٢) (١٩٨٧٠) صحيح

^{١٨١} - دروس وعبر من صحيح القصص النبوي (ص: ٥٧)

قصة الرجل الذي استسلف ألف دينار

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: " أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: اثْنَيْنِ بِالشُّهْدَاءِ أَشْهَدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَأَتْنِي بِالْكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَتَقَرَّهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ رَجَعَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسْلِفْتُ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، فَرَضِي بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِي بِكَ، وَأَنِّي جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدَّمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لَأَتِيكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتُ بَعَثْتُ إِلَيَّْ بَشِيءًا؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتُ فِي الْخَشَبَةِ، فَانْصَرَفَ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا ۝ ۱۸۲ ۝

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يُسْلِفُ النَّاسَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا فُلَانُ، أَسْلَفْنِي سِتِّ مِائَةِ دِينَارٍ، قَالَ: نَعَمْ، إِنْ أَتَيْتَنِي بِوَكِيلٍ، قَالَ: اللَّهُ وَكِيلِي، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، نَعَمْ، قَدْ قَبِلْتُ اللَّهُ وَكِيلًا، فَأَعْطَاهُ سِتِّ مِائَةِ دِينَارٍ، وَضَرَبَ لَهُ أَجَلًا، فَركبَ الْبَحْرَ بِالْمَالِ لِيَتَجَرَ فِيهِ، وَقَدَّرَ اللَّهُ أَنْ حَلَّ الْأَجَلُ، وَارْتَجَعَ الْبَحْرُ بَيْنَهُمَا، وَجَعَلَ رَبُّ الْمَالِ يَأْتِي السَّاحِلَ يَسْأَلُ عَنْهُ، فَيَقُولُ الَّذِي يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ: تَرَكْنَاهُ بِمَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ رَبُّ الْمَالِ: اللَّهُمَّ اخْلُفْنِي فِي فُلَانٍ بِمَا أَعْطَيْتَهُ بِكَ، قَالَ: وَيَنْطَلِقُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَالُ، فَيَنْحِتُ خَشَبَةً، وَيَجْعَلُ الْمَالَ فِي جَوْفِهَا، ثُمَّ كَتَبَ صَحِيفَةً مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ، إِنِّي دَفَعْتُ مَالَكَ إِلَيَّ وَكِيلِي، ثُمَّ سَدَّ عَلَى فَمِ الْخَشَبَةِ، فَرَمَى بِهَا فِي عَرْضِ الْبَحْرِ، فَجَعَلَ يَهْوِي بِهَا حَتَّى رَمَى بِهَا إِلَى السَّاحِلِ، وَيَذْهَبُ رَبُّ الْمَالِ إِلَى السَّاحِلِ، فَيَسْأَلُ، فَيَجِدُ الْخَشَبَةَ، فَحَمَلَهَا، فَذْهَبَ بِهَا إِلَى أَهْلِهِ، وَقَالَ: أَوْقِدُوا بِهِذِهِ، فَكَسَرُوهَا، فَانْتَشَرَتِ الدَّنَانِيرُ، وَالصَّحِيفَةُ،

١٨٢ - صحيح البخاري (٩٥ / ٣) (٢٢٩١) معلقا بصيغة الجزم ومسند أحمد (عالم الكتب) (٣ / ٣١٨) (٨٥٨٧) والسنن الكبرى

للنسائي (٥ / ٥٨٠٠) صحيح

[ش (التمس) طلب. (للاجل) الزمن الذي حدده له للوفاء. (فتقنها) حفرها. (صحيفة) مكتوبا. (زجج) سوى موضع النقر وأصلحه من ترجيح الحواجب وهو حلق زوائد الشعر. (تسلفت فلانا) طلبت منه سلفا. (جهدت) بذلت وسعي. (ولجت) دخلت في البحر]

فَأَخَذَهَا، فَقَرَأَهَا، فَعَرَفَ، وَتَقَدَّمَ الْآخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّ الْمَالِ: مَالِي، فَقَالَ: قَدْ دَفَعْتُ مَالِي إِلَيَّ وَكِيلِي، إِلَى مُوَكَّلٍ بِي، فَقَالَ لَهُ: أَوْفَانِي وَكِيلُكَ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَكْثُرُ مِرَاؤُنَا وَلَعَطُنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَنَا أَيُّهُمَا آمَنُ» ١٨٣

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " كَانَ رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُبَايِعُ بِالْأَمَانَةِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَأَخَذَ مِنْهُ أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى أَجَلٍ، فَحَضَرَ الْأَجَلَ وَقَدْ حَبَّ الْبَحْرُ، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَجَعَلَ فِيهَا الدَّنَانِيرَ، ثُمَّ أَتَى الْبَحْرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّ فُلَانًا بَايَعَنِي بِالْأَمَانَةِ، وَقَدْ حَبَّ الْبَحْرُ، فَأَدِّهَا إِلَيْهِ قَالَ: وَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ، وَأَقْبَلَتِ الْخَشَبَةُ تَرْفَعُهَا مَوْجَةٌ وَتَضَعُهَا أُخْرَى قَالَ: وَخَرَجَ الرَّجُلُ لِيَتَوَضَّأَ لَصَلَاةِ الْعَدَاةِ، فَجَاءَتِ الْخَشَبَةُ فَصَكَّتْ كَعْبَهُ، فَأَخَذَهَا، ثُمَّ قَالَ لِأَهْلِهِ: لَا تُحَدِّثُوا فِيهَا حَدًّا حَتَّى أَصْلِيَ قَالَ: فَأَخَذَهَا، فَإِذَا فِيهَا الدَّنَانِيرُ، قَالَ: فَكَتَبَ وَزَنَهَا عِنْدَهُ، ثُمَّ لَقِيَ الرَّجُلَ بَعْدَ زَمَانٍ، فَقَالَ: أَلَسْتَ فُلَانًا؟ قَالَ: بَلَى قَالَ: أَلَسْتَ الَّذِي بَايَعْتَنِي الْأَمَانَةَ؟ قَالَ: بَلَى قَالَ: فَأَيْنَ مَالِي؟ قَالَ: أَتَرَنُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَعْلَمُ اللَّهُ لَقَدْ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا قَالَ: قَدْ آدَى اللَّهُ عَنْكَ أَمَانَتَكَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَيُّ الرَّجُلَيْنِ أَعْظَمُ أَمَانَةً؟ الَّذِي آدَاهَا، وَلَوْ شَاءَ لَذَهَبَ بِهَا، أَمْ الَّذِي رَدَّهَا، وَلَوْ شَاءَ لَأَخَذَهَا ١٨٤

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يُسْلِفُ النَّاسَ إِذَا أَتَاهُ الرَّجُلُ بِوَكِيلٍ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا فُلَانُ أَسْلَفْنِي سِتْمِئَةَ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِّيَ أَيْنَ وَكِيلُكَ، قَالَ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكِيلِي، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ نَعَمْ قَبِلْتُ. فَعَدَّ لَهُ سِتْمِئَةَ دِينَارٍ وَضَرَبَ لَهُ أَجَلًا، فَركبَ الرَّجُلُ الْبَحْرَ بِالْمَالِ يَتَجَرُّ فِيهِ، فَقَدَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ حُلَّ الْأَجَلَ وَلَمْ يَقْدَمْ الْآخَرُ، وَارْتَجَّ الْبَحْرُ بَيْنَهُمَا، وَغَدَا رَبُّ الْمَالِ إِلَى السَّاحِلِ يَسْأَلُ عَنْهُ، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ: تَرَكْنَاهُ بِقَرِيَةٍ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رَبُّ الْمَالِ: اللَّهُمَّ أَخْلَفْنِي فُلَانٌ، وَإِنَّمَا أُعْطِيتُهُ لَكَ. وَيَنْطَلِقُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَالُ فَيَنْجُرُ خَشَبَةً حِينَ حُلَّ الْأَجَلَ فَيَجْعَلُ الْمَالُ فِي جَوْفِهَا، وَكَتَبَ إِلَيْهِ صَحِيفَةً: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ، إِنِّي قَدْ دَفَعْتُ مَالَكَ إِلَيَّ وَكِيلِي الَّذِي تَوَكَّلَ بِي، ثُمَّ سَدَّ عَلَى فَمِ الْخَشَبَةِ فَرَمَى بِهَا فِي غُرْضِ الْبَحْرِ، فَأَقْبَلَ الْبَحْرُ يَهْوِي بِهَا حَتَّى رَمَى بِهَا إِلَى السَّاحِلِ، وَغَدَا رَبُّ الْمَالِ يَسْأَلُ عَنْ صَاحِبِهِ كَمَا كَانَ يَسْأَلُ، فَيَجِدُ الْخَشَبَةَ فَيَحْمِلُهَا إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ: أَوْقِدُوا هَذِهِ، فَكَسَرُوهَا فَانْتَشَرَتْ الدَّنَانِيرُ مِنْهَا وَالصَّحِيفَةُ، فَقَرَأَهَا وَعَرَفَ، وَقَدَّمَ الْآخَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأَتَاهُ رَبُّ الْمَالِ فَقَالَ: يَا فُلَانُ، مَالِي قَدْ طَالَتِ النُّظْرَةُ، قَالَ: أَمَّا مَالُكَ فَقَدْ دَفَعْتُهُ إِلَى وَكِيلِي الَّذِي تَوَكَّلَ بِهِ، وَأَمَّا أَنْتَ فَهَذَا مَالُكَ فَخُذْهُ، قَالَ: وَكِيلُكَ قَدْ وَفَانِي» ١٨٥

شرح المفردات:

(فَتَقَرَّهَا) أَي: حَفَرَهَا.

١٨٣ - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٤/ ٤٠٩) (٦٤٨٧) حسن

١٨٤ - مكارم الأخلاق للخرائطي (ص: ٧٤) (١٧٧) صحيح

١٨٥ - المخلصيات (١/ ٢٨٥) (٤١٨) - (٥٢) ومسنند البزار = البحر الزخار (١٥/ ٢٣٨) (٨٦٨٢) وتعليق التعليق (٥/ ١٢٧) حسن

(وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ) فِي رِوَايَةِ أَبِي سَلَمَةَ " وَكَتَبَ إِلَيْهِ صَحِيفَةً: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ، إِنِّي دَفَعْتُ مَالَكَ إِلَيَّ وَكِيلِي الَّذِي تَوَكَّلَ بِي "

(ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا) كَذَا لِلْجَمِيعِ بِزَايٍ وَجِيمَيْنِ أُولَهُمَا مُشَدَّدَةٌ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: أَيْ سَوَّى مَوْضِعَ النَّقْرِ وَأَصْلَحَهُ، وَهُوَ مِنْ تَزَجِيجِ الْحَوَاجِبِ وَهُوَ حَذْفُ زَوَائِدِ الشَّعْرِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَأْخُودًا مِنَ الزُّجِّ وَهُوَ التَّصَلُّ كَأَنْ يَكُونَ النَّقْرُ فِي طَرَفِ الْخَشَبَةِ فَشَدَّ عَلَيْهِ زُجًّا لِيُمْسِكُهُ وَيَحْفَظَ مَا فِيهِ، وَقَالَ عِيَّاضٌ: مَعْنَاهُ سَمَرَهَا بِمَسَامِيرِ كَالزُّجِّ، أَوْ حَشَى شُقُوقَ لَصَاقِهَا بِشَيْءٍ وَرَفَعَهُ بِالزُّجِّ، وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ: مَعْنَاهُ أَصْلَحَ مَوْضِعَ النَّقْرِ.

(تَسَلَّفَتْ فُلَانًا) أَيْ: اسْتَسَلَفَتْ مِنْ فُلَانٍ.

(وَإِنِّي جَهَدْتُ) بِفَتْحِ الْجِيمِ وَالْهَاءِ، أَيْ: اجْتَهِدْتُ.

(حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ) بِتَخْفِيفِ اللَّامِ، أَيْ: دَخَلَتْ فِي الْبَحْرِ.

(فَلَمَّا نَشَرَهَا) أَيْ قَطَعَهَا بِالْمِنْشَارِ.

(وَجَدَ الْمَالَ) فِي رِوَايَةِ أَبِي سَلَمَةَ " وَغَدَا رَبُّ الْمَالِ يَسْأَلُ عَنْ صَاحِبِهِ كَمَا كَانَ يَسْأَلُ فَيَجِدُ الْخَشَبَةَ فَيَحْمِلُهَا إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: أَوْقِدُوا هَذِهِ، فَكَسَرُوهَا فَانْتَشَرَتِ الدَّنَانِيرُ مِنْهَا وَالصَّحِيفَةُ، فَقَرَأَهَا وَعَرَفَ " ١٨٦.

من فوائد الحديث:

١ - مشروعية التعاون بين الناس على الخير والبر ومن ذلك إقراض المحتاج إلى قرض، إذا أمن جانبه ووثق بوفائه.

٢ - وفيه مشروعية طلب الشُّهُودِ فِي الدِّينِ، وَطَلَبُ الْكَفِيلِ بِهِ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ إِذَا ظَهَرَ فِي النَّاسِ التَّهَوُّنُ فِي آدَاءِ الْحَقُوقِ، وَالْمَاطَلَةُ فِيهَا. حِفْظًا لِلْحَقُوقِ .

٣ - وفيه فَضْلُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَأَنَّ مَنْ صَحَّ تَوَكُّلُهُ تَكَفَّلَ اللَّهُ بِنَصْرِهِ وَعَوْنِهِ.

٤ - وفيه أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَكَفِّلٌ بِعَوْنٍ مَنْ أَرَادَ آدَاءَ الْأَمَانَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ يُجَازِي أَهْلَ الْإِرْفَاقِ بِالْمَالِ بِحِفْظِهِ عَلَيْهِمْ مَعَ أَجْرِ الْآخِرَةِ كَمَا حَفَظَهُ عَلَى الْمُسْلَفِ.

٥ - كَمَالُ قُدْرَةِ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ، وَنَفَازُ مَشِيعَتِهِ، حَيْثُ وَصَلَ الْمَالُ إِلَى صَاحِبِهِ، فِي خَشَبَةٍ مُلْقَاةٍ فِي الْبَحْرِ.

٦ - وفيه إثبات كرامات الأولياء من أهل الإيمان والصدق والإخلاص والأمانة.

٧ - أَنَّ الْمُقْتَرَضَ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا فَعَلَ مِنْ وَضْعِ الْمَالِ فِي خَشَبَةٍ وَإِلْقَائِهَا فِي الْبَحْرِ لَعَلَّهَا تَصِلُ إِلَى صَاحِبِهَا، بَلْ اجْتَهِدَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي إِصْصَالِ الْمَالِ بِالطَّرِيقِ الْمَعْتَادِ إِلَى صَاحِبِهِ، لِإِبْرَاءِ ذِمَّتِهِ بَيِّقِينَ.

١٨٦ - دروس وعبر من صحيح القصص النبوي (ص: ٤١) وفتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٤ / ٤٧١)

- ٨- مراقبة المقرض الله عز وجل، حيث أخبر أخاه الذي جاء ليسدد له المال مرة أخرى بعد أن وجد مركباً إليه بوصول المال الذي بعث به إليه.
- ٩- وفيه جواز ركوب البحر بأموال الناس والتجارة.
- ١٠- فِيهِ التَّحَدُّثُ عَمَّا كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَجَائِبِ لِلِاتِّعَاطِ وَالِاتِّسَاءِ.
- ١١- جَوَازُ الْأَجَلِ فِي الْقَرْضِ وَوُجُوبُ الْوَفَاءِ بِهِ وَعَدَمُ الْمَاطِلَةِ فِي السَّدَادِ.
- ١٢- جَوَازُ التَّحَدُّثِ عَمَّا كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَجَائِبِ لِلِاتِّعَاطِ وَالِاتِّسَاءِ.
- ١٣- مَشْرُوعِيَّةُ التَّقَاطِ مَا لَهُ قِيَمَةٌ قَلِيلَةٌ — مِثْلَ الْحَشَبَةِ — وَالِانْتِفَاعُ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيفٍ لَهُ. وَيُجُوزُ اخْتِذُ مَا لَا قِيَمَةَ لَهُ مِثْلَ مَا يُرْمَى بِهِ مِنْ مُخْلَفَاتِ الْبُيُوتِ.
- ١٤- لِلْمَقْرُضِ أَنْ يَأْخُذَ رَهْنًا ، أَوْ كَفِيلًا مِنَ الْمُسْتَقْرَضِ لِيَحْفَظَ حَقَّهُ مِنَ الضِّيَاعِ .
- ١٥- لِصَاحِبِ الدِّينِ أَنْ يَرْضَى مَنْ عَلَيْهِ الدِّينُ بِشَهَادَةِ اللَّهِ وَكِفَالَتِهِ ، إِذَا لَمْ يَجِدْ شُهَدَاءَ ، أَوْ كَفِيلًا .
- ١٦- عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ وَيَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ، فَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ أُمَيَّةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أُرْسِلْ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟، قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»^{١٨٧} ..
- فالمقترض ينقر الحشبة ، ويضع الدنانير فيها ، ويسدها ، ثم يدعو الله متوكلاً عليه .
- ١٧- مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ، أَوْ كَفِيلًا كَفَاهُ ، وَحَفِظَ لَهُ حَقَّهُ فَاَلْمَقْتَرَضُ حِينَمَا رَضِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا وَكَفِيلًا رَدَّ عَلَيْهِ مَالَهُ .
- ١٨- عَلَى الْمُسْلِمِ الْعَاقِلِ أَلَّا يَكْتَفِيَ بِالْأَسْبَابِ الْغِيْبِيَةِ وَحَدَهَا ، بَلْ يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ الْحَسِيَةِ ، فَاَلْمَقْتَرَضُ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا أَرْسَلَهُ لِلْمَقْرَضِ فِي الْحَشَبَةِ ، بَلْ أَتَى بِالدَّنَانِيرِ مِنْ جَدِيدٍ حِينَمَا وَجَدَ سَفِينَةً تَحْمِلُهُ إِلَى صَاحِبِ الدِّينِ ، وَلَكِنْ الْمَقْرَضُ أَخْبَرَهُ أَنَّ اللَّهَ أَدَّى عَنْهُ بِمَا أَرْسَلَهُ فِي الْحَشَبَةِ .
- ١٩- عَلَى الْمَقْتَرَضِ أَنْ يَبْذُلَ جَهْدَهُ وَيَسْلُكَ كُلَّ السَّبِيلِ لَوْفَاءَ دِينِهِ فِي وَقْتِهِ الْمَحْدَدِ .
- ٢٠- إِذَا أَحْسَنَ الْمُسْلِمُ النِّيَّةَ وَفَقَهُ اللَّهَ لِأَدَاءِ دِينِهِ .
- ٢١- أَدَاءُ الْحَقُوقِ ، وَوَفَاءُ الدِّينِ وَاجِبٌ ، لَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهُ ، إِذَا لَمْ يَوْفِهِ فِي الدُّنْيَا ، فَسَوْفَ يَدْفَعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَرَبَّمَا كَانَ سَبَبًا فِي دُخُولِهِ النَّارِ .^{١٨٨}



^{١٨٧} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٥١٠ / ٢) (٧٣١) حسن

^{١٨٨} - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٤ / ٤٧٢) ودروس وعبر من صحيح القصص النبوي (ص: ٤٢)

قصة المراتين اللتين تحاكمتا في ابنهما إلى داود وسليمان عليهما السلام

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "كَانَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِأَبْنٍ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ، وَقَالَتِ الْآخَرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسَّكِينِ أَشَقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى " قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَاللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسَّكِينِ قَطُّ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا الْمُدْيَةَ»^{١٨٩}.

شرح المفردات:

(الْمُدْيَةُ) بِضَمِّ الْمِيمِ وَكَسْرُهَا وَفَتْحُهَا، سُمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا تَقْطَعُ مَدَى حَيَاةِ الْحَيَوَانَ.
(وَالسَّكِينِ) تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ لُغَتَانِ، وَيُقَالُ أَيْضًا: سَكِينَةٌ لِأَنَّهَا تُسَكِّنُ حَرَكََةَ الْحَيَوَانَ.^{١٩٠}

شرح الحديث:

قَالَ: أَتَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ " ، أَيُّ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ابْنٌ (جَاءَ الذِّئْبُ) اسْتَنْفَأُ بَيَانٍ (فَذَهَبَ) بِأَبْنٍ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا أَيُّ: رَفِيقَةُ إِحْدَاهُمَا الَّتِي ذَهَبَ بِابْنِهَا (إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ. وَقَالَتِ الْآخَرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ) . وَلَعَلَّ الْوَلَدَيْنِ كَانَا شَبِيهَيْنِ، أَوْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا كَاذِبَةً، لَكِنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَسْتَأْنِسَ بِالْمَوْجُودِ بَدَلًا عَنِ الْمَفْقُودِ، أَوْ لِأَغْرَاضٍ أُخَرَ فَاسِدَةٍ وَأَمَّكَارٍ كَاسِدَةٍ. (فَتَحَاكَمَتَا) أَيُّ: فَرَعَتَا الْحُكُومَةَ (إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ) أَيُّ: حَكَمَ بِالْوَلَدِ لِلْكُبْرَى ، إِمَّا لِكَوْنِهِ فِي يَدِهَا عَلَى مُقْتَضَى الْقَاعِدَةِ الشَّرْعِيَّةِ أَنَّ صَاحِبَةَ الْيَدِ أَوْلَى، أَوْ لِأَنَّهُ أَشَبَّهُ بِهَا عَلَى اعْتِبَارِ عِلْمِ الْقِيَافَةِ، كَمَا قَالَ بِهِ الشَّافِعِيُّ، (فَخَرَجَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ) ، أَيُّ مَارَتَيْنِ عَلَيْهِ (فَأَخْبَرَتَاهُ) ، أَيُّ: مِمَّا سَبَقَ مِنْ حَالِهِمَا وَتَحَقَّقَ مِنْ مَالِهِمَا (فَقَالَ) أَيُّ: لِيَخْدَمَهُ (ائْتُونِي بِالسَّكِينِ أَشَقُّهُ) : يَفْتَحُ الْقَافَ الْمُشَدَّدَةَ عَلَى جَوَابِ الْأَمْرِ، وَفِي نُسْخَةٍ بِالرَّفْعِ أَيُّ: أَنَا أَقْطَعُ الْوَلَدَ نَصْفَيْنِ (بَيْنَكُمَا) أَيُّ: مَقْسُومَيْنِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ عَلَى فَرَضِ أَنَّكُمْ لَمْ تُظْهِرَا لِي الصِّدْقَ فِي أَمْرِهِ، وَلَعَلَّ الْآخَرَى أَيْضًا كَانَتْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مُتَعَلِّقَةً بِالْوَلَدِ مُتَمَسِّكَةً بِالْيَدِ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَرِدْ حَقِيقَةُ التَّنْصِيفِ، وَإِنَّمَا صَوَّرَ لَهُمَا هَذَا التَّصْوِيرَ تَوْسُلًا إِلَى مَا أَرَادَ بِهِ مِنْ ظُهُورِ أَمَارَةِ التَّأْلِيفِ (فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ) ، أَيُّ الشَّقِّ (يَرْحَمُكَ اللَّهُ) أَيُّ: كَمَا أَوْقَعَنِي فِي الرَّحْمَةِ عَلَى وَلَدِي (هُوَ ابْنُهَا) ، أَيُّ رَضِيتُ بِأَنَّهُ يَكُونُ ابْنُهَا وَهُوَ حَيٌّ، وَلَا أَرْضَى بِالشَّقِّ الْمُفْضِي إِلَى مَوْتِهِ، (فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى) . أَيُّ لَوْجُودِ قَرِينَةِ الشَّقَّةِ وَالرَّحْمَةِ فِيهَا، وَتَحَقُّقِ الْقِسَاوَةِ وَالْيُوسَةِ وَالْعَقْلَةِ، بَلْ

^{١٨٩} - صحيح البخاري (١٥٦ / ٨) (٦٧٦٩) وصحيح مسلم (٣ / ١٣٤٤) ٢٠ - (١٧٢٠)

[ش (لا يرحمك الله) معناه لا تشقه ثم استأنفت فقالت يرحمك الله هو ابنها قال العلماء ويستحب أن يقال في مثل هذا بالواو فيقال لا يرحمك الله (المدية) بضم الميم وفتحها وكسرهما سميت به لأنها تقطع مدى حياة الحيوان]

^{١٩٠} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٣ / ٢٦٢) (٩٦٧٦)

دَلَالَةُ الْعَدَاوَةِ فِي الْآخَرَى. قَالَ شَارِحٌ: وَاعْلَمْ أَنَّ قَضَاءَهُمَا حَقٌّ، لِكَوْنِهِمَا مُحْتَجِدَيْنِ، وَمُسْتَنَدٌ قَضَائُهُمَا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ هِيَ الْقَرِينَةُ لَكِنَّ الْقَرِينَةَ الَّتِي قَضَى بِهَا سُلَيْمَانُ أَقْوَى مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرِ وَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّ قَرَائِنَ الْأَحْوَالِ كَانَتْ فِي شَرْعِهِمْ بِمِثَابَةِ الْبَيِّنَةِ يَعْنِي: وَلَوْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ذَاتَ الْيَدِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالُوا: يُحْتَمَلُ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى لِشَبِّهِ رَأَهُ فِيهِمَا، لِكَوْنِهِ كَانَ فِي يَدِهَا، وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَتَوَصَّلَ بِطَرِيقٍ مِنَ الْحِيلَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ بَاطِنِ الْقَضِيَّةِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اخْتِبَارَ شَفَقَتَهُمَا لِيَتَمَيَّزَ لَهُ الْأَمْرُ لَا الْقَطْعَ حَقِيقَةً، فَلَمَّا تَمَيَّزَ حُكْمَ لِلصُّغْرَى بِإِفْرَارِ الْكُبْرَى، لَا بِمُجَرَّدِ الشَّفَقَةِ قُلْتُ: الْإِفْرَارُ لَا دَلَالَةَ لِلْعِبَارَةِ عَلَيْهِ، وَلَا طَرِيقَ لِلإِشَارَةِ إِلَيْهِ. قَالَ: وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: وَمِثْلُهُ مَا يَفْعَلُهُ الْحُكَمَاءُ لِيَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَى حَقِيقَةِ الصَّوَابِ. قُلْتُ: وَقَدْ حَقَّقَ ابْنُ الْقَيْمِ الْجُوزِيُّ هَذَا الْمَبْحَثَ فِي كِتَابِ "الْفَرَّاسَةِ فِي السِّيَاسَةِ".

قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ نَقَضَ سُلَيْمَانُ حُكْمَ أَبِيهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهِهِ، أَحَدُهَا: أَنَّ دَاوُدَ لَمْ يَكُنْ جَزَمَ بِالْحُكْمِ. وَثَانِيهَا: أَنَّ يَكُونُ ذَلِكَ فَتَوَى مِنْ دَاوُدَ لَا حُكْمًا. وَثَالِثُهَا: لَعَلَّهُ كَانَ فِي شَرْعِهِمْ فُسْخُ الْحُكْمِ إِذَا رَفَعَهُ الْخَصْمُ إِلَى حَاكِمٍ آخَرَ يَرَى خِلَافَهُ. قُلْتُ: وَفِي كُلِّ مِنْهَا نَظَرٌ ظَاهِرٌ، فَالْوَجْهُ أَنَّ الْقَرِينَةَ الْأَقْوَى كَانَتْ عِنْدَهَا بِالْإِعْتِبَارِ هُوَ الْأَوَّلَى، وَأَمَّا لَوْ صَحَّ إِفْرَارُ الْكُبْرَى بَأَنَّهُ لِلصُّغْرَى، فَلَا إِشْكَالَ بِكُلِّ حَالٍ، لِأَنَّ الْإِفْرَارَ بَعْدَ الْحُكْمِ مُعْتَبَرٌ فِي شَرْعِنَا أَيْضًا، كَمَا إِذَا اعْتَرَفَ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بَعْدَ الْحُكْمِ بِأَنَّ الْحَقَّ لِخَصْمِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.^{١٩١}

من فوائد الحديث:

١- قال ابن الجوزي: إنما حكما بالاجتهاد إذ لو كان بنص لما ساغ خلافه، وفي الحديث دليل على اجتهاد الأنبياء، وأنهم قد يخطئون في اجتهادهم، ولكنهم لا يقرهم الله على الخطأ، بل يتزل الوحي بيانه كما في هذه القضية حيث قال عز وجل: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) والمراد بالخطأ مخالفة الواقع ونفس الأمر، لا مخالفة الدليل والبيينة الظاهرة، إذ لو كان الخطأ الاجتهادي هو مخالفة الظاهر لما كان صاحبه معذوراً ومأجوراً، كما يدل عليه ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»^{١٩٢}. فَإِنْ مَنْ خَالَفَ الدليل الظاهر، وحكم بخلاف البيينة الثابتة أثم ولا شك، وقد حكم داود وسليمان بحكمين متناقضين، فلا بد أن يكون أحدهما خطأ وهو حكم داود عليه السلام، والثاني صواب، وهو حكم سليمان عليه السلام كما قال تعالى: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) ..

^{١٩١} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٦٥٥)

^{١٩٢} - المنتقى لابن الجارود (ص: ٢٤٩) (٩٩٦) صحيح

٢- مشروعية استعمال الحيل في الأحكام، فإن سليمان فعل ذلك، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما تخيلاً على إظهار الحق، ولم يعزم على ذلك في الباطن وإنما أراد استكشاف الأمر، فحصل على مقصوده، وظهر له من قرينة شفقة الصغرى وعدمها في الكبرى أنها الأم الحقيقية، ويحتمل أن تكون الكبرى اعترفت بالحق لما رأت الجدل ودلالة القرائن على كذبتها، فحكم عليها سليمان بإقرارها، والإقرار سيّد الأدلة.

٣- فضل سليمان عليه السلام في العلم والفقه ومعرفة الأحكام الذي اقتضى ثناء الله عليه بقوله تعالى: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) .

٤- أن سليمان هو ابن داود عليهما السلام لقوله - ﷺ -: " فخرجنا على سليمان ابن داود " وهو مطابق للآية الكريمة التي ترجم لها البخاري حيث قال تعالى: (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ) الآية. ١٩٣
٥- من المقرر في الشريعة أن القاضي إذا اجتهد وأخطأ فله أجر وإن اجتهد وأصاب فله أجران كما صحَّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» ١٩٤.

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يحكمون فيما يعرض عليهم من قضايا باجتهادهم في إنزال الحكم على الواقعة بحسب البيّنات والقرآن، ففي عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ» ١٩٥. فالحاكم بعلم مثاب أصاب أو أخطأ، إذا اجتهد ما استطاع.

١٩٣ - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢٠٣ / ٤)

١٩٤ - صحيح البخاري (١٠٨ / ٩) (٧٣٥٢) وصحيح مسلم (١٥ / ٣) (١٣٤٢) - (١٧١٦)

[ش (إذا حكم الحاكم فاجتهد) قال العلماء أجمع المسلمون على أن هذا الحديث في حاكم عالم أهل للحكم فإن أصاب فله أجران أجر باجتهاده وأجر بإصابته وإن أخطأ فله أجر اجتهداه وفي الحديث مخذوف تقديره إذا أراد الحاكم فاجتهد قالوا فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم فإن حكم فلا أجر له بل هو إثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحق أم لا لأن إصابته اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعي فهو عاص في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا وهي مردودة كلها ولا يعذر في شيء من ذلك (فاجتهد) بذل جهده لتعرف الحق. (أصاب) وافق واقع الأمر في حكم الله عز وجل]

١٩٥ - صحيح البخاري (٦٩ / ٩) (٧١٦٨) وصحيح مسلم (٣ / ١٣٣٧) - (١٧١٣)

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْخَطَا فِي الْأَحْكَامِ الْجُزْئِيَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَجْزُ فِي الْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ. قَالَ التَّوَوُّيُّ: فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى الْحَالَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ وَبَوَاطِنِ الْأُمُورِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِ الْأَحْكَامِ مَا يَجُوزُ عَلَى غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالظَّاهِرِ، وَاللَّهُ يَتَوَكَّلُ السَّرَائِرَ، فَيَحْكُمُ بِالْبَيِّنَةِ، أَوْ الْيَمِينِ مَعَ إِمْكَانِ خِلَافِ الظَّاهِرِ، وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ» (إِلَى قَوْلِهِ: " وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ "). وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَأُطْلِعَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى بَاطِنِ أَمْرِ الْخَصْمَيْنِ، فَحَكَمَ بَيِّنِينَ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَهَادَةٍ، أَوْ يَمِينٍ، وَلَكِنْ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِقْنَادِ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ، أُجْرِيَ عَلَيْهِ حُكْمُهُمْ مِنْ عَدَمِ الْإِطْلَاعِ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُورِ، لِيَكُونَ لِلْأُمَّةِ أُسُوءَةٌ بِهِ فِي ذَلِكَ وَتَطْيِيبًا لِنَفْسِهِمْ مِنَ الْإِقْنَادِ لِلْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْبَاطِنِ.

٦- مشروعية القضاء بالأمارات والقرائن، قال ابن القيم: "فَالْحَاكِمُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فَقِيهَهُ النَّفْسِ فِي الْأُمَارَاتِ، وَدَلَائِلِ الْحَالِ، وَمَعْرِفَةِ شَوَاهِدِهِ، وَفِي الْقَرَائِنِ الْحَالِيَةِ وَالْمَقَالِيَةِ، كَفَقَهُهُ فِي جُزْئِيَّاتِ وَكُلِّيَّاتِ الْأَحْكَامِ: أَضَاعَ حُقُوقًا كَثِيرَةً عَلَى أَصْحَابِهَا. وَحَكَمَ بِمَا يَعْلَمُ النَّاسُ بَطْلَانَهُ لَا يَشْكُونَ فِيهِ، اعْتِمَادًا مِنْهُ عَلَى نَوْعٍ ظَاهِرٍ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى بَاطِنِهِ وَقَرَّائِنِ أَحْوَالِهِ. فَهَاهُنَا نَوْعَانِ مِنَ الْفَقْهِ، لَا بُدَّ لِلْحَاكِمِ مِنْهُمَا: فَقَهُ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ الْكُلِّيَّةِ، وَقَفَهُ فِي نَفْسِ الْوَاقِعِ وَأَحْوَالِ النَّاسِ، يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ، وَالْمُحَقِّقِ وَالْمُبْطِلِ. ثُمَّ يُطَابِقُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا فَيُعْطِي الْوَاقِعَ حُكْمَهُ مِنَ الْوَاجِبِ، وَلَا يَجْعَلُ الْوَاجِبَ مُخَالَفًا لِلْوَاقِعِ. وَمَنْ لَهُ ذَوْقٌ فِي الشَّرِيعَةِ، وَاطِّلَاعٌ عَلَى كِمَالَاتِهَا وَتَضَمُّنُهَا لِعَايَةِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَمَجِيئِهَا بِعَايَةِ الْعَدْلِ، الَّذِي يَسْعَى الْخَلَائِقُ، وَأَنَّهُ لَا عَدْلَ فَوْقَ عَدْلِهَا، وَلَا مَصْلَحَةَ فَوْقَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمَصَالِحِ: تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ السِّيَاسَةَ الْعَادِلَةَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَائِهَا، وَفَرْعٌ مِنْ فُرُوعِهَا، وَأَنَّ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِمَقَاصِدِهَا وَوَضْعُهَا وَحَسَنَ فَهْمُهُ فِيهَا: لَمْ يَحْتَجْ مَعَهَا إِلَى سِيَاسَةٍ غَيْرِهَا أَلْبَتَّةَ.

فَإِنَّ السِّيَاسَةَ نَوْعَانِ: سِيَاسَةُ ظَالِمَةٍ فَالشَّرِيعَةُ تُحَرِّمُهَا، وَسِيَاسَةُ عَادِلَةٍ تُخْرِجُ الْحَقَّ مِنَ الظَّالِمِ الْفَاجِرِ، فَهِيَ مِنَ الشَّرِيعَةِ، عِلْمُهَا مِنْ عِلْمِهَا، وَجَهْلُهَا مِنْ جَهْلِهَا.

وَلَا تَنْسَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ قَوْلَ سُلَيْمَانَ نَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - لِلْمَرَأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ادَّعَتَا الْوَلَدَ. فَحَكَمَ بِهِ دَاوُدُ - ﷺ - لِلْكُبْرَى فَقَالَ سُلَيْمَانُ " ائْتُونِي بِالسَّكِينِ أَشْفَقُهُ بَيْنَكُمَا " فَسَمَحَتِ الْكُبْرَى بِذَلِكَ فَقَالَتْ الصُّغْرَى: " لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، هُوَ ابْنُهَا " فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى، فَأَيُّ شَيْءٍ أَحْسَنُ مِنْ اعْتِبَارِ هَذِهِ الْقَرِينَةِ الظَّاهِرَةِ، فَاسْتَدَلَّ بِرِضَا الْكُبْرَى بِذَلِكَ، وَأَنَّهَا قَصَدَتْ الْإِسْتِرْوَاخَ إِلَى التَّأْسِّي بِمُسَاوَاةِ الصُّغْرَى فِي فَقْدِ وَلَدِهَا، وَبَشَفَقَةِ الصُّغْرَى عَلَيْهِ، وَامْتِنَاعِهَا مِنَ الرِّضَا بِذَلِكَ: عَلَى أَنَّهَا هِيَ أُمُّهُ، وَأَنَّ الْحَامِلَ لَهَا عَلَى الْامْتِنَاعِ هُوَ مَا قَامَ بِقَلْبِهَا مِنَ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِ الْأُمِّ، وَقَوِيَتْ هَذِهِ الْقَرِينَةُ عِنْدَهُ، حَتَّى قَدَّمَهَا عَلَى إِقْرَارِهَا، فَإِنَّهُ حَكَمَ بِهَ لَهَا مَعَ قَوْلِهَا " هُوَ ابْنُهَا ". وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ، فَإِنَّ الْإِقْرَارَ إِذَا كَانَ لِعِلَّةٍ اطَّلَعَ عَلَيْهَا الْحَاكِمُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَبَدًا.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا الْحَدِيثُ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ يَقَعُ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حُكْمٌ فِي الظَّاهِرِ مُخَالَفٌ لِلْبَاطِنِ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْأُصُولِيُّونَ عَلَى أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَقْرَأُ عَلَى خَطَأٍ فِي الْأَحْكَامِ فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْحَدِيثِ وَقَاعِدَةِ الْأُصُولِ ؛ لِأَنَّ مُرَادَهُمْ فِيمَا حَكَمَ فِيهِ بِاجْتِهَادِهِ، فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ خَطَأٌ فِيهِ خِلَافٌ، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى جَوَازِهِ؟ وَأَمَّا الَّذِي فِي الْحَدِيثِ فَلَيْسَ مِنَ الْاجْتِهَادِ فِي شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ حَكَمَ بِالْبَيِّنَةِ، أَوِ الْيَمِينِ، فَلَوْ وَقَعَ مِنْهُ مَا يُخَالَفُ الْبَاطِنَ لَا يُسَمَّى الْحُكْمُ خَطَأً، بَلِ الْحُكْمُ صَحِيحٌ بِنَاءً عَلَى مَا اسْتَقَرَّ بِهِ التَّكْلِيفُ، وَهُوَ وَجُوبُ الْعَمَلِ بِشَاهِدَيْنِ مَثَلًا، فَإِنْ كَانَا شَاهِدَيْ زُورٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَالتَّقْصِيرُ مِنْهُمَا. وَأَمَّا الْحَاكِمُ، فَلَا حِيلَةَ لَهُ فِي ذَلِكَ وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ بِسَبَبِهِ، بِخِلَافِ مَا إِذَا أَخْطَأَ فِي الْاجْتِهَادِ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْحَاكِمَ لَمْ يَحِلَّ حَرَامًا، فَإِذَا شَهِدَ شَاهِدُ زُورٍ لِلْإِنْسَانِ بِمَالٍ، فَحَكَمَ بِهِ الْحَاكِمُ لَمْ يَحِلَّ لِلْمَحْكُومِ لَهُ ذَلِكَ الْمَالُ، وَلَوْ شَهِدَ عَلَيْهِ بِقَتْلِ لَمْ يَحِلَّ لِلْوَلِيِّ قَتْلُهُ مَعَ عِلْمِهِ بِكَذِبِهِمَا، وَإِنْ شَهِدَا عَلَى أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ لَمْ يَحِلَّ لِمَنْ عِلْمٌ كَذِبُهُمَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا. قَالَ الطَّبِيُّ: وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: فَمَنْ قَضَيْتُ الْخَ يَعْني إِنْ قَضَيْتُ لَهُ بِظَاهِرٍ يُخَالَفُ الْبَاطِنَ فَهُوَ حَرَامٌ، فَلَا يَأْخُذَنَّ مَا قَضَيْتُ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ أَخَذَ مَا يَقُولُ بِهِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ النَّارِ، فَوَضَعَ الْمُسَبَّبَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ مَوْضِعَ السَّبَبِ، وَهُوَ مَا حَكَمَ بِهِ لَهُ. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٤١)

وَلِذَلِكَ أَلْغَيْنَا إِقْرَارَ الْمَرِيضِ مَرَضَ الْمَوْتِ بِمَالٍ لَوَارِثِهِ لِاتِّعَادِ سَبَبِ التُّهْمَةِ وَعِظَمَادًا عَلَى قَرِينَةِ الْحَالِ فِي قَصْدِهِ تَخْصِيصُهُ.

وَمِنْ تَرَاجُمِ قَضَاةِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ تَرْجَمَةُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيِّ فِي سُنَنِهِ " قَالَ: " التَّوَسُّعَةُ لِلْحَاكِمِ فِي أَنْ يَقُولَ لِلشَّيْءِ الَّذِي لَا يَفْعَلُهُ أَفْعَلُ كَذَا؛ لَيْسَتَيْنِ بِهِ الْحَقُّ ". ثُمَّ تَرْجَمَ عَلَيْهِ تَرْجَمَةً أُخْرَى أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ، فَقَالَ: " الْحُكْمُ بِخِلَافِ مَا يَعْتَرِفُ بِهِ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ، إِذَا تَبَيَّنَ لِلْحَاكِمِ أَنَّ الْحَقَّ غَيْرُ مَا اعْتَرَفَ بِهِ " فَهَكَذَا يَكُونُ الْفَهْمُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. ثُمَّ تَرْجَمَ عَلَيْهِ تَرْجَمَةً أُخْرَى فَقَالَ: " نَقْضُ الْحَاكِمِ مَا حَكَمَ بِهِ غَيْرُهُ مِمَّنْ هُوَ مِثْلُهُ، أَوْ أَجَلٌ مِنْهُ " فَهَذِهِ ثَلَاثُ قَوَاعِدَ وَرَابِعَةٌ: وَهِيَ مَا نَحْنُ فِيهِ وَهِيَ الْحُكْمُ بِالْقَرَائِنِ وَشَوَاهِدِ الْحَالِ. وَخَامِسَةٌ: وَهِيَ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ الْوَلَدَ لَهُمَا، كَمَا يَقُولُهُ أَبُو حَنِيفَةَ، فَهَذِهِ خَمْسُ سُنَنِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ. ١٩٦

٧- عظم رحمة الأم وشفقتها على ابنها، ولذا آثرت أن يبقى حياً ولو كان بعيداً عنها، ومنه أجل هذا ونحوه عظم الشارع الحكيم حق الأم وجعله من أهم الحقوق وأجلها، كما في قوله تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [النساء: ٣٦].

٨- أَنَّ الْفِطْنَةَ وَالْفَهْمَ مَوْهَبَةٌ مِنَ اللَّهِ لَا تَتَعَلَّقُ بِكِبَرٍ سِنَّ وَلَا صِغَرِهِ .

٩- إذا كان الاختلاف تضاد فإنَّ الْحَقَّ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ. وإذا كان اختلاف تنوع فالحق مع الجميع لأنه مراد للشارع من أجل التيسير على المكلفين. ١٩٧



١٩٦ - الطرق الحكمية (ص: ٤)

١٩٧ - انظر : دروس وعبر من صحيح القصص النبوي (ص: وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦ / ١٦) (٦٢٤٣)

ثلاثة من الصبيان تكلموا في المهد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي، جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أَجِيبُهَا أَوْ أَصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتَّهُ حَتَّى تُرِيَهُ وَجُوهَ الْمُؤْمِسَاتِ، وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمَكَّنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي، قَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا مِنْ طِينٍ. وَكَانَتْ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمصُّهُ، - قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمصُّ إِبْصَعَهُ - ثُمَّ مَرَّ بِأَمَةٍ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: لِمَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ: سَرَقَتْ، زَنَيْتَ، وَلَمْ تَفْعَلْ ^{١٩٨}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَأَنْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَأَنْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتَّهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وَجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ، فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يَتِمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَقْتِنَنَّ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمَكَّنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهِذِهِ الْبَغِيَّةِ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَتَيْنَ الصَّبِيَّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّي، فَصَلَّى، فَلَمَّا أَنْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانُ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يَقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا. وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارْهَةً، وَشَارَةً حَسَنَةً، فَقَالَتْ أُمُّهُ:

^{١٩٨} - صحيح البخاري (٤/ ١٦٥) (٣٤٣٦)

[ش (المهد) الفراش الذي يهيا للصبي ليضجع فيه وينام والمراد هنا حال الصغر قبل أوان الكلام. (ذو شارة) ذو حسن وجهال وقيل صاحب هيئة وملبس حسن يتعجب منه ويشار إليه. (أمة) امرأة مملوكة. (لم ذلك) أي سألته عن سبب دعائه أن يكون مثل الأمة ولا يكون مثل الرجل. (ولم تفعل) والحال أنها بريئة لم تسرق ولم تزن وتلتجئ إلى الله تعالى أن يجيرها وأن يثيبها]

اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّوْدِي وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَوْدِيهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ". قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةِ فِي فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا، قَالَ: "وَمَرُّوا بِحَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرِّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهُنَاكَ تَرَا جَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: حَلَقَى مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهِذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا". ١٩٩

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ فِي صَغَرِهِ إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجِ الرَّاهِبِ، كَانَ جُرَيْجُ الرَّاهِبِ يُصَلِّي فِي صَوْمَعَتِهِ، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أُمِّي وَصَلَاتِي، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، قَالَ: أُمِّي وَصَلَاتِي، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتَّهُ حَتَّى يَنْظُرَ فِي وَجْهِ الْمُؤْمِسَاتِ قَالَ: وَكَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ رَاعِي بَقَرٍ وَإِبِلٍ، وَكَانَتْ تَخْرُجُ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ مِنَ الْقَرْيَةِ، فَيَفْجَرُ، فَحَمَلَتْ، فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَسُئِلَتْ مِمَّنْ حَمَلَتْ؟ فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجِ الرَّاهِبِ، فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ: انْطَلِقُوا إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَاهْدُمُوهَا، فَلَمْ يَعْلَمْ، حَتَّى جِيءَ، فَأُخِذَ، فَجُمِعَتْ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، ثُمَّ انْطَلِقَ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ الْمُؤْمِسَاتِ صُفِفْنَ لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ، يَنْظُرْنَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَيْنَ تَبَسَّمَ، فَلَمَّا أَتَى الْمَلِكَ قَالَ: أَنْتَ جُرَيْجُ الرَّاهِبِ، يَأْتِيكَ النَّاسُ يَسْأَلُونَكَ، فَتُفْتِيهِمْ، وَأَنْتَ تَعْمَلُ بِالْفُجُورِ قَالَ: مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ؟ قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ، قَالَ: ائْتُونِي بِابْنِهَا، فَأَتِي بِهِ، فَأَخَذَهُ، فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ، وَقَالَ: يَا صَبِي، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: رَاعِي الْبَقَرِ، قَالَ: أَفَرَأَيْتَ تَبَسُّمَكَ حِينَ مَرَرْتَ بِالْمُؤْمِسَاتِ؟ قَالَ: ذَكَرْتُ دَعْوَةَ أُمِّي فَتَبَسَّمْتُ. قَالَ: تُرِيدُ أَنْ نَجْعَلَ إِسْطَوَانَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: مِنْ فِضَّةٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أَنْ تُعِيدَهَا كَمَا كَانَتْ. قَالَ: فَمَا تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ فِي صَغَرِهِ إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبُ جُرَيْجِ الرَّاهِبِ" ٢٠٠

١٩٩ - صحيح مسلم (٤/١٩٧٧) - (٢٥٥٠)

[ش (يتمثل بحسنها) أي يضرب به المثل لانفرادها به (فأراهة) الفأراهة النشيطة الحادة القوية وقد فراهت فراهة وفراهة (وشارة) الشارة الهيئة واللباس (تراجعا الحديث) معناه أقبلت على الرضيع تحننه وكانت أولا لا تراه أهلا للكلام فلما تكرر منه الكلام علمت أنه أهل له فسألته وراجعته (حلقي) أي أصابه الله تعالى بوجع في حلقه (مثلها) أي سلما من المعاصي كما هي سالمة]

٢٠٠ - فنون العجائب لأبي سعيد النقاش (ص: ٦٥) (٤٩) صحيح

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " كَانَ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ تَاجِرًا، فَكَانَ يَنْقُصُ مَرَّةً، وَيَزِيدُ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالَ: مَا لِي فِي هَذِهِ التَّجَارَةِ مِنْ خَيْرٍ، لَأَلْتَمِسُ تِجَارَةً لَا تُنْقِصَانِ فِيهَا، فَآتَى صَوْمَعَةً، فَتَرَهَّبَ فِيهَا، فَكَانَ اسْمُهُ جُرَيْجٌ، فَكَانَ يُرِيحُ إِلَى صَوْمَعَتِهِ رَاعِي ضَّانٍ، وَرَاعِيَةٌ مَعَزَى قَالَ: وَإِنَّ أُمَّ جُرَيْجٍ أَتَتْهُ يَوْمًا، فَصَرَخَتْ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: جُرَيْجُ، فَقَالَ جُرَيْجٌ: أُمِّي وَالصَّلَاةُ، ثُمَّ قَالَتْ: جُرَيْجُ، فَلَمْ يُجِبْهَا، فَقَالَ: أُمِّي وَالصَّلَاةُ قَالَ: فَذَهَبَتْ، ثُمَّ أَتَتْهُ يَوْمًا آخَرَ، فَقَالَتْ: جُرَيْجُ، فَقَالَ: أُمِّي وَالصَّلَاةُ، فَلَمْ يُجِبْهَا، فَقَالَ: أُمِّي وَالصَّلَاةُ. قَالَ: فَذَهَبَتْ أُمُّهُ، وَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْ جُرَيْجًا حَتَّى يَنْظُرَ فِي وُجُوهِ الْمَيَامِسِ قَالَ: وَوَقَعَ صَاحِبُ الضَّانِّ عَلَى صَاحِبَةِ الْمَعَزَى، فَاحْتَبَلَهَا، فَقِيلَ لَهَا حِينَ وَلَدَتْ: وَيَحْكَ، مِمَّنْ وَلَدَتْ؟ فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ قَالَ: فَذَهَبُوا إِلَى الْمَلِكِ، فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: أَنْزِلُوهُ، وَاثْنُونِي بِهِ، وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، فَأَنْزَلُوهُ، فَقَالَ: وَيَحْكَ يَا جُرَيْجُ كُنَّا نَرَاكَ خَيْرَ النَّاسِ، فَاحْتَبَلْتَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ، أَذْهَبُوا بِهِ، وَاصْلُبُوهُ. قَالَ: فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ، وَخَرَجَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى أَنْشَى، وَبَرَزَ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ هَذَا الَّذِي تَزْعُمُونَ أَنَّهُ ابْنِي، أَرُونِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ قَالَ: فَأَتَى بِالْمَرْأَةِ، وَالصَّبِيِّ، فَمَهُ فِي نَدْيِهَا، فَقَالَ جُرَيْجٌ: يَا غُلَامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ فَقَالَ الْغُلَامُ، وَنَزَعَ فَمَهُ مِنَ الثَّدْيِ: أَبِي رَاعِي الضَّانِّ قَالَ: فَسَبَّحَ النَّاسُ، وَعَجَبُوا، قَالَ: فَضَحِكَ، فَذَهَبُوا إِلَى الْمَلِكِ، فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: رُدُّوهُ، فَأَتَى بِهِ، فَقَالَ: يَا جُرَيْجُ، فَلَنْصَنَعَهَا لَكَ كَيْفَ شِئْتَ، وَاللَّهِ لَنْ شِئْتَ لَنَبْنِيَهَا لَكَ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، قَالَ: بَلْ رُدُّوْهَا كَمَا كَانَتْ. قَالَ: فَردُّوْهَا، وَرَجَعَ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: بِاللَّهِ، مِمَّ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: مَا ضَحِكْتُ إِلَّا مِنْ دَعْوَةِ دَعَتْهَا أُمِّي عَلَيَّ ۝ ٢٠١

وَعَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: نَزَلَتْ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدٍ، فَاحْتَبَسَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: عَشَيْتُمْ ضَيْفَكُمْ؟ قَالُوا: انْتَظَرْنَاكَ، قَالَ: شَعَلْنِي أَبُو هُرَيْرَةَ، قُلْتُ: وَمَا حَدَّثَكَ أَبُو هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: حَدَّثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: " كَانَ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، يُقَالُ لَهُ: جُرَيْجٌ، وَكَانَ فِي صَوْمَعَتِهِ، وَكَانَتْ رَاعِيَةً تَأْوِي إِلَيْهِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تَأْتِيهِ فِي الْأَيَّامِ، فَإِذَا سَمِعَ صَوْتَهَا قَطَعَ صَلَاتَهُ، وَكَلَمَهَا، فَجَاءَتْهُ مَرَّةً فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَلَاتِي وَوَالِدَتِي، فَلَمْ يُجِبْهَا، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ صَوْتِي، ثُمَّ لَا يُجِيبُنِي فَلَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ فِي أَعْيُنِ الْمُؤْمِسَاتِ، يَعْنِي الزَّوَانِي، وَكَانَ فِي قَوْمٍ يُنْكِرُونَ الزَّنا، فَحَمَلَتِ الرَّاعِيَةَ، فَقِيلَ لَهَا: مِمَّنْ وَلَدَتْ؟ قَالَتْ: مِنْ جُرَيْجِ الرَّاهِبِ، فَأَتَاهُ قَوْمُهُ، فَدَعَوْهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَلَاتِي وَقَوْمِي، فَجَعَلَ لَا يُجِيبُهُمْ، فَلَمْ يَدْعُوهُ حَتَّى اسْتَنْزَلُوهُ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذِهِ تَزْعُمُ أَنَّهَا وَلَدَتْ مِنْكَ؟ قَالَ: فَضَحِكَ، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ مَشَى قَبْلَ الصَّبِيِّ، فَوَضَعَ عَلَيْهِ يَدَهُ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانُ الرَّاعِي، كَانَ يَأْوِي اللَّيْلَ إِلَى الدَّيْرِ مَعَهَا، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: إِنْ شِئْتَ بَنَيْنَاهَا لَكَ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ، قِيلَ: فَمِمَّ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: ضَحِكْتُ أَنْ وَالِدَتِي دَعَتْ اللَّهَ أَنْ لَا يُمِيتَنِي حَتَّى أَنْظُرَ فِي

وُجُوهَ الْمُؤْمِسَاتِ " . قَالَ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ دَعَتْ أَنْ يُخْرِجَهُ لَأَخْرَاهُ، وَلَكِنْ دَعَتْ أَنْ يَنْظُرَ، فَنَظَرَ»^{٢٠٢}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " نَادَتْ امْرَأَةً ابْنَهَا، وَهُوَ فِي صَوْمَعَةٍ، فَقَالَتْ: أَيُّ جُرَيْجٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، قَالَتْ: أَيُّ جُرَيْجٍ، فَقَالَ أُمِّي وَصَلَاتِي، قَالَتْ: أَيُّ جُرَيْجٍ، قَالَ: أُمِّي وَصَلَاتِي، قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْ جُرَيْجًا حَتَّى يَنْظُرَ فِي وَجْهِهِ الْمَيَامِيسِ، وَكَأَنَّ تَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ رَاعِيَةً تَرْعَى الْغَنَمَ، فَوَلَدَتْ، فَقِيلَ لَهَا: مِمَّنْ هَذَا الْوَلَدُ؟ قَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ، فَأُنْزِلَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، قَالَ جُرَيْجٌ: أَيْنَ هَذِهِ الَّتِي تَزْعُمُ أَنَّ وَلَدَهَا لِي؟ يَا أَبَا بُوْسٍ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: رَاعِي الْغَنَمِ^{٢٠٣}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَنَادَتْهُ، فَقَالَتْ: أَيُّ جُرَيْجٍ، أَيُّ بُنَيٍّ، أَشْرَفَ عَلَيَّ أَكْلَمَكَ، أَنَا أُمُّكَ، أَشْرَفَ عَلَيَّ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ صَلَاتِي وَأُمِّي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، ثُمَّ عَادَتْ، فَنَادَتْهُ مَرَارًا، فَقَالَتْ: أَيُّ جُرَيْجٍ، أَيُّ بُنَيٍّ، أَشْرَفَ عَلَيَّ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ صَلَاتِي وَأُمِّي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تَرَاهُ الْمُؤْمِسَةُ، وَكَانَتْ رَاعِيَةً تَرْعَى غَنَمًا لِأَهْلِهَا، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى ظِلِّ صَوْمَعَتِهِ، فَأَصَابَتْ فَاحِشَةً، فَحَمَلَتْ، فَأَخَذَتْ، وَكَانَ مِنْ زَنَى مِنْهُمْ قُتِلَ، فَقَالُوا: مِمَّنْ؟ قَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ صَاحِبِ الصَّوْمَعَةِ، فَجَاءُوا بِالْفُؤُوسِ وَالْمُرُورِ، فَقَالُوا: أَيُّ جُرَيْجٍ، أَيُّ مُرَائِي، انْزِلْ، فَأَبَى، وَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ يُصَلِّي، فَأَخَذُوا فِي هَدْمِ صَوْمَعَتِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَزَلَ، فَجَعَلُوا فِي عُنُقِهِ وَعَنْقُهَا حَبْلًا، فَجَعَلُوا يَطْوِفُونَ بِهِمَا فِي السَّكِّ، فَوَضَعَ إصْبَعُهُ عَلَى بَطْنِهَا، فَقَالَ: أَيُّ غُلَامٍ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَبِي فُلَانٌ رَاعِي الضَّأْنِ، فَقَالُوا: إِنَّ شَيْئًا بَيْنَنَا لَكَ صَوْمَعَتِكَ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، فَقَالَ: أَعِيدُوهَا كَمَا كَانَتْ^{٢٠٤}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " تَكَلَّمَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْمَهْدِ ثَلَاثَةٌ: عِيسَى، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَصَاحِبُ الْحَبَشِيَّةِ. قَالَ: بَيْنَمَا امْرَأَةٌ تُرْضِعُ وَلَدَهَا، إِذْ رَأَتْ رَجُلًا رَاكِبًا، حَسَنَ الشَّارَةِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْ ابْنِي حَتَّى تَجْعَلَهُ مِثْلَ هَذَا، فَانْتَرَعَ فَمَهُ مِنْ ثَدْيِهَا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنِي مِثْلَ هَذَا، وَمَرَّ بِحَبَشِيَّةٍ تُجَرُّ، وَقَدْ قَتَلَهَا أَهْلُهَا، قِيلَ: هَذِهِ أُمُّهُ بَنِي فُلَانٍ، قَتَلَهَا أَهْلُهَا، وَزَعَمُوا أَنَّهَا سَرَقَتْ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا كَذَبَتْ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَزَرَاعَ فَمَهُ مِنْ ثَدْيِهَا، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَقَالَتْ: دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَكَ مِثْلَ الرََّاكِبِ الْحَسَنِ الشَّارَةِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنِي مِثْلَهُ، وَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ لَا يَجْعَلَكَ مِثْلَ هَذِهِ الْحَبَشِيَّةِ الَّتِي قَتَلَهَا أَهْلُهَا، وَزَعَمُوا أَنَّهَا سَرَقَتْ،

^{٢٠٢} - فنون العجائب لأبي سعيد النقاش (ص: ٦٧)(٥١) حسن

^{٢٠٣} - فنون العجائب لأبي سعيد النقاش (ص: ٧٠)(٥٣) صحيح

^{٢٠٤} - فنون العجائب لأبي سعيد النقاش (ص: ٧١)(٥٦) صحيح

وَأَنَّهَا كَذَبَتْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَقَالَ: دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِثْلَ هَذَا الْمُخْتَالِ، فَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ لَا يَجْعَلَنِي مِثْلَهُ، وَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ لَا يَجْعَلَنِي مِثْلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي آدَتْ حَقَّ مَوَالِيهَا، فَقَتَلُوهَا ظَالِمِينَ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا كَذَبَتْ، وَلَمْ تَكْذِبْ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا سَرَقَتْ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَ هَذِهِ ٢٠٥

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كَانَ جُرَيْجٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، أَنَا أَكَلَمُكَ، كَلِّمْنِي. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَعَلَ يَصِفُ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صِفَتَهَا حَتَّى قَالَتْ: هَكَذَا، وَوَصَفَ يَدَهُ الَّتِي عَلَى جَبِينِهِ. هَذِهِ رَوَايَةُ هُدْبَةَ، وَأَمَّا شَيْبَانُ، فَقَالَ فِي حَدِيثٍ وَصَفَهُ لَنَا أَبُو رَافِعٍ صِفَةَ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَصِفُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمُّهُ حِينَ دَعَتْهُ، كَيْفَ جَعَلَتْ كَفَّهَا فَوْقَ حَاجِبَيْهَا، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا تَدْعُوهُ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، أَنَا أُمُّكَ، فَكَلِّمْنِي، فَصَادَفْتُهُ يُصَلِّي، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَرَجَعْتُ، ثُمَّ عَادَتِ الثَّانِيَةَ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، أَنَا أُمُّكَ، فَكَلِّمْنِي، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، زَادَ هُدْبَةُ: فَرَجَعْتُ، ثُمَّ جَاءَتِ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، أَنَا أُمُّكَ، فَكَلِّمْنِي، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، إِلَى هَاهُنَا زِيَادَةُ هُدْبَةَ. فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا جُرَيْجٌ، وَهُوَ ابْنِي، وَإِنِّي كَلَّمْتُهُ، فَأَبَى أَنْ يُكَلِّمَنِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤْتِنِي حَتَّى تُرِيَهُ الْمُؤْمِسَاتِ قَالَ: وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَنَ فُتِنَ قَالَ: وَكَانَ رَاعِي ضَاآنٍ يَأْوِي إِلَى دِيرِهِ ذَلِكَ قَالَ: فَخَرَجَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْقَرْيَةِ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا الرَّاعِي، فَحَمَلَتْ، فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقِيلَ لَهَا: مَا هَذَا؟ قَالَ: مِنْ صَاحِبِ هَذَا الدَّيْرِ، فَجَاءُوا بِفُؤُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ، فَنَادَوْهُ، فَصَادَفُوهُ يُصَلِّي، فَلَمْ يُكَلِّمَهُمْ، فَأَخَذُوا يَهْدُمُونَ دِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَزَلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: تَفْعَلْ وَتَفْعَلْ. فِي رَوَايَةِ هُدْبَةَ. وَأَمَّا شَيْبَانُ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: فَقَالُوا لَهُ: سَلْ هَذِهِ، فَتَبَسَّسَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ، رَاعِي الضَّأْنِ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ، وَرَأَوْا مِنْهُ مَا رَأَوْا، قَالُوا: نَحْنُ نَبْنِي لَكَ مَا هَدَمْنَا مِنْ دِيرِكَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَعِيدُوهُ ثَرَابًا كَمَا كَانَ: «ثُمَّ عَلَاهُ» ٢٠٦

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ ثَلَاثَةٌ: عِيسَى، وَصَبِيٌّ كَانَ فِي حِجْرِ أُمِّهِ يَرْضَعُ مِنْهَا، فَمَرَّ عَلَيْهِ فَارِسٌ، حَسَنُ الشَّارَةِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُؤْتِنِي حَتَّى تُرِنِي ابْنِي مِثْلَ هَذَا، قَالَ: فَتَزَعَ فَمَهُ مِنْ ثَدْيِهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنِي مِثْلَهُ قَالَ: وَمَرَّ عَلَيْهَا بِأَمَةٍ سَوْدَاءَ، تُجَرُّ بِحَبْلِ، يُقَالُ: فَجَرَتْ، وَلَمْ تَفْجُرْ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَقَالَتْ: مَرَّ فَارِسٌ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنِي مِثْلَهُ، وَمَرَّ بِسَوْدَاءَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَ: يَا أُمُّهُ، إِنَّ هَذَا جُبَارٌ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُؤْمِنَةٌ، يُقَالُ لَهَا: فَجَرَتْ، وَلَمْ تَفْجُرْ. وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ: وَكَانَ جُرَيْجٌ

٢٠٥ - فنون العجائب لأبي سعيد النقاش (ص: ٧١)(٥٧) صحيح

٢٠٦ - فنون العجائب لأبي سعيد النقاش (ص: ٧٣)(٥٨) صحيح

رَجُلًا مُتَعَبِدًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي صَوْمَعَتِهِ، وَكَانَ الرُّعَاةُ يُبَيِّتُونَ فِي أَصْلِ صَوْمَعَتِهِ، فَحَمَلَتْ جَارِيَةٌ مِمَّنْ كَانَ يَرْعَى، فَقِيلَ لَهَا: مِمَّنْ هَذَا؟ فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ، فَرُفِعَ ذَلِكَ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: أَنْزِلْ، فَأَبَى، فَأَمَرَ بِصَوْمَعَتِهِ أَنْ تُهْدَمَ، فَلَمَّا خَافَ أَنْ يَسْقُطَ نَزَلَ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ: أَنَّ أُمَّهُ جَاءَتْهُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَهُوَ يُصَلِّي، فَنَادَتْ: يَا جُرَيْجُ، يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَصَلِّي، وَلَمْ يُجِبْهَا، ثُمَّ نَادَتْهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ نَادَتْهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَتْ، اللَّهُمَّ، إِنْ كَانَ جُرَيْجُ سَمِعَ كَلَامِي، وَلَا يُجِيبُنِي، فَلَا تُؤْمِنُهُ حَتَّى تَجْمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُؤْمِسَاتِ، فَلَمَّا أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُقْتَلَ قَالَ: دَعُونِي أَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، قَالُوا: صَلِّ مَا بَدَا لَكَ، فَطَالَمَا غَرَرَتْ النَّاسَ بِصَلَاتِكَ قَالَ: وَالنَّاسُ إِلَى أَهْلِ الْخَيْرِ سِرَاعٌ، قَالَ: فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ، تَعْلَمُ أَنَّ أُمِّي نَادَتْني وَأَنَا أَصَلِّي، فَاتَّزَتْ الصَّلَاةَ لَكَ عَلَى كَلَامِهَا، اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّي صَادِقٌ فَخَلِّصْنِي مِنْ هَذَا، فَقِيلَ لَهُ: ادْعُ بِالصَّبِيِّ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيِّ؟ قَالَ: فَأَتَيْتِي بِهِ، فَوَضَعَهُ عَلَى فَخْذِهِ، ثُمَّ ضَرَبَ كَتِفَهُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ؟ قَالَ: فُلَانُ الرَّاعِي. قَالَ: فَقَالُوا: قَدْ بَهْتَنَّاكَ يَا جُرَيْجُ وَضَرْبْنَاكَ، دَعْنَا حَتَّى نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، أَعِيدُوهَا كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا^{٢٠٧}

شرح المفردات:

(الصَّوْمَعَةُ): بِفَتْحِ الْمُهِمْلَةِ وَسُكُونِ الْوَائِ هِيَ الْبِنَاءُ الْمُرْتَفِعُ الْمُحَدَّدُ أَعْلَاهُ، وَوَزْنُهَا فَوْعَلَةٌ مِنْ صَمَعْتَ إِذَا دَفَقْتَ لِأَنَّهَا دَقِيقَةُ الرَّأْسِ.

(الْمُؤْمِسَاتُ): جَمْعُ مُؤْمِسَةٍ بِضَمِّ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْوَائِ وَكَسْرِ الْمِيمِ بَعْدَهَا مُهِمْلَةٌ وَهِيَ الزَّانِيَةُ. (بَغْيٌ): الزَّانِيَةُ.

(يُتِمَّلُ بِحُسْنِهَا): أَي: يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ لِانْفِرَادِهَا بِهِ.

(الْفَارِهَةُ) بِالْفَاءِ النَّشِيطَةُ الْحَادَّةُ الْقُوَّةُ، وَقَدْ فَرِهَتْ بِضَمِّ الرَّاءِ فَرَاهَةً وَفَرَاهِيَةً، وَالشَّارَةُ الْهَيْئَةُ وَاللِّبَاسُ.

(فَجَعَلَ يَمَصُّهَا): بِفَتْحِ الْمِيمِ عَلَى اللَّغَةِ الْمَشْهُورَةِ، وَحُكِيَ ضَمُّهَا.

(فَهْنَاكَ تَرَاغَعَا الْحَدِيثَ): مَعْنَى تَرَاغَعَا الْحَدِيثَ أَقْبَلْتُ عَلَى الرُّضِيعِ تُحَدِّثُهُ، وَكَانَتْ أَوَّلًا لَا تَرَاهُ أَهْلًا لِلْكَلامِ، فَلَمَّا تَكَرَّرَ مِنْهُ الْكَلَامُ عَلِمَتْ أَنَّهُ أَهْلٌ لَهُ، فَسَأَلَتْهُ، وَرَاجَعَتْهُ.

(حَلَقَى): بِالْأَلِفِ الَّتِي هِيَ أَلِفُ التَّائِيثِ، وَيَكْتُبُونَهُ بِالْيَاءِ وَلَا يُنَوِّنُونَهُ، وَمَعْنَى (حَلَقَى) حَلَقَهَا اللَّهُ. وَهَذَا عَلَى مَذْهَبِ الْعَرَبِ فِي الدُّعَاءِ عَلَى الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ إِرَادَةِ وَقُوعِهِ، وَنَظِيرُهُ تَرَبَّتْ يَدَاهُ، وَقَاتَلَهُ اللَّهُ مَا أَشْجَعَهُ وَمَا أَشْغَرَهُ.

(اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا) أَي: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي سَالِمًا مِنَ الْمَعَاصِي كَمَا هِيَ سَالِمَةٌ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِثْلَهَا فِي النِّسْبَةِ إِلَى بَاطِلٍ تَكُونُ مِنْهُ بَرِيًّا.^{٢٠٨}

من فوائد الحديث:

١- عَظَمَ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ وَإِجَابَةُ دُعَائِهِمَا وَلَوْ كَانَ الْوَلَدُ مَعْدُورًا ؛ لَكِنْ يَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَقَاصِدِ.

٢- أَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتِ الْأُمُورُ بُدِئَ بِأَهْمِّهَا. ، وَأَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لِلْأُولِيَاءِ عِنْدَ ابْتِلَائِهِمْ مَخَارِجَ ، وَإِنَّمَا يَتَأَخَّرُ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ تَهْذِيبًا وَزِيَادَةً لَهُمْ فِي الثَّوَابِ.

٣- أَنَّ الْمَفْزَعَ فِي الْأُمُورِ الْمَهْمَةُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ.

٤- وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ لِلْأُولِيَاءِ مَخَارِجَ عِنْدَ ابْتِلَائِهِمْ بِالشَّدَائِدِ غَالِبًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) وَقَدْ يَجْرِي عَلَيْهِمُ الشَّدَائِدُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ زِيَادَةً فِي أَحْوَالِهِمْ، وَتَهْذِيبًا لَهُمْ، فَيَكُونُ لُطْفًا، كَمَا جَرَى لِلْجَارِيَةِ.

٥- وَمِنْهَا اسْتِحْبَابُ الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ عِنْدَ الدُّعَاءِ بِالْمُهِمَّاتِ.

٦- وَمِنْهَا أَنَّ الْوُضُوءَ كَانَ مَعْرُوفًا فِي شَرْعٍ مِنْ قَبْلِنَا، وَفِيهِ أَنَّ الْوُضُوءَ لَا يَخْتَصُّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَخْتَصُّ بِهَا الْعُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ فِي الْآخِرَةِ ، وَفِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَيْضًا مِثْلَ ذَلِكَ فِي خَبَرٍ سَارَةٍ مَعَ الْجَبَّارِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " كَانَ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ يُصَلِّي، فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ، فَدَعَتْهُ، فَأَبَى أَنْ يُجِيبَهَا، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي، ثُمَّ أَتَتْهُ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتَّهُ حَتَّى تُرِيَهُ وَجْهَهُ الْمَوْتَسَاتِ، وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: لَأَفْتِنَنَّ جُرَيْجًا، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا، فَأَمَكَّنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَقَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَتْهُ، وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، فَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي، قَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لَا، إِلَّا مِنْ طِينٍ "^{٢٠٩}.

٧- وَمِنْهَا إِبْطَالُ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَوُقُوعُ الْكَرَامَةِ لَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ وَطَلَبِهِمْ. وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ. وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ جُرَيْجٌ كَانَ نَبِيًّا فَتَكُونُ مُعْجَزَةٌ. كَذَا قَالَ ، وَهَذَا الْإِحْتِمَالُ لَا يَتَأْتِي فِي حَقِّ الْمَرْأَةِ الَّتِي كَلَّمَهَا وَلَدَهَا الْمَرْضِعُ كَمَا فِي بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ.

^{٢٠٨} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٦ / ٤٨٠) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٧ / ٢٨٢)

^{٢٠٩} - صحيح البخاري (٣ / ١٣٧) (٢٤٨٢)

٨- وَفِيهِ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ، وَمَنْعَهُ بَعْضُهُمْ، وَادَّعَى أَنَّهَا تَخْتَصُّ بِمِثْلِ إِجَابَةِ دُعَاءِ وَنَحْوِهِ، وَهَذَا غَلَطٌ مِنْ قَائِلِهِ، وَإِنْكَارٌ لِلْحِسِّ، بَلِ الصَّوَابُ جَرَيَانُهَا بِمَا هُوَ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ.^{٢١٠}

٩- وفيه أن البشر طبعوا على إثارة الأولاد على الأنفس بالخير لطلب المرأة الخير لابنها ودفع الشر عنه ولم تذكر نفسها.^{٢١١}

١٠- أَنَّ نَفُوسَ أَهْلِ الدُّنْيَا تَقِفُ مَعَ الْخَيَالِ الظَّاهِرِ فَتَخَافُ سُوءَ الْحَالِ ، بِخِلَافِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ فَوْقُوفِهِمْ مَعَ الْحَقِيقَةِ الْبَاطِنَةِ فَلَا يُيَالُونَ بِذَلِكَ مَعَ حُسْنِ السَّرِيرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ أَصْحَابِ قَارُونَ حَيْثُ خَرَجَ عَلَيْهِمْ : { قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) } وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) } [القصص: ٧٩، ٨٠].

١١- تَأَكَّدُ حَقَّ الْأُمِّ ، وَأَنَّ دُعَاءَهَا مُجَاب .

١٢- إِثَارَ إِجَابَةِ الْأُمِّ عَلَى صَلَاةِ التَّطَوُّعِ ؛ لِأَنَّ الْاسْتِمْرَارَ فِيهَا نَافِلَةٌ وَإِجَابَةُ الْأُمِّ وَبَرَّهَا وَاجِب .

١٣- الرِّفْقُ بِالتَّابِعِ إِذَا جَرَى مِنْهُ مَا يَقْتَضِي التَّأْدِيبَ ؛ لِأَنَّ أُمَّ جُرَيْجٍ مَعَ غَضَبِهَا مِنْهُ لَمْ تَدْعُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمَا دَعَتْ بِهِ خَاصَّةً ، وَلَوْ لَا طَلَبَهَا الرِّفْقُ بِهِ لَدَعَتْ عَلَيْهِ بِوُقُوعِ الْفَاحِشَةِ أَوْ الْقَتْلِ .

١٤- صَاحِبِ الصَّدَقِ مَعَ اللَّهِ لَا تَضُرُّهُ الْفِتَنُ .

١٥- قُوَّةُ يَقِينِ جُرَيْجٍ وَصِحَّةُ رَجَائِهِ ، لِأَنَّهُ اسْتَنْطَقَ الْمَوْلُودَ مَعَ كَوْنِ الْعَادَةِ أَنَّهُ لَا يَنْطِقُ ؛ وَلَوْ لَا صِحَّةُ رَجَائِهِ بِنُطْقِهِ مَا اسْتَنْطَقَهُ .

١٦- جَوَازُ الْأَخْذِ بِالْأَشَدِّ فِي الْعِبَادَةِ لِمَنْ عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةَ عَلَى ذَلِكَ .

١٧- الْمَفْزَعُ فِي الْأُمُورِ الْمُهَمَّةِ إِلَى اللَّهِ يَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ .

١٨- وَفِي الْحَدِيثِ إِثَارَ إِجَابَةِ الْأُمِّ عَلَى صَلَاةِ التَّطَوُّعِ لِأَنَّ الْاسْتِمْرَارَ فِيهَا نَافِلَةٌ وَإِجَابَةُ الْأُمِّ وَبَرَّهَا وَاجِبٌ. قَالَ النَّوَوِيُّ وَغَيْرُهُ : إِنَّمَا دَعَتْ عَلَيْهِ فَأُجِيبَتْ لِأَنَّهُ كَانَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُخَفَّفَ وَيُجَيَّبَ ، لَكِنْ لَعَلَّهُ خَشِيَ أَنْ تَدْعُوهُ إِلَى مُفَارَقَةِ صَوْمَعَتِهِ وَالْعُودِ إِلَى الدُّنْيَا وَتَعَلُّقَاتِهَا. كَذَا قَالَ النَّوَوِيُّ ، وَفِيهِ نَظَرٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ تَأْتِيهِ فَيُكَلِّمُهَا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَانَتْ تَشْتَاكُ إِلَيْهِ فَتَزُورُهُ وَتَقْتَنِعُ بِرُؤْيَيْهِ وَتُكَلِّمُهُ ، وَكَأَنَّهُ إِنَّمَا لَمْ يُخَفَّفْ ثُمَّ يُجَيَّبُهَا لِأَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَنْقَطِعَ خُشُوعُهُ. فَعَنْ يَزِيدَ بْنِ حَوْشَبٍ الْفَهْرِيِّ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : " لَوْ كَانَ جُرَيْجُ الرَّاهِبِ فَقِيهًا عَالِمًا لَعَلِمَ أَنَّ إِجَابَتَهُ أُمُّهُ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ

^{٢١٠} - شرح صحيح مسلم (١٨/١٢)

^{٢١١} - فتح الباري (٤٨٤/٦)

عَزَّ وَجَلَّ" ٢١٢، وهذا إذا حُمِلَ عَلَى إِطْلَاقِهِ أُسْتُفِيدَ مِنْهُ جَوَازُ قَطْعِ الصَّلَاةِ مُطْلَقًا لِإِجَابَةِ نِدَاءِ الْأُمِّ نَفْلًا كَانَتْ أَوْ فَرَضًا ، وَهُوَ وَجْهٌ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ حَكَاهُ الرَّوْيَانِيُّ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ تَبَعًا لِعَبْرِهِ : هَذَا مَحْمُودٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُبَاحًا فِي شَرْعِهِمْ ، وَفِيهِ نَظَرٌ... وَالْأَصَحُّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّ الصَّلَاةَ إِنْ كَانَتْ نَفْلًا وَعِلْمٌ تَأْذِي الْوَالِدِ بِالْتَّرْكِ وَجَبَتْ الْإِجَابَةُ وَالْأَفْلَا. وَإِنْ كَانَتْ فَرَضًا وَضَاقَ الْوَقْتُ لَمْ تَجِبِ الْإِجَابَةُ ، وَإِنْ لَمْ يَضِقْ وَجَبَ عِنْدَ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ . وَخَالَفَهُ غَيْرُهُ لِأَنَّهَا تَلَزَمُ بِالشَّرْعِ. وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّ إِجَابَةَ الْوَالِدِ فِي النَّافِلَةِ أَفْضَلُ مِنَ التَّمَادِي فِيهَا. وَحَكَى الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ أَنَّ ذَلِكَ يَخْتَصُّ بِالْأُمِّ دُونَ الْأَبِ ، وَعِنْدَ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ مُرْسَلِ مُحَمَّدَ بْنِ الْمُنْكَدِرِ مَا يَشْهَدُ لَهُ وَقَالَ بِهِ مَكْحُولٌ ، وَقِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بِهِ مِنَ السَّلَفِ غَيْرُهُ. ٢١٣

١٩- وَاسْتَدَلَّ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ مِنْ شَرْعِهِمْ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَصَدَّقُ فِيمَا تَدْعِيهِ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ الْوَطْءِ وَيَلْحَقُ بِهِ الْوَلَدُ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُ جَحْدُ ذَلِكَ إِلَّا بِحُجَّةٍ تَدْفَعُ قَوْلَهَا.

٢٠- وَفِيهِ أَنَّ مُرْتَكِبَ الْفَاحِشَةِ لَا تَبْقَى لَهُ حُرْمَةٌ ، وَأَنَّ الْمَفْزَعَ فِي الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ إِلَى اللَّهِ يَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ.

وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ بِقَوْلِ جُرَيْجٍ " مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامَ " بِأَنَّ مَنْ زَنَى بِامْرَأَةٍ فَوَلَدَتْ بِنْتًا لَا يَحِلُّ لَهُ التَّزْوُجُ بِتِلْكَ الْبِنْتِ خِلَافًا لِلشَّافِعِيَّةِ وَلَا بِنِ الْمَاجِشُونِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّ جُرَيْجًا نَسَبَ ابْنَ الزَّنَا لِلزَّانِي وَصَدَّقَ اللَّهُ نَسَبَتَهُ بِمَا خَرَقَ لَهُ مِنَ الْعَادَةِ فِي نُطْقِ الْمَوْلُودِ بِشَهَادَتِهِ لَهُ بِذَلِكَ ، وَقَوْلُهُ أَبِي فُلَانٍ الرَّاعِي ، فَكَانَتْ تِلْكَ النَّسَبَةُ صَحِيحَةً فَيَلَزَمُ أَنْ يَجْرِيَ بَيْنَهُمَا أَحْكَامُ الْأَبُوَّةِ وَالْبُنُوَّةِ ، خَرَجَ التَّوَارُثُ وَالْوَلَاءُ بِدَلِيلِ قَبْقِي مَا عَدَا ذَلِكَ عَلَى حُكْمِهِ. ٢١٤



٢١٢ - جامع المسانيد والسنن (٥٦٣/٢) (٢٦٩٥) وفتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٧٨/٣) وشعب الإيمان (١٠/٢٨٢) (٧٤٩٦) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/٨٨٠) (٢٢٨٣) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/٢٨١٧) (٦٦٧٢) فيه

جهالة

٢١٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٤٨٢/٦)

٢١٤ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٤٨٢/٦)

قصة المسخ في بني إسرائيل

عَنْ ثَابِتِ بْنِ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَتَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَأَصَابَ النَّاسُ ضَبَابًا، فَأَخَذْتُ ضَبًّا فَشَوَيْتُهُ ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخَذَ عُوْدًا فَعُدُّ بِهِ أَصَابِعَهُ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ أُمَّةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُسَخَّتْ دَوَابٌّ فِي الْأَرْضِ، فَأَنَا لَا أَدْرِي أَيُّ الدَّوَابِّ هُنَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَكَلُوا مِنْهَا قَالَ: «فَمَا أَمَرْنَا بِأَكْلِهَا وَلَا نَهَى»^{٢١٥}.

شرح المفردات:

(ضَبَابًا) بِكَسْرِ الضَّادِ الْمُعْجَمَةِ جَمْعُ ضَبٍّ.

(فَأَخَذَ) أَيُّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

(عُوْدًا) أَيُّ خَشَبًا.

(بِهِ) أَيُّ بِذَلِكَ الْعُوْدِ.

(أَصَابِعَهُ) أَيُّ أَصَابِعِ الضَّبِّ.

(مُسَخَّتٌ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ، وَالْمَسْخُ قَلْبُ الْحَقِيقَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ. (فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَنْهَ) أَيُّ عَنْ أَكْلِهِ.^{٢١٦}

مناقشة الطبري موضوع المسخ :

وَاعْتَلَّ قَائِلُو هَذِهِ الْمَقَالَةِ لِقَوْلِهِمْ هَذَا بَأَنَّ الضَّبَابَ أَكَلَتْ عَلَى مَائِدَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَحْضَرٍ مِنْهُ. وَقَالُوا: لَوْ كَانَ ذَلِكَ حَرَامًا؛ مَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْلَهُ يَأْكُلُهُ؛ إِذْ كَانَ غَيْرَ جَائِزٍ أَنْ يَرَى النَّبِيُّ ﷺ مُنْكَرًا وَلَا يُغَيِّرُهُ، وَلَا مُنْكَرًا أَتَى مِنْ أَكْلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ أَكْلَهُ. وَقَالُوا: سَوَاءٌ أَضِيفَ إِلَيْهِ تَرْكُهُ أَكْلَ الْحَرَامِ وَأَكْلَهُ، وَتَرْكُهُ شَارِبَ الْحَرَامِ وَشَرْبَهُ. قَالُوا: وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ جَائِزَةً إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ؛ جَازَتْ إِضَافَةُ إِقْرَارِ شَارِبِ الْخَمْرِ عَلَى شَرْبِهِ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ بَعِيدٌ مِنْ صِفَتِهِ ﷺ، بَلْ صِفَتُهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَقْرُ أَحَدًا عَلَى انْتِهَاكِ شَيْءٍ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالُوا: وَفِي إِقْرَارِهِ أَكْلِي الضَّبَابِ عَلَى مَائِدَتِهِ عَلَى أَكْلِهَا، وَصِفَتُهُ مَا ذَكَرْنَا، أَذَلُّ الدَّلِيلِ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّهَا حَلَالٌ غَيْرُ حَرَامٍ، وَأَنْ تَرْكُهُ ﷺ أَكْلِهَا، إِنَّمَا كَانَ كَمَا قَالَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ عَافَهَا؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مِنْ طَعَامِ قَوْمِهِ. وَقَالَ الْآخَرُونَ: بَلْ كَانَ تَرْكُهُ ﷺ أَكْلِهَا تَكْرُّهًا، لَا تَحْرِيمًا. قَالُوا: وَكَانَ تَرْكُهُ مِنْ تَرَكَ يَأْكُلُهَا عَلَى مَائِدَتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَتَاهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرٌ بِتَحْرِيمِهَا. قَالُوا: وَلَوْ كَانَ أَتَاهُ مِنَ اللَّهِ بِتَحْلِيلِهَا أَوْ تَحْرِيمِهَا أَمْرٌ؛ لَمْ يَقُلْ ﷺ: «لَا أَمْرُ بِهَا وَلَا أَنْهَى عَنْهَا»؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا بُعِثَ ﷺ مُبَيِّنًا لِلْعِبَادِ أَمْرَ دِينِهِمْ، وَمَا يَحِلُّ لَهُمْ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِمْ قَالُوا: وَقَدْ

^{٢١٥} - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٤٧٩) (٤٨١٣) صحيح

^{٢١٦} - انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢١/ ٣٩)

تَظَاهَرَتْ الْأَخْبَارُ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَمُرُ بِهَا وَلَا أَنْهَى عَنْهَا». قَالُوا: فَتَقُولُ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَكَرَهُ أَكْلُهَا كَمَا كَرَهُ، وَلَا نَقُولُ لِمَنْ أَكَلَهَا: أَكَلَ حَرَامًا، وَلَا نَنْهَاهُ عَنْ أَكْلِهَا، وَلَا يَحْرُمُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّا نَكْرَهُهُ. ذَكَرَ الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَمُرُ بِأَكْلِ الضَّبِّ وَلَا أَنْهَى عَنْهُ»، وَأَنَّهُ قَالَ: «أُمَّةٌ مُسَخَتْ، فَأَرْهَبُ أَنْ تُكُونَهُ»

وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ، وَأَبُو يُوسُفَ، وَمُحَمَّدٌ يَقُولُونَ: نَكَرَهُ أَكَلَ الضَّبِّ. وَقَالَ آخَرُونَ: أَكَلَ لَحْمِ الضَّبِّ حَرَامٌ... قَالُوا: فَالْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالنَّهْيِ عَنْ أَكْلِ لَحْمِهَا صَحِيحَةٌ، وَالرَّوَايَةُ عَنْهُ بِذَلِكَ ثَابِتَةٌ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَى تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ، وَلَا عَلَى إِبَاحَةِ مَا حَظَرَ ﷺ

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا مَا صَحَّ بِهِ الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ لَحْمَ الضَّبِّ غَيْرُ حَرَامٍ عَلَى أَكْلِهِ أَكْلُهُ؛ إِذْ لَمْ يَنْهَ عَنْ أَكْلِهِ أَكْلُهُ، عَلَى مَا بَيَّنَّهُ ﷺ، وَلَمْ يَأْتِنَا بِتَحْرِيمِهِ إِلَّا يَأْهُ عَنْهُ خَبَرٌ يَصِحُّ سَنَدُهُ. وَنَكَرَهُ لَهُ أَكْلُهُ تَقْدِيرًا، وَنَنْهَاهُ عَنْهُ تَنْزُهُا، كَمَا كَرَهُهُ ﷺ لِنَفْسِهِ تَقْدِيرًا وَعَافَهُ، فَنَهَى عَنْهُ تَنْزُهُا مِنْ غَيْرِ تَحْرِيمٍ مِنْهُ لَهُ. فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: أَوْلَيْسَ قَدْ أَخْبَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَهُمْ وَقَدْ غَلَتْ الْقُدُورُ بِلُحُومِهَا بِكَفِّئَتِهَا؟ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ فِي كَفِّئَتِهَا - إِنْ كَانَ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ لُحُومِ الضَّبَابِ كَانَ حَلَالًا - إِفْسَادَ طَعَامٍ حَلَالٍ أَكْلُهُ، وَفِي إِفْسَادِ ذَلِكَ - وَهُوَ حَلَالٌ - تَضْيِيعُ مَالٍ، وَفِي تَضْيِيعِ الْمَرْءِ مَالًا مِنْ مَالِهِ - وَلَا سِيَّمَا الطَّعَامَ الَّذِي هُوَ غِذَاءُ الْأَبْدَانِ وَأَقْوَاتُ الْأَجْسَادِ - الدُّخُولُ فِي مَعَانِي أَهْلِ السَّفَهَةِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْحَجَرَ، وَالتَّقَدُّمُ عَلَى مَا قَدْ نَهَى عَنْهُ ﷺ مِنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ. قِيلَ: إِنْ ذَلِكَ - وَإِنْ كَانَ طَعَامًا بِالْمَعْنَى الَّذِي وَصَفْتُ مِنْ كَرَاهَةِ النَّفْسِ لَهُ وَتَقْدِيرِهَا إِلَّا يَأْهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ حَرَامٍ عَلَى أَكْلِهِ أَكْلُهُ - لَمْ يَسْتَحِقَّ الرَّامِي بِهِ - إِذَا رَمَى بِهِ - وَلَا مُهْرِيقُ قَدْرِهِ - إِذَا أَهْرَاقَهَا - اسْمُ مُضَيِّعٍ مَالٍ، وَمُفْسِدِ طَعَامٍ، كَمَا غَيْرُ مُسْتَحَقٍّ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مُهْرِيقُ قَدَرٍ طَبِيخٍ قَدْ أَرَّاحَ وَنَمَسَ - حَتَّى صَارَ مِنْ تَغْيِيرِ طَعْمِهِ وَرَائِحَتِهِ إِلَى حَالٍ تَكْرَهُهُ النَّفْسُ، وَتَعَافُ أَنْ تَطْعَمَهُ - اسْمُ مُضَيِّعٍ مَالٍ، وَلَا مُفْسِدِ طَعَامٍ؛ بِإِرَاقَتِهِ إِلَّا يَأْهُ، وَإِنْ كَانَ حَلَالًا أَكْلُهُ، غَيْرُ حَرَامٍ عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ. فَكَذَلِكَ إِرَاقَةُ مُرِيقِ الْقَدْرِ الْعَالِيَةِ بِلُحُومِ الضَّبَابِ - إِذَا أَرَّاقَهَا - غَيْرُ مُسْتَحَقٍّ اسْمُ مُضَيِّعٍ مَالٍ، وَلَا مُفْسِدِ طَعَامٍ؛ إِذَا كَانَتْ إِرَاقَتُهُ ذَلِكَ تَقْدِيرًا وَتَنْزُهُا عَمَّا تَنْزَرُهُ عَنْهُ ﷺ وَتَقْدَرُهُ، وَإِنْ كَانَ أَرَّاقَ مَا هُوَ غَيْرُ حَرَامٍ عَلَى طَاعِمٍ أَنْ يَطْعَمَهُ وَمَنْ أَنْكَرَ مَا قُلْنَا فِي لُحُومِ الضَّبَابِ عَلَى السَّبِيلِ الَّتِي وَصَفْنَا، سُئِلَ عَنِ الْأَطْعَمَةِ التَّمِيسَةِ، وَالْقُدُورِ الْمُرِيحَةِ، وَالْأَطْبِخَةِ الَّتِي قَدْ مَاتَتْ فِيهَا الْخَنَافُسُ وَالْجَعْلَانُ وَبَنَاتُ وَرْدَانَ، وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي لَا نَفْسَ لَهَا سَائِلَةٌ، فَتَغَيَّرَتْ رَوَائِحُهَا بِمَوْتِ مَا مَاتَ فِيهَا مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى تَقْدَرَتْ النُّفُوسُ النَّظَرُ إِلَيْهَا وَعَافَتُهُ، فَضَلًا عَنْ أَكْلِهَا، أَيَّاثُمْ مُرِيقُهَا بِإِرَاقَتِهَا، وَيَسْتَحِقُّ طَارِحُهَا بِطَرْحِهَا اسْمُ مُضَيِّعٍ مَالٍ، وَمُفْسِدِ طَعَامٍ؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، خَرَجَ مِنْ مَعْقُولِ أَهْلِ الْعَقْلِ، وَخَالَفَ مَا عَلَيْهِ جَمِيعُ الْأُمَّةِ، مِنْ إِجَازَتِهِمْ إِلْقَاءَ ذَلِكَ وَطَرْحَهُ وَتَرْكَ أَكْلِهِ. وَإِنْ قَالَ: بَلْ غَيْرُ حَرَجٍ الرَّامِي بِهِ، وَلَا آثَمُ مُلْقِيهِ وَمُرِيقِهِ. قِيلَ لَهُ: فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ، وَبَيْنَ مُرِيقِ قَدَرٍ طَبِيخٍ لُحُومِ الضَّبَابِ الَّتِي أَرَّاقَهَا مِنْ أَرَّاقِهَا تَقْدِيرًا

وَتَنَزُّهَا، وَكِلَاهُمَا غَيْرُ حَرَامٍ أَكْلُهُ، وَلَا حَرَجَ طَاعِمُهُ؟ فَإِنْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ مُخْتَلَفٌ، بَأَنَّ مُرِيقَ مَا وَصَفْنَا - مِنَ الْقُدُورِ الَّتِي قَدْ مَاتَتْ فِيهَا الدَّوَابُّ الَّتِي ذَكَرْنَا - أَرَأَيْتَ مَا عَلَّتُهُ إِرَاقَتُهُ فَرَضًا؛ لِتَنَجِّسِهِ بِمَوْتِ مَا مَاتَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ مُرِيقَ الْقَدْرِ الْمَطْبُوحِ فِيهَا لُحُومَ الضَّبَابِ، أَرَأَيْتَ مَا هُوَ حَلَالٌ أَكْلُهُ عِنْدَكُمْ غَيْرُ حَرَامٍ، خَالَفَ فِي ذَلِكَ مَا عَلَيْهِ الْحُجَّةُ مُجْمَعَةٌ وَكُلُّهُ تَثَبُّتٌ مَا مَاتَ فِيهِ مِنَ الدَّوَابِّ مِمَّا لَا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ، مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ. وَفِي عِزَّةِ ذَلِكَ عَلَيْهِ، صِحَّةُ الْقَوْلِ بَأَنَّ مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَطْعُومِ مَا لِصَاحِبِهِ الْفَاوَهُ وَطَرَحُهُ، وَتَرَكُ أَكْلِهِ تَقْدِيرًا وَتَنَزُّهَا، وَهُوَ بِأَكْلِهِ - لَوْ أَكَلَهُ - غَيْرُ آثِمٍ، وَلَا طَاعِمٍ حَرَامًا. وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ؛ صَحَّ أَنَّ مِنْ ذَلِكَ لُحُومَ الضَّبَابِ الَّتِي وَصَفْنَا، وَتَثَبَّتْ صِحَّةُ مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّ أَكْلَهَا إِنْ أَكَلَ، لَمْ يَأْكُلْ بِأَكْلِهَا حَرَامًا، وَإِنْ أَلْقَاهَا وَبَذَلَهَا، لَمْ يَكُنْ بِفِعْلِهِ مَا فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ مُضِيْعًا مَالًا، لَا مُفْسِدًا طَعَامًا، وَلَا لَازِمُهُ بِذَلِكَ لَوْمْ وَلَا إِثْمٌ فِيهِ. وَفِي صِحَّةِ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ صِحَّةُ مَعْنَى الْأَخْبَارِ الْمَرْوِيَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي لُحُومِ الضَّبَابِ كُلِّهَا، وَذَلِكَ أَنَّ فِي أَمْرِهِ مِنْ أَمْرٍ بِأَكْلِ ذَلِكَ، إِعْلَامًا مِنْهُ أَمْتُهُ أَنَّهُ حَلَالٌ غَيْرُ حَرَامٍ. وَفِي تَرْكِهِ أَكْلَهُ وَنَهْيِهِ مَنْ نَهَى عَنْ أَكْلِهِ، إِعْلَامُهُمْ كَرَاهَتَهُ أَكْلَهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيمٍ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا أَمْرُ بِهِ، وَلَا أَنْهَى عَنْهُ» إِخْبَارٌ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَنْدُبُ إِلَى اسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهُ فِي مَطَاعِمِهِمْ اسْتِعْمَالَ الطَّيِّبِ مِنْ بَهَائِمِ الْأَنْعَامِ مِنَ الثَّمَانِيَةِ الْأَزْوَاجِ الَّتِي نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى تَحْلِيلَهَا فِي كِتَابِهِ، وَسَائِرِ الْأَغْذِيَةِ الَّتِي طَيَّبَهَا فِي تَنْزِيلِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا يُحَرِّمُهُ عَلَيْهِمْ تَحْرِيمُ الْخَبَائِثِ الَّتِي أَبَانَ تَحْرِيمَهَا فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ حَرَجٍ طَاعِمُهُ وَلَا آثِمٍ، وَإِنْ كَانَ مُتَقَدِّمًا بِأَكْلِهِ عَلَى أَكْلِ مَا يُكْرَهُ لَهُ أَكْلُهُ، كَمَا الْمُتَقَدِّمُ عَلَى أَكْلِ مَا قَدْ نَمَسَ مِنَ الْقُدُورِ وَأَتَتْ مِنْ مَوْتِ الْخَنَافِسِ وَبَنَاتِ الْوَرْدَانِ وَالْقَمَلِ وَالْبَرَاعِيثِ فِيهِ، مُتَقَدِّمٌ عَلَى مَا يُكْرَهُ لَهُ أَكْلُهُ، وَيُخْتَارُ لَهُ تَرْكُهُ فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ فِيمَا جَاءَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَبِيلٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ أَكْلِ الضَّبِّ» قِيلَ: هَذَا خَبَرٌ لَا يَثْبُتُ بِمِثْلِهِ فِي الدِّينِ حُجَّةٌ، وَلَوْ كَانَ مِمَّا يَثْبُتُ بِمِثْلِهِ فِي الدِّينِ حُجَّةٌ، لَمْ يَكُنْ لِمَا قُلْنَا خِلَافًا؛ إِذَا كَانَ مُحْتَمَلًا نَهْيُهُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ نَهْيٌ تَكْرَهُ وَتَقْدِيرٌ، لَا نَهْيٌ تَحْرِيمٍ. وَإِذَا كَانَ مُحْتَمَلًا ذَلِكَ، ثُمَّ وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ الثَّابِتَةُ عَنْهُ ﷺ بَيَانُ مُرَادِهِ مِنْ ذَلِكَ؛ كَانَ عَلَى مَا انْتَهَى ذَلِكَ إِلَيْهِ الدِّيُونَةُ بِأَنَّ مَعْنَاهُ فِي نَهْيِهِ عَنْ ذَلِكَ عَلَى مَا بَيَّنَّهُ ﷺ. وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ الصَّحَاحُ بِنَقْلِ الْعُدُولِ الْأَثْبَاتِ عَنْهُ، بِإِذْنِهِ فِي أَكْلِ ذَلِكَ وَإِبَاحَتِهِ، وَأَنَّ كَرَاهَتَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَعَامِ قَوْمِهِ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ حَرَامٌ. وَفِي بَعْضِ ذَلِكَ الْبَيَانِ الْوَاضِحِ عَنْ أَنَّ نَهْيَهُ عَنْ أَكْلِهِ - لَوْ صَحَّ ذَلِكَ عَنْهُ - بِمَعْنَى التَّكْرَهُ وَالتَّقْدِيرِ، لَا بِمَعْنَى التَّحْرِيمِ، وَلَعَلَّ قَائِلًا يَقُولُ: وَمَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ سُئِلَ عَنِ الضَّبِّ: «إِنَّ أُمَّةً مُسَخَّتْ فَأَرْهَبُ أَنْ تَكُونَهُ»، وَقَوْلِهِ: «فَلَعَلَّ هَذَا مِنْهُمْ» ، وَقَدْ عَلِمْتُ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُسُوخِ مِنَ الْخَبَرِ الَّذِي جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ ابْنَتْ أَبِي سُفْيَانَ: اللَّهُمَّ مَتَّعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ سَأَلْتَ لِأَحَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ، لَا يُعْجَلُ مِنْهَا شَيْءٌ

قَبْلَ حَلِّهَا، وَلَا يُؤَخَّرُ بَعْدَ حَلِّهَا، وَلَوْ سَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يُجِيرَكَ - أَوْ يُعِيدَكَ - مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ فِي النَّارِ، كَانَ خَيْرًا لَكَ». قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ، مِنَ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ الَّذِينَ مُسْخُوهُوا؟ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْلِكُ أُمَّةً فَيَبْقَى لَهَا نَسْلًا أَوْ عَاقِبَةً» فَهَذَا الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمُسُوخِ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُبْقِي لَهَا نَسْلًا وَلَا عَاقِبَةً، وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُبْقِي لِلْمُسُوخِ نَسْلًا وَلَا عَاقِبَةً»، ثُمَّ يَقُولَ فِي الضَّبَابِ: «أَرْهَبُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُسُوخِ الَّتِي مُسِخَتْ»؟ فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ فِي قَوْلِهِ ﷺ فِي الضَّبِّ: «إِنَّ أُمَّةً مُسِخَتْ فَأَرْهَبُ أَنْ تَكُونَهُ». وَلَا فِي قَوْلِهِ: «فَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْهُمْ»، خِلَافَ لِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْلِكُ أُمَّةً فَيَبْقَى لَهَا نَسْلًا وَلَا عَاقِبَةً»؛ إِذَا جَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ الَّتِي مُسِخَتْ يَوْمَئِذٍ هِيَ الضَّبَابُ الْآنَ بِأَعْيَانِهَا، لَا أَنَّهَا نَسْلُهَا، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْمُسُوخُ الَّتِي مُسِخَتْ بَعْضُ هَذِهِ الضَّبَابِ، بَقِيََتْ إِلَى الْآنَ لَمْ تُعْقَبْ، وَتَكُونَ الَّتِي تُعْقَبُ مِنْهَا غَيْرُ الْأُمَّةِ الَّتِي مُسِخَتْ فَحُوِّلَتْ فِي صُورِهَا. قِيلَ لَكَ: فَهَذَا خِلَافُ الْقَوْلِ الَّذِي رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: «لَمْ يَعِشْ مَسْخٌ قَطُّ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَأْكُلْ، وَلَمْ يَشْرَبْ، وَلَمْ يَنْسِلْ» وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَسَائِرَ الْخَلْقِ فِي السَّنَةِ الْأَيَّامِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ، فَمَسَخَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ - يَعْنِي الَّذِينَ مَسَخَهُمْ قِرْدَةً فِي صُورَةِ الْقِرْدَةِ - وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ بِمَنْ شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، وَيُحَوِّلُهُ كَيْفَ يَشَاءُ. فَمَا وَجْهُ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا إِذَا، إِنْ كَانَ الَّذِينَ مُسِخُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَائِزًا عِنْدَكَ أَنْ يَكُونُوا هُمْ هَذِهِ الضَّبَابُ الْيَوْمَ، أَوْ أَنْ يَكُونُوا كَانُوا مَوْجُودِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ مَرَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الزَّمَانِ مَا مَرَّ، وَأَتَى عَلَيْهِمْ مِنَ الدُّهُورِ مَا أَتَى، وَهَذَا الْخَبَرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِنْكَارِهِ لِلْمَسْخِ عَيْشًا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ؟ وَإِنْ أَنْتَ قُلْتَ بِتَصْحِيحِ الْقَوْلِ الَّذِي رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قِيلَ لَكَ: فَمَا وَجْهُ الْخَبَرِ الَّذِي رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الضَّبَابِ إِذَا، إِذَا سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ: «إِنَّ أُمَّةً مُسِخَتْ فَأَرْهَبُ أَنْ تَكُونَهُ»، وَالْمُسُوخُ قَدْ هَلَكَتْ وَبَادَتْ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ. وَالَّذِي قُدِّمَ إِلَيْهِ فَاثْتَمَعَ مِنْ أَكْلِهِ مِنْهَا، وَالَّذِي سُئِلَ عَنْهُ مِنْهَا، لَا هُوَ الْمَسْخُ، وَلَا هُوَ مِنْ نَسْلِهَا، فَمَا وَجْهُ كَرَاهَتِهِ أَكْلَ ذَلِكَ حِذَارًا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي مُسِخَتْ، وَهُوَ ﷺ يُخْبِرُ أَنَّ الْمَسْخَ لَا يُعْقَبُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ يَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَعِيشُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ؟ قِيلَ لَهُ: أَمَّا الْخَبَرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي رَوَى بِمَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنَّ الْمَسْخَ لَا يَعِيشُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ، فَخَبَرٌ فِي سَنَدِهِ نَظَرٌ؛ لِعِلَّتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّ الصَّحَّاحَ لَمْ يَسْمَعُوهُ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ بَشَرَ بْنَ عَمْرَةَ لَيْسَ مِمَّنْ يُعْتَمَدُ عَلَى رِوَايَتِهِ. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ صَحِيحًا؛ لَمْ يَكُنْ فِيهِ لِمَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خِلَافٌ، وَكَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْخَبَرِ الَّذِي رَوَى عَنْهُ ﷺ فِي الضَّبِّ الَّذِي قُدِّمَ إِلَيْهِ أَوْ سُئِلَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي مُسِخَتْ بِأَعْيَانِهَا، وَإِنَّمَا رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّ هَذَا مِنْهُمْ، وَأَرْهَبُ أَنْ تَكُونَهُ». وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَنَى بِقَوْلِهِ: «لَعَلَّ هَذَا مِنْهُمْ»: مِنْهُمْ فِي الصُّورَةِ وَالْخِلْقَةِ، وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ نَوْعِهِمْ فِي الْمِثَالِ. «وَأَرْهَبُ أَنْ تَكُونَهُ»: بِمَعْنَى أَنْ تَكُونَ نَظِيرَهُ فِي الْمِثَالِ وَالشَّبَهِ، لَا أَنَّهَا هِيَ بِأَعْيَانِهَا. وَإِذَا احْتَمَلَ ذَلِكَ مَا قُلْنَا، كَانَتْ كَرَاهَتُهُ ﷺ أَكْلَهَا لِمُشَابَهَتِهَا فِي الْخِلْقَةِ وَالصُّورَةِ

خَلَقَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَعَبَّرَهُ عَنْ هَيْئَتِهِ وَصُورَتِهِ إِلَى صُورَتِهَا، وَكَذَلِكَ هِيَ عِنْدَنَا. وَإِذَا صَحَّ أَنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ صَحَّتْ مَخَارِجُ مَعَانِي مَا ذَكَّرْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنَّ الْمَسْخَ لَا يُعْقَبُ، وَقَوْلُهُ إِذْ سُئِلَ عَنِ الضَّبِّ: «إِنَّ أُمَّةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُسِخَتْ فَلَعَلَّ هَذَا مِنْهُمْ»، وَمَخْرَجُ مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ الْمَسْخَ لَا يَعِيشُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ، وَذَلِكَ أَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ الْمَمْسُوخَةُ هَلَكَتْ بَعْدَ ثَلَاثٍ وَلَمْ تُعْقَبْ وَلَمْ تُنْسَلْ، وَتَكُونَ كَرَاهَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَكَلَ الضَّبَابِ إِذْ كَرِهَهُ؛ حَذَارًا أَنْ تَكُونَ مِنْ نَوْعِ مَا مَسَخَ اللَّهُ مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي مَسَخَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ كَانَ لَمْ يَمَسَخْ تَعَالَى ذِكْرُهُ خَلَقًا مِنْ خَلْقِهِ عَلَى صُورَةِ دَابَّةٍ مِنَ الدَّوَابِّ، إِلَّا كَرِهَ إِلَى أُمَّةٍ نَبِيْنَا ﷺ أَكَلَ لَحْمِ تِلْكَ الدَّابَّةِ الَّتِي مَسَخَ ذَلِكَ الْخَلْقَ عَلَى صُورَتِهِ أَوْ حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ. وَذَلِكَ كَتَحْرِيمِهِ عَلَيْهِمْ لُحُومَ الْخَنَازِيرِ الَّتِي مُسِخَتْ عَلَى صُورَتِهَا أُمَّةً مِنَ الْيَهُودِ، وَكَتَحْرِيمِهِ لُحُومَ الْقِرَدَةِ الَّتِي مُسِخَتْ عَلَى صُورَتِهَا مِنْهُمْ أُمَّةٌ أُخْرَى، وَتَكْرِيمِهِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ. فَإِنْ قَالَ: أَفَكَانَتْ عِنْدَهُ الضَّبَابُ مِنَ الْمُسُوخِ، وَسَبِيلُهَا سَبِيلُهَا؟ قِيلَ: إِنَّ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ أُمَّةً مُسِخَتْ فَأَرْهَبُ أَنْ تَكُونَهُ»، وَفِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَلَعَلَّ هَذَا مِنْهُمْ»، بَيَانًا وَاضِحًا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهَا مِنْ نَوْعِ الْأُمَّةِ الَّتِي مُسِخَتْ - وَلِذَلِكَ لَمْ تُحَرِّمْ - وَأَنَّهُ لَوْ تَبَيَّنَ لَهُ مِنْهَا مَا تَبَيَّنَ مِنَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ لَحَرَّمَ أَكْلَهَا عَلَى أَكْلِهَا، وَلَكِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَى خَلْقًا مُشْكِلًا، يُشْبِهُ خَلْقَ الْمُسُوخِ؛ فَكَرِهَ أَكْلَهَا لِذَلِكَ، وَلَمْ يُحَرِّمْهُ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ أَتَاهُ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ. وَفِي صِحَّةِ الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي ذَكَّرْنَا مِنْ كَرَاهَتِهِ أَكَلَ لُحُومِ الضَّبَابِ، مَعَ إِذْنِهِ لِأَكْلِهَا فِي أَكْلِهَا، الدَّلِيلُ الْوَاضِحُ عَلَى أَنَّ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ أُمُورًا، الْوَرَعُ فِي الْإِحْجَامِ عَنِ التَّقَدُّمِ عَلَيْهَا، وَالْفَضْلُ فِي الْكَفِّ وَالِإِمْسَاكِ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَ كَانَ غَيْرُ مُحَرَّمٍ التَّقَدُّمُ عَلَيْهَا؛ وَذَلِكَ إِذَا التَّبَسَّطَ عَلَى الْمَرْءِ أَسْبَابُهَا، وَلَمْ يَتَضَحَّ لَهُ وَجْهُ صِحَّتِهَا وَضُوحًا بَيِّنًا، كَالَّذِي فَعَلَ ﷺ فِي أَكْلِ لَحْمِ الضَّبِّ، فَلَمْ يَتَقَدَّمْ عَلَيْهِ؛ أَخَذًا مِنْهُ بِالِاحْتِيَاظِ لِنَفْسِهِ، وَاسْتِبْرَاءً مِنْهُ لِدِينِهِ؛ إِذْ خَافَ أَنْ يَكُونَ مِنْ نَوْعِ الْمُسُوخِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ نَظَائِرَهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَنْهَ أَكْلَهُ عَنْ أَكْلِهِ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ وَضَحَتْ لَهُ صِحَّةُ أَمْرِهِ أَنَّهُ مِنْ نَوْعِ الْمُسُوخِ. وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْمُتَمَسِّكُ مِنْ أُمَّتِهِ بِمَنْهَاجِهِ فِيمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ؛ يُحْجِمُ عَنِ التَّقَدُّمِ عَلَيْهِ؛ أَخَذًا مِنْهُ بِالِاحْتِيَاظِ لِنَفْسِهِ، وَاسْتِبْرَاءً لِدِينِهِ، وَلَا يَذُمُّ الْمُتَقَدِّمُ عَلَيْهِ ذِمَّ مُؤْتَمٍّ، وَلَا يَلُومُهُ لَوْمٌ مُعْتَفٍ ٢١٧

من فوائد الحديث:

١ - قَالَ فِي مَرْقَاةِ الصُّعُودِ: قَالَ الشَّيْخُ عَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ: كَيْفَ يُجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا وَرَدَ أَنَّ الْمَمْسُوخَ لَا يَعِيشُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَلَا يُعْقَبُ، وَالْجَوَابُ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُخْبِرُ بِأَشْيَاءَ مُجْمَلَةً ثُمَّ يَتَبَيَّنُ لَهُ كَمَا قَالَ فِي الدَّجَالِ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَضَ فِيهِ وَرَفَعَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟»

٢١٧ - تهذيب الآثار مسند عمر (١/ ١٧٧) فما بعدها وانظر: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ١٧٨)

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً، فَخَفَضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَأَمُرُّوْا حَاجِبُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»^{٢١٨}

ثُمَّ أَعْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَبْلَ نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ ، فَكَذَلِكَ هَذَا عِلْمُ ﷺ بِالْمَسْخِ وَلَمْ يَعْلَمْ -يَوْمَ قَالَ ذَلِكَ- أَنَّ الْمَسْخُ لَا يَعِيشُ وَلَا يُعْقَبُ لَهُ فَكَانَ فِي الظَّنِّ وَالْحِسَابِ عَلَى حَسَبِ الْقَرَائِنِ الظَّاهِرَةِ انْتَهَى^{٢١٩}.

٢- قال ابن حجر -رحمه الله- "والأحاديث الماضية وإن دلت على الحلِّ تصرُّحاً وتلويحاً نصّاً وتقريراً ، فالجمع بينها وبين هذا حملَ النهي فيه على أوَّلِ الحال عند تجويز أن يكون ممّا مَسَخَ وَحِينَئِذٍ أَمَرَ بِإِكْفَاءِ الْقُدُورِ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ فَلَمْ يَأْمُرْ بِهِ وَلَمْ يَنْهَ عَنْهُ ، وَحُمِلَ الْأُذُنُ فِيهِ عَلَى ثَانِيِ الحال لما عِلِمَ أَنَّ الْمَسْخُ لَا نَسْلَ لَهُ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ يَسْتَقْدِرُهُ فَلَا يَأْكُلُهُ وَلَا يُحَرِّمُهُ ، وَأَكَلَ عَلَى مَائِدَتِهِ فَدَلَّ عَلَى الْإِبَاحَةِ ، وَتَكُونُ الْكَرَاهَةُ لِلتَّزْيِيهِ فِي حَقِّ مَنْ يَتَقَدَّرُهُ ، وَتُحْمَلُ أَحَادِيثُ الْإِبَاحَةِ عَلَى مَنْ لَا يَتَقَدَّرُهُ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُكْرَهُ مُطْلَقًا. وَقَدْ أَفْهَمَ كَلَامُ ابْنِ الْعَرَبِيِّ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ فِي حَقِّ مَنْ يَتَقَدَّرُهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ فِي أَكْلِهِ مِنَ الضَّرَرِّ وَهَذَا لَا يَخْتَصُّ بِهَذَا."^{٢٢٠}

٣- فيه جواز الإهداء، ومشروعية قبول الهدية.

٤- أن الطباع تختلف في النفور عن بعض المأكولات، ولكن على المسلم أن يحذر من عيب الطعام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «مَا عَابَ النَّبِيُّ ﷺ طَعَامًا قَطُّ، إِنْ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ»^{٢٢١}.

قال ابن بطال: هذا من حسن الأدب على الله تعالى لأنه إذا عاب المرء ما كرهه من الطعام فقد رد على الله رزقه، وقد يكره بعض الناس من الطعام ما لا يكرهه غيره، ونعم الله تعالى لا تعاب وإنما يجب الشكر عليها، والحمد لله لأجلها؛ لأنه لا يجب لنا عليه شيء منها، بل هو متفضل في إعطائه عادل في منعه.^{٢٢٢}

وقال النووي: "هَذَا مِنْ آدَابِ الطَّعَامِ الْمُتَأَكَّدَةِ وَعَيْبُ الطَّعَامِ كَقَوْلِهِ مَالِحٌ قَلِيلُ الْمِلْحِ حَامِضٌ رَقِيقٌ غَلِيزٌ غَيْرُ نَاضِجٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَأَمَّا حَدِيثُ تَرْكِ أَكْلِ الضَّبِّ فَلَيْسَ هُوَ مِنْ عَيْبِ الطَّعَامِ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ بِأَنَّ هَذَا الطَّعَامَ الْخَاصَّ لَا أَشْتَهِيهِ"^{٢٢٣}

^{٢١٨} - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٠) - ١١٠ - (٢٩٣٧)

^{٢١٩} - عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٠/ ١٩١)

^{٢٢٠} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٩/ ٦٦٦)

^{٢٢١} - صحيح البخاري (٧/ ٧٤) (٥٤٠٩) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٣٢) - ١٨٧ - (٢٠٦٤)

^{٢٢٢} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٩/ ٥٤٨) وشرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٤٧٨)

^{٢٢٣} - شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢٦)

ودل هذا الحديث على أن من الآداب الاجتماعية التي شرعها الإسلام أن لا يذم الضيف الطعام الذي يقدم إليه، ولا يذكر فيه عيباً، لأن هذا مما يجرح شعور صاحب الطعام أما إذا كان يريد بذلك النصيحة له فلتكن فيما بينه وبينه، هذا إذا كان هناك عيب حقيقي كالمملوحة مثلاً ولا يليق بأهل الفضل والدين أن يتكبروا ويترفعوا عن الأطعمة المتواضعة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ»^{٢٢٤}.. وذلك إرشاد منه - ﷺ - لأئمة أن لا يحتقروا من الطعام شيئاً، لأنه نعمة من نعم الله التي يجب احترامها وتقديرها وشكرها. وقد روى عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ مَشَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْزِ شَعِيرٍ، وَإِهَالَةٍ سِنْخَةٍ، وَلَقَدْ «رَهَنَ النَّبِيُّ ﷺ دِرْعًا لَهُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، وَأَخَذَ مِنْهُ شَعِيرًا لِأَهْلِهِ»^{٢٢٥}، أي شحم قديم متغير الرائحة من السناخة، وهي الزناخة، فانظر إلى تواضعه - ﷺ - وسماحة نفسه ومراعاته لشعور غيره.^{٢٢٦}



^{٢٢٤} - صحيح البخاري (٢٥ / ٧) (٥١٧٨)

ش (الكراع) كراع الشاة وهو ما دون الكعب ومستدق الساق وهو شيء حقير فأشار صلى الله عليه وسلم بالكراع إلى إجابة الدعوة ولو على شيء قليل وقبول الهدية وأن قلت وقد تقدمت رواية الحديث في الهبة باب القليل من الهبة بلفظ (لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت) فجمع هناك بين العظيم والحقير

^{٢٢٥} - صحيح البخاري (٣ / ٥٧) (٢٠٦٩) وتطريز رياض الصالحين (ص: ٣٣٨) ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨ / ٣٢٧٨)

[ش (إهالة) ما أذنب من الدهن أو الشحم. (سنخة) متغيرة الرائحة من طول الزمن. (لأهله) لأزواجه. (يقول) قيل القائل هو أنس رضي الله عنه وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم]

^{٢٢٦} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥ / ١٤٦)

قصة الأمة التي فقدت من بني إسرائيل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «فَقَدْتُ أُمَّةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُدْرِي مَا فَعَلَتْ، وَإِنِّي لَا أُرَاهَا إِلَّا الْفَارَ، إِذَا وَضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الْإِبِلِ لَمْ تَشْرَبْ، وَإِذَا وَضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الشَّاءِ شَرِبَتْ» فَحَدَّثْتُ كَعْبًا فَقَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ لِي مِرَارًا، فَقُلْتُ: أَفَأَقْرَأُ التَّوْرَةَ؟^{٢٢٧}.

شرح المفردات:

(وَإِنِّي لَا أُرَاهَا إِلَّا الْفَارَ) بِإِسْكَانِ الْهَمْزَةِ، وَعِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «الْفَارَةُ مَسْخٌ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ يُوَضَّعُ بَيْنَ يَدَيْهَا لَبَنُ الْغَنَمِ فَتَشْرَبُهُ، وَيُوَضَّعُ بَيْنَ يَدَيْهَا لَبَنُ الْإِبِلِ فَلَا تَذُوقُهُ» فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ: أَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أَفَأَنْزِلَتْ عَلَيَّ التَّوْرَةُ؟^{٢٢٨}.

(أَفَأَقْرَأُ التَّوْرَةَ)، وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: أَفَأَنْزِلَتْ عَلَيَّ التَّوْرَةَ، هُوَ اسْتِفْهَامٌ إِنكَارٌ، وَمَعْنَاهُ مَا أَعْلَمُ وَلَا عِنْدِي شَيْءٌ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا أَنْقُلُ عَنِ التَّوْرَةِ وَلَا غَيْرَهَا مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ شَيْئًا، بِخِلَافِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ لَهُ عِلْمٌ بِعِلْمِ أَهْلِ الْكِتَابِ^{٢٢٩}.

شرح الحديث:

قال ابن حجر: وَفِي سُكُوتِ كَعْبٍ عَنِ الرَّدِّ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ دَلَالَةٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ، وَكَأَنَّهُمَا جَمِيعًا لَمْ يَبْلُغَهُمَا حَدِيثَ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ أُمْتَعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ لَأَجَالِ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامِ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجَّلَ شَيْئًا قَبْلَ حُلِّهِ، أَوْ يُؤَخَّرَ شَيْئًا عَنْ حُلِّهِ، وَلَوْ كُنْتُ سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُعِيدَكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ» قَالَ: وَذَكَرَتْ عِنْدَهُ الْقِرْدَةُ، قَالَ

^{٢٢٧} - صحيح البخاري (٤/ ١٢٨) (٣٣٠٥) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٤) - (٢٩٩٧)

[ش . (فقدت أمة) ذهبت طائفة منهم لا يعلم ما وقع لهم. (لا أراها) لا أظنها مسخها الله تعالى إلا لجنس الفار. (لم تشرب. .) أي وقد كانت هذه الألبان محرمة على بني إسرائيل. (الشاء) الغنم جمع شاة. (كعبا) هو كعب بن ماته المشهور بكعب الأحبار. (قال لي مراه) أي كرر سؤاله مرات. (أفأقرأ التوراة) القائل أبو هريرة يرد على كعب أي هل أنا أقرأ التوراة حتى أنقل منها؟ لا أقول إلا ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. والظاهر من الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك اجتهدا منه وظنا قبل أن يخبر من الله تعالى أنه لم يجعل لمسخ نسلا ولا عقبا كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم وعليه فهذه الحيوانات كانت قبل أن يكون المسخ لبعض الأمم ومن مسخ منهم قردة أو خنازير أو غيرها فقد انقرض ولم يبق له وجود.]

^{٢٢٨} - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٤) - (٢٩٩٧)

^{٢٢٩} - شرح النووي على مسلم ١٨ / ١٢٤.

مَسْعَرُ: وَأَرَاهُ قَالَ: وَالْخَنَازِيرُ مِنْ مَسْخٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلاً وَلَا عَقِباً، وَقَدْ كَانَتْ الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ»^{٢٣٠}.

وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُهُ ﷺ: "لَا أَرَاهَا إِلَّا الْفَارَّ" وَكَأَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ ذَلِكَ ثُمَّ أُعْلِمَ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ هِيَ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: إِنَّ صَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ وَإِلَّا فَالْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ هِيَ الْمَسْخُوحُ بِأَعْيَانِهَا تَوَالَّدَتْ. قُلْتُ - ابن حجر -: الْحَدِيثُ صَحِيحٌ^{٢٣١}.

من فوائد الحديث:

١ - فِيهِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ لَمْ يَكُنْ يَأْخُذُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنَّ الصَّحَابِيَّ الَّذِي يَكُونُ كَذَلِكَ إِذَا أَخْبَرَ بِمَا لَا مَجَالَ لِلرَّأْيِ وَالْاجْتِهَادِ فِيهِ يَكُونُ لِلْحَدِيثِ حُكْمُ الرَّفْعِ^{٢٣٢}.

٢ - إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلاً وَلَا عَقِباً، فَالْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ مخلوقات مستقلة خلقها الله عز وجل لحكم ومصالح، وهي من أَرْدَى الحيوانات، ولذا مسخ الله تعالى بعض البشر على صورتها عقوبة له، ثم يهلكون سريعاً ولا يكون لهم نسل.

٣ - عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ يَحْذَرَ مِنْ أَسْبَابِ سَخَطِهِ، فَإِنْ أَخَذَهُ - عز وجل - أَلِيمٌ شَدِيدٌ.



^{٢٣٠} - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٠) ٣٢ - (٢٦٦٣)

[ش (حله) ضبطناه بوجهين فتح الحاء وكسرها في المواضع الخمسة من هذه الروايات وذكر القاضي أن جميع الروايات على الفتح ومراده رواية بلادهم وإلا فالأشهر عند رواية بلادنا الكسر وهما لغتان ومعناه وجوبه وحينه يقال حل الأجل يحل حلاً وحلاً وهذا الحديث صريح في أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تتغير عما قدره الله تعالى وعلمه في الأزل فيستحيل زيادتها ونقصها حقيقة عن ذلك (وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك) أي قبل مسخ بني إسرائيل فدل ذلك على أنها ليست من المسخ]

^{٢٣١} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٦/ ٣٥٣)

^{٢٣٢} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٦/ ٣٥٣)

وَلَكِنْ لَا يَلِزُ أَنْ تُكُونَ الْقُرُودُ الْمَذْكُورَةُ مِنَ النَّسْلِ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الَّذِينَ مُسِخُوا لَمَّا صَارُوا عَلَى هَيْئَةِ الْقِرْدَةِ مَعَ بَقَاءِ أَفْهَامِهِمْ عَاشَرَتْهُمْ الْقِرْدَةُ الْأَصْلِيَّةُ لِلْمُشَابَهَةِ فِي الشَّكْلِ فَتَلَقَّوْا عَنْهُمْ بَعْضُ مَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَحَفِظُوهَا وَصَارَتْ فِيهِمْ، وَاخْتَصَّ الْقِرْدُ بِذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفِطْنَةِ الرَّائِدَةِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَقَابِلِيَّةِ التَّعْلِيمِ لِكُلِّ صِنَاعَةٍ مِمَّا لَيْسَ لِأَكْثَرِ الْحَيَوَانِ، وَمِنْ خِصَالِهِ أَنَّهُ يَضْحَكُ وَيَطْرَبُ وَيَحْكِي مَا يَرَاهُ، وَفِيهِ مِنْ شِدَّةِ الْغَيْرَةِ مَا يُوَازِي الْإِنْسَانَ وَلَا يَتَعَدَّى أَحَدَهُمْ إِلَى غَيْرِ زَوْجَتِهِ، فَلَا يَدْعُ فِي الْغَالِبِ أَنْ يُحْمِلَهَا مَا رُكِبَ فِيهَا مِنْ غَيْرَةٍ عَلَى عُقُوبَةٍ مَنْ اعْتَدَى إِلَى مَا لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْأُنْثَى، وَمِنْ خِصَالِهِ أَنَّ الْأُنْثَى تُحْمِلُ أَوْلَادَهَا كَهَيْئَةِ الْإِنْسَانِ، وَرُبَّمَا مَشَى الْقِرْدُ عَلَى رِجْلَيْهِ لَكِنْ لَا يَسْتَمِرُّ عَلَى ذَلِكَ، وَيَتَنَاوَلُ الشَّيْءَ بِيَدِهِ وَيَأْكُلُ بِيَدِهِ، وَلَهُ أَصَابِعٌ مُفَصَّلَةٌ إِلَى أَنْامِلٍ وَأَظْفَارٍ، وَلِشَفْرِ عَيْنَيْهِ أَهْدَابٌ. فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٧/ ١٦٠)

قصة الرجل الذي زار أخاه في الله

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، " أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّبْتُهُ فِيهِ " ٢٣٣ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ قَرْيَةٍ يَزُورُ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ مَلَكًا ، فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَزُورَ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ فِي اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ. قَالَ: ذَلِكَ قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ رَبِّكَ إِلَيْكَ إِنَّهُ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّبْتُهُ فِيهِ " ٢٣٤

شرح المفردات:

أرصدته : أَقْعَدَهُ يَرْقُبُهُ.

الْمَدْرَجَةُ : الطَّرِيقُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ يَدْرَجُونَ عَلَيْهَا، أَيِ يَمْضُونَ وَيَمْشُونَ.

هل لك عليه من نعمة تربها: أي : تحفظها، وثراعيها، وتربيها، كما يربي الرجل ولده، والفارس فُلُوهُ ٢٣٥ .

المعنى العام للحديث :

(وَعَنْهُ) أَيِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (عَنِ النَّبِيِّ ﷺ): أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ) أَيِ: أَرَادَ زِيَارَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ أَوْ مُتَوَاحِيهِ فِي اللَّهِ وَهُوَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَخَاهُ حَقِيقَةً أَوْ مَحَازًا (فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى) أَيِ: غَيْرِ مَكَانِ الزَّائِرِ (فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ) أَيِ: أَعَدَّ وَهَيَّأَ أَوْ أَقْعَدَ فِي طَرِيقِهِ (مَلَكًا) : وَفِي النَّهَائِيَةِ أَيِ: وَكَلَّهُ بِحِفْظِ مَدْرَجَتِهِ يُقَالُ: رَصَدْتُهُ إِذْ قَعَدْتَ لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ تَتَرَقَّبُهُ اهـ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ١٤] فِيهِ تَجَرِيدٌ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ مُرَاقِبٌ لِلْعِبَادِ، قَالَ: الْمَدْرَجَةُ بَفَتْحِ الْمِيمِ وَالرَّاءِ هِيَ الطَّرِيقُ سُمِّيَ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَدْرَجُونَ عَلَيْهَا أَيِ: يَمْضُونَ وَيَمْشُونَ اهـ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمَدْرَجَةَ مِنَ الطَّرِيقِ مَكَانٌ مُرْتَفِعٌ يَمْشِي فِيهِ دَرَجَةً دَرَجَةً فِي الطَّلُوعِ وَالنُّزُولِ، وَمِنْهُ مَدْرَجَةُ مَنَى الَّتِي

٢٣٣ - صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٨) ٣٨ - (٢٥٦٧)

[ش (فأرصد) أي أقعده يرقبه (على مدرجته) المدرجة هي الطريق سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليها أي يمشون ويمشون (تربها) أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك]

٢٣٤ - الزهد لهناد بن السري (١/ ٢٧٧) (٤٩٠) صحيح

٢٣٥ - الترغيب والترهيب لقوام السنة (٢/ ٢٥٥) ودروس وعبر من صحيح القصص النبوي (ص: ٣٠) وشرح النووي على صحيح مسلم ١٢٤/١٦ .

هِيَ وَصَلَتْ إِلَى مَنْى يَعْرِفُهَا مَنْ ذَهَبَ فِي طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ إِلَى عَرَفَاتِ الْهَنَاءِ مِنْ هُنَا. (قَالَ) : اسْتَسْنَفَ جَوَابَ لِمَنْ قَالَ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ أَيُّ الْمَلِكُ لِلزَّائِرِ. (أَيَنْ تُرِيدُ؟) : الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ تَجَاهُلِ الْعَارِفِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الثَّوَرِيَّةِ حَيْثُ إِنَّ مَقْصُودَهُ الْأَصْلِيَّ مَنْ تُرِيدُ، وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمَقْرَّرَةِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ ذِكْرَهُ وَالْإِنَاءُ يَتَرَشَّحُ بِمَا فِيهِ. (قَالَ) : أَيُّ الزَّائِرُ (أُرِيدَ أَخًا) أَيُّ زِيَارَةِ أَخٍ (لِي) أَيُّ مُخْتَصًّا لِي (فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ) : وَلَعَلَّ تَعْيِينَهَا عُلِمَ بِالْإِشَارَةِ. وَأُطْنِبَ فِي الْكَلَامِ ؛ لِيَتَضَمَّنَ الْمَرَامَ عَلَى نَوْعٍ مِنْ أُسْلُوبِ الْحَكِيمِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: لَا تَسْأَلْ عَنِ الْمَحَلِّ وَاکْتَفِ بِالسُّؤَالِ عَنِ الْحَالِ، فَإِنَّ هَذَا طَرِيقَ أَرْبَابِ الْحَالِ بِلَا مُحَالٍ.

قَالَ الطَّبِيبُ، فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ طَابَقَ هَذَا سُؤَالُهُ بِقَوْلِهِ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: مَنْ حَيْثُ إِنَّ السُّؤَالَ مُتَضَمِّنٌ لِقَوْلِهِ أَيْنَ تَتَوَجَّهَ وَمَنْ تَقْصِدُ، وَلَمَّا كَانَ قَصْدُهُ الْأَوَّلَى الزِّيَارَةَ ذَكَرَهُ وَتَرَكَ مَا لَا يُهُمُّهُ. قُلْتُ: هَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ لَوْ لَمْ يَقُلْ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: " {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه: ٨٣] " لَمَّا كَانَ الْغَرَضُ مِنَ السُّؤَالِ فِي اسْتِعْجَالِهِ إِنْكَارَ تَرْكِهِ الْقَوْمَ وَرَأَاهُ وَتَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ قَدَمُهُ فِي الْجَوَابِ، وَأَخَّرَ مَا وَقَعَ السُّؤَالُ عَنْهُ. قُلْتُ: فِي كَوْنِهِ نَظِيرًا لَهُ نَظَرٌ، بَلْ مِثَالٌ لَهُ بِحَسَبِ الْمَعْنَى، وَتَوْضِيحُهُ مَا ذَكَرَهُ الْبِضَاوِيُّ مِنْ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى} [طه: ٨٣] سُّؤَالٌ عَنْ سَبَبِ الْعَجَلَةِ يَتَضَمَّنُ إِنْكَارَهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا نَقِصَةٌ فِي نَفْسِهَا انْضَمَّ إِلَيْهَا إِغْفَالُ الْقَوْمِ وَإِبْهَامُ التَّعْظِيمِ عَلَيْهِمْ، فَلِذَلِكَ أَجَابَ مُوسَى عَنِ الْأَمْرَيْنِ، وَقَدَّمَ جَوَابَ الْإِنْكَارِ ؛ لِأَنَّهُ أَهَمُّ {قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي} [طه: ٨٤] أَيُّ: مَا تَقَدَّمَ عَنْهُمْ إِلَّا بِخَطَأٍ يَسِيرَةٍ لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَادَةٌ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ إِلَّا مَسَافَةٌ قَرِيبَةً يَتَقَدَّمُ بِهَا الرِّفْقَةُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا {وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه: ٨٤] ، فَإِنَّ الْمُسَارَعَةَ إِلَى امْتِنَالِ أَمْرِكَ وَالْوَفَاءَ بِوَعْدِكَ يُوجِبُ مَرْضَاتَكَ أَهـ.

(قَالَ) أَيُّ الْمَلِكُ لِلزَّائِرِ (هَلْ لَكَ عَلَيْهِ) أَيُّ: عَلَى الْمَزُورِ (مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟) : بَضْمُ الرَّاءِ وَالْمَوْحَدَةِ الْمُسْتَدَدَةِ أَيُّ: تَقُومُ بِإِصْلَاحِهَا وَإِنْمَامِهَا أَيُّ: هَلْ هُوَ مَمْلُوكُكَ أَوْ وَلَدُكَ أَوْ غَيْرُهُمَا مِمَّنْ هُوَ فِي نَفَقَتِكَ وَشَفَقَتِكَ ؛ لِتُحَسِّنَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّ فُلَانٍ الضَّيْعَةِ أَيُّ: أَصْلَحَهَا وَأَتَمَّهَا. وَفِي بَعْضِ النُّسخ: هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا أَيُّ: تَقُومُ لِشُكْرِهَا؟ ثُمَّ قِيلَ: نِعْمَةٌ: مُبْتَدَأٌ، وَمِنْ زَائِدَةٍ، وَلَكَ خَبَرُهُ، وَعَلَيْهِ، مُتَعَلِّقٌ بِحَالٍ مَحْذُوفٍ أَيُّ: هَلْ لَكَ نِعْمَةٌ دَاعِيَةٌ عَلَى زِيَارَتِهِ تَرُبُّهَا أَيُّ: تَحْفَظُهَا وَتَتَزَيَّدُهَا بِالْقِيَامِ عَلَى شُكْرِهَا؟ وَقَالَ الطَّبِيبُ أَيُّ: هَلْ أَوْجَبَتْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ تَذْهَبُ إِلَيْهَا فَتَرُبُّهَا أَيُّ: تَمْلِكُهَا مِنْهُ وَتَسْتَوْفِيهَا؟ (قَالَ) : لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ) أَيُّ: لَيْسَ لِي دَاعِيَةٌ إِلَى زِيَارَتِهِ إِلَّا مَحَبَّتِي إِيَّاهُ فِي طَلَبِ مَرْضَاةِ اللَّهِ (قَالَ) أَيُّ الْمَلِكُ (فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ) : وَلَعَلَّ وَجْهَ التَّسْنِيهِ أَنَّهُ كَمَا أَحَبَّهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ دُنْيَوِيٍّ، كَذَلِكَ الْحَقُّ أَحَبَّهُ مِنْ غَيْرِ بَاعِثٍ آخَرَ مِنْ عَمَلٍ أُخْرَوِيٍّ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْكَافُ لِلتَّعْلِيلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَذَاكُمْ} [البقرة: ١٩٨] قَالَ النَّوَوِيُّ: فِيهِ فَضْلُ الْمَحَبَّةِ فِي اللَّهِ، وَأَنَّهَا سَبَبُ لِحَبِّ اللَّهِ وَفَضِيلَةِ زِيَارَةِ الصَّالِحِينَ، وَأَنَّ

الْإِنْسَانَ قَدْ يَرَى الْمَلَائِكَةَ. قُلْتُ: رُؤْيُهُ غَيْرُ النَّبِيِّاءِ وَالرُّسُلِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمَلَائِكَةِ عَلَى صُورِ الْبَشَرِ أَمْرٌ وَاضِحٌ ثَبَتَ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ وَغَيْرِهِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ هُنَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى إِرْسَالِ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَمُخَاطَبَتِهِ إِيَّاهُمْ بِتَبْلِيغِ الْمَرَامِ زِيَادَةً عَلَى مَرْتَبَةِ الْإِلَهَامِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مِنْ خَصَائِصِ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ تَحْقِيقًا لِحَتْمِ النُّبُوَّةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ.^{٢٣٦}

من فوائد الحديث:

١ - فضل الزيارة في الله عز وجل، والتي يكون الباعث عليها الحب في الله تعالى وليس غرض من أغراض الدنيا، أو مصلحة من المصالح العاجلة، فهي سبب لمحبة الله تعالى للعبد، وسبب لدخول الجنة؛ فعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طَبْتُ وَطَابَ مَمَشَاكَ وَتَبَوَّاتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنَزِلًا»^{٢٣٧}

وعن مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ» (٤). ومن ثم قال الفقهاء: تُسَنُّ زِيَارَةُ الصَّالِحِينَ وَالْإِخْوَانِ، وَالْأَصْدِقَاءِ وَالْجِيرَانِ، وَالْأَقَارِبِ وَصَلَتُهُمْ، وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ زِيَارَتُهُمْ عَلَى وَجْهِ يَرْتَضُونَهُ، وَفِي وَقْتٍ لَا يَكْرَهُونَهُ. كَمَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَطْلُبَ مِنْ أَخِيهِ الصَّالِحِ أَنْ يَزُورَهُ وَيُكْثِرَ زِيَارَتَهُ إِذَا لَمْ يَشَقَّ ذَلِكَ^{٢٣٨}.

٢ - الزيارة في الله عز وجل فيها فوائد جمة؛ فهي تؤلف القلوب، وتزيد الإيمان، وتفرح النفس، وفيها التناصح والتعاون على الخير، عن سُفْيَانَ، قال: قِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ: "مَا بَقِيَ مِنْ لَذَّتِكَ؟ قَالَ: التَّقَاءُ الْإِخْوَانِ، وَإِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ"^{٢٣٩}، وقال الحسن البصري: "إخواننا أحب إلينا من أهلينا؛ إخواننا يذكروننا بالآخرة، وأهلونا يذكروننا بالدنيا"^{٢٤٠}.

٣ - إثبات صفة المحبة لله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه، بلا تأويل ولا تكييف، ولا تشبيه ولا تمثيل، فالله يُحِبُّ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، يُحِبُّ التَّوَابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَالْمُسْتَقِينَ، وَالْمُحْسِنِينَ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيهِ، وَالْمُتَحَابِّينَ فِيهِ^{٢٤١}.

٤ - الإيمان بالملائكة، وأنهم قد يأتون في صورة البشر كما في هذا الحديث، وقال الله تعالى عن جبريل - عليه السلام: (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) [مریم: ١٧]. وَأَنَّ الْأَدَمِيَّينَ قَدْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ^{٢٤٢}.

^{٢٣٦} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٣٤)

^{٢٣٧} - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٦٥) (٢٠٠٨) حسن

^{٢٣٨} - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٤/ ٨١) وروضة الطالبين ١٠ / ٢٣٧ .

^{٢٣٩} - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٩٧) صحيح مقطوع

^{٢٤٠} - موسوعة خطب المنبر (ص: ٣٦٠٧) وإحياء علوم الدين (٢/ ١٧٦) والقواعد الحسان في أسرار الطاعة والاستعداد لرمضان

(ص: ٢٧) وقوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (٢/ ٣٦٧)

^{٢٤١} - انظر كتابي: "الذين يحبهم الله تعالى"

٥- على المسلم أن يجتهد في إحياء هذه الشعيرة العظيمة، ولا سيما وقد كثر التفريط فيها في هذا الزمن حيث أصبح أكثر الناس لا يتزاورون إلا من أجل الدنيا والمصالح العاجلة.

٦- يشرع للمسلم إذا زار أخاه في الله أن يلتزم بآداب الزيارة ومنها؛ الاستئذان، وغض البصر، وأن يعمر المجلس بذكر الله تعالى، وأن يبتعد عن الغيبة والفحش، وأن لا يطيل الجلوس حتى لا يثقل على أخيه.

٧- قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- الاجتماع بالإخوان قسمان: أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات: أحداها تزين بعضهم لبعض. الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح فمن طاب لقاحه طابت ثمرته^{٢٤٣}.



^{٢٤٢} - انظر كتابي " الخلاصة في أركان الإيمان " وكتابي " الإيمان بالملائكة وبيان صفاتهم "

^{٢٤٣} - الفوائد لابن القيم (ص: ٥٢)

قصة اغتسال موسى عريانا وفرار الحجر بثوبه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءً مِنْهُ، فَأَذَاهُ مِنْ أَذَاهِ مَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسْتَرُ، إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بَجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ: وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّتَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَّغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَأَبْرَاهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا" ٢٤٤ .

وَعَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاءً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوَاءِ بَعْضٍ. وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ قَالَ: فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ. قَالَ: فَجَمَعَ مُوسَى بِإِثَرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ، حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوَاءِ مُوسَى قَالُوا: وَاللَّهِ، مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، فَقَامَ الْحَجَرُ حَتَّى نُظِرَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا " قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَاللَّهِ إِنَّهُ بِالْحَجَرِ نَدَبٌ سِتَّةٌ، أَوْ سَبْعَةٌ، ضَرَبُ مُوسَى بِالْحَجَرِ» ٢٤٥

شرح المفردات:

(إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا) بَوَزْنٍ فَعِيلٍ مِنَ الْحَيَاءِ.
(سَتِيرًا): مِنَ السَّتْرِ، وَيُقَالُ سَتِيرًا بِالتَّشْدِيدِ.
(لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءً مِنْهُ) هَذَا يُشْعِرُ بَأَنَّ اغْتِسَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عُرَاءً بِمَحْضَرٍ مِنْهُمْ كَانَ جَائِزًا فِي شَرْعِهِمْ، وَإِنَّمَا اغْتَسَلَ مُوسَى وَحْدَهُ اسْتَحْيَاءً.

٢٤٤ - صحيح البخاري (١٥٦/٤) (٣٤٠٤) وصحيح مسلم (١٨٤٢/٤) ١٥٦ - (٣٣٩)

[ش (حييا) كثير الحياء. (ستيرا) من شأنه ودأبه حب الستر وصون نفسه عن رؤية أحد لعورته. (برص) بقع بياض تكون على الجلد. (أدرة) انتفاخ في الخصى. (آفة) عيب. (عدا) مشى مسرعا. (قام الحجر) وقف عن السير. (وجيها) ذا جاه ومزلة لا يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه إياه / الأحزاب ٦٩ /]

٢٤٥ - صحيح مسلم (١/٢٦٧) ٧٥ - (٣٣٩) وصحيح البخاري (١/٦٤) (٢٧٨)

[ش (سوءة) السوءة هي العورة سميت بذلك لأنه يسوء صاحبها كشفها (آدر) قال أهل اللغة هو عظيم الخصيتين (فجمح) معناه جري أشد الجري (فطفق) معناه جري أشد الجري (فطفق) بكسر الفاء وفتحها لغتان معناه جعل وأقبل وصار ملتزما لذلك (ندب) أي أثر]

(وَإِمَّا أُدْرَةُ) بِضَمِّ الهمزة وسُكُونِ الدَّالِ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَبِفَتْحَتَيْنِ أَيْضًا فِيمَا حَكَاهُ الطَّحَاوِيُّ عَنْ بَعْضِ مَشَايِخِهِ وَرَجَّحَ الْأَوَّلَ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ الْأُدْرَةُ بِالضَّمِّ نَفْخَةٌ فِي الْخُصِيَّةِ يَقَالُ رَجُلٌ آدَرُ بَيْنَ الْأَدَرِ بِفَتْحِ الهمزة والدال.

(فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ) وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ دَخَلَ الْمَاءَ عُرْيَانًا.

(عَدَا ثَوْبُهُ) بِالْعَيْنِ الْمُهِمْلَةِ أَيْ مَضَى مُسْرِعًا.

(ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ) هُوَ بَفَتْحِ الْيَاءِ الْأَخِيرَةِ مِنْ ثَوْبِي أَيْ أَعْطَنِي ثَوْبِي، أَوْ رَدُّ ثَوْبِي، وَحَجَرٌ بِالضَّمِّ عَلَى حَذْفِ حَرْفِ النَّدَاءِ.

(وَابْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ) فَرَّأُوهُ كَأَحْسَنِ الرِّجَالِ خَلَقَ، فَبَرَّأَهُ مِمَّا قَالُوا. ٢٤٦

شرح الحديث:

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: لَمَّا كَانَ مُوسَى فِي خَلْوَةٍ وَخَرَجَ مِنَ الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدْ ثَوْبَهُ تَبِعَ الْحَجَرَ بَنَاءً عَلَى أَنَّ لَا يُصَادَفُ أَحَدًا وَهُوَ عُرْيَانٌ، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ قَوْمٌ فَاجْتَاَزَ بِهِمْ، كَمَا أَنَّ جَوَانِبَ الْأَنْهَارِ وَإِنْ خَلَّتْ غَالِبًا لَا يُؤْمَنُ وَجُودُ قَوْمٍ قَرِيبًا مِنْهُ، فَبَنَى الْأَمْرَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ لِأَجْلِ خَلَاءِ الْمَكَانِ، فَاتَّفَقَ رُؤْيَاهُ مَنْ رَأَاهُ. وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ يَتَّبِعُ الْحَجَرَ عَلَى مَا فِي الْخَبَرِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَجْلِسٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ فِيهِمْ مَنْ قَالَ فِيهِ مَا قَالَ. وَبِهَذَا تَظْهَرُ الْفَائِدَةُ، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ الْقُوفُ عَلَى قَوْمٍ مِنْهُمْ فِي الْجُمْلَةِ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ الْمَوْقِعُ. ٢٤٧

وَقَالَ الْقَارِي: " «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا» " : بِكَسْرِ التَّحْتِيَّةِ الْأُولَى وَبِتَشْدِيدِ الثَّانِيَةِ عَلَى أَنَّهُ فَعِيلٌ أَيْ مُسْتَحْيَا (سَتِيرًا)، بِفَتْحِ السَّيْنِ وَتَحْفِيفِ الْفَوْقِيَّةِ الْمَكْسُورَةِ. قَالَ شَارِحُ أَيْ: مَسْتُورًا، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مُبَالِغَةٌ سَاتِرٌ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا فِي نُسَخَةٍ مِنْ كَسْرِ السَّيْنِ وَالْفَوْقِيَّةِ الْمُشَدَّدَةِ، وَكَأَنَّ الشَّارِحَ جَعَلَ قَوْلَهُ: " لَا يَرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ " : صِفَةً كَاشِفَةً، وَلَيْسَ بِظَاهِرٍ، بَلْ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ بَيَانٌ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ كَثِيرَ التَّسْتُرِ، وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْتُرَ جَمِيعَ بَدَنِهِ عِنْدَ اغْتِسَالِهِ (اسْتِحْيَاءً)، أَيْ مِنْ النَّاسِ (فَادَاهُ، مَنْ آذَاهُ) : بِالْمَدِّ فِيهِمَا أَيْ: مَنْ أَرَادَ إِيْذَاءَهُ (مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا) : جَمْعُ بَاعْتِبَارٍ مَعْنَى مَنْ كَمَا أَفْرَدَ أَوَّلًا بَنَاءً عَلَى لَفْظِهِ، وَنَحْوَهُ كَثِيرٌ فِي التَّنْزِيلِ أَيْ فَقَالَ بَعْضُ الْمُؤْذِنِينَ: (مَا تَسْتُرُ) أَيْ: مُوسَى (هَذَا التَّسْتُرُ) أَيْ: الْبَلِغُ (إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ أَوْ أُدْرَةٌ)، بِضَمِّ هَمْزَةِ وَسُكُونِ دَالِ مُهِمْلَةٍ نَفْخَةٍ بِالْخُصِيَّةِ عَلَى مَا فِي النِّهَايَةِ (وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ)، بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ أَيْ يُبْرِئُهُ عَنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ الْعَيْبِ، وَيُثَبِّتَ لَهُ الْحَيَاءَ مِنْ عَالَمِ الْعَيْبِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} [الْأَحْزَابُ: ٦٩] ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ قَوْلَهُ: وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ هَكَذَا فِي الشَّيْخِ الْمُصَحَّحَةِ بِالْوَاوِ، وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٤٦ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٤٣٦ / ٦) ومنار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣١٥ / ١)

٢٤٧ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٤٣٨ / ٦)

الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: فَإِنَّ اللَّهَ لِلتَّعْقِيبِ، وَأَصْلُ الْكَلَامِ فَقَالُوا: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبَيِّنَ، وَأَتَى بِأَنَّ الْمُؤَكَّدَةَ تَأْكِيدَ اعْتِنَاءِ بِشَأْنِهِ، (فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ) أَي: انْفَرَدَ عَنِ النَّاسِ وَقَفْنَا مَا حَالَ كَوْنِهِ مُنْفَرِدًا (لِيُغْتَسِلَ فَوْضِعَ ثَوْبِهِ عَلَى حَجَرٍ) أَي: بِحُجْبِ الْمَاءِ (فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ)، الْبَاءُ لِلتَّعْدِيدِ أَي: فَأَخَذَهُ فَأَرَا عَنْ مُوسَى، (فَجَمَحَ مُوسَى): بِجِيمٍ وَمِيمٍ وَحَاءٍ مَفْتُوحَاتٍ. أَي: ذَهَبَ وَأَسْرَعَ إِسْرَاعًا لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَهُمْ يَجْمَحُونَ} [التوبة: ٥٧] (فِي أَثَرِهِ): بِفَتْحَتَيْنِ وَقَدْ يُكْسَرُ الْهَمْزُ وَتُسَكَّنُ الْمُثَلَّثَةُ أَي: فِي عَقَبِ الْحَجَرِ (يَقُولُ) أَي: بِلِسَانِ الْمُقَالِ أَوْ بَيَانِ الْحَالِ (تَوْبِي) أَي: أَعْطَنِي تَوْبِي (يَا حَجَرُ تَوْبِي) أَي: مَطْلُوبِي تَوْبِي (يَا حَجَرُ وَالتَّكْرَارُ لِلتَّكْثِيرِ (حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِيهِمُ الْمُؤْذِنَ (فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ): قَالَ الطَّبِيبُ - رَحِمَهُ اللَّهُ: عُرْيَانًا حَالًا. وَكَذَا قَوْلُهُ: "أَحْسَنَ" لِأَنَّ الرُّؤْيَا بِمَعْنَى النَّظَرِ. (وَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ)، أَي: لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ مَا. (وَأَخَذَ ثَوْبَهُ وَطَفِقَ) أَي: شَرَعَ (بِالْحَجَرِ ضَرْبًا أَي: بِضَرْبِهِ ضَرْبًا، فَالْحَجَرُ مُتَعَلِّقٌ بِالْفِعْلِ الْمُقَدَّرِ. كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: {فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} (فَوَاللَّهِ إِنَّ فِي الْحَجَرِ لَنَدْبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ): النَّدْبُ بِفَتْحِ التَّوْنِ وَالذَّالِ أَي: أَثَرًا وَعَلَامَةً بَاقِيَةً مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، وَأَصْلُ النَّدْبِ أَثَرُ الْجُرْحِ، إِذَا لَمْ يَرْتَفِعْ عَنِ الْجِلْدِ، فَشَبَّ بِهِ أَثَرُ الضَّرْبِ بِالْحَجَرِ وَقَوْلُهُ: (ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا). مُتَعَلِّقٌ بِالضَّرْبِ أَوْ النَّدْبِ وَالشَّكُّ مِنَ الرَّأْيِ.

قَالَ الطَّبِيبُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَوْلُهُ: ثَلَاثًا أَوْ نَدَبَاتٍ. ثَلَاثًا بَيَانًا وَتَفْسِيرًا لِاسْمِ إِنْ، وَضَرْبُهُ هَذَا مِنْ أَنْرِ غَضَبِهِ عَلَى الْحَجَرِ لِأَجْلِ فِرَارِهِ، وَقِلَّةِ أَذْبِهِ، وَلَعَلَّهُ ذَهَلَ عَنْ كَوْنِهِ مَأْمُورًا، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا، وَفِيهِ مَا أَخَذَ الْعُلَمَاءُ الْأَنَامَ عَلَى أَنْ ضَرَرَ الْخَاصُّ يُتَحَمَّلُ لِنَفْعِ الْعَامِّ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالْمَرَامِ، ثُمَّ قِيلَ: إِنَّ مُوسَى أَمَرَ بِحَمْلِ الْحَجَرِ مَعَهُ إِلَى أَنْ كَانَ فِي التَّيِّهِ فَضْرَبَهُ بِعَصَاهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّاتٍ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا.

قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ^{٢٤٨}: فِيهِ مُعْجَزَتَانِ ظَاهِرَتَانِ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. إِحْدَاهُمَا مَشْيُ الْحَجَرِ بِثَوْبِهِ، وَالثَّانِيَةُ حُصُولُ النَّدْبِ فِي الْحَجَرِ بِضَرْبِهِ، وَفِيهِ حُصُولُ التَّمْيِيزِ فِي الْجَمَادِ، وَفِيهِ جَوَازُ الْغُسْلِ عُرْيَانًا فِي الْخُلُوةِ، وَإِنْ كَانَ سَتَرُ الْعَوْرَةِ أَفْضَلَ، وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَخَالَفَهُمُ ابْنُ أَبِي لَيْلَى وَقَالَ: إِنَّ لِلْمَاءِ سَاكِنًا. قُلْتُ: إِمَامُنَا الْأَعْظَمُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَعَ الْجُمْهُورِ، وَظَاهِرُ مُخَالَفَةِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى فِي دُخُولِ الْمَاءِ. قَالَ: وَفِيهِ ابْتِلَاءُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ أَدَى السُّفَهَاءِ وَالْجُهَالَةِ وَصَبْرُهُمْ عَلَيْهِ، وَفِيهِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْزَهُونَ عَنِ النَّقَائِصِ فِي الْخَلْقِ، وَالْخَلْقِ سَالِمُونَ مِنَ الْعَاهَاتِ وَالْمَعَايِبِ، اللَّهُمَّ إِلَا عَلَى سَبِيلِ الْإِبْتِلَاءِ.^{٢٤٩}

من فوائد الحديث:

^{٢٤٨} - شرح النووي على مسلم (١٥/١٢٧)

^{٢٤٩} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/٣٦٤٢)

- ١- جَوَّازُ الْمَشْيِ عُرْيَانًا لِلضَّرُورَةِ.
- ٢- وَفِيهِ جَوَّازُ النَّظَرِ إِلَى الْعَوْرَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ لِذَلِكَ مِنْ مُدَاوَاةٍ أَوْ بَرَاءَةٍ مِنْ عَيْبٍ، كَمَا لَوْ ادَّعَى أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ عَلَى الْآخَرِ الْبَرَصَ لِيَفْسَخَ النِّكَاحَ فَاتَّكَرَ.
- ٣- وَفِيهِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ عَلَى غَايَةِ الْكَمَالِ، وَأَنَّ مَنْ نَسَبَ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى نَقْصٍ فِي خَلْقِهِ فَقَدْ آذَاهُ وَيُخْشَى عَلَى فَاعِلِهِ الْكُفْرُ.
- ٤- وفيه معجزة ظاهرة لموسى عليه الصلاة والسلام ولاسيما تأثير ضربه بالعصا على الحجر مع علمه بأنه ما سار بشوبه إلا بأمر من الله تعالى.
- ٥- وَفِيهِ مَا كَانَ فِي الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْجُهَالِ وَاحْتِمَالِ آذَاهُمْ، وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَاقِبَةَ لَهُمْ عَلَى مَنْ آذَاهُمْ^{٢٥٠}.



^{٢٥٠} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٦ / ٤٣٨)

قصة الرجل الذي تصدق على السارق والزانية والغني

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيِ غَنِيِّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ عَلَى غَنِيِّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيِّ، فَأَتَيْتِ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَغْفِرَ عَنْ زَنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيَنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ ^{٢٥١} .

شرح المفردات:

قال ابن حجر : (قَالَ رَجُلٌ) لَمْ أَقِفْ عَلَى إِسْمِهِ ، وَوَقَعَ عِنْدَ أَحْمَدَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ لَهِيْعَةَ عَنْ الْأَعْرَجِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .
(لَأَتَصَدَّقَنَّ) مِنْ بَابِ الْتَزَامٍ كَالْتَذَرِ مَثَلًا، وَالْقَسَمُ فِيهِ مُقَدَّرٌ كَأَنَّهُ قَالَ: وَاللَّهِ لَأَتَصَدَّقَنَّ .
(فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ) أَيِ : وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ سَارِقٌ .
(تُصَدِّقُ) بَضَمٍّ أَوَّلُهُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ .
(فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ) لِأَنَّ صَدَقَتِي وَقَعَتْ بِيَدِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا، فَلَكَ الْحَمْدُ حَيْثُ كَانَ ذَلِكَ بِإِرَادَتِكَ لَا بِإِرَادَتِي ، فَإِنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ كُلَّهَا حَمِيلَةٌ .
وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ» ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ» ^{٢٥٢} .
(أُتِيَ) أَيِ : أُرِيَ فِي الْمَنَامِ أَوْ سَمِعَ هَاتِفًا مَلَكًا أَوْ غَيْرَهُ أَوْ أَخْبَرَهُ نَبِيٌّ أَوْ أَفْتَاهُ عَالِمٌ، وَقِيلَ: أَوْ أَتَاهُ مَلَكٌ فَكَلَّمَهُ، فَقَدْ كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ تُكَلِّمُ بَعْضَهُمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، - قال الحافظ ابن حجر - وَقَدْ ظَهَرَ بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا كُلُّهَا لَمْ تَقَعْ إِلَّا النَّقْلُ الْأَوَّلُ ^{٢٥٣} .

المعنى العام للحديث :

^{٢٥١} - صحيح البخاري (١١١/٢) (١٤٢١) وصحيح مسلم (٧٨/٢) (١٠٢٢) -

(رجل) قيل إنه من بني إسرائيل. (في يد سارق) أي وهو يظنه فقيرًا ولا يعلم أنه سارق وكذلك الزانية والغني. (فأصبحوا) القوم الذين فيهم هذا الرجل المتصدق. (فأتى) رأى في المنام]

^{٢٥٢} - سنن ابن ماجه (١٢٥٠/٢) (٣٨٠٣) حسن

^{٢٥٣} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٢٩٠/٣)

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: قَالَ رَجُلٌ) أَي: مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فِي نَفْسِهِ أَوْ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ أَوْ فِي نَدَائِهِ حَالِ دُعَائِهِ (لَأَتَصَدَّقَنَّ) أَي: اللَّيْلَةَ (بِصَدَقَةٍ) أَي: عَظِيمَةٍ وَاقِعَةٍ مَوْفَعَهَا لِيَتَعَلَّقَ بِهَا قَبُولُ عَظِيمٍ (فَخَرَجَ) أَي: مِنْ بَيْتِهِ (بِصَدَقَتِهِ) أَي: الَّتِي نَوَى بِهَا لِيُعْطِيَهَا مُسْتَحِقَّهَا (فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ) مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ بِهِ أَنَّهُ سَارِقٌ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لَهَا، فَأَذَاعَ السَّارِقُ بِأَنَّهُ تُصَدَّقُ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ (فَأَصْبَحُوا) أَي: النَّاسُ (يَتَحَدَّثُونَ) بَعْضُهُمْ مِنَ السَّارِقِ أَوْ بِالْهَامِ الْخَالِقِ، وَالْمَعْنَى فَصَارَ النَّاسُ مُتَحَدِّثِينَ، أَوْ مَعْنَاهُ دَخَلُوا فِي الصَّبَاحِ حَالِ كَوْنِهِمْ قَائِلِينَ تَعَجُّبًا أَوْ إِنْكَارًا (تُصَدَّقُ اللَّيْلَةَ) ظَرْفٌ (عَلَى سَارِقٍ) نَائِبُ الْفَاعِلِ أَوْ هُوَ («بِصَدَقَةٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ») أَي: عَلَى تَصَدَّقِي عَلَى سَارِقٍ، قَالَ الطَّبِيُّ: لَمَّا جَزَمَ بِوَضْعِهَا فِي مَوْضِعِهَا كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ تَنْكِيرُ بِصَدَقَةٍ جُوزِي بِوَضْعِهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَشَكَرَهُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ عَلَى مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْهُ، وَقِيلَ: هُوَ تَعَجُّبٌ مِنْ فِعْلِ نَفْسِهِ كَمَا تَعَجَّبُوا مِنْ فِعْلِهِ، فَذَكَرَ الْحَمْدُ فِي مَوْضِعِ التَّعَجُّبِ كَمَا يُذَكِّرُ التَّسْبِيحُ فِي مَوْضِعِهِ («لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ») أَي: أُخْرَى لَعَلَّهَا تَقَعُ فِي مَحَلِّهَا («فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ») أَي: تَعَجُّبًا أَوْ إِنْكَارًا («تُصَدَّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصَدَّقُ») أَي: اللَّيْلَةَ كَمَا فِي نُسخَةِ («عَلَى غَنِيٍّ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَزَانِيَةٍ وَغَنِيٍّ») فَذَلِكَ فَذَلِكَ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى حَمْدِهِ - تَعَالَى - وَنَنَائِهِ تَفْوِيضًا وَتَسْلِيمًا لِقَضَائِهِ فَجُوزِي عَلَى ذَلِكَ الْمَقَامِ بِتَمَامِ نِظَامِ الْمَرَامِ (فَأُتِيَ) فَأَرَى فِي الْمَنَامِ (فَقِيلَ لَهُ) أَي: صَدَقَاتُكَ مَقْبُولَةٌ، وَكُلُّهَا فِي مَوَاضِعِهَا مَوْضُوعَةٌ («أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ») فَلَا تَخْلُوا عَنْ مَثُوبَةٍ مُتَضَمِّنَةٍ لِحِكْمَةٍ («فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ») إِمَّا مُطْلَقًا أَوْ مُدَّةَ الْاِكْتِفَاءِ («وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا») وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْغَالِبَ فِي السَّارِقِ وَالزَّانِيَةِ أَنَّهُمَا يَرْتَكِبَانِ الْمَعْصِيَةَ لِلْحَاجَةِ وَهُوَ أَحَدُ مَعَانِي مَا وَرَدَ: كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا («وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ») أَي: يَتَعَطَّى وَيَتَذَكَّرُ («فَيَنْفِقَ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ») اَعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا دَفَعَ الزَّكَاةَ لِمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ فَقِيرٌ ثُمَّ ظَهَرَ أَنَّهُ غَنِيٌّ لَا يُعِيدُهَا، خِلَافًا لِأَبِي يُوسُفَ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَرِدُّ مَا أَدَّاهُ، وَهَلْ يَطِيبُ لِلْقَابِضِ إِذَا ظَهَرَ الْحَالُ؟ لَا رَوَايَةَ فِيهِ وَاخْتَلَفَ فِيهِ، وَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ لَا يَطِيبُ يَتَصَدَّقُ، وَقِيلَ يَرُدُّهُ لِلْمُعْطِي عَلَى وَجْهِ التَّمْلِيكِ لِيُعِيدَ الْأَدَاءَ لِأَبِي يُوسُفَ أَنَّهُ ظَهَرَ خَطْؤُهُ بَيِّقِينَ مَعَ إِمْكَانِ الْوُقُوفِ عَلَى الصَّوَابِ فَصَارَ كَمَا لَوْ تَوَضَّأَ بِمَاءٍ أَوْ صَلَّى فِي ثَوْبٍ ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّهُ نَجَسٌ، وَلَهُمَا مَا رَوَى الْبُخَارِيُّ «عَنْ مَعْنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - أَنَا وَأَبِي وَجَدِّي، وَخَطَبَ عَلَيَّ فَأُنْكَحَنِي، وَخَاصَمْتُ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبِي يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَجِئْتُ فَأَخَذْتُهَا فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا إِلَيْكَ أَرَدْتُ، فَخَاصَمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: " يَا يَزِيدُ لَكَ مَا نَوَيْتَ وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعْنُ" اهـ. وَهُوَ وَإِنْ كَانَ وَاقِعَةً حَالٍ يَجُوزُ فِيهَا كَوْنُ تِلْكَ الصَّدَقَةِ

كَانَتْ نَفْلًا لَكِنَّ عُمُومَ لَفْظِ مَا فِي قَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : «لَكَ مَا نَوَيْتَ» " يُفِيدُ الْمَطْلُوبَ، كَذَا حَقَّقَهُ ابْنُ الْهَمَامِ .^{٢٥٤}

من فوائد الحديث:

١- فِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ كَانَتْ عِنْدَهُمْ مُخْتَصَّةً بِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، وَلِهَذَا تَعَجَّبُوا مِنَ الصَّدَقَةِ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ.

٢- وَفِيهِ أَنَّ نِيَّةَ الْمُتَصَدِّقِ إِذَا كَانَتْ صَالِحَةً قُبِلَتْ صَدَقَتُهُ وَلَوْ لَمْ تَقَعِ الْمَوْقِعَ. وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْإِجْرَاءِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي زَكَاةِ الْفَرَضِ. فَمِنْ أَخْطَأَ فِي صَدَقَتِهِ أَوْ زَكَاتِهِ فَأَعْطَاهَا إِلَى غَنِيٍّ وَهُوَ يَظُنُّهُ فَقِيرًا صَحَّتْ صَدَقَتُهُ، وَأَجْزَأَتُهُ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ، وَذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو يُونُسَ وَالثَّوْرِيُّ إِلَى أَنَّهُمَا لَا تَجْزِئُهُ، وَعَنْ أَحْمَدَ رَوَاتَانِ.^{٢٥٥}

٣- وَفِيهِ فَضْلُ صَدَقَةِ السَّرِّ، وَفَضْلُ الْإِخْلَاصِ، وَاسْتِحْبَابُ إِعَادَةِ الصَّدَقَةِ إِذَا لَمْ تَقَعِ الْمَوْقِعَ، وَأَنَّ الْحُكْمَ لِلظَّاهِرِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ سِوَاهُ، وَبَرَكَةُ التَّسْلِيمِ وَالرِّضَا، وَذَمُّ التَّضَجُّرِ بِالْقَضَاءِ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : (لَا تَقْطَعْ الْخِدْمَةَ وَلَوْ ظَهَرَ لَكَ عَدَمُ الْقَبُولِ).

٤- فَضْلُ الصَّدَقَةِ، وَعَنَايَةُ الشَّرْعِ بِهَا وَتَرْغِيْبُهُ فِيهَا، وَثَنَائُهُ عَلَى أَهْلِهَا؛ لِمَا لَهَا مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ عَلَى الْمُتَصَدِّقِ، وَعَلَى مَنْ تَدْفَعُ إِلَيْهِ، وَعَلَى الْجَمْعِ.

٥- عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَرْكِيةِ نَفْسِهِ بِذِلِّ الْمَالِ إِلَى الْمُحْتَاجِينَ، وَفِي سَائِرِ وَجُوهِ الْبِرِّ، وَأَنْ يَتَحَرَّى مِنْ هُوَ أَكْثَرَ حَاجَةٍ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَتَأَكَّدُ التَّحَرِّيَ فِي الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ بِذِلِّهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا.^{٢٥٦}

٦- الصَّدَقَةُ كَانَتْ عِنْدَهُمْ لَا تَعْطَى إِلَّا لِأَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، أَمَا فِي شَرِيعَتِنَا فَإِنَّهَا تَعْطَى لِلْفَقِيرِ صَالِحًا أَوْ فَاسِقًا. وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى اسْتِحْبَابِ الصَّدَقَةِ عَلَى الْفَاسِقِ إِذَا كَانَتْ تَوْدِي إِلَى إِعْفَافِهِ عَنْ جَرِيمَتِهِ، وَإِصْلَاحِ حَالِهِ.^{٢٥٧}



^{٢٥٤} - مِرْقَاةُ الْمَفَاتِيحِ شَرْحُ مَشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ (٤/ ١٣٢٦) وَانْظُرْ: مَنَارَ الْقَارِي شَرْحُ مَخْتَصَرِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٣/ ١٩)

^{٢٥٥} - مَنَارَ الْقَارِي شَرْحُ مَخْتَصَرِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٣/ ٢١)

^{٢٥٦} - فَتْحُ الْبَارِي شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ - طِ دَارُ الْمَعْرِفَةِ (٣/ ٢٩١) وَدُرُوسُ وَعَبْرُ مِنْ صَحِيحِ الْقِصَصِ النَّبَوِيِّ (ص: ٤٤)

^{٢٥٧} - مَنَارَ الْقَارِي شَرْحُ مَخْتَصَرِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٣/ ٢١)

قصة إيثار صحابي

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاذْطَلِقْ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لَامِرَاتِهِ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتٌ صَبْيَانِي، قَالَ: فَغَلِّبِهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السَّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السَّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَفَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ».^{٢٥٨}

شرح المفردات:

(إِنِّي مَجْهُودٌ) أي: أصابني الجهد، وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع.
(رَحْلِهِ) أي: منزله، ورحل الإنسان هو منزله من حجر أو مدر أو شعر أو وبر.^{٢٥٩}

شرح الحديث :

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ) .
أَيُّ فَقِيرٍ أَصَابَهُ الْجُحْدُ، وَهُوَ الْمَشَقَّةُ وَالْحَاجَةُ أَوْ الْجُوعُ فَأَرْسَلَ ، أَي: النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - (إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ) ، أَي: مِنْ الْأَزْوَاجِ الطَّاهِرَاتِ (فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي) ، أَي: مِنْ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ (إِلَّا مَاءً، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ) . أَي: وَهَكَذَا حَتَّى أَرْسَلَهُ إِلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ (وَقُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ) ، وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ فِي أَوَّلِ الْحَالِ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ خَيْبَرَ وَغَيْرَهَا، وَيَحْصُلَ الْعَنَاءُ وَالْأَمْوَالُ (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : " مَنْ يُضِيفُهُ ") ؟ مِنْ بَابِ التَّفْعِيلِ، وَفِي نُسْخَةٍ مِنْ بَابِ الْإِفْعَالِ وَهُوَ مَرْفُوعٌ، فَمِنْ مَوْصُولَةٍ مُبْتَدَأُ خَبَرُهُ جُمْلَةُ قَوْلِهِ: (" يَرْحَمُهُ اللَّهُ " فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو طَلْحَةَ) ، وَهُوَ زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيُّ، زَوْجُ أُمِّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَسَبَقَ ذِكْرُهُ. (فَقَالَ: أَنَا) ، أَي: أَضِيفُهُ (يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاذْطَلِقْ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ) ، أَي: مَنْزِلِهِ فَقَالَ لَامِرَاتِهِ: وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ أَي: مِنْ الطَّعَامِ (قَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتٌ صَبْيَانِي) : بِالرَّفْعِ، وَقِيلَ بِالنَّصْبِ أَي: إِلَّا قُوتَ الصَّغَارِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُمْ يَجُوعُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَإِلَّا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِجَاعَةُ الصَّبْيَانِ وَإِضَاعَتُهُمْ وَإِطْعَامُ الضَّيْفَانِ وَإِطَاعَتُهُمْ. (قَالَ: فَغَلِّبِهِمْ) ، أَي: سَكَّنِيهِمْ مِنْ عِلَلِهِ بِشَيْءٍ أَي: أَلْهَاهُ (وَنَوِّمِيهِمْ) ، أَي: رَقَدِيهِمْ، وَكَأَنَّهُ قَصَدَ أَنَّهُمْ إِنْ يَرَوْا أَكَلَ الضَّيْفِ فَيَشْتَهُوا كَمَا هُوَ

^{٢٥٨} - صحيح مسلم (٣/ ١٦٢٤) ١٧٢ - (٢٠٥٤) [ش (إني مجهود) أي أصابني الجهد وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع]

^{٢٥٩} - شرح النووي على مسلم (١٤/ ١١)

عَادَةُ الْوُلَادِ (فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَرِيهِ) ، أَي: فَأَحْضِرِيهِ لَأَنَّهَا كَانَتْ عَجُوزًا ، وَالْقَضِيَّةُ قَبْلَ الْحِجَابِ ، وَأَظْهَرِيهِ (أَنَا) ، أَي: جَمِيعَنَا (نَأْكُلُ) ، أَي: مِنْ هَذَا الطَّعَامِ ، فَإِنَّ الضَّيْفَ إِذَا رَأَى أَنَّ أَحَدًا امْتَنَعَ مِنْ الْأَكْلِ رُبَّمَا تَشَوَّشَ خَاطِرُهُ (فَإِذَا أَهْوَى) ، أَي: قَصَدَ الضَّيْفُ وَمَدَّ (بِيَدِهِ لِیَأْكُلَ) ، فَقَوِّمِي إِلَى السَّرَاجِ كَيْ تُصْلِحِيهِ) ، أَي: لِإِصْلَاحِهِ فَكَيْ تَعْلِيَّتُهُ (فَأُطْفِئِيهِ) ، أَي: لِيَقَعَ الظَّلَامُ فَلَا يَطْلُعَ عَلَى امْتِنَاعِنَا مِنْ أَكْلِ الطَّعَامِ (فَفَعَلْتُ) ، فَقَعْدُوا) ، أَي: ثَلَاثَتِهِمْ (وَأَكَلَ الضَّيْفُ) ، وَبَاتَا طَاوِئِينَ) ، أَي: جَائِعِينَ (فَلَمَّا أَصْبَحَ) ، أَي: الضَّيْفُ. قَالَ الطَّبِيبُ: هِيَ هَاهُنَا تَامَةٌ وَقَوْلُهُ (غَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) : جَوَابُ لَمَّا وَضَمَّنَ فِيهِ مَعْنَى. الْإِقْبَالِ أَي: لَمَّا دَخَلَ فِي الصَّبَاحِ أَقْبَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - غَدَايَا هـ. وَفِي أَكْثَرِ النُّسخِ الْمُصَحَّحَةِ: إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَالْمَعْنَى ذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فِي الْغَدْوَةِ (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) ، أَي: بِنُورِ الْكُشْفِ أَوْ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ (" لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ أَوْ ضَحِكَ اللَّهُ) : وَالْمَعْنَى رَضِيَ (" مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ ") . أَي: أَبِي طَلْحَةَ وَامْرَأَتِهِ.

(وَفِي رِوَايَةٍ مِثْلُهُ) بِالرَّفْعِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ أَي: مِثْلَ مَا ذُكِرَ مِنَ الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ (وَلَمْ يُسَمَّ أَبَا طَلْحَةَ) أَي: فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ (وَفِي آخِرِهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: وَيُؤْتِرُونَ، أَي: أَضْيَافَهُمْ أَوْ غَيْرَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَي: عَلَى حُظُوظِهَا وَلَوْ كَانَ، أَي: وَقَعَ بِهِمْ خِصَاصَةٌ أَي: حَاجَةٌ وَمَجَاعَةٌ. قَالَ الطَّبِيبُ: وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَلَوْ بِمَعْنَى الْفَرَضِ أَي: يُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَفْرُوضَةً خِصَاصَتُهُمْ. ٢٦٠

من فوائد الحديث:

- ١- فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَهْلُ بَيْتِهِ مِنَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالصَّبْرِ عَلَى الْجُوعِ وَضِيقِ حَالِ الدُّنْيَا.
- ٢- وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِكَبِيرِ الْقَوْمِ أَنْ يَبْدَأَ فِي مُوَاسَاةِ الضَّيْفِ وَمَنْ يَطْرُقُهُمْ بِنَفْسِهِ فَيُؤَاسِيهِ مِنْ مَالِهِ أَوَّلًا بِمَا يَتَيَسَّرُ إِنْ أَمَكَّنَهُ، ثُمَّ يَطْلُبُ لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْبَرِّ وَالتَّقْوَى مِنْ أَصْحَابِهِ.
- ٣- وَمِنْهَا الْمُوَاسَاةُ فِي حَالِ الشَّدَائِدِ.
- ٤- وَمِنْهَا فَضِيلَةُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَإِثَارِهِ.
- ٥- وَمِنْهَا مَنْقَبَةُ لِهَذَا الْأَنْصَارِيِّ وَامْرَأَتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
- ٦- وَمِنْهَا الْإِحْتِيَالُ فِي إِكْرَامِ الضَّيْفِ إِذَا كَانَ يَمْتَنِعُ مِنْهُ رَفَقًا بِأَهْلِ الْمَنْزِلِ لِقَوْلِهِ: أَطْفِئِي السَّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ، فَإِنَّهُ لَوْ رَأَى قَلَّةَ الطَّعَامِ، وَأَنَّهُمَا لَا يَأْكُلَانِ مَعَهُ لَامْتَنَعَ مِنَ الْأَكْلِ.
- ٧- قول الأنصاري لامرأته: فعليهم بشيء محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الأكل وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع يضرهم فإنهم لو كانوا على حاجة بحيث يضرهم ترك الأكل لكان إطعامهم واجباً ويجب تقديمه على الضيافة.

٨- وفيه فضيلة الإيثار والحثّ عليه، وقد أجمع العلماء على فضيلة الإيثار بالطعام ونحوه من أمور الدنيا، وحُظوظ النفوس، وأما القربات فالأفضل أن لا يُؤثر بها؛ لأنّ الحقّ فيها لله تعالى، والله أعلم^{٢٦١}.

وقال ابن القيم رحمه الله: "[فصل في كمال محبة الصديق له ﷺ] ومنها: كمال محبة الصديق له، وقصده التّقرّب إليه والتّجيب بكلّ ما يُمكنه، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يشرّ النبيّ - ﷺ - بقُدوم وفد الطّائِف، ليكون هو الذي بشره وفرّحه بذلك، وهذا يدلّ على أنّه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثّرهُ بقرية من القرب، وأنّه يجوز للرجل أن يؤثّر بها أخاه، وقول من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب لا يصحّ.

وقد آثرت عائشة عمر بن الخطّاب بدفنه في بيتها جوار النبيّ - ﷺ -، وسألها عمر ذلك فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل، وعلى هذا فإذا سأل الرجل غيره أن يؤثّرهُ بمقامه في الصّفّ الأوّل، لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل ونظائره.

ومن تأمل سيرة الصحابة، وجدّهم غير كارهين لذلك، ولا مُمتنعين منه، وهل هذا إلّا كرم وسخاء، وإيثار على النفس، بما هو أعظم محبوباتها، تفرّجاً لأخيه المسلم، وتَعْظيماً لقدّره، وإجابة له إلى ما سألهُ، وترغيباً له في الخير، وقد يكون ثواب كلّ واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القرية، فيكون المؤثّر بها ممن تاجر فبذل قريةً وأخذ أضعافها، وعلى هذا فلا يمتنع أن يؤثّر صاحب الماء بمائه أن يتوضأ به ويَتيمّم هو إذا كان لا بدّ من تيمّم أحدهما، فأثر أخاه وحاز فضيلة الإيثار وفضيلة الطهر بالتراب، ولا يمتنع هذا كتاب ولا سنة، ولا مكارم أخلاق، وعلى هذا، فإذا اشتدّ العطش بجماعة وعانوا التّلف، ومع بعضهم ماء، فأثر على نفسه واستسلم للموت كان ذلك جائزاً، ولم يقلّ أنّه قاتل لنفسه، ولا أنّه فعل محرّماً، بل هذا غاية الجود والسّخاء، كما قال تعالى: {ويؤثّرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} [الحشر: ٩] [الحشر: ٩]، وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشّام، وعدّ ذلك من مناقبهم وفضائلهم، وهل إهداء القرب المُجمّع عليها والمُتنّازع فيها إلى الميت إلّا إيثار بثوابها، وهو عين الإيثار بالقرب، فأبى فرق بين أن يؤثّرهُ بفعلها ليحرز ثوابها، وبين أن يعمل ثم يؤثّرهُ بثوابها، وبالله التّوفيق.^{٢٦٢}

وقال أيضاً: "وتأمل أحوال أكثر الخلق في إيثارهم على الله من يضُرُّهم إيثارهم له ولا ينفعهم. وأي جهالة وسفه فوق هذا؟

^{٢٦١} - النووي شرح صحيح مسلم (١٤/١٢)، واختار ابن القيم - رحمه الله - جواز الإيثار بالقرب، وذكر أدلة ذلك وشواهد من فعل الصحابة رضي الله عنهم، انظر: زاد المعاد (٣/٤٤٢).

^{٢٦٢} - زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٤٤٢)

وَمِنْ هَذَا تَكَلَّمَ الْفَقْهَاءُ فِي الْإِثَارِ بِالْقُرْبِ. وَقَالُوا: إِنَّهُ مَكْرُوهٌ أَوْ حَرَامٌ. كَمَنْ يُؤْثِرُ بِالصَّفِّ الْأَوَّلِ غَيْرَهُ وَيَتَأَخَّرُ هُوَ، أَوْ يُؤْثِرُهُ بِقُرْبِهِ مِنَ الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، أَوْ يُؤْثِرُ غَيْرَهُ بِالْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، أَوْ يُؤْثِرُهُ بِعِلْمٍ يَحْرِمُهُ نَفْسَهُ، وَيَرْفَعُهُ عَلَيْهِ، فَيَفُوزُ بِهِ دُونَهُ.

وَتَكَلَّمُوا فِي إِثَارِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِدَفْنِهِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حُجْرَتِهَا.

وَأَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّ الْمَيِّتَ يَنْقَطِعُ عَمَلُهُ بِمَوْتِهِ وَيَقْرُبُهُ. فَلَا يُتَصَوَّرُ فِي حَقِّهِ الْإِثَارُ بِالْقُرْبِ بَعْدَ الْمَوْتِ. إِذْ لَا تَقْرُبَ فِي حَقِّ الْمَيِّتِ. وَإِنَّمَا هَذَا إِثَارٌ بِمَسْكَنِ شَرِيفٍ فَاضِلٍ لِمَنْ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْهَا. فَالْإِثَارُ بِهِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْتِرِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.^{٢٦٣}

٩- حقيقة الإيثار بذل محاب النفس من الأموال وغيرها للغير مع الحاجة إليها، وأجل أنواع الإيثار وأرفع درجاته إيثار رضا الله عز وجل على غيره ولو أغضب الخلق جميعاً، ففي مدارج السالكين: "قَالَ الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: إِثَارُ رِضَا اللَّهِ عَلَى رِضَا غَيْرِهِ. وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ الْمِحْنُ. وَنَقَلَتْ فِيهِ الْمُؤْنُ، وَضَعُفَ عَنْهُ الطَّوْلُ وَالْبَدَنُ.

إِثَارُ رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى غَيْرِهِ: هُوَ أَنْ يُرِيدَ وَيَفْعَلَ مَا فِيهِ مَرْضَاتُهُ، وَلَوْ أَغْضَبَ الْخَلْقَ. وَهِيَ دَرَجَةُ الْأَنْبِيَاءِ. وَأَعْلَاهَا لِلرُّسُلِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ. وَأَعْلَاهَا لِلْأُولَى الْعَزْمُ مِنْهُمْ. وَأَعْلَاهَا لِنَبِيِّنَا ﷺ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ. فَإِنَّهُ قَاوَمَ الْعَالَمَ كُلَّهُ. وَتَجَرَّدَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ. وَاحْتَمَلَ عِدَاوَةَ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ فِي اللَّهِ تَعَالَى. وَآثَرَ رِضَا اللَّهِ عَلَى رِضَا الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ. وَلَمْ يَأْخُذْهُ فِي إِثَارِ رِضَا لَوْمَةٌ لَائِمٌ. بَلْ كَانَ هَمُّهُ وَعَزْمُهُ وَسَعْيُهُ كُلُّهُ مَقْصُوراً عَلَى إِثَارِ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَتَبْلِيغِ رِسَالَاتِهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَاتِهِ، وَجِهَادِ أَعْدَائِهِ. حَتَّى ظَهَرَ دِينُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ. وَقَامَتْ حُجَّتُهُ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَتَمَّتْ نِعْمَتُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. فَبَلَغَ الرِّسَالََةَ. وَأَدَّى الْأَمَانَةَ. وَنَصَحَ الْأُمَّةَ. وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ. وَعَبَدَ اللَّهَ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ. فَلَمْ يَنْلِ أَحَدٌ مِنْ دَرَجَةِ هَذَا الْإِثَارِ مَا نَالَ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.^{٢٦٤}

١٠- على المسلم أن يجتهد في التأسي بالنبي ﷺ وصحابته فيأخذ بهذا الخلق الرفيع ولا سيما مع أخوانه وأصدقائه وأقاربه.

قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} [الأحزاب: ٢١]

يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّأْسِي بِهِ فِي صَبْرِهِ وَمَصَابِرَتِهِ وَمُرَابِطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَظْهَرُوا الضَّجَرَ وَتَزَلُّوْا وَاضْطَرُّوْا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ

^{٢٦٣} - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٢٨٤)

^{٢٦٤} - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٢٨٥)

بِرَسُولِ اللَّهِ، وَتَأْسَيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ فَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ إِنْ كُنْتُمْ تَبْتَغُونَ ثَوَابَ اللَّهِ، وَتَخَافُونَ
عِقَابَهُ، وَتَذْكُرُونَ اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا^{٢٦٥}



^{٢٦٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٣٥، بترقيم الشاملة آليا)

قصة سليمان عليه السلام حينما قال: لأطوفن الليلة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ: سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلَّا وَاحِدًا، سَاقِطًا أَحَدُ شَقِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ قَالَهَا لَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ "٢٦٦".

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيُّ اللَّهِ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بَعْلًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ - أَوْ الْمَلِكُ - : قُلْ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةً مِنْ نِسَائِهِ إِلَّا وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " وَلَوْ قَالَ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَحْتِثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ "٢٦٧

شرح المفردات:

قال ابن حجر:

(لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ) طَافَ بِالشَّيْءِ وَأَطَافَ بِهِ إِذَا دَارَ حَوْلَهُ وَتَكَرَّرَ عَلَيْهِ، وَهُوَ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ، وَاللَّامُ جَوَابُ الْقَسَمِ وَهُوَ مَحْذُوفٌ، أَي: وَاللَّهِ لَأَطُوفَنَّ.

(عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً) وَفِي رَوَايَةٍ "تَسْعِينَ".

(تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) هَذَا قَالَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّمَنِّيِ لِلْخَيْرِ، وَإِنَّمَا جَزَمَ بِهِ لِأَنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ، لِكُونِهِ قَصْدٌ بِهِ الْخَيْرِ وَأَمْرُ الْآخِرَةِ لَا لِعَرَضِ الدُّنْيَا. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: نَبَهُ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى آفَةِ التَّمَنِّيِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ التَّفْوِيزِ، قَالَ: وَلِذَلِكَ نَسِيَ الْإِسْتِثْنَاءَ لِيَمْضِيَ فِيهِ الْقَدَرُ. (فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ) فِي رَوَايَةٍ مَعْمَرٌ عَنْ طَاوُسٍ " فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ ".

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: قِيلَ: الْمُرَادُ بِصَاحِبِهِ الْمَلِكُ، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ لَفْظِهِ، وَقِيلَ: الْقَرِينُ، وَقِيلَ: صَاحِبُ لَهُ آدَمِيٍّ. قُلْتُ: لَيْسَ بَيْنَ قَوْلِهِ صَاحِبُهُ وَالْمَلِكُ مُتَّفَاقَةً، إِلَّا أَنَّ لَفْظَةَ " صَاحِبِهِ " أَعَمُّ، فَمِنْ ثَمَّ نَشَأَ لَهُمُ الْإِحْتِمَالُ، وَلَكِنَّ الشَّكَّ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْحَزْمِ، فَمَنْ جَزَمَ بِأَنَّهُ الْمَلِكُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَجْزِم. (فَلَمْ يَقُلْ) قَالَ عِيَّاضُ: بَيَّنَّ فِي الطَّرِيقِ الْآخَرَى بِقَوْلِهِ: " فَتَسِي " . وَهِيَ رَوَايَةُ مَعْمَرٍ قَالَ: " وَنَسِيَ أَنْ يَقُولَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ "٢٦٨.

شرح الحديث :

٢٦٦ - صحيح البخاري (٤/ ١٦٢) (٣٤٢٤)

٢٦٧ - صحيح مسلم (٣/ ١٢٧٥) ٢٣ - (١٦٥٤)

[ش (وكان له دركا في حاجته) أي سبب إدراك لها ووصول إليها وقال النووي هو اسم من الإدراك أي لحاقا قال الله تعالى لا تخاف دركا]

٢٦٨ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٦/ ٤٦١)

(وَعَنْهُ) أَي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأَطُوفَنَّ " : الطَّوْفُ هَذَا كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ، وَالْمَعْنَى وَاللَّهُ لَأُدُورَنَّ (اللَّيْلَةَ) أَي: الْآتِيَةَ (عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً - وَفِي رِوَايَةٍ: بِمِائَةِ امْرَأَةٍ) : قَالَ الْحَافِظُ الْعَسْقَلَانِيُّ: فِيهِ رَوَايَاتٌ سِتُونَ وَسَبْعُونَ وَتِسْعُونَ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ وَمِائَةٌ، وَالْجَمْعُ أَنَّ السِّتِينَ كُنَّ حَرَائِرَ، وَمَا زَادَ كُنَّ سَرَائِرَ، وَبِالْعَكْسِ. وَأَمَّا السَّعُونَ، فَلِلْمُبَالَغَةِ، وَأَمَّا التَّسْعُونَ وَالْمِائَةُ وَفَوْقَ التَّسْعِينَ فَمَنْ قَالَ: تِسْعُونَ أَلْعَى الْكُسْرَ، وَمَنْ قَالَ: مِائَةٌ أَتَى بِالْجَبْرِ (كُلُّهُنَّ) أَي: كُلُّ وَاحِدَةٍ (تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) : وَهَذِهِ نَبْهٌ حَسَنَةٌ إِلَّا أَنَّهَا غَيْرُ مَبْنِيَّةٍ عَلَى الْمَشْيِئَةِ. (فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ) أَي: الْمُوَكَّلُ عَلَى يَمِينِهِ، أَوْ جَبْرِيلُ، أَوْ غَيْرُهُمَا، أَوْ الْمُرَادُ بِهِ إِنْهَامُهُ أَوْ إِلْهَامُهُ (قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ) أَي: اكْتَفَاءً بِمَا فِي الْجَنَانِ عَنِ الْبَيَانِ بِاللِّسَانِ (وَنَسِيَ) كَعَلِمَ، وَرَوِيَ بِضَمِّ الثُّونِ وَتَشْدِيدِ السِّينِ، وَهُوَ أَحْسَنُ أَي: حَصَلَ لَهُ التَّسْيَانُ بِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ أَكْمَلُ عِنْدَ أَرْبَابِ الْجَمْعِ وَأَصْحَابِ الْعُرْفَانِ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ وَنَسِيَ، (فَطَافَ عَلَيْهِنَّ، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ) أَي: لَمْ تَحْبَلْ (إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ)، أَي: بِنَصْفِهِ، أَوْ بَعْضِهِ حَيْثُ عَدَلَ عَنْ شَتَّى الصَّوَابِ وَصَوَّبِ الْكَمَالِ، (وَأَيُّمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ)، تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى أَيُّمُ لَفْظًا وَمَعْنَى، وَقَالَ الثَّوْرِبَشْتِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ: هُنَا الْأَصْلُ. فِي " أَيُّمُ " اللَّهُ أَيُّمُنُ اللَّهُ حُذِفَ مِنْهُ الثُّونُ، وَهُوَ اسْمٌ وَضِعَ لِلْقِسْمِ هَكَذَا بِضَمِّ الْمِيمِ وَالثُّونِ، وَأَلْفُهُ أَلْفٌ وَصَلَّ عِنْدَ أَكْثَرِ النُّحَوِيِّينَ، وَلَمْ تَجِئْ فِي الْأَسْمَاءِ أَلْفُ الْوَصْلِ مَفْتُوحَةً غَيْرَهَا، وَتَقْدِيرُهُ أَيُّمُنُ اللَّهُ قَسَمِي، وَإِذَا حُذِفَ عَنْهُ الثُّونُ قِيلَ: أَيُّمُ اللَّهُ وَأَيُّمُ اللَّهُ بِكُسْرِ الهمزة أَيْضًا (لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا) أَي: لَوْ جِدُوا وَوُلِدُوا وَكَبُرُوا وَقَاتَلُوا الْكُفَّارَ (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَي: طَرِيقَ رِضَاهُ (فَرَسَاتًا) : حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ جَاهَدُوا (أَجْمَعُونَ) : تَأْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَوِيهِ أَجْمَعِينَ عَلَى الْحَالِ، وَالرَّوَايَةُ الْمُعْتَدُّ بِهَا أَجْمَعُونَ بِالرَّفْعِ. قِيلَ: وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ عَقِيبَ قَوْلِهِ إِنِّي أَعْمَلُ كَذَا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَبَرُّكًا وَتَيَمُّنًا وَتَسْهِيلًا لِذَلِكَ الْعَمَلِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى؟ {وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا - إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الكهف: ٢٣ - ٢٤]. ٢٦٩.

من فوائد الحديث:

- ١ - فَضَّلَ فِعْلَ الْخَيْرِ وَتَعَاطَى أَسْبَابَهُ، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُبَاحِ وَالْمَلَاذِ يَصِيرُ مُسْتَحَبًّا بِالنِّيَّةِ وَالْقَصْدِ.
- ٢ - وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ الْاسْتِثْنَاءِ لِمَنْ قَالَ سَأَفْعَلُ كَذَا، وَأَنَّ إِتْبَاعَ الْمَشْيِئَةِ الْيَمِينِ (أَنْ يَقُولَ بَعْدَ الْحَلْفِ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ) يَرْفَعُ حُكْمَهَا، وَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بِشَرْطِ الْإِتِّصَالِ.
- ٣ - وَفِيهِ مَا خَصَّ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْجَمَاعِ الدَّالُّ ذَلِكَ عَلَى صِحَّةِ الْبَنِيَّةِ وَقُوَّةِ الْفُحُولِيَّةِ وَكَمَالِ الرُّجُولِيَّةِ مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعَالِ بِالْعِبَادَةِ وَالْعُلُومِ. وَقَدْ وَقَعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ أَبْلَغُ

الْمُعْجِزَةِ لَأَنَّهُ - مَعَ اسْتِعَالِهِ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ وَعُلُومِهِ وَمُعَالَجَةِ الْخَلْقِ - كَانَ مُتَقَلِّلاً مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ الْمُقْتَضِيَةِ لَضَعْفِ الْبَدَنِ عَلَى كَثْرَةِ الْجَمَاعِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ فِي لَيْلَةٍ بِغُسْلٍ وَاحِدٍ وَهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، وَيُقَالُ: إِنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ أَتَقَى لِلَّهِ فَشَهْوَتَهُ أَشَدَّ لَأَنَّ الَّذِي لَا يَتَّقِي يَتَفَرَّجُ بِالنَّظَرِ وَنَحْوِهِ.

٤ - وَفِيهِ جَوَازُ الْإِخْبَارِ عَنِ الشَّيْءِ وَوُقُوعِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِنَاءً عَلَى غَلَبَةِ الظَّنِّ فَإِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَزَمَ بِمَا قَالَ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ وَحْيٍ وَإِلَّا لَوَقَعَ.

٥ - وَفِيهِ جَوَازُ السَّهْوِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي عُلوِّ مَنْصِبِهِمْ.

٦ - وَفِيهِ جَوَازُ الْإِخْبَارِ عَنِ الشَّيْءِ أَنَّهُ سَيَقَعُ وَمُسْتَنَدُ الْمُخْبِرِ الظَّنُّ مَعَ وُجُودِ الْقَرِينَةِ الْقَوِيَّةِ لِذَلِكَ.

٧ - وَفِيهِ جَوَازُ إِضْمَارِ الْمُقْسَمِ بِهِ فِي الْيَمِينِ لِقَوْلِهِ: "لَأَطُوفَنَّ" مَعَ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَمْ يَحْنَثْ" فَدَلَّ عَلَى أَنَّ اسْمَ اللَّهِ فِيهِ مُقَدَّرٌ.

٨ - وَفِيهِ جَوَازُ اسْتِعْمَالِ لَوْ وَلَوْلاً عِنْدَ تَمَيُّنِ الْخَيْرِ، وَإِلَّا فَالْأَصْلُ تَرْكُ ذَلِكَ فَعَنَ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرَصُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^{٢٧٠}.

٩ - وَفِيهِ اسْتِعْمَالُ الْكِنَايَةِ فِي اللَّفْظِ الَّذِي يُسْتَفْهِحُ ذِكْرَهُ لِقَوْلِهِ "لَأَطُوفَنَّ" بَدَلِ قَوْلِهِ لَأُجَامِعَنَّ^{٢٧١}.



^{٢٧٠} - صحيح مسلم (٤/٢٠٥٢) - ٣٤ (٢٦٦٤)

[ش (المؤمن القوي خير) المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقرينة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد وأسرع خروجاً إليه وذهاباً في طلبه وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق في ذات الله تعالى وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلباً لها ومحافظاً عليها ونحو ذلك (وفي كل خير) معناه في كل من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات (احرص على ما ينفعك) معناه احرص على طاعة الله تعالى والرغبة فيما عنده واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة]

^{٢٧١} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٦/٤٦٢)

قصة موسى والخضر عليهما السلام

عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبَكَّالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بْنِ إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ؟ فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ حَدَّثَنَا أَبِي بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فُسِّلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدِّ الْعِلْمَ [ص: ٣٦] إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثُمَّ، فَاَنْطَلِقْ وَانْطَلِقْ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلًا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَاَنْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَاَنْطَلَقَا بِقِيَّةٍ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: (أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ) قَالَ مُوسَى: (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) فَلَمَّا اتَّهَيَّا إِلَى الصَّخْرَةِ، إِذَا رَجُلٌ مُسَجَّى بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَى، فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَشَدًا قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ، قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَاَنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَتَقَرَّرَ نَقْرَةً أَوْ تَقَرَّرَتْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَحِ السَّفِينَةِ، فَزَرَعَهُ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لَتُغْرَقَ أَهْلُهَا؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا - فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا -، فَاَنْطَلَقَا، فَإِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَاتَّخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى: أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ - قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَهَذَا أَوْ كَذُ - فَاَنْطَلَقَا، حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ، قَالَ الْخَضِرُ: بِيَدِهِ فَاقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ " قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقْصَ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا»^{٢٧٢}

^{٢٧٢} - صحيح البخاري (١/ ٣٦) (١٢٢) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٤٧) - (١٧٠) - (٢٣٨٠)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: " قَامَ مُوسَى خَطِيْبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَبْلَغَ فِي الْخُطْبَةِ، فَعَرَضَ فِي نَفْسِهِ أَنْ أَحَدًا لَمْ يَأْتِ مِنَ الْعِلْمِ مَا أُوتِيَ، وَعَلِمَ اللَّهُ الَّذِي حَدَّثَ نَفْسَهُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ لَهُ: يَا مُوسَى، إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ آتَيْتُهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ أُوتِكَ، قَالَ: أَيُّ رَبٍّ، مِنْ عِبَادِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَادُلَّنِي عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي آتَيْتُهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ تُؤْتِنِي حَتَّى أَتَعَلَّمَ مِنْهُ، قَالَ: يَدُلُّكَ عَلَيْهِ بَعْضُ زَادِكَ، قَالَ لِفَتَاهُ يُوْشَعَ: {لَا أُبْرَحُ حَتَّى أَبْلَغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا} [الكهف: ٦٠] وَكَانَ مِمَّا تَزَوَّدَ حُوتٌ مُمْلَحٌ فِي زَيْبِيلٍ، وَكَانَا يُصَيِّبَانِ مِنْهُ عِنْدَ الْعِشَاءِ وَالْعَدَاةِ، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ عِنْدَ سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَضَعَ فَتَاهُ الْمَكْتَلَّ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَأَصَابَ الْحُوتُ تَرَى الْبَحْرَ، فَتَحَرَّكَ فِي الْمَكْتَلِ فَقَلَبَ الْمَكْتَلُ وَأَنْسَرَبَ فِي الْبَحْرِ، فَلَمَّا جَاوَزَا حَضَرَ الْعَدَاةُ، قَالَ: {آتَيْنَا عِدَاءَنَا لَقَيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} [الكهف: ٦٢] ذَكَرَ الْفَتَى قَالَ: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} [الكهف: ٦٣] فَذَكَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ عَهْدَ إِلَيْهِ: أَنَّهُ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ بَعْضُ زَادِكَ، فَقَالَ: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} [الكهف: ٦٤] هَذِهِ حَاجَتُنَا، {فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} [الكهف: ٦٤] يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي فَعَلَ فِيهَا الْحُوتُ مَا فَعَلَ، وَأَبْصَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَثَرَ الْحُوتِ [ص: ١٦٠]، فَأَخَذَا إِثْرَ الْحُوتِ يَمْشِيَانِ عَلَى الْمَاءِ حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ، {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} [الكهف: ٦٦] إِلَى قَوْلِهِ: {حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} [الكهف: ٧٠] أَيُّ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحْدِثُ لَكَ ذَلِكَ، {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا} [الكهف: ٧١] إِلَى قَوْلِهِ: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا} [الكهف: ٧٤] عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ غُلَامَانِ يَلْعَبُونَ، فَعَهَدَ إِلَى أَصْبَحِهِمْ فَقَتَلَهُ، {قَالَ: أَقْتُلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [الكهف: ٧٤] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " فَاسْتَحْيَى عِنْدَ ذَلِكَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: {إِنْ سَأَلْتُكَ، عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ} [الكهف: ٧٦] قَرَأَ إِلَى {سَأْنُبُكَ بَتَّأْوِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ

[ش(نوف البكالي) هو تابعي من أهل دمشق فاضل عالم لا سيما بالإسرائيليات وكان ابن امرأة كعب الأحبار وبل غير ذلك. [فتح](كذب عدو الله) أي أخير بما هو خلاف الواقع. ومراد ابن عباس رضي الله عنهما الزجر والتحذير لا المعنى الحقيقي لهذه العبارة. (فعبت) لم يرض منه بذلك وأصل العتب المؤاخذه. (مجمع البحرين) ملتقى البحرين وفي تسمية البحرين أقوال. (مكتل) وعاء يسه خمسة عشر صاعا. (فانسل) خرج برفق وخفة. (سربا) مسلكا يسلك فيه. (نصبا) تعباً. (مسا) أثرا وفي رواية (شيتا). (مسحى) مغطى. (وأن بأرضك السلام) كيف تسلم وأنت في أرض لا يعرف فيها السلام. (نول) أجر. (فعمد) قصد. (الأولى) المسألة الأولى. (زكية) طاهرة لم تذنّب. (وهذا أوكد) أي قوله. (ألم أقل لك) لزيادة لك فهذا أوكد في العتاب. (استطعما) طلبا طعاما. (ينقض) يكاد يسقط. (قال الخضر بيده) أشار بها. (من أمرهما) من الأعاجيب والغرائب]

فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا { [الكهف: ٧٨] قَرَأَ إِلَى { وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا } [الكهف: ٧٩] وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا { فَأَرَدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا } [الكهف: ٧٩] حَتَّى لَا يَأْخُذَهَا الْمَلِكُ، فَإِذَا جَاوَزُوا الْمَلِكَ رَفَعُوهَا وَأَنْتَفَعُوا بِهَا، وَبَقِيَتْ لَهُمْ، { وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ } [الكهف: ٨٠] قَرَأَ إِلَى { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف: ٨٢] فَجَاءَ طَائِرٌ فَجَعَلَ يَغْمِسُ مِثْقَالَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ: تَدْرِي مَا يَقُولُ هَذَا الطَّائِرُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا يَقُولُ: مَا عَلِمُكُمْمَا الَّذِي تَعْلَمَانِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا أَنْقَضَ بِمِنْقَارِي مَنْ جَمِيعَ هَذَا الْبَحْرِ "٢٧٣

شرح المفردات:

(وَنُوف) بِفَتْحِ الثُّونِ وَبِالْفَاءِ، (وَالْبَكَالِي) بِفَتْحِ الْمُوحَّدَةِ وَكَسْرِهَا وَتَخْفِيفِ الْكَافِ - وَوَهُمَ مَنْ شَدَّدَهَا - مَنْسُوبٌ إِلَى بَكَالٍ بَطْنٍ مِنْ حَمِيرٍ، وَوَهُمَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى بَكِيلٍ بِكَسْرِ الْكَافِ بَطْنٍ مِنْ هَمْدَانَ لِأَنَّهُمَا مُتَعَايِرَانِ، وَنُوفُ الْمَذْكُورِ تَابِعِيٌّ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقٍ فَاضِلٌ عَالِمٌ لَا سِيِّمًا بِالْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَكَانَ ابْنُ امْرَأَةٍ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ.

(كَذَبَ عَدُوَّ اللَّهِ) قَالَ ابْنُ التَّيْنِ: لَمْ يُرِدْ ابْنُ عَبَّاسٍ إِخْرَاجَ نُوفٍ عَنْ وَلَايَةِ اللَّهِ، وَلَكِنْ قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ تَنْفِرُ إِذَا سَمِعَتْ غَيْرَ الْحَقِّ، فَيُطْلَقُونَ أَمْثَالُ هَذَا الْكَلَامِ لِقَصْدِ الزَّجْرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ وَحَقِيقَتِهِ غَيْرُ مُرَادَةٍ. قُلْتُ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ نُوفًا فِي صِحَّةِ إِسْلَامِهِ، فَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ فِي حَقِّ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ هَذِهِ الْمَقَالَةُ مَعَ تَوَارِدِهَا عَلَيْهِمَا. وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ لِلْعَالَمِ إِذَا كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِشَيْءٍ فَسَمِعَ غَيْرَهُ يَذْكُرُ فِيهِ شَيْئًا بَعِيرٍ عِلْمَ أَنْ يُكْذِبُهُ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ ﷺ: "كَذَبَ أَبُو السَّنَابِلِ" أَيْ: أَخْبَرَ بِمَا هُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

(فَقَالَ أَنَا أَعْلَمُ) فِي جَوَابِ أَيْ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قِيلَ: إِنَّهُ مُخَالَفٌ لِقَوْلِهِ فِي الرَّوَايَةِ السَّابِقَةِ فِي بَابِ الْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ قَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ وَعِنْدِي لَا مُخَالَفَةَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ هُنَا "أَنَا أَعْلَمُ" أَيْ: فِيمَا أَعْلَمُ، فَيُطَابِقُ قَوْلَهُ "لَا" فِي جَوَابِ مَنْ قَالَ لَهُ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ فِي إِسْنَادِ ذَلِكَ إِلَى عِلْمِهِ لَا إِلَى مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

فَلَوْ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَنَا وَاللَّهِ أَعْلَمُ" لَمْ تَحْصُلِ الْمُعَانَبَةُ، وَإِنَّمَا عُوتِبَ عَلَى اقْتِصَارِهِ عَلَى ذَلِكَ، أَيْ: لِأَنَّ الْحِزْمَ يُوْهِمُ أَنَّهُ كَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ الْإِخْبَارُ بِمَا فِي عِلْمِهِ كَمَا قَدَّمَاهُ، وَالْعُتْبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَحْمُولٌ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ لَا عَلَى مَعْنَاهُ الْعُرْفِيِّ فِي الْأَدَمِيِّينَ كَنَظَائِرِهِ. (فِي مِكَتَلٍ) بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْمُثَنَاءِ مِنْ فَوْقِ: الزَّيْلُ الْكَبِيرُ.

(أَيْ) كَيْفَ " بِأَرْضِكَ السَّلَامَ " . وَيُؤَيِّدُهُ مَا فِي التَّفْسِيرِ " هَلْ بِأَرْضِي مِنْ سَلَامٍ " أَوْ مِنْ أَيْسَنَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (أُنْتَى لَكَ هَذَا) وَالْمَعْنَى مِنْ أَيْنَ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ فِيهَا ؟ وَكَأَنَّهَا كَانَتْ بِلَادَ كُفْرٍ ، أَوْ كَانَتْ تَحِيَّتَهُمْ بِغَيْرِ السَّلَامِ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَمَنْ دُونَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ ، إِذْ لَوْ كَانَ الْخَضِرُ يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ لَعَرَفَ مُوسَى قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ .
(فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ) أَيْ : مُوسَى وَالْخَضِرُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ فَتَى مُوسَى - وَهُوَ يُوشَعَ - لِأَنَّهُ تَابِعٌ غَيْرُ مَقْصُودٍ بِالْأَصَالَةِ .

(فَكَلَّمُوهُمْ) ضَمَّ يُوْشَعَ مَعَهُمَا فِي الْكَلَامِ لِأَهْلِ السَّفِينَةِ لِأَنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِي كَلَامَ التَّابِعِ .
(فَحَمَلُوهُمَا) يُقَالُ فِيهِ مَا قِيلَ فِي يَمْشِيَانِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يُوْشَعَ لَمْ يَرْكَبْ مَعَهُمَا لِأَنَّهُ لَمْ يَقَعْ لَهُ ذِكْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ .

(فَجَاءَ عُصْفُورٌ) بِضَمِّ أَوَّلِهِ ، قِيلَ هُوَ الصُّرْدُ بِضَمِّ الْمُهِمْلَةِ وَفَتْحِ الرَّاءِ ، وَفِي الرَّحْلَةِ لِلْخَطِيبِ أَنَّهُ الْخُطَافُ .

(مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ) لَفْظُ النِّقْصِ لَيْسَ عَلَى ظَاهِرِهِ ؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهُ النِّقْصُ ، فَقِيلَ مَعْنَاهُ لَمْ يَأْخُذْ ، وَهَذَا تَوْجِيهِ حَسَنٌ . وَيَكُونُ التَّشْبِيهُ وَاقِعًا عَلَى الْأَخْذِ لَا عَلَى الْمَأْخُودِ مِنْهُ ، وَأَحْسَنَ مِنْهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعِلْمِ الْمُرَادَ بِدَلِيلِ دُخُولِ حَرْفِ التَّبْعِيضِ ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ الْقَائِمَ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى صِفَةً قَدِيمَةً لَا تَتَبَعُضُ وَالْمَعْلُومُ هُوَ الَّذِي يَتَبَعُضُ .
(فَعَمَدَ) بَفَتْحِ الْمُهِمْلَةِ وَالْمِيمِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ عَمَدَتْ .
(وَتَوَلَّى) بَفَتْحِ التَّوْنِ أَيْ : أُجْرَةً .

(قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ) هُوَ مِنْ إِبْطَالِ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ .^{٢٧٤}

فوائد من قصة موسى والخضر عليهما السلام

من فوائد الحديث :

- ١ - أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ فِي مُلْكِهِ مَا يُرِيدُ ، وَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ مِمَّا يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ ، فَلَا مَدْخَلَ لِلْعَقْلِ فِي أَفْعَالِهِ وَلَا مُعَارَضَةَ لِأَحْكَامِهِ ، بَلْ يَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ ، فَإِنَّ إِدْرَاكَ الْعُقُولِ لِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ قَاصِرٌ فَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَى حُكْمِهِ لَمْ وَلَا كَيْفَ .
- ٢ - وفيه استحباب الرحلة للعلم ، والتزود للسفر .
- ٣ - فيه فضيلة طلب العلم والأدب مع العالم .
- ٤ - جواز سؤال الطعام عند الحاجة .
- ٥ - وجواز الإجارة .

^{٢٧٤} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١ / ٢١٩) وعمدة القاري (٢ / ١٩٣) النهاية في غريب الحديث (٤ / ٢٥٨) .

٦- وجواز ركوب البحر ونحو ذلك بغير أجره برضى صاحبه.

٧- وفيه الحكم بالظاهر حتى يتبين خلافه.

٨- وفيه أن الكذب الإخبار على خلاف الواقع عمداً أو سهواً خلافاً للمعتزلة.

٩- إذا تعارضت مفسدتان يجوز دفع أعظمهما بارتكاب أخفهما كما في حرق الخضر السفينة لدفع غضبها وذهاب جملتها.

١٠- وفيه بيان أصل عظيم وهو وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع وإن كان بعضه لا يظهر حكمته للعقول ولا يفهمه أكثر الناس وقد لا يفهمونه كلهم كالقدر، وموضع الدلالة قتل الغلام وخرق السفينة فإن صورتيهما صورة المنكر وكان صحيحاً في نفس الأمر له حكمة بينة لكنها لا تظهر للخلق فإذا علمهم الله تعالى بما علموها ولهذا قال: {وما فعلته عن أمري} (الكهف ٨٢).

١١- قال ابن بطال وفيه أصل وهو ما تعبد الله تعالى به خلقه من شريعته يجب أن يكون حجة على العقول ولا تكون العقول حجة عليه ألا ترى أن إنكار موسى عليه الصلاة والسلام كان صواباً في الظاهر وكان غير ملوم فيه فلما بين الخضر وجه ذلك صار الصواب الذي ظهر لموسى في إنكاره خطأ والخطأ الذي ظهر له من فعل الخضر صواباً وهذا حجة قاطعة في أنه يجب التسليم لله تعالى في دينه ولرسوله في سنته واتهام العقول إذا قصرت عن إدراك وجه الحكمة فيه.

١٢- أن قول الخضر: {وما فعلته عن أمري} (الكهف ٨٢) يدل على أنه فعله بالوحي فلا يجوز لأحد أن يقتل نفساً لما يتوقع وقوعه منها لأن الحدود لا تجب إلا بعد الوقوع وكذا لا يقطع على أحد قبل بلوغه لأنه إخبار عن الغيب وكذا الإخبار عن أخذ الملك السفينة وعن استخراج الغلامين الكثر لأن هذا كله لا يدرك إلا بالوحي وفيه حجة لمن قال بنبوة الخضر عليه الصلاة والسلام وهو قول الجمهور.

١٣- قال القاضي فيه جواز إفساد بعض المال لإصلاح باقيه، وخصاء الأنعام وقطع بعض آذانها لتمييز^{٢٧٥}.

تنبيهان للإمام القرطبي - رحمه الله تعالى -^{٢٧٦}

قال : وَلَنُنَبِّهَنَّ هُنَا عَلَى مُعَلِّطَيْنِ :

الأولى : وَقَعَ لِبَعْضِ الْجَهْلَةِ أَنَّ الْخَضِرَ أَفْضَلَ مِنْ مُوسَى تَمَسُّكًا بِهَذِهِ الْقِصَّةِ وَبِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَصْدُرُ مِمَّنْ قَصَرَ نَظْرُهُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ وَلَمْ يَنْظُرْ فِيمَا خَصَّ اللَّهُ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الرَّسَالَةِ وَسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَةَ فِيهَا عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلَّهُمْ دَاخِلُونَ تَحْتَ شَرِيعَتِهِ وَيُخَاطَبُونَ بِحُكْمِ بُرْهَانِهِ حَتَّى عِيسَى ، وَأَدِلَّةُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ ، وَيَكْفِي مِنْ ذَلِكَ

^{٢٧٥} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢ / ١٩٦)

^{٢٧٦} - http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?t=٣٦٢٣

قوله تعالى : { يا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي " وَسَيَأْتِي فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ فَضَائِلِ مُوسَى مَا فِيهِ كِفَايَةٌ.

قال : والخضر وإن كان نبياً فليس برسول باتفاق ، والرسول أفضل من نبي ليس برسول ، ولو تنزلنا على أنه رسول فرسالة موسى أعظم وأتمته أكثر فهو أفضل ، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل وموسى أفضلهم . وإن قلنا : إن الخضر ليس بنبي بل ولي فالنبي أفضل من الولي ، وهو أمر مقطوع به عقلاً ونقلاً ، والصائر إلى خلافه كافر لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة . قال : وإنما كانت قصة الخضر مع موسى امتحاناً لموسى ليعتبر .

الثانية : ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا : إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامّة والأغبياء ، وأما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم ، لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار . فتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئية فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكلّيات ، كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما تجلّى له من تلك العلوم عما كان عند موسى ، ويؤيده الحديث المشهور : " استفت قلبك وإن أفنوك " قال القرطبي : وهذا القول زندقة وكفر ؛ لأنه إنكار لما علم من الشرائع ، فإن الله قد أجرى سنته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رُسُلِهِ السُّفراء بينه وبين خلقه المبينين لشرائعه وأحكامه كما قال الله تعالى : { الله يصطفي من الملائكة رُسُلاً ومن الناس " وقال : " الله أعلم حيث يجعل رسالاته " وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به ، وحث على طاعتهم والتمسك بما أمروا به فإن فيه الهدى .

وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك ، فمن ادّعى أن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول فهو كافر يقتل ولا يستتاب . قال : وهي دعوى تستلزم إثبات ثبوت بعد نبينا ؛ لأن من قال إنه يأخذ عن قلبه لأن الذي يقع فيه هو حكم الله وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصّة الثبوت كما قال نبينا ﷺ : " إن روح القدس نفث في روعي " . قال : وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال : أنا لا آخذ عن الموتى ، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت . وكذا قال آخر : أنا آخذ عن قلبي عن ربي . وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع ، ونسأل الله الهداية والتوفيق.^{٢٧٧}

واختلف أهل العلم في علم الخضر الذي انفرد به عن موسى هل هو علم وحي ونبوة ، أم علم فراسة وإلهام وهل هو نبى أم ولي؟ والصحيح أنه نبى ، قال في فيض الباري : " الخضر نبى عند الجمهور ليس

^{٢٧٧} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١/ ٢٢١)

داحلاً في شريعة موسى. وقال الألوسي: فيه أقوال ثلاثة فالجمهور على أنه عليه السلام نبي وليس برسول، وقيل: هو رسول، وقيل هو ولي، وعليه القشيري وجماعة، والصحيح ما عليه الجمهور، وشواهد من الآيات والأخبار كثيرة، وبمجموعها يكاد يحصل اليقين. اهـ. ٢٧٨

واستدل القائلون بنبوته بقوله كما حكى الله عنه: (وما فعلته عن أمري) أي وإنما فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى، لأن تنقيص أموال الناس، وإراقة دمائهم لا يكون إلا بنص وأمر إلهي صادر عن وحي سماوي، وذلك للأنبياء خاصة، ولهذا قال العيني: إن قوله: (وما فعلته عن أمري) يدل على أنه فعله بالوحي، فلا يجوز لأحد أن يقتل نفساً لما يتوقع وقوعه منها، لأن الحدود لا تجب إلا بعد الوقوع، وكذا الإخبار عن أخذ الملك السفينة، وعن استخراج الغلامين الكثر، لأن هذا كله لا يدرك إلا بالوحي. اهـ. قال الألوسي " وهو أي الاستدلال بهذه الآية الكريمة على نبوة الخضر ظاهر في ذلك، واحتمال أن يكون هناك نبي أمر بذلك عن وحي كما زعمه القائلون بولايته احتمال بعيد. ومما اختلف فيه أهل العلم أيضاً مسألة هل الخضر حي الآن أم هو قد مات؟ والصحيح أنه قد مات، فقد سئل البخاري عنه وعن الياس عليهما السلام هل هما حيان، فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبي - ﷺ - أي قبل وفاته بقليل: " لا يبقى على رأس المائة من هو اليوم على ظهر الأرض أحد ". اهـ - والذي في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله، قال: قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنُوسَةٍ، تَبْلُغُ مِائَةَ سَنَةٍ فَقَالَ سَالِمٌ: تَذَكَّرْنَا ذَلِكَ عِنْدَهُ، إِنَّمَا هِيَ كُلُّ نَفْسٍ مَخْلُوقَةٍ يَوْمَئِذٍ ٢٧٩». وهذا أبعد عن التأويل، وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الخضر فقال: لو كان الخضر حياً لوجب عليه أن يأتي إلى النبي - ﷺ - ويجاهد بين يديه ويتعلم منه، وقد قال النبي - ﷺ - يوم بدر: "اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَأَتُعَبِّدُ فِي الْأَرْضِ ٢٨٠ " وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين الخضر حينئذ اهـ ٢٨١

ويستفاد منه: فوائد كثيرة:

منها. فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، فإن موسى - ﷺ - رحل مسافات طويلة ولقي النصب في طلبه. ومنها: التأدب مع المعلم، والتلطف في مخاطبته لقول موسى (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً) حيث أخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة فاستأذن منه في مصاحبته وأقر أنه يتعلم منه علماً هو في حاجة إليه يستفيد منه ويسترشد به. ومنها: تواضع الفاضل للتعليم ممن دونه، وذلك

٢٧٨ - تفسير الألوسي = روح المعاني (٣٠٢ / ٨)

٢٧٩ - صحيح مسلم (١٩٦٧ / ٤) - ٢٢٠ (٢٥٣٨)

٢٨٠ - صحيح مسلم (١٣٨٣ / ٣) - ٥٨ (١٧٦٣)

٢٨١ - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢١٩ / ١) وبمجموع الفتاوى (٣٣٧ / ٤)

ليأخذ منه العلم الذي مهر فيه، وإن كان دونه في العلم والفضل بدرجات كثيرة، فلا شك أن موسى أفضل من الخضر، ولكن لما كان عند الخضر من هذا العلم الخاص ما ليس عند موسى حرص على التعلم منه. ومنها: أنه ينبغي للعالم مهما بلغ من العلم إذا سئل أي الناس أعلم أن يكل العلم إلى الله تواضعاً وتأدباً فيقول: الله أعلم.^{٢٨٢}



^{٢٨٢} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ٢٢٤)

قصة كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَكَانَ، فَأَنْدَ كَعْبٌ مِنْ بَنِيهِ، حِينَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ، قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتَبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، حِينَ تَوَاقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدٌ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ، أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا، كَانَ مِنْ خَبْرِي: أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ، فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَاللَّهُ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً [ص: ٤] إِلَّا وَرَى بَعْضَهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمَقَارًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيَّانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الشَّمَارُ وَالظَّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ يَوْمٌ أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَعَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِاتَّجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ عَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْعَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدِّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَعْمُوصًا عَلَيْهِ النَّفَاقُ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبٌ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بَشَسَ مَا قُلْتُ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرَجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعْنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلْفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضَعَةِ وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَعْفَرَ

لَهُمْ، وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ [ص: ٥]، فَقَالَ لِي: «مَا خَلَقَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ». فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجَ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ، لَقَدْ عَلِمْتُ لَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَلَنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صَدَقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى، وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ». فَقُمْتُ، وَتَارَ رِجَالُ مَنْ بَنَى سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنِبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْتِبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِيَ أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمَرِيُّ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أَسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَنْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا، فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَكَ شَفْطِيهِ بَرْدَ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأَسَارِقُهُ النَّظْرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَتَشَدَّدْتُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَتَشَدَّدْتُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا بَطِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ [ص: ٦] وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارَ هَوَانٍ، وَلَا مَضِيعَةً، فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّوَرَّعَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ أَمْرَاتِكَ، فَقُلْتُ: أَطْلَقُهَا؟ أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزَلْهَا وَلَا تَقْرُبْهَا، وَأَرْسَلْ إِلَى صَاحِبِي مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِمَرَّتَيْنِ: الْحَقِّي بِأَهْلِكَ، فَتَكُونِي عَنْدهُمْ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ:

فَجَاءَتْ امْرَأَةً هَالَالَ بْنَ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هَالَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبُكَ». قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لَامْرَأَةِ هَالَالَ بْنَ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا اسْتَأْذَنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حَتَّى كَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ نَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا، بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَأَنْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنِّوْنِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبُ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يُهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلَا أَنْسَاهَا لَطْلَحَةً، قَالَ كَعْبُ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَبْكُ وَجْهَهُ مِنَ السُّرُورِ: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمُّكَ»، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ اللَّهُ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصَّدَقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا، مَا بَقِيْتُ. فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيْتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} [التوبة: ١١٧] إِلَى قَوْلِهِ {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩] فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ، أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ - شَرٌّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ} [التوبة: ٩٥] إِلَى قَوْلِهِ {فَإِنْ

اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٩٦]، قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخْلَفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّىٰ قَضَىٰ اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا} [التوبة: ١١٨]. وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا، عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ. ٢٨٣

شرح المفردات:

- (قط) أي زمان مضى .
- (أقوى ولا أيسر) أكثر قوة ويساراً أي غنى .
- (راحلتان) مثني راحلة وهي ما يصلح للركوب والحمل في الأسفار من الإبل ويصلح للسفر .
- (أهبة غزوهم) وفي نسخة (عدوهم) ما يحتاجون إليه في السفر والحرب .
- (طابت الثمار والظلال) نضجت الثمار ولد للنفوس أكلها وكثرت الظلال بتورق الأشجار ورغبت النفوس أن تتقيأ فيها .
- (فطفقت) أخذت وشرعت .
- (اشتد في الناس الجد) بلغوا غاية اجتهداهم في التجهيز للخروج .
- (جهازي) ما أحتاحه في سفري .
- (فصلوا) خرجوا من المدينة وفارقوها .
- (تفارط الغزو) فات وقته وتقدم .
- (مغموصاً عليه النفاق) محتقرا مطعوناً في دينه أو متهما بنفاق .
- (حبسه براده والنظر في عطفه) أي منعه من الخروج إعجابه بنفسه ولباسه وبراده مثني برد وهو الكساء وعطفه مثني عطف وهو الجانب .
- (قافلا) راجعا من سفره إلى المدينة .
- (سخطه) غضبه وعدم رضاه عما حصل مني .
- (أظل قادماً) دنا قدومه إلى المدينة .
- (زاح عني الباطل) زال عني التفكير في الكذب والتماس الأعذار الباطلة .
- (فأجمعت صدقه) عزمت على أن أصدقه .
- (المخلفون) الذين لم يذهبوا مع رسول الله ﷺ وتخلفوا عنه .
- (علانيتهم) ظاهريهم .

- (سرائرهم) جمع سريرة وهي ما يكتُم في النفوس .
- (ابتعت ظهرك) اشتريت راحلتك .
- (جدلاً) فصاحة وقوة حجة وكلام .
- (تجدد) تغضب .
- (كافيك ذنبك) يكفيك من ذنبك .
- (أسوة) قدوة .
- (تغيروا لنا) اختلفت أخلاقهم معنا عما كانت عليه من قبل من الود والألفة .
- (تنكرت) تغيرت .
- (فاستكانا) ذلاً وخضعا وأصابهما السكون .
- (أطوف) أدور .
- (فأسارقه النظر) أنظر إليه خلسة .
- (تسورت) صعدت على سور الدار .
- (حائط) بستان من نخيل .
- (ففاضت عيناى) انمال دمعهما .
- (نبطي) فلاح .
- (دفع إلي) أعطاني .
- (جفاك) أعرض عنك وقاطعك .
- (هوان) ذل وصغار .
- (مضیعة) حيث يضيع حقلك .
- (نواسك) من المواساة وهي التسلية عن المصيبة .
- (البلاء) الاختبار .
- (فتيممت) قصدت .
- (فسجرتة) أوقدته بها .
- (تعتزل امرأتك) لا تجامعها وهي عميرة بنت جبیر الأنصارية رضي الله عنها .
- (ضائع) قاصر عن القيام بشؤون نفسه .
- (حركة إلى شيء) من جماع ومباشرة وغيرها .
- (الحال التي ذكر الله) في قوله تعالى ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم . . ﴾ { التوبة ١١٨ .
- (أوفى) أشرف .

(سَلَع) جبل معروف في المدينة .

(فخررت) أسقطت نفسي على الأرض .

(آذن) أعلم .

(ركض) استحث من الركض وهو الضرب بالرجل على بطن الفرس لتسرع.^{٢٨٤}

معنى الحديث:

إن كعب بن مالك يقصّ علينا قصة تغيبه عن غزوة تبوك، فيمهد لذلك بقوله " لم أتخلف عن رسول الله في غزوة غزاها إلّا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله - ﷺ - يريد غير قريش " أي أنه رضي الله عنه لم يكن من عادته التخلف عن الجهاد، فهو رضي الله عنه قد حضر جميع غزوات الرسول، ولم يتغيب عن غزوة منها عدا غزوة بدر، ولا يعد من غاب عنها متخلفاً، لأن النبي - ﷺ - عندما خرج من المدينة لم يخرج لقتال، وإنما خرج ليتصدّى لقافلة قريش التجارية ويستولي عليها لمصلحة المسلمين، ولكن رسول الله - ﷺ - أراد العير، واختار الله له النفير فكان القتال، ولذلك لم يعاتب - ﷺ - أحداً غاب عن بدر، ثم ذكر أنه إذا كان قد غاب عن غزوة بدر، فإن الله قد عوضه عنها بحضور بيعة العقبة التي كان يعتز بها كثيراً، قال كعب " وما أحب أن لي بها مشهد بدر " أي ولو خيرت بين حضورها أو حضور غزوة بدر لاخترتها، وفضلتها عليها " وإن كانت بدر أذكر في الناس " أي وإن كانت بدر أشهر منها عند غيري من الناس " وكان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني " أي لم أكن في حياتي كلها أقوى جسماً، ولا أحسن صحة، ولا أيسر حالاً، مني في هذا الوقت الذي كانت فيه غزوة تبوك، " ولم يكن رسول الله - ﷺ - يريد غزوة إلّا ورّى بغيرها " أي إلا أظهر للناس أنه يريد جهة أخرى حرصاً على الكتمان " حتى كانت تلك الغزوة " أي حتى حدثت تلك الغزوة، فلم يخفها، لأنها كانت " في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً " أي وعلم أنه سيسير بالمسلمين في فلاة وأراض قاحلة ليس فيها قطرة ماء، حتى إن من يسير فيها يعرض نفسه للهلاك من شدة العطش " وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم " أي فبين - ﷺ - لهم أنه يريد غزو الروم " ليتأهبوا أهبة غزوهم " بضم الهمزة وسكون الهاء أي ليأخذوا معهم ما يحتاجون إليه في تلك الغزوة الصعبة من سلاح وعتاد " والمسلمون رسول الله - ﷺ - كثير " يبلغ عددهم ثلاثين ألفاً " ولا يجمعهم كتاب حافظ " أي لم تقيد أسماءهم في سجل حتى يعرف الحاضر من الغائب " فما رجل يريد أن يتغيب إلّا ظن أن سيخفى له " أي إلّا اعتقد أنه لا يظهر غيابه وأنه سيخفى عن النبي - ﷺ - " ما لم يتزل فيه وحي الله " فيكشفه ويفضحه أمام رسول الله - ﷺ - " وغزا رسول الله - ﷺ - تلك الغزوة حين طابت الثمار

^{٢٨٤} - صحيح البخاري (٧/٦) والجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٩٢/١١)، بترقيم الشاملة آليا

"أي نضجت الثمار، وahan اجتناؤها" والظلال "أي ورغب الناس في الجلوس تحت الأشجار يستظلون من وهج الشمس" وتجهز رسول الله - ﷺ - والمسلمون معه فطفقت للغزو لكي أجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً "أي فبدأت أذهب كل صباح إلى سوق المدينة لكي أشتري ما أحتاج إليه في هذه الغزوة من عتاد وزاد، ولكنني أعود إلى بيتي وأنا لم أحضر معي شيئاً أغزو" فأقول في نفسي أنما قادر عليه "أي فأقول لنفسي محاولاً إقناعها إذا كنت لم أخرج اليوم فإن في إمكان الخروج غداً" فلم يزل يتمادي بي "أي فلم يزل هذا الحال مستمراً بي" حتى اشتد بالناس الجُدُّ "حتى ضاعف الناس من جدهم واجتهادهم في التهيؤ والاستعداد لهذه المعركة، ولا زلت أنا كما كنت لم أفعل شيئاً" فأصبح رسول الله - ﷺ - والمسلمون معه "أي أصبحوا وقد جهزوا أنفسهم" ولم أقض من جهازي، فقلت أجهز بعده بيوم أو يومين "أي فلجأت إلى التسويف، وصرت أمني نفسي، وأحاول إقناعها بأن الفرصة لا زالت مواتية لم تفت بعد، وإن ما لم أفعله اليوم أفعله غداً، والأيام تمر، والوقت يجري" فغدوت بعد أن فصلوا لأجهز "أي فخرجت إلى السوق بعد أن خرج محمد - ﷺ - وأصحابه من المدينة لأجهز" ولم أقض شيئاً "أي ولم أفعل شيئاً" ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط القوم "أي ثم صرت أذهب كل يوم صباحاً إلى السوق لأجهز نفسي فأعود إلى بيتي وأنا لم أصنع شيئاً حتى انتهت غزوة تبوك، وأسرع الناس بالرجوع إلى المدينة" فهمت أن أرحل وأدركهم وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك "أي ولكن لم يرد الله تعالى في الخروج" فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله - ﷺ - فطفت فيهم "أي فكنت إذا مررت بالناس بعد خروج النبي - ﷺ - من المدينة وتحولت بينهم" لا أرى إلا رجلاً مغموضاً عليه النفاق "أي لا أرى إلا رجلاً متهماً في دينه" أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء "يعني أو رجلاً معذوراً شرعاً لمرض بدني أو عجز جسمي كالأعمى والمقعّد والمريض ونحوهم" ولم يذكرني رسول الله - ﷺ - حتى بلغ تبوك "أي ولم يتذكرني النبي - ﷺ - ولم أخطر ببالي ولم يتحدث عني حتى وصل إلى تبوك" فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب "يعني أي شيء فعل كعب ولماذا تأخر عنا" فقال رجل من بني سلمة "وهو عبد الله بن أنس، قال الحافظ، وهو غير الجهني الصحابي المشهور: "حبسه برداه" تشنية بُرد وهو ثوب مخطط، ويجمع على أبراد وأبرد وبُرد" ونظره في عطفه "تشنية عطف وهو الجانب، وكنى بالجملتين عن إعجابه بلباسه، وإعجابه بنفسه" فقال معاذ: بئسما قلت "أي ما أقبح هذا القول الذي نطقت به، فإنك قد اغتبت الرجل في مجلس النبي - ﷺ -" فلما بلغني أنه توجه قافلاً "أي فلما وصلتني الأخبار عن توجهه من تبوك عائداً إلى المدينة" حضرتني همي "أي بدأت الأفكار والهموم تسيطر على نفسي قال: تعال "أي تقدم إليّ، واقترب مني" فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال: ما خلفك؟ "أي ما هو سبب تغيبك عن هذه الغزوة وما عذرك في ذلك؟" ألم تكن قد ابتعت ظهرك "أي اشتريت راحتك" فقلت: بلى والله يا رسول الله، ولو

جلست عند غيرك من أهل الدنيا " أي لو جلست عند الناس العاديين من الحكام والملوك والأمراء " رأيت أن سأخرج من سخطه بعذر " أي لو وجدت عذراً كاذباً يرضيه، وتخلصت منه بهذا العذر الكاذب " ولقد أعطيت جدلاً " أي ولقد أعطيت منطقاً قوياً " ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب " أي لو اعتذرت لك اليوم بعذر كاذب " ترضى به عني ليوشكن الله، يسخطك عليّ " أي ليأتينك الوحي قريباً فيفضح كذبي عندك، فتسخط عليّ وتغضب مني " ولئن حدثتك حديث صدق " واعترفت لك بالحقيقة، وقلت لك قولاً صادقاً مطابقاً للواقع " تجد عليّ فيها " أي تغضب علي اليوم بسببه " إني لأرجو فيه عفو الله " أي إني حين أقول الصدق الذي يغضبك اليوم مني أنتظر أن يعفو الله عني مكافأة لي على صدقي، ثم قال: "والله ما كان لي من عذر " فاعترف أنه لا عذر " فقال رسول الله - ﷺ - أما هذا فقد صدق " وأخبر بالواقع " فقم حتى يقضي الله فيك " أي فقم الآن من مجلسي هذا، وانتظر حتى يحكم الله فيك " وثار رجال التفت نحوه أعرض عني " أي من صرف نظره عني ليظهر لي الغضب والمقاطعة " حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس " أي من مقاطعتهم وهجرانهم " مشيت حتى تسورت جدار حائط " أي بُسْتان " أي قتادة وهو ابن عمّي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ " أي أسألك بالله تعالى هل تعلم محبتي لله ورسوله " فسكت " ولم يجبه بشيء، ثم أعاد عليه هذا السؤال مرّة أخرى كما قال: " فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم " وتخلص من الجواب برد العلم إلى الله ورسوله " فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا بنبطي " بفتح النون وكسر الطاء، أي فإذا في أفاجأ بفلاح من الشام، " فطفق الناس يشيرون له " فبدأ الناس يشيرون إليّ، ويدلونه عليّ " حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان " وهو جبلة بن الأيهم " فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك " يعني النبي - ﷺ - " قد جفاك " أي قد هجرك هو وأصحابه، وأصبحوا يعاملونك بعداوة وجفاء " ولم يجعلك الله بدار هوان " أي ولست ممن يقبل الضيم، أو يرضي الإقامة بأرض يهان فيها " ولا مضیعة " أي ولست ممن يضيع حقه، أو تهدر كرامته " فألحق بنا نواسك " أي فاحضر إلينا تجد كل مواساة وعون وإكرام " فقلت لما قرأتها: وهذا والله من البلاء " أي وهذا امتحان آخر يبتليني الله به، لأن ملك غسان أراد بذلك أن ينتهز هذه الفرصة ليفتن كعب بن مالك عن دينه " فتيمنت بما التنور " أي فقصدت بما التنور فألقيتها فيها " فسجرت بهما " أي فأشعلت ناره بهما " حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله - ﷺ - يأتيني فقال: إن رسول الله - ﷺ - يأمرك أن تعتزل امرأتك " أي أن لا تقر بها ولا تباشرها " فقلت لامرأتي الحقي بأهلك " بفتح الحاء أي اذهبي إلى دار أهلك " فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله - ﷺ - فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ " أي رجل عجوز، وشيخ كبير طاعن في السن، " ضائع " أي غير قادر على خدمة نفسه لضعف جسمه " فهل تكره أن أخدمه قال: لا، ولكن لا يقربك " أي لا

يشارك أي مباشرة زوجية " قالت: إنه والله ما به حركة " أي ليس له أي رغبة أو حركة إلى النساء لسوء حالته النفسية " فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة " أي من صبح الليلة المكملية للخمسين ليلة " فبينما أنا جالس على الحال الذي ذكره الله " أي على الصفة التي وصفنا الله تعالى بها في قوله عز وجل (وضاقت عليهم الأرض بما رحبت) " قد ضاقت عليّ نفسي " لما كنت أشعر به من ضيق الصدر، وامتلاء القلب بالهموم والغموم " وضافت عليّ الأرض بما رحبت " أي وشعرت بأن هذه الأرض الواسعة قد ضاقت عليّ من شدة الألم والحزن والخوف الذي أصابني " سمعت صوت صارخ " أي صوت رجل ينادي بأعلى صوته " أوفى على جبل سلع " أي صعد فوق جبل سلع، وصار ينادي " يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجداً " حمداً لله تعالى وشكراً له على توبته عليه " وآذن رسول الله - ﷺ - بتوبة الله علينا " أي أعلن في الناس توبة الله علينا، " وركض إليّ رجل فرساً " أي وامتطى رجل جواداً واستحثه على الإسراع إليّ، فجاء يجري بسرعة كي ييشري بهذه البشارة " وسعى ساع من أسلم " أي وجاء رجل آخر يجري بسرعة " فأوفى على الجبل " أي صعد فوق جبل سلع، فجعل ينادي بأعلى صوته ييشري بالتوبة " فلما جاءني الذي سمعت صوته نرعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه " أي كسوته ثوبيّ اللذين لا أملك غيرهما، مكافأة له على بشارته لي " وانطلقت إلى رسول الله - ﷺ - فتلقاني الناس فوجاً فوجاً " أي جماعة جماعة " يهتفوني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك " بكسر النون كما رجحه الحافظ، وقال السفاقي: الأصوب فتح النون لأنه من الهناء " فلما سلمت على رسول الله - ﷺ - قال رسول الله - ﷺ - وهو يبرق وجهه من السرور " أي يتلألأ وجهه تلألؤ البرق من شدة الفرح: " أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك " " أحسن مما أبلاني " أي أحسن مما اختبرني " وأنزل الله عز وجل على رسوله (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) " يعني وأنزل الله فينا قوله تعالى (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وهذه منقبة كبرى، وشرف عظيم لنا، حيث أعلن الله تعالى توبته علينا في هذه الآيات الكريمة، وأنزل في حقنا قرآناً يتلى إلى يوم القيامة مكافأة لنا على صدقنا مع النبي - ﷺ -، وخلد ذكرنا وجعلنا مثلاً يحتذى، وأمر المؤمنين أن يكونوا صادقين مثلنا، فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) ثم قال كعب " فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله - ﷺ - أن لا أكون كذبتة، فأهلك كما هلك الذين كذبوا " يعني ما أعطاني الله نعمة بعد نعمة الإسلام - في حياتي كلها - أعظم وقعا في نفسي من كونه وفقني

إلى الصدق مع رسول الله - ﷺ - وعصمني من الكذب فلم أهلك كما هلك الذين كذبوا على النبي - ﷺ - من المنافقين " فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّاً ما قال لأحد " أي قال فيهم شر كلام قاله في أحد من البشر، ووصفهم بأقبح الصفات القبيحة " فقال الله عز وجل (سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَى قُلُوبِكُمْ - فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) " يعني فقال الله في حقهم (سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) وهذا شر مقال قاله الله في أحد من خلقه. حيث أمر عز وجل بالإعراض عنهم وعدم معاتبتهم احتقاراً لهم، ثم أمر باجتناهم، والابتعاد عنهم، لأنهم " رجس "، والرجس والنجس بمعنى واحد، ثم توعدهم أشد الوعيد في قوله (وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ثم بيّن أن محاولتهم التخلص من التوبيخ والتأنيب، وإرضاء الرسول - ﷺ - وأصحابه بالإيمان الكاذبة لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، لأن الله سيفضح أمرهم، ويهتك سترهم في هذه السورة التي سميت سورة الفاضحة^{٢٨٥}.

من فوائد الحديث:

- ١ - جواز طلب أموال الكفار من ذوي الحرب، والسعي للظفر بها.
- ٢ - جواز الغزو في الشهر الحرام.
- ٣ - التصريح بجهة الغزو إذا لم تقتض المصلحة ستره.
- ٤ - أن الإمام إذا استنفر الجيش عموماً لزمهم النفير ولحق اللوم بكل فرد تخلف، وقال السهيلي: إنما اشتد الغضب على من تخلف، وإن كان الجهاد فرض كفاية؛ لكنه في حق الأنصار - خاصة - فرض عين؛ لأنهم بايعوا على ذلك.
- ٥ - أن العاجز عن الخروج للجهاد - الواجب - بنفسه أو بماله لا لوم عليه.
- ٦ - استخلاف من يقوم مقام الإمام على أهله والضعفة ومصالح المسلمين.
- ٧ - وفيها ترك قتل المنافقين، ويُسْتَنْبَط منه ترك قتل الزنديق إذا أظهر التوبة، وأجاب من أجازه بأن الترك كان في زمن النبي - ﷺ - لمصلحة التأليف على الإسلام.
- ٨ - وفيها عظم أمر المعصية، وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه بن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالا حراماً، ولا سفكوا دمًا حراماً، ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يُؤاَفِقُ الفواحش والكبائر؟.
- ٩ - وفيها أن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين.

^{٢٨٥} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥ / ٥)

١٠- يجوز للمسلم أن يتحدث بذنبه بعد توبته - كما فعل كعب - ليشجع على التوبة من الذنب ،
لا سيما إذا كان ذنبه مكشوفاً معروفاً للناس .

أما الذنب السري الذي ارتكبه المسلم ، أو الذنب الجهري الذي لم يتب منه ، فلا يجوز له أن
يتحدث عنه لئلا يشجع غيره عليه ، ويكون فيه المجاهرة التي حذر منها رسول الله ﷺ بقوله : (كل
أمي معافي إلا المجاهرين) .

ومثل كعب رضي الله عنه مثل رجل أصيب بعلة خطيرة ، فأجرى له الطبيب عملية جراحية
ناجحة ، وحرّم عليه بعض الأطعمة ، فاستجاب ، وصبر ، وقاسى من حرمانه ما قاسى ، حتى تم
شفاءه ، فهل في حديث هذا المريض - إذا حدث - إغراء بالعلة ، أم وصية بالصبر والطاعة ؟ .

١١- جواز مدح المرء بما فيه من الخير إذا أمن الفتنة، وتسلية نفسه بما لم يحصل له بما وقع لنظيره.

١٢- فضل أهل بدر والعقبة.

١٣- جواز الحلف للتأكيد من غير استحلاف.

١٤- التورية عن المقصد ورد الغيبة.

١٥- جواز ترك وطء الزوجة مدة.

١٦- وفيه أن المرء إذا لاحت له فرصة في الطاعة فحقه أن يبادر إليها ولا يسوف بها لئلا يجرمها،
كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [الأنفال: ٢٤] ومثله قوله تعالى: { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ
وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [الأنعام: ١١٠]

نسأل الله تعالى أن يلهمنا المبادرة إلى طاعته، وألا يسلبنا ما حولنا من نعمته.

١٧- وفيها جواز تمني ما فات من الخير.

١٨- أن الإمام لا يُهْمَلُ من تخلف عنه في بعض الأمور؛ بل يذكره ليراجع التوبة.

١٩- وجواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهد الطاعن عن حمية لله ورسوله.

٢٠- وفيها جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد وهم الطاعن أو غلطه.

٢١- وفيها أن المستحب للقادم أن يكون على وضوء، وأن يبدأ بالمسجد قبل بيته فيصلّي ثم يجلس
لمن يسلم عليه.

٢٢- مشروعية السلام على القادم وتلقيه.

٢٣- والحكم بالظاهر وقبول المعاذير.

٢٤- استحباب بكاء العاصي أسفاً على ما فاته من الخير.

٢٥- وفيها إجراء الأحكام على الظاهر، وجعل أمر السرائر إلى الله تعالى، فقد قبل -ﷺ- من
المعتذرين أعذارهم.

- ٢٦- وفيها ترك السلام على من أذنب، وجواز هجره أكثر من ثلاث، وأما النهي عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على مَنْ لم يكن هجرانه شرعياً.
- ٢٧- أن التبسم قد يكون عن غضب، كما يكون عن تعجب، ولا يختص بالسرور.
- ٢٨- معاتبة الكبير أصحابه ومن يعزُّ عليه دون غيره.
- ٢٩- وفيها فائدة الصدق وشؤم عاقبة الكذب.
- ٣٠- وفيها العمل بمفهوم اللقب إذا حفته قرينة، لقوله -ﷺ- لما حدّثه كعب: أما هذا فقد صدق، فإنه يشعر بأن من سواه كذب، لكن ليس على عمومته في حق كل أحد سواه؛ لأن مرارة وهالالا أيضاً قد صدقا، فيختص الكذب بمن حلف واعتذر، لا بمن اعترف، ولهذا عاقب من صدق بالتأديب الذي ظهرت فائدته عن قرب، وأخّر من كذب للعقاب الطويل، وفي الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَفَّلٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا أَمْسَكَ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤَافِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^{٢٨٦}.
- ٣١- وفيها تبريد حرّ المصيبة بالتأسي بالنظير.
- ٣٢- وفيها عِظْمُ مقدار الصدق في القول والفعل، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شرهما به.
- ٣٣- أن من عوقب بالهجر يعذر في التخلف عن صلاة الجماعة، لأن مرارة وهالالا لم يخرجها من بيوتهما تلك المدة.
- ٣٤- وفيها سقوط رد السلام على المهجور عمن سلم عليه، إذ لو كان واجبا لم يقل كعب: هل حرك شفتيه برد السلام.
- ٣٥- جواز دخول المرء دار جاره وصديقه بغير إذنه، ومن غير الباب إذا علم رضاه.
- ٣٦- وفيها أن قول المرء الله ورسوله أعلم ليس بخطاب، ولا كلام، ولا يحث به من حلف ألا يكلم الآخر إذا لم يَنْبُءْ مكالمته، وإنما قال أبو قتادة ذلك لما أَلَحَّ عليه كعب، وإلا فقد تقدم أن رسول ملك غسان لما سأل عن كعب جعل الناس يشيرون له إلى كعب ولا يتكلمون بقولهم مثلاً هذا كعب، مبالغة في هجره والإعراض عنه.
- ٣٧- وفيها أن مسارقة النظر في الصلاة لا تقدر في صحتها.
- ٣٨- إثارة طاعة الرسول على مودة القريب وخدمة المرأة زوجها، والاحتياط لمجانبة ما يخشى الوقوع فيه.
- ٣٩- جواز تحريق ما فيه اسم الله للمصلحة.

^{٢٨٦} - مسند الروياني (٢/ ٩٥) (٨٨٨) صحيح

- ٤٠- وفيها مشروعية سجود الشكر، والاستباق إلى البشارة بالخير، وإعطاء البشير أنفس ما يحضر الذي يأتيه بالبشارة، وتهنئة من تجددت له نعمة، والقيام إليه إذا أقبل.
- ٤١- اجتماع الناس عند الإمام في الأمور المهمة، وسروره بما يسر أتباعه.
- ٤٢- مشروعية العارية.
- ٤٣- مصافحة القادم والقيام له.
- ٤٤- التزام المداومة على الخير الذي ينتفع به.
- ٤٥- استحباب الصدقة عند التوبة، وأن من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه.
- ٤٦- قد يتوفر للإنسان المال والأسباب لقيامه بواجب الجهاد ، ومع هذا كله يرتكب الذنب الكبير ، والخذلان والتقصير لو استجاب لدواعي الكسل والتسويق ، وحب اللذة العاجلة كما حصل لكعب ، وقد لا تتوفر للإنسان الأسباب للقيام بواجب الجهاد ، ومع هذا تراه يحب الجهاد ويحرص عليه ، كما جرى للفقراء الذين جاؤوا رسول الله ﷺ طالبين أن يحملهم ، فلم يجد ما يحملهم على الذهاب للجهاد ، فتولوا وهم سيكون ، ولكن لنيتهم الطيبة يسر الله لهم مطايا ، فحملهم عليها رسول الله ﷺ .
- ٤٧- إن المؤمن يتألم فيما لو أهمل واجبه ، يقول كعب : (يحزني أني لا أرى لي أسوة إلى منافقاً ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء) .
- ٤٨- المؤمن لا يخذل أخاه ، بل يدافع عنه ، فمعاذ بن جبل يقول للرجل : (بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً) .
- ٤٩- المقاطعة والمهجر هو علاج ناجح لرد المنحرفين إلى جادة الصواب ، وما ورد من النهي عن المهجر فمحمول على التقاطع من أجل الدنيا ، والتشفي .
- ٥٠- الصحابة كلهم يطيعون قائدهم ، وينفذون وصيته ، فإبن عم كعب لا يرد عليه السلام ، ولما جاءت بطاقة من ملك غسان ، وجاء حاملها يسأل عن كعب ، لم يجبه أحد باللسان ، بل بالإشارة وان كان الرسول ﷺ لا يراهم .
- ٥١- المؤمن الكامل لا يبيع دينه ولو بملك الدنيا ، فلما جاء كتاب الملك النصراني يعرض على (كعب) اللحاق به عدّ هذا من البلاء ، وحرق كتابه .
- ٥٢- العلاج بالمهجر لا يقتصر تنفيذه على الناس ، بل يشمل البيت ، فيؤمر المتخلفون باعتزال نسائهم ، فرما كان من المثبطات عن الجهاد حسب البقاء بجانب الزوجة والشهوات .

٥٣- السجود لله ، والشكر له حين يجيء الفرج ، وهذا ما فعله كعب رضي الله عنه فعن أبي بكره ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ إِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ أَوْ بُشِّرَ بِهِ، خَرَّ سَاجِدًا، شُكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^{٢٨٧}.

فقه الحديث:

دل هذا الحديث على ما يأتي:

أولاً: أن الإمام إذا استنفر المسلمين للغزو لزمهم النفير، ولحق اللوم من تخلف منهم، ولذلك اشتد الغضب على من تخلف عن غزوة تبوك، وإن كان الجهاد في حد ذاته فرض كفاية، ولكن لما أمر - ﷺ - بالنفير العام تعين الخروج على كل قادر عليه.

ثانياً: جواز ترك السلام على المذنب، وهجره أكثر من ثلاثة أيام. ثالثاً: فائدة الصدق وعاقبته الحميدة، فإن الله تعالى تاب على هؤلاء الثلاثة، وعفا عنهم بسبب صدقهم كما قال كعب: "إنما نجاني الله بالصدق".

رابعاً: شؤم الكذب وعاقبته الوحشية، فإن المنافقين الذين اختلقوا الأعذار الكاذبة سرعان ما فضحهم الله وهتك سترهم، ووصفهم بأقبح الصفات في قوله تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) . خامساً: أن الخطأ لا يعالج بخطأ آخر، وإلا تفاقم الشر، وتضاعف الخطأ، وأصبحت المعصية معصيتين، ولذلك أثر كعب الصدق لثلاثي يجمع بين ذنبيين.

سادساً: مشروعية التبشير بالخير والتهنئة بالنعمة كما فعل أصحاب النبي - ﷺ - في هذه القصة.

سابعاً: استحباب سجود الشكر عند حدوث نعمة من النعم.

ثامناً: استحباب المبادرة إلى الصدقة وأعمال البر والإحسان عند التوبة لقول كعب رضي الله عنه: "إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله".

تاسعاً: قال ابن القيم: وقول كعب لامرأته الحقي بأهلك دليل على أنه لا يقع بهذه اللفظة طلاق ما لم ينوّه.

عاشراً: أن أمرهم باعتزال نسائهم في آخر المدة كما قال ابن القيم فيه تنبيه وإرشاد لهم إلى الجِد والاجتهاد في العبادة، وشد المنزر، وفي هذا إيذان بقرب الفرج.

الحادي عشر: قال ابن القيم: وفيه دليل على أن إعطاء البشير من مكارم الأخلاق والشيم وعادة الأشراف، وعلى تهنئة من تجددت له نعمة دينية، والقيام إليه إذا أقبل ومصافحته، فهذه سنة مستحبة، والأولى أن يقال له: ليهنك ما أعطاك الله، وما من الله به عليك، ونحو هذا الكلام.

^{٢٨٧} - سنن ابن ماجه (١/ ٤٤٦) (١٣٩٤) حسن وانظر فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٢٣/ ٨)

[ش (أمر) أي عظيم جليل القدر رفيع المنزلة من هجوم نعمة منتظرة أو غير منتظرة مما يندر وقوعها]

http://www.konoozalislam.com/vb/showthread.php?t=٣٦٢١

الثاني عشر: قال ابن القيم: فيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق، وأفضلها يوم توبته إلى الله، وقبول الله توبته، لقول النبي - ﷺ - " أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك ". الثالث عشر: في قوله - ﷺ -: " أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك " دليل على أن من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه، بل يجوز له أن يبقى منه بقية، ولم يعين له - ﷺ - قدراً، ووكله إلى اجتهاده في قدر الكفاية، قال ابن القيم: وهذا هو الصحيح، فإن ما نقص عن كفايته وكفاية أهله لا يجوز له التصديق به، فنذره لا يكون طاعة فلا يجب الوفاء به، وفي الحديث فوائد كثيرة، فقد قال العيني: " فيه أكثر من خمسين فائدة " وما لا يدرك كله لا يترك جله. ٢٨٨

وقال ابن القيم رحمه الله :

" وَمِنْهَا: مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قِصَّةُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ الْجَمَّةِ، فَنَشِيرُ إِلَى بَعْضِهَا: فَمِنْهَا: جَوَازُ إِخْبَارِ الرَّجُلِ عَنْ تَفْرِيطِهِ وَتَقْصِيرِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، وَمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ التَّحْذِيرِ وَالنَّصِيحَةِ وَبَيَانِ طُرُقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا، مَا هُوَ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ

وَمِنْهَا: جَوَازُ مَدْحِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَى سَبِيلِ الْفَخْرِ وَالتَّرَفُّعِ. وَمِنْهَا: تَسْلِيَةُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ عَمَّا لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ بِمَا قُدِّرَ لَهُ مِنْ نَظِيرِهِ أَوْ خَيْرٍ مِنْهُ وَمِنْهَا: أَنَّ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ كَانَتْ مِنْ أَفْضَلِ مَشَاهِدِ الصَّحَابَةِ، حَتَّى إِنَّ كَعْبَا كَانَ لَا يَرَاهَا دُونَ مَشْهَدِ بَدْرٍ وَمِنْهَا: أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا رَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي أَنْ يَسْتَرْ عَنْ رَعِيَّتِهِ بَعْضَ مَا يَهُمُّ بِهِ وَيَقْصِدُهُ مِنَ الْعَدُوِّ وَيُورِي بِهِ عَنْهُ اسْتِحْبَابٌ لَهُ ذَلِكَ أَوْ يَتَّعِنُ بِحَسَبِ الْمَصْلَحَةِ وَمِنْهَا: أَنَّ السُّتْرَ وَالْكُتْمَانَ إِذَا تَضَمَّنَ مَفْسَدَةً لَمْ يَجْزُ

وَمِنْهَا: أَنَّ الْجَيْشَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دِيْوَانٌ وَأَوَّلُ مَنْ دَوَّنَ الدِّيْوَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا مِنْ سُنَنِهِ الَّتِي أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِاتِّبَاعِهَا، وَظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهَا وَحَاجَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا وَمِنْهَا: أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا حَضَرَتْ لَهُ فُرْصَةُ الْقُرْبَةِ وَالطَّاعَةِ فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ فِي انْتِهَازِهَا وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا، وَالْعَجْزُ فِي تَأْخِيرِهَا وَالتَّسْوِيفُ بِهَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَثِقْ بِقُدْرَتِهِ وَتَمَكُّنِهِ مِنْ أَسْبَابِ تَحْصِيلِهَا، فَإِنَّ الْعَزَائِمَ وَالْهَمَمَ سَرِيعَةُ الْإِنْتِقَاضِ قَلَمًا ثَبَتَتْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُعَاقِبُ مَنْ فَتَحَ لَهُ بَابًا مِنَ الْخَيْرِ فَلَمْ يَنْتَهِزْهُ، بَأَنْ يَحُولَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَلَا يُمَكِّنُهُ بَعْدُ مِنْ إِرَادَتِهِ عُقُوبَةً لَهُ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا دَعَاهُ حَالُ بَيْنِهِ وَبَيْنَ قَلْبِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَلَا يُمَكِّنُهُ الْاسْتِجَابَةُ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال: ٢٤] [الأنفال: ٢٤] وَقَدْ صَرَّحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا فِي قَوْلِهِ: {وَوَقَّلْتُ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ

يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ١١٠] [التأنعام: ١١٠] وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥] [الصف: ٥] ، وَقَالَ: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التوبة: ١١٥] [التوبة: ١١٥] وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ

وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا أَحَدُ رِجَالٍ ثَلَاثَةٍ ؛ إِمَّا مَعْمُوصٌ عَلَيْهِ فِي النَّفَاقِ أَوْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْأَعْدَارِ ، أَوْ مَنْ خَلَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ ، أَوْ خَلَفَهُ لِمَصْلَحَةِ وَمِنْهَا: أَنَّ الْإِمَامَ وَالْمُطَاعَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُهْمَلَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ ، بَلْ يَذْكُرُهُ لِإِرْجَاعِ الطَّاعَةِ وَيَتُوبَ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبُ؟ وَلَمْ يَذْكُرْ سِوَاهُ مِنَ الْمُخَلْفِينَ اسْتِصْلَاحًا لَهُ وَمُرَاعَاةً ، وَإِهْمَالًا لِلْقَوْمِ الْمُنَافِقِينَ

وَمِنْهَا: جَوَازُ الطَّعْنِ فِي الرَّجُلِ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى اجْتِهَادِ الطَّاعِنِ حَمِيَّةً أَوْ ذَبًّا عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمِنْ هَذَا طَعْنُ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِيمَنْ طَعَنُوا فِيهِ مِنَ الرُّوَاةِ ، وَمِنْ هَذَا طَعْنُ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ فِي أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ لِلَّهِ لَا لِحُطُوظِهِمْ وَأَغْرَاضِهِمْ وَمِنْهَا: جَوَازُ الرَّدِّ عَلَى الطَّاعِنِ إِذَا غَلَبَ عَلَى ظَنِّ الرَّادِّ أَنَّهُ وَهْمٌ وَغَلَطٌ ، كَمَا قَالَ مُعَاذٌ لِلَّذِي طَعَنَ فِي كَعْبٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَلَمْ يُنْكِرْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ

وَمِنْهَا: أَنَّ السُّنَّةَ لِلْقَادِمِ مِنَ السَّفَرِ أَنْ يَدْخُلَ الْبَلَدَ عَلَى وُضُوءٍ وَأَنْ يَبْدَأَ بَبَيْتِ اللَّهِ قَبْلَ بَيْتِهِ ، فَيُصَلِّيَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَجْلِسُ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ ثُمَّ يَنْصَرِفُ إِلَى أَهْلِهِ وَمِنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْبَلُ عَلَانِيَةً مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَيَكِلُ سَرِيرَتَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَيَجْرِي عَلَيْهِ حُكْمُ الظَّاهِرِ ، وَلَا يُعَاقِبُهُ بِمَا لَمْ يَعْلَمْ مِنْ سِرِّهِ وَمِنْهَا: تَرْكُ الْإِمَامِ وَالْحَاكِمِ رَدِّ السَّلَامِ عَلَى مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا ؛ تَأْدِيبًا لَهُ وَزَجْرًا لِعِيره ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَنْقُلْ أَنَّهُ رَدَّ عَلَى كَعْبٍ ، بَلْ قَابَلَ سَلَامَهُ بِتَبَسُّمِ الْمُغْضَبِ

وَمِنْهَا: أَنَّ التَّبَسُّمَ قَدْ يَكُونُ عَنِ الْغَضَبِ كَمَا يَكُونُ عَنِ التَّعَجُّبِ وَالسُّرُورِ ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يُوجِبُ انْبِسَاطَ دَمِ الْقَلْبِ وَنُورَانَهُ ، وَلِهَذَا تَظْهَرُ حُمْرَةُ الْوَجْهِ لِسُرْعَةِ ثَوْرَانِ الدَّمِ فِيهِ ، فَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ السُّرُورُ ، وَالْغَضَبُ تَعَجُّبٌ يَتَّبِعُهُ ضَحِكٌ وَتَبَسُّمٌ ، فَلَا يَغْتَرُّ الْمُغْتَرُّ بِضَحِكِ الْقَادِرِ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ كَمَا قِيلَ

إِذَا رَأَيْتَ ثُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً ... فَلَا تَطُنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمٌ وَمِنْهَا: مُعَاتَبَةُ الْإِمَامِ وَالْمُطَاعِ أَصْحَابَهُ وَمَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ وَيَكْرُمُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ عَاتَبَ الثَّلَاثَةَ دُونَ سَائِرِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْ مَدْحِ عِتَابِ الْأَحْبَةِ وَاسْتِلْدَازِهِ وَالسُّرُورِ بِهِ ، فَكَيْفَ يَعْتَابُ أَحَبَّ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَى الْمَعْتُوبِ عَلَيْهِ ، وَلِلَّهِ مَا كَانَ أَخْلَى ذَلِكَ الْعِتَابَ وَمَا أَعْظَمَ ثَمَرَتَهُ وَأَجَلَ فَائِدَتَهُ ، وَلِلَّهِ مَا نَالَ بِهِ الثَّلَاثَةُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَسَرَّاتِ وَحُلَاوَةِ الرِّضَا وَخِلَعِ الْقَبُولِ

وَمِنْهَا: تَوْفِيقُ اللَّهِ لَكَعْبٍ وَصَاحِبِيهِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الصَّدَقِ، وَلَمْ يَخْذُلْهُمْ حَتَّى كَذَبُوا وَاعْتَذَرُوا بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَصَلَحَتْ عَاجِلَتُهُمْ وَفَسَدَتْ عَاقِبَتُهُمْ كُلُّ الْفَسَادِ، وَالصَّادِقُونَ تَعَبُوا فِي الْعَاجِلَةِ بَعْضَ التَّعَبِ فَأَعْقَبَهُمْ صَلَاحُ الْعَاقِبَةِ وَالْفَلَاحُ كُلُّ الْفَلَاحِ، وَعَلَى هَذَا قَامَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، فَمَرَارَاتُ الْمُبَادِي حَلَاوَاتُ فِي الْعَوَاقِبِ، وَحَلَاوَاتُ الْمُبَادِي مَرَارَاتُ فِي الْعَوَاقِبِ. «وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ - لكعب: (أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ)»، دَلِيلٌ ظَاهِرٌ فِي التَّمَسُّكِ بِمَفْهُومِ اللَّقَبِ عِنْدَ قِيَامِ قَرِينَةٍ تَقْتَضِي تَخْصِيصَ الْمَذْكُورِ بِالْحُكْمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ - فَفَهَمْنَاهَا سُلَيْمَانَ} [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩] [الأنبياء: ٧٨ و ٧٩]، وَقَوْلُهُ ﷺ: («جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَتُرْبَتُهَا طَهُورًا»)، وَقَوْلُهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: (أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ)، وَهَذَا مِمَّا لَا يَشْكُ السَّامِعُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ قَصَدَ تَخْصِيصَهُ بِالْحُكْمِ.

وَقَوْلُ كَعْبٍ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِيَ أَحَدًا؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، مَرَارَةً بِنِ الرَّبِيعِ، وَهَلَالِ بِنِ أُمِيَّةٍ، فِيهِ أَنَّ الرَّجُلَ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يَرِدَّ حَرَّ الْمُصِيبَةِ بِرُوحِ التَّأْسِي بِمَنْ لَقِيَ مِثْلَ مَا لَقِيَ، وَقَدْ أُرْشِدَ سُبْحَانَهُ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تَهْنُؤُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ} [النساء: ١٠٤] [النساء: ١٠٤]، وَهَذَا هُوَ الرُّوحُ الَّذِي مَنَعَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ النَّارِ فِيهَا بِقَوْلِهِ: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: ٣٩] [الزخرف: ٣٩]. وَقَوْلُهُ: " فَذَكَّرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا لِي فِيهِمَا أُسْوَةٌ ". هَذَا الْمَوْضِعُ مِمَّا عُدَّ مِنْ أَوْهَامِ الزُّهْرِيِّ، فَإِنَّهُ لَا يُحْفَظُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ الْبَيِّنَةِ ذِكْرُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ فِي أَهْلِ بَدْرٍ، لَا ابْنُ إِسْحَاقَ، وَلَا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ وَلَا الْأُمَوِي، وَلَا الْوَاقِدِيُّ، وَلَا أَحَدٌ مِمَّنْ عُدَّ أَهْلَ بَدْرٍ، وَكَذَلِكَ يَتَّبِعِي أَلَّا يَكُونَا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ - لَمْ يَهْجُرْ حَاطِبًا، وَلَا عَاقِبَهُ وَقَدْ جَسَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ لِعَمْرٍو لَمَّا هَمَّ بِقَتْلِهِ: («وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»)، وَأَيْنَ ذَنْبُ التَّخَلُّفِ مِنْ ذَنْبِ الْجَسِّ.

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوَازِيِّ: وَلَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى كَشْفِ ذَلِكَ وَتَحْقِيقِهِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ الْأَثَرَمَ قَدْ ذَكَرَ الزُّهْرِيَّ، وَذَكَرَ فَضْلَهُ وَحِفْظَهُ وَإِثْقَانَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يُحْفَظُ عَلَيْهِ غَلَطٌ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَإِنَّهُ قَالَ: إِنَّ مَرَارَةَ بِنِ الرَّبِيعِ، وَهَلَالِ بِنِ أُمِيَّةٍ شَهِدَا بَدْرًا، وَهَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَالْغَلَطُ لَا يُعْصَمُ مِنْهُ إِنْسَانٌ.

وَفِي نَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ - عَنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِمْ وَكَذِبِ الْبَاقِينَ، فَأَرَادَ هَجَرَ الصَّادِقِينَ وَتَأْدِيْبَهُمْ عَلَى هَذَا الذَّنْبِ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَجَزُمُهُمْ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُقَابَلَ بِالْهَجْرِ، فَذَوَاءُ هَذَا الْمَرَضِ لَا يَعْمَلُ فِي مَرَضِ التَّنَاقُ، وَلَا فَائِدَةٌ فِيهِ، وَهَكَذَا يَفْعَلُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ بِعِبَادِهِ فِي عُقُوبَاتِ حَرَائِمِهِمْ، فَيُؤَدِّبُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يُحِبُّهُ وَهُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ بِأَدْنَى زَلَّةٍ وَهَفْوَةٍ، فَلَا يَزَالُ مُسْتَقِظًا حَذِرًا، وَأَمَّا مَنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ وَهَانَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ،

وَكُلَّمَا أَحْدَثَ ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُ نِعْمَةً، وَالْمَعْرُورُ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ الْإِهَانَةِ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ وَالْعُقُوبَةَ الَّتِي لَا عَاقِبَةَ مَعَهَا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ: («إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا أَمْسَكَ عَنْهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَيَرُدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِذُنُوبِهِ») .

وَفِيهِ دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى هِجْرَانِ الْإِمَامِ وَالْعَالَمِ وَالْمُطَاعِ لِمَنْ فَعَلَ مَا يَسْتَوْجِبُ الْعُتْبَ، وَيَكُونُ هِجْرَانُهُ دَوَاءً لَهُ بِحَيْثُ لَا يَضَعُفُ عَنْ حُصُولِ الشِّفَاءِ بِهِ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْكَمِيَّةِ وَالْكِفِيَّةِ عَلَيْهِ فَيُهْلِكُهُ، إِذِ الْمُرَادُ تَأْدِيئُهُ لَا إِثْلَافُهُ.

وَقَوْلُهُ: («حَتَّى تَنْكَرْتُ لِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالَّتِي أَعْرِفُ») ، هَذَا التَّنْكَرُ يَجِدُهُ الْخَائِفُ وَالْحَزِينُ وَالْمَهْمُومُ فِي الْأَرْضِ، وَفِي الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ، حَتَّى يَجِدُهُ فِيمَنْ لَا يَعْلَمُ حَالَهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَجِدُهُ أَيْضًا الْمَذْنُبُ الْعَاصِي بِحَسَبِ جُرْمِهِ حَتَّى فِي خُلُقِ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ، وَخَادِمِهِ وَدَائِيَّتِهِ، وَيَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ أَيْضًا، فَتَتَنَكَّرُ لَهُ نَفْسُهُ حَتَّى مَا كَانَتْهُ هُوَ، وَلَا كَأَنَّ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ، وَمَنْ يُشْفِقُ عَلَيْهِ بِالَّذِينَ يَعْرِفُهُمْ، وَهَذَا سِرٌّ مِنَ اللَّهِ لَا يَخْفَى إِلَّا عَلَى مَنْ هُوَ مَيِّتُ الْقَلْبِ، وَعَلَى حَسَبِ حَيَاةِ الْقَلْبِ، يَكُونُ إِدْرَاكُ هَذَا التَّنْكَرِ وَالْوَحْشَةِ.

وَمَا لَجَرَحَ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا التَّنْكَرَ وَالْوَحْشَةَ كَانَا لِأَهْلِ التَّفَاقِ أَعْظَمَ، وَلَكِنْ لَمَوْتِ قُلُوبِهِمْ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ بِهِ، وَهَكَذَا الْقَلْبُ إِذَا اسْتَحْكَمَ مَرَضُهُ، وَاشْتَدَّ أَلَمُهُ بِالذُّنُوبِ وَالْإِجْرَامِ، لَمْ يَجِدْ هَذِهِ الْوَحْشَةَ وَالتَّنْكَرَ، وَلَمْ يُحَسَّ بِهَا، وَهَذِهِ عَلَامَةُ الشَّقَاوَةِ، وَأَنَّهُ قَدْ آيَسَ مِنْ عَافِيَةِ هَذَا الْمَرَضِ، وَأَعْيَا الْأَطِبَّاءَ شِفَاؤُهُ، وَالْخَوْفُ وَالْهَمُّ مَعَ الرِّيْبَةِ، وَالْأَمْنُ وَالسُّرُورُ مَعَ الْبَرَاءَةِ مِنَ الذَّنْبِ.

فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْجَعُ مِنْ بَرِيءٍ ... وَلَا فِي الْأَرْضِ أَخْوَفُ مِنْ مُرِيبٍ

وَهَذَا الْقَدْرُ قَدْ يَنْتَفِعُ بِهِ الْمُؤْمِنُ الْبَصِيرُ إِذَا ابْتُلِيَ بِهِ شَيْءٌ رَاجِعٌ، فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهِ نَفْعًا عَظِيمًا مِنْ وَجْهِهِ عَدِيدَةِ تَقَوُّتِ الْحَصَرِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا إِلَّا اسْتِمَارُهُ مِنْ ذَلِكَ أَعْلَامُ الثَّبُوتِ، وَذَوْقُهُ نَفْسَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ فَيَصِيرُ تَصَدِيقُهُ ضَرُورِيًّا عِنْدَهُ، وَيَصِيرُ مَا نَالَهُ مِنَ الشَّرِّ بِمَعَاصِيهِ، وَمِنَ الْخَيْرِ بِطَاعَاتِهِ مِنْ أَدَلَّةِ صِدْقِ الثَّبُوتِ الدَّوْقِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا الْإِحْتِمَالَاتُ، وَهَذَا كَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مِنَ الْمَعَاطِبِ وَالْمَخَافِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ عَلَى التَّفْصِيلِ، فَخَالَفَتْهُ وَسَلَكَتْهَا، فَرَأَيْتَ عَيْنَ مَا أَخْبَرَكَ بِهِ، فَإِنَّكَ تَشْهَدُ صِدْقَهُ فِي نَفْسِ خِلَافِكَ لَهُ، وَأَمَّا إِذَا سَلَكْتَ طَرِيقَ الْأَمْنِ وَخَدَّهَا، وَلَمْ تَجِدْ مِنْ تِلْكَ الْمَخَافِ شَيْئًا، فَإِنَّهُ وَإِنْ شَهِدَ صِدْقَ الْمُخْبِرِ بِمَا نَالَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالظَّفَرِ مُفَصَّلًا، فَإِنَّ عِلْمَهُ بِتِلْكَ يَكُونُ مُحْكَمًا.

وَمِنْهَا: أَنَّ هَالَالَ بَنِ أُمِيَّةٍ، وَمِرَارَةَ قَعْدَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَكَانَا يُصَلِّيَانِ فِي بُيُوتِهِمَا، وَلَا يَحْضُرَانِ الْجَمَاعَةَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هِجْرَانَ الْمُسْلِمِينَ لِلرَّجُلِ عُذْرٌ يُبِيحُ لَهُ التَّخَلُّفَ عَنِ الْجَمَاعَةِ، أَوْ يُقَالُ:

مِنْ تَمَامِ هِجْرَانِهِ أَنْ لَا يَحْضُرَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ يُقَالُ: فَكَعَبَ كَانَ يَحْضُرُ الْجَمَاعَةَ وَلَمْ يَمْنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِمَا عَلَى التَّخَلُّفِ، وَعَلَى هَذَا فَيُقَالُ: لَمَّا أَمَرَ الْمُسْلِمُونَ بِهَجْرِهِمْ تَرَكُوا: لَمْ يُؤْمَرُوا وَلَمْ يُنْهَوْا وَلَمْ يُكَلَّمُوا، فَكَانَ مَنْ حَضَرَ مِنْهُمْ الْجَمَاعَةَ لَمْ يَمْنَعْ، وَمَنْ تَرَكَهَا لَمْ يُكَلِّمْ، أَوْ يُقَالُ: لَعَلَّهِمَا ضَعُفَا وَعَجَزَا عَنِ الْخُرُوجِ، وَلِهَذَا قَالَ كَعَبُ: وَكُنْتُ أَنَا أَجْلَدَ الْقَوْمِ وَأَشَبَّهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: وَآتَى رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بَرْدَ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّدَّ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَجْرَ غَيْرُ وَاجِبٍ، إِذْ لَوْ وَجَبَ الرَّدُّ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ إِسْمَاعِهِ.

وَقَوْلُهُ: حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ، تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى دُخُولِ الْإِنْسَانِ دَارَ صَاحِبِهِ وَجَارِهِ إِذَا عَلِمَ رِضَاهُ بِذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَسْتَأْذِنَهُ.

وَفِي قَوْلِ أَبِي قَتَادَةَ لَهُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِخِطَابٍ وَلَا كَلَامٍ لَهُ، فَلَوْ حَلَفَ لَا يُكَلِّمُهُ، فَقَالَ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ جَوَابًا لَهُ لَمْ يَحْنَثْ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَتَوَّ بِه مُكَالَمَتُهُ، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ حَالِ أَبِي قَتَادَةَ.

وَفِي إِشَارَةِ النَّاسِ إِلَى النَّبِطِيِّ - الَّذِي كَانَ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعَبِ بْنِ مَالِكٍ؟ - دُونَ نُطْقِهِمْ لَهُ تَحْقِيقٌ لِمَقْصُودِ الْهَجْرِ، وَإِلَّا فَلَوْ قَالُوا لَهُ صَرِيحًا: ذَاكَ كَعَبُ بْنُ مَالِكٍ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَلَامًا لَهُ، فَلَا يَكُونُونَ بِهِ مُخَالَفِينَ لِلنَّهْيِ، وَلَكِنْ لِفَرْطِ تَحْرِيمِهِمْ وَتَمَسُّكِهِمْ بِالْأَمْرِ لَمْ يَذْكُرُوهُ لَهُ بِصَرِيحِ اسْمِهِ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ بِحَضْرَتِهِ وَهُوَ يَسْمَعُ نَوْعَ مُكَالَمَةٍ لَهُ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا جَعَلَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَقْصُودِ بِكَلَامِهِ، وَهِيَ ذَرِيعَةٌ قَرِيبَةٌ، فَالْمَنْعُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ بَابِ مَنَعَ الْحِيلِ وَسَدِّ الذَّرَائِعِ، وَهَذَا أَفْقَهُ وَأَحْسَنُ.

وَفِي مَكَاتِبَةِ مَلِكٍ غَسَّانَ لَهُ بِالْمَصِيرِ إِلَيْهِ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَامْتِحَانٌ لِإِيمَانِهِ وَمَحَبَّتِهِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِظْهَارٌ لِلصَّحَابَةِ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ ضَعُفَ إِيْمَانُهُ بِهَجْرِ النَّبِيِّ - ﷺ - وَالْمُسْلِمِينَ لَهُ، وَلَا هُوَ مِمَّنْ تَحْمِلُهُ الرَّغْبَةُ فِي الْحَاثِ وَالْمُلْكِ مَعَ هِجْرَانِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ لَهُ عَلَى مُفَارَقَةِ دِينِهِ، فَهَذَا فِيهِ مِنْ تَبَرُّةِ اللَّهِ لَهُ مِنَ النَّفَاقِ وَإِظْهَارِ قُوَّةِ إِيْمَانِهِ، وَصِدْقِهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ مَا هُوَ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلُطْفِهِ بِهِ وَجَبْرِهِ لِكَسْرِهِ، وَهَذَا الْبَلَاءُ يُظْهِرُ لُبَّ الرَّجُلِ وَسِرَّهُ وَمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ، فَهُوَ كَالْكَبِيرِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ.

وَقَوْلُهُ: فَتَيَمَّمْتُ بِالصَّحِيفَةِ التَّنُورَ، فِيهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى إِثْلَافِ مَا يُخْشَى مِنْهُ الْفَسَادُ وَالْمَضَرَّةُ فِي الدِّينِ، وَأَنَّ الْحَازِمَ لَا يَنْتَظِرُ بِهِ وَلَا يُؤَخِّرُهُ، وَهَذَا كَالْعَصِيرِ إِذَا تَخَمَّرَ، وَكَالْكِتَابِ الَّذِي يُخْشَى مِنْهُ الضَّرَرُ وَالشَّرُّ، فَالْحَزْمُ الْمُبَادَرَةُ إِلَى إِثْلَافِهِ وَإِعْدَامِهِ.

وَكَانَتْ غَسَّانُ إِذْ ذَاكَ - وَهُمْ مُلُوكُ عَرَبِ الشَّامِ - حَرْبًا لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ، وَكَانُوا يُنْعِلُونَ خِيُولَهُمْ لِمُحَارَبَتِهِ، وَكَانَ هَذَا (لَمَّا بَعَثَ شَجَاعُ بْنُ وَهْبٍ الْأَسَدِيُّ إِلَى مَلِكِهِمُ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَمْرٍ الْغَسَّانِي يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ إِلَيْهِ، قَالَ شَجَاعُ: فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي غَوْطَةِ دِمَشْقَ، وَهُوَ مَشْغُولٌ بِتَهْيِئَةِ الْأَنْزَالِ وَاللُّطَافِ لِقَيْصَرَ، وَهُوَ جَاءَ مِنْ حِمَصَ إِلَى إِبِلْيَاءَ، فَأَقَمْتُ عَلَى بَابِهِ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَقُلْتُ لِحَاجِبِهِ: إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَا تَصِلْ إِلَيْهِ حَتَّى يَخْرُجَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَجَعَلَ حَاجِبُهُ - وَكَانَ رُومِيًّا اسْمُهُ مَرِي - يَسْأَلُنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ، وَكُنْتُ أُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، فَيَرِقُّ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَيْهِ الْبُكَاءُ، وَيَقُولُ: إِنِّي قَرَأْتُ الْإِنْجِيلَ فَأَجِدُ صِفَةَ هَذَا النَّبِيِّ بَعِينَهُ، فَأَنَا أُؤْمِنُ بِهِ وَأُصَدِّقُهُ فَأَخَافُ مِنَ الْحَارِثِ أَنْ يَقْتُلَنِي، وَكَانَ يُكْرِمُنِي وَيُحْسِنُ ضِيَافَتِي. وَخَرَجَ الْحَارِثُ يَوْمًا فَجَلَسَ فَوَضَعَ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ فَأَذِنَ لِي عَلَيْهِ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَقَرَأَهُ ثُمَّ رَمَى بِهِ، قَالَ: مَنْ يَنْتَزِعُ مِنِّي مُلْكِي، وَقَالَ: أَنَا سَائِرٌ إِلَيْهِ وَلَوْ كَانَ بِالْيَمَنِ جِئْتُهُ، عَلَيَّ بِالنَّاسِ، فَلَمْ تَزَلْ تُعْرِضُ حَتَّى قَامَ، وَأَمَرَ بِالْخِيُولِ تُنْعَلُ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْ صَاحِبَكَ بِمَا تَرَى، وَكَتَبَ إِلَيَّ قَيْصَرٌ يُخْبِرُهُ خَبْرِي وَمَا عَزَمَ عَلَيْهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ قَيْصَرٌ: أَنْ لَا تَسِرَ، وَلَا تَعْبُرَ إِلَيْهِ وَالَهُ عَنْهُ، وَوَأَفِنِي بِإِبِلْيَاءَ، فَلَمَّا جَاءَهُ جَوَابُ كِتَابِهِ، دَعَانِي فَقَالَ: مَتَى تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى صَاحِبِكَ؟ فَقُلْتُ: غَدًا، فَأَمَرَ لِي بِمِائَةِ مِثْقَالٍ ذَهَبًا، وَوَصَلَنِي حَاجِبُهُ بِنَفَقَةٍ وَكُسُوتَةٍ، وَقَالَ: اقْرَأْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مِنِّي السَّلَامَ، فَقَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَأَخْبِرْتُهُ، فَقَالَ: "بَادَ مُلْكُهُ"، وَأَقْرَأْتُهُ مِنْ حَاجِبِهِ السَّلَامَ، وَأَخْبِرْتُهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: "صَدَقَ" : وَمَاتَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَمْرٍ عَامَ الْفَتْحِ، فَفِي هَذِهِ الْمُدَّةِ أَرْسَلَ مَلِكُ غَسَّانَ يَدْعُو كَعْبًا إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ، فَأَبَتْ لَهُ سَابِقَةُ الْحُسْنَى أَنْ يَرْعَبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَدِينِهِ.

فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - لِهَوْلَاءِ الثَّلَاثَةِ أَنْ يَعْتَزِلُوا نِسَاءَهُمْ لَمَّا مَضَى لَهُمْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً كَالْبِشَارَةِ بِمَقْدَمَاتِ الْفَرَجِ وَالْفَتْحِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: كَلَامُهُ لَهُمْ، وَإِرْسَالُهُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَا يُكَلِّمُهُمْ بِنَفْسِهِ وَلَا بِرَسُولِهِ.

الثَّانِي: مِنْ خُصُوصِيَّةِ أَمْرِهِمْ بِاعْتَزَالِ النِّسَاءِ، وَفِيهِ تَنْبِيهُ وَإِرْشَادٌ لَهُمْ إِلَى الْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ، وَشَدِّ الْمِئْزَرِ، وَاعْتَزَالِ مَحَلِّ اللَّهْوِ وَاللَّذَّةِ وَالتَّعَوُّضِ عَنْهُ بِالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَفِي هَذَا إِيْذَانٌ بِقُرْبِ الْفَرَجِ، وَأَنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنَ الْعَتَبِ أَمْرٌ يَسِيرٌ.

وَفَقَهُ هَذِهِ الْقِصَّةُ، أَنَّ زَمَنَ الْعِبَادَاتِ يَنْبَغِي فِيهِ تَجَنُّبُ النِّسَاءِ، كَزَمَنِ الْإِحْرَامِ، وَزَمَنِ الْإِعْتِكَافِ، وَزَمَنِ الصِّيَامِ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَنْ يَكُونَ آخِرُ هَذِهِ الْمُدَّةِ فِي حَقِّ هَوْلَاءِ بِمَنْزِلَةِ أَيَّامِ الْإِحْرَامِ وَالصِّيَامِ فِي تَوْفُرِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ الْمُدَّةِ رَحْمَةً بِهِمْ وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، إِذْ لَعَلَّهُمْ يَضْعُفُ صَبْرُهُمْ عَنْ نِسَائِهِمْ فِي جَمِيعِهَا، فَكَانَ مِنَ اللَّطْفِ بِهِمْ وَالرَّحْمَةِ أَنْ أَمَرُوا بِذَلِكَ فِي آخِرِ الْمُدَّةِ، كَمَا يُؤْمَرُ بِهِ الْحَاجُّ مِنْ حِينَ يُحْرَمُ، لَا مِنْ حِينَ يَعْزِمُ عَلَى الْحَجِّ.

وَقَوْلُ كَعْبٍ لَامِرَاتِهِ: الْحَقِي بِأَهْلِكَ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ بِهِذِهِ اللَّفْظَةِ وَأَمثالها طَلَّاقٌ مَا لَمْ يَنْوِهِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ لَفْظَ الطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ وَالْحُرِّيَّةِ كَذَلِكَ إِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ تَسْيِيبِ الزَّوْجَةِ، وَإِخْرَاجِ الرِّقِيقِ عَنْ مُلْكِهِ، لَا يَقَعُ بِهِ طَلَّاقٌ وَلَا عَتَاقٌ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي نَدِينُ اللَّهَ بِهِ، وَلَا نَرْتَابُ فِيهِ الْبَيِّنَةَ. فَإِذَا قِيلَ لَهُ: إِنَّ غُلَامَكَ فَاجِرٌ أَوْ جَارِيَتِكَ تَزْنِي، فَقَالَ: لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ غُلَامٌ عَفِيفٌ حُرٌّ، وَجَارِيَةٌ عَفِيفَةٌ حُرَّةٌ، وَلَمْ يَرُدْ بِذَلِكَ حُرِّيَّةَ الْعَتَقِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ حُرِّيَّةَ الْعِفَّةِ، فَإِنَّ جَارِيَتَهُ وَعَبْدَهُ لَا يُعْتَقَانِ بِهَذَا أَبَدًا، وَكَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ: كَمْ لَغُلَامِكَ عِنْدَكَ سَنَةً؟ فَقَالَ هُوَ عَتِيقٌ عِنْدِي، وَأَرَادَ قَدَمَ مُلْكِهِ لَهُ، لَمْ يُعْتَقْ بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ إِذَا ضَرَبَ امْرَأَتَهُ الطَّلُقَ، فَسُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: هِيَ طَالِقٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ بِقَلْبِهِ إِيقَاعُ الطَّلَاقِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهَا فِي طَلْقِ الْوِلَادَةِ لَمْ تُطْلَقْ بِهَذَا، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَلْفَافُ مَعَ هَذِهِ الْقَرَائِنِ صَرِيحَةٌ إِلَّا فِيمَا أُريدَ بِهَا وَدَلَّ السِّيَاقُ عَلَيْهَا، فَدَعَوَى أَنَّهَا صَرِيحَةٌ فِي الْعَتَاقِ وَالطَّلَاقِ مَعَ هَذِهِ الْقَرَائِنِ مُكَابَرَةً، وَدَعَوَى بِاطْلَةِ قَطْعًا.

وَفِي سُجُودِ كَعْبٍ حِينَ سَمِعَ صَوْتَ الْمُبَشِّرِ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ أَنَّ تِلْكَ كَانَتْ عَادَةً الصَّحَابَةِ، وَهِيَ سُجُودُ الشُّكْرِ عِنْدَ النِّعَمِ الْمُتَجَدِّدَةِ وَالنِّقَمِ الْمُنْدَفِعَةِ، وَقَدْ سَجَدَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ لَمَّا جَاءَهُ قَتْلُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَسَجَدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لَمَّا وَجَدَ ذَا الثُّدَيَّةِ مَقْتُولًا فِي الْخَوَارِجِ، وَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - حِينَ بَشَّرَهُ جِبْرِيلُ أَنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، وَسَجَدَ حِينَ شَفَعَ لَأُمِّتِهِ فَشَفَعَهُ اللَّهُ فِيهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَتَاهُ بِشِيرٌ فَبَشَّرَهُ بِظَفَرٍ جُنْدٍ لَهُ عَلَى عَدُوِّهِمْ وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِ عَائِشَةَ، فَقَامَ فَخَرَّ سَاجِدًا، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ خَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا»، وَهِيَ آثَارُ صَحِيحَةٍ لَا مَطْعَنَ فِيهَا.

وَفِي اسْتِيقَاقِ صَاحِبِ الْفَرَسِ وَالرَّاقِي عَلَى سِلْعٍ لِيُبَشِّرَا كَعْبًا دَلِيلٌ عَلَى حِرْصِ الْقَوْمِ عَلَى الْخَيْرِ، وَاسْتِيقَاقِهِمْ إِلَيْهِ، وَتَنَافُسِهِمْ فِي مَسَرَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

وَفِي نَزْعِ كَعْبٍ تَوْبِيئِهِ وَإِعْطَائِهِمَا لِلْبَشِيرِ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِعْطَاءَ الْمُبَشِّرِينَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ وَعَادَةِ الْأَشْرَافِ، وَقَدْ أَعْتَقَ الْعَبَّاسُ غُلَامَهُ لَمَّا بَشَّرَهُ أَنَّ عِنْدَ الْحِجَاجِ بْنِ عَلَاطٍ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - مَا يَسُرُّهُ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ إِعْطَاءِ الْبَشِيرِ جَمِيعَ ثِيَابِهِ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ تَهْنِئَةِ مَنْ تَجَدَّدَتْ لَهُ نِعْمَةٌ دِينِيَّةٌ، وَالْقِيَامِ إِلَيْهِ إِذَا أَقْبَلَ، وَمُصَافَحَتِهِ، فَهَذِهِ سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ، وَهُوَ جَائِزٌ لِمَنْ تَجَدَّدَتْ لَهُ نِعْمَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، وَأَنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ لَهُ: لِيَهْنِكَ مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ، وَمَا مِنَ اللَّهِ بِهِ عَلَيْكَ، وَنَحْوُ هَذَا الْكَلَامِ، فَإِنَّ فِيهِ تَوَلِيَّةَ النِّعْمَةِ رَبِّهَا، وَالِدُّعَاءَ لِمَنْ نَالَهَا بِالتَّهْنِي بِهَا.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ خَيْرَ أَيَّامِ الْعَبْدِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَفْضَلُهَا يَوْمُ تَوْبَتِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَبُولِ اللَّهِ تَوْبَتَهُ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مِنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ». فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْيَوْمُ خَيْرًا مِنْ يَوْمِ إِسْلَامِهِ؟

قِيلَ: هُوَ مُكَمَّلٌ لِيَوْمِ إِسْلَامِهِ، وَمِنْ تَمَامِهِ، فَيَوْمُ إِسْلَامِهِ بِدَايَةِ سَعَادَتِهِ، وَيَوْمُ تَوْبَتِهِ كَمَالُهَا وَتَمَامُهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَفِي سُرُورِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِذَلِكَ وَفَرَحِهِ بِهِ وَاسْتِنَارَةِ وَجْهِهِ دَلِيلٌ عَلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ كَمَالِ الشَّفَقَةِ عَلَى الْأُمَّةِ وَالرَّحْمَةِ بِهِمْ وَالرَّأْفَةِ، حَتَّى لَعَلَّ فَرَحَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِ كَعْبٍ وَصَاحِبِيهِ. وَقَوْلُ كَعْبٍ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَتَخَلَّعَ مِنْ مَالِي». دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّدَقَةِ عِنْدَ التَّوْبَةِ بِمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ.

وَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ نَذَرَ الصَّدَقَةَ بِكُلِّ مَالِهِ، لَمْ يَلْزِمُهُ إِخْرَاجُ جَمِيعِهِ، بَلْ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُبْقِيَ لَهُ مِنْهُ بَقِيَّةً، وَقَدْ اخْتَلَفَتِ الرُّوَايَةُ فِي ذَلِكَ، فَفِي "الصَّحِيحَيْنِ" أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ لَهُ: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ"، وَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُ قَدْرًا، بَلْ أَطْلَقَ، وَوَكَّلَهُ إِلَى اجْتِهَادِهِ فِي قَدْرِ الْكَفَايَةِ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، فَإِنَّ مَا نَقَصَ عَنْ كِفَايَتِهِ وَكَفَايَةِ أَهْلِهِ لَا يَجُوزُ لَهُ التَّصَدُّقُ بِهِ، فَتَذَرُهُ لَا يَكُونُ طَاعَةً، فَلَا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَمَا زَادَ عَلَى قَدْرِ كِفَايَتِهِ وَحَاجَتِهِ، فَإِخْرَاجُهُ وَالصَّدَقَةُ بِهِ أَفْضَلُ، فَيَجِبُ إِخْرَاجُهُ إِذَا نَذَرَهُ، هَذَا قِيَاسُ الْمَذْهَبِ، وَمُقْتَضَى قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ، وَلِهَذَا تُقَدَّمُ كِفَايَةُ الرَّجُلِ، وَكَفَايَةُ أَهْلِهِ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ الْمَالِيَةِ، سَوَاءً كَانَتْ حَقًّا لِلَّهِ كَالْكَفَّارَاتِ وَالْحَجِّ، أَوْ حَقًّا لِلْأَدَمِيِّينَ كَأَدَاءِ الدُّيُونِ، فَإِنَّا نَتْرُكُ لِلْمُفْلِسِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ مَسْكَنِ وَخَادِمٍ وَكُسُوفَةٍ وَآلَةٍ حِرْفَةٍ، أَوْ مَا يَتَجَرَّبُ بِهِ لِمُؤْتَتِهِ إِنْ قُدَّتِ الْحِرْفَةُ، وَيَكُونُ حَقُّ الْغُرَمَاءِ فِيمَا بَقِيَ.....

وَبَعْدُ: فَإِنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كَعْبًا وَأَبَا لُبَابَةَ نَذَرَا نَذْرًا مُنَجَّزًا، وَإِنَّمَا قَالَا: إِنَّ مِنْ تَوْبَتِنَا أَنْ نَتَخَلَّعَ مِنْ أَمْوَالِنَا، وَهَذَا لَيْسَ بِصَرِيحٍ فِي النَّذْرِ، وَإِنَّمَا فِيهِ الْعَزْمُ عَلَى الصَّدَقَةِ بِأَمْوَالِهِمَا شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى قَبُولِ تَوْبَتِهِمَا، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَنَّ بَعْضَ الْمَالِ يُجْزَى مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَحْتَاجَانِ إِلَى إِخْرَاجِهِ كُلِّهِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ لِسَعْدٍ وَقَدْ اسْتَأْذَنَهُ أَنْ يُوصِيَ بِمَالِهِ كُلِّهِ، فَأَذِنَ لَهُ فِي قَدْرِ الثُّلُثِ.

وَمِنْهَا: عِظَمُ مِقْدَارِ الصَّدَقِ، وَتَعْلِيْقُ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالنَّجَاةِ مِنْ شَرِّهِمَا بِهِ، فَمَا أَنْجَى اللَّهُ مَنْ أَنْجَاهُ إِلَّا بِالصَّدَقِ، وَلَا أَهْلَكَ مَنْ أَهْلَكَ إِلَّا بِالْكَذِبِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩] [التوبة: ١١٩].

وَقَدْ قَسَمَ سُبْحَانَهُ الْخَلْقَ إِلَى قِسْمَيْنِ: سَعْدَاءَ، وَأَشْقِيَاءَ، فَجَعَلَ السُّعْدَاءَ هُمْ أَهْلُ الصَّدَقِ وَالتَّصَدِيقِ، وَالْأَشْقِيَاءَ هُمْ أَهْلُ الْكَذِبِ وَالتَّكْذِيبِ، وَهُوَ تَقْسِيمٌ حَاصِرٌ مُطَرِّدٌ مُنْعَكِسٌ. فَالسَّعَادَةُ دَائِرَةٌ مَعَ الصَّدَقِ وَالتَّصَدِيقِ، وَالشَّقَاوَةُ دَائِرَةٌ مَعَ الْكَذِبِ وَالتَّكْذِيبِ.

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْعِبَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا صِدْقُهُمْ؛ وَجَعَلَ عِلْمَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِي تَمَيَّزُوا بِهِ هُوَ الْكَذِبُ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، فَجَمِيعُ مَا نَعَاهُ عَلَيْهِمْ أَصْلُهُ الْكَذِبُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَالصَّدَقُ

بَرِيدُ الْإِيمَانِ وَدَلِيلُهُ وَمَرْكَبُهُ وَسَائِقُهُ وَقَائِدُهُ وَحَلِيَّتُهُ وَلِبَاسُهُ، بَلْ هُوَ نُفْسُهُ وَرُوحُهُ. وَالْكَذِبُ: بَرِيدُ الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ وَدَلِيلُهُ وَمَرْكَبُهُ وَسَائِقُهُ وَقَائِدُهُ وَحَلِيَّتُهُ وَلِبَاسُهُ وَنُفْسُهُ، فَمُضَادَّةُ الْكَذِبِ لِلْإِيمَانِ كَمُضَادَّةِ الشَّرِّكَ لِلتَّوْحِيدِ، فَلَا يَجْتَمِعُ الْكَذِبُ وَالْإِيمَانُ إِلَّا وَيَطْرُدُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، وَيَسْتَقَرُّ مَوْضِعُهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَتَجَى الثَّلَاثَةَ بِصِدْقِهِمْ، وَأَهْلَكَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْمُخَلَّفِينَ بِكَذِبِهِمْ، فَمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ بِنِعْمَةٍ أَفْضَلَ مِنَ الصَّدَقِ الَّذِي هُوَ غِذَاءُ الْإِسْلَامِ وَحَيَاتُهُ، وَلَا ابْتِلَاءَ بِلَيَّةٍ أَعْظَمَ مِنَ الْكَذِبِ الَّذِي هُوَ مَرَضُ الْإِسْلَامِ وَفَسَادُهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١١٧] [التوبة: ١١٧] ، هَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعْرِفُ الْعَبْدَ قَدَرَ التَّوْبَةِ وَفَضْلَهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهَا غَايَةُ كَمَالِ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْطَاهُمْ هَذَا الْكَمَالَ بَعْدَ آخِرِ الْغَزَوَاتِ بَعْدَ أَنْ قَضَوْا نَحْبَهُمْ، وَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ لِلَّهِ، وَكَانَ غَايَةَ أَمْرِهِمْ أَنْ تَابَ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ - يَوْمَ تَوْبَةِ كَعْبِ خَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْهِ مِنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَا يَعْرِفُ هَذَا حَقَّ مَعْرِفَتِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ، وَعَرَفَ حَقُّوقَهُ عَلَيْهِ، وَعَرَفَ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ، وَعَرَفَ نَفْسَهُ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالَهَا، وَأَنَّ الَّذِي قَامَ بِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَقِّ رَبِّهِ عَلَيْهِ كَقَطْرَةٍ فِي بَحْرٍ، هَذَا إِذَا سَلِمَ مِنَ الْآفَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَسَعُ عِبَادَهُ غَيْرُ عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَتَعَمُّدِهِ لَهُمْ بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَيْسَ إِلَّا ذَلِكَ أَوْ الْهَلَاكُ، فَإِنْ وَضَعَ عَلَيْهِمْ عَذْلَهُ فَعَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَإِنْ رَحِمَهُمْ فَرَحَّمْتُهُ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَا يُنْجِي أَحَدًا مِنْهُمْ عَمَلُهُ.^{٢٨٩}



قصة زيد بن أرقم مع عبد الله بن أبي بن سلول المنافق

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِيٍّ، يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَنْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعَمْرٍ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَدَعَانِي فَحَدَّثَنِي، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِْبَنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ لِي عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَيَّ أَنْ كَذَبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَقْتَك؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} [المنافقون: ١] فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدٌ» ٢٩٠.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِيٍّ ابْنَ سُلُولٍ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا، وَقَالَ أَيْضًا: لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، فَذَكَرَ عَمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِْبَنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} [المنافقون: ١] إِلَى قَوْلِهِ {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ} [المنافقون: ٧] إِلَى قَوْلِهِ {لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَ} [المنافقون: ٨] فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ» ٢٩١.

شرح المفردات:

(ينفضوا) يتفرقوا عنه.

(الأعز) الأكثر عزة ومنعة وعنوا به أنفسهم.

(الأذل) الأقل عزة ومنعة وعنوا به رسول الله - ﷺ - وأصحابه .

(لعمي) قيل: هو عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - لأنه كان زوج أمه، وعمه الحقيقي ثابت

بن قيس - رضي الله عنه - .

(ما أردت إلى أن كذبتك) ما حملك على قولك حتى جرى لك ما جرى.

(مقتك) أبغضك ٢٩٢.

من فوائد الحديث:

٢٩٠ - صحيح البخاري (١٥٢/٦) (٤٩٠٠) وصحيح مسلم، ح: (٢٧٧٢).

٢٩١ - صحيح البخاري (١٥٢/٦) (٤٩٠١)

٢٩٢ - صحيح البخاري (١٥٢/٦)

١ - قال النووي^{٢٩٣}: فيه أنه ينبغي لمن سمع أمراً يتعلق بالإمام أو نحوه من كبار ولاية الأمور ويخاف ضرره على المسلمين أن يبلغه إياه؛ ليحترز منه ، وقال ابن حجر: ولا يعد نعيمة مذمومة إلا إن قصد بذلك الإفساد المطلق، وأما إذا كانت فيه مصلحة ترجح على المفسدة فلا ، كما هو الحال في هذه الحادثة.^{٢٩٤}

٢ - ترك مؤاخذه كبراء القوم بالهفوات، لئلا ينفر أتباعهم، والاقتصار على معائبهم، وقبول أعتذارهم، وتصديق أيمانهم، وإن كانت القرائن ترشد إلى خلاف ذلك، لما في ذلك من التأنيس والتأليف.

٣ - عظم خلق النبي - ﷺ -، وكمال صبره على الأذى، وقوة تحمله في ذات الله - عز وجل - ورجاء ثوابه.

٤ - فيه منقبة لزيد بن أرقم - رضي الله عنه -، حيث نزل القرآن الكريم بتصديقه.

٥ - خبث المنافقين، وسوء طويتهم، وكيدهم للإسلام والمسلمين.^{٢٩٥}



^{٢٩٣} - شرح النووي على مسلم (١٧ / ١٢٠) ١ - (٢٧٧٢)

^{٢٩٤} - جامع الأصول (٢ / ٣٩٤) وفتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٨ / ٦٤٦)

^{٢٩٥} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٨ / ٦٤٦)

صحابي جليل يتحدث عن إسلامه

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ السُّلَمِيُّ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَانَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَجْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَاءَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي اللَّهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ، قَالَ: «أُرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحِدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ، وَعَبْدٌ»، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي»، قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَكُنْتُ فِي أَهْلِي فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ [ص: ٥٧٠]، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا النَّاسُ: إِلَيْهِ سِرَاعٌ وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ»، قَالَ: فَقُلْتُ: بَلَى فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلَاةِ، قَالَ: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمَحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسَجَّرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ»

قَالَ: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَالْوُضُوءَ حَدَّثَنِي عَنْهُ، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضَّمُ، وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَشِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ، وَفِيهِ وَخْيَاشِيمُهُ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافٍ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أُنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أُنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبُهُ لِلَّهِ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

فَحَدَّثَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَبَا أُمَامَةَ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ: «يَا عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ، انْظُرْ مَا تَقُولُ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ يُعْطَى هَذَا الرَّجُلُ»، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ: «يَا أَبَا أُمَامَةَ، لَقَدْ كَبُرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَافْتَرَبَ أَجْلِي، وَمَا بِي حَاجَةٌ أَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، لَوْ لَمْ

أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا مَرَّةً، أَوْ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ، مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَبَدًا، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»^{٢٩٦}

غريب الحديث :

قوله: «جُرَأُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ» هُوَ بِجِيمٍ مضمومة وبالمد عَلَى وزن علماء، أي: جَاسِرُونَ مُسْتَطِيلُونَ غَيْرُ هَائِيْنٍ، هَذِهِ الرِّوَايَةُ المشهورة، ورواه الحُمَيْدِيُّ وَغَيْرُهُ «جِرَاءُ» بكسر الحاء المهملة، وَقَالَ: معناه غَضَابٌ ذَوُو غَمٍّ وَهَمٍّ، قَدْ عِيلَ صَبْرُهُمْ بِهِ، حَتَّى أَثَّرَ فِي أَجْسَامِهِمْ، مِنْ قَوْلِهِمْ: حَرَى جِسْمُهُ يَحْرَى، إِذَا نَقَصَ مِنْ أَلَمٍ أَوْ غَمٍّ وَخَوْهٍ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ بِالْجِيمِ.

قوله - ﷺ - : «بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ» أي نَاحِيَتِي رَأْسِهِ وَالْمَرَادُ التَّمَثِيلُ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ حِينَئِذٍ يَتَحَرَّكُ الشَّيْطَانُ وَشَبَعَتُهُ، وَيَتَسَلَّطُونَ.

وقوله: «يُقَرَّبُ وَضُوءُهُ» معناه يُحْضَرُ الْمَاءُ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِهِ، وَقوله: «إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا» هُوَ بِالْخَاءِ المعجمة: أي سَقَطَتْ، ورواه بعضهم ... «جَرَّتْ» بِالْجِيمِ، وَالصَّحِيحُ بِالْخَاءِ وَهُوَ رِوَايَةُ الْجُمْهُورِ. وقوله: «فَيَنْشَرُ» أي يَسْتَخْرِجُ مَا فِي أَنْفِهِ مِنْ أَدْنَى وَالثَّرَّةُ: طَرَفُ الْأَنْفِ.^{٢٩٧}

شرح الحديث :

(وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ) : بِالتَّحْرِيكِ، قَالَ الطَّبِيُّ: مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، أَسْلَمَ قَدِيمًا، قِيلَ: كَانَ رَابِعَ أَرْبَعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، وَقَالَ لَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : " إِذَا سَمِعْتَ أَنِّي قَدْ خَرَجْتُ فَاتَّبِعْنِي " فَجَاءَ بَعْدَ خَيْرٍ، وَمِنْ قِصَّتِهِ أَنَّهُ أَقْبَلَ إِلَى مَكَّةَ وَبَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِيمَانِهِ مِنْ قَوْمِهِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى قَوْمِهِ مُتَرَصِّدًا حَتَّى سَمِعَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَارْتَحَلَ إِلَيْهَا، (قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ - ﷺ - الْمَدِينَةَ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ) ، أَي: عَلَى قَصْدِ اللُّحُوقِ بِهِ - ﷺ - وَفِيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ، (فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلَاةِ) ، أَي: عَنْ وَقْتِهَا الْجَائِزَةِ فِيهِ بِدَلِيلِ الْجَوَابِ، (فَقَالَ: " صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ ") ، أَي: سُنَّتَهُ وَفَرَضَهُ (" ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ ") : مِنْ الْإِقْصَارِ، وَهُوَ: الْكَفُّ عَنِ الشَّيْءِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. (" حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ ") : قِيلَ: تَنْكِيرُهُ لِلتَّحْقِيرِ، وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ: " بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ "، قَالَ النَّوَوِيُّ: هَكَذَا فِي الْأُصُولِ بِلَا أَلْفٍ وَلَامٍ، وَفِي بَعْضِ أُصُولِ مُسْلِمٍ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، قِيلَ: الْمُرَادُ بِقَرْنَيْ الشَّيْطَانِ: أَحْزَابُهُ وَأَتْبَاعُهُ، وَقِيلَ: قُوَّتُهُ وَغَلَبَتُهُ وَانْتِشَارُ الْفَسَادِ، وَقِيلَ: الْقَرْنَانِ نَاصِيَتَا الرَّأْسِ وَهَذَا هُوَ الْأَفْوَى يَعْنِي: أَنَّهُ يُدْنِي رَأْسَهُ إِلَى الشَّمْسِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ، فَيَكُونُ السَّاجِدُ لَهَا مِنَ الْكُفَّارِ كَالسَّاجِدِينَ لَهُ فِي الصُّورَةِ، نَقْلَهُ مِيرْكَ، (" وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ ") ، أَي: الَّذِينَ يَعْبُدُونَهَا (" ثُمَّ صَلِّ ") ، أَي: صَلَاةَ الْإِشْرَاقِ فَإِنَّهَا مَبْدَأُ الضُّحَى، أَوْ صَلَاةَ الضُّحَى فَإِنَّهَا

^{٢٩٦} - صحيح مسلم (١/ ٥٦٩) ٢٩٤ - (٨٣٢)

^{٢٩٧} - تطريز رياض الصالحين (ص: ٢٩٧)

مُنْتَهِيَّةً إِلَى قُرْبِ الْاِسْتِوَاءِ أَوْ صَلَّ مَا شِئْتَ، (" فَإِنَّ الصَّلَاةَ ") ، أَي: بَعْدَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ، أَوْ إِنْ الصَّلَاةَ الْمَشْرُوعَةَ (" مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ ") ، أَي: يَحْضُرُهَا الْمَلَائِكَةُ لِيَكْتُبُوا أَجْرَهَا وَيَشْهَدُوا بِهَا لِمَنْ صَلَّاهَا، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ فِي رِوَايَةٍ: " مَشْهُودَةٌ مَكْتُوبَةٌ " ، وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ، أَي: يَحْضُرُهَا أَهْلُ الطَّاعَةِ مِنْ سُكَّانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَعَلَى الْمَعْنَيْنِ؛ فَمَحْضُورَةٌ: تَفْسِيرُ مَشْهُودَةٌ وَتَأْكِيدُ لَهَا، وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ مَشْهُودَةٌ عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، وَمَحْضُورَةٌ عَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي، أَوِ الْأَوَّلَى بِمَعْنَى الشَّهَادَةِ، وَالثَّانِيَةُ بِمَعْنَى الْحُضُورِ لِلتَّبَرُّكِ، وَالتَّأْسِيسُ أَوَّلَى مِنَ التَّأْكِيدِ وَفِيهِ بَيَانٌ لِفَضِيلَةِ صَلَاةِ الضُّحَى، (" حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمَحِ ") ، أَي: حَتَّى يَرْتَفِعَ الظِّلُّ مَعَ الرُّمَحِ، أَوْ فِي الرُّمَحِ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُ شَيْءٌ، أَوْ يَرْتَفِعَ الظِّلُّ بِالرُّمَحِ، أَي: بَارْتِفَاعِ الرُّمَحِ مِنَ الْاِسْتِقْلَالِ بِمَعْنَى الْارْتِفَاعِ.

قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: يَعْنِي لَمْ يَبْقَ ظِلُّ الرُّمَحِ، وَهَذَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَحَوَالِيهِمَا فِي أَطْوَلِ يَوْمٍ فِي السَّنَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى عِنْدَ الزَّوَالِ ظِلُّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، بَلْ يَرْتَفِعُ عَنْهَا، ثُمَّ إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ مِنْ جَانِبِ الْمَشْرِقِ إِلَى جَانِبِ الْمَغْرِبِ، وَهُوَ أَوَّلُ وَقْتِ الظُّهْرِ يَقَعُ الظِّلُّ عَلَى الْأَرْضِ، وَقِيلَ: مِنَ الْقِلَّةِ يُقَالُ: اسْتَقْلَهُ إِذَا رَأَاهُ قَلِيلًا، أَي: حَتَّى يَقِلَّ الظِّلُّ الْكَائِنُ بِالرُّمَحِ أَدْنَى غَايَةِ الْقِلَّةِ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِظِلِّ الزَّوَالِ اهـ.

وَرُوي: حَتَّى يَسْتَقِلَّ الرُّمَحُ بِالظِّلِّ، أَي: يَرْفَعُ الرُّمَحُ ظِلَّهُ، فَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيدِ، وَعَلَى الرِّوَايَتَيْنِ هُوَ مَجَازٌ عَنْ عَدَمِ بَقَاءِ ظِلِّ الرُّمَحِ عَلَى الْأَرْضِ، وَذَلِكَ يَكُونُ فِي وَقْتِ الْاِسْتِوَاءِ، وَتَخْصِصُ الرُّمَحِ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا أَرَادُوا مَعْرِفَةَ الْوَقْتِ رَكَزُوا رِمَاحَهُمْ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى ظِلِّهَا. قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ: قَوْلُهُ: " حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمَحِ " ، أَي: يَقُومُ مُقَابِلَهُ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ لَيْسَ مَائِلًا إِلَى الْمَغْرِبِ، وَلَا إِلَى الْمَشْرِقِ وَهُوَ حَالَةُ الْاِسْتِوَاءِ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: كَذَا فِي نُسْخِ الْمَصَابِيحِ، وَفِيهِ تَحْرِيفٌ وَصَوَابُهُ: " حَتَّى يَسْتَقِلَّ الرُّمَحُ بِالظِّلِّ " ، وَوَافَقَهُ صَاحِبُ النَّهْيَةِ فَقَالَ: يَسْتَقِلُّ الرُّمَحُ بِالظِّلِّ: يَبْلُغُ ظِلُّ الرُّمَحِ الْمَعْرُوزِ فِي الْأَرْضِ أَدْنَى غَايَةِ الْقِلَّةِ وَالنَّقْصِ، فَقَوْلُهُ: يَسْتَقِلُّ مِنَ الْقِلَّةِ لَا مِنَ الْإِقْلَالِ وَالْاِسْتِقْلَالِ الَّذِي بِمَعْنَى الْارْتِفَاعِ وَالْاِسْتِبْدَادِ.

قَالَ الطَّبِيبِيُّ: كَيْفَ تَرُدُّ نُسْخَ الْمَصَابِيحِ مَعَ مُوَافَقَتِهَا بَعْضُ نُسْخِ مُسْلِمٍ، وَكِتَابَ الْحُمَيْدِيِّ؟ ! وَلَهَا مَحَامِلُ مِنْهَا: أَنْ يَرْتَفِعَ الظِّلُّ مَعَهُ وَلَا يَقَعُ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ قَوْلِهِمْ: اسْتَقْلَتِ السَّمَاءُ: ارْتَفَعَتْ، وَمِنْهَا: أَنْ يُقَدَّرَ مُضَافٌ أَيْ يُعْلَمُ قِلَّةُ الظِّلِّ بِوَاسِطَةِ ظِلِّ الرُّمَحِ، وَمِنْهَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ: عَرَضَتِ النَّاقَةُ عَلَى الْحَوْضِ اهـ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَفِيهِ حُجَّةٌ عَلَى مَالِكٍ فِي تَجْوِيزِهِ الصَّلَاةَ عِنْدَ الْاِسْتِوَاءِ مُطْلَقًا مُسْتَدَلًّا بِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَرَى النَّاسَ يُصَلُّونَ حِينَئِذٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، قُلْتُ: تَحَقُّقُ صَلَاتِهِمْ فِي خُصُوصِ تِلْكَ السَّاعَةِ يَحْتَاجُ إِلَى تَحْقِيقٍ وَتَدْقِيقٍ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَمَا اسْتَدَلَّ بِهِ لَا يَنْهَضُ لَهُ ؛ لِأَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُسْتَثْنَى كَمَا يَأْتِي اهـ.

وَسَيَاتِي الْجَوَابُ عَنِ الْاسْتِثْنَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى (" ثُمَّ أَقْصِرْ ") : بِهَمْزَةٍ مَفْتُوحَةٍ وَبِكَسْرِ الصَّادِ، أَيْ: كُفَّ وَامْتَنَعَ (" عَنِ الصَّلَاةِ ") : مُطْلَقًا (" فَإِنْ حِينَئِذٍ ") ، أَيْ: حِينَ يَسْتَقِلُّ الظِّلُّ بِالرُّمَحِ (" تُسَجَّرُ ") : بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ مَجْهُولًا، أَيْ: تُعْقَدُ (" جَهَنَّمَ ") : مِنْ تَسَجَّرَ التَّنُّورَ: إِذَا أَوْقَدَهُ، قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: أَيْ: ثُمْلًا نِيرَانُ جَهَنَّمَ وَثَوَقْدُ، وَلَعَلَّ تَسَجَّرَهَا حِينَئِذٍ لِمُقَارَنَةِ الشَّيْطَانِ الشَّمْسَ وَتَهْيِئَةِ عِبَادِ الشَّمْسِ أَنْ يَسْجُدُوا لَهَا، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَاسْمُ " إِنَّ " أَنْ الْمَصْدَرِيَّةُ الْمُقَدَّرَةُ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ} [الروم: ٢٤] أَوْ ضَمِيرُ الشَّانِ، وَمَا قِيلَ أَنَّهُ لَا يُحذفُ ؛ لِأَنَّ الْقَصْدَ بِهِ التَّعْظِيمُ، وَهُوَ يَقُوتُ بِحذفِهِ مَرْدُودٌ بِأَنَّ سَبَبَ دَلَالَتِهِ عَلَى التَّعْظِيمِ إِبْهَامُهُ، وَحذفُهُ أَدَلُّ عَلَى الْإِبْهَامِ، وَمِنْ ثَمَّ حُذِفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ} [التوبة: ١١٧] (" فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ ") ، أَيْ: رَجَعَ بَعْدَ ذَهَابِهِ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَهَذَا وَقْتُ الظُّهْرِ، وَالْفَيْءُ: مَا نَسَخَ الشَّمْسُ وَذَلِكَ بِالْعَشِيِّ، وَالظِّلُّ مَا نَسَخَتْهُ الشَّمْسُ وَذَلِكَ بِالْعُدُودَةِ، (" فَصَلِّ ") : أَيْ: أَيُّ صَلَاةٍ تُرِيدُهَا (" فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ ") : صِفَةٌ كَاشِفَةٌ أَوْ ثَانِيَةٌ (" حَتَّى تُصَلِّيَ ") : أَيْ: أَنْتَ (" الْعَصْرَ ") ، أَيْ: فَرَضَهُ (" ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ ") : أَيْ: يَقْرُبُ غُرُوبُ الشَّمْسِ، فَيَصِيرُ الْمَعْنَى حِينَ تَغْرُبُ، فَيُنَاسِبُ قَرِينَهُ الْمُتَقَدِّمَ حِينَ تَطْلُعُ وَيُلَاقِيهِ تَعْلِيلُهُ بِقَوْلِهِ: " فَإِنَّهَا تَغْرُبُ. " . الْإِخ.

وَلَعَلَّ الْعُدُولَ لِيَفْهَمُ مِنْ أَحَدِ الْعِبَارَتَيْنِ وَقْتُ الطُّلُوعِ، وَيُقَاسُ عَلَيْهِ وَقْتُ الْغُرُوبِ، وَمِنْ الْعِبَارَةِ الْأُخْرَى مَا بَيْنَ الْعَصْرِ وَالْغُرُوبِ، وَيُقَاسُ عَلَيْهِ مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وَالطُّلُوعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، (" فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ ") : وَتَنْكِيرُهُ لِمَا مَرَّ، وَفِي بَعْضِ النُّسخِ بِالتَّعْرِيفِ (" وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ ") : فَلَا يُشَابِهُ أَهْلَ النَّارِ فِي عِبَادَتِهِمْ، فَضَّلًا عَنْ غَيْرِهَا، وَأَمَّا مَا بَيْنَ فَرَضِ الصُّبْحِ وَحِينَ الطُّلُوعِ، وَبَيْنَ فَرَضِ الْعَصْرِ وَزَمَانِ الْغُرُوبِ، فَوَقْتُ مَكْرُوهٍ لِلنَّوَافِلِ فَقَطْ عِنْدَنَا، قِيلَ: وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ وُرُودِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ مَا قَارَبَ الشَّيْءَ أُعْطِيَ حُكْمَهُ، كَتَحْرِيمِ فَرْجِ الْحَائِضِ، وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَأَيْضًا فَعِبَادَةُ الشَّمْسِ رَبِّمَا تَهَيَّئُوا لَتَعْظِيمِهَا مِنْ أَوَّلِ ذَيْنِكَ الْوَقْتَيْنِ، فَيَرُصُّدُونَهَا مُرَاقِبِينَ لَهَا إِلَى أَنْ تَظْهَرَ فَيُخْرِجُوا لَهَا سُجْدًا، فَلَوْ أُبِيحَ التَّنْفُلُ فِي ذَيْنِكَ الْوَقْتَيْنِ لَكَانَ فِيهِ أَيْضًا تَشْبَهُ بِهِمْ أَوْ إِبْهَامُهُ أَوْ التَّسَبُّبُ إِلَيْهِ، وَكَذَا بَيْنَ طُلُوعِ الصُّبْحِ وَأَدَاءِ فَرَضِهِ مَا عَدَا سُنَّتَهُ.

(قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَالْوُضُوءُ) : بِالرَّفْعِ، وَقِيلَ بِالنَّصْبِ (حَدَّثَنِي عَنْهُ) ، أَيْ: أَخْبَرَنِي عَنْ فَضْلِهِ، (قَالَ: " مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ ") : بِالتَّشْدِيدِ عَلَى بِنَاءِ الْفَاعِلِ، وَقِيلَ: عَلَى بِنَاءِ الْمَفْعُولِ (" وَضُوءُهُ ") : بَفَتْحِ الْوَاوِ، أَيْ: الْمَاءِ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِهِ، (" فَيَمْضَمُضُ ") ، أَيْ: بَعْدَ غَسْلِ الْيَدَيْنِ، وَالتَّسْمِيَةِ، وَالنِّيَّةِ، (" وَيَسْتَنْشِقُ ") ، أَيْ: يُدْخِلُ الْمَاءَ فِي الْأَنْفِ (" فَيَسْتَنْشِرُ ") ، أَيْ: يُخْرِجُ مَا فِي الْخَيْشُومِ مِنَ الْأَوْسَاحِ (" إِلَّا خَرَّتْ ") : اسْتِثْنَاءٌ مُفَرَّغٌ، قَالَ الطَّبْيِيُّ: قَوْلُهُ: إِلَّا خَرَّتْ خَبَرٌ " مَا " وَالْمُسْتَشْنَى مِنْهُ مُقَدَّرٌ، أَيْ: مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ مُتَّصِفٌ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ كَائِنْ عَلَى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يُنْزَلُ سَائِرُ الْاسْتِثْنَاءَاتِ، وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِالتَّنْفِي فِيهَا لِكَوْنِهَا فِي سِيَاقِ التَّنْفِي بِوَاسِطَةِ

ثُمَّ الْعَاطِفَةُ، أَيُّ: سَقَطَتْ، (" خَطَايَا وَجْهِهِ ") : مِنْ الصَّغَائِرِ، قَالَ التَّوَوِيُّ: ضَبَطْنَاهُ بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ، وَكَذَا نَقَلَهُ الْقَاضِي عِيَّاضٌ عَنْ جَمِيعِ الرُّوَاةِ إِلَّا عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ فَإِنَّهُ رَوَاهُ بِالْجِيمِ، ذَكَرَهُ الطَّبِيبِيُّ، أَيُّ: جَرَتْ مَعَ مَاءِ الْوُضُوءِ، وَذَهَبَتْ ذُنُوبُ وَجْهِهِ، (" وَفِيهِ ") ، أَيُّ: خَطَايَا فَمِنْهُ مِنْ جِهَةِ الْكَلَامِ، وَمِنْ طَرِيقِ الطَّعَامِ، (" وَخِيَّاشِيمِهِ ") ، أَيُّ: أَنْفَهُ جَمَعَ خَيْشُومٌ، وَهُوَ بَاطِنُ الْأَنْفِ مِنْ جِهَةِ رَائِحَةِ طِيبٍ مُحَرَّمٍ عَلَى جِهَةِ الْقَصْدِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ عَطْفَ " فِيهِ " وَمَا بَعْدَهُ عَلَى مَا قَبْلَهُ تَفْسِيرِيٌّ لِقَوْلِهِ: (" ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ ") ، أَيُّ: كُلَّهُ أَوْ بَاقِيَهُ (" كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ") : إِشَارَةً إِلَى أَنَّ غَسْلَهُ فَرَضٌ بِأَمْرِهِ تَعَالَى عَزَّ قَائِلًا: { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ } [المائدة: ٦] بِخِلَافِ مَا سَبَقَ، فَإِنَّهُمَا سُنَّتَانِ بِأَمْرِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوْ بِمَعْنَى كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَبْدَأَ بِغَسْلِهِ وَلِذَا قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عِنْدَ إِرَادَةِ السَّعْيِ " ابْدُءُوا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ "، (" إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ ") : مِنْ ذُنُوبٍ عَيْنِيهِ (" مِنْ أَطْرَافٍ لِحَيْتِهِ ") ، أَيُّ: مَوْضِعُهَا (" مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ") ، أَيُّ: مُنْضَمَّتَيْنِ إِلَيْهِمَا، أَوْ إِلَى مَعْنَى " مَعَ " خِلَافًا لِزُفَرٍ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِفَرَضٍ عِنْدَهُ، وَفِي الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ رَدٌّ عَلَى الشَّيْعَةِ حَيْثُ انْعَكَسَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ، وَانْقَلَبَ الرَّأْيُ لَدَيْهِمْ، فَيَغْسِلُونَ الْيَدَيْنِ مِنَ الْمِرْفَقَيْنِ إِلَى الْأَصَابِعِ (" إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ ") : وَهِيَ كَثِيرَةٌ (" مِنْ أَنْامِلِهِ ") : وَهِيَ رُءُوسُ أَصَابِعِهِ (" مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ ") : ظَاهِرُهُ الْاسْتِيعَابُ إِمَّا بِطَرِيقِ الْفَرْضِيَّةِ وَإِمَّا عَلَى طَرِيقِ السُّنَنِ، (" إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ ") : وَمِنْهَا خَطَايَا الْأُذُنَيْنِ، وَلِذَا يُمَسَّحَانِ بِمَائِهِ عِنْدَنَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: (" مِنْ أَطْرَافٍ شَعْرِهِ ") : بَفَتْحِ الْعَيْنِ وَسُكُونِهَا نَظَرًا إِلَى الْأَصْلِ، أَوْ التَّغْلِيبِ، (" مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ") : كَمَا مَرَّ (" إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنْامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ ") : شَرْطِيَّةٌ (" هُوَ ") ، أَيُّ: الرَّجُلُ وَرَافِعُهُ فَعَلُ مُضْمَرٌ يُفْسِرُهُ (" قَامَ ") : وَلِحَذْفِهِ بَرَزَ ضَمِيرُهُ الْمُسْتَكْنُ فِيهِ، أَيُّ: فَإِنْ قَامَ بَعْدَ فَرَاحِ الْوُضُوءِ (" فَصَلَّى فَحَمَدَ ") : وَفِي نُسْخَةٍ: وَحَمَدَ، أَيُّ: وَشَكَرَ (" اللَّهُ ") ، أَيُّ: بَعْدَ الصَّلَاةِ (" وَأَتْنَى عَلَيْهِ ") ، أَيُّ: ذَكَرَ اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَقِيلَ: فَانْدَثَتْهُ الْإِعْلَامُ بِأَنَّ لَفْظَ الْحَمْدِ غَيْرُ مُتَعَيَّنٍ (" وَمَجَّدَهُ ") ، أَيُّ: عَظَّمَهُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، فَهُوَ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَعْمِيمٍ، أَوْ بَعْدَ تَخْصِصٍ، وَجَعَلَهُ ابْنُ حَجَرٍ لِمَزِيدِ التَّأَكِيدِ وَالْإِطْنَابِ (" بِالَّذِي ") ، أَيُّ: بِالتَّحْمِيدِ الَّذِي (" هُوَ لَهُ أَهْلٌ ") ، أَيُّ: مِمَّا يَلِيقُ بِعَظَمَةِ جَمَالِهِ وَجَلَالَةِ جَلَالِهِ وَبَهَاءِ كَمَالِهِ، وَقَدَّمَ الْجَارُ لِإِفَادَةِ الْإِحْتِصَاصِ وَالِاهْتِمَامِ، قَالَ ابْنُ الْمَلِكِ: ضَمِيرُ " هُوَ " عَائِدٌ إِلَى الْمَوْضُولِ، وَضَمِيرُ " لَهُ " إِلَى اللَّهِ، (" وَفَرَّغَ قَلْبُهُ ") ، أَيُّ: جَعَلَهُ حَاضِرًا لِلَّهِ وَغَائِبًا عَمَّا سِوَاهُ، أَيُّ: فِي صَلَاتِهِ وَحَالَةِ مُنَاجَاتِهِ (" لِلَّهِ ") ، أَيُّ: لَا لغيرِهِ حَتَّى الثَّوَابِ ؛ لِأَنَّ رِبْطَ الْقَصْدِ بِهِ يُنَافِي مَقَامَ الْكَمَالِ الْمُشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف: ١١٠] (" إِلَّا انْصَرَفَ ") : قِيلَ: " هُوَ " فِي قَوْلِهِ " فَإِنْ هُوَ " فَاعِلٌ مُحَذُوفٌ وَعَائِدٌ إِلَى الرَّجُلِ الْمَذْكُورِ تَقْدِيرُهُ: إِنْ قَامَ الرَّجُلُ الْمَذْكُورُ فَعَلَّ كَذَا وَكَذَا، فَلَيْسَ إِلَّا انْصَرَفَ، (" مِنْ خَطِيئَتِهِ ") : وَقِيلَ: الْأَوَّلَى أَنْ تَكُونَ " إِنْ " فِيهِ نَافِيَةٌ، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَجَوَابُ " إِنْ " فَلَا يَنْصَرِفُ خَارِجًا مِنْ

شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا أَنْصَرَفَ خَارِجًا مِنْ خَطِيئَتِهِ، أَيُّ: صَعَائِرِهِ فَيَصِيرُ مُتَطَهِّرًا مِنْهَا (" كَهَيْئَتِهِ ") ،
 أَيُّ: كَصِفَتِهِ (" يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ") : يَفْتَحُ الْمِيمَ، وَفِي نُسخة: " كَهَيْئَةِ يَوْمٍ " بِالْإِضَافَةِ مَعَ تَنْوِينِ " يَوْمَ "
 " وَفَتْحِهِ عَلَى الْبِنَاءِ، وَظَاهِرُهُ غُفْرَانُ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ إِلَّا أَنَّ الصَّغَائِرَ مُحَقَّقَةٌ وَالْكَبَائِرَ بِالْمَشِيشَةِ مُقَيَّدَةٌ.
 قَالَ الطَّبَّيُّ: " فَإِنْ هُوَ قَامَ " إِنْ شَرَطِيَّةً، وَالضَّمِيرُ الْمَرْفُوعُ بَعْدَهَا فَاعِلٌ فِعْلٌ يُفَسِّرُهُ مَا بَعْدَهُ، وَجَوَابُ
 الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، وَهُوَ الْمُسْتَشْنَى مِنْهُ، أَيُّ: لَا يَنْصَرِفُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا مِنْ خَطِيئَتِهِ. . . .
 إِنْخَ، وَجَازَ تَقْدِيرُ النَّفْيِ لِمَا مَرَّ مِنْ أَنَّ الْكَلَامَ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، وَهَذَا عَلَى مَذْهَبِ الزَّمَخْشَرِيِّ، وَأَمَّا
 مَذْهَبُ ابْنِ الْحَاجِبِ، فَيَجُوزُ فِي الْإِثْبَاتِ نَحْوُ: قَرَأْتُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ.^{٢٩٨}

من فوائد هذا الحديث والقصة :

- ١- من العرب قبل الإسلام من كان ينكر عبادة الأوثان ، لأنها تخالف العقل والفطرة .
- ٢- بدأ الرسول ﷺ دعوته سراً ، ومع ذلك كان قومه يتسلطون عليه ، وهو صابر ، وفي هذا درس مفيد للدعاة أن يصبروا على الأذى .
- ٣- الإسلام يأمر بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان ، وعبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به .
- ٤- الدعوة كانت ضعيفة في بادئ الأمر، فلم يؤمن به من الأحرار إلا أبا بكر ، ومن العبيد إلا بلال .
- ٥- وثوق الرسول ﷺ من ظهور دعوته ، ونصيحته لعمرو أن يأتيه عند ذلك .
- ٦- إسراع الناس إلى الدخول في الإسلام رغم التهديدات ، ودخول عمرو على الرسول ﷺ ، ليتعرف عليه ، ويذكره الرسول ﷺ بلقياه في مكة .
- ٧- أهمية العلم والتعليم والسؤال عما يجهله الإنسان ، ولا سيما في الأمور المهمة من الدين كالوضوء والصلاة ، وغيرها ، وذلك بعد معرفة توحيد الله ، وعدم الإشراك به .
- ٨- فضل الوضوء والصلاة الخاشعة، وأنها سبب في خروج المصلي من خطيئته كهَيْئَتِهِ يوم ولدته أمه .
- ٩- تعليم الرسول ﷺ للصحابي أوقات الصلوات الخمس ، والأوقات التي تمنع فيها الصلاة .
- ١٠- الحث على صلة الأرحام لأن الله تعالى قرنها بالتوحيد.
- ١١- وفيه: مشروعية الصلاة في كل وقت، إلا أوقات النهي^{٢٩٩}.



^{٢٩٨} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٨٢٢)

^{٢٩٩} - تطريز رياض الصالحين (ص: ٢٩٨)

قصة إسلام سيد أهل اليمامة

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجلٍ من بني حنيفة يُقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خيرٌ يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فتركه حتى كان الغد، ثم قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» قال: ما قلت لك: إن تُنعم تُنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك، فقال: «أطلقوا ثمامة» فأنطلق إلى نجلٍ قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله، لا يأتیکم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها النبي ﷺ " ٣٠٠

شرح المفردات:

(فانطلق إلى نجل) هكذا هو في البخاري ومسلم وغيرهما نجل بالخاء المعجمة وتقديره انطلق إلى نجل فيه ماء فاغتسل منه. وفي نسخة (نجل) أي ماء.

(صبوت) خرجت من دينك.

(إن تقتل تقتل ذا دم) اختلفوا في معناه فقال القاضي عياض في المشارق وأشار إليه في شرح مسلم معناه إن تقتل تقتل صاحب دم لدمه موقع يشفى بقتله قاتله ويدرك قاتله به ثأره أي لرياسته وفضيلته وحذف هذا لأنهم يفهمونه في عرفهم وقال آخرون معناه تقتل من عليه دم مطلوب به وهو مستحق عليه فلا عتب عليك في قتله.

(وبشره) أي بخير الدنيا والآخرة. ٣٠١

شرح الحديث :

(وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بعث رسول الله - ﷺ -) : أي في السنة السادسة (خيلاً: هو على حذف المضاف ؛ أي فرسان الخيل، وفي الحديث: يا خيل الله اركبي ؛ أي يا فرسان خيل

٣٠٠ - صحيح البخاري (١٧٠ / ٥) (٤٣٧٢) وصحيح مسلم (٣ / ١٣٨٦) ٥٩ - (١٧٦٤)

٣٠١ - صحيح مسلم (٣ / ١٣٨٦) وشرح النووي على مسلم (١٢ / ٨٩) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٨ / ٢٢)

اللَّهُ، أَوْ سُمِّيَتِ الْجَمَاعَةُ خَيْلًا ؛ لِأَنَّهُمْ تَجَرَّدُوا لِمَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا كَمَا سُمِّيَتِ الرَّبِيعَةُ عَيْنًا (قِيلَ نَجْدٌ) ،
بَكْسِرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْمُوحَدَةِ ؛ أَيُّ: حَدَاةٌ وَجَانِبُهُ. فِي الْقَامُوسِ: النَّجْدُ وَبِضْمٍ جِيْمِهِ مُذَكَّرٌ وَهُوَ مَا
خَالَفَ الْعَوْرَ ؛ أَيُّ تِهَامَةً، أَعْلَاهُ تِهَامَةٌ وَالْيَمَنُ، وَأَسْفَلُهُ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَوَّلُهُ مِنْ جِهَةِ الْحِجَازِ ذَاتُ
عَرَقٍ، (فَجَاءَتْ) : أَيُّ الْخَيْلُ (بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يُقَالُ، لَهُ: ثِمَامَةٌ بَنُ أَثَالٍ) بِضَمٍّ أَوَّلُهُمَا (سَيِّدُ
أَهْلِ الْيَمَامَةِ) : فِي الْقَامُوسِ: هِيَ بِلَادُ الْحَوِّْ مَنْسُوبَةٌ إِلَى جَارِيَةٍ زَرْقَاءَ كَانَتْ تُبْصِرُ الرَّكَّابَ مِنْ مَسِيرَةِ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَسُمِّيَتْ بِاسْمِهَا، أَكْثَرُ نَخِيلًا مِنْ سَائِرِ الْحِجَازِ، وَبِهَا تَنَبَّأَ مُسْلِمَةُ الْكَذَّابُ، وَهِيَ دُونَ
الْمَدِينَةِ فِي وَسْطِ الشَّرْقِ عَنْ مَكَّةَ عَلَى سِتِّ عَشْرَةَ مَرَحَلَةً مِنَ الْبَصْرَةِ، وَعَنِ الْكُوفَةِ نَحْوَهَا وَالنَّسَبَةُ
يَمَامِيٌّ. (فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ) : أَيُّ أُسْطُوَانَةٍ (مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ) ؛ أَيُّ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ (فَخَرَجَ إِلَيْهِ
رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: مَاذَا عِنْدَكَ) ؟ أَيُّ مِنَ الظَّنِّ فِي أَنْ أَفْعَلَ بِكَ (يَا ثِمَامَةُ) ؟ قَالَ الطَّبِيُّ: فِيهِ
وَجْهَانِ أَنْ تَكُونَ مَا اسْتَفْهَمِيَّةً، وَذَا مَوْصُولًا وَعِنْدَكَ صَلْتُهُ ؛ أَيُّ: مَا الَّذِي اسْتَقَرَّ عِنْدَكَ مِنَ الظَّنِّ فِيمَا
أَفْعَلُ بِكَ (قَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ! خَيْرٌ) ؛ لِأَنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ تَظْلُمُ بَلْ مِمَّنْ تُحْسِنُ وَتُنْعِمُ، وَأَنْ يَكُونَ
مَاذَا بِمَعْنَى " أَيُّ شَيْءٍ " مُبْتَدَأٌ وَعِنْدَكَ خَبْرُهُ، وَقَوْلُهُ: (إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمُ عَلَى
شَاكِرٍ) ، تَفْصِيلُ لِقَوْلِهِ: خَيْرٌ ؛ لِأَنَّ فِعْلَ الشَّرْطِ إِذَا كُرِّرَ فِي الْجَزَاءِ دَلَّ عَلَى فَخَامَةِ الْأَمْرِ. قَالَ
النَّوَوِيُّ، قَوْلُهُ ذَا دَمٍ فِيهِ وَجُوهٌ: أَحَدُهَا: مَعْنَاهُ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ صَاحِبَ الدَّمِ، لِدَمِهِ مَوْقِعٌ يَشْتَفِي بِقَتْلِهِ
قَاتِلُهُ، وَيُذْرِكُ قَاتِلُهُ بَثَّارَهُ ؛ أَيُّ لِرِيَاسَتِهِ وَفَضْلِهِ، وَحَذَفَ هَذَا ؛ لِأَنَّهُمْ يَفْهَمُونَهُ فِي عُرْفِهِمْ، وَثَانِيهَا: إِنْ
تَقْتُلْ تَقْتُلْ مَنْ عَلَيْهِ دَمٌ مَطْلُوبٌ بِهِ، وَهُوَ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ فَلَا عَتَبَ عَلَيْكَ، وَثَالِثُهَا ذَا دَمٍ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ
وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ ؛ أَيُّ: ذَا دِمَامٍ وَحَرَمَةٍ فِي قَوْمِهِ، وَرَوَاهَا بَعْضُهُمْ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ كَذَلِكَ: قَالَ
الْقَاضِي: وَهِيَ ضَعِيفَةٌ ؛ لِأَنَّهَا تَقْلِبُ الْمَعْنَى، فَإِنَّ احْتِرَامَهُ يَمْنَعُ الْقَتْلَ. قَالَ الشَّيْخُ: وَيُمْكِنُ تَصْحِيحُهَا
بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ ؛ أَيُّ تَقْتُلْ رَجُلًا جَلِيلًا يَحْتَفِلُ قَاتِلُهُ بِقَتْلِهِ، بِخِلَافِ مَا إِذَا قُتِلَ حَقِيرًا
مَهِينًا، فَإِنَّهُ لَا فَضِيلَةَ وَلَا يُذْرِكُ بِهِ قَاتِلُهُ ثَارَهُ.

قَالَ الطَّبِيُّ: وَاخْتَارَ الشَّيْخُ الثَّوْرِبَشْتِيُّ، الْوَجْهَ الثَّانِي، حَيْثُ قَالَ: الْمَعْنَى إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ مَنْ تَوَجَّهَ عَلَيْهِ
الْقَتْلُ بِمَا أَصَابَهُ مِنْ دَمٍ، وَرَأَاهُ أَوْجَهَ لِلْمُشَاكَلَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: وَإِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمُ عَلَى شَاكِرٍ، (وَإِنْ
كُنْتُ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ) : بِالْهَمْزِ وَالنَّقْلِ (تُعْطُ) : بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ (مِنْهُ) : أَيُّ مِنَ الْمَالِ وَهُوَ بَيَانُ
لِقَوْلِهِ: (مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -) : أَيُّ عَلَى حَالِهِ (حَتَّى كَانَ) : أَوْ وَقَعَ (الْعَدُوُّ) ، وَفِي
نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ ؛ أَيُّ كَانَ الزَّمَانُ الْعَدُوُّ («فَقَالَ لَهُ: مَا عِنْدَكَ يَا ثِمَامَةُ؟ فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ
تُنْعِمُ تُنْعِمُ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطِ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ
رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْعَدُوِّ ») : قَالَ الطَّبِيُّ: اسْمُ كَانَ ضَمِيرٌ عَائِدٌ إِلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ
حُكْمًا ؛ أَيُّ: حَتَّى كَانَ مَا هُوَ عَلَيْهِ ثِمَامَةُ بَعْدَ الْعَدُوِّ («قَالَ لَهُ: مَا عِنْدَكَ يَا ثِمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا
قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمُ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطِ مِنْهُ مَا

شَتَّ») : قَالَ الْأَشْرَفُ: فِي تَقْدِيمِ قَوْلِهِ: إِنْ تَقَتَّلْتَ تَقَتَّلْ ذَا دَمٍ عَلَى قِسْمِيهِ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، وَتَوَسَّيْتَهُ بَيْنَهُمَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ مَا يُرْشِدُ إِلَى حَدَاقَتِهِ وَحَدْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَى غَضَبَ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ قَدَّمَ فِيهِ الْقَتْلَ تَسْلِيَةً، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ رَجَا أَنْ يُنْعَمَ عَلَيْهِ فَقَدَّمَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ قَوْلَهُ: إِنْ تُنْعَمَ: قَالَ الطَّبِيُّ: وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ لَمَّا نَفَى الظُّلْمَ عَنْ سَاحَتِهِ - ﷺ - وَنَظَرَ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ الْقَتْلَ قَدَمَهُ، وَحِينَ نَظَرَ إِلَى لُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آخَرَ الْقَتْلِ، وَهَذَا أَدْعَى لِلِاسْتِعْطَافِ وَالْعَفْوِ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: { إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [المائدة: ١١٨] أَقُولُ: وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: الْمُنَاسِبُ لِلْمُجْرِمِ أَنْ يَعْتَرِفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ أَوَّلًا، فَلِذَا قَدَّمَ الْقَتْلَ، ثُمَّ يَطْلُبُ الْعَفْوَ وَلَا يَنْسَى الذَّنْبَ، وَلِذَا أَخَّرَهُ فِيمَا بَعْدَهُ، وَحَاصِلُ كَلَامِ الطَّبِيِّ أَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ كَانَ الْخَوْفُ غَالِبًا عَلَيْهِ، وَفِي الْيَوْمَيْنِ الْآخَرَيْنِ كَانَ الْغَالِبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ، وَالْإِنَاءُ يَتَرَشَّحُ بِمَا فِيهِ، وَهَذَا يُظْهِرُ وَجْهَ التَّنْظِيرِ بِقَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ غَلَبَةِ الْخَوْفِ أَوَّلًا. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا } [النحل: ١١١] حَتَّى تَقُولَ الْأَنْبِيَاءُ: نَفْسِي نَفْسِي، ثُمَّ لَهُمْ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ لِمَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : - أَطْلِقُوا) : أَيِ حُلُوا (تُمَامَةً) : وَخَلُّوا سَبِيلَهُ (فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ) : بَنُونَ مَفْتُوحَةٌ وَسُكُونُ خَاءٍ مُعْجَمَةٌ، وَفِي نُسخَةِ بِالْجِيمِ ؛ أَيِ مَاءٍ قَلِيلٍ النَّبْعِ (قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاعْتَسَلَ) . قَالَ النَّوَوِيُّ قَوْلَهُ: نَخْلٌ هَكَذَا فِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ، وَتَقْدِيرُهُ انْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ فِيهِ مَاءٌ فَاعْتَسَلَ. قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: صَوَابُهُ نَخْلٌ بِالْجِيمِ وَهُوَ الْمَاءُ الْقَلِيلُ الْمُنْبِعْتُ، وَقِيلَ الْجَارِي. قُلْتُ: بَلِ الصَّوَابُ الْأَوَّلُ ؛ لِأَنَّ الرُّوَايَاتِ صَحَّتْ بِهِ وَلَمْ تُرَوَّ إِلَّا هَكَذَا. وَهُوَ صَحِيحٌ فَلَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهُ، (ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ! مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ) : بِالنَّصْبِ ؛ أَيِ أَكْثَرَ مَبْغُوضًا (مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ) .

قَالَ الطَّبِيُّ: وَجْهٌ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ وَجْهٌ وَهُوَ اسْمٌ كَانَ، عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ خَبَرُهُ، وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: أَحَبَّ الْوُجُوهِ خَبَرٌ أَصْبَحَ قَطْعًا، وَقَدْ قُبِلَ بِهِ، وَلِأَنَّ أَبْغَضَ فِي الْقَرِيبَتَيْنِ الْآخِرَتَيْنِ وَقَعَ خَبَرًا لِكَانَ، وَلِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنِ الْوَجْهِ بِالْأَبْغَضِيَّةِ لَا أَنَّ وَجْهَهُ أَبْغَضُ كَانَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا قُلْنَا: بِجَوَازِ وَقُوعِ الْحَالِ مِنْ اسْمٍ كَانَ، فَقَوْلُهُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَانَ صِفَةً لِقَوْلِهِ وَجْهٌ، فَقَدْ قَدَّمَ فَصَارَ حَالًا، وَإِذَا مَنَعْنَاهُ قُلْنَا إِنَّهُ ظَرَفٌ لِعَوْدَةِ قُدَّمَ لِلِاهْتِمَامِ لِيُؤْذَنَ فِي بَدْءِ الْحَالِ بِاهْتِمَامٍ فَصَارَ الْعُمُومُ وَالشُّمُولُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ } [الزمر: ٦٧] («وَاللَّهُ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَوَاللَّهُ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ») . يَعْنِي الْمَدِينَةَ (فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَإِنْ خِيلَكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ) ، جُمْلَةً حَالِيَةً (فَمَاذَا تَرَى) ؟ أَيِ مِنَ الرَّأْيِ فِي حَقِّي (فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -) ؛ أَيِ بِمَا حَصَلَ لَهُ

مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ بِالْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُ يَهْدِي مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْإِثَامِ (وَأَمْرُهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَالَ لَهُ قَائِلٌ، أَصَبْتُ؟) : مِنَ الصَّبَوَةِ وَالصَّبْوِ الْمِيلُ إِلَى الْجَهْلِ. كَذَا فِي تَاجِ الْمَصَادِرِ لِلْبَيْهَقِيِّ، وَفِي نُسْخَةِ صَحِيحَةٍ: أَصَبْتُ وَهُوَ مَهْمُوزٌ فِيهِ النَّهْيَةُ: صَبًّا فَلَانٌ إِذَا خَرَجَ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَكَذَا فِي الْفَائِقِ. وَفِي الْمَشَارِقِ لِلْقَاضِي عِيَّاضٍ. قَوْلُهُ: أَصَبْتُ هَكَذَا الرَّوَايَةُ؛ أَيُّ أَصَبَاتٍ، وَقُرَيْشٌ كَانَتْ لَا تَهْمُزُ وَتُسَهِّلُ الْهَمْزَةَ؛ أَيُّ أَخْرَجْتَ عَنْ دِينِكَ؟ وَقَالَ النَّوَوِيُّ: أَصَبْتُ هَكَذَا فِي الْأُصُولِ أَصَبْتُ، وَهِيَ لُغَةٌ وَالْمَشْهُورُ أَصَبَاتٌ بِالْهَمْزِ اهـ.

وَفِيهِ أَنَّ الْعِتْمَادَ عَلَى الْأُصُولِ لَا وَجْهَ مَعَ ثُبُوتِهَا إِلَى الْعُدُولِ، ثُمَّ الْمُتَبَادَرُ مِنْ قَوْلِهِ " وَهِيَ لُغَةٌ " أَنَّهُ لُغَةٌ فِي صَبَاتٍ وَهُوَ غَيْرُ ظَاهِرٍ مَادَّةً وَمَعْنَى، وَالْعَجَبُ مِنَ الطَّبِيِّ أَنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى صَبَاتٍ بِالْهَمْزِ (فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -) ، فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ قَالَ: لَا، وَهُوَ قَدْ خَرَجَ مِنَ الشَّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ؟ قُلْتُ: هُوَ مِنَ الْأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ كَأَنَّهُ قَالَ: مَا خَرَجْتُ مِنَ الدِّينِ؛ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى دِينٍ فَأَخْرَجَ مِنْهُ، بَلِ اسْتَحْدَثْتُ دِينَ اللَّهِ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَإِنْ قُلْتُ: مَعَ يَفْتَضِي إِحْدَاثَ الْمُصَاحَبَةِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْمَعِيَةِ الْمُصَاحَبَةُ وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ، وَقَدْ قِيلَ: الْفِعْلُ بِهَا فَيَجِبُ الْإِشْرَافُ فِيهِ، كَذَا نَصَّ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْكَشَافِ فِي الصِّفَاتِ. قُلْتُ: لَا يَبْعُدُ ذَلِكَ، فَلَعَلَّهُ - ﷺ - وَافَقَهُ، فَيَكُونُ مِنْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ اسْتِدَامَةً وَمِنْهُ اسْتِحْدَاثًا: أَقُولُ: هَذَا لَا يَبْعُدُ عَقْلًا، لَكِنْ يُسْتَبْعَدُ نَفْلًا، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَنُقِلَ فِيهِ، أَوْ فِي غَيْرِهِ إِلَيْنَا، وَفِي الْمَعِيَةِ يُكْتَفَى بِالْمُشَارَكَةِ الْفِعْلِيَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِ بَلْقَيْسٍ: {وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: ٤٤] ، ثُمَّ جَوَابُ سُؤَالِهِ الْأَوَّلِ مَبْنِيٌّ عَلَى نُسْخَةِ " صَبَاتٌ " لَا عَلَى " صَبَوْتُ " كَمَا لَا يَخْفَى، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مُرَادَهُمْ مِنْ صَبَاتٍ؛ أَيُّ مِنْ دِينِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، فَجَوَابُهُ بِلَا مُطَابِقٍ لِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَحَقِيقَةِ الْحَقِّ. (وَلَا) : قَالَ الطَّبِيُّ: لَا يَفْتَضِي مَنْفِيًّا وَالْوَاوُ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ؛ أَيُّ لَا أُوَافِقُكُمْ فِي دِينِكُمْ. وَلَا أَرْفُقُ بِكُمْ فِي هَذِهِ السَّنِينَ الْمُجْدِبَةِ، ثُمَّ أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: («وَاللَّهِ لَا تَأْتِيَكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٌ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» . رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَاخْتَصَرَهُ الْبُخَارِيُّ). فِي الْهِدَايَةِ: وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُبَاعَ السِّلَاحُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ إِذَا حَضَرُوا مُسْتَأْمِنِينَ، وَلَا يُجَهَّزَ إِلَيْهِمْ مَعَ التَّجَارِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ وَحَمَلِهِ إِلَيْهِمْ. قَالَ ابْنُ الْهَمَامِ: الْمَعْرُوفُ مَا فِي سِيرِ الْبَيْهَقِيِّ، وَمُسْنَدِ الْبَزَّازِ، وَمُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ فِي الْفِتْنَةِ. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: الصَّوَابُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ. قَالَ صَاحِبُ الْهِدَايَةِ: وَهُوَ الْقِيَاسُ فِي الطَّعَامِ؛ أَيُّ الْقِيَاسُ فِيهِ أَنْ يُمَنَعَ مِنْ حَمَلِهِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ؛ لِأَنَّهُ بِهِ التَّقْوَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَالْمَقْصُودُ إِضْعَافُهُمْ إِلَّا أَنَّا عَرَفْنَا نَقْلَ الطَّعَامِ إِلَيْهِمْ بِالنَّصِّ يَعْنِي حَدِيثَ ثُمَامَةَ، وَحَدِيثَ أُسَامَةَ، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ الْمُقْبَرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَذَكَرَ قِصَّةَ إِسْلَامِ ثُمَامَةَ. وَفِي آخِرِهِ قَوْلُهُ لِأَهْلِ مَكَّةَ حِينَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتُ. فَقَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا صَبَوْتُ، وَلَكِنِّي

أَسَلَّمْتُ وَصَدَقْتُ مُحَمَّدًا وَآمَنْتُ بِهِ، وَإِنَّمَا اللَّهُ الَّذِي نَفْسُ ثَمَامَةَ بِيَدِهِ لَا تَأْتِيكُمْ حَبَّةٌ مِنَ الْيَمَامَةِ، وَكَانَتْ قَرِيبَ مَكَّةَ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا مُحَمَّدٌ، فَانْصَرَفَ إِلَى بَلَدِهِ، وَمَنَعَ الْحَمْلَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى جَهَدَتْ قُرَيْشٌ، فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثَمَامَةَ يَحْمِلُ إِلَيْهِمُ الطَّعَامَ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - . وَذَكَرَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي آخِرِ السِّيَرِ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا: «أَصَبَات؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ وَلَكِنِّي أَتَبَعْتُ خَيْرَ الدِّينِ دِينَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَا تَصِلُ إِلَيْكُمْ حَبَّةٌ مِنَ الْيَمَامَةِ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - » إِلَى أَنْ قَالَ: «فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكَ تَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّكَ قَدْ قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِلَيْهِ أَنْ يُخْلِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَمْلِ» . وَفِي شَرْحِ السُّنَنِ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْمَنِّ عَلَى الْكَافِرِ وَإِطْلَاقِهِ بِغَيْرِ مَالٍ.

قَالَ ابْنُ الْهَمَامِ: وَلَا يَجُوزُ الْمَنُّ عَلَى الْأَسَارَى، وَهُوَ أَنْ يُطْلَقَهُمْ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ بِغَيْرِ شَيْءٍ خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ إِذَا رَأَى الْإِمَامُ ذَلِكَ، وَبَقَوْلُنَا قَالَ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَجْهٌ قَوْلِ الشَّافِعِيِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد: ٤] وَلِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنَّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَسَارَى بَدَرٍ مِنْهُمْ الْعَاصِ بْنِ أَبِي الرَّبِيعِ عَلَى مَا سَيَأْتِي، وَأَجَابَ صَاحِبُ الْهِدَايَةِ بِأَنَّهُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ سُورَةِ "بَرَاءة" فَإِنَّهَا تَقْتَضِي عَدَمَ جَوَازِ الْمَنِّ وَهِيَ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ فِي هَذَا الشَّانِ، وَقِصَّةُ بَدَرٍ كَانَتْ سَابِقَةً عَلَيْهَا. قَالَ التَّوَوِيُّ: فِيهِ جَوَازُ رِبْطِ الْأَسِيرِ وَحَبْسِهِ وَإِدْخَالِ الْكَافِرِ الْمَسْجِدَ، وَفِيهِ إِذَا أَرَادَ الْكَافِرُ الْإِسْلَامَ يُبَادِرُ بِهِ، وَلَا يُؤَخِّرُهُ لِلْإِغْتِسَالِ، وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي تَأْخِيرِهِ، وَمَذْهَبُنَا أَنَّ اغْتِسَالَهُ وَاجِبٌ إِنْ كَانَ عَلَيْهِ جَنَابَةٌ فِي الشَّرْكَ، سَوَاءً كَانَ اغْتَسَلُ مِنْهَا أَمْ لَا. وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا: إِنْ اغْتَسَلَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ أَجْزَأُهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جَنَابَةٌ فَالْغُسْلُ مُسْتَحَبٌّ. وَقَالَ أَحْمَدُ وَآخَرُونَ: يَلْزَمُهُ الْغُسْلُ، وَفِي تَكْرِيرِ سُؤَالِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَأْلِيفٌ لِقَلْبِهِ، وَمُلاَظَفَةٌ لِمَنْ يُرْجَى إِسْلَامُهُ مِنَ الْأَسَارَى الَّذِينَ يَتَّبِعُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ. "٣٠٢"

معنى الحديث:

أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ قَدْ أَرْسَلَ فَرَسَانًا إِلَى نَجْدٍ بِقِيَادَةِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ فِي الْعَاشِرِ مِنْ مُحْرَمٍ سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ لِيُقَاتِلُوا أَحْيَاءَ بَنِي بَكْرِ الَّذِينَ مِنْهُمْ بَنُو حَنِيفَةَ، فَأَغَارُوا عَلَيْهِمْ، وَهَزَمُوهُمْ، وَأَسْرَوْا ثَمَامَةَ بْنَ أُنَالٍ وَأَتَوْا بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَرَبَطُوهُ إِلَى سَارِيَةِ مِنْ سُورِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ -: مَا عِنْدَكَ: أَيُّ مَاذَا تَظُنُّ أَيْ فَاعِلٌ بِكَ " قَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ " أَيُّ لَا أَظُنُّ بِكَ، وَلَا أَؤْمَلُ مِنْكَ إِلَّا الْخَيْرَ، مَهْمَا فَعَلْتُ مَعِي " إِنْ تَقَتَّلْتَ تَقَتَّلْتُ ذَا دَمٍ " أَيُّ إِنْ تَقَتَّلَنِي فَذَلِكَ عَدْلٌ مِنْكَ، وَلَمْ تَعَامَلْنِي إِلَّا بِمَا أَسْتَحِقُّ، لِأَنِّي مُطْلُوبٌ بِدَمٍ، فَإِنْ قَتَلْتَنِي قَتَلْتَنِي قِصَاصًا، وَلَمْ تَظْلَمْنِي أَبَدًا " وَإِنْ تُنْعِمَ تَنْعَمَ عَلَيَّ شَاكِرٌ " أَيُّ وَإِنْ تَحْسَنَ إِلَيَّ بِالْعَفْوِ عَنِّي فَالْعَفْوُ مِنْ شَيْمِ الْكِرَامِ، وَلَنْ يَضِيعَ مَعْرُوفُكَ عِنْدِي، لِأَنَّكَ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ كَرِيمٌ

يحفظ الجميل، ولا ينسى المعروف أبداً " وإن كنت تريد المال " يعني وإن كنت تريد أن افتدي نفسي بالمال " فسل منه ما شئت " ولك ما طلبت " فتركه حتى كان من الغد، قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك " يعني فتركه مربوطاً إلى السارية حتى كان اليوم الثاني فأعاد عليه سؤاله الأول، وأجابه ثمامة بنفس الجواب الأول، ثم تركه اليوم الثالث، وأعاد عليه النبي - ﷺ - السؤال، وأجابه ثمامة بالجواب نفسه " فقال: أطلقوا ثمامة " أي فكوه من رباطه " فانطلق إلى نخل قريب من المسجد " أي فذهب إلى ماء قريب من المسجد " فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله " أي وأعلن إسلامه ونطق بالشهادتين، ثم قال: " والله ما كان على وجه الأرض وجهٌ أبغض إلي من وجهك " أي ثم عبّر رضي الله عنه عن شعوره نحو النبي - ﷺ -، ونحو دينه الحنيف، ونحو بلده الحبيب المدينة المنورة، فقال: ما كان هناك وجه أكرهه مثل وجهك " فقد أصبح وجهك " أي فلما أسلمت أصبح وجهك " أحب الوجوه إليَّ " حيث تحول البغض والكرهية إلى محبة شديدة لا تعدلها أي محبة أخرى " والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليَّ " وهكذا عاطفة الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب " والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليَّ " لأن محبتي لك دفعتني إلى مزيد الحب لبلادك، وقد قال الشاعر:

دَارُ الْحَبِيبِ أَحَقُّ أَنْ تَمُوتَ بِهَا ... وَتَحِنُّ مِنْ طَرَبٍ إِلَى ذِكْرِهَا

ثم قال: " وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى " أي فهل تأذن لي في العمرة " فبشره " بغفران ذنوبه كلها، وبخيري الدنيا والآخرة " وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت " أي خرجت من دين إلى دين " قال: لا والله، ولكني أسلمت مع محمد رسول الله " أي ولكني تركت الدين الباطل ودخلت في دين الحق. " ولا والله لا يأتيكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن بها رسول الله " أي حتى يأذن رسول الله في إرسالها إليكم، فانصرف إلى الإمامة، وكانت ريف مكة، فمنع الحنطة عنهم حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله - ﷺ - يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلي ثمامة، ففعل - ﷺ - .- ٣٠٣

من فوائد الحديث:

- ١ - جواز ربط الأسير في المسجد وقال القرطبي: يمكن أن يقال ربطه بالمسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيأمن لذلك قال العيني: يوضح هذا ما رواه ابن خزيمة في (صحيحه) عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف لما قدموا أنزلهم النبي المسجد ليكون أرق لقلوبهم.
- ٢ - وفيه بعث السرايا إلى بلاد الكفار وأسر من وجد منهم والتخيير بعد ذلك في قتله أو الإبقاء عليه.

- ٣- أن للإمام في حق الأسير القتل أو الاسترقاق أو الإطلاق منا عليه أو الفداء.
- ٤- تعظيم أمر العفو عن المسيء لأن ثمانية أقسم أن بغضه انقلب حباً في ساعة واحدة لما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمن بغير مقابل.
- ٥- مشروعية الاغتسال عند الإسلام.
- ٦- أن الإحسان يزيل البغض ويثبت الحب، فعلى المسلم أن يجتهد في بذل الخير والمعرف والإحسان إلى الناس، ويتأكد ذلك في حق المشتغل بالدعوة حتى تألفه القلوب وتستجيب لدعوته.
- ٧- وأن الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم شرع له أن يستمر في عمل ذلك الخير.
- ٨- وفيه مشروعية الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه.
- ٩- كان المشركون يقولون لمن أسلم منهم (صابئ) أي تارك دينه، ليصرفوا الناس عنه ويذموه، وهذا ديدن الكفار والمنافقين في كل زمان ذم المتمسك بالحق ولمزه بالأوصاف المذمومة لتوهينه وصرف الناس عنه، فعلى المسلم أن يثبت على الحق ويصبر على الأذى فإن العاقبة للمتقين وفي عصرنا من دعا إلى التوحيد ، وأمر بدعاء الله وحده ، وحذر من دعاء غير الله من الأنبياء والأولياء وغيرهم قال عنه بعض الناس المنحرفين (وهابي) ليصرفوا الناس عن دعوته ، وهي في الحقيقة دعوة الأنبياء جميعاً ، وعلى رأسهم خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ
- ١٠- مشروعية بعث السرايا إلى بلاد الكفار ، وأسر من وجد منهم ، والتخيير بعد ذلك في قتله أو الإبقاء عليه .
- ١١- إن عبادة الأوثان لا تسمى ديناً حقاً ، لأنها من وسوسة الشياطين ، تخالف الفطرة والدين والعقل .^{٣٠٤}

فقه الحديث:

دل هذا الحديث على ما يأتي:

أولاً: ذكاء " ثمامة " ورجاحة عقله، وفصاحته وبلاغته العظيمة، التي تجلت في جوابه الحاضر، وسرعة بديهته، فإن ثمامة في جوابه الشافي الكافي قد أحاط بالموضوع من أطرافه، وأجاب عن كل ما يتوقع السؤال عنه في كلمات قصيرة، حيث وصف النبي - ﷺ - بالعدل إذا حكم، وأمل فيه العفو والكرم، ووعدته بحفظ الجميل، وصدق الوفاء، واستعد لمفاداة نفسه بالمال، إن طلب منه الفداء، فأعجب النبي - ﷺ - بحسن جوابه، واستدل به على فضله ونبله، فأنعم عليه بإطلاق سراحه دون فداء، مكافأة له على حسن جوابه.

ثانياً: فائدة العفو عند المقدرة، فهو أقرب طريق إلى قلوب الرجال.^{٣٠٥}



^{٣٠٥} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤ / ٣٧٩)

قصة الإفك

عَنِ ابْنِ شِهَابِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَعَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصِ اللَّيْثِيِّ، وَعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتُ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا زَعَمُوا أَنَّ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَفْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَاتَّيَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَفْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسَرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزَوَتِهِ تِلْكَ [ص: ١٧٤]، وَقَفَلْ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عَقْدٌ لِي مِنْ جَزَعٍ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ، فَالْتَمَسْتُ عَقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرَحُلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أُرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خَفَافًا لَمْ يَقْلُنَّ وَلَمْ يَعْشِهِنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلِ الْهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عَقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيِّ ثُمَّ الذُّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتُهُ فَوَطِئَ يَدَهَا، فَارْكَبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرَّسِينَ فِي نَحْرِ الظُّهَيْرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُولٍ، فَقَدَمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، وَيَرِينِي فِي وَجْعِي، أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرُضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيَسْلَمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تَيْكُمُ»، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرِّزًا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَتَّخِذَ الْكُفْفَ قَرِيبًا مِنْ يَبُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْ فِي النَّزْرِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رَهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرْتُ فِي مِرْطَهَا، فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بئسَ مَا قُلْتَ، أَتُسَبِّحِينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَتْ: يَا هَتَاهَا، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَلَّمَ فَقَالَ: «كَيْفَ تَيْكُمُ»، فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبِي، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَقِينَ الْخَبَرَ مِنْ قَبْلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاتَّيْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لَأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ

النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بِنْتُ هَوْنِي عَلَى نَفْسِكَ الشَّانَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ [ص: ١٧٥] النَّاسُ بِهِذَا، قَالَتْ: فَبِتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرِفْقًا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلَبْتَ الْوَحْيَ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوَدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصَدِّقُكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «يَا بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتَ فِيهَا شَيْئًا يَرِيكَ؟»، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَعْمَصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنِ الْعَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاحِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْدَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنِي سُلُولٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعْدُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي»، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّهِ أَعْدُرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرْبًا عُنْفُهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرًا، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ - فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَتَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَتَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ، وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَتَزَلَّ، فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، وَسَكَتَ وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرِفْقًا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبُو آيٍ، وَقَدْ بَكَيتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ كَبْدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي، إِذَا اسْتَأْذَنْتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَذْنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمٍ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشْهَدُ ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتُ بَرِيئَةً، فَسَيِّئْتُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتُ أَلَمَمْتُ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحَسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَحِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَحْبِبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [ص: ١٧٦] فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرُ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهِ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنَّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقَنِي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: ١٨]، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى

فَرَأَيْتَنِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُرِيَّتَنِي اللَّهُ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحَيًّا، وَلَئِنَّا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُرِيَّتَنِي اللَّهُ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَمَ مَجْلِسُهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّى أُنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَتٍّ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا، أَنْ قَالَ لِي: «يَا عَائِشَةُ أَحْمَدِي اللَّهَ، فَقَدْ بَرَأَكَ اللَّهُ»، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} الْآيَاتِ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُنَاسَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا} إِلَى قَوْلِهِ {غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٧٣] فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَعْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتَ مَا رَأَيْتِ»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ ٣٠٦.

شرح المفردات:

- (طائفة) قطعة .
- (أوعى) أحفظ وأحسن إيرادا وسردا للحديث .
- (اقتصاصا) حفظا وتتبعا لأجزائه .
- (زعموا) قالوا والزعم قد يراد به القول المحقق الصريح وقد يراد به غير ذلك .
- (أنزل الحجاب) أنزلت الآيات التي تفرض الحجاب على زوجات النبي ﷺ وعلى النساء المؤمنات .
- (قفل) رجع .
- (آذن) أعلم .
- (جاوزت الجيش) خرجت من معسكرهم وابتعدت .
- (شأني) حاجتي التي خرجت من أجلها .
- (عقد) ما يوضع في العنق من الحلي والزينة .
- (حزر أظفار) حزر في سواده بياض كالعروق نسبة إلى بلدة باليمن يؤتى به منها .
- (فالتمست) طلبت .

٣٠٦ - صحيح البخاري (١٧٣/٣) (٢٦٦١) وصحيح مسلم، ح: (٢٧٧٠).

- (فحبسني ابتغاؤه) أخرني طلبه والبحث عنه .
- (لم يغشهن اللحم) لم يغط جسمهن أي لم يكن سمينات .
- (العلقه) القليل من الطعام الذي يسد الجوع .
- (فلم يستنكر القوم) لم يشعروا بخفة الوزن ولم يختلف عليهم وجودها فيه وعدمه .
- (استمر) ذهب ومضى .
- (فأمت متزلي) قصدت مكاني الذي كنت فيه .
- (باسترجاعه) بقوله { إنا لله وإنا إليه لراجعون } .
- (فوطئ يدها) وضع قدمه على يد الراحلة ليسهل الركوب عليها .
- (معرسين) من التعريس وهو التزول ويغلب على التزول في آخر الليل .
- (نحر الظهيرة) النحر أعلى الصدر أو أوله ونحر كل شيء أوله أو أعلاه والمراد بنحر الظهيرة وقت اشتداد الحر وبلوغ الشمس منتهاها في الارتفاع .
- (فهلك من هلك) تسبب بالهلاك لنفسه وبالحديث في شأن .
- (تولى الإفك) تصدى له وتصدر الحديث عنه والإفك البهتان والكذب والمراد افتراؤهم على أم المؤمنين رضي الله عنها الوقوع في الفاحشة .
- (فاشتكت) مرضت .
- (يفيضون) يشيعون من الإفاضة وهي التوسعة والتكثير .
- (يرييني) يشككني ويوهمني حصول أمر .
- (تيكم) إشارة للمؤنث .
- (بشيء من ذلك) الذي يقوله أهل الإفك .
- (نقهت) برئت من مرضي ولم يرجع لي كمال الصحة .
- (المناصع) مواضع خارج المدينة كانوا يخرجون إليها لقضاء حاجتهم .
- (متبرزنا) الموضع الذي نتبرز فيه من البراز وهو اسم لما يخرج من الإنسان من فضلات وقد يطلق على الموضع الذي يتبرز فيه .
- (الكنف) جمع كنيف وهو الساتر سمي به المكان المتخذ لقضاء الحاجة لأن قاضي الحاجة يستتر به .
- (البرية) الصحراء خارج المدينة .
- (التتره) طلب التزاهة أي البعد عن البيوت لإلقاء الفضلات .
- (مرطها) كساء من صوف أو غيره يلتحف به أو يؤتزر .
- (يا هنتاه) يا هذه نداء للبعيد خاطبتها بذلك لبعدها عما يخوض فيه الناس .
- (إلى أبوي) أن آتي أبوي .

- (أستيقن الخير) أحصل على حقيقته .
- (وضيئة) جميلة حسنة من الوضاعة وهي الحسن .
- (ضرائر) جمع ضرة وهي من كانت تشاركها في زوجها أخرى أو زوجات سميت بذلك لأنها تتضرر بغيرها بالغيرة والقسم ونحو ذلك .
- (أكثرن عليها) القول في عيبها ونقصها .
- (يرقأ) يتقطع .
- (لا أكتحل بنوم) استعارة لعدم النوم من كثرة الهم والحزن .
- (استلبث الوحي) أبطأ نزوله وتأخر .
- (الود) الثقة بهم والمحبة لهم وحسن الصلة .
- (قبل ذلك) قبل أن يقول ما قاله الآن ولا تعني نفي الصلاح عنه بعده وإنما تعني أنه لم يسبق منه موقف يتعلق بالحمية لقومه .
- (احتملته الحمية) أغضبه التعصب لقومه وحمله على الجهالة .
- (هموا) تناهضوا للتزاع وقصدوا المحاربة .
- (فخفضهم) تلطف بهم حتى سكتوا .
- (فالق) من فلق إذا شق .
- (ألمت) فعلت ذنبا ليس من عادتك من الإمام وهو النزول النادر غير المتكرر .
- (قلص) انقبض وارتفع .
- (وقر) ثبت واستقر .
- (ما تصفون) ما تذكرون عني مما يعلم الله تعالى براءتي عنه .
- (ما رام مجلسه) ما فارقه ولا قام منه .
- (البرحاء) العرق الشديد من البرح وهو شدة الحر أو الكرب أو غير ذلك من الشدائد .
- (ليتحدر) يتزل ويقطر .
- (الجمان) الوؤلؤ واحده جمانة .
- (سري) كشف وأزيل .
- (عصبة) جماعة من العشرة إلى الأربعين . (الآيات) من سورة النور ١١ - ٢٠ .
- (يأتل) يحلف .
- (أولو الفضل) أصحاب الإحسان والصدقة .
- (السعة) البجوحة في العيش والمال .
- (تساميني) تضاهيني بجمالها ومكانتها عند النبي ﷺ من السمو وهو العلو والارتفاع .

(فعصمها) حفظها ومنعها من الخوض في الباطل .

(الورع) شدة المحافظة على الدين^{٣٠٧}.

معنى الحديث:

تقول عائشة رضي الله عنها: " كان رسول الله - ﷺ - إذا أراد سفراً أفرع بين أزواجه " أي أجرى بينهن قرعة، فأيتهن خرج سهمها صحبها معه، " فأفرع بيننا في غزاة " وهي غزوة بني المصطلق في رمضان سنة خمس من الهجرة " فخرج سهمي فخرجت معه " إليها " حتى إذا فرغ رسول الله - ﷺ - من غزوته تلك وقفل " أي عاد من غزوته، " ودنونا من المدينة " أي اقتربنا منها " آذن بالرحيل " أي أعلن عن رحيله " فقامت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني " أي فلما انتهيت من قضاء حاجتي " فإذا عقد لي من جزع أظفار " بالفتح، الخرز اليماني، اشتهرت بهذه العقود المنظومة من الخرز الأسود الذي فيه عروق بيضاء، " قد انقطع " أي فلما لمست صدري وجدت عقدي هذا قد انقطع " فرجعت فالتصمت عقدي فحبسني ابتغاؤه " أي فعدت أبحث عن عقدي فأخبرني التفتيش عنه عن العودة إلى هودجي " فأقبل الذين يُرحلون " (بضم الياء، وفتح الراء) أي فجاء الذين يشدون رحلي على بعيري " فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أي فيه " أي يظنون أنني موجودة داخل الهودج، ولم يشعروا بعدكم وجودي، لأن وجودي أو عدمه لا يؤثر في ثقل الهودج أو خفته بشيء ثم بينت سبب ذلك فقالت: " وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن " أي كن خفاف الأجسام، لم يثقلهن الشحم الكثير، والسمن الفاحش لأنهن لم يكن يأكلن كثيراً، ولا يتناولن الأطعمة الدهنية الدسمة إلا نادراً " وإنما يأكلن العُلقة من الطعام " بضم العين وسكون اللام، وهو القليل من الطعام، حيث كن يرين ثلاث يعرفني قبل الحجاب، " أي فلما نظر إليَّ عرف أنني عائشة، لأنه كان يعرفني قبل الحجاب، " فاستيقظت باسترجاعه " أي فاستيقظت من نومي على صوته وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، " حين أتاني في راحلته فوطاً يدها " أي داس على يدها ليقعدها " فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة " أي بعد ما نزلوا وقت الظهيرة ليستريحوا " فهلك من هلك " يعني فتورط من تورط في هذه القضية، وخاض في هذه التهمة الباطلة من حديث الإفك. " وكان الذي تولى الإفك عبد الله ابن أبي بن سلول " أي وكان رأس هذه الجماعة الذي تبني هذه التهمة الكاذبة على عائشة ودعمها وروج لها، وأشاعها هو عبد الله بن أبي رئيس المنافقين، أما بقية أهل الإفك فهم كما أفاده النسفي: يزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمئة بنت جحش ومن ساعدوهم " فقدمنا المدينة فاشتكت بها شهراً "، أي مرضت شهراً " والناس يفيضون

^{٣٠٧} - صحيح البخاري (١٧٦ / ٣)

في قول أصحاب الإفك " أي يتحدثون في هذه الإشاعة الكاذبة قالت: " ويريني في وجعي أني لا أرى من النبي - ﷺ - اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض " أي ومما بعث في نفسي الريبة والشك والإحساس الداخلي بأن هناك أمراً قد حدث، هو هذا التغير في معاملة النبي - ﷺ - لي حيث لم أعد أجد منه تلك المعاملة أي بما تكلموا به في عرضي. قالت عائشة: " فازددت مرضاً على مرضي " عندما علمت بما قذف الناس في عرضي، " فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله - ﷺ - فسلم، فقال: كيف تيكُم " أي كيف حال تلك يشير إلى عائشة، فسأل عنها بلهجة جافة فاترة، تختلف عن لهجته التي كان يتحدث بها سابقاً مع زوجته الحبيبة " فقلت ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر " أي وإنما ذهبت إلى بيت أبي لأتعرّف من أبوي على حقيقة ما دار حولي من حديث الإفك " فقلت لأمي: ما يتحدث الناس به؟ فقالت: يا بنية هوّني على نفسك الشأن " أي فأرادت أمها " أم رومان " تسليتها والتخفيف عنها، فقالت لها: لا تهتمي بالإشاعة كل هذا الاهتمام، ولا تحزني كل هذا الحزن، وخففي عن نفسك من همومها وأحزانها، فلست أول امرأة حسناء قيل عنها ما قيل، بل قلما كانت امرأة جميلة محبوبه عند زوجها لها ضرائر يغرن منها إلاّ تحدثن عنها بما تكره، وهو معنى قولها " لقلما كانت امرأة قط وضيئة " أي جميلة لا عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلاّ أكثرن عليها " أي إلاّ أكثرن عليها الأحاديث بما يسيء إليها " فقلت: سبحان الله " تعجباً مما سمعت " قالت: فبت تلك الليلة لا يرقأ لي دمع " أي فبت تلك الليلة كلها أبكي لا يكف لي دمع وقضيتها كلها ساهرة، لا أذوق طعم النوم أي ما رأيت منها شيئاً يعيها " أكثر من أنها جارية حديثة السن " أي فتاة صغيرة السن تغفل عن بعض الأمور " تنام عن العجيين، تأتي الداجن فتأكله " أي فتأتي الشاة فتأكله " فقال رسول الله - ﷺ -: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي " أي من ينصّرني عليه " وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً " أي وقد اهتموا أهلي برجل صالح، حسن السيرة والسمعة بين الناس " فقام سعد فقال: يا رسول الله أنا والله أعذك منه " أي آخذ لك الحق منه " إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك " أي فنفذنا فيه أمرك، وعاقبناه بالعقوبة التي تريدها، " فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً " غير متهم في عقيدته " ولكن احتملته الحمية " أي غلبت عليه الأنفة والعصبية لقبيلته فعارض سعد بن معاذ " فقال: كذبت لعمركم الله والله لا تقتله، ولا تقدر على ذلك " لأنه رأى أنه ليس من حق سعد بن معاذ أن يتدخل في أمر يتعلق أي لقد أشاع عنك بعض الناس أنك فعلت كذا وكذا مع صفوان بن المعطل " وإن كنت ألممت " أي وإن كنت فعلت ذنباً، واقترفت خطيئة حقاً " فاستغفري الله وتوبي " أي فاعترفي بالذنب واستغفري الله وتوبي إليه " فإن العبد إذا اعترف بذنبه فتاب تاب الله عليه " لأنّ التوبة توجب المغفرة، ويتوب الله على من تاب. " فلما قضى رسول الله - ﷺ - مقالته قلص دمعي " أي فلما انتهى رسول الله - ﷺ - من حديثه هذا

جف دمعي لهول ما سمعت، وعند ذلك التفت إلى أبيّ استنجد بهم في الدفاع عني " قلت لأبي أجب عني رسول الله - ﷺ - قال: والله ما أدرى ما أقول " لأن الصدمة النفسية كانت قاسية عنيفة غلبت عليه وعلى تفكيره، وأعجزت لسانه عن الإجابة، فهو في موقف يحار فيه أعظم الرجال ماذا يقول، وبماذا يجيب، إذا نظر هنا وجد رسول الله - ﷺ - ومقامه فوق كل مقام، وإذا نظر هناك وجد عائشة ابنته الكريمة الشريفة الطاهرة المطهرة تتعرض لهذه التهمة الشنيعة، أمران يحق ما رام مجلسه " أي ما فارق النبي - ﷺ - مجلسه " حتى أنزلَ عيه الوحي فأخذه ما كان يأخذه " أي فأصابه ما كان يصيبه أثناء نزول الوحي " من البرحاء " أي من ارتفاع الحرارة وشدة العرق " حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان " أي حتى صار العرق يتساقط منه كما تتساقط الآليء المتناثرة " في يوم شات " أي حال كونه - ﷺ - قد حدث له ذلك في يوم شتوي شديد البرودة " فلما سرّني عن رسول الله " بضم السين وكسر الراء المشددة أي فلما انكشف عنه الوحي " وهو يضحك " أي حال كونه ضاحكاً مهتلل الأسارير، مشرق الوجه من شدة السرور والفرح ببراءة زوجته الحبيبة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها " فقالت لي أُمّي: قومي إلى رسول الله - ﷺ - " أي قومي إليه واشكره على بشرائه لك بهذه البراءة "، " فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله " لأنه هو الذي برأني مما نسب إليّ بقرآن يتلى إلى يوم القيامة، أما أنتم فقد شككتكم في أمري " فأنزل الله عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) الآيات " إلى آخر قوله تعالى: (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) فأثبت الله تعالى بالوحي الصريح براءة عائشة حيث قال: (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) وسمى الله تلك التهمة الشنيعة " إفكاً " فقال: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) إعلاناً عن كذبهم وافتراءهم فيها، ثم هددهم بالعقوبة عليها في الدنيا والآخرة، حيث قال: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) " قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربته منه " وذلك أن أم مسطح سلمى كانت بنت خالة أبي بكر الصديق، فغضب وقال: " والله لا أنفق على مسطح شيئاً " بعد ما فعل الذي فعل " فأنزل الله تعالى (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) " أي لا يحلف أصحاب المال والغنى " أن يؤتوا أولي القربى " أي لا يحلفوا على أن لا يعطوا أقاربهم من أموالهم، لأنهم أسأؤوا إليهم، قال تعالى: " (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) " يعني ألا تحبون أن يغفر الله لكم ذنوبكم مقابل عفوكم عنهم " فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه " أي فأعاد إلى مسطح ما كان يعطيه، وكفر عن يمينه. " فقال: يا زينب ما علمت وما رأيت " أي ما الذي تعلمينه عن عائشة وما هي مرئياتك عنها فيما يتعلق " فقلت ائذن لي إلى أبي " فاستأذنته وهي في أسوأ الأحوال بدنياً ونفسياً، وهكذا يجب أن تكون المرأة الصالحة لأن سيرة هؤلاء الأبرار إنما ندرسها لتأسى بها في حياتنا ونطبقها عملاً في سلوكنا، لا

نستعرضها كما تستعرض التحف القديمة الثمينة، حتى إذا ما تحدث أحدٌ عن تطبيقتها، قالوا: ذلك عصر وهذا عصر، أين نساؤنا من نساء رسول الله - ﷺ -، وأين نحن منه، كلمة حق أريد بها باطل. نعم أين نحن منه في عصمته ومكانته عند ربه، أما في الواجبات والفرائض فإننا يجب علينا أن نتبعه فيها، لأنها يستوي فيها المسلمون جميعاً، لا فرق بين طبقة وطبقة، وكذلك نساؤنا يجب عليهن أن يتبعن أمهات المؤمنين في الواجبات التي لا بد منها، كالحجاب واستئذان الزوج في خروجهن، وطاعة أمره، والمحافظة على ماله وعرضه، هذه كلها واجبات لا يجوز لمسلم أو مسلمة إذا أمر باتباع سيرة المصطفى أو الصحابة أو الأسرة النبوية الكريمة أن يقول: أين نحن من أولئك حتى تطالبنا باتباعهم فالواجب واجب، والحق حق، والفرض فرض في كل قرن وعصر. نعم فيما يتعلق بالفضائل والمستحبات والمندوبات الأمر فيها واسع بعض الشيء، أما الواجبات، أو المحرمات فلا نقاش فيها " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم " هذا هو أساس التشريع الإسلامي في كل عصر ومصر.

سادساً: يُبَابُ هذا الحديث وجوهه والعنصر الأساسي فيه هو بيان فضل السيدة عائشة وتبرئتها القاطعة من التهمة الباطلة التي نسبت إليها بوحى صريح منزل على رسول الله - ﷺ -، وقرآن يتلى على مر العصور والأزمان يقطع ألسنة المرجفين، ويقضي على إشاعات المغرضين والملاحدين، وأدلة براءتها من حديث الباب والآيات المتزلة في شأنها كثيرة، وأهمها ثلاثة الأول: التبرئة الصريحة الحاسمة في قوله تعالى: (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) قال البغوي يعني عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع . الثاني: شهادة القرآن لعائشة بأنها الطاهرة المطهرة حيث قال فيها (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ) قال ابن كثير أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله - ﷺ - إلا وهي طيبة، لأنه أطيّب من كل طيّب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً. الثالث: أن الله سمي هذه التهمة الباطلة إفكاً حيث قال: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) والإفك أبلغ الكذب ، وأشنع الافتراء والبهتان الذي لا تشعر به حتى يفجأك. وقد افتخرت عائشة رضي الله عنها بهذه الفضائل التي ميزها الله بها، وأنعم بها عليها، قال البغوي: روي أن عائشة كانت تفتخر بأشياء أعطتها لم تعط امرأة مثلها، وهي أن جبريل أتى بصورتها في قطعة من حرير، وقال: هذه زوجتك، وأن النبي - ﷺ - لم يتزوج بكراً غيرها، وقبض رسول الله - ﷺ - ورأسه في حجرها، ودُفن في بيتها وكان يتزل عليه الوحي وهو معها في لحافه، ونزلت براءتها من السماء، وأنها ابنة خليفة رسول الله - ﷺ - وصديقه، وخلفت طيبة ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً.

سابعاً: ما ترجم له البخاري من جواز تعديل النساء للنساء، وتركية بعضهن لبعض، لأنه - ﷺ - سأل بريرة وزينت عن عائشة فزكتاهما، وتحدثتا عن صلاحها وكمال دينها، حيث قالت: زينب والله ما علمت عنها إلّا خيراً. وقالت بريرة: إن رأيت منها أمراً أغمضه عليها، أي ما رأيت منها أمر قبيحاً

أعيبها عليه من أجله، وفي رواية أن بريرة لما سئلت عن عائشة قالت: سبحان الله، ما علمت عليها إلا كما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر وإلى ذلك ذهب أبو حنيفة حيث قال: بجواز تعديل النساء بعضهن بعضاً، وقبول تزكية المرأة للمرأة إذا شهد امرأتان ورجل في قضية، وهو مذهب البخاري، لأن النبي - ﷺ - سأل بريرة عن حال عائشة ولما أجابت ببراءتها اعتمد النبي - ﷺ - قولها، فخطب واستعذر من ابن أبي.

وقال مالك والشافعي ومحمد بن الحسن: لا تقبل تزكية المرأة للمرأة، وأجاب القاضي عياض عن حديث الباب بأن قضية عائشة ليست من باب الشهادات، وإنما هي من باب التحقيق الشرعي لإظهار براءة المتهم أو إدانته والله أعلم.

ثامناً: قال ابن بطال: من سب عائشة رضي الله عنها بما برأها الله تعالى منه يقتل لتكذيبه بالله ورسوله - ﷺ -. مطابقة الحديث للترجمة: في كونه - ﷺ - سأل زينب وبريرة عن عائشة فعدلتاهما، وزكتهما، فدل ذلك على مشروعية تعديل النساء بعضهن لبعض كما ترجم له - البخاري. ٣٠٨

فوائد من قصة الإفك

- ١ - فيه مشروعية القرعة بين النساء في السفر بإحداهن.
- ٢ - السفر بالنساء في الغزو في مثل تلك الظروف والأحوال.
- ٣ - جواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس إذا تضمن ذلك إزالة توهم النقص عن الحاكي إذا كان بريئاً، عند قصد نصح من يبلغه ذلك لئلا يقع فيما وقع فيه من سبق.
- ٤ - إن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولى من تركه يقع في الإثم وتحصيل الأجر للموقع فيه.
- ٥ - وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام.
- ٦ - وأن الهودج يقوم مقام البيت في حجب المرأة.
- ٧ - جواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير ولو كان ذلك مما يشق عليه حيث يكون مطيقاً لذلك.
- ٨ - جواز خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب. وجواز تستر المرأة بالشيء المنفصل عن البدن وتوجه المرأة لقضاء حاجتها وحدها وبغير إذن خاص من زوجها بل اعتماداً على الأذن العام المستند إلى العرف العام.

٣٠٨ - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤ / ٣١)

- ٩- وجواز تحلى المرأة في السفر بالقلادة ونحوها.
- ١٠- وصيانة المال ولو قل للنهي عن إضاعة المال فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جواهر.
- ١١- وفيه شؤم الحرص على المال لأنها لو لم تطل في التفتيش لرجعت بسرعة، فلما زاد على قدر الحاجة أثر ما جرى، وقريب منه قصة المتخاصمين حيث رفع علم ليلة القدر بسببهما، فإنهما لم يقتصر على ما لا بد منه بل زاد في الخصام حتى ارتفعت أصواتهما فأثر ذلك بالرفع المذكور.
- ١٢- توقف رحيل العسكر على إذن الأمير.
- ١٣- واستعمال بعض الجيش ساقه يكون أمينا ليحمل الضعيف، ويحفظ ما يسقط، وغير ذلك من المصالح.
- ١٤- الاسترجاع عند المصيبة.
- ١٥- تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي.
- ١٦- إغاثة الملهوف وعون المنقطع وإنقاذ الضائع وإكرام ذوي القدر وإيثارهم بالركوب وتجشم المشقة لأجل ذلك.
- ١٧- حسن الأدب مع الأجانب خصوصا النساء، لاسيما في الخلوة، والمشي أمام المرأة ليستقر خاطرهما وتأمين مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي.
- ١٨- ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها، والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضي النقص وإن لم يتحقق وفائدة ذلك أن تنفطن لتغيير الحال فتعذر أو تعترف.
- ١٩- أنه لا ينبغي لأهل المريض أن يعلموه بما يؤدي باطنه لئلا يزيد ذلك في مرضه.
- ٢٠- مشروعية السؤال عن المريض
- ٢١- الإشارة إلى مراتب المهجران بالكلام والملاطفة فإذا كان السبب محققا فترك أصلاً، وإن كان مظنوناً فيخفف، وإن كان مشكوكاً فيه أو محتماً فيحسن التقليل منه، لا للعمل بما قيل بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقه لأن ذلك من خوارم المروءة.
- ٢٢- أن المرأة إذا خرجت لحاجة تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها.
- ٢٣- فيه ذب المسلم عن المسلم خصوصاً من كان من أهل الفضل وردع من يؤذيهم.
- ٢٤- فضيلة أهل بدر.
- ٢٥- فيه البحث عن الأمر القبيح إذا أشيع، وتعرف صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه، واستصحاب حال من أتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفاً بالخير إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك.
- ٢٦- فيه فضيلة قوية لأم مسطح لأنها لم تحاب ولدها في وقوعه في حق عائشة بل تعمدت سبه على ذلك.

- ٢٧- مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذب. وتوجيهه هنا أنه سبحانه وتعالى يتره أن يحصل لقراءة رسول الله ﷺ تدنيس فيشرع شكره بالتزويه في مثل هذا نبه عليه أبو بكر بن العربي.
- ٢٨- فيه توقف خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها ولو كانت إلى بيت أبيها.
- ٢٩- استشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ به بقراءة وغيرها وتخصيص من جربت صحة رأيه منهم بذلك ولو كان غيره أقرب.
- ٣٠- البحث عن حال من أتهم بشيء وحكاية ذلك للكشف عن أمره ولا يعد ذلك غيبة.
- ٣١- مشروعية استعمال لا نعلم إلا خيراً في التزكية وأن ذلك كاف في حق من سبقت عدالته ممن يطلع على خفي أمره.
- ٣٢- التثبت في الشهادة.
- ٣٣- فطنة الإمام عند الحادث المهم والاستنصار بالأخصاء على الأجانب، وتوطئة العذر لمن يراد إيقاع العقاب به أو العتاب له.
- ٣٤- استشارة الأعلى لمن هو دونه.
- ٣٥- أن من استفسر عن حال شخص فأراد بيان ما فيه من عيب فليقدم ذكر عذره في ذلك إن كان يعلمه، كما قالت بريرة في عائشة حيث عاتبها بالنوم عن العجين فقدمت قبل ذلك أنها جارية حديثه السن.
- ٣٦- أن النبي ﷺ كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي لأنه ﷺ لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي.
- ٣٧- أن الحمية لله ورسوله لا تدم.
- ٣٨- فيه فضائل جملة لعائشة ولأبويها ولصفوان ولعلي بن أبي طالب وأسامة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنه جميعاً.
- ٣٩- فيه أن التعصب لأهل الباطل يخرج عن اسم الصلاح، وجواز سب من يتعرض للباطل ونسبته إلى ما يسوءه وإن لم يكن ذلك في الحقيقة فيه، لكن إذا وقع منه ما يشبه ذلك جاز إطلاق ذلك عليه تغليظاً له.
- ٤٠- قال بعض أهل العلم: قول سعد بن معاذ -رضي الله عنه- إن كان من الأوس ضربت عنقه إنما قال ذلك لأن الأوس قومه، ولم يقل في الخرج لما كان بين الأوس والخرج من التشاحن قبل الإسلام ثم زال بالإسلام وبقي بعضه بحكم الأنفة، قال فتكلم سعد بن عبادة -رضي الله عنه- بحكم الأنفة، ونفى أن يحكم فيهم سعد بن معاذ وهو من الأوس، قال: ولم يرد سعد بن عبادة الرضا عما نقل عن عبد الله بن أبي، أو أن يناضل عن المنافقين وقد جاء في بعض الروايات ما يدل على ذلك رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً.

- ٤١- إطلاق الكذب على الخطأ.
- ٤٢- جواز القسم بلفظ لعمر الله.
- ٤٣- الندب إلى قطع الخصومة وتسكين ثائرة الفتنة وسد ذريعة ذلك واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما وفضل احتمال الأذى.
- ٤٤- وفيه مباحة من خالف الرسول ولو كان قريباً حميماً.
- ٤٥- أن من آذى النبي ﷺ بقول أو فعل يقتل لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك ولم ينكره النبي عليه.
- ٤٦- مساعدة من نزلت فيه بلية بالتوجع والبكاء والحزن.
- ٤٧- ثبت أبي بكر الصديق في الأمور لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة - مع تمادي الحال فيها شهراً - كلمة فما فوقها إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزانا الله بالإسلام وقع ذلك في حديث بن عمر عند الطبراني.
- ٤٨- مشروعية ابتداء الكلام في الأمر المهم بالتشهد والحمد والثناء وقول أما بعد.
- ٤٩- توقيف من نقل عنه ذنب على ما قيل فيه بعد البحث عنه.
- ٥٠- مشروعية التوبة وأنها تقبل من المعترف المقلع المخلص، وأن مجرد الاعتراف لا يجزئ فيها.
- ٥١- وأن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز ولو عرف أنه يصدق في ذلك، بل عليه أن يقول الحق أو يسكت.
- ٥٢- أن الصبر يحمد عاقبته ويغبط صاحبه، فقد ارتفع قدر عائشة وعلت منزلتها بصبرها على الابتلاء رضي الله عنها وأرضاها.
- ٥٣- فيه تقديم الكبير في الكلام، وتوقف من اشتبه عليه الأمر في الكلام.
- ٥٤- مشروعية تبشير من تجددت له نعمة أو اندفعت عنه نقمة، والضحك والفرح والاستبشار عند ذلك.
- ٥٥- معذرة من انزعج عند وقوع الشدة لصغر سن ونحوه.
- ٥٦- إدلال المرأة على زوجها وأبويها.
- ٥٧- التدريج مع من وقع في مصيبة فزالت عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهله فيهلكه، يؤخذ ذلك من ابتداء النبي ﷺ بعد نزول الوحي ببراءة عائشة بالضحك، ثم تبشيرها، ثم إعلامها ببراءتها مجمل، ثم تلاوته الآيات على وجهها، وقد نص الحكماء على أن من أشد عليه العطش لا يمكن من المبالغة في الري في الماء لئلا يفضي به ذلك إلى الهلكة بل يجرع قليلاً قليلاً.
- ٥٨- أن الشدة إذا استحكمت أعقبها الفرج، فعلى المسلم وإذا وقع في ضيق أو كربة أن يصبر وينتظر الفرج من الله عز وجل.

٥٩- فضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خف عنه الهم والغم كما وقع في حالي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها بقولها والله المستعان.

٦٠- الحث على الإنفاق في سبيل الخير خصوصاً في صلة الرحم، ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه، أو صفح عنه.

٦١- أن من حلف أن لا يفعل شيئاً من الخير استحبه له الخنث، فيأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه.

٦٢- جواز الاستشهاد بأي القرآن في النوازل، والتأسي بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم.

٦٣- مشروعية التسبيح عند التعجب واستعظام الأمر.

٦٤- ذم الغيبة وذم سماعها وزجر من يتعاطاها لا سيما إن تضمنت تهمة المؤمن بما لم يقع منه.

٦٥- ذم إشاعة الفاحشة، وقد قال الله تعالى متوعداً على ذلك: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) [سورة النور/١٩].

٦٦- تحريم الشك في براءة عائشة وشناعة ذلك، قال العلماء: من سبها بما برأها الله منه فهو مكذب لله ومن كذب الله فهو كافر، وبه قال الإمام مالك وغيره^{٣٠٩}.

٦٧- قَالَ الرَّمَّحَشَرِيُّ: لَمْ يَقَعْ فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّغْلِيظِ فِي مَعْصِيَةٍ مَا وَقَعَ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ وَأَشْبَعِهَا، لاشتِمَالِهِ عَلَى الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَالْعِتَابِ الْبَلِيعِ وَالزَّجْرِ الْعَنِيفِ، وَاسْتِعْظَامِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ وَاسْتِشْنَاعِهِ بِطُرُقٍ مُخْتَلَفَةٍ وَأَسَالِيبٍ مُتَقَنَةٍ، كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا كَافٍ فِي بَابِهِ، بَلْ مَا وَقَعَ مِنْهَا مِنْ وَعِيدِ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ إِلَّا بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِإِظْهَارِ عُلوِّ مَرْتَلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَطْهِيرِ مَنْ هُوَ مِنْهُ بِسَبِيلٍ^{٣١٠}.

٦٨- وفيه تأخير الحد عمن يخشى من إيقاعه به الفتنة نبه على ذلك بن بطلان مستنداً إلى أن عبد الله بن أبي كان ممن قذف عائشة ولم يقع في الحديث أنه ممن حد وتعقبه، القاضي عياض بأنه لم يثبت أنه قذف بل الذي ثبت أنه كان يستخرجه ويستوشيه.

٦٩- أن الغضب قد يخرج الحليم المتقي إلى ما لا يليق به من القول، فالواجب الحذر منه، والتباعد عن أسبابه. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ»^{٣١١}.

^{٣٠٩} - انظر: تفسير القرطبي (١٢ / ١٨٤). والصارم المسلول (١ / ٥٧٠).

^{٣١٠} - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٨ / ٤٧٧)

^{٣١١} - سنن أبي داود (٤ / ٢٤٩)(٤٧٨٤) وشعب الإيمان (١٠ / ٥٣١)(٧٩٣٩) حسن لغيره

(قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ») أَي: مِنْ أَثَرِ وَسْوَستِهِ (وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ): قَالَ تَعَالَى: {وَالْحَاقُّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُومِ} [الحجر: ٢٧]، وَقَالَ: {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ} [الأعراف: ١٢]، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْجِنِّ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ خُلِقُوا مِنَ النَّارِ، وَمَعْنَى خَلَقَهُ مِنْهَا أَنَّ عُنْصُرَهُ النَّارِيُّ غَالِبٌ عَلَى سَائِرِ أَجْزَائِهِ، بِخِلَافِ الْإِنْسَانِ (وَإِنَّمَا يُطْفَأُ): بِصِيعَةِ الْمَجْهُولِ مَهْمُوزٌ أَي:

٧٠- خطر المنافقين وشدة عدوانهم، وحرصهم على إيذاء المسلمين والنيل منهم، وتفريق كلمتهم، فقد كان المنافق عبد الله بن أبي بن سلول وهو الذي تولى كبر هذا الإفك^{٣١٢}.



يَدْفَعُ (النَّارُ) ، أَي: الْحَسِيَّةَ (بِالْمَاءِ) أَي: الْحَقِيقِيَّ (فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ) أَي: وَاشْتَعَلَتْ نَارُ غَضَبِهِ مِنْ جَوْفِهِ، وَيُرِيدُ إِحْرَاقَ الْمُغْضُوبِ عَلَيْهِ بِنَوْعٍ مِنْ عَذَابِهِ. (فَلْيَتَوَضَّأْ) : فَإِنَّ الْوُضُوءَ مُرَكَّبٌ مَعْجُونٌ مِنَ الْمَاءِ الْحَسِيِّ وَالْمُطَهَّرِ الْمُعْتَوِيِّ الْمُؤَثِّرِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَهَذَا مِنْ طِبِّ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِي غَفَلُوا عَنْهُ الْحُكَمَاءُ، وَأَغْرَبَ الطَّبِيبِيُّ حَيْثُ أَخْرَجَ الْحَدِيثَ عَنْ حَقِيقَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ مِنْ غَيْرِ بَاعِثٍ مِنَ الْأُمُورِ الثَّقَلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ فَقَالَ: أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ؛ فَإِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَصَوَّرَ حَالَةَ الْغَضَبِ وَمَنْشَأَهُ، ثُمَّ الْإِرْشَادَ إِلَى تَسْكِينِهِ، فَأَخْرَجَ الْكَلَامَ هَذَا الْمَخْرُجَ لِيَكُونَ أَجْمَعٌ وَأَنْفَعُ، وَلِلْمَوَانِعِ أَنْزَجَرُ، وَهَذَا التَّصْوِيرُ لَا يُمْنَعُ مِنْ إِجْرَائِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ اهـ.

وَالصَّوَابُ أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ عِلَاجٌ آخَرُ مُسْتَقْلٌ كَمَا وَرَدَ بِهِ الْأَثَرُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْجُرْزِيُّ فِي الْحِصْنِ، حَيْثُ قَالَ: وَمَنْ غَضِبَ فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، وَنَسَبَهُ إِلَى الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ وَالتَّسَائِيَّ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، وَهُوَ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} [الأعراف: ٢٠٠] وَرَوَاهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِلَفْظٍ: " «إِذَا غَضِبَ الرَّجُلُ فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ سَكَنَ غَضَبُهُ» " وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّ هَذَا عِلَاجٌ قَوْلِيٌّ سَهْلُ التَّنَازُلِ وَالْحُصُولِ، وَالْوُضُوءُ مُعَالِجَةٌ فِعْلِيَّةٌ صَعْبُ الْوُصُولِ، لِأَسِيْمَا وَالْوُضُوءُ مُقَدِّمَةٌ لِلصَّلَاةِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمَعْجُونِ الْمُسَهَّلِ الْمَخْرُجِ لِلْمَوَادِّ الْفَاسِدَةِ مِنْ أَصْلِهَا، وَأَمَّا مُحَرِّدُ الِاسْتِعَاذَةِ فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الِاسْتِفْرَاغِ لِتَخْلِيَةِ الْمَعِدَةِ مِنْ آثَارِ التُّخَمَةِ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْحَكِيمَ الْكَامِلَ يَذَرُجُ فِي الْمُعَالِجَةِ، وَيَعْلَمُ مَزَاجَ كُلِّ صَاحِبِ عِلَّةٍ بِمَا يُوَافِقُهُ، وَيُنَاسِبُهُ مِنْ خَوَاصِّ الْأَشْيَاءِ الْمَفْرَدَةِ وَالْمُرَكَّبَةِ وَأَنْوَاعِ الْغَضَبِ كَالْأَمْرَاضِ الْمُخْتَلِفَةِ فَعَلَى الْعَلِيلِ أَنْ يُسَلِّمَ تَسْلِيمًا وَيَجْعَلَ حِسَّهُ بَيْنَ يَدَيِ الطَّبِيبِ الْحَبِيبِ الْكَامِلِ كَالْمَيْتِ بَيْنَ يَدَيِ الْغَاسِلِ، وَخُلَاصَةُ الْكَلَامِ أَنَّهُ إِذَا أَحَسَّ بِالْغَضَبِ، فَلْيَتَوَضَّأْ بِاللَّهِ أَوَّلًا، ثُمَّ إِذَا رَأَى أَنَّهُ مَا يَزُولُ لَهُ يَقُومُ وَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ دَوَاءٌ صَبْرٍ كَرِيمٍ عَلَى الطَّبْعِ الشَّيْطَانِيِّ وَالْمَزَاجِ النَّفْسَانِيِّ، بَلْ هُوَ كَعُرُوقِ السُّوسِ يُخْرِجُ كُلَّ مَرَضٍ مَدْسُوسٍ. قَالَ تَعَالَى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥]

٤٥ [مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٩٣)]

٣١٢ - جامع الأصول (٢/ ٢٦١) وصحيح ابن حبان - محققا (١٠/ ٢٣) وعشرة النساء للإمام للنسائي - الطبعة الثالثة (ص: ٥٣) وفتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٨/ ٤٧٩)

قصة استضافة الأنصاري رضي الله عنه للنبي ﷺ وصاحبيه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأُخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعَذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعَذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدِّيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ، وَالْحَلُوبُ»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعَذْقِ وَشَرَبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُّوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمُ مِنَ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ ۝^{٣١٣}.

شرح المفردات:

(قاموا) هكذا في الأصول بضمير الجمع وهو جائز بلا خلاف ولكن الجمهور يقولون إطلاقه على الاثنين مجاز وآخرون يقولون حقيقة.

(فأتى رجلاً من الأنصار) هو أبو الهيثم مالك بن التيهان.

(مرحبا وأهلا) كلمتان معروفتان للعرب ومعناه صادفت رحبا وسعة وأهلا تأنس بهم.

(بعذق) العذق بكسر العين وهي الغصن من النخل، والعذق من التمر بمتزلة العنقود من العنب وإنما أتى بهذا العذق الملون ليكون أطرف وليجمعوا بين أكل الأنواع فقد يطيب لبعضهم هذا ولبعضهم هذا.

(المدية) هي السكين.

(الحلوب) ذات اللبن فعول بمعنى مفعول كركوب.

(لتسألن عن هذا النعيم) قال القاضي عياض: المراد السؤال عن القيام بحق شكره، وقال النووي: والذي نعتقه أن السؤال هنا سؤال تعداد النعم وإعلام بالامتنان بها وإظهار الكرامة بإسباغها لا سؤال توبيخ وتقريع ومحاسبة.^{٣١٤}

شرح الحديث :

^{٣١٣} - صحيح مسلم (٣/ ١٦٠٩) - ١٤٠ - (٢٠٣٨)

^{٣١٤} - جامع الأصول (٤/ ٦٩٣) وتطريز رياض الصالحين (ص: ٣٣٢) وشرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٢٤.

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ؟ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ : شَكَ مِنْ الرَّاوي (فَإِذَا) : لِلْمَفْجَأَةِ (هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا) : أَيُّ لَاحِقٍ بِهِمَا (فَقَالَ: " مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا) : بِضَمِّ الْمُوَحَّدَةِ وَكَسْرِهَا أَيُّ: مِنْ مَحَلِّكُمَا (هَذِهِ السَّاعَةُ؟) : فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ وَقْتُ الْخُرُوجِ فِي الْعَادَةِ (قَالَ: الْجُوعُ) : أَيُّ أَخْرَجَنَا الْجُوعُ أَوْ الْجُوعُ أَخْرَجَنَا. وَفِي الشَّمَائِلِ عَنْهُ قَالَ: " «خَرَجَ النَّبِيُّ - ﷺ - سَاعَةً لَا يَخْرُجُ فِيهَا وَلَا يَلْقَاهُ فِيهَا أَحَدٌ، فَاتَّاهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ: خَرَجْتُ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَأَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ وَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَرُ؟ قَالَ: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَتَأَمَّلْ فِي الرَّوَّائِثَيْنِ لِيَحْصُلَ التَّطْبِيقُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ. (قَالَ: وَأَنَا) : وَفِي بَعْضِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ بِالْفَاءِ (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا) : وَفِي الشَّمَائِلِ: " وَأَنَا قَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ ذَلِكَ " : أَيُّ الْجُوعَ قَالَ النَّوَوِيُّ: فِيهِ جَوَازُ ذِكْرِ الْإِنْسَانِ مَا نَالَهُ مِنْ أَلَمٍ وَنَحْوِهِ، لَا عَلَى التَّشْكِيِّ وَعَدَمِ الرِّضَا وَإِظْهَارِ الْجُوعِ، وَلَمَّا كَانَا - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - عَلَى لُزُومِ الطَّاعَةِ، فَعَرَضَ لَهُمَا هَذَا الْجُوعُ الْمُفْرِطُ الْمَانِعُ مِنْ كَمَالِ النَّشَاطِ بِالْعِبَادَةِ وَكَمَالِ التَّلَذُّذِ بِهَا سَعِيًا فِي إِزَالَتِهِ بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ سَبَبٍ مُبَاحٍ لِيَدْفَعَهُ بِهِ، وَقَدْ نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ مَعَ مُدَافَعَةِ الْأَخْبَثَيْنِ وَبِحَضْرَةِ الطَّعَامِ انْتَهَى. وَقَدْ اتَّفَقَ خُرُوجُهُمْ غَيْرَ قَاصِدِينَ ضِيَافَةً فَقَالَ - ﷺ - لَهُمَا: (فُومُوا، فَقَامُوا مَعَهُ) : قَالَ الطَّبِيُّ: هَكَذَا هُوَ فِي الْأُصُولِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ وَهُوَ جَائِزٌ، فَمَنْ قَالَ بِأَنَّ أَقْلَ الْجَمْعِ اثْنَانِ فَظَاهِرٌ، وَمَنْ قَالَ بِأَنَّ أَقْلَهُ ثَلَاثَةٌ فَمَجَازٌ يَعْنِي بِأَنَّ أُعْطِيَ الْأَكْثَرُ حُكْمَ الْكُلِّ. (فَأَتَى) : أَيُّ النَّبِيِّ - ﷺ - مَعَهُمَا (رَجُلًا) : أَيُّ بَيْتِ رَجُلٍ (مِنَ الْأَنْصَارِ) : قِيلَ: هُوَ خُزَاعِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ حَلِيفُ الْأَنْصَارِ، فَنُسِبَ إِلَيْهِمْ. قَالَ الْأَشْرَفُ: إِفْرَادُ الضَّمِيرِ أَيُّ: فِي " أَتَى " وَإِسْنَادُهُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - بَعْدَ قَوْلِهِ: " فُومُوا، فَقَامُوا " إِذَا بَانَتْهُ - ﷺ - هُوَ الْمُطَاعُ، وَأَنْتَهُمَا كَانَا مُطِيعَيْنِ لَهُ مُتَقَادَيْنِ كَمَنْ لَا اخْتِيَارَ لَهُ انْتَهَى. وَفِي الشَّمَائِلِ: " فَانْطَلَقُوا إِلَى مَنْزِلِ أَبِي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ النَّخْلِ وَالشَّاءِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَدَمٌ فَلَمْ يَجِدُوهُ "، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: (فَإِذَا هُوَ) : أَيُّ الرَّجُلِ (لَيْسَ فِي بَيْتِهِ) : قَالَ الطَّبِيُّ: أَيُّ أَتَى بَيْتَ رَجُلٍ أَوْ قَصْدَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ بَيْتَهُ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ أَيُّ: فَاجَأَهُ وَقْتُ خُلُوهُ مِنْ بَيْتِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الروم: ٤٨] : أَيُّ: فَاحْتُوا وَقْتُ الْإِسْتَبْشَارِ. (فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ) : أَيُّ أَبْصَرَتِ النَّبِيَّ - ﷺ - (قَالَتْ؟ مَرَحَبًا: أَيُّ أَتَيْتَ مَكَانًا وَاسِعًا (وَأَهْلًا) : أَيُّ وَجِئْتَ أَهْلًا (فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ : أَيْنَ فَلَان؟) : وَلَفْظُ الشَّمَائِلِ: " أَيْنَ صَاحِبُكَ؟ " (قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْدِبُ) : أَيُّ يَطْلُبُ الْعَذَبَ وَهُوَ الْحُلُوهُ (لَنَا مِنَ الْمَاءِ) : فَإِنَّ أَكْثَرَ مِيَاهِ الْمَدِينَةِ كَانَ مَالِحًا (إِذْ جَاءَ) : أَيُّ: هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ جَاءَ (الْأَنْصَارِيُّ) : وَفِي الشَّمَائِلِ: " «فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ جَاءَ أَبُو الْهَيْثَمِ بِقِرْبَةٍ يَزْعُبُهَا فَوَضَعَهَا، ثُمَّ جَاءَ يَلْتَرِمُ النَّبِيَّ - ﷺ - وَيَفْدِيهِ بِأَبْيِهِ وَأُمِّهِ» ". قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الرَّجُلُ هُوَ أَبُو الْهَيْثَمِ مَالِكُ بْنُ التَّيْهَانِ بَفَتْحِ التَّاءِ وَكَسْرِ الْيَاءِ الْمُشْتَاةِ تَحْتَ وَتَشْدِيدِهَا، وَفِيهِ جَوَازُ الْإِدْلَالِ عَلَى الصَّاحِبِ الَّذِي يُوثَقُ بِهِ، وَاسْتِيبَاحُ جَمَاعَةٍ إِلَى بَيْتِهِ،

وَفِيهِ مَنَقِبَةٌ لَهُ وَكَفَى لَهُ شَرَفًا بِذَلِكَ، قُلْتُ: وَهُوَ مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ، وَهُوَ أَحَدُ الثُّقَبَاءِ السَّائِي عَشَرَ وَشَهِدَ بَدْرًا وَأُحُدًا وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا.

رَوَى عَنْهُ أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ بِقَوْلِهِ مَرْحَبًا وَأَهْلًا أَيُّ: صَادَقَتْ رَحْبًا وَسِعَةً وَأَهْلًا تَسْتَأْنِسُ بِهِمْ، وَفِيهِ جَوَازُ سَمَاعِ كَلَامِ الْأَجَنِّيَّةِ وَمُرَاجَعَتِهَا الْكَلَامَ لِلْحَاجَةِ، وَجَوَازُ إِذْنِ الْمَرْأَةِ فِي دُخُولِ مَنْزِلِ زَوْجِهَا لِمَنْ عَلِمَتْ عِلْمًا مُحَقَّقًا أَنَّهُ لَا يَكْرَهُهُ بَحِثٌ لَا يَخْلُو بِهَا الْخُلُوةَ الْمُحَرَّمَةَ. (فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَصَاحِبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدُ الْيَوْمِ أَكْرَمَ: بِالنَّصَبِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالرَّفْعِ أَيُّ: أَكْرَمَ عَلَيَّ اللَّهُ (أَضْيَافًا مِنِّي): فِيهِ اسْتِحْبَابُ الشُّكْرِ عِنْدَ هُجُومِ نِعْمَةٍ وَأَنْدِفَاعِ نِقْمَةٍ، وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ إِظْهَارِ الْبُشْرِ وَالْفَرَحِ بِالضَّيْفِ فِي وَجْهِهِ (قَالَ): أَيُّ أَبُو هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - وَهُوَ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ أَوْ سَمِعَ مِنْهُمْ (فَانْطَلَقَ): أَيُّ بِهِمْ إِلَى حَدِيقَتِهِ. فَبَسَطَ لَهُمْ بَسَاطًا، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى نَخْلَةٍ كَمَا فِي رِوَايَةِ الشَّامِلِ، (فَجَاءَهُمْ بِعَذْقٍ): بِكَسْرٍ فَسُكُونٍ أَيُّ "بِقَنُو" كَمَا فِي رِوَايَةٍ، وَهُوَ مِنَ النَّخْلِ بِمَنْزِلَةِ الْعُنُقُودِ مِنَ الْعَبِّ (فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ، فَقَالَ): أَيُّ فَوْضَعُهُ فَقَالَ: (كُلُوا مِنْ هَذِهِ): أَيُّ التَّمَرَاتِ وَأَنْوَاعِهَا. وَزَادَ التِّرْمِذِيُّ فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ: (أَفَلَا تَنْقَيْتَ لَنَا مِنْ رُطْبِهِ؟"، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَخْتَارُوا مِنْ رُطْبِهِ وَبُسْرِهِ، فَأَكَلُوا وَشَرَبُوا مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، فَقَالَ - ﷺ: («هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّذِي تُسْئَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ظِلٌّ بَارِدٌ وَرُطْبٌ طَيِّبٌ وَمَاءٌ بَارِدٌ») فَانْطَلَقَ أَبُو الْهَيْثَمِ لِيَضَعَ لَهُمْ طَعَامًا انْتَهَى.

قَالَ النَّوَوِيُّ: الْعَذْقُ هُنَا بِكَسْرِ الْعَيْنِ الْكِبَاسَةُ وَهِيَ الْعُصْنُ مِنَ النَّخْلِ، وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ تَقْدِيمِ الْفَاكِهَةِ عَلَى الطَّعَامِ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى الضَّيْفِ بِمَا تَيْسَّرَ، وَإِكْرَامُهُ بَعْدَهُ بِمَا يَصْنَعُ لَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ: وَقَدْ كَرِهَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ التَّكْلُفَ لِلضَّيْفِ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا يَشُقُّ عَلَى صَاحِبِ الْبَيْتِ مَشَقَّةً ظَاهِرَةً لِأَنَّ ذَلِكَ يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَكَمَالِ السُّرُورِ بِالضَّيْفِ، وَأَمَّا فِعْلُ الْأَنْصَارِيِّ وَذَبْحُهُ الشَّاةَ، فَلَيْسَ مِمَّا يَشُقُّ عَلَيْهِ، بَلْ لَوْ ذَبَحَ أَغْنَامًا لَكَانَ مَسْرُورًا بِذَلِكَ مَغْبُوطًا فِيهِ انْتَهَى. وَسَبَبُهُ أَنَّهُ صَارَ صَدِيقًا لَهُ - ﷺ - وَلِصَاحِبِيهِ، حَيْثُ عَلِمُوا رِضَاهُ وَفَرَحَهُ بِمَا أَتَاهُمْ، وَنَظِيرُهُ مَا حُكِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ صَارَ ضَيْفًا لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ، فَرَأَى فِي يَدِ عَبْدِ الْمُضِيفِ وَرَقَةً فِيهَا شَرَاءُ أَسْبَابِ أَنْوَاعِ الطَّبِيخِ الَّتِي أَرَادَهَا سَيِّدُهُ، فَأَخَذَهَا الشَّافِعِيُّ، وَالْحَقُّ فِيهَا نَوْعٌ طَبِيخٍ كَانَ مُشْتَهًى لَهُ، فَلَمَّا مَدَّ السَّمَاطَ اسْتَعْرَبَ الْمُضِيفُ ذَلِكَ النَّوْعَ، وَنَادَى عَبْدَهُ سِرًّا وَسَلَّاهُ فَذَكَرَ لَهُ فَأَعْتَقَ عَبْدَهُ فَرَحًا بِذَلِكَ وَاسْتَبَشَرَ اسْتِبْشَارًا عَظِيمًا. وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مِثْلَ هَذَا الْإِمَامِ الْهَمَامِ رَاضِيًا لِأَنَّهُ أَكُونَ صَدِيقًا لَهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَأَوْ صَدِيقُكُمْ} [النور: ٦١] (وَأَخَذَ الْمُدِيَّةَ): بِضَمٍّ فَسُكُونٍ وَقَدْ يُكْسَرُ أَوَّلُهُ وَاحِدُ الْمُدَى، وَهِيَ سَكِينُ الْقَصَابِ، وَفِي الْقَامُوسِ الْمُدِيَّةُ مُثَلَّثَةُ الشَّفَرَةِ. (فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ»): بِفَتْحِ أَوَّلِهِ أَيُّ ذَاتِ اللَّبَنِ فَعُولٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَرَكُوبٍ، وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ لَا تَذْبَحَنَّ لَنَا شَاةً ذَاتَ دَرٍّ (فَذَبَحَ لَهُمْ): أَيُّ عَنَاقًا أَوْ جَدْيًا فَأَتَاهُمْ بِهَا، كَمَا فِي رِوَايَةٍ (فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعَذْقِ،

وَشَرُّوْا) : أَي: ثَانِيًا أَوْ الْوَاوُ لِمُطْلَقِ الْجَمْعِ، (فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا) : بِضَمِّ الْوَاوِ وَأَصْلُهُ رَوُّوا فَنَقَلَتْ ضَمَّةُ الْيَاءِ إِلَى مَا قَبْلَهَا بَعْدَ سَلْبِ حَرَكَةِ مَا قَبْلَهَا فَحُذِفَتْ لِلتَّقَاءِ السَّاكِنَيْنِ (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -) : أَي: ثَانِيًا جَمْعًا بَيْنَ الرَّوَايَتَيْنِ (لِأَيِّ بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ») .

قَالَ الطَّبْطَبِيُّ قَوْلُهُ: أَخْرَجَكُمْ. . الخ، جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ بَيَّانٌ لِمُوجِبِ السُّؤَالِ عَنِ النَّعِيمِ يَعْنِي: حَيْثُ كُنْتُمْ مُحْتَاجِينَ إِلَى الطَّعَامِ مُضْطَرِّينَ إِلَيْهِ، فَلَنْتُمْ غَايَةَ مَطْلُوبِكُمْ مِنَ الشَّبَعِ وَالرَّيِّ يَجِبُ أَنْ تَسْأَلُوا، وَيُقَالُ لَكُمْ: هَلْ أَدَيْتُمْ شُكْرَهَا أَمْ لَا؟

قَالَ النَّوَوِيُّ^{٣١٥}: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الشَّبَعِ، وَمَا جَاءَ فِي كَرَاهَتِهِ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُدَاوَمَةِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يُفَسِّسُ الْقَلْبَ وَيُنَسِّي حَالَ الْمُحْتَاجِينَ، وَأَمَّا السُّؤَالُ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ؟ ، فَقَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: الْمُرَادُ بِهِ السُّؤَالُ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّ شُكْرِهِ، وَالَّذِي نَعْتَقِدُهُ أَنَّ السُّؤَالَ هَذَا سُؤَالُ تَعْدَادِ النَّعِيمِ، وَإِعْلَامُ بِالْإِمْتِنَانِ بِهِ، وَإِظْهَارُ الْكِرَامَةِ بِإِسْبَاحِهَا لَا سُؤَالُ تَوْبِيخٍ وَتَقْرِيعٍ وَمُحَاسَبَةٍ.^{٣١٦}

من فوائد الحديث:

- ١- في الحديث ما كان عليه النبي ﷺ وكبار أصحابه رضي الله عنهم من التقليل من الدنيا، وما ابتلوا به من الجوع وضيق العيش.
- ٢- جواز ذكر الإنسان ما يناله من ألم ونحوه لا على سبيل التشكي وعدم الرضا بل للتسلية والتصبر، كفعله ﷺ هنا.
- ٣- وفيه جواز الإدلال على صاحب الذي يوثق به، واستتباع جماعة إلى بيته.
- ٤- وفيه منقبة لأبي الهيثم رضي الله عنه إذ جعله النبي ﷺ أهلاً لذلك - استضافته وصاحبيه - وكفى به شرفاً.
- ٥- استحباب إكرام الضيف، وإظهار البشر والفرح بالضيف في وجهه.
- ٦- أنه ينبغي المبادرة إلى الضيف بما تيسر، وإكرامه بعده بطعام يصنعه له لاسيما إن غلب على ظنه حاجته في الحال إلى الطعام.
- ٧- استحباب حمد الله تعالى عند حصول نعمة ظاهرة، وكذا يستحب عند اندفاع نقمة كانت متوقعة وفي غير ذلك من الأحوال.

^{٣١٥} - شرح النووي على مسلم (١٣/ ٢١٤) وتحفة الأحوذى - (ج ٦ / ص ١٥٦)

^{٣١٦} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٧٣٣)

٨- فيه جواز سماع كلام الأجنبية ومراجعتها الكلام للحاجة، وجواز إذن المرأة في دخول منزل زوجها لمن علمت علماً محققاً أنه لا يكرهه بحيث لا يخلو بها الخلوة المحرمة.^{٣١٧}



^{٣١٧} - شرح النووي على مسلم (١٣ / ٢١١)

قصة استضافة جابر بن عبد الله للنبي ﷺ يوم الخندق

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ حَمَصًا شَدِيدًا، فَأَنْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَمَصًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجَتْهُ إِلَيَّ جَرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنْتِ الشَّعِيرَ، فَفَرَعْتُ إِلَيَّ فَرَاغِي، وَقَطَعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحْنَا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ، فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا، فَحَيَّ هَلَا يَهْلِكُكُمْ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُنْزِلْنَ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَخْزِينَ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ». فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتَ، فَأَخْرَجَتْ لِي عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ حَابِرَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي، وَأَقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوها» وَهُمْ أَلْفٌ، فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكَوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنْ بُرْمَتَنَا لَتَغَطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنْ عَجِينَنَا لَيُخْبِزُ كَمَا هُوَ^{٣١٨}

وَعَنْ أَيَمَنَ، قَالَ: أَتَيْتُ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفَرُ، فَعَرَضْتُ كُدْيَةً شَدِيدَةً، فَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَكِنَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضْرَبَ، فَعَادَ كَثِيرًا أَهْيَلًا، أَوْ أَهْمِيمًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَذَن لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لَامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرًا، فَعِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعِنَاقٌ، فَذَبَحْتُ الْعِنَاقَ، وَطَحَنْتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينَ قَدْ انْكَسَرَ، وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِي قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعِيمٌ لِي، فَقَمَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ» فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: " كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قَالَ: قُلْ لَهَا: لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُورِ حَتَّى آتِي، فَقَالَ: قُومُوا " فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ، وَالْأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكَ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلْتُكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «ادْخُلُوا وَلَا تَضَاعَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَعْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»^{٣١٩}

شرح المفردات:

^{٣١٨} - صحيح البخاري (١٠٨/٥) (٤١٠٢) (صحيح مسلم (١٦١٠/٣) - (٢٠٣٩)

^{٣١٩} - صحيح البخاري (١٠٨/٥) (٤١٠١)

(الخمص) الجوع.
 (كُدْيَةٌ) وَهِيَ الْقِطْعَةُ الصُّلْبَةُ الصَّمَاءُ.
 (فَأَخَذَ الْمِعْوَلُ) أَيِ الْمِسْحَاةِ.
 (وَعَنَاقُ) هِيَ الْأُتَى مِنْ الْمَعَزِ.
 (بَهِيمَةٌ دَاجِنٌ) أَيِ سَمِينَةٍ ، وَالْدَاجِنُ مَا يَأْلَفُ الْبَيْتَ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَسْمَنَ.
 (وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ) أَيِ لَانَ وَرَطِبَ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ الْخَمِيرُ.
 (الْبُرْمَةُ) الْقِدْرُ.

(تَغَطُّ) تَغْلِي ، وَيَسْمَعُ غَلِيَاهَا.
 (الْأَثَافِي) أَيِ الْحِجَارَةِ الَّتِي تُوضَعُ عَلَيْهَا الْقِدْرُ وَهِيَ ثَلَاثَةٌ .
 (وَيُخَمَّرُ الْبُرْمَةُ) أَيِ يُغَطِّي بِهَا.
 (فَأَخَذَ الْمِعْوَلُ) أَيِ الْمِسْحَاةِ.
 (فَعَادَ كَثِيْبًا) أَيِ رَمْلًا .
 (أَهْيَلٌ ، أَوْ أَهْيَمٌ) أَيِ صَارَ رَمْلًا يَسِيلُ ، وَلَا يَتِمَّاسَكُ.
 (وَلَا تَضَاغُطُوا) أَيِ لَا تَزْدَحِمُوا. ٣٢٠

شرح الحديث :

(وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّا) أَيِ: نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَصْحَابِ (كُنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ) ، أَيِ: الْأَرْضَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْأَعْدَاءِ (فَعَرَضْتُ) أَيِ: ظَهَرَتْ فِي عَرْضِ الْأَرْضِ مُعَارِضًا لِمَقْصَدِنَا (كُدْيَةٌ) : بَضْمُ الْكَافِ وَسُكُونِ الدَّالِ أَيِ: قِطْعَةُ (شَدِيدَةٍ) ، أَيِ صُلْبَةٍ لَا يَعْمَلُ فِيهَا الْفَأْسُ (فَجَاءُوا النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضْتُ فِي الْخَنْدَقِ فَقَالَ: أَنَا نَازِلٌ) . أَيِ فِي الْخَنْدَقِ (ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ) أَيِ: مَرْبُوطٌ (بِحَجَرٍ) أَيِ: مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ (وَلَبِثَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوْاقًا) ، بَفَتْحِ أَوَّلِهِ أَيِ مَا كُؤُلًا وَمَشْرُوبًا ، وَهُوَ فَعَالٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ مِنَ الذَّوْقِ يَقَعُ عَلَى الْمَصْدَرِ ، وَالِاسْمُ وَالْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ لِبَيَانِ سَبَبِ رَبْطِ الْحَجَرِ ، (فَأَخَذَ النَّبِيُّ - ﷺ - الْمِعْوَلُ) ، بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْوَائِ بِالْفَارِسِيِّ كَلْنَدَ قَالَهُ شَارِحٌ ، وَفِي الْقَامُوسِ: الْمِعْوَلُ كَمَنْبَرِ الْحَدِيدَةِ يُنْفَرُ بِهَا الْجِبَالُ (فَضْرَبَ فَعَادَ) أَيِ: انْقَلَبَ الْحَجَرُ وَصَارَ (كَثِيْبًا) أَيِ: رَمْلًا (أَهْيَلٌ) ، أَيِ سَائِلًا وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيْبًا مَهِيْلًا} [المزمل: ١٤] قَالَ الْقَاضِي: وَالْمَعْنَى أَنَّ الْكُدْيَةَ الَّتِي عَجَزُوا عَنْ رَضَّهَا صَارَتْ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ ضَرْبَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - كَتْلٌ مِنَ الرَّمْلِ مَعْصُوبٌ سَيَالٌ ، (فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي) أَيِ: انْقَلَبْتُ وَانْصَرَفْتُ إِلَى بَيْتِهَا (فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ) ؟ أَيِ مِنْ الْمَأْكُولِ (فَإِنِّي رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ - ﷺ - خَمَصًا) :

بِفَتْحَتَيْنِ وَيُسَكَّنُ الثَّانِي، وَاقْتَصَرَ عَلَيْهِ الْقَاضِي، وَسَكَتَ عَنْهُ الطَّبِيُّ أَيُّ: جُوعًا، وَسُمِّيَ بِهِ لِأَنَّ الْبَطْنَ يَضْمُرُ بِهِ، وَفِي الْمَشَارِقِ لِعِيَاضٍ: رَأَيْتُ بِهِ خَمَصًا يَفْتَحُ الْمِيمَ أَيُّ ضُمُورًا فِي بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَيَعْبَرُ بِالْخَمَصِ عَنِ الْجُوعِ أَيْضًا. وَقَالَ السُّبُوطِيُّ قَوْلُهُ: خَمَصًا يَفْتَحُ الْمُعْجَمَةَ وَالْمِيمَ وَقَدْ يُسَكَّنُ وَمُهِمَلَةٌ اهـ.

الْمُرَادُ بِهِ أَثَرُ الْجُوعِ وَعَلَامَتُهُ مِنْ ضُمُورِ الْبَطْنِ أَوْ صَفَارِ الْوَجْهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ طُولِ مُكْتَنِهِمْ، وَشِدَّةِ كَدِّهِمْ عَلَى غَيْرِ ذَوْقٍ مِنْ غَايَةِ ذَوْقِهِمْ وَنِهَايَةِ شَوْقِهِمْ (شَدِيدًا، فَأَخْرَجَتْ) أَيُّ: الْمَرْأَةُ (جِرَابًا): بِكَسْرِ الْجِيمِ (فِيهِ صَاعٌ) أَيُّ: قَدْرُ صَاعٍ (مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بِهِمَةً): يَفْتَحُ مُوَحَّدَةً وَسُكُونِ هَاءٍ. قَالَ النَّوَوِيُّ: هِيَ الصَّغِيرَةُ مِنْ أَوْلَادِ الضَّئَانِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى كَالشَّاةِ، وَفِي نُسْخَةٍ بِهِمَةً، وَهِيَ أَصْلُ الْمَصَابِيحِ. قَالَ شَارِحُ لَهُ: هِيَ تَصْغِيرُ بِهِمَةٍ يَفْتَحُ الْبَاءُ وَسُكُونِ الْهَاءِ وَلَدُ الضَّئَانِ، وَقِيلَ: وَلَدُ الشَّاةِ أَوَّلُ مَا تَضَعُهُ أُمُّهُ، وَقِيلَ: السَّخْلَةُ وَهِيَ وَلَدُ الْمَعَزِ (دَاجِنٌ) أَيُّ: سَمِينَةٌ قَالَهُ صَاحِبُ الْمَوَاهِبِ، وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ مَا أَلْفَ الْبَيْتِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا فِي الْقَامُوسِ: دَجَنَ بِالْمَكَانِ دُجُونًا أَقَامَ وَالْحَمَامُ وَالشَّاةُ وَغَيْرُهُمَا أَلْفَتْ وَهِيَ دَاجِنٌ (فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنْتُ) أَيُّ: الْمَرْأَةُ (الشَّعِيرِ)، وَفِي نُسْخَةٍ بِصِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ، وَالْأَوَّلُ أَوْفَقُ لِقِيَامِ كُلِّ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ بِخِدْمَةِ تَلِيْقٍ بِهِ مَعَ تَحْقِيقِ الْمُسَارَعَةِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ، فَفَرَعَتْ إِلَى فَرَاعِي، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُؤَوَّلَ وَيُقَالُ: مَعْنَاهُ أَمْرُتُهَا أَوْ غَيْرَهَا بِالطَّحْنِ، (حَتَّى جَعَلْنَا) أَيُّ: بِالتَّفْاقِ (اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ)، أَيُّ: الْقَدْرُ مِنَ الْحَجَرِ، وَقِيلَ هِيَ الْقَدْرُ مُطْلَقًا، وَأَصْلُهَا الْمُتَّخَذُ مِنَ الْحَجَرِ، (ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - فَسَارَرْتُهُ)، قَالَ النَّوَوِيُّ: فِيهِ جَوَازُ الْمُسَارَعَةِ بِالْحَاجَةِ فِي حَضْرَةِ الْجَمَاعَةِ، وَإِنَّمَا الْمُنْهِي أَنْ يُنَاجِيَ اثْنَانِ دُونَ الثَّلَاثِ اهـ. وَفِيهِ بَحْثٌ لَا يَخْفَى، وَالْأَظْهَرُ أَنْ يُقَالُ: إِنَّمَا مَحَلُّ التَّهْيِ تَوْهُمُ ضَرَرٍ لِلْجَمَاعَةِ. (فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذَبَحْنَا بِهِمَةً لَنَا): بِالتَّصْغِيرِ هُنَا لِلتَّحْقِيرِ فِي جَنْبِ عَظَمَةِ الضَّيْفِ الْكَبِيرِ (وَطَحَنْتُ): بِالْوَجْهَيْنِ (صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ)، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا قَدْرٌ يَسِيرٌ وَأَصْحَابُكَ كَثِيرٌ (فَتَعَالِ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ)، وَهُوَ مَا دُونَ الْعَشْرَةِ مِنَ الرِّجَالِ، وَيُطْلَقُ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ، وَكَأَنَّهُ - ﷺ - نَظَرَ إِلَى الْمَعْنَى الثَّانِي لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ (فَصَاحَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا صَنَعَ سُورًا): بِضَمِّ فُسُكُونِ وَאוْ أَيُّ طَعَامًا. وَفِي الْقَامُوسِ: السُّورُ الضِّيَافَةُ فَارِسِيَّةٌ شَرَفَهَا النَّبِيُّ - ﷺ - (فَحَيَّ): بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ الْمَفْتُوحَةِ (هَلَا): يَفْتَحُ الْهَاءَ وَاللَّامُ مُنَوَّنَةٌ، وَفِي نُسْخَةٍ بَعِيرٍ تَنْوِينٍ وَالْبَاءُ فِي (بِكُمْ): لِلتَّعْدِيَةِ أَيُّ: أَسْرَعُوا بِأَنْفُسِكُمْ إِلَيْهِ. قَالَ النَّوَوِيُّ: السُّورُ بِضَمِّ السَّيْنِ غَيْرُ مَهْمُوزٍ هُوَ الطَّعَامُ الَّذِي يُدْعَى إِلَيْهِ، وَقِيلَ الطَّعَامُ مُطْلَقًا، وَهِيَ لَفْظَةٌ فَارِسِيَّةٌ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ أَحَادِيثٌ صَحِيحَةٌ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - تَكَلَّمَ بِاللُّغَةِ الْفَارِسِيَّةِ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ، وَأَمَّا (حَيَّ هَلَا) فَهُوَ تَنْوِينٌ هَلَا، وَقِيلَ بِلَا تَنْوِينٍ عَلَى وَزْنِ عَلَا، وَيُقَالُ: حَيَّ هَلَا، وَمَعْنَاهُ عَلَيْكُمْ بِكَذَا وَادْعُوكُمْ بِكَذَا. وَفِي الْقَامُوسِ بَسْطٌ لِهَذَا الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى، وَلَكِنْ اقْتَصَرْنَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُوعَ مَعْنَاً وَالتَّعَطُّشَ لِمَا هُنَا.

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : (لَا تُنْزِلَنَّ) : بِضَمِّ التَّاءِ وَاللَّامِ (بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِرُنَّ) : بِفَتْحِ التَّاءِ وَكَسْرِ
 الْبَاءِ وَضَمِّ الزَّايِ (عَجِيتُكُمْ حَتَّى أَجِيءَ) أَيِ : إِلَى بَيْتِكُمْ (وَجَاءَ فَأَخْرَجْتُ لَهُ) أَيِ : أَنَا وَفِي نُسخَةِ
 بصيغَةِ الْوَاحِدَةِ (عَجِينَا) . أَيِ : قِطْعَةً مِنَ الْعَجِينِ (فَبَصَقَ فِيهِ) : قَالَ النَّوَوِيُّ : هُوَ بِالصَّادِ فِي أَكْثَرِ
 الْأَصُولِ ، وَفِي بَعْضِهَا بِالسَّيْنِ وَهِيَ لُغَةٌ قَلِيلَةٌ أَهـ . وَالْمَعْنَى رَمَى بِالْبُزَاقِ فِيهِ (وَبَارَكَ) ، أَيِ : دَعَا
 بِالْبَرَكَاتِ فِيهِ (ثُمَّ عَمَدَ) : بَفَتْحِ الْمِيمِ أَيِ : قَصَدَ (إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ) أَيِ : فِيهَا كَمَا فِي نُسخَةِ (وَبَارَكَ ،
 ثُمَّ قَالَ : ادْعِي) : بِهِمْزٍ وَصَلٍ مَضْمُومٍ وَكَسْرِ عَيْنٍ أَمْرٌ مُخَاطَبَةٌ مِنْ دَعَا يَدْعُو أَيِ : اطْلُبِي (حَايِزَةً) :
 قَالَ النَّوَوِيُّ : جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَصُولِ ادْعِي عَلَى خِطَابِ الْمُؤَنَّثِ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ الظَّاهِرُ ، وَلِهَذَا قَالَ :
 (فَلْتَخْبِرْ مَعَكَ) : يَعْنِي لِرَوَايَتِهِ كَسَرَ الْكَافِ ، وَفِي بَعْضِهَا ادْعُوا بِالْوَاوِ أَيِ : اطْلُبُوا وَفِي بَعْضِهَا ادْعُ
 (وَأَقْدَحِي) : بِفَتْحِ الدَّالِ أَيِ : اغْرِفِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ . قَالَ الثَّوْرِيُّ يُقَالُ : قَدَحْتَ الْمَرْقَ أَيِ : غَرَقْتَهُ ،
 وَمِنْهُ الْمَقْدَحُ وَهُوَ الْمَعْرِفَةُ سَلَكَ بِالْخِطَابِ مَسْلَكَ التَّلْوِينِ فَخَاطَبَ بِهِ رَبَّةَ الْبَيْتِ . قَالَ الطَّبَّيُّ : لَعَلَّهُ
 فِي نُسخَتِهِ فَلْتَخْبِرْ مَعِي بِالْإِضَافَةِ .

إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ كَمَا هُوَ فِي بَعْضِ نُسخِ الْمَصَابِيحِ ، فَحَمَلَهُ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ كَلَامِ
 النَّوَوِيِّ أَنَّ مَعِي لَمْ تَرُدْ فِي رَوَايَةٍ ، وَإِذَا ذَهَبَ إِلَى ادْعِي فَلْتَخْبِرْ مَعَكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ تَلْوِينِ الْخِطَابِ فِي
 شَيْءٍ أَهـ . وَهُوَ غَرِيبٌ مِنْهُ إِذْ مُرَادُ الشَّيْخِ أَنَّهُ - ﷺ - خَاطَبَهُمْ بِصِغَةِ الْجَمْعِ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ : لَا تُنْزِلَنَّ
 وَلَا تَخْبِرُنَّ ، ثُمَّ قَالَ : ادْعِي فَلْتَخْبِرْ مَعَكَ ، ثُمَّ قَالَ : وَأَقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكَ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْإِفْرَادِ وَالْجَمْعِ ثُمَّ
 قَالَ : (وَلَا تُنْزِلُوهَا) : بِصِغَةِ الْجَمْعِ الْمَذْكُورِ عَلَى طَرِيقِ الْأَوَّلِ عَلَى سَبِيلِ التَّغْلِيظِ ، فَأَيُّ تَلْوِينٍ أَكْثَرُ مِنْ
 هَذَا؟ مَعَ أَنَّ فِي الْإِثْفَاتِ إِلَيْهَا بِالْأَمْرِ الْخَاصِّ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا رَبَّةُ الْبَيْتِ غَيْرُ خَارِجَةٍ عَنْ سُنَنِ الْإِسْتِقَامَةِ
 فِي الْمَقَامِ ، وَبِهَذَا التَّقْرِيرِ وَالتَّحْرِيرِ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِهِ : فَلْتَخْبِرْ مَعَكَ أَوْ مَعِي فِي تَلْوِينِ
 الْكَلَامِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْمَرَامِ . (قَالَ جَابِرٌ : وَهُمْ) أَيِ : عَدَدُ أَصْحَابِهِ - ﷺ - (أَلْفٌ) أَيِ : أَلْفُ
 رَجُلٍ أَكَالٍ فِي جُوعٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ (فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ لَأَكُلُوا) أَيِ : مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ (حَتَّى تَرُكُوهُ) أَيِ :
 مُنْفَصِلًا (وَأَنْحَرْفُوا) ، أَيِ : وَأَنْصَرَفُوا (وَإِنْ بُرْمَتُنَا لَتَغَطُّ) : بِكَسْرِ الْعَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ الطَّاءِ
 الْمُهْمَلَةِ أَيِ : لَتَفُورَ وَتَعْلِي وَيُسْمَعُ غَلِيَانُهَا (كَمَا هِيَ) ، أَيِ : مُمْتَلِئَةٌ عَلَى هَيْئَةِ الْأُولَى ، فَخَبِرُ هِيَ
 مَحْدُوفٌ ، وَالْمَعْنَى تَعْلِي غَلِيَانًا مِثْلَ غَلِيَانِ هِيَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ . قَالَ الطَّبَّيُّ : مَا : كَافَةٌ وَهِيَ مُصَحَّحَةٌ
 لِدُخُولِ الْكَافِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَهِيَ مُبْتَدَأٌ ، وَالْخَبَرُ مَحْدُوفٌ أَيِ : كَمَا هِيَ قَبْلَ ذَلِكَ ، (وَإِنْ عَجِينَا
 لَيُخْبِرُ كَمَا هُوَ) . أَيِ : كَمَا هُوَ فِي الصَّحْفَةِ كَأَنَّهُ مَا نَقَصَ مِنْهُ شَيْءٌ ، قَالَ النَّوَوِيُّ : قَدْ تَظَاهَرَتْ
 الْأَحَادِيثُ بِمِثْلِ هَذَا مِنْ تَكْثِيرِ طَعَامِ الْقَلِيلِ ، وَنَبْعِ الْمَاءِ وَتَكْثِيرِهِ ، وَتَسْبِيحِ الطَّعَامِ ، وَحَنِينِ الْجَذْعِ ،
 وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ حَتَّى صَارَ مَجْمُوعُهَا بِمَنْزِلَةِ التَّوَاتُرِ ، وَحَصَلَ الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ بِهِ ، وَقَدْ جَمَعَ
 الْعُلَمَاءُ أَعْلَامًا مِنْ دَلَائِلِ الثُّبُوتِ فِي كُتُبِهِمْ كَالْقَفَالِ الشَّاشِيِّ ، وَصَاحِبِهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَلِيمِيِّ ، وَأَبِي

بَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ وَأَحْسَنُهَا كِتَابُ الْبَيْهَقِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيَّ نَبِيِّنَا - ﷺ - وَعَلَيْنَا بِإِكْرَامِهِ. (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ). ٣٢١

من فوائد الحديث:

- ١- إكرام الله لرسوله ﷺ بالمعجزة ، بتكثير الطعام حتى شبعوا جميعاً ومن حكمة الرسول ﷺ أنه كان يغطي القدر والتنور إظهاراً للبركة لا للإيجاد والخلق وهما من الله وحده، محافظة على عقيدة الوحيد .
- ٢- القائد المخلص لا يشبع وحده ، بل يدعو أصحابه معه . وهذا من كمال خلق النبي - ﷺ -، ورحمته بأصحابه، حيث لم يستأثر بشيء دونهم، بل لما تيسر له الطعام، ولم يأكل حتى شبعوا جميعاً، فشاركهم في السراء والضراء، صلوات الله وسلامه عليه.
- ٣- الرسول ﷺ يأمر أصحابه بالنظام (ادخلوا ولا تضاغطوا) .
وذلك من خلال تقسيم النبي - ﷺ - للصحابة - رضي الله عنهم - لما أدخلهم للأكل، حيث جاء في بعض الروايات " وَأَقْعَدَهُمْ عَشْرَةَ عَشْرَةَ فَأَكَلُوا " وفي هذا من الرحمة بهم والتيسير عليهم ما لا يخفى، وذلك حتى يأخذ كل واحد منهم حاجته من الطعام، بلا عنت، أو مشقة، ولا سيما وقد أصابتهم مخمصة شديدة..
- ٤- فضيلة جابر بن عبد الله - رضي الله عنه-، وكمال محبته للنبي - ﷺ -، حيث لم يتمالك نفسه وهو يرى ما بالنبي - ﷺ - من المخمصة والجوع، حتى سعى في إزالة ذلك، ومدافعتة عن النبي - ﷺ - بكل ما يملك في بيته.
- ٥- فضل الصحابة - رضي الله عنهم-، وكمال صبرهم على ما وقع لهم من الخوف والجوع، وغير ذلك من صنوف الابتلاءات، حتى فازوا بتزكية الله تعالى لهم، ورضاه عنهم.
- ٦- فضل زوجة جابر بن عبد الله، واسمها سُهَيْلَةُ بِنْتُ مَسْعُودِ الْأَنْصَارِيَّةِ - رضي الله عنها-، وإعانتها لزوجها على الخير والمعروف، وسماحة نفسها في بذل ما في بيتها رجاء ثواب الله، ونصرة لرسوله - ﷺ -. وقد كان ما صدر منها من عتاب لجابر - رضي الله عنه- في أول الأمر لكمال حيائها أن يقصر الطعام عن رسول الله - ﷺ - ومن معه من الصحابة، فَلَمَّا أَعْلَمَهَا أَنَّهُ أَعْلَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - سَكَنَ مَا عِنْدَهَا؛ لِعِلْمِهَا بِإِمْكَانِ خَرْقِ الْعَادَةِ ، وَذَلِكَ عَلَى وَفُورِ عَقْلِهِ، وَكَمَالِ فَضْلِهَا.
- ٧- على المسلم أن يتأسى برسول الله - ﷺ - وأصحابه، فيصبر على ما يصيبه في ذات الله من الابتلاءات والشدائد، ويوقن أن ما عند الله خير وأبقى، وأنه لا يوصل إلى النعيم إلا على جسر من التعب، كما أن عليه أن يكثر من سؤال الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

٣٢١ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٧٨٣/٩) وانظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٧/ ١٧٩)

- ٨- مشاركة الرسول ﷺ القائد جنده في حفر الخندق ، وعدم تميزه عليهم
- ٩- شكوى الصحابة لقائدهم من صخرة عجزوا عنها لما يعلمون من قوته ، فاستجاب الرسول ﷺ لهم ، وفتت الصخرة مع شدة جوعه .
- ١٠- حب الصحابة لقائدهم ، وسعيهم لإطعامه وسد جوعه .
- ١١- محافظة الصحابة على النظام ، وعدم الذهاب بدون إذن من القائد.
- ١٢- نساء الصحابة يتصفن بالإيثار والكرم والحب للرسول ﷺ .
- ١٣- القائد العظيم في جنده أشبه بالأب في أسرته ، يغرف لهم الطعام بيده ، ويقدمه بنفسه .
- ١٤- اهتمام الرسول ﷺ بأفراد أمته كاهتمامه بجنده (كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة)
- ٣٢٢ .



قصة سعد بن معاذ مع بني قريظة

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، يُقَالُ لَهُ حَبَّانُ بْنُ الْعَرَفَةِ وَهُوَ حَبَّانُ بْنُ قَيْسٍ، مِنْ بَنِي مَعِيصٍ بْنِ عَامِرٍ بْنِ لُؤَيٍّ رَمَاهُ فِي الْأَكْحَلِ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ وَضَعَ السَّلَاحَ وَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْعُبَارِ، فَقَالَ: " قَدْ وَضَعْتَ السَّلَاحَ، وَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَيْنَ فَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ " فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَزَلُّوا عَلَى حُكْمِهِ، فَرَدَّ الْحُكْمَ إِلَى سَعْدٍ، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ: أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسَبَى النِّسَاءُ وَالذَّرِيَّةُ، وَأَنْ تُقَسَمَ أَمْوَالُهُمْ قَالَ هِشَامٌ، فَأَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ: " أَنْ سَعْدًا قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، مِنْ قَوْمٍ [ص: ١١٣] كَذَبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ، حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتُ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَأَفْجُرْهَا وَاجْعَلْ مَوْتِي فِيهَا، فَأَنْفَجَرْتُ مِنْ لَبْتِهِ فَلَمْ يَرُعْهُمْ، وَفِي الْمَسْجِدِ خَيْمَةٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، إِلَّا الدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا أَهْلَ الْخَيْمَةِ، مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ؟ فَإِذَا سَعْدٌ يَغْذُو جُرْحُهُ دَمًا، فَمَاتَ مِنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٣٢٣

شرح المفردات:

- (الأكحل) هو عرق في وسط الذراع.
- (نزلوا على حكمك) رضوا أن تحكم فيهم.
- (المقاتلة) البالغين الذين من شأنهم أن يقاتلوا.
- (تسبي الذرية) يؤخذ النساء والصبيان سبياً فيجعلون أرقاء، ويوزعون على الغانمين المسلمين.
- (بحكم الملك) بالحكم الذي يريده الله تعالى.
- (لبتة) موضع القلادة في الصدر.
- (فَلَمْ يَرُعْهُمْ إِلَّا الدَّمُ) الْمَعْنَى فَرَّاعَهُمْ الدَّمُ. أَيْ يُفْرِعُهُمْ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَنْتَمِ هُمْ فِي حَالِ طُمَأْنِينَةٍ حَتَّى أَفْرَعَتْهُمْ رُؤْيَا الدَّمِ فَارْتَاعُوا لَهُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: الْمُرَادُ بِهَذَا اللَّفْظِ السَّرْعَةُ لَا نَفْسُ الْفَرَعِ.
- (مِنْ قِبَلِكُمْ) أَيْ مِنْ جِهَتِكُمْ .
- (يَغْذُو) أَيْ يَسِيلُ . ٣٢٤

من فوائد الحديث:

٣٢٣ - صحيح البخاري (١١٢/٥) (٤١٢٢) وصحيح مسلم (٣/١٣٨٩) ٦٥ - (١٧٦٩)

٣٢٤ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٧/٤١٣) وفتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١/٥٥٧)

وعلمة القاري شرح صحيح البخاري (١٧/١٩٢)

- ١- فضيلة سعد بن معاذ - رضي الله عنه-، ومحبة النبي - ﷺ - له، وتقديمه له، وقد كان سيد الأوس، ومن خيار المؤمنين - رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، أسلم لإسلامه عامة قومه من بني عبد الأشهل.
- ٢- مشروعية عبادة المريض، وتعاهده وتكرار الزيارة له إن كان يأنس بذلك، ولا يشق عليه.
- ٣- جواز بقاء المريض في المسجد إذا دعت الحاجة إلى ذلك، أو كان في مصلحة.
- ٤- أن السلطان أو العالم إذا شق عليه النهوض إلى عبادة مريض يزوره ممن يهمله أمره، أن ينقل المريض إلى موضع يخف عليه فيه زيارته، ويقرب منه.
- ٥- لزوم حكم المحكم برضى الخصمين، سواء كان في أمور الحرب أو غيرها.
- ٦- قال ابن بطال: في هذا الحديث أمر الإمام الأعظم بإكرام الكبير من المسلمين، ومشروعية إكرام أهل الفضل في مجلس الإمام الأعظم.
- ٧- جواز إطلاق السيد على الخير الفاضل، وإنما جاءت الكراهة في أن يقال سيد للرجل الفاجر.
- ٨- جواز القيام للقادم لتلقيه ولا سيما إذا كان من أهل الفضل، أو لحاجته لضعفه، أو مرضه، أو قادمًا من سفر، قال العلماء: القيام ينقسم إلى ثلاث مراتب: قيام على رأس الرجل، وهو فعل الجبارة، وقيام إليه عند قدومه، ولا بأس به، وقيام له عند رؤيته، وهو متنازع في جوازه.
- ٩- جواز تمني الشهادة، وهو مخصوص من عموم النهي عن تمني الموت.
- ١٠- جواز تحكيم الأفضل من هو مفضول.
- ١١- خبث اليهود، ونقضهم للعهود والمواثيق، وسعيهم في إيذاء المؤمنين، والنيل منهم.
- ١٢- أن الشدة والغلظة في مواضعها اللائقة بها محمودة، وموافقة لمراد الله تعالى، ولهذا كان حكم سعد بن معاذ - رضي الله عنه- موافقاً لحكم الله تعالى.^{٣٢٥}



^{٣٢٥} - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١١ / ٤٩) فما بعدها

قصة أصحاب الأخدود

عَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السَّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرًّا بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَكَ ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرَ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمُوتَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَفَقَّتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَاتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِلَّا مَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمِنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَاتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِلَّا مَا يَشْفِي اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ [ص: ٢٣٠٠] حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمُشَارِ، فَوَضَعَ الْمُشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شَقُّهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمُشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شَقُّهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَارْجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيَهُمُ اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْدِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَأَنْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَعَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيَهُمُ اللَّهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَضْلُبُنِي عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا

مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، رَبِّ الْعُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ، فَاتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السَّكَّكَ، فَخُدَّتْ وَأُضْرِمَ النَّيِّرَانِ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْعُلَامُ: يَا أُمِّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ ٣٢٦

شرح المفردات:

- (وَالْأَكْمَهُ) الَّذِي خُلِقَ أَعْمَى.
- (وَالْمِنْشَارُ) مَهْمُوزٌ فِي رِوَايَةِ الْأَكْثَرِينَ، وَيَجُوزُ تَخْفِيفُ الْهَمْزَةِ بِقَلْبِهَا يَاءً، وَرُويَ الْمِنْشَارُ بِالنُّونِ، وَهُمَا لُغَتَانِ صَحِيحَتَانِ.
- (وَذُرْوَةُ الْجَبَلِ) أَعْلَاهُ، هِيَ بِضَمِّ الدَّالِ، وَكَسْرُهَا.
- (وَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ) أَيِ اضْطَرَبَ وَتَحَرَّكَ حَرَكَةً شَدِيدَةً، وَحَكَى الْقَاضِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ رَوَاهُ: فَرَحَفَ بِالزَّيِّ وَالْحَاءِ، وَهُوَ بِمَعْنَى الْحَرَكِ، لَكِنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ.
- (وَالْقُرْفُورُ) بِضَمِّ الْقَافَيْنِ السَّفِينَةُ الصَّغِيرَةُ، وَقِيلَ: الْكَبِيرَةُ، وَاخْتَارَ الْقَاضِي الصَّغِيرَةَ بَعْدَ حِكَايَتِهِ خِلَافًا كَثِيرًا.
- (وَأَنْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ) أَيِ انْقَلَبَتْ.
- (وَالصَّعِيدُ) هُنَا الْأَرْضُ الْبَارِزَةُ.
- (وَكَبِدِ الْقَوْسِ) مِقْبَضُهَا عِنْدَ الرَّمْيِ.
- (نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ) أَيِ: مَا كُنْتَ تَحْذَرُ وَتَخَافُ.
- (الْأُخْدُودُ) هُوَ الشَّقُّ الْعَظِيمُ فِي الْأَرْضِ، وَجَمْعُهُ أَخْدِيدٌ.
- (السَّكَّكَ) الطَّرُقُ.
- (أَفْوَاهُهَا) أَبْوَابُهَا.
- (فَأَحْمُوهُ) بِهَمْزَةٍ قَطْعَ بَعْدَهَا حَاءٌ سَاكِنَةٌ، وَنَقَلَ الْقَاضِي اتِّفَاقَ النَّسْخِ عَلَى هَذَا. وَوَقَعَ فِي بَعْضِ النَّسْخِ (فَأَقْحَمُوهُ) بِالْقَافِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ، وَمَعْنَاهُ اطْرَحُوا فِيهَا كُرْهًا. وَمَعْنَى الرَّوَايَةِ الْأُولَى اِرْمُوهُ فِيهَا، مِنْ قَوْلِهِمْ: حَمَيْتَ الْحَدِيدَةَ وَغَيْرَهَا إِذَا أَدْخَلْتَهَا النَّارَ لَتُحْمَى.
- (فَتَقَاعَسَتْ) أَيِ تَوَقَّفَتْ وَلَزِمَتْ مَوْضِعَهَا، وَكَرِهَتْ الدُّخُولَ فِي النَّارِ. ٣٢٧

٣٢٦ - صحيح مسلم (٤/٢٢٩٩) - ٧٣ (٣٠٠٥)

٣٢٧ - النووي شرح صحيح مسلم (١٤/١٢).

احتراق الكفار :

قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) :

١- قال ابن جرير بعد ذكره قصة أصحاب الأخدود : وَأَوَّلَى التَّائِبِينَ بِقَوْلِهِ : { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ } [البروج: ٤] لَعْنِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ الَّذِينَ أَلْقُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي الْأُخْدُودِ. وَإِنَّمَا قُلْتُ: ذَلِكَ أَوَّلَى التَّائِبِينَ بِالصَّوَابِ لِلَّذِي ذَكَرْنَا عَنْ الرَّبِّيعِ مِنَ الْعِلَّةِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ لَهُمْ عَذَابَ الْحَرِيقِ مَعَ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا أُحْرِقُوا فِي الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ { وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ } [البروج: ١٠] مَعْنَى مَفْهُومٌ، مَعَ إِخْبَارِهِ أَنَّ لَهُمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ، لِأَنَّ عَذَابَ جَهَنَّمَ هُوَ عَذَابُ الْحَرِيقِ مَعَ سَائِرِ أَنْوَاعِ عَذَابِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَالْأُخْدُودُ: الْحُفْرَةُ تُحْفَرُ فِي الْأَرْضِ ٣٢٨ .

٢- قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أَي حَرَقُوهُمْ بِالنَّارِ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: فَتَنَ فُلَانٌ الدَّرْهَمَ وَالْدِّينَارَ إِذَا أَدْخَلَهُ الْكُورَ لِيَنْظُرَ جَوْدَتَهُ. وَدِينَارٌ مَفْتُونٌ. وَيُسَمَّى الصَّائِغُ الْفَتَّانَ، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ، وَوَرَقٌ فَتِينٌ، أَيُ فَضَّةٌ مُحْتَرَقَةٌ. وَيُقَالُ «١» لِلْحَرَّةِ فَتِينٌ، أَيُ كَانَتْهَا أَحْرَقَتْ حِجَارَتَهَا بِالنَّارِ، وَذَلِكَ لِسَوَادِهَا. (ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) أَيُ مِنْ قَبِيحِ صَنِيعِهِمْ مَعَ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ لِهَذَا الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الظَّالِمِ وَقَوْمِهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى يَدِ الْعُلَامِ. (فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ) لِكُفْرِهِمْ. (وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) فِي الدُّنْيَا لِإِحْرَاقِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّارِ... ٣٢٩ .

٣- قال أبو حيان : "وَقَالَ الرَّبِّيعُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَأَبْنُ إِسْحَاقَ: بَعَثَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ رِجًّا فَقَبَضَتْ أَرْوَاحَهُمْ أَوْ نَحْوَ هَذَا، وَخَرَجَتْ النَّارُ فَأَحْرَقَتْ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى حَافَتِي الْأُخْدُودِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْقَتْلُ حَقِيقَةً لَا بِمَعْنَى اللَّعْنِ، وَيَكُونُ خَبَرًا عَنْ مَا فَعَلَهُ اللَّهُ بِالْكَفَّارِ وَالَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَفْتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ عَنْ دِينِهِمْ.

وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ مُخَالَفٌ لِقَوْلِ الْجُمْهُورِ وَلِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقَصَصُ الَّذِي ذَكَرُوهُ". ٣٣٠ .

٤- وقال الشهيد سيد قطب رحمه الله :

" إن قصة أصحاب الأخدود - كما وردت في سورة البروج - حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل . فالقرآن بإيرادها في هذا الأسلوب مع مقدماتها والتعقيبات عليها ، والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها .. كان يخطط بها خطوطاً عميقة في تصور طبيعة الدعوة إلى الله ، ودور البشر فيها ، واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع - وهو أوسع رقعة من الأرض ، وأبعد

٣٢٨ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٤/ ٢٧٧)

٣٢٩ - تفسير القرطبي (١٩/ ٢٩٥)

٣٣٠ - البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٤٤٤) وتفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٢٩٩)

مدى من الحياة الدنيا - وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق ، ويعدّ نفوسهم لتلقي أي من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم ، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور .

إنها قصة فئة آمنت برها ، واستعلنت حقيقة إيمانها . ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين بطاشين مستهترين بحق " الإنسان " في حرية الاعتقاد بالحق والإيمان بالله العزيز الحميد ، وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى بها الطغاة بآلام تعذيبها ، ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالحريق ! وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة ، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة ، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة ، ولم تفتن عن دينها ، وهي تحرق بالنار حتى تموت .

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة ، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعان الموت بهذه الطريقة البشعة ، وانطلقت من قيود الأرض وجواذها جميعاً ، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها .

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيرة الرفيعة الكريمة كانت هناك جبال جاحدة شريرة مجرمة لئيمة . وجلس أصحاب هذه الجبال على النار . يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون . جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار ، والأناسي الكرام يتحولون وقوداً وتراباً . وكلما ألقى فتى أو فتاة ، صبية أو عجوز ، طفل أو شيخ ، من المؤمنين الخيرين الكرام في النار ، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة ، وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء !

هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبال الطغاة وارتكست في هذه الحمأة ، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف ، بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط ، فالوحش يفترس ليقنات ، لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسة !

وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين وتحررت وانطلقت إلى ذلك الأوج السامي الرفيع ، الذي تشرف به البشرية في جميع الأجيال والعصور .

في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان . وإن هذا الإيمان الذي بلغ الذروة العالية ، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية .. لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان !

ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث ، كما لا تذكر النصوص القرآنية ، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة ، كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط . أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر .

ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة !

أفهيكذا ينتهي الأمر ، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان ؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأحدود ؟ بينما تذهب الفئة الباغية ، التي ارتكست إلى هذه الحمأة ، ناجية ؟

حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة !
ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئاً آخر ، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى ، ويصبرهم بطبيعة القيم التي
يزنون بها ، وبمجال المعركة التي يخوضونها .

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ، ومن متاع وحرمان .. ليست هي القيمة الكبرى في
الميزان .. وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة . والنصر ليس مقصوداً على الغلبة
الظاهرة . فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة .

إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة ، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان .
وإن النصر في أرفع صورته هو انتصار الروح على المادة ، وانتصار العقيدة على الألم ، وانتصار الإيمان
على الفتنة .. وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم ، وانتصرت على جواذب
الأرض والحياة ، وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار .. وهذا
هو الانتصار ..

إن الناس جميعاً يموتون ، وتختلف الأسباب . ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار ، ولا
يرتفعون هذا الارتفاع ، ولا يتحررون هذا التحرر ، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق ..
إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت ، وتنفرد دون الناس في المجد ،
المجد في الملأ الأعلى ، وفي دنيا الناس أيضاً . إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال !
لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون
هم أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير ،
معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد
سيطرتهم على الأجساد ؟

إنه معنى كريم جداً ، ومعنى كبير جداً ، هذا الذي رجوه وهم بعد في الأرض ، رجوه وهم يجدون
مس النار ، فتحرق أجسادهم الفانية ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار !

ثم إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها ، وليس هو الحياة الدنيا وحدها . وشهود المعركة ليسوا
هم الناس في جيل من الأجيال . إن الملأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض ويشهدها ويشهد عليها ،
ويوزنها بميزان غير ميزان الأرض في جيل من أجيالها ، وغير ميزان الأرض في أجيالها جميعاً . والملأ
الأعلى يضم من الأرواح الكريمة أضعاف أضعاف ما تضم الأرض من الناس .. وما من شك أن ثناء
الملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأرجح في أي ميزان من رأي أهل الأرض وتقديرهم على الإطلاق !

وبعد ذلك كله هناك الآخرة . وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض ، ولا ينفصل عنه ، لا
في الحقيقة الواقعة ، ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة . فالمعركة إذن لم تنته ، وخاتمتها الحقيقية لم تحي

بعد ، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح ، لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد .

النظرة الأولى هي النظرة القصيرة المدى الضيقة المجال التي تعنّ للإنسان العجول . والنظرة الثانية الشاملة البعيدة المدى هي التي يروض القرآن المؤمنين عليها ، لأنها تمثل الحقيقة التي يقوم عليها التصور الإيماني الصحيح . ومن ثم وعد الله للمؤمنين جزاء على الإيمان والطاعة ، والصبر على الابتلاء ، والانتصار على فن الحياة .. هو طمأنينة القلب : { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } ... [الرعد : ٢٨] .

وهو الرضوان والود من الرحمن : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } [مريم : ٩٦] .

وهو الذكر في الملاء الأعلى: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ « إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي . فَيَقُولُونَ نَعَمْ . فَيَقُولُ قَبَضْتُمْ نَمْرَةً فَوَّادِهِ . فَيَقُولُونَ نَعَمْ . فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَع . فَيَقُولُ اللَّهُ ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ » . [أخرجه الترمذي] ٣٣١ .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » .. [أخرجه الشيخان] ٣٣٢ .

وهو اشتغال الملاء الأعلى بأمر المؤمنين في الأرض : { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } [غافر : ٧]

وهو الحياة عند الله للشهداء : { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران : ١٦٩ - ١٧١] .

٣٣١ - سنن الترمذي - المكثر - (١٠٣٧) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ . - الشفيع : الطرف

٣٣٢ - صحيح البخاري - المكثر - (٧٤٠٥) وصحيح مسلم - المكثر - (٦٩٨١)

هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ ، وَيَسْتَحِيلُ إِرَادَةُ ظَاهِرِهِ ، وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِي أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ مَرَّاتٍ ، وَمَعْنَاهُ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَتِي تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي وَالتَّوْفِيقِ وَالْإِعَانَةِ ، وَإِنْ زَادَ زِدْتُ ، فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ، أَيْ صَبَّتَ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ وَسَبَقَتْهُ بِهَا ، وَلَمْ أُحَوِّجْهُ إِلَى الْمَشْيِ الْكَثِيرِ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْمَقْصُودِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ جَزَاءَهُ يَكُونُ تَضَعِيفُهُ عَلَى حَسَبِ تَقَرُّبِهِ . شرح النووي على مسلم - (٩ / ٣٥)

كما كان وعده المتكرر بأخذ المكذبين والطغاة والمجرمين في الآخرة والإملاء لهم في الأرض والإمهال إلى حين .. وإن كان أحياناً قد أخذ بعضهم في الدنيا .. ولكن التركيز كله على الآخرة في الجزء الأخير : { لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧] .

{ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ } .. [إبراهيم : ٤٢ - ٤٣] .
{ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ، يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ } [المعارج : ٤٢ - ٤٤] .

وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الأعلى ، واتصلت الدنيا بالآخرة ، ولم تعد الأرض وحدها هي مجال المعركة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والإيمان والطغيان . ولم تعد الحياة الدنيا هي خاتمة المطاف ، ولا موعد الفصل في هذا الصراع .. كما أن الحياة وكل ما يتعلق بها من لذائد وآلام ومتاع وحرمان ، لم تعد هي القيمة العليا في الميزان .

انفسح المجال في المكان ، وانفسح المجال في الزمان ، وانفسح المجال في القيم والموازن ، واتسعت آفاق النفس المؤمنة ، وكبرت اهتماماتها ، فصغرت الأرض وما عليها ، والحياة الدنيا وما يتعلق بها ، وكبر المؤمن بمقدار ما رأى وما عرف من الآفاق والحيوات ، وكانت قصة أصحاب الأخدود في القمة في إنشاء هذا التصور الإيماني الواسع الشامل الكبير الكريم .

هناك إشعاع آخر تطلقه قصة أصحاب الأخدود وسورة البروج حول طبيعة الدعوة إلى الله ، وموقف الداعية أمام كل احتمال .

لقد شهد تاريخ الدعوة إلى الله نماذج متنوعة من نهايات في الأرض مختلفة للدعوات ..
شهد مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم شعيب ، وقوم لوط ، ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد ، مجرد النجاة . ولم يذكر القرآن للناجين دوراً بعد ذلك في الأرض والحياة . وهذه النماذج تقرر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحياناً أن يعجل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا ، أما الجزاء الأوفى فهو مرصود لهم هناك .

وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده ، ونجاة موسى وقومه ، مع التمكين للقوم في الأرض فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا في تاريخهم . وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة ، وإلى إقامة دين الله في الأرض منهجاً للحياة شاملاً .. وهذا نموذج غير النماذج الأولى .

وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد - ﷺ - وانتصار المؤمنين انتصاراً كاملاً ، مع انتصار العقيدة في نفوسهم انتصاراً عجبياً . وتم للمرة الوحيدة

في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمناً على الحياة في صورة لم تعرفها البشرية قط ، من قبل ولا من بعد .

وشهد - كما رأينا - نموذج أصحاب الأخدود .. وشهد نماذج أخرى أقل ظهوراً في سجل التاريخ الإيماني في القديم والحديث . وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات التي حفظها على مدار القرون . ولم يكن بدّ من النموذج الذي يمثله حادث الأخدود ، إلى جانب النماذج الأخرى . القريب منها والبعيد ..

لم يكن بد من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون ، ولا يؤخذ فيه الكافرون ! ذلك ليستقر في حس المؤمنين - أصحاب دعوة الله - أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله . وأن ليس لهم من الأمر شيء ، إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله !

إن عليهم أن يؤدوا واجبهم ، ثم يذهبوا ، وواجبهم أن يختاروا الله ، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة ، وأن يستعملوا بالإيمان على الفتنة وأن يصدقوا الله في العمل والنية . ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم ، كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء . وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان ، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه . إنهم أجراء عند الله . أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا ، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم ! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير ، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير !

وهم يقبضون الدفعة الأولى طمأنينة في القلب ، ورفع في الشعور ، وجمالاً في التصور ، وانطلاقاً من الأوهام والجواذب ، وتحرراً من الخوف والقلق ، في كل حال من الأحوال .

وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناء في الملاء الأعلى وذكرًا وكرامة ، وهم بعد في هذه الأرض الصغيرة . ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى في الآخرة حساباً يسيراً ونعيماً كبيراً .

ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعاً . رضوان الله ، وانهم مختارون ليكونوا أداة لقدره وستاراً لقدرته ، يفعل بهم في الأرض ما يشاء . وهكذا انتهت التربية القرآنية بالفئة المختارة من المسلمين في الصدر الأول إلى هذا التطور ، الذي أطلقهم من أمر ذواتهم وشخصهم . فأخرجوا أنفسهم من الأمر البتة ، وعملوا أجراء عند صاحب الأمر ورضوا خيرة الله على أي وضع وعلى أي حال . وكانت التربية النبوية تتمشى مع التوجيهات القرآنية ، وتوجه القلوب والأنظار إلى الجنة ، وإلى الصبر على الدور المختار حتى يأذن الله بما يشاء في الدنيا والآخرة سواء . فعن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، قَالَ : " لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْبَطْحَاءِ ، فَأَخَذَ بِيَدِي ، فَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُ ، فَمَرَّ بَعْمَارٍ ، وَأَبِي عَمَّارٍ ، وَأُمُّ عَمَّارٍ ، وَهُمْ يُعَذِّبُونَ فَقَالَ : " صَبْرًا أَلْ يَاسِرٍ ، فَإِنْ مَصِيرُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ " ٣٣٣ ..

٣٣٣ - معرفة الصحابة لأبي نعيم - (٥ / ٢٨١٣) (٦٦٦٢) صحيح لغيره

وَعَنْ حَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهُ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » . [أخرجه البخاري] ٣٣٤ .

إن لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال ، ومدير هذا الكون كله ، المطلع على أوله وآخره ، المنسق لأحداثه وروابطه . هو الذي يعرف الحكمة المكونة في غيبه المستور ، الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خط السير الطويل . وفي بعض الأحيان يكشف لنا - بعد أجيال وقرون - عن حكمة حادثة لم يكن معاصروه يدركون حكمته ، ولعلهم كانوا يسألون لماذا ؟ لماذا يا رب يقع هذا ؟ وهذا السؤال نفسه هو الجهل الذي يتوقاه المؤمن . لأنه يعرف ابتداء أن هناك حكمة وراء كل قدر ، ولأن سعة المجال في تصوره ، وبعد المدى في الزمان والمكان والقيم والموازين تغنيه عن التفكير ابتداء في مثل هذا السؤال . فيسير مع دورة القدر في استسلام واطمئنان .. لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة ، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء ، وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض ، ولا تنظر إلا إلى الآخرة ، ولا ترجو إلا رضوان الله ، قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت بلا جزاء في هذه الأرض قريب ، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة ، وغلبة الإسلام وظهور المسلمين ، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين!

حتى إذا وجدت هذه القلوب ، التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض إلا أن تعطي بلا مقابل - أي مقابل - وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للفصل بين الحق والباطل . حتى إذا وجدت هذه القلوب ، وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت ، آتاه النصر في الأرض ، واثمنها عليه . لا لنفسها ، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة منذ كانت لم توعده بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ، ولم تتطلع إلى شيء من الغنم في الأرض تعطاه . وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه .

وكل الآيات التي ذكر فيها النصر ، وذكر فيها المغنم ، وذكر فيها أخذ المشركين في الأرض بأيدي المؤمنين نزلت في المدينة .. بعد ذلك .. وبعد أن أصبحت هذه الأمور خارج برنامج المؤمن وانتظاره

٣٣٤ - صحيح البخاري - المكثر - (٣٦١٢)

وتطلعه . وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية ،
تقرره في صورة عملية محددة تراها الأجيال .. فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام
، إنما كان قدراً من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن !
وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله ، في كل أرض وفي كل جيل . فهي كفيلة بأن تريهم
معالم الطريق واضحة بلا غش ، وأن تثبت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته ، كيفما
كانت هذه النهاية . ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون ، فلا يتلفتون في أثناء الطريق الدامي
المفروش بالجماحم والأشلاء ، وبالعرق والدماء ، إلى نصر أو غلبة ، أو فيصل بين الحق والباطل في
هذه الأرض .. ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئاً من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريد الله
.. لا جزاء على الآلام والتضحيات .. لا ، فالأرض ليست دار جزاء .. وإنما تحقيقاً لقدرة الله في أمر
دعوته ومنهجه على أيدي ناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء ، وحسبهم هذا
الاختيار الكريم ، الذي تمون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة ، وكل ما يقع في رحلة الأرض من سراء
أو ضراء .

هنالك حقيقة أخرى يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة الأخدود في قوله تعالى : { وَمَا
نَعْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } .. حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في
كل أرض وفي كل جيل . إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست
شيئاً آخر على الإطلاق . وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان ، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة
.. إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية ، ولا معركة عنصرية .. ولو كانت شيئاً من هذا
لسهل وقفها ، وسهل حل إشكالاتها . ولكنها في صميمها معركة عقيدة - إما كفر وإما إيمان .. إما
جاهلية وإما إسلام !

ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله - ﷺ - المال والحكم والمتاع في مقابل شيء
واحد ، أن يدع معركة العقيدة وأن يدهن في هذا الأمر !

ولو أجابهم - حاشاه - إلى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق !
إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة .. وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدواً لهم . فإنه
لا يعاديهم شيء إلا لهذه العقيدة " إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " ويخلصوا له وحده الطاعة
والخضوع !

وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة ، راية اقتصادية أو سياسية أو
عنصرية ، كي يموهوا على المؤمنين حقيقة المعركة ، ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة . فمن واجب
المؤمنين ألا يُخدعوا ، ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيت . وأن الذي يغير راية
المعركة إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها ، النصر في أية صورة من الصور ، سواء

جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخدود ، أو في صورة الهيمنة - الناشئة من الانطلاق الروحي - كما حدث للجيل الأول من المسلمين .
ونحن نشهد نموذجاً من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن نخدعنا عن حقيقة المعركة ، وأن تزور التاريخ ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستاراً للاستعمار .. كلا .. إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخراً هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى ! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر ، وفيهم صلاح الدين الكردي ، وتوران شاه المملوكي ، العناصر التي نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها فانحصرت تحت راية العقيدة !

{ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } .
وصدق الله العظيم ، وكذب المموهون الخادعون ! ٣٣٥

من فوائد الحديث:

- ١- جَوَازُ الْكَذِبِ فِي الْحَرْبِ وَنَحْوِهَا، وَفِي إِنْقَازِ النَّفْسِ مِنَ الْهَلَاكِ، سَوَاءَ نَفْسِهِ أَوْ نَفْسِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَهُ حُرْمَةٌ.
- ٢- أن الغلام أمر بقتل نفسه لأجل مصلحة ظهور الدين، ولهذا جوز الأئمة الأربعة أن يغمس المسلم في صف الكفار وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين. وهذه تختلف عن ما يسمى اليوم بالعمليات الاستشهادية، والتي تختلف فيها العلماء المعاصرون، بين المنع منها، وجوازها إذا كان فيها مصلحة عامة للمسلمين، والله أعلم بالصواب.
- ٣- شدة عداوة الكفار للمؤمنين، والسعي في صدهم عن دينهم، فإن الناس لما آمنوا فتنهم الكفار حتى يرجعوا عن دينهم.
- ٤- عزة المؤمنين، وثباتهم على دينهم، وصبرهم على الابتلاء، وقد أثنى الله عليهم، وخلد ذكرهم في سورة البروج، قال تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) } [البروج: ١ - ١١].

٣٣٥ - معالم في الطريق بتحقيقي ص ١٦٣ فما بعد

٥- لزوم العناية بالأطفال لما يتمتعون به من صفاء، وحسن استعداد للتعليم والتربية، ولاسيما من يلمس فيه النبوغ والذكاء، حتى يرتقوا بأنفسهم ويقدموا النفع لأمتهم. كما تجب صيانتهم من أسباب الغواية والضلال لسرعة تقبلهم، وسهولة التأثير عليهم.

٦- خطر دعاة الضلالة على الناس، وسعيهم في نشر الفساد بينهم، كما تجلّى ذلك في حرص الساحر على بقاء علمه، مع ما في السحر من المحادة لأمر الله تعالى، والشر والضرر على الناس.

٧- رحمة الله تعالى بعباده، حيث هيا للغلام ذلك الراهب المؤمن، الذي كان على الدين الصحيح في ذلك الوقت - دين عيسى عليه السلام غير المحرف - فتعلم من الدين الحق، وسلم من فتنة الساحر وغوايته.

٨- إثبات كرامة الأولياء، وهي الخوارق التي يؤيد الله تعالى بها عباده الصالحين المتمسكين بالحق.

٩- مشروعية السعي في مصالح الناس، وإزالة ما يضرهم، وإبعاد الأذى من طريقهم، وقد عد النبي - ﷺ - ذلك من شعب الإيمان.

١٠- المؤمن الصادق هو الذي ينسب فعل الكرامة إلى الله وليس إلى نفسه، ولزوم توجيه الناس إلى خالقهم، وأن يغرس في نفوسهم أن النفع والضرر هو بيد الله تعالى وحده دون من سواه، فلا يجوز أن تتعلق القلوب بغيره، ولذا لما سأل جليس الملك الأعمى الغلام أن يشفيه، قال الغلام: (إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ)، فَأَمَّنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ.

١١- تواضع العالم لتلميذه، وثنائوه عليه إذا استحق ذلك، ولكن بالقدر المناسب الذي يحفز على النشاط في أمره، ولا يوقعه في الاغترار بما هو عليه.

١٢- اقتضت سنة الله تعالى في عباده أن يتليهم ويمتحنهم لتمييز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، قال الله تعالى: {الْمُحْسِنِينَ} (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) } [العنكبوت].

ونجد في قوله تعالى: «أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» تصحيحا لما يقع في بعض النفوس المؤمنة من انزعاج أو استئثار لهذا العبء الذي حملوه من الإيمان بالله.. كما نجد في الآية والآيات التي بعدها إجابات قاطعة على تلك التساؤلات التي كانت تتردد في الخواطر: لم يكون الإيمان هكذا غالى الثمن، باهظ التكليف؟ ولم يحملنا إيماننا بالله على هذا المركب الوعر؟ ألسنا على الهدى، وعلى الصراط المستقيم؟ وهل هذا الطريق هكذا وعر المسالك، مزدحم العقبات؟

ونعم.. إن الإيمان هكذا غالى الثمن، باهظ التكليف، وإن طريقه وعر المسالك جمّ العقبات!! إنه الطريق إلى الجنة، وإن طريق الجنة مخوف بالمكاره! وإن هذا البلاء الذي يلقاه المؤمن على طريق إيمانه، هو ابتلاء له، وتمحيص لما عنده من صبر ومصابرة.. وهل يصفى الذهب من الغثاء الذي علق به، إلا إذا صهر بالنار؟ «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ» (٣١):

محمد) . «ما كان الله ليدرك المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب» (١٧٩: آل عمران) .

وهل انكشف وجه النفاق، وعرف المنافقون إلا في بوتقة الابتلاء، وفي مقام التضحية والبذل؟ إن الناس جميعا على سواء في حال الأمن والعافية.. فإذا كانت الحن والشدائد، فهم أنماط وأشكال، وهم معادن مختلفة، بين غث وثمين! والاستفهام في الآية الكريمة، للإنكار، والنفي.. أي ليس الأمر على ما يظن الناس وما يقدرّون، من أنهم إذا قالوا آمنا كانوا مؤمنين.. كلا، إن ذلك لا يكون حتى يفتنوا، وحتى يبتلوا.. وعندئذ ينكشف ما عندهم من إيمان..

قوله تعالى: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» هكذا حكم الله في عباده.. فكما امتحن الله المؤمنين في الأمم السابقة، يمتحن سبحانه الذين أسلموا، بما يفتنهم، في دينهم مما يلقاهم من شدائد ومحن..

فمن كان صادق الإيمان، سليم العقيدة، خالص النية، أمسك إيمانه في قلبه، وثبت عليه، ومن كان على غير تلك الصفة انخلع عن دينه، وألقى به لأول مسة تمسه من بلاء، وباعه بأبخس ثمن!. - وفي قوله تعالى: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» - بهذا الأمر المؤكد - إعلان للمؤمنين بأنهم في وجه ابتلاء، وفي مواجهة فتن، لا بد لهم منها.. إن لم تكن واقعة بهم فعلا، فإنها ستقع حتما.. هكذا يجب أن يتقرر في نفوسهم من أول الطريق.. فمن شاء أن يكون في المؤمنين، فليوطن نفسه على هذا، وليستعد لحمل أفدح الضربات.. وإلا فليأخذ طريقا غير هذا الطريق، وأمامه أكثر من طريق فسيح!

والمؤمنون الأولون الذين دخلوا في الإسلام، ورسخت أقدامهم فيه، هم - كما شهد التاريخ - أصفى الناس جوهرًا، وأكرمهم معدنا.. فقد كانوا خلاصة مجتمعهم، وثاقة عزم، وقوة يقين.. فاحتملوا من الشدائد والحن ما تتصدع به الجبال الراسيات.. «فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا.. وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» (١٤٦: آل عمران) ومن أجل هذا، فقد شهد القرآن الكريم لهذه الصفوة المتخيرة من عباد الله أكرم شهادة، وجعل ميزان الواحد منهم يعدل عشرة من غير المؤمنين، فقال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» (٦٥: الأنفال) ..

وأنت ترى أن الصفة التي فرق بها القرآن بين هؤلاء المؤمنين، والمشرّكين، هي «الفقه» .. وهو ليس ذلك العلم النظري، وإنما هو الحق الذي يملأ القلوب نورا، فيكشف لصاحبه من آيات الله، ودلائل قدرته، وعلمه، وحكمته، ما يصغر به كل شيء، إزاء عظمة الخالق وجلاله..^{٣٣٦}

٣٣٦ - التفسير القرآني للقرآن (١٠ / ٤٠١)

١٣- صدق الالتجاء إلى الله تعالى، بدعائه، والثقة بالإجابة، وذلك عندما قال الغلام: ((اللهم اكفنيهم بما شئت)) فاستجاب الله له، ونجاه منهم.

١٤- الإصرار على الدعوة، والحرص على إظهار الحق، وتبليغه للناس، ومقاومة الباطل.

١٥- أن الحق ينتصر ويعلو، ويعتنقه الناس إذا اجتهد الداعون إليه في بيانه، وضحووا في سبيله.

١٦- أن من صور النصر العظيمة انتصار الإيمان، بالثبات عليه، والموت في سبيله؛ لأن العاقبة هي الفوز برضاء الله تعالى وجنته.

١٧- تثبيت الله تعالى للمؤمنين، كما جرى للمرأة التي أرادت أن ترجع فأنطق الله تعالى صبيها، وقال: اصبري يا أماء، فإنك على الحق.

١٨- كل مولود يولد على الفطرة، فاقتضت الفطرة السليمة أن تكون مع الحق والخير دائماً وترفض الشر، فوجهت الغلام نحو الخير حين سمع الحق من الراهب ونبذت الشر المتمثل في الساحر الكافر.

١٩- علم الغلام بفطرته أن الحق مع الراهب ولكن أراد أن يقيم الحجة (مثل إبراهيم عليه السلام) حيث أقام الحجة على قومه.

٢٠- الدعاء إلى الله أن يظهر له الحق ويبين له وجه الصواب ويقطع الشك باليقين، وهذا شأن المؤمن يلجأ إلى الله دائماً لحل مشاكله.

٢١- إماطة الأذى عن الطريق وتخليص الناس من كرب وقعوا فيه، مشروع ومطلوب يؤجر المسلم عليه، كما صرحت بذلك الأحاديث.

٢٢- الاعتراف بالفضل ولو إلى غلام صغير: (أي بني أنت اليوم أفضل مني).

٢٣- كل من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصدع بالحق لا بد من أن يبتلى، وعليه بالصبر، وله الأجر الكبير عند الله، قال تعالى على لسان لقمان يوصي ولده: { يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [لقمان: ١٧].

٢٤- كل من أخطأ في تعبيره لا يترك في خطئه، بل يبين له وجه الصواب، لاسيما في عقيدة التوحيد، فالغلام يقول للوزير: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، وهذا مطابق لقول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء: ٨٠]

٢٥- إن الله رجلاً أقوياء بإيمانهم، فمهما عذبوا لا يرجعون عن دينهم، ولا يرضون الطغاة بكلمة فيها ضعف أو كفر، ولو حرقوا، أو نشروا أو أغرقوا وهو الأفضل وقد أشار إليهم الله سبحانه وتعالى بقوله: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ فَمَا كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَّتْ أَعْدَامُنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨]، وقد سمح الله للمؤمن

أَنْ يَنْطِقَ بِالْكَفْرِ إِذَا أَكْرَهَ عَلَيْهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل: ١٠٦].

٢٦- لا بد لكلمة الحق أن تنتصر ، فالملك يعجز عن قتل الغلام ، ولا يتم له ذلك إلا بطريقة يرسمها الغلام للملك ، يعقبها إيمان الشعب وانحدار الملك ، ويتحقق قول الله تعالى: { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: ٤٠] .

٢٧- الغلام المؤمن يضحي بنفسه ليؤمن الناس ، وهذا شأن المؤمنين المخلصين يسعون لإنقاذ أمتهم ، ولو أدى ذلك إلى استشهادهم ، فهم إلى الجنة ذاهبون ، قال تعالى : { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } [آل عمران: ١٦٩] .

٢٨- يثبت الله المؤمنين بالحجج البينات ، ويؤيد دينهم بالكرامات ، فهذا هو الرضيع ينطق (يا أمه اصبري، فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ) . والأم تستجيب لهذا الأمر ، وتلقي بنفسها مع طفلها صابرة محتسبة .

٢٩- مصير المؤمنين إلى الجنة بعد موتهم ، ومصير هؤلاء الكفار الحرق في الدنيا ، وعذاب جهنم في الآخرة . ٣٣٧

فقه الحديث :

- ١ - مشروعية القصص.
- ٢ - التربية بالقصص.
- ٣ - أهمية وعي التاريخ.
- ٤ - أثر القصة في تقريب الفهم.
- ٥ - أهل الطغيان والفساد لا يملكون الحجج العقلية والقدرة الإدارية على إدارة الناس فيلجؤون إلى السحر والشعوذة.
- ٦ - أهل الفساد يبحثون عن يرثهم ويكدون في إيجاده وابقائه
- ٧ - حرص أهل الفساد على استمرار الفساد وانتشاره.
- ٨ - استعانة الملوك والحكام الذين لا يحكمون بشرع الله بالسحرة والعرافين وهذا أمر لا يزال قائما حتى يومنا هذا

٩- أهمية تهيئة من يراد لأمر عظيم من الصغر، واستثمار جميع قدراته فيما يراد منه. لأن التعليم في الصغر كالنقش في الحجر ولأن الصغير يمكن توجيهه وتعليمه بالطريقة المرادة ، لانه عنده قابلية للتعليم

١٠- الاهتمام بالنشء، والاعتناء بأصحاب المواهب من الصغر، وتنمية مواهبهم وقدراتهم العقلية والفكرية والإدارية.

١١- إثبات كرامات الأولياء وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون

١٢- قلوب العباد بيد الله فيهدي من يشاء ويضل من يشاء فقد اهتدى الغلام وهو في أحضان الساحر وعناية الملك العاثر

١٣- قوة تلبيس السحرة وأعوانهم على الناس، فلم يزل الشك عند الغلام رغم تعليم الراهب له حتى عرضت له الدابة وقال تلك المقالة.

١٤- عدم الاغترار بالكرامات ونسبتها الى الله تعالى من حيث الاصل والفضل

١٥- جواز اختبار مقامات العباد عند الشك فيهم والاضطراب في أمرهم وقد فعل ذلك الغلام المؤمن عندما قال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل

١٦- إن إرادة الله فوق كل إرادة، وقدرة الله فوق كل قدرة، وأمر الله فوق كل أمر لا راداً لقضائه ولا معقب لحكمه إذا قال للشيء: كن فيكون، يري العباد ضعفهم وعجزهم مهما تجبروا وطغوا وبغوا، لقد اختار الملك الغلام ليكون الساحر الذي يثبت به دعائم ملكه، وأراد الله تعالى أن يكون الداعي الصالح الذي يدمر ملكه، ويهدي الناس إلى الدين الحق، وفي ذلك آية للمعتبرين، فالله يهيئ لدينه رجالاً ينبتون من بيوت الطواغيت الكفرة ليكونوا الدعاة الهداة البررة.

١٧- جواز الثورية على الخصوم لما يترتب على هذا الكذب من المصلحة الشرعية في الحرب على الأعداء وفي انقاذ النفس من الهلاك والهروب من الفتن.

١٨- تربية العالم لتلميذه، وإعداده وتهيئته لتحمل أعباء الدعوة: [وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى] استشرافاً للمستقبل من خلال التحديات، وتهيئة النفس، وترتيب الحسابات لذلك.

١٩- المؤمن يمتحن في صدق إيمانه والثبات على قول الحق وإن أدى ذلك إلى إزهاق نفسه لأن الأصل البلاء للمؤمنين: {أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [٢] { سورة العنكبوت } .

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا. وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب

لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به - وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالة وظله وإيحائه - وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.

ويجدها غنية قوية، وهي مشاقة لله! وهنا لك الفتنة الكبرى. أكبر من هذا كله وأعنف. فتنة النفس والشهوة. وجاذبية الأرض، وثقله اللحم والدم، والرغبة في المتاع والسلطان، أو في الدعة والاطمئنان. وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه، مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس، وفي ملابسات الحياة، وفي منطق البيئة، وفي تصورات أهل الزمان! فإذا طال الأمد، وابطأ نصر الله، كانت الفتنة أشد وأقسى. وكان الابتلاء أشد وأعنف. ولم يثبت إلا من عصم الله. وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان، ويؤمنون على تلك الأمانة الكبرى، أمانة السماء في الأرض، وأمانة الله في ضمير الإنسان. وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة. ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة.

فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

والنفس تصهرها الشدائد فتتفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع. وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل. وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا وأقواها طبيعة، وأشدّها اتصالا بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية. مؤمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار.

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن وبما بذلوا لها من الصبر على الحن وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات. والذي يبذل من دمه وأعصابه، ومن راحته واطمئنانه، ومن رغائبه ولذاته. ثم يصبر على الأذى والحرمان يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام.

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله. وما يشك مؤمن في وعد الله. فإن أبطأ فلحكمة مقدرة، فيها الخير للإيمان وأهله. وليس أحد بأغير على الحق وأهله من الله. وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة، ويقع عليهم البلاء، أن يكونوا هم المختارين من الله، ليكونوا أمناء على حق الله. وأن يشهد الله لهم بأن في دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء^{٣٣٨}

٢٠ - الحفاظ الأمني على شيخه: [فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَذُلْ عَلَيَّ].

٢١ - التضحية في سبيل الدعوة الى الله تعالى واطهار الحق .

^{٣٣٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٤٧٠)

- ٢٢ - أهل الإيمان يسخرون كل ما أتاهم الله وتفضل به عليهم لخدمة دينه والدعوة إلى سبيله
- ٢٣ - عدم تمني الراهب الفتنة، أو التعرض لها مع قوة صبره وتحمله.
- ٢٤ - أن الله يظهر دينه وينصر أهل الحق ويهزم الباطل وحزبه .
- ٢٥ - يجوز للمسلم أن يضحي بنفسه إذا كان في ذلك مصلحة دينية عامة ولا يخشى مواجهة الباطل وجنده
- ٢٦ - التواضع والاعتراف بالحق مهما كان صاحبه، والتعالي على الحسد والكبر، فهذا الراهب مع أنه معلم الغلام ومربيّه ومخرجه من الظلمات إلى النور، ومع ذلك لما علم أنه أفضل منه جهر بذلك أمام تلميذه الصغير: [أَنتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي].
- ٢٧ - استغلال المهنة الطبية في الدعوة ، مع الحرص على نفع الناس وحل مشكلاتهم.
- ٢٨ - الدعوة إلى دين الله لا تعرف سنّاً معيّناً، وانظر فعل الغلام.
- ٢٩ - الطغيان ليس له حد، بل يصل بصاحبه الضعيف إلى ادعاء الربوبية.
- ٣٠ - بيان لحقيقة الصراع بين الطواغيت والدعاة إلى الله وأن سبب ذلك أن الدعاة يريدون تعبيد العباد لرب العباد وحده بينما الطواغيت يريدون من الناس أن يتخذوهم أرباباً من دون الله
- ٣١ - أصبحت سير أولئك الطغاة المجرمين أضحوكةً يضحك منها اليوم الصغير والكبير.
- ٣٢ - قد يضعف الإنسان، ويدل على أصحابه من جراء التعذيب، فلا يغض هذا من مكانته، كما فعل جليس الملك والغلام مع صبرهما وتقديم أنفسهما فداء لدين الله.
- ٣٣ - الاعتراف بالفضل لأهله، وبيان عجز الإنسان وفاخته إلى معونة ربه: [إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ].
- ٣٤ - محاولة دغدغة عواطف الغلام واستمالة إلى الباطل، وحرفه عن الصراط المستقيم: [أَيُّ بُنْيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ].
- ٣٥ - ليس لدى أهل الطغيان القدرة على إفحام الخصم فيلجئون إلى القوة والتعذيب وهذا من سنتهم وسبيلهم.
- ٣٦ - صبر العالم، وتحمله للبلاء، وتقديم دمه فداء لدينه.
- ٣٧ - الإيمان لا يوازيه أي رتبة، أو مكانة، أو دنيا، ولهذا قدم جليس الملك دنياه فداء لدينه.
- ٣٨ - الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب؛ استخف صاحبه بكل عقوبة كما فعل الغلام، حين تفنن الملك في قتله.
- ٣٩ - المحن تولد المنح، لقد مات الراهب، والوزير، والغلام، كما مات الملك وأعوانه، لكن أين منازلهم؟! وأيهم ترك أسوة وسيرة يقتدى بها وينال أجرها؟!
- ٤٠ - اهتمام الملك بأمر الغلام ليكون سنداً له نظراً لفرط ذكائه، ولكنه إذا خالف أمره ولم يرجع عن دينه فالقتل جزاؤه، ولا قيمة للطاغات البشرية والثروة الفكرية عند الطغاة.

٤١- إرجاع الأمر في الأمن والخوف إلى الله تعالى: [كَفَانِيهِمُ اللَّهُ]. وذلك لأن أسباب النجاة والهلاك بيد الله فإن شاء أنفذها وإن شاء أهلكتها .

٤٢- دعاء الله في كل حال، وطلب نصرته، وعدم الاعتماد على النفس، وإظهار الفقر والفاقة والحاجة إلى القوي العزيز: [اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ].

٤٣- إيكال أمرهم إلى الله يفعل بهم ما يشاء، وعدم اختيار العقوبة والاقتراح على الله.

٤٤- الإصرار على إيصال الدعوة إلى الله إلى كافة الناس ولو كان يؤدي إلى الموت في سبيل الله ، حيث يلاحظ أن الغلام لم يفر بعد أن أنجاه الله تعالى كل مرة من عقوبة الملك، وذلك لأنه لم يكن ينشد السلامة لنفسه، بل كان يهدف إلى إظهار دين الله وإعلاء كلمته، ولعل الناس كانوا يتابعون قصته في مجالسهم وينتظرون النتيجة في معركة الغلام مع السلطان المتجبر مدعي الربوبية، وكيف يواجه الغلام الملك غير هباب ولا وجل، مع ما عرف عن السلطان من سفك الدماء.

٤٥- الاعتزاز بدين الله: [حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمُرُّكَ بِهِ].

٤٦- أهمية الدعوة إلى توحيد الله حتى احتاجت إلى تقديم النفس فداء في دعوة الناس إلى الله جل وعلا.

٤٧- الاحتيال في الدعوة إلى توحيد الله.

٤٨- مع الصدق والإخلاص يحطم دم المؤمن أصول الوثنية في قلوب الناس.

٤٩- مهما بدا بنیان الكفر ضخماً عظيماً فإنه كانتفاخ البالون سرعان ما يتحطم بأول وخزة: { أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [١٠٩] } [سورة التوبة . فبعد هذا التلبس الطويل على المجتمع، وتضليله وتربيته على الخنوع والخضوع لمدعي الربوبية سرعان ما انتهى كل ذلك بموقف واحد، كمثّل ظلّة عظيمة انقضت بشمعة صغيرة.

٥٠- دم المؤمن ينبغي أن لا يضيع هدراً فحياته دعوة، وموته دعوة، وقطرات دمه دعوة.

٥١- الملاء وأهل السوء وأثرهم السيء على السلطان: [أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَدْرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ] .

٥٢- أهل الطغيان لا يعرفون الحوار ولا المناظرة ولا المجادلة، وإنما حججهم هي البطش والعقوبة، ولا بأس في إبادة الشعب إبقاءً لمذهب السلطان، وتغطية لدعاويه الباطلة.

٥٣- انتزاع الرحمة من قلوب أهل الكفر، فماذا فعل أولئك بكم حتى تعاقبهم تلك العقوبة النكراء، لما احتاروا لأنفسهم عقيدة غير ما تلزمونهم وتجبرونهم عليه.. أين حرية الرأي والتفكير عندكم يا أهل الكفر والفساد؟! أم أنه لا بد أن يكون التفكير من خلالكم، ويلغون عقولهم حتى مجرد التفكير أو الاعتقاد لا يسمح لهم به!!

٥٤ - آية من آيات الله في نطق الغلام.

٥٥ - نصرة المؤمن، وتأيد الله له، وبعث من يثبت على الخير إذا علم منه الصدق والإخلاص:

[اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ].

٥٦ - لقد انتصر هذا المجتمع وعلوا، فاستهانوا بكل العقوبات، وسخروا من الإحراق والعذاب، وبقيت سيرهم مثلاً أعلى، فكم من الأمم انتصرت بسببهم، ثم ما يعايشونه الآن من النعيم: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [١٦٩] { [سورة آل عمران] }.

٥٧ - قد تتكرر الكرامة للعبد المؤمن مرة بعد مرة تثبتاً له لما هو عليه من الحق وتقريعاً لخصومه وشائتيه .

٥٨ - أهل الكفر لا تنقصهم الحجج والبراهين ليؤمنوا وإنما سبب كفرهم هو العناد والكبر

٥٩ - الطواغيت والظالمون عندهم استعداد لقت الناس جميعاً ليقبوا على ما هم فيه من نعيم الدنيا

٦٠ . ان الله يأتي الذين ظلموا من حيث لم يحتسبوا فقد آمن الناس لرب الغلام عندما رأوا ثباتهم وصدق دعوته وعدم خشيته في الله لومة لائم

٦١ - هناك من تكلم في المهدي غير عيسى عليه السلام وهذا الحديث يشرح قول الرسول في حديث جريج العابد : لم يتكلم في المهدي الا ثلاثة . وذكرهم انه في بني إسرائيل وليس الحصر في عامة الناس والله أعلم . ٠ قال القرطبي : فِي هَذَا الْحَصْرِ نَظَرٌ ، إِلَّا أَنْ يُحْمَلَ عَلَى أَنَّهُ ﷺ قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ الزِّيَادَةَ عَلَى ذَلِكَ ، وَفِيهِ بُعْدٌ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورِينَ مُقَيَّدًا بِالْمَهْدِ وَكَلَامَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَطْفَالِ بِغَيْرِ مَهْدٍ. "٣٣٩

٦٢ - فيه إثبات لإعجاز القرآن لأنه أخبر عن المغيبات التي نسيها التاريخ إذ وردت في حق أصحاب الاخدود الذين قال الله فيهم : (قتل أصحاب الأخدود)

٦٣ - بيان حرص الأم على أبنائها وشدة عاطفتها عليهم وكبير حنانها ٣٤٠ .



٣٣٩ - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٤٨٠) وشرح النووي على مسلم (١٦/ ١٠٦) وعمدة القاري شرح

صحيح البخاري (٧/ ٢٨٤)

٣٤٠ - http://www.alsuhol.com/vb/showthread.php?t=٥٩٠١٤

قصة الأعرابي الذي أراد قتل النبي ﷺ

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ قَبَلِ نَجْدٍ، فَأَذْرَكَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِعُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا قَالَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَنْظِلُونَ بِالشَّجَرِ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنْ رَجُلًا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلَّتَا فِي يَدِهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ قُلْتُ: اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ قُلْتُ: اللَّهُ، قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ فَهَذَا هُوَ ذَا جَالِسٌ " ثُمَّ لَمْ يَعْزُضْ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^{٣٤١}.

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي سِنَانُ بْنُ أَبِي سِنَانَ الدُّؤْلِيُّ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَخْبَرَ: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَذْرَكْتَهُمُ الْقَائِلَةَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَنْظِلُونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمْرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنَمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: " إِنْ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي، وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلَّتَا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ، - ثَلَاثًا - " وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ^{٣٤٢}

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَخْبَرَ: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَذْرَكْتَهُمُ الْقَائِلَةَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ، يَسْتَنْظِلُونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمْرَةٍ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ. قَالَ جَابِرٌ: فَنَمْنَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا فَجِئْنَا، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنْ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلَّتَا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَهَذَا هُوَ ذَا جَالِسٌ " ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^{٣٤٣}

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ نَجْدٍ، فَلَمَّا أَذْرَكْتَهُ الْقَائِلَةَ، وَهُوَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَاسْتَنْظَلَ بِهَا وَعَلَّقَ سَيْفَهُ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الشَّجَرِ يَسْتَنْظِلُونَ، وَبَيْنَا

^{٣٤١} - صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٦) ١٣ - (٨٤٣)

[ش (قبل نجد) أي ناحية نجد في غزوته إلى غطفان وهي غزوته ذي أمر موضع من ديار غطفان (العضاه) هي كل شجرة ذات شوك (صلتا) بفتح الصاد وضمها أي مسلولا (فشام السف) معناه غمده وردة في غمده يقال شام السيف إذا سله وإذا أغمده فهو من الأضداد والمراد هنا غمده]

^{٣٤٢} - صحيح البخاري (٤٠/ ٤) (٢٩١٠)

[ش (قبل نجد) ناحيتها وهي ما بين الحجاز إلى الشام ومنها المدينة والطائف. (قفل) رجع. (القائلة) النوم وقت الظهيرة. (العضاه) شجر عظيم له شوك. (سمرة) شجرة. (أعرابي) هو غورث بن الحارث. (اخترط) سل. (صلتا) مصلتا بارزا ومستويا]

^{٣٤٣} - صحيح البخاري (٥/ ١١٥) (٤١٣٤- ٤١٣٥)

نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْنَا، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ قَاعِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: " إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاخْتَرَطَ سَيْفِي، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، مُخْتَرِطٌ صَلَاتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَشَامَهُ ثُمَّ قَعَدَ، فَهُوَ هَذَا " قَالَ: وَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" ٣٤٤

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مُحَارِبَ خَصَفَةَ بَنِي خَلٍّ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غُرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهُ: عَوْفُ بْنُ الْحَارِثِ - أَوْ غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ - حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ»، قَالَ: فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّيْفَ، فَقَالَ لَهُ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي»، قَالَ: كُنَّ خَيْرًا مِنِّي، قَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أُعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، قَالَ: فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الظُّهْرِ أَوْ الْعَصْرِ - شَكَّ أَبُو عَوَانَةَ - أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ، بِصَلَاةِ الْخَوْفِ قَالَ: فَكَانَ النَّاسُ طَائِفَتَيْنِ: طَائِفَةٌ يَأْزِأُ الْعَدُوَّ، وَطَائِفَةٌ يُصَلُّونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الَّذِينَ مَعَهُ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ أَنْصَرَفُوا، فَكَانُوا مَكَانَ أُولَئِكَ، وَجَاءَ أُولَئِكَ فَصَلَّوْا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، رَكَعَتَيْنِ، فَكَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ وَلِلْقَوْمِ رَكَعَتَانِ". ٣٤٥

شرح المفردات:

(فأدرکتهم القائلة) أي: وسط النهار وشدة الحر .

(كثير العضاه) كل شجر يعظم له شوك، الواحدة عضة، وقيل هو العظيم من السم مطلقاً.

(وهو في يده صلتا) أي: مجرداً عن غمده .

(فشام السيف) أي: أغمده. ٣٤٦

من فوائد الحديث:

١ - شجاعة النبي ﷺ - وثباته، ورباطة جأشه، حتى هابه الأعرابي والسيف في يده، وليس مع النبي ﷺ - شيء يدافع به عن نفسه.

٢ - كمال خلقه ﷺ -، فقد عفا عن الرجل ولم يعاقبه، مع استحقاقه لذلك.

٣ - فضل الصحابة - رضي الله عنهم -، وكمال محبتهم وتوقيرهم للنبي ﷺ -، فقد جاء في بعض روايات الحديث: " فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ -".

٤ - فضيلة العفو، وما يحصل به من تأليف القلوب، وإزالة العداوة، بل وقلبها إلى محبة، وقد ذكر بعض أهل السير كابن إسحاق والواقدي أن الرجل أسلم، وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير، وقد قال الله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

٣٤٤ - صحيح البخاري (١١٦/٥) (٤١٣٩)

٣٤٥ - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٣٨/٧) (٢٨٨٣) صحيح

٣٤٦ - جامع الأصول (٧٣٧/٥)

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) {
[فصلت]

٥- على المسلم أن يتأسى بالنبي - ﷺ - فيعفو عمن أساء إليه، ويصبر على ما قد يناله من أذى من
إخوانه المسلمين، فإنهم أولى بالعفو والصفح من الكافر. ٣٤٧



قصة (جوع) أبي هريرة رضي الله عنه مع النبي ﷺ

عن مُجَاهِدٍ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، كَانَ يَقُولُ: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشَبِّعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشَبِّعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي الْقَاسِمُ ﷺ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَانِي، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ» وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلَ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟» قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ، قَالَ: «أَبَا هُرَيْرٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي» قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلِ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، فَسَاءَنِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ، كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاءَ أَمْرِي، فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، بَدُ، فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا، فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذِنَ لَهُمْ، وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ، قَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «خُذْ فَأَعْطِهِمْ» قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْيَ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْيَ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى يَرَوْيَ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، حَتَّى أَتْنَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوَى الْقَوْمُ كُلُّهُمْ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَتَنَظَّرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ، فَقَالَ: «أَبَا هُرَيْرٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «بَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ» قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «اقْعُدْ فَاشْرَبْ» فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ، فَقَالَ: «اشْرَبْ» فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: «اشْرَبْ» حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا، قَالَ: «فَارِنِي» فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَسَمِيَ وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ^{٣٤٨}

وعَنْ مُحَمَّدٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَشَّقَانِ مِنْ كَتَّانٍ، فَتَمَخَّطُ، فَقَالَ: «بَخْ بَخْ، أَبُو هُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ فِي الْكَتَّانِ، لَقَدْ رَأَيْتَنِي وَإِنِّي لَأَخْرُفُ فِيمَا بَيْنَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ

^{٣٤٨} - صحيح البخاري (٩٦ / ٨) (٦٤٥٢)

[ش (لأعتمد بكبدي) ألصق بطني بالأرض. (لأشد) أربط وفائدة شد الحجر المساعدة على الاعتدال والقيام. (طريقهم) أي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم. (فأذن لي فدخل) وفي رواية (فأذن لي فدخلت) (أضياف الإسلام) ضيوف المسلمين. (يأوون) يتلون ويلتحنون. (فساءني ذلك) أهمني وأحزني. (جاء. .) أي الذي أمرني بدعوته وهم أهل الصفة]

مَعْشِيًا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الْجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي، وَيُرَى أَنِّي مَحْنُونٌ، وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ مَا بِي إِلَّا الْجُوعُ»^{٣٤٩}

شرح المفردات:

(اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أي: والله يُحْذِفُ حَرْفَ الْقَسَمِ، وَثَبَتَ فِي رِوَايَةِ يَثِيبَاتِ الْوَائِي فِي أَوَّلِهِ.
(لِاعْتِمَادِ بَكْبَدِي) الصَّقِ بَطْنِي بِالْأَرْضِ .

(لِأَشَدِّ) أَرْبَطَ وَفَائِدَةُ شَدِّ الْحَجَرِ الْمُسَاعَدَةُ عَلَى الْإِعْتِدَالِ وَالْقِيَامِ .

(طَرِيقَهُمْ) أي النبي صلى الله عليه و سلم وأصحابه رضي الله عنهم .

(الصُّفَّةُ) مَكَانٌ فِي مُؤَخَّرِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ مُظَلَّلٌ أُعِدَّ لِتُزُولِ الْعُرَبَاءِ فِيهِ مِمَّنْ لَا مَأْوَى لَهُ وَلَا أَهْلٌ .

(أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ) ضِيُوفُ الْمُسْلِمِينَ .

(يَأْوُونَ) يَتَزَلُّونَ وَيَلْتَجِئُونَ .

(فَسَاءَنِي ذَلِكَ) أَهْمَنِي وَأَحْزَنَنِي .

(فَحَمَدَ اللَّهُ وَسَمَّى) أي: حَمَدَ اللَّهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ مِنَ الْبَرَكَةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي اللَّبَنِ الْمَذْكُورِ مَعَ قِلَّتِهِ حَتَّى رَوَى الْقَوْمُ كُلَّهُمْ وَأَفْضَلُوا ، وَسَمَّى فِي إِبْتِدَاءِ الشُّرْبِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ .

(وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ) أي: الْبَقِيَّةَ.^{٣٥٠}

من فوائد الحديث:

١- اسْتَحْبَابُ الشُّرْبِ مِنْ قُعُودٍ. وَيَجُوزُ الشُّرْبُ وَاقِفًا ، فَعَنِ ابْنِ عُمرَ، قَالَ: «كُنَّا نَشْرَبُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ قِيَامٌ، وَنَأْكُلُ وَنَحْنُ نَسْعَى»^{٣٥١}

٢- أَنَّ خَادِمَ الْقَوْمِ إِذَا دَارَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَشْرَبُونَ يَتَنَاوَلُ الْإِنَاءَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ فَيَدْفَعُهُ هُوَ إِلَى الَّذِي يَلِيهِ وَلَا يَدْعُ الرَّجُلَ يُنَاوِلَ رَفِيقَهُ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَوْعِ امْتِهَانِ الضَّيْفِ.

٣- فِيهِ مُعْجَزَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَعِلْمٌ مِنْ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ مِنْ تَكْثِيرِ اللَّبَنِ بِبَرَكَتِهِ ﷺ .

٤- قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: فِيهِ جَوَازُ الشُّبْعِ وَلَوْ بَلَغَ أَقْصَى غَايَتِهِ أَخْذًا مِنْ قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ: " لَا أَجِدَ لَهُ مَسْلُكًا "، وَتَقْرِيرِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ بِتَحْرِيمِهِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي اللَّبَنِ مَعَ رِقَّتِهِ وَنُفُودِهِ فَكَيْفَ بِمَا فَوْقَهُ مِنَ الْأَغْذِيَةِ الْكَثِيفَةِ، لَكِنْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خَاصًّا بِمَا وَقَعَ فِي تِلْكَ الْحَالِ فَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ. وَقَدْ أوردَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عُمرَ، قَالَ: تَجَشَّأَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ:

^{٣٤٩} - صحيح البخاري (١٠٤/٩) (٧٣٢٤)

[ش (ممشقان) مصبوغان بالمشق وهو الطين الأحمر. (كتان) نبات تتخذ من أليافه المنسوجة الثياب. (بخ بخ) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب (آخر) لأسقط. (فيضع رجله) خشية أن أصيب أحدا بأذى على ظنه]

^{٣٥٠} - جامع الأصول (٤/٦٩٧) والنووي، شرح صحيح مسلم (٤٨٢/٧) فتح الباري - ابن حجر - (١٨ / ٢٧٢).

^{٣٥١} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٤٩/١٢) (٥٢٤٣) صحيح

«كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ» وَقَالَ : حَسَنٌ ٣٥٢ . وَفِي الْبَابِ أَيْضًا حَدِيثٌ عَنْ مَقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسَبِ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتُ يُقْمَنُ صُلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثَلْثُ لَطْعَامِهِ وَثَلْثُ لَشْرَابِهِ وَثَلْثُ لِنَفْسِهِ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ، ٣٥٣ قال الحافظ: وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَأَنْ يُحْمَلَ الزَّجَرُ عَلَى مَنْ يَتَّخِذُ الشَّيْعَ عَادَةً لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْكَسَلِ عَنِ الْعِبَادَةِ وَغَيْرِهَا ، وَيُحْمَلُ الْجَوَازُ عَلَى مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ نَادِرًا وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ شِدَّةٍ جُوعٍ وَاسْتِيعَادِ حُصُولِ شَيْءٍ بَعْدَهُ عَنْ قُرْبٍ.

٥- أَنْ كَثَمَانَ الْحَاجَةِ وَالتَّلْوِيحِ بِهَا أَوَّلَى مِنْ إِظْهَارِهَا وَالتَّصْرِيحِ بِهَا.

٦- كَرَّمَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِثَارَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَادِمِهِ.

٧- وَفِيهِ مَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ ضِيقِ الْحَالِ، وَشَطَفِ الْعِيشِ مَعَ فَضْلِهِمْ، فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَأَسَّى بِهِمْ، فَيَصْبِرُ عَلَى مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ شِدَّةٍ أَوْ حَاجَةٍ حَتَّى يَفْرَجَ اللَّهُ عَنْهُ وَيُسِّرَ عَلَيْهِ.

٨- فَضَّلَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَتَعَفَّفَهُ عَنِ التَّصْرِيحِ بِالسُّؤَالِ وَاکْتِفَاؤُهُ بِالْإِشَارَةِ إِلَى ذَلِكَ ، وَتَقْدِيمُهُ طَاعَةَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حَظِّ نَفْسِهِ مَعَ شِدَّةِ احْتِيَاجِهِ.

٩- فَضَّلَ أَهْلَ الصُّفَّةِ وَإِثَارِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ، وَقَدْ كَانَ ﷺ يَخْصِمُهُمْ بِمَا يَأْتِيهِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَيُشْرِكُهُمْ فِيهَا يَأْتِيهِ مِنَ الْهَدِيَّةِ ، قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ : كَانَ عَدَدُ أَهْلِ الصُّفَّةِ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْحَالِ فَرُبَّمَا اجْتَمَعُوا فَكُثُرُوا وَرُبَّمَا تَفَرَّقُوا إِمَّا لِعَزْوٍ أَوْ سَفَرٍ أَوْ اسْتِغْنَاءٍ فَقَلُّوا.

١٠- مَشْرُوعِيَّةُ الْاسْتِئْذَانِ وَأَنَّ الْمُدْعُو إِذَا وَصَلَ إِلَى دَارِ الدَّاعِي لَا يَدْخُلُ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ. كَمَا يَشْرَعُ اسْتِئْذَانُ الْخَادِمِ عَلَى مَخْدُومِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلَهُ.

١١- وَفِيهِ جُلُوسُ كُلِّ أَحَدٍ فِي الْمَكَانِ اللَّائِقِ بِهِ، وَهُوَ أَدَبٌ عَظِيمٌ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ الْأَخْذَ بِهِ.

١٢- تَوَاضَعَ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ دَعَا أَبَا هُرَيْرَةَ بِالْكُنْيَةِ، مَعَ التَّرْحِيمِ لَهَا.

١٣- صَدَقَ فِرَاسَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَذَكَأُوهُ فِيمَا يَرَاهُ فِي وَجُودِ أَصْحَابِهِ ، وَتَعَاهَدَهُ أَيَاهُمْ : (فَتَبَسُّمُ حِينَ رَأَى ، وَعَرَفَ مَا بِي). قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: فِيهِ الْعَمَلُ بِالْفِرَاسَةِ.

١٤- قَبُولُ النَّبِيِّ ﷺ الْهَدِيَّةِ وَتَنَاوُلُهُ مِنْهَا وَإِثَارُهُ بِبَعْضِهَا الْفُقَرَاءَ ، وَامْتِنَاعُهُ مِنْ تَنَاوُلِ الصَّدَقَةِ وَوَضْعُهَا لَهَا فِيمَنْ يَسْتَحِقُّهَا.

١٥- أَنْ شَرِبَ السَّاقِي يَكُونُ آخِرًا، وَشَرِبَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ بَعْدَهُ.

١٦- مَشْرُوعِيَّةُ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى النِّعَمِ ، وَالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الشُّرْبِ .

٣٥٢ - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٤٩) (٢٤٧٨) حسن

٣٥٣ - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٩٠) (٢٣٨٠) صحيح

١٧- الصحابة الذين تعودوا الجوع ، ولم يذوقوا حلاوة الرفاهية ، مكتفين بحلاوة الإيمان ، هم الذين فتحوا القلوب بالقرآن والأخلاق قبل أن يفتحوا البلاد باللسان .

١٨- تكريم الرسول ﷺ للفقراء ، ودعوتهم إلى بيته ، دليل على اهتمامه بهم .

١٩- الرسول المربي الحكيم يربي أبا هريرة على الكرم والإيثار وينتزع من نفسه حب الذات . (الحق بأهل الصفة فأدعهم لي) . ويعلمه أن يبدأ بغيره قبل نفسه : (خذ فاعطهم) .

٢٠- ملاطفة الرسول ﷺ لأبي هريرة ساءه كثرة الشاريين مع قلة اللبن تتجلى في مناداته مراراً : (أبا هر - أبا هر) .

٢١- الرسول ﷺ كما علم الإيثار لأبي هريرة على غيره يحققه بذاته ، بل يقدم أبا هريرة على نفسه قائلاً : (اشرب اشرب) . وما زال أبو هريرة يشرب ، حتى امتلأ لبناً ، بعد أن امتلأ قناعة وإيثاراً ، والطبيب الناجح يكرر الدواء لمريضه حتى يحصل له الشفاء بإذن الله^{٣٥٤} .



^{٣٥٤} - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١١ / ٢٨٤) وما بعدها

قصة النفر من الصحابة مع الحي الذين أبوا أن يضيفوهم

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمْ، فَلَدَغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدَغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ [ص: ٩٣] مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعَلًا، فَصَالِحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَاْنْطَلَقَ يَنْفِلُ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عَقَالٍ، فَاْنْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلْبَةٌ، قَالَ: فَأَوْفُوهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالِحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَتَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ»، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ أَصَبْتُمْ، أَقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا» فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ٣٥٥

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرُّوا بِمَاءٍ، فِيهِمْ لَدِيعٌ أَوْ سَلِيمٌ، فَعَرَضَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَاءِ، فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ، إِنَّ فِي الْمَاءِ رَجُلًا لَدِيعًا أَوْ سَلِيمًا، فَاْنْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ عَلَى شَاءٍ، فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَكَرَهُوا ذَلِكَ وَقَالُوا: أَخَذْتَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ» ٣٥٦

شرح المفردات:

(النفر) ما بين الثلاثة والعشرة.

(فلدغ) اللدغ هو اللسع وزنا ومعنى، وهو ضرب ذات السم من حية أو عقرب وغيرهما، وأكثر ما يستعمل في العقرب، وأما اللدغ فهو الإحراق الخفيف.

٣٥٥ - صحيح البخاري (٩٢/٣) (٢٢٧٦)

[(فاستضافوهم) طلبوا منهم الضيافة. (فلدغ) ضربته حية أو عقرب. (الرهط) ما دون العشرة من الرجال. (لأرقى) من الرقية وهي كل كلام استشفى به من وجع أو غيره. (جعلاً) أجرة. (فصالحوهم) اتفقوا معهم. (قطيع) طائفة من الغنم. (ينفل) من التفل وهو النفخ مع قليل من البصاق. (نشط من عقال) فك من جبل كان مشدوداً به. (قلبة) علة. (وما يدريك أنها رقية) ما الذي أعلمك أنها يرقى بها. (اضربوا لي معكم سهماً) اجعلوا لي منه نصيباً]

٣٥٦ - صحيح البخاري (١٣٢/٧) (٥٧٣٧)

[ش(ماء) يقوم نازلين على ماء. (لدغ) قرصته أفعى أو عقرب. (سليم) يسمى اللديغ سليماً تفاؤلاً له بالسلامة. (شاء) غنم (أحق) أولى]

(فسعيناً له) أي: طلبنا له ما يداويه.
(الرَّهْطَ) ما بين الثلاثة والعشرة.
(جُعْلاً) الجعل ما يعطى على عمل.
(قطيع) طائفة من الغنم والمواشي.
(يَنْتَلِ) وهو نفخ معه قليل براق. قال عياض: فائدة النفث التبرك بتلك الرطوبة أو الهواء الذي ماسه القراءة والذكر.

(عقال) هو الحبل الذي يشد به ذراع البهيمة.
(قَلْبَةً) أي: علة، وقيل للعلة قلبية: لأن الذي تصيبه يقلب من جنب إلى جنب ليعلم موضع الداء^{٣٥٧}.

المعنى العام :

معنى الحديث: إن جماعة من الصحابة منهم أبو سعيد رضي الله عنه مروا أثناء سفرهم على قبيلة، فسألوهم الضيافة المعتادة، فامتنعوا عن ضيافتهم لشدة بخلهم، فبينما هم في ديارهم، إذا برئيس القبيلة تلسه عقرب فيتسمم جسمه وتشتد عليه آلامه، فيحاولون علاجه بشق الوسائل، فيفشلون في ذلك، فيلجؤون إلى هؤلاء الجماعة من الصحابة فيسألونهم معالجة رئيسهم إن كان لديهم شيء ينفعه ويخلصه مما هو فيه، ويشفيه من آلامه الشديدة، التي تكاد تقضي عليه، فقال أحدهم: أنا أعالجه بالرقية بشرط أن تعطونا أجرة على علاجه، لأنكم بخلتم علينا بالضيافة، فاتفقوا معه على قطع من الغنم يدفع إليهم مقابل علاجهم لمريضهم، فذهب إلى المريض، وأخذ يتفل عليه، ويرقيه بفاتحة الكتاب، أي يتفل عليه من ريقه مصحوباً بالقراءة. قال أبو سعيد: " فكأنما نشط من عقال " أي فشفي المريض في الحال، وانقطعت آلامه فوراً كأنما كان مربوطاً بحبل وأطلق منه، فأعطوهم قطيعاً من الغنم الذي تعاقدوا معهم عليه، فقال بعض الصحابة، نقسم هذا القطيع بيننا، ونأكله، فقال أبو سعيد: لا تتصرفوا فيه حتى نصل إلى رسول الله - ﷺ - ونخبره بما وقع لنا، ونسأله عن حكمه، ونفعل ما يأمرنا به. فلما قدموا إليه، أخبروه بالقصة فقال له النبي - ﷺ -: " وما يدريك أنها رقية " أي أن الفاتحة رقية عظيمة وشفاء من الأدواء والأسقام، ولكن كيف عرفت هذا، وفي رواية الدارقطني: " وما علمك أنها رقية " قال: " حق ألقى في روعي " أي فراسة وإلهام من الله تعالى ألقى في قلبي فأحسست به إحساساً داخلياً وعملت بمقتضاه. وهذا توفيق من الله تعالى، حيث ألقى إليه في قلبه بهذا الإلهام الرباني الصادق، فجاء موافقاً للواقع، وهو معنى قوله - ﷺ - له: " قد أصبتم " أي قد وفقتم فيما ألهمتم به وفي علاجكم لهذا الرجل اللديغ حيث كنتم سبباً في نجاته، ثم أمرهم أن

^{٣٥٧} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٤ / ٤٥٥) فما بعدها وجامع الأصول (٧ / ٥٦٧)

يقسموا تلك الأغنام، وشاركهم فيها. الحديث: أخرجه الشيخان وأبو داود والنسائي والترمذي.
والمطابقة: في إقراره - ﷺ - لهم على أخذ الأجرة على الرقية^{٣٥٨}

(عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ نَفَرًا أَيْ: جَمَاعَةً (مِنْ) أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - مَرُّوا بِمَاءٍ قَالَ الْقَاضِي: يُرِيدُ بِالْمَاءِ أَهْلَ الْمَاءِ بِمَعْنَى الْحَيِّ النَّازِلِينَ عَلَيْهِ (فِيهِمْ) الضَّمِيرُ لِلْمُضَافِ الْمَحذُوفِ (لَدَيْغٍ أَوْ سَلِيمٍ) شَكُّ مَنْ الرَّاوي، وَاللَّدَيْغُ الْمَلْدُوغُ وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِيمَنْ لَدَغَهُ الْعَقْرَبُ، وَالسَّلِيمُ فِيمَنْ لَسَعَتْهُ الْحَيَّةُ تَقَاوُلًا (فَعَرَضَ) أَيْ: ظَهَرَ (لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَاءِ فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟) اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ رَقَى يَرْقِي بِالْفَتْحِ فِي الْمَاضِي وَالْكَسْرِ فِي الْمُضَارِعِ مَنْ يَدْعُو بِالرُّقِيَّةِ (إِنَّ فِي الْمَاءِ رَجُلًا لَدَيْغًا أَوْ سَلِيمًا) اسْتِنْتَفَ تَعْلِيلٌ (فَانْطَلَقَ) أَيْ: فَذَهَبَ (رَجُلٌ مِنْهُمْ) قِيلَ: هُوَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ (فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ عَلَى شَاءٍ) جَمْعُ شَاةٍ (فَبَرَأَ) بَفَتْحِ الرَّاءِ وَيُكْسَرُ فِي النَّهَايَةِ بَرَأَ الْمَرِيضُ يَبْرَأُ بَرَأً بِالْفَتْحِ فَهُوَ بَارِئٌ وَأَبْرَأُهُ اللَّهُ، وَغَيْرُ أَهْلِ الْحِجَازِ بَرِئَ بِالْكَسْرِ بَرَأً بِالضَّمِّ وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ لَهُمْ: أَنَا أَرَقِي هَذَا اللَّدَيْغَ بِشَرْطِ أَنْ تُعْطُونِي كَذَا رَأْسًا مِنَ الْعَنَمِ فَرَضُوا فَقَرَأَ عَلَيْهِ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ بِنَاءً عَلَى مَا وَرَدَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ شِفَاءً مِنَ السُّمِّ فَبَرَأَ بِبَرَكَهَةِ كَلَامِ اللَّهِ، قِيلَ: كَانَتْ ثَلَاثِينَ غَنَمًا وَهُمْ ثَلَاثُونَ نَفَرًا (فَجَاءَ بِالشَّاءِ إِلَى أَصْحَابِهِ فَكَرَهُوا ذَلِكَ) أَيْ: أَخَذَهُ (وَقَالُوا) أَخَذَتْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا؟) أَيْ: وَكَانُوا يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ (حَتَّى قَدِمُوا) قَالَ الطَّبِيبِيُّ: "مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: قَالُوا أَخَذَتْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَمَعْنَاهُ لَا يَزَالُونَ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ (فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ) فَالْعَايَةُ أَيْضًا دَاخِلَةٌ فِي الْمُعْيَا كَمَا فِي مَسْأَلَةِ السَّمَكَةِ (أَخَذَ) أَيْ: الرَّجُلُ (عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) أَيْ: أَيُّهَا الْأُمَّةُ (كِتَابُ اللَّهِ) قَالَ الْقَاضِي: "فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْاسْتِجَارِ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالرُّقِيَّةِ بِهِ وَجَوَازِ اخْتِذِ الْأُجْرَةِ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ، وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى تَحْرِيمِهِ، وَهُوَ قَوْلُ الزُّهْرِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَإِسْحَاقَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - وَاحْتَجُّوا بِالْحَدِيثِ الْآتِي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ. فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الرُّقِيَّةِ بِالْقُرْآنِ وَبِذِكْرِ اللَّهِ وَأَخَذِ الْأُجْرَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُبَاحَةِ، وَبِهِ تَمَسَّكَ مَنْ رَخَّصَ بَيْنَ الْمَصَاحِفِ وَشَرَاءِهَا وَأَخَذِ الْأُجْرَةَ عَلَى كِتَابَتِهَا وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ، وَالشَّعْبِيُّ، وَعِكْرِمَةُ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سُفْيَانُ، وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ، وَأَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ -^{٣٥٩}

من فوائد الحديث:

١ - في الحديث جواز الرقية بكتاب الله ويلتحق به ما كان بالذكر والدعاء المأثور، وهو قول مالك والشافعي وأحمد و أبي ثور.

^{٣٥٨} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٠٧)

^{٣٥٩} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٩٢)

٢- قال ابن القيم: (وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ بَعْضَ الْكَلَامِ لَهُ خَوَاصُّ وَمَنَافِعُ مُجَرَّبَةٌ، فَمَا الظَّنُّ بِكَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي فَضَّلَهُ عَلَى كُلِّ كَلَامٍ كَفَضَلَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ الَّذِي هُوَ الشِّفَاءُ النَّامُ، وَالْعِصْمَةُ النَّافِعَةُ، وَالنُّورُ الْهَادِي، وَالرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ الَّذِي لَوْ أُنْزِلَ عَلَى جَبَلٍ؛ لَتَصَدَّعَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَّالَتِهِ. قَالَ تَعَالَى: {وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢] [الإسراء: ٨٢] ، وَ" مِنْ " هَاهُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ، هَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩] [الفتح: ٢٩] وَكُلُّهُمْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَمَا الظَّنُّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ الَّتِي لَمْ يُنْزَلْ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي التَّوْرَةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ مِثْلَهَا، الْمُتَضَمِّنَةُ لِجَمِيعِ مَعَانِي كُتُبِ اللَّهِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ذِكْرِ أَصُولِ أَسْمَاءِ الرَّبِّ - تَعَالَى - وَمَجَامِعِهَا، وَهِيَ اللَّهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَإِثْبَاتِ الْمَعَادِ، وَذِكْرِ التَّوْحِيدَيْنِ: تَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، وَذِكْرِ الْإِفْتِقَارِ إِلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فِي طَلَبِ الْإِعَانَةِ، وَطَلَبِ الْهِدَايَةِ، وَتَخْصِيصِهِ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ، وَذِكْرُ أَفْضَلِ الدُّعَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَأَنْفَعِهِ وَأَفْرَضِهِ، وَمَا الْعِبَادُ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْهِدَايَةُ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ مَعْرِفَتِهِ، وَتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ بِفِعْلٍ مَا أَمَرَ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ، وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ، وَيَتَضَمَّنُ ذِكْرَ أَصْنَافِ الْخَلَائِقِ، وَأَنْفُسَامَهُمْ إِلَى مُنْعَمٍ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَالْعَمَلِ بِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَإِيثارِهِ، وَمَعْضُوبٍ عَلَيْهِ بِعُدُولِهِ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ لَهُ، وَضَالٍّ بِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ لَهُ.

وهؤلاء أقسام الخليفة مع تضمينها لإثبات القدر، والشرع، والأسماء، والصفات، والمعاد، والنبوات، وتركيب النفوس، وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله، وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير "مدارج السالكين" في شرحها. وحقيق بسورة هذا بعض شأنها أن يستشفى بها من الأدواء، ويرقى بها اللدغ. وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، ونفويس الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم من أعظم الأدوية الشافية الكافية.

وقد قيل: إن موضع الرقية منها: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ مِنْ أَقْوَى أَجْزَاءِ هَذَا الدَّوَاءِ، فَإِنْ فِيهِمَا مِنْ عُمُومِ التَّفْوِيضِ وَالتَّوَكُّلِ، وَالتَّجَاءِ وَالِاسْتِعَانَةِ، وَالِافْتِقَارِ وَالتَّطَلُّبِ، وَالتَّجَمُّعِ بَيْنَ أَعْلَى الْعَايَاتِ، وَهِيَ عِبَادَةُ الرَّبِّ وَحْدَهُ، وَأَشْرَفِ الْوَسَائِلِ وَهِيَ الْاسْتِعَانَةُ بِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ، مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا، وَلَقَدْ مَرَّ بِي وَقْتُ بِمَكَّةَ سَقِمْتُ فِيهِ، وَفَقَدْتُ الطَّيِّبَ

وَالدَّوَاءَ، فَكُنْتُ أَتَعَالَجُ بِهَا أَخْذُ شَرِبَةً مِنْ مَاءٍ زَمْزَمَ وَأَقْرُؤُهَا عَلَيْهَا مِرَارًا، ثُمَّ أَشْرَبُهُ فَوَجَدْتُ بِذَلِكَ الْبُرءَ النَّامَ، ثُمَّ صِرْتُ أَعْتَمِدُ ذَلِكَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْجَاعِ فَأَنْتَفِعُ بِهَا غَايَةَ الْإِنْتِفَاعِ).^{٣٦٠}

٣- مشروعية الضيافة على أهل البوادي والتزول على مياه العرب وطلب ما عندهم على سبيل القرى أو الشراء.

٤- أن ترك الضيافة ليس من مكارم الأخلاق، ولذا لما امتنع أهل الحي من الضيافة امتنع الصحابة من الرقية إلا بعوض، تأديباً لهم.

٥- جواز مقابلة من أمتنع من المكرمة بنظير صنيعه، لما صنعه الصحابي من الامتناع من الرقية في مقابلة امتناع أولئك من ضيافتهم، وهذه طريق موسى عليه السلام في قوله تعالى (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) ولم يعتذر الخضر عن ذلك إلا بأمر خارجي.

٦- إمضاء ما يلتزمه المرء على نفسه لأن أبا سعيد التزم أن يرقى وأن يكون الجعل له ولأصحابه وأمر النبي ﷺ بالوفاء بذلك.

٧- جواز الاشتراك في الموهوب إذا كان أصله معلوماً.

٨- جواز طلب الهدية ممن يعلم رغبته في ذلك وإجابته إليه، حيث طلب منهم النبي ﷺ أن يضربوا له بسهم، وقال بعض أهل العلم، قوله: واضربوا إلى معكم سهماً، أي اجعلوا لي منه نصيباً وكأنه أراد المبالغة في تأنيسهم وتطبيب نفوسهم.

٩- جواز قبض الشيء الذي ظاهره الحل وترك التصرف فيه إذا عرضت فيه شبهة.

١٠- جواز الاجتهاد عند فقد النص، حيث رقى الصحابة بالقرآن ولم يكن تقدم لهم علم بذلك.

١١- عظمة القرآن في صدور الصحابة رضي الله عنهم، خصوصاً الفاتحة.

١٢- أن الرزق المقسوم لا يستطيع من هو في يده منعه ممن قسم له، لأن أولئك منعوا الضيافة وكان الله قسم للصحابة في ما لهم نصيباً فمنعواهم فسبب لهم لدغ العقرب حتى سيق لهم ما قسم لهم.

١٣- قال الحافظ ابن حجر: وفيه الحكمة البالغة حيث اختص بالعقاب من كان رأساً في المنع، لأن من عادة الناس الانتمار بأمر كبيرهم، فلما كان رأسهم في المنع اختص بالعقوبة دونهم جزاء وفاقاً، وكأن الحكمة فيه أيضاً إرادة الإجابة إلى ما يلتمسه المطلوب منه الشفاء ولو كثر لأن الملدوغ لو كان من آحاد الناس لعله لم يكن يقدر على القدر المطلوب منهم.^{٣٦١}

ودل هذا الحديث على ما يأتي:

أولاً: مشروعية الرقية الصحيحة، وثبوت نفعها بإذن الله تعالى، لأن أبا سعيد قال: "والله إني لأرقي" ثم رقى الملدوغ، فشفي في الحال، واستجمع قواه "وانطلق يمشي، وما به قلة" بفتح القاف واللام

^{٣٦٠} - زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٦٢) والطب النبوي لابن القيم (ص: ١٣١)

^{٣٦١} - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٤/ ٤٥٧)

أي وليست به أي علة أو مرض. " قال الشوكاني: " وفي الحديث دليل على جواز الرقية بكتاب الله، ويلتحق به ما كان بالذكر والدعاء المأثور، وكذا غير المأثور مما لا يخالف المأثور. اهـ. ويدل على ذلك حديث الباب وغيره من الأحاديث الصحيحة.

ثانياً: جواز أخذ الأجرة على الرقية الصحيحة كما تؤخذ على سائر المنافع، وهو ما ترجم له البخاري، وهو قول جمهور أهل العلم. ثالثاً: فضل سورة الفاتحة. وكونها شفاء ودواء ورقية عظيمة، فعن عبد الملك بن عمير، قال: قال رسول الله ﷺ: «فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ»^{٣٦٢} قال ابن بطال: وموضع الرقية منها " إياك نستعين "^{٣٦٣}.

أي في آياتها وكلماتها وحروفها قراءةً وكتابةً للتعليق وللحُسن (شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ) ديني أو دُنْيوي حسي أو معنوي، قال الطيبي: يَتَنَاوَلُ دَاءَ الْجَهْلِ وَالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي وَالْأَمْرَاضَ الْبَدَنِيَّةَ^{٣٦٤}



^{٣٦٢} - سنن الدارمي (٤/ ٢١٢٢) (٣٤١٣) صحيح مرسل

^{٣٦٣} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٠٧)

^{٣٦٤} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٤٨٨)

قصة الأنصار يوم حنين

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ يُعْطِي رَجُلًا مِنْ قُرَيْشِ الْمِائَةِ مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَدْعُنَا، وَسَيُوفِنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَقَالَتِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ، فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ أَحَدًا غَيْرَهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا كَانَ حَدِيثُ بَلْعَنِي عَنْكُمْ». قَالَ لَهُ فَقَهَاؤُهُمْ: أَمَا ذُوو آرائِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا أَنَسٌ مِمَّا حَدِيثُهُ أَسْنَانُهُمْ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُعْطِي قُرَيْشًا، وَيَتْرُكُ الْأَنْصَارَ، وَسَيُوفِنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أُعْطِي رَجُلًا حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِكُفْرٍ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَاللَّهِ مَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ رَضِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدِي أَثَرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ عَلَى الْحَوْضِ» قَالَ أَنَسٌ فَلَمْ نَصْبِرْ^{٣٦٥}

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ: لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَعَانَاكُمُ اللَّهُ بِي» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُ، قَالَ: «مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ». قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُ، قَالَ: "لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْنَا كَذًا وَكَذَا، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكَتُ وَادِي الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارُ وَالنَّاسُ دِثَارُ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ"^{٣٦٦}

شرح المفردات:

^{٣٦٥} - صحيح البخاري (٩٤/٤) (٣١٤٧) وصحيح مسلم (٢/٧٣٣) (١٢٣) - (١٠٥٩)

[ش (هوازن) هم القبيلة التي قاتلت المسلمين في غزوة حنين. (أفاء) من الفاء والمراد هنا الغنيمة. (فطفق) أخذ وشرع. (تقطر من دمائهم) أي لم يمض زمن على مقاتلتنا لهم على الشرك. (أدم) جلد مدبوغ. (أثرة) استبداد بالأموال وحرمانكم منها. (فلم نصبر) على الأثرة كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم]

^{٣٦٦} - صحيح البخاري (١٥٧/٥) (٤٣٣٠)

[ش (أفاء) أعطاه الغنائم وأصل الفيء الرجوع فكأن الأموال في الأصل للمسلمين فغلب عليها الكفار ثم رجعت إليهم. (وجدوا) حزنوا. (ما أصاب الناس) لم ينلهم ما نال الناس من العطاء. (عالة) جمع عائل وهو الفقير. (أمن) من المن وهو الفضل. (كذا وكذا) كناية عما يقال. (شعار) هو الثوب الذي يلي الجلد من البدن. (دثار) هو الثوب الذي يكون فوق الشعار. (أثرة) ينفرد بالمال المشترك ونحوه دونكم ويفضل عليكم بذلك غيركم. (الحوض) الذي هو لي في الجنة]

(أثره) الاستثثار: التفرد بالشيء من دون غيره، والأثرة: الاستثثار بالمشترك ، أي يستأثر عليكم
ويفضل عليكم غيركم بغير حق .

(الذثار) : الثوب يكون فوق الشعر أي الأنصار هم الخاصة والناس العامة.

(الشعار) : ما ولى الجسد دون سواه من الثياب. وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم منه. وأراد أيضا
أهم بطانته وخاصته وأهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم .^{٣٦٧}

المعنى العام :

(وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: إِنَّ نَاسًا) أَي: جَمْعًا (مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) أَي: أَعْطَاهُ (فَيْثًا) ،
أَي: غَنِيمَةً (مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ) : وَهِيَ قَبِيلَةٌ شَهِيرَةٌ (مَا أَفَاءَ) ، أَي: شَيْئًا أَفَاءَهُ عَلَيْهِ (فَطَفَقَ) ، أَي:
فَأَخَذَ وَشَرَعَ (رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ بِالْجَعْرَانَةِ) : حِينَ مَرْجِعِهِ مِنَ الطَّائِفِ (يُعْطِي رِجَالًا مِنْ
قُرَيْشِ الْمِائَةِ مِنَ الْإِبِلِ) وَمِنْ جُمْلَتِهِمْ أَبُو سُفْيَانٍ وَالِدُ مُعَاوِيَةَ، وَكَانَ إِعْطَاؤُهُ تَأْلَفًا لَهُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَلِذَا
كَانَ يُعْطِي الصَّادِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَقْلَ مِنَ الْمِائَةِ (فَقَالُوا) ، أَي: نَاسٌ مِنَ الْأَنْصَارِ زَعَمُوا
مِنْهُمْ أَنَّهُ - ﷺ - يُرَاعِي بَعْضَ قَوْمِهِ مِنْ قُرَيْشٍ (يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يُعْطِي قُرَيْشًا) ، أَي:
شَيْئًا كَثِيرًا (وَيَدْعُنَا) ، أَي: يَتْرُكُنَا فِي إِعْطَاءِ الْكَثِيرِ (وَسَيُوفُنَا تَقْطُرُ) : بِضَمِّ الطَّاءِ أَي: وَالْحَالُ أَنَّ
سَيُوفَنَا نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْصَارِ تَنْقُطُ (مِنْ دِمَائِهِمْ) أَي: مِنْ دِمَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ بِمُحَارَبَتِنَا إِيَّاهُمْ. حَتَّى
يُسَلِّمُوا. قَالَ الطَّبِيُّ: قَوْلُهُمْ يَغْفِرُ اللَّهُ تَوَاطُّةً وَتَمْهِيدًا لِمَا يَرُدُّ بَعْدَهُ مِنَ الْعِتَابِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {عَفَا
اللَّهُ عَنْكَ لَمَ أَدْنَتْ لَهُمْ} [التوبة: ٤٣] وَقَوْلُهُمْ: وَسَيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ مِنْ بَابِ قَوْلِ الْعَرَبِ:
عَرَضَتِ النَّاقَةُ عَلَى الْحَوْضِ. اهـ. وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ وَسَيُوفُنَا بِاعْتِبَارِ مَا عَلَيْهَا تَقْطُرُ مِنْ
دِمَائِهِمْ وَهُوَ إِشْعَارٌ بِقُرْبِ قَتْلِهِمْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، وَإِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُمْ أَوْلَى بِزِيَادَةِ الْبِرِّ، فَالْجُمْلَةُ حَالٌ مُقَرَّرَةٌ
لِجَهَةِ الْإِشْكَالِ (فَحَدَّثَ) : بِضَمِّ حَاءٍ وَتَشْدِيدِ دَالٍ مَكْسُورَةٍ أَي: فَأَوْحَى (لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -
بِمَقَالَتِهِمْ) أَي: بِقَوْلِ ذَلِكَ الْبَعْضِ مِنَ الْأَنْصَارِ (فَارْسَلْ) ، أَي: الرَّسُولُ رَسُولًا (إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ)
، أَي: الرَّسُولُ أَوْ أَمْرٌ بِجَمْعِهِمْ (رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي قُبَّةٍ) ، أَي: خِيْمَةٍ (مَنْ أَدَمَ) : بِفَتْحَتَيْنِ أَي:
جَلَدَ (وَلَمْ يَدْعُ) : بِسُكُونِ الدَّالِ وَضَمِّ الْعَيْنِ أَي: لَمْ يَطْلُبْ، وَفِي نُسْخَةٍ بَفَتْحِ الدَّالِ وَسُكُونِ الْعَيْنِ
أَي: لَمْ يَتْرِكْ مَعَهُمْ (أَحَدًا غَيْرَهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: " مَا حَدِيثُ ") ،
أَي: أَيُّ شَيْءٍ خَبَرَ عَظِيمٌ؟ (" بَلَّغْنِي عَنْكُمْ " فَقَالَ فَقَهَاؤُهُمْ) ، أَي: عُلَمَاؤُهُمْ أَوْ عُقَلَاؤُهُمْ (أَمَّا ذُووُ
رَأْيِنَا) ، أَي: أَصْحَابُ عُقُولِنَا وَفُهُومِنَا (يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا) ، أَي: مِنْ هَذَا الْبَابِ (وَأَمَّا
أُنَاسٌ) : بِضَمِّ الهمزة لَعَةً فِي نَاسٍ أَي: جَمَاعَةٍ (مِنَّا حَدِيثَةٌ) ، أَي: جَدِيدَةٌ (أَسْأَلُهُمْ) : جَمْعُ السَّنِّ
بِمَعْنَى الْعُمَرِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُمْ الشُّبَّانُ (قَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَدْعُ الْأَنْصَارَ)

^{٣٦٧} - شرح النووي على مسلم (٧/ ١٥١) وفتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٨/ ٥٢)

، أَيُّ: يَتْرُكُهُمْ (وَسَيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: "إِنِّي أُعْطِي") ، أَيُّ: مِنْ هَذَا الْمَالِ ("رَجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكَفْرِ أَتَأَلَّفُهُمْ") ، أَيُّ: أَطْلُبُ أَلْفَتَهُمْ بِالْإِسْلَامِ بِإِعْطَاءِ الْمَالِ لَا لِكَوْنِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ أَوْ لِعَرَضٍ آخَرَ مِنَ الْأَحْوَالِ ("أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ") ، أَيُّ: غَيْرُكُمْ مِنَ الْمُتَأَلِّفَةِ قُلُوبُهُمْ ("بِالْأَمْوَالِ وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ") بِكَسْرِ الرَّاءِ أَيُّ: مَنَازِلَكُمْ فِي الْمَدِينَةِ ("بِرَسُولِ اللَّهِ") وَفِي نُسْخَةٍ - ﷺ - (قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا) . فِيهِ تَأْكِيدٌ لِمَا فِيهِمْ مِنْ بَلَى، وَمَا أَحْسَنَ مَنْ قَالَ مِنْ أَرْبَابِ الذَّوْقِ وَالْحَالِ:

رَضِينَا قِسْمَةَ الْجَبَّارِ فِينَا ... لَنَا عِلْمٌ وَلِلْأَعْدَاءِ مَالٌ
فَإِنَّ الْمَالَ يَفْنَى عَنْ قَرِيبٍ ... وَإِنَّ الْعِلْمَ يَبْقَى لَا يَزَالُ.^{٣٦٨}

من فوائد الحديث:

- ١- إقامة الحجة على الخصم وإفحامه بالحق عند الحاجة إليه.
- ٢- أمر رسول الله ﷺ أن يجتمع الأنصار في مكان واحد ولم يدع معهم أحداً، ولعل من الحكمة في ذلك لما أراد أن يبين لهم من فضلهم وإيمانهم، ومحبتهم لهم، وما سيقع لهم مما لا يشركهم فيه غيرهم.
- ٣- حسن أدب الأنصار في تركهم المماراة، والمبالغة في الحياء، وبيان أن الذي نقل عنهم إنما كان عن شبانهم لا عن شيوخهم وكهولهم.
- ٤- فيه مناقب عظيمة للأنصار لما اشتمل من ثناء الرسول ﷺ البالغ عليهم.
- ٥- أن الكبير ينبه الصغير على ما يغفل عنه، ويوضح له وجه الشبهة ليرجع إلى الحق.
- ٦- فيه المعاتبة واستعطاف المعاتب وإعتابه عن عتبه بإقامة حجة من عتب عليه، والاعتذار والاعتراف، حيث بين ﷺ عنهم بلسانه عن فضلهم عليه فقال عليه الصلاة والسلام (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم آتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك).
- ٧- فيه علم من أعلام النبوة لقوله: "ستلقون بعدي أثرة" فكان كما قال.
- ٨- أن للإمام تفضيل بعض الناس على بعض في مصارف الفياء، وأن له أن يعطي الغني منه للمصلحة.
- ٩- أن من طلب حقه من الدنيا لا عتب عليه في ذلك.
- ١٠- كمال خلق النبي ﷺ وتقديره لما يعتري النفوس من ضعف، وتطلع للدنيا، حيث بين لهم ﷺ أسباب تفضيل غيرهم عليهم في العطاء، كما بين لهم ما خصهم الله تعالى به من التوفيق للنصرة، ومن محبتهم لهم، وإيثاره لهم على من سواهم، فسكنت نفوسهم، ورضوا بما قسم الله لهم.

^{٣٦٨} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٤٠٠٧)

- ١١- مشروعية الخطبة عند الأمر الذي يحدث سواء كان خاصاً أم عاماً .
- ١٢- جواز تخصيص بعض المخاطبين في الخطبة .
- ١٣- تسليية من فاته شيء من الدنيا مما حصل له من ثواب الآخرة، وتقديم جانب الآخرة على الدنيا ، والصبر عما فات منها ليدخر ذلك لصاحبه في الآخرة، والآخرة خير وأبقى .
- ١٤- الحظ على طلب الهداية والألفة والغنى.
- ١٥- أن المنة لله ورسوله على الإطلاق؛ فهو الموفق للطاعة، وهو من يثيب عليها، وهو سبحانه المعطي المانع، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.
- ١٦- أن على كل مسلم أن يعرف قدر الأنصار ومثلتهم، وأن يبذل لهم المحبة، ويتراضى عنهم، ويتعرف على أخلاقهم وسيرهم، ويتأسى بهم، جمعنا الله تعالى بهم في جنات النعيم.^{٣٦٩}



^{٣٦٩} - انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٥٢ / ٨)

قصة الواهة نفسها للنبي ﷺ

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ لَأَهَبَ لَكَ نَفْسِي، فَانْظُرْ إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَتْ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فزَوِّجْنِيهَا، فَقَالَ: «هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟» فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَذْهَبَ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا؟» فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا وَجَدْتُ شَيْئًا، قَالَ: «انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ» فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي - قَالَ سَهْلٌ: مَا لَهُ رِذَاءٌ - فَلَمَّا نَصَفَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ، إِنْ لَبِستَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِستَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ شَيْءٌ» فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى طَالَ مَجْلِسُهُ ثُمَّ قَامَ فَرَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُوَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: «مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟» قَالَ: مَعِيَ سُورَةُ كَذَا، وَسُورَةُ كَذَا، وَسُورَةُ كَذَا - عَدَّهَا - قَالَ: «اتَّقِرُوهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَذْهَبَ فَقَدْ مَلَكَتْهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^{٣٧٠}

وعن سهل بن سعد، كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ جُلُوسًا، فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ، فَخَفَضَ فِيهَا النَّظَرَ وَرَفَعَهُ، فَلَمْ يُرِدْهَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: زَوِّجْنِيهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَعِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟» قَالَ: مَا عِنْدِي مِنْ شَيْءٍ، قَالَ: «وَلَا خَاتَمٌ مِنْ حَدِيدٍ؟» قَالَ: وَلَا خَاتَمٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ أَشَقُّ بُرْدَتِي هَذِهِ فَأَعْطِيهَا النَّصْفَ، وَأَخِذْ النَّصْفَ، قَالَ: «لَا، هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَذْهَبَ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^{٣٧١}

وعن سهل بن سعد، قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنِّي وَهَبْتُ مِنْ نَفْسِي، فَقَامَتْ طَوِيلًا، فَقَالَ رَجُلٌ: زَوِّجْنِيهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ، قَالَ: «هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصَدِّقُهَا؟» قَالَ: مَا عِنْدِي إِلَّا إِزَارِي، فَقَالَ: «إِنْ أُعْطِيَتْهَا إِيَّاهُ جَلَسَتْ لَا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمَسْ شَيْئًا» فَقَالَ: مَا أَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ: «الْتَمَسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ» فَلَمْ يَجِدْ، فَقَالَ: «أَمَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، سُورَةُ كَذَا، وَسُورَةُ كَذَا، لِسُورٍ سَمَّاهَا، فَقَالَ: «قَدْ زَوَّجْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^{٣٧٢}

^{٣٧٠} - صحيح البخاري (١٩٢/٦) (٥٠٣٠) وصحيح مسلم (١٠٤٠/٢) - (١٤٢٥)

[ش (فصعد) رفع. (صوبه) خفضه. (طأطأ رأسه) خفضه. (عن ظهر قلبك) من حفظك غيبًا. (ملكتها) زوجتها. (بما معك) بما تحفظ فتعلمها إياه]

^{٣٧١} - صحيح البخاري (١٧/٧) (٥١٣٢)

^{٣٧٢} - صحيح البخاري (١٧/٧) (٥١٣٥) [ش (تصدقها) تعطيها إياه مهرا]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا، فَقَالَ لَهَا: «اجْلِسِي» فَجَلَسَتْ سَاعَةً " فَقَالَ: «اجْلِسِي - بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ - أَمَا نَحْنُ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيكَ، وَلَكِنْ تُمَلِّكِينِي أَمْرَكَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجْهِ الْقَوْمِ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْهُمْ، فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَزُوجَكَ هَذِهِ إِنْ رَضِيتَ فَقَالَ: مَا رَضِيتَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْ رَضِيتُ، ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ: «هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟» فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، قَالَ «فَقُمْ إِلَى النِّسَاءِ» فَقَامَ إِلَيْهِنَّ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا فَقَالَ: «مَا تَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ؟» قَالَ: سُورَةُ الْبَقَرَةِ أَوِ الَّتِي تَلِيهَا، قَالَ: «فَقُمْ فَعَلِّمْنِي عِشْرِينَ آيَةً وَهِيَ امْرَأَتُكَ»^{٣٧٣}

مفردات الحديث:

- (فصعد) رفع .
- (صوبه) خفضه .
- (طأطأ رأسه) خفضه .
- (عن ظهر قلبك) من حفظك غيبا .
- (ملكتها) زوجتها .
- (بما معك) بما تحفظ فتعلمها إياه^{٣٧٤} .

المعنى العام :

(عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَيْ: السَّاعِدِيِّ الْأَنْصَارِيِّ وَكَانَ اسْمُهُ حَزَنًا فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْلًا، وَهُوَ آخِرُ مَنْ مَاتَ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ) («أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ») فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ احْتِرَازًا عَنْ حَجَاثَتِهَا («فَقَامَتْ طَوِيلًا») أَيْ: زَمَانًا كَثِيرًا وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ رِضَاهُ بِتَزْوِيجِهَا وَفِي الْحَدِيثِ إِيمَاءٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ {وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا} [الأحزاب: ٥٠] قَالَ صَاحِبُ الْمَدَارِكِ: أَيْ وَأَحْلَلْنَا لَكَ مَنْ وَقَعَ لَكَ أَنْ تَهَبَ لَكَ نَفْسَهَا وَلَا تَطْلُبَ مَهْرًا مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ إِنْ اتَّفَقَ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ نَكَرَهَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ بَيَانُ حُكْمٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْهَبَةِ، وَقِيلَ الْوَاهِبَةُ نَفْسَهَا مِثْمُونَةً بِنْتُ الْحَارِثِ أَوْ زَيْنَبُ بِنْتُ حُزَيْمَةَ، أَوْ أُمُّ شَرِيكِ بِنْتُ جَابِرٍ أَوْ حَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ {خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [الأحزاب: ٥٠] بَلْ يَجِبُ الْمَهْرُ لغيرِكَ وَإِنْ لَمْ يُسَمِّهِ أَوْ نَفَاهُ قَالَ التَّوَوُّيُّ هَذَا مِنْ خَوَاصِّ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا يَجِبُ مَهْرُهَا عَلَيْهِ وَلَوْ بَعْدَ الدُّخُولِ بِخِلَافِ غَيْرِهِ، وَفِي انْعِقَادِ نِكَاحِ النَّبِيِّ ﷺ بِلَفْظِ الْهَبَةِ وَجَهَانِ أَصْحَهُمَا: يَنْعَقِدُ بِلَفْظِ الْهَبَةِ لظَاهِرِ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ، الثَّانِي: لَا يَنْعَقِدُ إِلَّا بِلَفْظِ التَّزْوِيجِ أَوْ النِّكَاحِ كغيرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ فَإِنَّهُ مَا يَنْعَقِدُ إِلَّا بِأَحَدِ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ عِنْدَنَا بِلَا خِلَافٍ وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : يَنْعَقِدُ نِكَاحُ كُلِّ وَاحِدٍ بِكُلِّ لَفْظٍ يَقْتَضِي التَّمْلِيكَ عَلَى

^{٣٧٣} - السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٢١٧) (٥٤٨٠) وسنن أبي داود (٢/ ٢٣٦) (٢١١٢) ضعيف

^{٣٧٤} - صحيح البخاري (٦/ ١٩٣)

التأييد. ولمالك روايتان إحداهما مثل مذهبنَا والأخرى ينعقد بلفظ الهبة والصدقة والبَيْع إذا قصد به النكاح وفيه استحباب عرض المرأة نفسها على الصلحاء ليتزوجها، وأنه يستحب لمن طلب منه حاجة لا يمكنه قضاؤه أن يسكت سكوتاً يفهم السائل منه ذلك ولا يخجله بالمنع (فقام رجل وقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك فيها) أي: في نكاحها (حاجة) أي: رغبة (قال: هل عندك من شيء تُصدقها) من باب الإفعال أي تجعله صداقها (قال: ما عندي إلا إزارِي هذا) علم منه أنه لم يكن له رداء ولا إزار غير ما عليه (قال فالتمس) أي: فاطلب شيئاً آخر (ولو خائماً) بكسر التاء وفتحها (من حديد) قال النووي: فيه جواز نكاح المرأة من غير أن تسأل هل هي في عدة أم لا، وفيه استحباب تسمية الصداق في النكاح لأنه أقطع للنزاع وأنفع للمرأة، وفيه جواز قلة الصداق مما يتمول إذا تراضيا لأن خاتم الحديد في غاية القلة وهو مذهب الشافعي وجمهور العلماء، وقال مالك: أقله ربع دينار كنصاب السرقعة، وقال أبو حنيفة وأصحابه: أقله عشرة دراهم ومذهب الجمهور هو الصحيح لهذا الحديث الصحيح الصحيح، قال ابن الهمام: للشافعي وأحمد حديثاً عبد الرحمن بن عوف وجابر كما سيأتيان ولنا قوله ﷺ من حديث جابر «ألا لا يزوج النساء إلا الأولياء ولا يزوجن إلا من الأكفاء ولا مهر أقل من عشرة دراهم». رواه الدارقطني والبيهقي وله شاهد يعضده وهو عن علي - رضي الله عنه - قال: لا تُقطع اليد في أقل من عشرة دراهم ولا يكون المهر أقل من عشرة دراهم. رواه الدارقطني والبيهقي أيضاً فيحمل كل ما أفاد ظاهره كونه أقل من عشرة على أنه المعجل؛ وذلك لأن العادة عندهم كان تعجيل بعض المهر قبل الدخول حتى ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يدخل بها حتى يقدم شيئاً لها، نقل عن ابن عباس وابن عمر والزهرري وقادة تمسكاً بمنعه - ﷺ - علياً فيما رواه ابن عباس «أن علياً - رضي الله عنه - لما تزوج بنت رسول الله ﷺ أراد أن يدخل بها فمنعه رسول الله ﷺ حتى يعطيها شيئاً، فقال: يا رسول الله ليس لي شيء، فقال: أعطها درعك فأعطها درعه ثم دخل بها». لفظ أبي داود، رواه النسائي ومعلوم أن الصداق كان أربع مائة درهم وهي فضة لكن المختار الجواز قبله لما روت عائشة - رضي الله عنها - قالت: «أمرني رسول الله - ﷺ - أن أدخل امرأة على زوجها قبل أن يعطيها شيئاً». رواه أبو داود فيحمل المنع المذكور على التدب أي: تدب تقديم شيء إدخالاً للمسررة عليها تألفاً لقلبها، وإذا كان معهوداً وجب حمل ما خالف ما رويناه عليه جمعاً بين الأحاديث وكذا يحمل أمره - ﷺ - بالتماسه خائماً من حديد على أنه تقديم شيء تألفاً، ولما عجز قال قم فعلمها عشرين أية وهي امرأتك. رواه أبو داود. وهو محمل رواية الصحيح زوجتكها بما معك من القرآن فإنه لا ينافيه وبه تجتمع الروايات (فالتمس) أي: الرجل (فلم يجد شيئاً) أي: ولا خائماً من حديد، قال النووي: وفيه جواز اتخاذ خاتم الحديد وفيه خلاف للسلف، ولأصحابنا في كراهته وجهان: أحدهما لا يكرهه لأن الحديث في النهي عنه ضعيف وفيه استحباب تعجيل تسليم المهر إليها (قال رسول الله - ﷺ -

هَلْ مَعَكَ) أَي: عِنْدَكَ (مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ) أَي: مَحْفُوظٌ أَوْ مَعْلُومٌ (قَالَ: نَعَمْ سُورَةٌ كَذَا وَسُورَةٌ كَذَا) زَادَ مَالِكٌ لِسُورَةٍ سَمَّاها وَلِأَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا، زَادَ الدَّارَقُطْنِيُّ وَسُورَ الْمُفَصَّلِ وَلِأَبِي الشَّيْخِ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر: ١] قَالَ النَّوَوِيُّ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ كَوْنِ الصَّدَاقِ تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ وَجَوَازِ الاسْتِجَارِ لِتَعْلِيمِهِ وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ، وَمَنْعُهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الزُّبَيْرُ وَأَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي شَرْحِ السُّنَّةِ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّدَاقَ لَا تَقْدِيرَ لَهُ لَأَنَّهُ - ﷺ - قَالَ التَّمِيسُ، إلَخَ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ أَيِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ وَعَلَى أَنَّ الْمَالَ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ فِي الْكَفَاءَةِ فَإِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - لَمْ يَسْأَلْ هَلْ هُوَ كُفٌّ لَهَا أَمْ لَا وَقَدْ عَلِمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَا مَالَ لَهُ (فَقَالَ: قَدْ زَوَّجْتُكَ بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ) قَالَ الْأَشْرَفُ: الْبَاءُ لِلْسَّبَبِ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ وَلَيْسَتْ لِلْبَدَلِ وَالْمُقَابَلَةِ أَيِ زَوَّجْتُكَهَا بِسَبَبِ مَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ مَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ سَبَبُ الْاجْتِمَاعِ بَيْنَكُمَا كَمَا فِي تَزْوُجِ أَبِي طَلْحَةَ أُمِّ سُلَيْمٍ عَلَى إِسْلَامِهِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ صَارَ سَبَبًا لِلتَّصَالِهِ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْمَهْرُ دَيْنًا، قِيلَ وَلَعَلَّهَا وَهَبَتْ صَدَاقَهَا لِذَلِكَ الرَّجُلِ، قِيلَ: وَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ، قُلْتُ: أَمَّا هِبَتُهَا قَبْلَ الْعَقْدِ فَلَا تَصِحُّ اتِّفَاقًا وَأَمَّا بَعْدَهُ فَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ انْطَلَقَ فَقَدْ زَوَّجْتُكَ) أَي: بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ (فَعَلَّمَهَا مِنَ الْقُرْآنِ) مَا مَعَكَ وَهَذَا أَمْرٌ اسْتِحْبَابٌ وَلَا دَلَالَةٌ فِيهِ عَلَى أَنَّ التَّعْلِيمَ مَهْرٌ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْبَاءُ لِلتَّعْوِيزِ كَمَا يُقَالُ بَعْتُ هَذَا الثَّوبَ بَدِينًا وَلَوْ كَانَ مَعْنَاهُ مَا أَوْلُوهُ وَلَمْ يَرُدَّ بِهَا مَعْنَى الْمَهْرِ لَمْ يَكُنْ لِسُؤَالِهِ إِيَّاهُ هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ مَعْنَى، قُلْتُ: مَعْنَاهُ حَيْثُ تَعَدَّرَ الْبَدَلُ الْحَقِيقِيُّ أَجَارَ الْعَوْضَ السَّبَبِيَّ صُورَةً وَالْبَدَلُ الْحَقِيقِيُّ ذِمَّةً، قَالَ ابْنُ الْهَمَامِ: "وَالْحَاصِلُ أَنَّ مَا هُوَ مَالٌ أَوْ مَنَفْعَةٌ يُمْكِنُ تَسْلِيمُهَا شَرْعًا يَجُوزُ التَّزْوُجُ عَلَيْهَا، وَمَا لَا يَجُوزُ كَخِدْمَةِ الزَّوْجِ الْحُرِّ لِلْمُنَاقِضَةِ وَحُرِّ أَخَرَ فِي خِدْمَةِ تَسْتَدْعِي خَلْوَةَ لِلْفِتْنَةِ وَتَعْلِيمُ الْقُرْآنِ لِعَدَمِ اسْتِحْقَاقِ الْأُجْرَةِ عَلَى ذَلِكَ كَالْأَذَانِ وَالْإِمَامَةِ وَالْحَجِّ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ يَجُوزُ أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى هَذِهِ فَصَحَّ تَسْمِيَتُهَا وَاخْتَلَفَتِ الرِّوَايَةُ فِي رَعْيِ غَنَمِهَا وَزِرَاعَةِ أَرْضِهَا لِلتَّرَدُّدِ فِي تَمَحُّضِهَا خِدْمَةً وَعَدَمِهِ وَكَوْنِ الْأَوْجِهَةِ الصَّحَّةِ لِقِصِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ قِصَّةَ شُعَيْبٍ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ نَفِيهِ فِي شَرْعِنَا إِنَّمَا يَلْزَمُ أَنْ لَوْ كَانَتْ الْغَنَمُ مِلْكًا الْبِنْتُ دُونَ شُعَيْبٍ وَهُوَ مُتَنَفٍّ ٣٧٥.

ومعنى الحديث: أن سهل بن سعد يحدثنا "أن امرأة جاءت إلى النبي - ﷺ - فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي" أي لأعرض عليك نفسي بدون مهر "فنظر إليها رسول الله - ﷺ - فصعد النظر إليها وصوبه" أي فرفع إليها بصره، وشخص فيها بعينه، وتفحصها جيدًا، ثم خفض بصره عنها، "ثم طأطأ رأسه" أي أرخى رأسه ولم يرد عليها بشيء لم تعجبه، "فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً" أي فلما لم يجاوبها بشيء "جلست" تنتظر ما يقول لها، أو ما يتصرف في شأنها "

فقام رجل من أصحابه فقال: أي رسول الله إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها " أي إذا لم تكن لك فيها رغبة فلا في أرغب في زواجها " فقال: وهل عندك شيء " أي هل يوجد لديك ما تقدمه صداقاً لها كما في رواية " الموطأ " حيث جاء فيها: " هل عندك شيء تصدقه إياها " " قال: لا والله يا رسول الله " أي لا يوجد لدي شيء من المال أقدمه صداقاً " قال: اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً " أي لعلهم يعينونك فيعطونك شيئاً من المال تقدمه صداقاً " فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله مما وجدت شيئاً " أي لم يعطوني شيئاً من المال أستعين به على صداقها " قال: انظر ولو خاتماً من حديد " وفي رواية " فالتمس ولو خاتماً من حديد " " فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد " أي لم أجد شيئاً ولا خاتماً من حديد " ولكن هذا إزار يفلها نصفه " صداقاً لها وفي رواية ليس عندي إلا إزار ي هذا " فقال رسول الله - ﷺ -: ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء وإن لبسته لم يكن عليك شيء " أي فلا يجوز لك أن تسلم إزارك لها لما يؤدي إليه ذلك من كشف العورة وهو محرم شرعاً " فرآه رسول الله - ﷺ - - مولياً " أي فرآه - ﷺ - - منصرفاً من المجلس بعد أن يئس من المرأة " فأمر به فدعي، فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن، قال: معي سورة كذا وسورة كذا " وفي رواية أبي هريرة قال: " ما تحفظ من القرآن " قال سورة البقرة أو التي تليها. أخرجه أبو داود والنسائي " فقال: اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن " أي زوجتك إياها بتعليمك لها بعض ما تحفظه من القرآن، لما جاء في رواية أبي هريرة فَقَالَ لَهُ: «مَا تَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ؟» قَالَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ أَوِ الَّتِي تَلِيهَا، قَالَ: فَقُمُ فَعَلَّمَهَا عِشْرِينَ آيَةً، وَهِيَ امْرَأَتُكَ. أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي.^{٣٧٦}

من فوائد الحديث:

- ١ - جواز هبة المرأة نكاحها للنبي ﷺ، كما قال الله: { وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } [الأحزاب: ٥٠].
كَمَا أَحَلَّ اللَّهُ لِرَسُولِهِ التَّمَتُّعَ بِالْمَرْأَةِ الْمُؤْمِنَةِ الَّتِي تَهَبُ نَفْسَهَا لَهُ ، فَلَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِلاَ مَهْرٍ إِنْ أَرَادَ ذَلِكَ (وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِبَاحَةُ خَاصَّةٍ بِالرَّسُولِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَوْ وَهَبَتْ امْرَأَةٌ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ لَوَجِبَ عَلَيْهِ مَهْرٌ مِثْلُهَا) . وَلَكِنَّ الرُّسُولَ لَمْ يَتَزَوَّجْ وَاحِدَةً مِمَّنْ وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لَهُ^{٣٧٧}
- ٢ - يجوز للرجل النظر لمن يريد أن يتزوج بها، ولو بلا إذنها، قال في تكملة المنهل العذب: ولا نعلم في ذلك خلافاً. والحكمة فيه أنه أدعى لحسن العشرة، وبقاء الزوجية، عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، أَنَّهُ حَطَبَ امْرَأَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أُخْرَى أَنْ يُؤَدَمَ بَيْنَكُمَا»^{٣٧٨}. قال النووي^{٣٧٩}: فيه استحباب

^{٣٧٦} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١٠٨ / ٥)

^{٣٧٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٦٤، بترقيم الشاملة آليا)

^{٣٧٨} - سنن الترمذي ت شاكر (٣ / ٣٨٩) (١٠٨٧) صحيح

النظر إلى من يريد تزوجها، وهو مذهبنا، ومذهب مالك، وأبي حنيفة وسائر الكوفيين وأحمد وجماهير العلماء، وحكى القاضي عن قوم كراهته، وهذا مخالف لصريح هذا الحديث، ومخالف لإجماع الأمة على جواز النظر للحاجة عند البيع والشراء والشهادة، ثم إنه إنما يباح النظر إلى وجهها وكفيها فقط، لأنهما ليسا بعورة، ولأنه يستدل بالوجه على الجمال، وبالكفين على خصوبة البدن، أو عدمها هذا مذهبنا ومذهب الأكثرين وقال داود: ينظر إلى جميع بدنها، وهذا خطأ ظاهر، منابذ لأصول السنة والإجماع، ثم مذهبنا -أي الشافعية- ومذهب مالك وأحمد والجمهور أنه لا يشترط في جواز النظر رضاها، بل له ذلك في غفلتها، لكن قال مالك: أكره نظره في غفلتها مخافة من وقوع نظره على عورة.

- ٣- استحباب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح ليتزوجها.
- ٤- أنه يستحب لمن طلبت منه حاجه لا يمكنه قضاؤها أن يسكت سكوتاً يفهم السائل منه ذلك ولا يخجله بالمنع، إلا إذا لم يحصل الفهم إلا بصريح المنع فيصرح.
- ٥- وفيه أن النكاح لا بد فيه من الصداق لقوله هل عندك من شيء تصدقها وقد أجمعوا على أنه لا يجوز لأحد أن يطأ فرجا وهب له دون الرقبة بغير صداق.
- فقد دل الحديث على أنه لا بد في النكاح من الصداق لقوله: «هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟» وعلى أنه يكفي في المهر أقل ما يتمول ، ولهذا قال الشافعي وأحمد: لا حد لأقل المهر، وكل ما جاز أن يكون ثمنًا جاز أن يكون مهرًا، وقال أبو حنيفة ومالك: يقدر بما تقطع فيه يد السارق مع اختلافهما في قدره، فهو عند أبي حنيفة عشرة دراهم أو دينار، وعند مالك ربع دينار، واختلفوا هل يفسد النكاح بفساد الصداق أم لا؟ فقال أبو حنيفة والشافعي: لا يفسد النكاح بفساد المهر وعن مالك وأحمد روايتان.
- ٦- أن الأولى أن يذكر الصداق في العقد لأنه أقطع للتزاع وأنفع للمرأة، فلو عقد بغير ذكر صداق صح ووجب لها مهر المثل بالدخول على الصحيح، ووجه كونه انفع لها أنه يثبت لها نصف الصداق المسمى لو طلقت قبل الدخول.
- ٧- أنه يجوز أن يكون الصداق قليلا وكثيرا مما ينتفع به، إذا تراضى به الزوجان_لأن خاتم الحديد في نهاية من القلة _ وهو مذهب جماهير العلماء من السلف والخلف.
- ٨- جواز اتخاذ خاتم الحديد، قال النووي - رحمه الله- وفيه خلاف للسلف حكاه القاضي ولأصحابنا في كراهته وجهان أحدهما لا يكره لأن الحديث في النهي عنه ضعيف.
- ٩- استحباب تعجيل تسليم المهر إلى المرأة.

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَقَالُوا: لَا بَأْسَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا مَا لَمْ يَرِ مِنْهَا مُحَرَّمًا، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «أُخْرَى أَنْ يُؤَدَّمَ بَيْنَكُمَا»، قَالَ: أُخْرَى أَنْ تَدُومَ الْمَوَدَّةُ بَيْنَكُمَا

٣٧٩ - شرح النووي على مسلم (٩/ ٢١٠)

١٠- جواز الحلف من غير استحلاف ولا ضرورة، لقول الصحابي: (لا والله يا رسول الله ولا خاتم من حديد)، وقال بعض أهل العلم: يكره من غير حاجة، وهذا كان محتاجاً ليؤكد قوله.

١١- أن الفقير يجوز له نكاح من علمت بحاله، ورضيت به.

١٢- نظر الإمام في مصالح رعيته وارشاده إلى ما يصلحهم، وإلى ما فيه الرفق بهم، فالصحابي - رضي الله عنه - لما عرض إزاره مهراً للمرأة، قال له رسول الله ﷺ «مَا تَصْنَعُ يَا زَارِكُ، إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ شَيْءٌ»^{٣٨٠}

١٣- وفيه جواز لبس الرجل ثوب امرأته اذا رضيت أو غلب على ظنه رضاها، والمراد ما كان صالحاً للبس من الزوجين.

١٤- جواز كون الصداق تعليم القرآن، ففي بعض روايات الحديث أن النبي ﷺ قال للصحابي: «انْطَلِقْ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا فَعَلَّمَهَا مِنَ الْقُرْآنِ»^{٣٨١}

فقد دلَّ الحديث على جواز جعل تعليم القرآن صداقاً، وهو مذهب الشافعي، ورواية عن أحمد ، واستدلوا بقوله - ﷺ - : " فقد ملكتكها بما معك من القرآن. وقال أبو حنيفة ومالك والليث وأحمد في رواية: لا يجوز، بل لا بد أن يكون الصداق مالاً لقوله تعالى: (أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ) وقوله: (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) والطول المال^{٣٨٢}.

اختلف الفقهاء في جواز جعل تحفيظ القرآن الكريم صداقاً للمرأة : فذهب الحنفية والمالكية في المشهور عندهم وأحمد في رواية عنه إلى عدم جواز جعل تحفيظ القرآن الكريم صداقاً للمرأة ، لأنَّ الفروج لا تُستباح إلا بالأموال لقوله تعالى : { وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ } [النساء: ٢٤] ولأنَّ تحفيظ القرآن الكريم لا يجوز أن يقع إلا قرينة لفاعله .

وذهب الشافعية وهو خلاف المشهور عند بعض المالكية وأحمد في رواية عنه إلى جواز جعل تحفيظ القرآن الكريم صداقاً للمرأة " لأنَّ رسول الله ﷺ زَوَّجَ رجلاً امرأةً بما معه من القرآن بقوله ﷺ : أَمَلَكْنَا كَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ .

ثم إنَّ الداهيين إلى جواز ذلك اتفقوا على أنَّه لا بُدَّ مِنْ تَعْيِينِ مَا يُحْفَظُهَا إِيَّاهُ مِنَ السُّورِ وَالْآيَاتِ ، لأنَّ السُّورَ وَالْآيَاتِ تَخْتَلِفُ ، كَمَا اتَّفَقُوا عَلَى وَجُوبِ تَحْفِيزِهَا لِلْقَدْرِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ مِنَ السُّورِ وَالْآيَاتِ ، وَلَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا هَلْ يُشْتَرَطُ تَعْيِينُ الْقِرَاءَةِ الَّتِي يُعَلِّمُهَا وَفَقَّاهَا أَمْ لَا ؟

^{٣٨٠} - صحيح البخاري (١٩٢/٦) (٥٠٣٠)

^{٣٨١} - صحيح مسلم (١٠٤١/٢) ٧٧ - (١٤٢٥)

^{٣٨٢} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١٠٩/٥)

فَذَهَبَ جُمُهورُ الشَّافِعِيَّةِ وَهُوَ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ إِلَى عَدَمِ اشْتِرَاطِ ذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ قِرَاءَةٍ تُثَوِّبُ مَنَابَ الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى ، " وَلَأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُعَيِّنْ لِلْمَرْأَةِ قِرَاءَةً مُعَيَّنَةً " وَقَدْ كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِي الْقِرَاءَةِ أَشَدَّ مِنْ اخْتِلَافِ الْقُرَّاءِ الْيَوْمَ . فَيَعْلَمُهَا مَا شَاءَ مِنَ الْقِرَاءَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ .

وَيَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّهُ يَجِبُ تَعْيِينُ قِرَاءَةٍ بَعِيْنَهَا لِأَنَّ الْأَغْرَاضَ تَخْتَلِفُ ، وَالْقِرَاءَاتِ كَذَلِكَ تَخْتَلِفُ ، فَمِنْهَا صَعْبٌ وَمِنْهَا سَهْلٌ ، وَثِقِلَ عَنِ الْبَصَرَيْنِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ يُعْلَمُهَا مَا غَلَبَ عَلَى قِرَاءَةِ أَهْلِ الْبَلَدِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَغْلَبُ عِلْمُهَا مَا شَاءَ مِنَ الْقِرَاءَاتِ ، وَهَذَا إِذَا لَمْ يَتَّفِقُوا عَلَى قِرَاءَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، أَمَّا إِذَا اتَّفَقُوا عَلَى قِرَاءَةٍ مُعَيَّنَةٍ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُحَفِّظَهَا هَذِهِ الْقِرَاءَةَ ، فَإِنْ خَالَفَ وَعَلَّمَهَا قِرَاءَةً أُخْرَى غَيْرَهَا فَمُتَطَوِّعٌ وَيَلْزَمُهُ تَعْلِيمُهَا الْقِرَاءَةَ الْمُتَّفَقَ عَلَيْهَا عَمَلًا بِالْشَّرْطِ .^{٣٨٣}

١٥- أن الإمام يزوج من ليس لها ولي خاص لمن يراه كفؤا لها، ولكن لا بد من رضاها بذلك فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهَا، فَكَأَحُهَا بَاطِلٌ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «فَإِنْ دَخَلَ بِهَا فَالْمَهْرُ لَهَا بِمَا أَصَابَ مِنْهَا، فَإِنْ تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»^{٣٨٤}.

١٦- جواز الخطبة على الخطبة ما لم يتراكنا لاسيما مع ما رأى من زهد النبي ﷺ فيها.

١٧- في قول الصحابي - رضي الله عنه - إن لم يكن لك بها حاجة ؟ فيه دلالة على وفور فطنته، وحسن أدبه.

١٨- أن طالب الحاجة لا ينبغي له أن يلح في طلبها بل يطلبها برفق وتأن، ويدخل في ذلك طالب الدنيا والدين من مستفت، وسائل، وباحث عن علم.

١٩- ما كان عليه الصحابة - رضي الله عنهم - من شدة العيش، والضيق في ذات اليد، ومع ذلك كانوا أعف الناس، وأكرمهم خلقاً، وأهنأهم عيشاً.^{٣٨٥}



^{٣٨٣} - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٧ / ٣٢٤)

^{٣٨٤} - سنن أبي داود (٢ / ٢٢٩) (٢٠٨٣) ومسنند أحمد (عالم الكتب) (٨ / ٣١٠) (٢٥٣٢٦) (٢٥٨٤٠) صحيح

^{٣٨٥} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٩ / ٢٠٩)

قصة أم سليم مع أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنهما

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: مَاتَ ابْنُ لَأْبِي طَلْحَةَ، مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لِأَهْلِهَا: لَا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَحَدُهُ قَالَ: فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً، فَأَكَلَ وَشَرِبَ، فَقَالَ: ثُمَّ تَصْنَعْتَ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ تَصْنَعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارَوْا عَارِيَّتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَّتَهُمْ، أَلَيْسَ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ، قَالَ: فَغَضِبَ، وَقَالَ: تَرَكْتَنِي حَتَّى تَلَطَّخْتُ، ثُمَّ أَخْبَرْتَنِي بِابْنِي فَاَنْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ فِي غَايِرِ لَيْلِنِكُمَا» قَالَ: فَحَمَلْتُ، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَهِيَ مَعَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا أَتَى الْمَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ، لَا يَطْرُقُهَا طُرُوقًا، فَدَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ فَاحْتَبَسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: يَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ، يَا رَبِّ إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذَا خَرَجَ، وَأَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ، وَقَدْ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرَى، قَالَ: تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ، انْطَلِقْ، فَاَنْطَلَقْنَا، قَالَ وَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ حِينَ قَدَمَا، فَوَلَدْتُ غُلَامًا فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ لَا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَعْدُو بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ، فَاَنْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مَيْسَمٌ، فَلَمَّا رَأَنِي قَالَ: «لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَوَضَعَ الْمَيْسَمَ، قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجَرِهِ، وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ، فَلَاكَهَا فِي فِيهِ حَتَّى ذَابَتْ، ثُمَّ قَذَفَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ، فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الْأَنْصَارِ التَّمَرِ» قَالَ: فَمَسَحَ وَجْهَهُ وَسَمَاءَهُ عَبْدُ اللَّهِ". ٣٨٦

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ ابْنُ لَأْبِي طَلْحَةَ يَشْتَكِي، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ، فَقَبِضَ الصَّبِيَّ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ، قَالَ: مَا فَعَلَ ابْنِي، قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: هُوَ أَسْكَنُ مَا كَانَ، فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ الْعَشَاءَ فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَتْ: وَارُوا الصَّبِيَّ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا» فَوَلَدْتُ غُلَامًا، قَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: احْفَظْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَرْسَلَتْ مَعَهُ بَتَمَرَاتٍ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ

٣٨٦ - صحيح مسلم (٤/ ١٠٧) (١٩٠٩) - (٢١٤٤)

[ش (لا يطرُقها طرُوقًا) أي لا يدخلها في الليل (فضرها المخاض) هو الطلق ووجع الولادة (ما أحد الذي كنت أجد) تريد أن الطلق انجلي عنها وتأخرت الولادة (ميسم) هي الآلة التي يكوى بها الحيوان من الوسم وهو العلامة ومنه قوله تعالى سنسمه على الخرطوم أي سنجعل على أنفه سوادا يعرف به يوم القيامة والخرطوم من الإنسان الأنف (يتلمظها) أي يتتبع بلسانه بقيتها ويمسح به شفثيه]

فَقَالَ: «أَمَعَهُ شَيْءٌ؟» قَالُوا: نَعَمْ، تَمَرَاتٌ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَمَضَعَهَا، ثُمَّ أَخَذَ مِنْ فِيهِ، فَجَعَلَهَا فِي فِي الصَّبِيِّ وَحَنَكَهُ بِهِ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ^{٣٨٧}

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: ذَهَبَتْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ وُلِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عِبَادَةٍ يَهْنَأُ بَعِيرًا لَهُ، فَقَالَ: «هَلْ مَعَكَ تَمْرٌ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَنَاولْتُهُ تَمَرَاتٍ، فَأَلْقَاهُنَّ فِي فِيهِ فَلَاكِهِنَّ، ثُمَّ فَعَرَ فَا الصَّبِيَّ فَمَجَّهَ فِي فِيهِ، فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حُبُّ الْأَنْصَارِ التَّمَرُ» وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ^{٣٨٨}

شرح المفردات:

أَعْرَسْتُمْ: الإعراس هاهنا، أراد به: الجماع.

الميسم: الحديدَةُ التي تَسِمُ بها الدوابُّ، تَتْرُكُهَا فِي النَّارِ حَتَّى تَحْمَى ثُمَّ تُسَمُّ بِهَا.

الحائط: هاهنا: البستان من نخل.

خَمِيصَةٌ جَوْنِيَّةٌ: الخميصة: ثوبٌ خَزٌّ، أو صوفٌ مُعَلَمٌ، وهو أسود، والجَوْنُ: الأسود، نسبها إلى السواد، هكذا جاء في كتاب الحميدي «خميصة جونية» والذي رأيته في كتاب مسلم «خميصة جَوْنِيَّةٌ» وفي نسخة «جَوْنَكِيَّةٌ» وما أعرف له معنى، إلا أن يكون قد نسبها إلى القَصْرِ، فإن الجَوْنَكِيَّ: الرجلُ القصيرُ الخَطْوِ، المتقارب في المشي، أراد: أنها خميصةٌ قصيرةٌ، كأنها لرجل جَوْنَكِيٍّ، والله أعلم.

فَاحْتَسِبْ ابْنَكَ: إذا مات للإنسان ولد، قيل له: احْتَسِبْهُ عند الله، أي: اجعله لك عنده ذخراً. لا يَطْرُقُهَا: الطُّرُوقُ: إتيان المَترِلِ ليلاً.

المخاض: الطَّلُقُ عند الإحساس بالولادة.

بِعَجْوَةٍ: العجوة: نوع من جَيِّدِ التمر، من تمر المدينة.

يَتَلَمَّظُهَا: التلمظ: تطعم ما يبقى في الفم من آثار الطعام.

يَهْنَأُ: هنأتُ البعير: لطخته بالهنا، وهو القَطْرَان.

بعيراً: البعير من الإبل: الذكر والأنثى، كالإنسان من بني آدم.

فَلَكَهَا: لأك اللقمة في فيه: إذا مضغها.

فَعَرَ: فاه: إذا فتحه.

فَمَجَّهَ: مَجَّ ريقه من فمه: إذا رماه.^{٣٨٩}

^{٣٨٧} - صحيح البخاري (٨٤/٧) (٥٤٧٠) ومسلم (٣/١٦٨٩) - (٢١٤٤)

[ش(أصاب منها) جامعها. (وار الصبي) ادفنه. (أعرستم) من الإعراس وهو وطء الرجل زوجته]

^{٣٨٨} - صحيح مسلم (٣/١٦٨٩) - (٢١٤٤)

^{٣٨٩} - جامع الأصول (١/٣٦٩)

[ش (تحنيك) اتفق العلماء على استحباب تحنيك المولود عند ولا دته بتمر فإن تعذر فما في معناه أو قريب منه من الحلو فيمضغ الحنك التمرة حتى تصير مائعة بحيث تبتلع ثم يفتح فم المولود ويضعها فيه ليدخل شيء منها جوفه ويستحب أن يكون الحنك من الصالحين وممن يترك به رجلاً كان أو امرأة فإن لم يكن حاضراً عند المولود حمل إليه (يهناً) أي يطليه بالقطران وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنؤه (فلا كهن) قال أهل اللغة اللوك مختص بمضغ الشيء الصلب (فغر فاه) أي فتحه (فمجه) أي طرحه (يتلمظه) أي يحرك لسانه ليتتبع ما فيه من آثار التمر والتلمظ واللمظ فعل ذلك باللسان يقصد به فاعله تنقية الفم من بقايا الطعام وكذلك ما على الشفتين وأكثر ما يفعل ذلك في شيء يستطيه ويقال تلمظ يتلمظ تلمظاً ولمظ يلمظ لمظاً ويقال لذلك الشيء الباقي لماظه (حب الأنصار التمر) روي بضم الحاء وكسرهما فالكسر بمعنى المحبوب كالدبح بمعنى المذبوح وعلى هذا فالباء مرفوعة أي محبوب الأنصار التمر أما من ضم الحاء فهو مصدر وفي الباء على هذا وجهان النصب وهو الأشهر والرفع فمن نصب فتقديره انظروا حب الأنصار التمر فينصب التمر أيضاً ومن رفع قال هو مبتدأ حذف خبره أي حب الأنصار التمر لازم أو هكذا أو عادة من صغره^{٣٩٠}]

من فوائد الحديث:

- ١- إباحة الكي في الحيوان، قال العلماء: والمستحب أن يسم الغنم في آذانها، والإبل والبقر في أصول أفضخاذها، وقد جاء هذا في رواية لأحمد وابن ماجه.
- ٢- قال العلماء: وسم الآدمي حرام، وغير الآدمي في الوجه منهي عنه.
- ٣- فائدة الوسم تمييز الحيوان بعضه من بعض، وليرده من أخذه ومن التقطه، وليعرفها صاحبها فلا يشتريها إذا تصدق بها مثلاً لئلا يعود في صدقته.
- ٤- فيه جواز إيلاام الحيوان للحاجة.
- ٥- اعتناء الإمام بأموال الصدقة وتوليها بنفسه.
- ٦- تواضع النبي ﷺ ووسمه بيده.
- ٧- استحباب تحنيك المولود وأن يكون بالتمر، وقد كانوا يبعثون بمواليدهم للنبي ﷺ لتحنيكهم لأجل البركة كما في الحديث، وفي عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: «وُلِدَ لِي غُلامٌ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ، فَحَنَكُهُ بِتَمْرَةٍ، وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ، وَدَفَعَهُ إِلَيَّ»، وَكَانَ أَكْبَرَ وَلَدِ أَبِي مُوسَى^{٣٩١}
- ٨- عناية الإسلام والأطفال، وتكريمه لهم منذ خروجهم إلى الدنيا.
- ٩- استحباب تسمية المولود في يومه الأول، وحسن اختيار اسمه.

^{٣٩٠} - صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٩) ٢٢ - (٢١٤٤)

^{٣٩١} - صحيح البخاري (٧/ ٨٤) (٥٤٦٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٩٠) ٢٤ - (٢١٤٥)

[ش (فحنكه) من التحنيك وهو أن يمضغ شيء حلو ويوضع في فم الصبي ويدار في حنكه]

- ١٠ - مشروعية التبرك بالنبي ﷺ في حياته؛ بريقه وما لا مس جسده وليس ذلك لأحد بعد النبي عليه الصلاة والسلام، حيث لم يفعله الناس مع كبار الصحابة رضي الله عنهم.
- ١١ - في ضرب أم سليم المثل للولد بالعارية دليل على كمال علمها وفضلها وعظم إيمانها وطمانينتها، ورضاها بالقضاء القدر رضي الله تعالى عنها وأرضاها.
- ١٢ - استجابة دعاء النبي ﷺ ، حيث حملت بعد الله بن أبي طلحة في تلك الليلة، وجاء من ولده عشرة رجال علماء أحيار.^{٣٩٢}



^{٣٩٢} - شرح النووي على مسلم (١٧٧/٩) وشرح النووي على مسلم (٩٩/١٤)

قصة اليهودية التي أهدت للنبي ﷺ شاة مسمومة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا فَتَحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ» فَجَمَعُوا لَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلَانٌ، فَقَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذَبْنَا كَمَا عَرَفْتُهُ فِي آيِنَا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخَلَّفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْسُتُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟»، قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ^{٣٩٣}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً دَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَصْحَابًا لَهُ عَلَى شَاةٍ مَصْلِيَّةٍ، فَلَمَّا قَعَدُوا يَأْكُلُونَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لُقْمَةً فَوَضَعَهَا ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: "أَمْسِكُوا، إِنَّ هَذِهِ الشَّاةُ مَسْمُومَةٌ"، فَقَالَ لِلْيَهُودِيَّةِ: "وَيْلَكَ لَأَيِّ شَيْءٍ سَمَمْتَنِي؟" قَالَتْ: أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ أَنْ أُرِيحَ النَّاسَ مِنْكَ فَأَكُلَ مِنْهَا بِشَرُّ بَنِ الْبَرَاءِ فَمَاتَ، فَقَتَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَعْنِي الَّتِي سَمَمَتْهُ^{٣٩٤}

وَعَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَبِيَّةٍ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرِ أُتِيَ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ مَصْلِيَّةٍ أَهْدَتْهَا لَهُ امْرَأَةٌ يَهُودِيَّةٌ، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ وَبَشَرُ بْنُ الْبَرَاءِ فَمَرَضَا مَرَضًا شَدِيدًا عَنْهَا، ثُمَّ إِنَّ بَشْرًا ثَوَّفِي، فَلَمَّا ثَوَّفِي بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ فَاتِي بِهَا فَقَالَ: "وَيْحَكَ مَاذَا أَطْعَمْتِنَا؟" قَالَتْ: أَطْعَمْتُكَ السُّمَّ، عَرَفْتُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّكَ، وَإِنَّ اللَّهَ سَيَبْلُغُ فِيكَ أَمْرَهُ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَاحْبَبْتُ أَنْ أُرِيحَ النَّاسَ مِنْكَ فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصُلِبَتْ

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: الثَّبْتُ عِنْدَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَتَلَهَا وَأَمَرَ بِلَحْمِ الشَّاةِ فَأُحْرِقَ^{٣٩٥}

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَهْدَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ شَاةً مَصْلِيَّةً بِخَيْبَرِ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» فَقَالَتْ: هَدِيَّةٌ وَحَدَرْتُ أَنْ تَقُولَ: مِنَ الصَّدَقَةِ فَلَا يَأْكُلُ، قَالَ: فَأَكَلَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَكَلَ

^{٣٩٣} - صحيح البخاري (٩٩/٤) (٣١٦٩)

[ش (أهديت) المهدي امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث أخت مرحب اليهودي الذي قتل يوم خيبر وقيل قتل أيضا أبوها الحارث وعمها بشار وأخوها زبير وزوجها سلام بن مشكم. (احسبوا) ابعثوا وانظروا]

^{٣٩٤} - السنن الكبرى للبيهقي (٨٣/٨) (١٦٠١٠) صحيح

^{٣٩٥} - السنن الكبرى للبيهقي (٨٤/٨) (١٦٠١٢ و ١٦٠١٣) ضعيف

قَالَ الشَّيْخُ: اخْتَلَفَتِ الرُّوَايَاتُ فِي قَتْلِهَا، وَرَوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَصَحُّهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِنْدَاءِ لَمْ يُعَاقِبْهَا حِينَ لَمْ يَمُتْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِمَّا أَكَلَ، فَلَمَّا مَاتَ بِشَرُّ بْنُ الْبَرَاءِ أَمَرَ بِقَتْلِهَا، فَأَدَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الرُّوَاةِ مَا شَاهَدَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ

أَصْحَابُهُ ثُمَّ، قَالَ: «أَمْسِكُوا» ثُمَّ قَالَ لِلْمَرْأَةِ: «هَلْ سَمِمْتَ هَذِهِ الشَّاةُ؟» قَالَتْ: مَنْ أَخْبَرَكَ هَذَا؟ قَالَ: «هَذَا الْعَظْمُ لِسَاقِهَا» وَهُوَ فِي يَدِهِ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: «لِمَ؟» قَالَتْ: أَرَدْتُ إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا أَنْ يَسْتَرِيحَ مِنْكَ النَّاسُ، وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ، قَالَ: فَاحْتَجِمِ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْكَاهِلِ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَاحْتَجَمُوا فَمَاتَ بَعْضُهُمْ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَاسْلَمْتُ، فَتَرَكَهَا النَّبِيُّ ﷺ. قَالَ مَعْمَرٌ: وَأَمَّا النَّاسُ فَيَقُولُونَ قَتَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ. ٣٩٦

شرح المفردات:

(اخسئوا فيها) اخسأ: كلمة زجر معناها ابق ذليلاً، هو زجر لهم بالطرد والإبعاد، أو دعاء عليهم بذلك.

(تخلفوننا) تأتون بعدنا وتمكنون. ٣٩٧

المعنى العام :

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «لَمَّا فُتِحَتْ حَبِيرُ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ») : بَفَتْحِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا وَتُكْسَرُ (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : اجْمَعُوا لِي) ، أَي: لِأَجْلِي، وَفِي نُسخَةٍ إِلَيَّ أَي: مُتَّهِينَ إِلَيَّ، أَوْ اجْعَلُوا مُجْتَمِعِينَ عِنْدِي (مَنْ كَانَ هَاهُنَا) ، أَي: فِي هَذَا الْمَكَانِ (مِنَ الْيَهُودِ) فَجَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : (إِنِّي سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ) ، أَي: أَوَّلًا (فَهَلْ أَنْتُمْ مُصَدِّقِي) ، بِتَشْدِيدِ الدَّالِّ وَالْيَاءِ أَي: مُصَدِّقُونِي فِي الْإِخْبَارِ (عَنْهُ) ، أَي: ثَانِيًا. قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ فِي أَصْلِ الْمَالِكِيِّ: صَادِقُونِي بِالْتَّحْقِيقِ. قَالَ: كَذَا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعٍ فِي أَكْثَرِ النُّسخِ، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ دُخُولُ نُونِ الْوَقَايَةِ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُعْرَبَةِ الْمُضَافَةِ إِلَى بَاءِ الْمُتَكَلِّمِ لِتَقْيِهَا عَنْ خَفَاءِ الْإِعْرَابِ، فَلَمَّا مَنَعُوهَا ذَلِكَ صَارَ الْأَصْلُ مَتْرُوكًا فَنَبَّهُوا عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ الْمُعْرَبَةِ الْمُشَابِهَةِ لِلْفِعْلِ، (قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : مَنْ أَبُوكُمْ) ؟ أَي: جَدُّكُمْ (قَالُوا: فُلَانٌ) ، أَي: بِطَرِيقِ الْكُذْبِ عَلَى وَجْهِ الْامْتِحَانِ (قَالَ: كَذَبْتُمْ بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ. قَالُوا: صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ) : بِكُسْرِ الرَّاءِ أَي: أَحْسَنْتَ (قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ مُصَدِّقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ) أَي: ثُمَّ أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ (قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ: وَإِنْ كَذَبْنَاكَ) ، أَي: فِي قَوْلِنَا هَذَا (عَرَفْتَ كَمَا عَرَفْتُهُ فِي أَبِيْنَا. فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا) ، أَي: زَمَانًا قَلِيلًا، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً} [البقرة: ٨٠] (ثُمَّ تَخْلُفُونَا) : بِضَمِّ اللَّامِ وَتَشْدِيدِ الثَّوْنِ وَتُخَفَّفُ أَي: تَعْقُبُونَنَا (فِيهَا) . وَهَذَا عَلَى زَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ، وَاعْتَقَادِهِمُ الْكَاسِدَ أَنَّهُ قَوْلُ صِدْقٍ وَخَبَرٌ حَقٌّ. (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : اخْسِئُوا فِيهَا) : إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون} [المؤمنون: ١٠٨] وَهُوَ الْأَصْلُ زَجْرُ الْكَلْبِ، فَالْمَعْنَى اسْكُتُوا فِي سُكُوتِ هَوَانٍ، فَإِنَّكُمْ كَاذِبُونَ فِي أَخْبَارِكُمْ (وَاللَّهُ لَا

٣٩٦ - دلائل النبوة للبيهقي مخرجا (٢٦٠ / ٤) صحيح مرسل

٣٩٧ - جامع الأصول (٣٢٧ / ١١) وفتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٢٤٦ / ١٠)

نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا). ثُمَّ قَالَ: (هَلْ أَنْتُمْ مُصَدِّقِي فِي شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ قَالَ: هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، أَيْ: فِي دَعْوَى رِسَالَتِكَ (أَنْ نَسْتَرِيحَ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا لَمْ يَضُرَّكَ). بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ، وَيَجُوزُ ضَمُّهَا، وَلَوْ رُوِيَ بِكَسْرِ الضَّادِ وَسُكُونِ الرَّاءِ الْمُخَفَّفَةِ لَجَازَ، كَمَا قُرِئَ بِالْوَجْهَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} [آل عمران: ١٢٠] فِي آلِ عِمْرَانَ، قَالَ الطَّبْيِيُّ: فِي قَوْلِهِ: أَنْ نَسْتَرِيحَ مَفْعُولٌ لَأَرَدْنَا وَجَزَاءُ الشَّرْطِ الْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْمَفْعُولِ مَحذُوفٌ لَوْجُودِ الْقَرِينَةِ أَيْ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَنَسْتَرِيحُ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا لَمْ يَضُرَّكَ، فَتَنْتَفِعْ بِهَدَايَتِكَ، وَحَاصِلُهُ أَرَدْنَا الْامْتِحَانَ، يَعْنِي فِيمَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّكَ كَاذِبٌ فَنَسْتَرِيحُ مِنْكَ، وَإِمَّا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّكَ نَبِيٌّ فَتَتَّبِعَكَ، وَفِيهِ أَنَّهُ تَبَيَّنَ مِنْ فَحْوَاهُمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي دَعْوَاهُمْ، فَتَبَيَّنَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ بِظُهُورِ الْمُعْجِزَةِ السَّابِغَةِ..^{٣٩٨}

من فوائد الحديث^{٣٩٩}:

- ١- قبوله ﷺ للهدية مع أنه لا يأخذ الصدقة ولا تحل له ، فللهدية أحكام تختلف عن الصدقة .
- ٢- جواز أخذ الهدية من اليهود، وأكل ذبائحهم.
- ٣- اطلاع الله تعالى لنبيه ﷺ على الأمور الخفية والغيبية.
- ٤- تكلم الذراع مع نبي الله ﷺ كما في بعض روايات الحديث، إعجاز يدل على صدق نبوته ﷺ.
- ٥- معاندة اليهود لاعترافهم بصدقه ﷺ فيما أخبر به عن اسم أبيهم، وبما وقع منهم من دسياسة السم، ومع ذلك عاندوا واستمروا على تكذيبه.
- ٦- علو نفس النبي ﷺ، وعظم حلمه، واتساع صبره، وتوق نفسه للعفو والصفح؛ حيث أنه ﷺ لم ينتقم لنفسه، فلم يتعرض للمرأة ولم يعاقبها.
- ٧- حفظ الله عز وجل لدينه ولنبيه؛ فقد افْتُضِحَ سرُّ اليهود وخابت مساعيهم، فعاش النبي ﷺ وقاد الجيوش، وفتح البلدان، وحج وخطب ووعظ، وأرشد ونصح وهدى، ولم يكن مراد الأعداء مانعاً لمراد الله -جلّ وعلا-.
- ٨- أن الأشياء - كالسموم ونحوها - لا تؤثر بذاتها؛ فبشر بن البراء رضي الله عنه مات من السم، والنبي ﷺ كان يعتريه المرض من تلك الأكلة ولم يمت، بل عاش بعدها دهرًا عليه الصلاة والسلام.
- ٩- اختلف العلماء فيما فعل ﷺ باليهودية فروي إنه صفح عنها، وروي إنه قتلها. قال العلماء: وجه الجمع بين هذه الروايات والأقاويل أنه لم يقتلها حين أطلع الله على ما صنعت، ووقاه شرها، فقد

^{٣٩٨} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٨٢٨) ومنار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١٣٧)

^{٣٩٩} - http://www.alsunnah.com/main/articles.aspx?selected_article_no=١٣٥٤&menu_id=٤٣٨٧

قيل له: اقتلها، فقال: لا، فلما مات بشر بن البراء رضي الله عنه من ذلك سلمها لأوليائه، فقتلوها قصاصاً، فصح قولهم لم يقتلها أي في الحال، ويصح قولهم قتلها أي بعد ذلك، والله أعلم.^{٤٠٠}



^{٤٠٠} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١٠ / ٢٤٦) ومنار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤ / ١٣٧)

قصة قتل عدو الله أبي جهل

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِعُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ - حَدِيثُهُ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعِ مِنْهُمَا - فَعَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمَّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجْتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لَذَلِكَ، فَعَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضْرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ: «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟»، قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقَالَ: «هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟»، قَالَا: لَا، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: «كَلَاكُمَا قَتَلَهُ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ»، وَكَانَا مُعَاذَ ابْنَ عَفْرَاءَ، وَمُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ، " قَالَ مُحَمَّدٌ: سَمِعَ يُوسُفُ صَالِحًا، وَإِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ " ٤٠١

شرح المفردات:

(أضلع منهما) أي: أقوى.

(لا يفارق سوادي سواده) أي: شخصي شخصه.

(حتى يموت الأعجل منا) أي: لا أفارقه حتى يموت أحدهما وهو الأقرب أجلا.

(فلم أنشب) أي: لم ألبث.

(يجول في الناس) أي: يضطرب في المواضع ولا يستقر على حال.

(السلب) ما مع المقتول من دابة، وسلاح، وما كان يلبسه من ثياب، ودرع، وسوار، وحلية ٤٠٢.

المعنى العام :

(عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : هُوَ أَحَدُ الْعَشْرَةِ الْمُبَشَّرَةِ (قَالَ: إِنِّي لَوَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ) : رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ ثَلَاثِمِائَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ نَفَرًا، وَمَا كَانَ مَعَهُ إِلَّا فَرَسٌ وَاحِدٌ وَقِيلَ فَرَسَانِ وَكَانَ الْكُفَّارُ قَرِيبَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ وَمَعَهُمْ مِائَةُ فَرَسٍ (فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي) أَي: مَرَّةً (وَعَنْ شِمَالِي) أَي: أُخْرَى، وَهَذِهِ تُكْنَى إِعَادَةَ الْجَارِ (فَإِذَا) : لِلْمُفَاجَأَةِ (أَنَا) أَي: حَاضِرٌ مُحْضَوْفٌ

٤٠١ - صحيح البخاري (٩٢/٤) (٣١٤١) وصحيح مسلم (٣/١٣٧٢) ٤٢ - (١٧٥٢)

[ش (حديثه أسنانهما) أي صغيرين. (أضلع) أشد وأقوى. (فعمزني) حسني بيده والغمز أيضا الإشارة بالعين أو الحاجب أو نحوهما. (سوادي) شخصي. (الأعجل منا) الأقرب أجلا. (فابتدراه) أسرعا في ضربه وسبقاه. (فنظر في السيفين) ليرى مقدار عمق دخولهما في جسم المقتول وأيهما أقوى تأثيرا في إزهاق روحه]

٤٠٢ - جامع الأصول (٨/١٩٥)

(بُعْلَامَيْنِ) أَي: شَائِبَيْنِ (مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةً) : بِالْجَرِّ أَي: جَدِيدَةً (أَسْنَانُهُمَا) أَي: أَعْمَارُهُمَا (فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ) أَي: وَاقِعًا أَي: (بَيْنَ أَضْلَعِ مِنْهُمَا) : فِي النَّهَايَةِ أَي: بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَقْوَى مِنَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ كُنْتُ بَيْنَهُمَا، وَالْمَعْنَى أَنِّي حَقَرْتُ أَمْرَهُمَا فِي الشَّجَاعَةِ، لِكُونِهِمَا شَائِبَيْنِ، وَمَا مِنَ الْأَنْصَارِ وَالشُّيُوخِ، لَا سِيَّمَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَقْوَى فِي النَّجْدَةِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ، وَلِذَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ: فَلَوْ غَيْرُ أَكْأَرٍ قَتَلَنِي كَمَا سَيَّأَتِي، وَقَدْ كَانَا شُجَاعَيْنِ، وَبِالْمُهِمَّةِ قَوَّيْنِ (فَعَمَزَنِي أَحَدُهُمَا) أَي: أَشَارَ إِلَيَّ بِالْعَيْنِ، أَوْ بِالْمَدِّ وَقَالَ: الْعَمَزُ الْعَصْرُ وَالْكَيسُ بِالْيَدِ (فَقَالَ أَي: عَم!) أَي: يَا عَمِّي (هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. فَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَحِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ) أَي: أُنَبِّئْتُ (أَنَّهُ يُسَبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) أَي: يَشْتُمُهُ وَيَذُمُّهُ (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَنْ رَأَيْتُهُ) أَي: أَبْصَرْتُهُ وَعَرَفْتُهُ (لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ) أَي: شَخْصِي شَخْصَهُ، وَفِيهِ اسْتِهَانَةٌ لِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ يُقَرِّبُهَا لِلَّهِ، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ) أَي: الْأَقْرَبُ أَجَلًا (مِنَّا) أَي: مِنِّي وَمِنْهُ (قَالَ) أَي: عَبْدُ الرَّحْمَنِ (فَعَجِبْتُ لِذَلِكَ) : يَعْنِي لِمَا كُنْتُ لَمْ أَظُنَّ بِهِ ذَلِكَ (قَالَ) أَي: عَبْدُ الرَّحْمَنِ (وَعَمَزَنِي الْآخَرُ) : عَطَفَ عَلَى فَعَمَزَنِي أَحَدُهُمَا (فَقَالَ لِي مِثْلَهَا) أَي: مِثْلُ تِلْكَ الْمَقَالَةِ (فَلَمْ أَتَشَبَّ) : بَفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ أَي: لَمْ أَلْبَثْ وَلَمْ أَمْكُثْ (أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ) : بِالْجِيمِ أَي: يَدُورُ (فِي النَّاسِ) أَي: فِيمَا بَيْنَ قَوْمِهِ مِنَ الْكُفَّارِ (قُلْتُ) أَي: لَهُمَا (أَلَا تَرَيَانِ؟) أَي: أَلَا تُبْصِرَانِ وَالْهَمْزَةُ لِلتَّفْقِيرِ (هَذَا صَاحِبُكُمَا) : بِالرَّفْعِ أَي: مَطْلُوبُكُمَا (الَّذِي تَسْأَلَانِي) : بِتَشْدِيدِ التَّوْنِ وَيُخَفَّفُ أَي: يَسْأَلُنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا (عَنْهُ) : فِي نُسْخَةٍ بِنَصَبِ صَاحِبِكُمَا. قَالَ الطَّبِيبُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا بَدَلًا مِنْ هَذَا، وَمَرْفُوعًا عَلَى أَنَّ هَذَا مُبْتَدَأٌ وَهُوَ خَبَرٌ وَتَرَيَانِ مَفْعُولُهُ لَا يُقَدَّرُ، إِذَا الْمُرَادُ إِيجَادُ الرُّؤْيَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ} [القصص: ٢٣] الْكَشَافُ: تَرَكُ الْمَفْعُولُ ؛ لِأَنَّ الْغَرَضَ هُوَ الْفِعْلُ لَا الْمَفْعُولُ (قَالَ: فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ) أَي: قَارِبَا قَتَلَهُ (ثُمَّ أَنْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَاهُ) أَي: بِمَا جَرَى لَهُمَا (قَالَ: "أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟ فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، قَالَ: "هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟") : بِالشَّنِيَةِ (قَالَ: لَا. فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّيْفَيْنِ) أَي: إِلَى مَحَلِّ الدِّمَيْنِ مِنْهُمَا (فَقَالَ: "كَلَاكُمَا قَتَلَهُ") : بِإِفْرَادِ الضَّمِيرِ فِي قَتْلِهِ نَظَرًا إِلَى لَفْظِ كَلَا وَهُوَ أَفْصَحُ مِنَ الشَّنِيَةِ نَظَرًا إِلَى مَعْنَاهُ. قَالَ تَعَالَى: {كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا} [الكهف: ٣٣] وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمَا مِنْ حَيْثُ الْمُشَارَكَةُ فِي قَتْلِهِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ الْكَثِيرِ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا تَفَاوُتٌ فِي السَّبْقِ وَالتَّأْثِيرِ. (وَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَلْبِهِ) أَي: بِمَسْلُوبِ أَبِي جَهْلٍ (لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ) : بِفَتْحِ الْجِيمِ ؛ لِأَنَّهُ أَخَذَهُ بِالْجِرَاحَةِ أَوَّلًا، فَاسْتَحَقَّ السَّلْبَ، ثُمَّ شَارَكَهُ الثَّانِي، ثُمَّ ابْنُ مَسْعُودٍ وَجَدَهُ وَبِهِ رَمَقٌ، فَحَزَّ رَأْسَهُ كَمَا سَيَّأَتِي فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَلِيهِ. (وَالرَّحْلَانِ) أَي: الْعُلَامَانِ (مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ، وَمُعَاذُ ابْنُ عَفْرَاءَ) : هِيَ أُمُّهُ وَهُمَا أَخَوَانِ أُمَّهُمَا وَاحِدٌ وَأَبُوهُمَا مُخْتَلِفٌ.

قَالَ النَّوَوِيُّ: وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ فَقَالَ أَصْحَابُنَا: اشْتَرَكَ هَذَانِ الرَّجُلَانِ فِي جِرَاحَتِهِ لَكِنَّ مُعَاذَ بْنَ عَمْرٍو أَثْنَعَهُ أَوَّلًا، فَاسْتَحَقَّ السَّلْبَ، وَإِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " كَلَاكُمَا قَتْلُهُ " تَطْيِيبًا لِقَلْبِ الْآخَرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ لَهُ مُشَارَكَةً فِي قَتْلِهِ، وَإِلَّا فَالْقَتْلُ الشَّرْعِيُّ يَتَعَلَّقُ بِهِ اسْتِحْقَاقُ السَّلْبِ وَهُوَ الْإِثْنَانُ وَإِخْرَاجُهُ عَنْ كَوْنِهِ مُمْتَنِعًا، وَإِنَّمَا وَجِدَ مِنْ مُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو، فَلِهَذَا قَضَى لَهُ بِالسَّلْبِ، وَإِنَّمَا أَخَذَ السِّفَيْنَ لِيَسْتَدِلَّ بِهِمَا عَلَى حَقِيقَةِ كَيْفِيَّةِ قَتْلِهِمَا، فَعَلِمَ أَنَّ ابْنَ الْجَمُوحِ أَثْنَعُهُ، ثُمَّ شَارَكَهُ الثَّانِي بَعْدَ ذَلِكَ، وَبَعْدَ اسْتِحْقَاقِهِ السَّلْبَ. وَقَالَ أَصْحَابُ مَالِكٍ إِنَّمَا أَعْطَاهُ لِأَحَدِهِمَا ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ مُخَيَّرٌ فِي السَّلْبِ يُنْقَلُ فِيهِ مَا شَاءَ، وَذَكَرَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ الَّذِي ضَرَبَهُ ابْنُ عَفْرَاءَ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ ابْنِي عَفْرَاءَ ضَرَبَاهُ حَتَّى بَرَدَ، وَذَكَرَ غَيْرُهُ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ هُوَ الَّذِي أَجْهَزَ وَأَخَذَ رَأْسَهُ. قَالَ الشَّيْخُ: يُحْمَلُ هَذَا عَلَى أَنَّ الثَّلَاثَةَ اشْتَرَكُوا فِي قَتْلِهِ، فَكَانَ إِثْنَانُهُ مِنْ مُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو وَابْنِ الْجَمُوحِ، وَجَاءَ ابْنُ مَسْعُودٍ بَعْدَ ذَلِكَ وَفِيهِ رَمَقٌ فَحَزَّ رَأْسَهُ، وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْحَرْبِ وَالْغَضَبُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْتَقِرَ أَحَدًا لَصِغَرِهِ وَنَحَافَةِ جِسْمِهِ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ أَمْرٌ خَطِيرٌ، وَاحْتَجَّ بِهِ الْمَالِكِيُّ عَلَى اسْتِحْقَاقِ الْقَاتِلِ السَّلْبَ بِقَوْلِهِ: بَلَا بَيِّنَةٌ. وَالْجَوَابُ أَنَّهُ ﷺ لَعَلَّهُ عَرَفَ ذَلِكَ بَيِّنَةً، أَوْ غَيْرَهَا هـ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا تَنْفِيلٌ مِنْهُ ﷺ وَلِذَا أُعْطِيَ سَيْفَ أَبِي جَهْلٍ لِابْنِ مَسْعُودٍ، وَلَمْ يُعْطَ لِابْنِ عَفْرَاءَ شَيْئًا. ٤٠٣

من فوائد الحديث:

- ١- المبادرة إلى الخيرات والاشتياق إلى الفضائل كما جرى من هذين الشابين رضي الله عنهما.
- ٢- شجاعة الصحابة رضي الله عنهم صغارهم وكبارهم .
- ٣- الغضب لله ولرسوله ﷺ، وعظم محبة الصحابة لرسول الله ﷺ.
- ٤- أنه ينبغي أن لا يحتقر أحدٌ فقد يكون بعض من يستصغر عن القيام بأمر أكبر مما في النفوس وأحق بذلك الأمر كما جرى لهذين الغلامين.
- ٥- احتج بهذا الحديث طوائف من أهل العلم فقالوا باستحقاق القاتل السلب.
- ٦- قال النووي- رحمه الله-: اختلف العلماء في معنى هذا الحديث فقال أصحابنا: اشترك هذان الرجلان في جراحته لكن معاذ بن عمرو بن الجموح اثخنه أولاً فاستحق السلب، وإنما قال النبي ﷺ: كلا كما قتله تطيباً لقلب الآخر من حيث أن له مشاركة في قتله.
- ٧- سوء عاقبة الكفر والصد عن سبيل الله، كما جرى لأبي جهل -فرعون هذه الأمة- الذي أذله الله وأهلكه في الدنيا مع ما أعد له من العقوبة والخزي في الآخرة. ٤٠٤

٤٠٣ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٩٧)

٤٠٤ - شرح النووي على مسلم (١٢/ ٦٣) وفتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٦/ ٢٤٨)

وقال الطحاوي : " بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيَمَا كَانَ مِنْهُ فِي سَلْبِ أَبِي جَهْلٍ ، وَمِنْ نَفْلِهِ إِيَّاهُ مِنَ النَّاسِ ، وَفِيَمَا احْتَجَّ بِهِ مُحَمَّدٌ بْنُ الْحَسَنِ مِمَّا ذَكَرَ أَنَّ مَا رُوِيَ فِي ذَلِكَ يُوجِبُ مَا قَالَهُ فِيهِ قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ الْحَسَنِ : " لَوْ أَنَّ عَسْكَرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ دَخَلَ أَرْضَ الْحَرْبِ ، وَعَلَيْهِمْ أَمِيرٌ ، فَقَالَ الْأَمِيرُ : مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا ، فَلَهُ سَلْبُهُ ، فَضَرَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَصَرَعَهُ ، وَاحْتَزَّ آخِرَ رَأْسِهِ ، " فَالسَّلْبُ لِلَّذِي صَرَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَقْتُلْهُ ، وَإِنْ كَانَ صَرَعَهُ ، وَضَرَبَهُ ضَرْبًا يَقْدِرُ عَلَى التَّحَامُلِ مَعَهُ ، وَالْعَوْدِ بِكَلَامٍ أَوْ غَيْرِهِ ، فَالسَّلْبُ لِلَّذِي احْتَزَّ رَأْسَهُ قَالَ : وَبَلَعْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ : " مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا ، فَلَهُ سَلْبُهُ " ، فَضَرَبَ ابْنُ عَفْرَاءَ أَبَا جَهْلٍ ، فَأَتَخَنَهُ ، وَقَتْلَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَلْبَهُ لِبْنِ مَسْعُودٍ ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ الَّذِي صَرَعَهُ ضَرَبَهُ ضَرْبًا لَا يُعَاشُ مِنْ مِثْلِهِ ، يُعْلَمُ أَنَّ آخِرَهُ الْمَوْتُ ، إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا عَاشَ الْيَوْمَ وَالْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ ، وَأَقْلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ إِلَّا أَنَّ الْآخَرَ احْتَزَّ رَأْسَهُ فَالسَّلْبُ لِلَّذِي احْتَزَّ رَأْسَهُ ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ ضَرَبَهُ فَتَشَرَّ مَا فِي بَطْنِهِ ، فَأَلْقَاهُ ، أَوْ قَطَعَ أَوْدَاجَهُ ، إِلَّا أَنْ فِيهِ شَيْئًا مِنَ الرُّوحِ ، ثُمَّ إِنْ الْآخِرَ احْتَزَّ رَأْسَهُ ، فَالسَّلْبُ لِلَّذِي صَرَعَهُ ، وَلَيْسَ لِلَّذِي احْتَزَّ رَأْسَهُ شَيْءٌ ؛ لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا بَقِيَ مِنْهُ مِثْلُ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الْحَرَكَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ " فَتَأْمَلْنَا مَا قَالَ مُحَمَّدٌ فِي هَذَا ، فَكَانَ الَّذِي قَالَهُ مِنْ بَابِ الْفَقْهِ كَمَا قَالَهُ فِيهِ ، وَكَانَ الَّذِي قَالَ فِي أَمْرِ أَبِي جَهْلٍ وَهُمَا مِنْهُ ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ قَالَ : " مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا ، فَلَهُ سَلْبُهُ " إِلَّا فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ ، لَا فِيَمَا قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ يَوْمِ بَدْرٍ ، وَلَا مِمَّا بَعْدَهُ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْأُمُورُ تَجْرِي فِي الْأَسْلَابِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا الْبَابِ ، فَاحْتَجَّ مُحْتَجٌّ لِمُحَمَّدٍ بْنِ الْحَسَنِ فِي ذَلِكَ . بَمَا جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَفَلَهُ سَيْفَ أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَكَانَ جَوَابًا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِهِ : أَنَّ الَّذِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِنَّمَا هُوَ تَنْفِيلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ابْنَ مَسْعُودٍ سَيْفَ أَبِي جَهْلٍ لَا مَا سِوَاهُ مِنْ سَلْبِهِ ، وَفِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ تَقْدَمُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ قَوْلُ يُوجِبُ سَلْبَ الْقَاتِلِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، لَدَفَعَ سَلْبَ أَبِي جَهْلٍ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى قَاتِلِهِ ، وَمِمَّا قَدْ رُوِيَ فِي أَمْرِ أَبِي جَهْلٍ مِمَّا هُوَ أَصَحُّ مِمَّا ذَكَرْنَا ، وَأَثْبَتُ إِسْنَادًا ، فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ : إِنِّي لَقَائِمٌ يَوْمَ بَدْرٍ بَيْنَ غُلَامَيْنِ حَدِيثَةٍ أُسْنَانُهُمَا تَمْنِيْتُ لَوْ أَنِّي بَيْنَ أَضْلَعٍ مِنْهُمَا ، فَعَمَزَنِي أَحَدُهُمَا ، فَقَالَ : يَا عَمَّ ، أَتَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ ؟ فَقُلْتُ : وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي ؟ فَقَالَ : أَخْبَرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا ، فَعَجَبْتُ لِذَلِكَ وَغَمَزَنِي الْآخَرُ ، فَقَالَ مِثْلَهَا ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ تَرَجَّلَ فِي النَّاسِ ، فَقُلْتُ : أَلَا تَرَيَانِ ؟ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلَانِ عَنْهُ ، فَابْتَدَرَاهُ ، فَضَرَبَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا حَتَّى قَتَلَاهُ ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخْبَرَاهُ ، فَقَالَ : " أَيُّكُمَا قَتَلَهُ ؟ " قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : أَنَا قَتَلْتُهُ ، فَقَالَ : " أَمَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا ؟ " قَالَا : لَا ، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ ، فَقَالَ : كِلَاكُمَا قَتَلَهُ " ، وَقَضَى بِسَلْبِهِ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ ، وَالرَّجُلَانِ : مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ ، وَمُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ "

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالسَّلْبِ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ قَدْ أَخْبَرَا رَسُولَ اللَّهِ قَبْلَ ذَلِكَ: أَنَّ كِلَيْهِمَا قَدْ قُتِلَ، فَفِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِسَلْبِهِ مُسْتَحَقُّ بَعِيْنِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ سَلْبُهُ مَرْدُودًا إِلَى مَا يَرَاهُ رَسُولُ اللَّهِ فِيهِ مِنْ سَمَاحٍ بِهِ لِمَنْ يَقْتُلُهُ، وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَيْضًا: دَفْعُ بَعْضِ سَلْبِهِ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ، وَمَنْعُهُ بَقِيَّتَهُ، وَدَفْعُ بَقِيَّةِ سَلْبِهِ بَعْدَ الَّذِي نَفَّلَهُ مِنْهُ ابْنُ مَسْعُودٍ؟ إِلَى مُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو دُونَ مُعَاذِ بْنِ عَفْرَاءَ، وَفِي هَذَا مَا قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ تَقْدِّمُ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ مَا ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ: أَنَّهُ كَانَ تَقْدِّمُ مِنْهُ مِنَ الْقَوْلِ يَوْمَئِذٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مِمَّا سَمَحَ بِهِ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَسْمَحَ بِهِ لَهُ، وَمِمَّا مَنَعَ مِنْ سِوَاهُ مِمَّا مَنَعَهُ مِنْهُ مِنْ قَتْلِ أَبِي جَهْلٍ، لَا لِمَا قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ عَنْهُ، وَاللَّهُ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ" ٤٠٥



قصة إسلام أم أبي هريرة رضي الله عنهما

عَنْ أَبِي كَثِيرٍ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْتِي عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصَرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعْتُ أُمِّي خَشَفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاغْتَسَلْتُ وَلَبِسْتُ دِرْعَهَا وَعَجَلْتُ عَنْ حِمَارِهَا، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحِبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحِبِّبَهُمَ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عَبْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي^{٤٠٦}

وقال أبو كثير السُّحَيْمِيُّ: أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مُؤْمِنًا يَسْمَعُ بِي، وَيَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي، قُلْتُ: وَمَا عَلِمُكَ بِذَلِكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: إِنَّ أُمِّي كَانَتْ امْرَأَةً مُشْرِكَةً وَكُنْتُ أَدْعُوهَا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَتَأْتِي عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا، فَأَسْمَعَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ، فَتَأْتِي عَلَيَّ وَأَدْعُوهَا، فَأَسْمَعَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِهَا»، فَلَمَّا أَتَيْتُ الْبَابَ إِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، وَسَمِعْتُ خَشَفَ رَجُلٍ أَوْ رَجُلٍ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كَمَا أَنْتَ وَفَتَحَتِ الْبَابَ وَلَبِسْتُ دِرْعَهَا وَعَجَلْتُ عَلَى حِمَارِهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ كَمَا بَكَيتُ مِنَ الْحُزَنِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ، فَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ، قَدْ هَدَى اللَّهُ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَقَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحِبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحِبِّبَهُمَ إِلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عَبْدَكَ وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَبِّبْهُمَ إِلَيْهِمَا»^{٤٠٧}

شرح المفردات :

^{٤٠٦} - صحيح مسلم (٤/ ١٥٨) (١٩٣٨) - (٢٤٩١)

[ش (مجاف) أي مغلق (خشف) أي صوتهما في الأرض (خضخضة الماء صوت تحريكه)

^{٤٠٧} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠٨/ ١٦) (٧١٥٤) صحيح

المخاف : المغلق.

الحشف : حركة المشي وصوته^{٤٠٨}.

المعنى العام للحديث :

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ) ، حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ، أَوْ الْمُرَادُ بِهَا أَنَّهَا مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى الشِّرْكِ (فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا) أَي: إِلَى الْإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ سَيِّدِ الْأَنَامِ (فَأَسْمَعْتَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -) أَي: فِي حَقِّهِ وَشَأْنِهِ (مَا أَكْرَهُ) أَي: شَيْئًا أَكْرَهُهُ مِنَ الْكَلَامِ، أَوْ أَكْرَهُ ذِكْرَهُ بَيْنَ الْأَنَامِ، (فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - أَبْكِي) أَي: مِنَ الْحُزَنِ وَالْعَيْنِ، حَيْثُ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى تَأْدِيبِهَا لَكُونِهَا أُمِّي. (قُلْتُ) : وَفِي نُسْخَةٍ فَقُلْتُ: («يَا رَسُولَ اللَّهِ، اذْغُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَ أُمِّي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ أُمِّي هُرَيْرَةَ. فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا») أَي: مَسْرُورًا مُنْشَرِحًا (بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ - ﷺ - فَلَمَّا صِرْتُ) أَي: وَاصِلًا (إِلَى الْبَابِ) أَي: بَابِ أُمِّي (فَإِذَا هُوَ) أَي: بَابٌ (مُخَافٍ) ، أَي مَرْدُودٌ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: (أَجِيفُوا أَبَوَابَكُمْ) . أَي رُدُّوْهَا كَذَا فِي النَّهَائَةِ. (فَسَمِعْتُ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ) : بِالثَّنِيَةِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالْإِفْرَادِ أَي: صَوْتَهُمَا، وَقِيلَ: حَرَكْتُهُمَا وَحِسَّهُمَا، وَهُوَ يَفْتَحُ الْخَاءَ وَسُكُونُ الشَّيْنِ الْمُعْجَمَتَيْنِ وَيُحَرِّكُ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ (فَقَالَتْ: مَكَانَكَ) : بِالنَّصْبِ أَيِ الزَّمَةِ (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ) ، أَي تَحْرِيكُهُ، وَقِيلَ: صَوْتُهُ (فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا) بِكَسْرِ الدَّالِ أَيِ قَمِيصِهَا (وَعَجَلْتُ) : بِكَسْرِ الْجِيمِ (عَنْ خِمَارِهَا) ، أَي: تَرَكْتُ خِمَارَهَا مِنَ الْعَجَلَةِ يُقَالُ: عَجَلْتُ عَنْهُ تَرَكْتُهُ، وَالْمَعْنَى أَنَّهَا بَادَرَتْ إِلَى فَتْحِ الْبَابِ بَعْدَ لَبْسِهَا الثِّيَابِ قَبْلَ أَنْ تَلْبَسَ خِمَارَهَا، وَهَذَا مَعْنَى مَا قَالَ الطَّبِيُّ: عَجَلْتُ الْفَتْحَ مُتَجَاوِزَةً عَنْ خِمَارِهَا (فَفَتَحَتِ الْبَابَ) ، أَي بَعْدَ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا النَّقَابُ وَرُفِعَ عَنْهَا الْحِجَابُ (ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَقَالَ خَيْرًا») . أَي قَوْلًا خَيْرًا، أَوْ كَلَامًا يَتَضَمَّنُ خَيْرًا، أَوْ التَّقْدِيرُ: وَصَلْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ خَيْرًا بِإِسْلَامِ أُمِّكَ.^{٤٠٩}

من فوائد الحديث:

- ١ - حرص أبي هريرة رضي الله عنه الشديد على هداية أمه حيث كان يدعوها إلى الإسلام مرة بعد أخرى، ومصابرته على ذلك رغم إعراضها وتمنعها.
- ٢ - سؤال أبي هريرة رضي الله عنه النبي ﷺ أن يدعو لأمه شفقة عليها، وحرصاً على إسلامها، فكان ذلك سبباً في إسلامها.
- ٣ - رحمة النبي بأصحابه وسؤاله عن أحوالهم، وسعيه في إدخال السرور عليه.

^{٤٠٨} - جامع الأصول (١١ / ٣٧٤)

^{٤٠٩} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩ / ٣٧٩٨)

٤ - حلم النبي ﷺ وكرم خلقه، وحرصه على هداية الخلق، فقد أخبر أبو هريرة أنها قالت فيه عليه الصلاة والسلام ما لا يليق، فأعرض عن ذلك، ودعا لها بالهداية صلوات الله وسلامه عليه، بل ودعا لها ولأبي هريرة أن يجعل في قلوب الخلق محبة لهما.

٥ - أن هداية العباد هي بيد الله عز وجل، كما قال الله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} القصص ٥٦. ولذا بادر النبي ﷺ بحمد الله والثناء عليه لما أخبره أبو هريرة بإسلام أمه.

٦ - استجابة دعاء رسول الله ﷺ على الفور بعين المسئول ، وهو من أعلام نبوته ﷺ.

٧ - واستحباب حمد الله عند حصول النعم^{٤١٠}.



^{٤١٠} - شرح النووي على مسلم (١٦ / ٥٢)

قصة ضياع عقد عائشة رضي الله عنها

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ»، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ، أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ، انْقَطَعَ عَقْدُ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى التَّمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَأَتَى النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ فَقَالُوا: أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ «وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضِعُ رَأْسِهِ عَلَى فَخْذِي قَدْ نَامَ»، فَقَالَ: حَبَسْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، قَالَتْ: فَعَاتَبَنِي، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، «فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَخْذِي، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّمِيمِ فَنَيْمُوا» فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا أَلِ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ، فَوَجَدْنَا الْعَقْدَ تَحْتَهُ^{٤١١}

شرح المفردات:

(بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ) موضعان بين المدينة ومكة، وكلمة أو للشك من عائشة رضي الله تعالى عنها.

(عقد) وهو القلادة وهو كل ما يعقد ويعلق في العنق.^{٤١٢}

المعنى العام :

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ - قَالَ فِي التَّمْهِيدِ: يُقَالُ إِنَّهَا غَزَاةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَقِيلَ خَمْسٌ وَحَزَمَ بِذَلِكَ فِي الْإِسْتِذْكَارِ وَسَبَقَهُ ابْنُ سَعْدٍ وَابْنُ حَبَّانَ، وَغَزَاةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ هِيَ غَزَاةُ الْمُرَيْسِيعِ وَفِيهَا وَقَعَتْ قِصَّةُ الْإِفْكِ لِعَائِشَةَ، وَكَانَ ابْتِدَاءُ ذَلِكَ بِسَبَبِ وَقُوعِ عَقْدِهَا أَيْضًا، فَإِنْ كَانَ مَا حَزَمُوا بِهِ ثَابِتًا حُمِلَ عَلَى أَنَّهُ سَقَطَ مِنْهَا فِي تِلْكَ السَّفَرَةِ مَرَّتَيْنِ لِأَجْلِ اخْتِلَافِ الْقِصَّتَيْنِ كَمَا هُوَ بَيِّنٌ فِي سِيَاقِهِمَا، وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَى تَعَدُّدِ ضَيَاعِ الْعَقْدِ، وَأَنَّ هَذِهِ كَانَتْ بَعْدَ قِصَّةِ الْإِفْكِ مُحْتَجِّجِينَ بِمَا رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَائِشَةَ: " «لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ عَقْدِي مَا كَانَ وَقَالَ أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فِي غَزَاةٍ أُخْرَى فَسَقَطَ أَيْضًا عَقْدِي حَتَّى حُبِسَ النَّاسُ عَلَى التَّمَاسِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا بُنَيَّةُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَكُونِينَ عَنَاءً وَبَلَاءً عَلَى

^{٤١١} - صحيح البخاري (٨/٥) (٣٦٧٢) ومسلم (١/٢٧٩) ١٠٨ - (٣٦٧)

[ش (بالبيداء أو بذات الجيش) موضعان بين مكة والمدينة وقيل البيداء أدنى إلى مكة من ذي الحليفة. (عقد) كل ما يعقد ويعلق في العنق. (التماسه) طلبه والبحث عنه. (وليسوا على ماء) ليس في المكان الذي أقاموا فيه ماء. (يطعنني) يضربني برؤوس أصابعه. (ما هي بأول بركتكم) ليس هذا أول خير يكون بسببكم والبركة كثرة الخير]

^{٤١٢} - شرح النووي على مسلم (٤/٥٩)

النَّاسِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التِّيمِّمْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ لَمُبَارَكَةٌ» "فَفِيهِ التَّصْرِيحُ بِأَنَّ ضِيَاعَ الْعُقْدِ كَانَ مَرَّتَيْنِ فِي غَزَوَتَيْنِ، وَبِذَلِكَ جَزَمَ مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبٍ الْإِخْبَارِيُّ فَقَالَ: سَقَطَ عَقْدُهَا فِي غَزَاةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَفِي ذَاتِ الرَّقَاعِ، وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْمَغَازِي فِي أَيَّهِمَا كَانَتْ أَوَّلًا.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: "لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ التِّيمِّمْ لَمْ أَذَرِ كَيْفَ أَصْنَعُ" "فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَأْخُرِهَا عَنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ لِأَنَّ إِسْلَامَ أَبِي هُرَيْرَةَ كَانَ فِي السَّابِعَةِ وَهِيَ بَعْدُهَا بِلَا خِلَافٍ (حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ) بَفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ وَالْمَدِّ وَهِيَ الشَّرَفُ الَّذِي قُدَّامَ ذِي الْحَلِيفَةِ مِنْ طَرِيقِ مَكَّةَ.

(أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ) بَفَتْحِ الْجِيمِ وَسُكُونِ التَّحْتِيَّةِ وَشِينِ مُعْجَمَةٍ، مَوْضِعٌ عَلَى بَرِيدٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَقِيقِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ قَالَهُ أَبُو عَبْدِ الْبَكْرِ فِي مُعْجَمِهِ، وَالْعَقِيقُ مِنْ طَرِيقِ مَكَّةَ لَا مِنْ طَرِيقِ خَيْبَرَ، فَقَوْلُ النَّوَوِيِّ: الْبَيْدَاءُ وَذَاتُ الْجَيْشِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَخَيْبَرَ فِيهِ نَظَرٌ، وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ رِوَايَةُ الْحُمَيْدِيِّ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ الْفَلَادَةَ سَقَطَتْ لَيْلَةَ الْأَبْوَاءِ وَالْأَبْوَاءُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ.

وَلِلنِّسَائِيِّ وَجَعَفَرِ الْفَرِّيَّابِيِّ وَابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ مُسْهِرٍ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْهَا، وَكَانَ ذَلِكَ بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ الصُّلْصُلُ بِمُهْمَلَتَيْنِ مَضْمُومَتَيْنِ وَلَامَيْنِ أُولَاهُمَا سَاكِنَةٌ وَهُوَ جَبَلٌ عِنْدَ ذِي الْحَلِيفَةِ، ذَكَرَهُ الْبَكْرِيُّ فِي الصَّادِ الْمُهْمَلَةِ، وَوَهُم مُعْطَايُ فَزَعَمَ أَنَّهُ ضَبَطَهُ بِالْمُعْجَمَةِ وَقَلَدَهُ بَعْضُ الشُّرَاحِ فَزَادَهُ وَهَمًّا، ذَكَرَهُ كُلُّهُ الْحَافِظُ وَقَالَ غَيْرُهُ وَالشَّكُّ مِنْ عَائِشَةَ.

(انْقَطَعَ عَقْدٌ لِي) بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ كُلُّ مَا يُعْقَدُ وَيُعَلَّقُ فِي الْعُنُقِ وَيُسَمَّى فِلَادَةً، وَلِلْبُخَارِيِّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ: «سَقَطَتْ فِلَادَةٌ لِي بِالْبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ الْمَدِينَةَ فَأَنَاحَ - ﷺ - وَنَزَلَ» "وَهَذَا مُشْعَرٌ بِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ قُرْبِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَلِأَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: أَنَّ الْعُقْدَ كَانَ مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ، وَجَزَعٌ بَفَتْحِ الْحِيمِ وَسُكُونِ الزَّايِ خَرَزٌ يَمْنَى وَظَفَارٌ مَدِينَةٌ بِسَوَاحِلِ الْيَمَنِ بِكَسْرِ الظَّاءِ الْمُعْجَمَةِ مَصْرُوفٌ أَوْ فَتْحِهَا، وَالْبِنَاءُ بِوزنِ قَطَامٍ، وَإِضَافَتُهُ إِلَيْهَا لِكَوْنِهِ فِي يَدِهَا وَتَصَرُّفُهَا فَلَا يُخَالَفُ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ عُرْوَةَ عَنْهَا أَنَّهَا اسْتَعَارَتْهُ مِنْ أَسْمَاءَ أُخْتِهَا بِنَاءً عَلَى اتِّحَادِ الْقِصَّةِ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ دَعْوَى تَعَدُّدِهَا.

(فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى التَّمَاسِهِ) أَيُّ لَأَجَلٍ طَلَبَهُ (وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَرْكِ إِضَاعَةِ الْمَالِ وَاعْتِنَاءِ الْإِمَامِ بِحِفْظِ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ قُلْتُ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ثَمَنَ الْعُقْدِ كَانَ اثْنِي عَشَرَ دِرْهَمًا، وَيَلْحَقُ بِتَحْصِيلِ الضَّائِعِ الْإِقَامَةُ لِلْحَاقِ الْمُتَقَطِّعِ وَدَفْنِ الْمَيِّتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ الرَّعِيَّةِ، وَاسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ الْإِقَامَةِ فِي مَكَانٍ لَا مَاءَ فِيهِ وَسُلُوكِ طَرِيقٍ لَا مَاءَ فِيهَا، وَنَظَرُ فِيهِ الْحَافِظُ بِأَنَّ الْمَدِينَةَ كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْهُمْ وَهُمْ عَلَى قَصْدٍ دُخُولِهَا، قَالَ: وَيَحْتَمَلُ أَنَّهُ - ﷺ - لَمْ يَعْلَمْ بَعْدَ الْمَاءِ مَعَ الرِّكْبِ وَإِنْ عَلِمَ أَنَّ الْمَكَانَ لَا مَاءَ فِيهِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ قَوْلُهُ: وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ أَيُّ لِلْوُضُوءِ، وَأَمَّا الشُّرْبُ فَيَحْتَمَلُ أَنَّهُ مَعَهُمْ وَالْأَوَّلُ مُحْتَمَلٌ لِحَوَازِ إِرْسَالِ الْمَطَرِ وَتَبَعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ - ﷺ - كَمَا وَقَعَ فِي مَوَاطِنَ أُخْرَى.

(فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَالُوا: أَلَا تَرَى) بِهَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ (مَا صَنَعْتَ عَائِشَةَ، أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَبِالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ) أَسْنَدَ الْفِعْلَ إِلَيْهَا لِأَنَّهُ كَانَ بِسَبَبِهَا، وَفِيهِ شَكْوَى الْمَرْأَةِ إِلَى أَبِيهَا وَإِنْ كَانَ لَهَا زَوْجٌ، وَكَانَتْهُمْ إِنَّمَا شَكَوْا لَهُ لِأَنَّهُ - ﷺ - نَائِمٌ وَكَانُوا لَا يُوقِظُونَهُ، قَالَهَ الْحَافِظُ: أَوْ خَافُوا تَغِيْظُهُ لَشِدَّةِ مَحَبَّةِ الْمُصْطَفَى لَهَا، قَالَهَ بَعْضُ شُيُوحِي. (قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَاضِعُ رَأْسِهِ عَلَى فَخِذِي) بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ (قَدْ نَامَ) فَفِيهِ جَوَازُ دُخُولِ الرَّجُلِ عَلَى بَنْتِهِ وَإِنْ كَانَ زَوْجُهَا عِنْدَهَا إِذَا عَلِمَ رِضَاهُ بِذَلِكَ، وَلَمْ تَكُنْ حَالَةً مُبَاشِرَةً.

(فَقَالَ: حَبَسْتَ) مَنَعْتَ (رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ) وَفِيهِ ضَرَرٌ شَدِيدٌ (قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ) لَمْ تَقُلْ أَبِي لِأَنَّ قَضِيَّةَ الْآبُوَّةِ الْحُنُو، وَالْعِتَابُ وَالتَّأْدِيبُ بِالْفِعْلِ مُغَايِرٌ لِذَلِكَ فِي الظَّاهِرِ فَأَنْزَلَتْهُ مَنْزِلَةَ الْأَجَنِيِّ. (فَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ) فَقَالَ: حَبَسْتَ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تَكُونِينَ عَنَاءً وَبَلَاءً عَلَى النَّاسِ.

(وَجَعَلَ يَطْعَنُ بِيَدِهِ) بِضَمِّ الْعَيْنِ وَكَذَا جَمِيعٌ مَا هُوَ حَسِيٌّ، وَأَمَّا الْمَعْنَوِيُّ فَبِالْفَتْحِ عَلَى الْمَشْهُورِ فِيهِمَا، وَحَكَى الْفَتْحَ فِيهِمَا مَعًا فِي الْمَطَالِعِ وَغَيْرِهَا وَالضَّمُّ فِيهِمَا صَاحِبُ الْجَامِعِ (فِي خَاصِرَتِي) هُوَ الشَّاكِلَةُ، وَخَصَرُ الْإِنْسَانِ بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ وَسُكُونِ الْمُهِمْلَةِ وَسَطُهُ كَمَا فِي الْكَوَاكِبِ، وَفِيهِ تَأْدِيبُ الرَّجُلِ بِنْتِهِ وَلَوْ مُتَزَوِّجَةً كَبِيرَةً خَارِجَةً عَنْ بَيْتِهِ، وَيَلْحَقُ بِهِ تَأْدِيبُ مَنْ لَهُ تَأْدِيبُهُ وَلَوْ لَمْ يَأْذَنْ الْإِمَامُ. (فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانٌ) أَيُّ كَوْنٌ وَاسْتِقْرَارٌ رَأْسَ (رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى فَخِذِي) فَأَرَادَتْ بِالْمَكَانِ هُنَا الْكَوْنُ وَالِاسْتِقْرَارُ فَلَا يُرَدُّ أَنَّ الْفَخْذَ هُوَ الْمَكَانُ فَلَا مَعْنَى لِلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا، وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ الصَّبْرِ لِمَنْ نَالَهُ مَا يُوجِبُ الْحَرَكَةَ وَيَحْصُلُ بِهِ التَّشْوِيشُ لِنَائِمٍ، وَكَذَا لِمُصَلٍّ أَوْ قَارِئٍ أَوْ مُسْتَعْمِلٍ يَعْلَمُ أَوْ ذَكَرَ.

(فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى أَصْبَحَ) دَخَلَ فِي الصَّبَاحِ (عَلَى غَيْرِ مَاءٍ) مُتَعَلِّقٌ بِنَامٍ وَأَصْبَحَ فَتَنَازَعَ عَا فِيهِ، هَكَذَا الرِّوَايَةُ فِي الْمَوْطَأِ حَتَّى وَهِيَ رِوَايَةُ مُسْلِمٍ عَنْ يَحْيَى وَابْنِ خَالٍ فِي فَضْلِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ قُتَيْبَةَ عَنْ مَالِكٍ، وَرَوَاهُ فِي التَّيَمُّمِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ بَلَفَظَ حِينَ بَتَحْتِيَّةٍ وَتُونُ، قَالَ الْحَافِظُ: وَمَعْنَاهُمَا مُتَقَارِبٌ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قِيَامَهُ مِنْ نَوْمِهِ كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ حَتَّى أَصْبَحَ بَيَانُ غَايَةِ النَّوْمِ إِلَى الصَّبَاحِ بَلْ بَيَانُ غَايَةِ فَقْدِ الْمَاءِ لِأَنَّهُ قَيَّدَ الْغَايَةَ بِقَوْلِهِ: عَلَى غَيْرِ مَاءٍ أَيُّ آلِ أَمْرِهِ إِلَى أَنْ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ.

وَأَمَّا رِوَايَةُ عَمْرٍو بْنِ الْحَارِثِ فَلَفْظُهَا: ثُمَّ إِنْ النَّبِيُّ - ﷺ - اسْتَيْقَظَ وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ، فَإِنْ أُعْرِبَتْ الْوَاوُ حَالِيَّةً كَانَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْاسْتَيْقَظَ وَقَعَ حَالَ وُجُودِ الصَّبَاحِ وَهُوَ الظَّاهِرُ، وَاسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى الرُّخْصَةِ فِي تَرْكِ التَّهَجُّدِ فِي السَّفَرِ إِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ، وَعَلَى أَنْ طَلَبَ الْمَاءَ لَا يَجِبُ إِلَّا

بَعْدَ دُخُولِ الْوَقْتِ لِقَوْلِهِ فِي رِوَايَةِ عَمْرِو بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ فَالْتَمَسَ الْمَاءَ فَلَمْ يَوْجَدْ (فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَةَ التَّيْمُمِ)» قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: هَذِهِ مُعْضَلَةٌ مَا وَجَدْتُ لِدَائِهَا مِنْ دَوَاءٍ لَأَنَّا لَا نَعْلَمُ أَيَّ الْآيَتَيْنِ عَنَّتْ عَائِشَةُ.

وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: هِيَ آيَةُ النَّسَاءِ أَوْ الْمَائِدَةِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هِيَ آيَةُ النَّسَاءِ لِأَنَّ آيَةَ الْمَائِدَةِ تُسَمَّى آيَةُ الْوُضُوءِ، وَآيَةُ النَّسَاءِ لَا ذِكْرَ لِلْوُضُوءِ فِيهَا. وَأُورِدَ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ هَذَا الْحَدِيثَ عِنْدَ ذِكْرِ آيَةِ النَّسَاءِ، قَالَ الْحَافِظُ: وَخُفِيَ عَلَى الْجَمِيعِ مَا ظَهَرَ لِلْبُخَارِيِّ أَنَّهَا آيَةُ الْمَائِدَةِ بَلَا تَرْدُّدٍ لِرِوَايَةِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي التَّفْسِيرِ إِذْ قَالَ فِيهَا: فَنَزَلَتْ آيَةُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ} [المائدة: ٦] (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الْآيَةُ ٦) الْآيَةُ قَالَ: وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْوُضُوءَ كَانَ وَاجِبًا قَبْلَ نُزُولِ الْآيَةِ، وَلِذَا اسْتَعْظَمُوا نُزُولَهُمْ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، وَوَقَعَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ فِي حَقِّ عَائِشَةَ مَا وَقَعَ، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: مَعْلُومٌ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ الْمَغَازِي أَنَّهُ - ﷺ - لَمْ يُصَلِّ مُنْذُ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ إِلَّا بِوُضُوءٍ، وَلَا يَدْفَعُ ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُعَانِدٌ قَالَ: وَفِي قَوْلِهِ: آيَةُ التَّيْمُمِ إِمَارَةٌ إِلَى أَنَّ الَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِلْمِ حِينَئِذٍ حُكْمُ التَّيْمُمِ لَا حُكْمُ الْوُضُوءِ، قَالَ: وَالْحِكْمَةُ فِي نُزُولِ آيَةِ الْوُضُوءِ مَعَ تَقَدُّمِ الْعَمَلِ بِهِ لِيَكُونَ فَرَضُهُ مَتَلَوًّا بِالتَّنْزِيلِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: يُحْتَمَلُ أَنَّ أَوَّلَ آيَةِ الْوُضُوءِ نَزَلَ قَدِيمًا فَعَمِلُوا بِهِ ثُمَّ نَزَلَ بِقِيَّتِهَا وَهُوَ ذِكْرُ التَّيْمُمِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَإِطْلَاقُ آيَةِ التَّيْمُمِ عَلَى هَذَا مِنْ إِطْلَاقِ الْكُلِّ عَلَى الْبَعْضِ، لَكِنَّ رِوَايَةَ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، فَالظَّاهِرُ مَا قَالَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ. انْتَهَى.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ وَعَبْدِ اللَّهِ التَّنِيسِيِّ وَيَحْيَى التَّمِيمِيِّ قَوْلُهُ: {فَتَيَمَّمُوا} وَسَقَطَ مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى وَغَيْرِهِ، قَالَ الْحَافِظُ: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ خَبَرٌ عَنْ فِعْلِ الصَّحَابَةِ أَيْ فَتَيَمَّمُ النَّاسُ بَعْدَ نُزُولِ الْآيَةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ حِكَايَةٌ لِبَعْضِ الْآيَةِ وَهُوَ الْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: {فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} [المائدة: ٦] (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الْآيَةُ ٦) بَيَانًا لِقَوْلِهِ: آيَةُ التَّيْمُمِ أَوْ بَدَلًا، وَاسْتَدَلَّ بِالْآيَةِ عَلَى وَجُوبِ النِّيَّةِ فِي التَّيْمُمِ لِأَنَّ مَعْنَاهُ اقْصِدُوا كَمَا تَقَدَّمَ وَهُوَ قَوْلُ فَقَهَاءِ الْأَمْصَارِ إِلَّا الْأَوْرَاعِي.

(فَقَالَ أُسَيْدُ) بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِ السَّيْنِ (ابْنُ حُضَيْرٍ) بِضَمِّ الْمُهْمَلَةِ وَفَتْحِ الضَّادِ الْمُعْجَمَةِ ابْنِ سِمَاكِ الْأَنْصَارِيِّ الْأَشْهَلِيِّ أَبُو يَحْيَى الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ مَاتَ سَنَةَ عِشْرِينَ أَوْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ (مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ) بَلْ هِيَ مَسْبُوقَةٌ بِغَيْرِهَا مِنَ الْبَرَكَاتِ، وَالْمُرَادُ بِالْإِلَهِ نَفْسُهُ وَأَهْلُهُ وَأَتْبَاعُهُ، وَفِي رِوَايَةِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ لَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

وَالْبُخَارِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ فَقَالَ أُسَيْدُ لِعَائِشَةَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَوَاللَّهِ مَا نَزَلَ بِكَ أَمْرٌ تَكْرَهِيهِهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لَكَ وَلِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ خَيْرًا.

وَفِي لَفْظٍ لَهُ: إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لَكَ مِنْهُ مَخْرَجًا وَجَعَلَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ بَرَكََةً.

وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ أُسَيْدٌ دُونَ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ كَانَ رَأْسَ مَنْ بُعِثَ فِي طَلَبِ الْعِقْدِ الَّذِي ضَاعَ.

وَفِي تَفْسِيرِ إِسْحَاقَ الْمُسَيَّبِيِّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ عَائِشَةَ: " «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - قَالَ لَهَا: مَا كَانَ أَكْبَرُ بَرَكَاتٍ فَلَدَتْكَ» " (قَالَتْ: فَبَعَثْنَا) أَيَّ أَثَرْنَا (الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ) رَاكِبَةً (عَلَيْهِ) حَالَةَ السَّيْرِ (فَوَجَدْنَا الْعَقْدَ تَحْتَهُ) هَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا فِي طَلَبِهِ أَوَّلًا لَمْ يَجِدُوهُ.

وَفِي رِوَايَةِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ فِي الْبُخَارِيِّ: فَبَعَثَ ﷺ - رَجُلًا فَوَجَدَهَا أَيَّ الْقِلَادَةِ. وَلِلْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ: فَبَعَثَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَطَلَبَهَا.

وَلِأَبِي دَاوُدَ: فَبَعَثَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَنَاسًا مَعَهُ، وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ أُسَيْدًا كَانَ رَأْسَ مَنْ بُعِثَ لِذَلِكَ فَلَذَا سُمِّيَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ دُونَ غَيْرِهِ، وَأُسَيْدٌ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي رِوَايَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِهِ وَكَانَتْهُمْ لَمْ يَجِدُوا الْعَقْدَ أَوَّلًا، فَلَمَّا رَجَعُوا وَنَزَلَتِ الْآيَةُ وَأَرَادُوا الرَّحِيلَ وَأَثَارُوا السَّبْعِ وَجَدَهُ أُسَيْدٌ.

فَقَوْلُهُ فِي رِوَايَةِ عُرْوَةَ فَوَجَدَهَا أَيَّ بَعْدَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّفَتِيشِ وَغَيْرِهِ. وَقَالَ النَّوَوِيُّ: يُحْتَمَلُ أَنَّ فَاعِلَ وَجَدَهَا النَّبِيُّ ﷺ -.

وَقَدْ بَالَعَ الدَّوْدِيُّ فِي تَوْهِيمِ رِوَايَةِ عُرْوَةَ، وَنَقَلَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ الْقَاضِي أَنَّهُ حَمَلَ الْوَهْمَ فِيهَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ رَاوِيَهَا عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ وَقَدْ بَانَ أَنَّ لَا تَخَالَفَ بَيْنَهُمْ وَلَا وَهْمَ ذَكَرَهُ الْحَافِظُ. وَحَدِيثُ الْبَابِ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ هُنَا، وَفِي التَّنَاقُحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ، وَفِي الْمَنَاقِبِ عَنْ قُتَيْبَةَ بْنِ سَعِيدٍ، وَفِي التَّفْسِيرِ وَالْمُحَارِبِينَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ وَمُسْلِمٍ عَنْ يَحْيَى الْأَرْبَعَةَ عَنْ مَالِكٍ بِهِ، قَالَ الْحَافِظُ: وَلَمْ يَقَعْ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ حَدِيثِ عَائِشَةَ هَذَا كَيْفِيَّةُ التَّيَمُّمِ، وَقَدْ رَوَى عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ قِصَّتَهَا هَذِهِ لَكِنْ اخْتَلَفَتِ الرِّوَاةُ عَنْهُ فِي الْكَيْفِيَّةِ فَوَرَدَ بِالِاقْتِصَارِ عَلَى الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَبِذِكْرِ الْمُرْفَقَيْنِ فِي السُّنَنِ، وَفِي رِوَايَةٍ إِلَى نِصْفِ الذَّرَاعِ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى إِلَى الْإِبْطِ، فَأَمَّا رِوَايَةُ إِلَى الْمُرْفَقَيْنِ وَكَذَا نِصْفُ الذَّرَاعِ ففِيهِمَا مَقَالٌ، وَأَمَّا رِوَايَةُ إِلَى الْإِبْطِ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ: إِنْ كَانَ وَقَعَ ذَلِكَ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ - فَكُلُّ تَيَمُّمٍ صَحَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ - فَهُوَ نَاسِخٌ لَهُ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ أَمْرِهِ فَالْحُجَّةُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ، وَمِمَّا يَقْوَى رِوَايَةُ الصَّحِيحَيْنِ فِي الْإِقْتِصَارِ عَلَى الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ كَوْنُ عَمَّارٍ كَانَ يُفْتِي بَعْدَهُ - ﷺ - بِذَلِكَ، وَرَاوِي الْحَدِيثِ أَعْرَفُ بِالْمُرَادِ مِنْ غَيْرِهِ وَلَاسِيَّمَا الصَّحَابِيُّ الْمُجْتَهِدُ انْتَهَى. ٤١٣

من فوائد الحديث:

١ - جواز خروج النساء إلى الجهاد مع ذوي المحارم والأزواج، قال العلماء: وإنما يصح ذلك في العسكر الكبير الذي الأغلب منه الأمن عليهن، - كذا قالوا - ولا شك أن لتغير الأزمان وأحوال الناس، وطرق الحرب ووسائلها أثر كبير في تغير الأحكام صيانة للأعراض والحرمان.

٤١٣ - شرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٢١٨)

٢- اعتناء الإمام بحفظ حقوق المسلمين وإن قلت، ويلتحق بتحصيل الضائع الإقامة للحقوق المنقطع، ودفن الميت ونحو ذلك من مصالح الرعية.

٣- تأديب الرجل ابنته ولو كانت مزوجة كبيرة خارجة عن بيته، ويلحق بذلك تأديب من له تأديبه.

٤- فضل أسيد بن الحضير رضي الله عنه - وهو من كبار الأنصار- وحسن ظنه بالمؤمنين ومعرفته بأقدارهم وفضلهم، قال العلماء: وإنما قال ما قال دون غيره؛ لأنه كان رأس من بعث في طلب العقد الذي ضاع .

٥- فضل عائشة رضي الله عنها فقد كان ضياع عقدها سبب مشروعية التيمم بما فيه من الرخصة والتوسعة على الأمة إلى قيام الساعة.
فائدة:

صفة التيمم أن تَضْرِبَ الأرض بِيَدَيْكَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، وَتَمْسَحَ وَجْهَكَ بِكَفِّكَ، ثُمَّ تَمْسَحَ الْكَفَّيْنِ بَعْضُهُمَا بِبَعْضٍ، وَبِذَلِكَ يَتِمُّ التَّيْمُمُ.

وهو مشروع عند فقد الماء أو العجز عن استعماله.^{٤٤}



^{٤٤} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١/ ٤٣٣) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤/ ٦)

قصة في فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرْفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ» فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أبا بَكْرٍ» ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَتُمْ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذِبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُودِيَ بَعْدَهَا^{٤١٥}

شرح المفردات: ٤١٦

(فقد غامر) أي: خاصم.

(يتمعر) أي: تذهب نضارته من الغضب.

(فجثا) أي: برك.

من فوائد الحديث:

- ١- فضل أبي بكر رضي الله عنه على جميع الصحابة.
- ٢- أن الفاضل لا ينبغي له أن يغضب من هو أفضل منه.
- ٣- جواز مدح المرء في وجهه، ومحله إذا أمن عليه الافتتان والاعتزاز.
- ٤- في الحديث بيان ما طبع عليه الإنسان من البشرية حتى يحمله الغضب على ارتكاب خلاف الأولى، لكن الفاضل في الدين يسرع الرجوع إلى الأولى، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهِمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [سورة الأعراف/٢٠١].
- ٥- أن غير النبي ﷺ - ولو بلغ من الفضل الغاية ليس بمعصوم.
- ٦- استحباب سؤال الاستغفار والتحلل من المظلوم.

^{٤١٥} - صحيح البخاري (٥/٥) (٣٦٦١)

[ش (أبدى) أظهر. (صاحبكم) يعني أبا بكر رضي الله عنه. (غامر) رمى بنفسه في الأمور الخطرة. (فأسرعت إليه) بالكلام الغليظ.

(يتمعر) يتغير لونه من الضجر. (وأساني) من المواساة وهي التسلية والسعي في إزالة الهم وتفريج الكرب]

^{٤١٦} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٧/٢٥) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦/ ١٨٠) و جامع الأصول (٨/ ٥٩٣)

٧- هذا الحديث يرسم المنهج الصحيح لحل المشكلات، والقضاء على العوارض المذهبة للمودة والجلالة للعداوة، وقطع تبعاتها، بحسن الاعتذار عن الخطأ والتجاوز، وهذا ما فعله الصديق رضي الله عنه. وفي المقابل العفو عن الزلل وقبول العذر، إلا أن عمر رضي الله عنه تأخر في ذلك ثم إنه ندم على تأخره، ولكن الأمر كان قد رفع إلى رسول الله ﷺ الذي أرشد عمر والأمة من بعده إلى أمر في غاية الأهمية في البناء الخلقي وهو وجوب احترام أهل الفضل والسابقة ونحوهم - وعلى رأسهم الصديق رضي الله عنه - وتحمل ما قد يصدر منهم من هفوة أو زلل. ^{٤١٧}



^{٤١٧} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٢٥ / ٧) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦ / ١٨٠)

قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٌ فَجَعَلَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ، فَجَاءَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنْتَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أُوتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أُوتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطَبُ مِنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَلِكَ شَيْطَانٌ»^{٤١٨}

شرح المفردات:

(يَحْتُو) يقال: حَتَا يَحْتُو حَتْوًا، وَيَحْتِي حَتِيًّا، يَعْرِفُ بِيَدَيْهِ.

(لَأَرْفَعَنَّكَ) أي لأذهب بك أشكوك.

^{٤١٨} - صحيح البخاري (١٠١/٣) (٢٣١١) معلقا بصيغة الجزم، وصحيح ابن خزيمة (٩١/٤) (٢٤٢٤) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (١٨٩١/٤) (٤٧٦٣) صحيح

[ش (آت) اسم فاعل من أتى وأصله أتى فحذفت الباء لالتقاء الساكنين. (يحتو) يأخذ بكفيه. (علي عيال) نفقة عيال وهم الزوجة والأولاد ومن في نفقة المرء. (أسيرك) سمي أسيرا لأنه ربطه بجمل وكانت عادة العرب أن تربط الأسير إذا أخذته بجمل. (البارحة) أقرب ليلة مضت. (فرصدته) ترقبته. (آية الكرسي) الآية التي يذكر فيها كرسي الرحمن جل وعلا وهي قوله تعالى {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}. إلى آخر الآية / البقرة ٢٥٥. / (وكانوا) أي الصحابة يحرسون على تعلم الخير فيأخذونه حينما صدر ويبدلون في سبيله كل شيء من متاع الدنيا. (قد صدقك) أخبرك بما يوافق الواقع والحق. (وهو كذوب) من شأنه وخلقه كثرة الكذب]

(إني محتاج وعلي عيال) أي نفقة عيال، أو " علي " بمعنى لي.

(فرصدته) أي رقبته .

(وهو كذوب) من التميم البليغ الغاية في الحسن لأنه أثبت له الصدق فأوهم له صفة المدح ، ثم استدرك ذلك بصفة المبالغة في الذم بقوله " وهو كذوب " .

(إني محتاج وعلي عيال) أي نفقة عيال أو " علي " بمعنى لي.

(ولي حاجة) في رواية " ولي حاجة " .

(دعني أعلمك) في رواية " خل عني " .

(إذا أويت إلى فراشك) جاء في رواية " عند كل صباح ومساء " .

(وكانوا أحرص شيء على الخير) أي الصحابة رضي الله عنهم، وفيه التفات، إذ السياق يقتضي أن يقول : وكنا أحرص شيء على الخير، ويحتمل أن يكون هذا الكلام مدرجا من كلام بعض رواته، وعلى كل حال فهو مسوق للاعتذار عن تخلية سبيله بعد المرة الثالثة حرصا على تعلم ما ينفع .^{٤١٩}

المعنى العام للحديث :

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ) ، أَيِ بَجَمْعِ صَدَقَةِ الْفِطْرِ لِيفْرِقَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:، أَيِ فِي حِفْظِهَا، أَيِ فَوْضَ إِلَيَّ ذَلِكَ، فَالْوَكَاةُ بِمَعْنَاهَا التَّلْغُوبُ وَهُوَ مُطْلَقُ التَّفْوِضِ أَمْرٌ لِلْغَيْرِ، وَقَالَ الطَّبِيُّ: الْإِضَافَةُ لِأَدْنَى مُلَابَسَةٍ لَأَنَّهَا شَرَعَتْ لِجَبْرِ مَا عَسَى أَنْ يَقَعَ فِي صَوْمِهِ تَفْرِيطٌ فَهِيَ بِمَعْنَى اللَّامِ (فَأَتَانِي آت) ، أَيِ فَجَاءَنِي وَاحِدٌ (فَجَعَلَ) ، أَيِ طَفِقَ وَشَرَعَ (يَحْثُو) ، أَيِ يَعْرِفُ وَيَأْخُذُ هَيْلًا لَا كَيْلًا (مِنْ الطَّعَامِ) وَيَجْعَلُ فِي وَعَائِهِ وَذَيْلِهِ كَحِثِّي التُّرَابِ، وَالْمُرَادُ بِالطَّعَامِ الْبُرِّ وَنَحْوَهُ مِمَّا يُزَكَّى بِهِ فِي الْفِطْرَةِ (فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ) هُوَ مِنْ رَفَعَ الْخَصْمَ إِلَى الْحَاكِمِ، أَيِ وَاللَّهِ لَأَذْهَبَنَّ بِكَ (إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أَيِ لِيَقْطَعَ يَدَكَ فَإِنَّكَ سَارِقٌ قَالَهُ ابْنُ الْمَلِكِ تَبَعًا لِلطَّبِيِّ، وَفِيهِ أَنَّ الْقَطْعَ إِنَّمَا يَلْزَمُ إِذَا كَانَ الْمَالُ مُحَرَّرًا وَقَدْ أَخْرَجَهُ مِنْهُ وَلَمْ يَكُنْ اسْتِحْقَاقًا مِنْهُ (قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ) ، أَيِ فَقِيرٌ فِي نَفْسِي (وَعَلَيَّ عِيَالٌ) ، أَيِ نَفَقَتُهُمْ إِظْهَارًا لِيَزِيدَ الْإِحْتِيَاجَ (وَلِي حَاجَةٌ) ، أَيِ حَادِثَةٌ زَائِدَةٌ (شَدِيدَةٌ) ، أَيِ صَعْبَةٌ كَمَوْتَ أَوْ نَفَاسٍ أَوْ مُطَالَبَةٍ دَيْنٍ أَوْ جُوعٍ مُهْلِكٍ وَأَمْثَالِهَا مِمَّا اشْتَدَّ الْحَاجَةُ إِلَى مَا أَخَذْتُهُ وَهُوَ تَأْكِيدٌ بَعْدَ تَأْكِيدٍ، قَالَ الطَّبِيُّ: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ فَقِيرٌ وَقَدْ اضْطُرَّ الْآنَ إِلَى مَا فَعَلَ لِأَجْلِ الْعِيَالِ وَهَذَا لِلْمُحْتَاجِينَ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ رُؤْيَةِ الْجَنِّ، وَأَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧] فَالْمَعْنَى إِنَّا لَا نَرَاهُمْ عَلَى صُورِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي خُلِقُوا عَلَيْهَا لِبُعْدِ التَّبَايُنِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَحْسَامٌ نَارِيَّةٌ فِي غَايَةِ الْخَفَاءِ وَالِاسْتِثْبَاهِ، وَلِذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ: مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ رَأَى الْجِنَّ

^{٤١٩} - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١/ ٣٦١، بترقيم الشاملة آليا)

عُزِّرَ لِمُخَالَفَتِهِ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ مَا إِذَا تَمَثَّلُوا بِصُورٍ أُخْرَى كَثِيفَةً (قَالَ) ، أَيُّ أَبُو هُرَيْرَةَ (فَخَلَّيْتُ) ، أَيُّ سَبِيلَهُ (عَنْهُ) يَعْنِي تَرَكْتُهُ ، وَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَخَذَ مِنَ الطَّعَامِ أَمْ لَأَ ، بَلْ وَلَأَنَّ الشَّيْطَانَ أَخَذَ أَوْ لَأَ أَيْضًا لَأَنَّ يَحْتَوِي يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى يُرِيدُ أَنْ يَحْتَوِيَ لِيَحْتَاجَ ابْنُ حَجَرٍ إِلَى مُعَالَجَةٍ كَثِيرَةٍ حَتَّى تُطَابِقَ الْحَدِيثَ قَوَاعِدُ مَذْهَبِهِ (فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ) - يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ عَلَى بِنَاءِ الْفَاعِلِ (أَسِيرُكَ) ، أَيُّ مَاخُذُكَ (الْبَارِحَةَ؟) ، أَيُّ اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ ، قَالَ الطَّبِيُّ فِيهِ: إِخْبَارُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِالْغَيْبِ وَتَمَكَّنُ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ أَخْذِهِ الشَّيْطَانَ وَرَدَّهُ خَاسِئًا وَهُوَ كَرَامَةٌ بِبِرْكَةِ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ - وَيُعْلَمُ مِنْهُ إِغْلَاءُ حَالِ الْمَتْبُوعِ ، وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلُ جَمْعِ زَكَاةِ فِطْرِهِمْ ثُمَّ تَوَكَّلَهُمْ أَحَدًا بِتَفْرِيقِهَا (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ) ، أَيُّ " النَّبِيِّ ﷺ - (أَمَّا) بِالتَّخْفِيفِ لِلتَّنْبِيهِ (إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ) بِالتَّخْفِيفِ ، أَيُّ فِي إِظْهَارِ الْحَاجَةِ (وَسِعُودُ) ، أَيُّ فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْهُ (فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) - أَنَّهُ سَيَعُودُ فَرَصَدْتُهُ (أَيُّ انْتِظَرْتُهُ وَرَاقَبْتُهُ ، وَقَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ: ثَانِي لَيْلَةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَلْ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ تَقْيِيدِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَوْلُهُ: مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْآتِي بِقَوْلِهِ الْبَارِحَةَ (فَجَاءَ يَحْتَوِي) حَالٌ مُقَدَّرَةٌ لَأَنَّ الْحَتُوَّ عَقَبَ الْمَجِيءَ لَا مَعَهُ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: فَجَاءَ فَجَعَلَ يَحْتَوِي اعْتِمَادًا عَلَى مَا سَبَقَ ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَأْخُذُ أَوْ يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ (مِنْ) الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: دَعْنِي) أَيُّ اثْرُكْنِي (فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ ، فَرَحِمْتُهُ) لَعَلَّهُ لِقَوْلِهِ لَا أَعُودُ وَإِلَّا فَقَدْ تَحَقَّقَ كَذِبُهُ فِي إِظْهَارِ الْحَاجَةِ عَلَى لِسَانِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ، وَقِيلَ: ظَنَّ أَنَّهُ تَابَ مِنْ كَذِبِهِ (وَوَحَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) - يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً ، أَيُّ شَدِيدَةً كَمَا فِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ (وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ) ، أَيُّ لِعَهْدِهِ بَعْدَ الْعُودِ وَلَعَلَّهُ تَرَكَهُ الرَّاوي اختصارًا (فَقَالَ: أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ) ، أَيُّ فِي عَدَمِ الْعُودِ (وَسَيَعُودُ فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْتَوِي مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) - وَذَكَرَ لَهُ مَا يَقْطَعُ طَمَعَهُ فِي أَنَّهُ يُطْلَقُهُ فَقَالَ (وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ إِنَّكَ) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: هَذَا الْمَجِيءُ الَّذِي جِئْتُه آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ ، إِنَّكَ تَعْلِيلٌ لِمَا تَضَمَّنَهُ كَلَامُهُ أَنَّهُ لَا يُطْلَقُهُ أَهْلًا وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مُبْتَدَأٌ وَآخِرُ بَدَلٍ مِنْهُ وَالْخَبَرُ أَنَّكَ (تَزْعُمُ) ، أَيُّ تَظُنُّ أَوْ تَقُولُ (لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ) وَفِي نُسْخَةٍ: تَزْعُمُ أَنْ لَا تَعُودُ ، أَيُّ تَظُنُّ أَنْ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ ، وَقَالَ الطَّبِيُّ: قَوْلُهُ أَنَّكَ تَزْعُمُ صِفَةُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَرَّةٍ مَوْصُوفَةٌ هَذَا الْقَوْلِ الْبَاطِلِ وَالضَّمِيرُ مُقَدَّرٌ ، أَيُّ فِيهَا أَهْلًا فَقَوْلُهُ: هَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى أَيْضًا وَعَدَّ بَعْدَ الْعُودِ وَهُوَ سَاقِطٌ اخْتِصَارًا ، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: كَلَامُ الشَّارِحِ بَعِيدٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَهُ: وَلَا أَعُودُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَهِيَ الثَّانِيَةُ أَهْلًا وَيُمْكِنُ دَفْعُهُ بِأَنَّ التَّزَامَ عَدَمَ الْعُودِ مُحَقَّقٌ إِمَّا صَرِيحًا أَوْ ضَمْنًا ، فَإِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُسْتَعِثَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَعُودُ (قَالَ: دَعْنِي) ، أَيُّ خَلَّنِي (أَعْلَمُكَ) بِالرَّفْعِ ، وَفِي نُسْخَةٍ بِالْحَزْمِ (كَلِمَاتٌ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا إِذَا أُوَيْتَ) بِالْقَصْرِ وَيُمَدُّ ، أَيُّ إِذَا قَصَدْتَ (إِلَى فِرَاشِكَ) لِأَجْلِ النَّوْمِ وَنَزَلَتْ فِيهِ (فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ " {اللَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥] " حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ) ، أَي إِلَى (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) وَظَاهِرُهُ يَدُلُّ عَلَى مَذْهَبِ الْكُوفِيِّ أَنَّ الْقَيُّومَ لَيْسَ رَأْسُ الْآيَةِ خِلَافًا لِلْبَصْرِيِّ (فَإِنَّكَ) ، أَي إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ (لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ) ، أَي مِنْ عِنْدِهِ أَوْ أَمْرِهِ (حَافِظًا) ، أَي مِنَ الْقُدْرَةِ أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ (وَلَا يَقْرُبُكَ) بِفَتْحِ الرَّاءِ (شَيْطَانٌ) لَأَدَّى دِينِي وَدُنْيَوِي وَهُوَ مُؤَكَّدٌ لِمَا قَبْلَهُ (حَتَّى تُصْبِحَ) ، أَي تَدْخُلُ فِي الصَّبَاحِ غَايَةً لِمَا بَعْدَ لَنْ، قِيلَ: ثُرِكَ الْإِسْنَادُ لَوْضُوحِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ: قَدْ كُوشِفَ لَهُ ذَلِكَ، ذَكَرَهُ الطَّبِيبِيُّ، قُلْتُ: لَكِنْ صَحَّ بِتَقْرِيرِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا سَيَأْتِي وَلِقَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ: " مَنْ قَرَأَهَا - يَعْنِي آيَةَ الْكُرْسِيِّ - حِينَ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ أَمَّنَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَى دَارِهِ وَدَارِ جَارِهِ وَأَهْلِ دُورَاتِ حَوْلِهِ " (فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟) لَمْ يَقُلِ الْبَارِحَةَ هُنَا أَيْضًا لِمَا سَبَقَ (قُلْتُ: زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ) ، أَي فِي التَّعْلِيمِ (وَهُوَ كَذُوبٌ) ، أَي فِي سَائِرِ أَقْوَالِهِ أَوْ فِي أَغْلَبِ أَحْوَالِهِ، وَفِي الْأَمْثَالِ الْكَذُوبُ قَدْ يُصَدَّقُ (تَعْلَمُ) ، أَي أَتَعْلَمُ (مَنْ تُخَاطَبُ) ، أَي التَّعْيِينُ الشَّخْصِيُّ (مُنْذُ ثَلَاثٍ) ، أَي لِيَالٍ (قُلْتُ: لَا، قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ) بِالتَّنْوِينِ مَرْفُوعًا وَإِنْ كَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ بِالنَّصْبِ لِأَنَّ السُّؤَالَ فِي قَوْلِهِ مَنْ تُخَاطَبُ عَنِ الْمَفْعُولِ، فَالْعُدُولُ إِلَى جُمْلَةِ الْأَسْمَاءِ وَتَشْخِصِهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لِمَزِيدِ التَّعْيِينِ وَدَوَامِ الْإِحْتِرَازِ عَنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ كَمَا ذَكَرَهُ الطَّبِيبِيُّ، وَالْمُرَادُ وَاحِدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ أَوْ إِبْلِيسَ، وَوَجْهُ صَرَفِهِ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ شَطْنٍ، أَي بَعْدَ قَالٍ فِي الْقَامُوسِ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ وَالشَّيْطَانُ مَعْرُوفٌ وَتَشْطِيطُ فَعَلَ فِعْلُهُ، وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ: ذَكَرَ الشَّيْطَانُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ إِذَا نَا بَتَغَايِرِهِمَا عَلَى مَا هُوَ الْمَشْهُورُ أَنَّ التَّكْرَرَ إِذَا أُعِيدَتْ بِلَفْظِهَا كَانَتْ غَيْرَ الْأُولَى، وَوَجْهُ تَغَايِرِهَا أَنَّ الْأَوَّلَ لِلْجِنْسِ لِأَنَّ الْقَصْدَ مِنْهُ نَفْيُ قُرْبَانِ تِلْكَ الْمَاهِيَةِ لَهُ، وَالثَّانِي لِفَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ ذَلِكَ الْجِنْسِ، أَي شَيْطَانٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَلَوْ عَرَفَ لَا وَهَمَ خِلَافَ الْمَقْصُودِ لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُشَارَ إِلَى السَّابِقِ أَوْ إِلَى الْمَعْرُوفِ الْمَشْهُورِ بَيْنَ النَّاسِ وَكِلَاهُمَا غَيْرُ مُرَادٍ، قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: الْحَدِيثُ دَالٌّ عَلَى أَنَّ تَعْلَمَ الْعِلْمَ جَائِزٌ مِمَّنْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا يَقُولُ بِشَرْطِ أَنْ يُعْلَمَ الْمُتَعْلَمُ كَوْنًا مَا يَتَعَلَّمُهُ حَسَنًا، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ حُسْنَهُ وَقُبْحَهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَعْلَمَ إِلَّا مِمَّنْ عَرَفَ دِيَانَتَهُ وَصَلَاحَهُ أَهـ وَفِيهِ أَنَّ الْأَحَادِيثَ الْمَوْضُوعَةَ كَثِيرَةٌ فِي مَعَانِ حَسَنَةِ الظَّاهِرِ كَفَضِيلَةِ السُّورِ وَالْعِبَادَاتِ وَالِدَّعَوَاتِ وَلَا يَجُوزُ التَّعْلَمُ فِي أَمْثَالِهَا إِلَّا مِنَ الثَّقَاتِ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) ٤٢٠.

فوائد من قصة أبي هريرة مع الشيطان:

هذه القصة يؤخذ منها فوائد كثيرة ومتعددة، فمن هذه الفوائد:

أولاً: أن الشيطان قد يعلم ما ينتفع به المؤمن.

ثانياً: أن الحكمة قد يعلمها الفاجر ولكنه لا ينتفع بها؛ لأنه لا يعمل بها، وربما تأخذ علماً من رجل فاجر، والعلم هذا نافع؛ ولكن الفاجر لا ينتفع به لفجوره.

ثالثاً: أن الشخص قد يعلم الشيء ولا يعمل به، وهذا كثير حاصل، وكثير من الناس عندهم معلومات كثيرة لكن لا يعملون بها، لو كانوا يعملون بالمعلومات التي عندهم لتغيرت أحوالهم؛ لكنها معلومات بدون عمل، ومعلومات بدون عمل لا تنفع، ولو كنا نعمل بعشر ما نعلم لتغيرت أحوالنا كثيراً.

رابعاً: أن الشيطان قد يَصْدُقُ أو يُصَدِّقُ ببعض ما يصدق به المؤمن، ومع ذلك لا يكون مؤمناً، هذا الشيطان يقول: إن هذه الآيات تحفظك من الشياطين، هو صدق بهذا لكن هذا التصديق لا يعني أنه مؤمن.

خامساً: أن الكذاب قد يصدق، فبعض الكذابين يمكن أن يصدقوا في بعض الأحيان مع أنهم كذابون، وهذا النبي ﷺ قال في الشيطان: (صدقك وهو كذوب).

سادساً: أن العادة والغالب على الشيطان الكذب، وأنه نادراً ما يصدق. وكذوب صيغة مبالغة من قوله: (صدقك وهو كذوب).

سابعاً: أن الشيطان قد يتصور بصورة يمكن للإنسي أن يراه من خلالها؛ لأن الله يقول في كتابه: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧]، الشيطان يراكم وأنتم لا ترونه {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ} [الأعراف: ٢٧] هو ومن على شاكلته من الشياطين يرونكم وأنتم لا ترونهم، فإذا كان الله يقول: {مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧] فكيف رآه أبو هريرة؟ وكيف رآه الصحابة الآخرون؟ فنقول: عندما تصور بصورة أخرى غير الصورة الأصلية، أي: أنه لو كان هو على شكله الأصلي الحقيقي فلا يمكن أن نراه {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧] لكن إذا تشكل بصورة كلب أو حية أو على صورة هذا الكائن المهزول كأن ذراعيه ذراعي كلب، فحينها يمكن أن نراه؛ لأنه تشكل بصورة أخرى، فنراه بهذه الصورة التي تشكل عليها، لكن الصورة الأصلية التي خلقه الله عليها لا يمكن أن نراه وهو عليها {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧].

ثامناً: أن الشخص الذي يقام على حفظ الأشياء يسمى وكيلاً، فمن يوكل بحفظ الصدقة فهو وكيل. تاسعاً: أن الجن يأكلون من طعام الإنس، قال الله عز وجل: {وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} [الإسراء: ٦٤] والطعام يدخل في الأموال، فإذا أردت أن تمنع الشيطان من مشاركتك في الطعام فقل: باسم الله، وإذا دخلت منزلك فقل: باسم الله فإنه لا يدخل معك، وإذا قدم الطعام فقلت: باسم الله فإن الشيطان يقول: لا مبيت لكم ولا عشاء، فإذا تستطيع أن تحرم الشيطان من مشاركتك في الطعام عندما تسمي الله عليه. وكذلك إذا كان إناء فيه طعام غطه، وقل: باسم الله، فإن من فائدة تغطيته

وقول: باسم الله منع الشيطان من الأكل منه، وإن الشيطان يأكل ويشرب من الإناء المفتوح، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ولو أن تعرض عليه عوداً وتسمي الله) فلو وضعت عوداً دون الغطاء، وقلت: باسم الله، فلا يستطيع الشيطان أن يأكل أو يشرب منه. وكذلك يفيد في منع نزول الداء من السماء، فإن في السنة ليلة يتزل فيها داء كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا شيء غيبي، فإذا غطيت الإناء فلا يتزل الداء، فإذا فائدة تغطية الإناء، وقول: باسم الله ما يلي: أولاً: منع الداء.

ثانياً: منع الشيطان من أن يشاركك في مطعمك ومشروبك.

ثالثاً: أن باسم الله تمنع الشيطان من النظر إليك. فإذا قال إنسان: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ {وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧] فإننا نريد أن نخلع ثيابنا، وأن ندخل للاغتسال، وأن يأتي الرجل أهله فما هو الحل؟ وهل نبقي نحن نهباً لأعين الجن يرون عوراتنا؟ فنقول: لا. فإن النبي ﷺ أخبر بأن الرجل إذا أراد أن يخلع ثيابه فسمى الله، فإن الشيطان لا يستطيع أن ينظر إلى عورته، وهذا حفظ للعورة، وإذا خلع الثياب قال: باسم الله، وإذا أتى أهله قال: باسم الله. وكذلك باسم الله تمنع من المشاركة في الأولاد؛ فإنه ورد في تفسير قوله تعالى: {وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} [الإسراء: ٦٤]: أن الشيطان يشارك الإنسان في وطء زوجته، فيشاركه في الأولاد، فإذا قلت: باسم الله قبل الجماع منعت الشيطان مشاركتك في الأولاد. فباسم الله تمنعه من دخول بيتك، ومن طعامك، وشرابك، ومن رؤية عورتك، ومشاركتك زوجتك، ومن هذا يتبين لنا أهمية هذه الكلمة.

عاشراً: أن الشياطين قد يتكلمون باللغة العربية، وقد تسمعه أيضاً باللغة التي عليها هذا الرجل، قد يتكلم باللغة الإنجليزية أو الفارسية. حدثوا أن أبا علقمة النحوي - وكان رجلاً متقراً في الكلام يأتي بالكلام الوحشي - كان ذات مرة يمشي في الطريق، فأصابه شيء فسقط، فتجمع عليه أهل السوق، هذا يعصر إبهامه، وذاك يقرأ في أذنه، وذلك يؤذن في الأذن الأخرى، فقال: مالكم تكأكم علي كنتأكم على ذي جنة افرنقوا عني. فقالوا: شيطانه يرطن بالفارسية أو بالهندية. فقلوه: (تكأكم علي) أي: تجمعتم علي كتجمعكم على ذي جنة، أي: كتجمعكم علي من دخل فيه الجني، (افرنقوا عني) أي: انفضوا واذهبوا عني، فقالوا: هذا شيطانه يتكلم بالهندية أو بالفارسية. إذاً يمكن للشيطان أن يتكلم باللغات الحية المعروفة، ولا شك أنهم يعلمون أن منهم من يتكلم العربية، ومنهم من يتكلم غيرها، وفيهم أهواء وبدع؛ عندهم قدرية ورافضة ومرجئة ومبتدعة، ومشركون، وضلال {وَمِنَّا} دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا} [الجن: ١١] حتى البدع موجودة عند الجن.

حادي عشر: في هذا الحديث أن الشياطين يسرقون ويخدعون، ما هو وجه السرقة هنا؟ لما جعل يحثو من الطعام ويأخذ منه بكفيه، وفي الرواية الأخرى: أنه كان يأخذ فينقص الطعام، ويخدعون لما قال له: لا أعود ثم عاد وقال له: لا أعود ثم عاد، هذا خداع.

ثاني عشر: فضل آية الكرسي، ومن الروايات الأخرى يؤخذ فضل آخر سورة البقرة.

ثالث عشر: أن الجن يصيبون من الطعام الذي لا يذكر اسم الله عليه.

رابع عشر: أن يد السارق لا تقطع في المجاعة، ويمكن أن يقال: إن المسروق لم يبلغ نصابه.

خامس عشر: قبول العذر والستر على من يظن به الصدق، فإذا جاء أحد ظهر لك منه الصدق، وأمسكت به وهو يسرق شيئاً من عندك، وعندما حققت معه شكا الحاجة والفقر والعيال ولا يظهر منه خلاف ذلك، فالذي يظهر منه -فعلاً- الفقر والشدة والمسكنة، فالأفضل لك أن تعذره بما فعل، ولا تأخذه بما اقترف، من باب قبول العذر والستر على من يظن به الصدق، وأبو هريرة رضي الله عنه في المرة الأولى هكذا كان حاله، فقد ظن به أنه محتاج فعلاً، وأنه أهل للرأفة والرحمة فتركه.

سادس عشر: اطلاع النبي ﷺ على المغيبات؛ لأن أبا هريرة لما جاء النبي عليه الصلاة والسلام لم يقص عليه القصة، بل النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي قال له: (ما فعل أسيرك البارحة؟) فما الذي أدرى النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان هناك أسير مع أن أبا هريرة لم يخبره؟ جاء أبو هريرة النبي عليه الصلاة والسلام وبأداه بالقول: (ما فعل أسيرك البارحة؟) فإذا النبي عليه الصلاة والسلام يطلعه الله على شيء من الغيب.

سابع عشر: جواز جمع زكاة الفطر قبل ليلة الفطر لتفريقها بعد ذلك، وأنه يجزئ إخراجها قبل العيد، وكما قال العلماء: يجوز إخراج زكاة الفطر قبل العيد بيوم أو يومين، وكان يقوم العامل في عهد الصحابة الموكل من بيت المال من الخليفة بأخذ الزكاة قبل العيد بيوم أو يومين، وإذا كان الشهر ثلاثين فثلاث ليال، ولو كان تسعة وعشرين فقبلها بيوم أو يومين، يوم وتسعة وعشرين.

ثامن عشر: أن زكاة الفطر تخرج طعاماً كما تقدم ذكره.

تاسع عشر: يقين الصحابة بكلام النبي عليه الصلاة والسلام وتصديقهم به، عندما قال أبو هريرة: (فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: إنه سيعود) مجرد أن الخبر من النبي ﷺ أنه سيعود أيقن أبو هريرة أنه سيعود. عشرون: فضل قراءة آية الكرسي قبل النوم؛ لأن الشيطان قال: إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } [البقرة: ٢٥٥] فإذا متى تقرأ بناءً على تعليمات الشيطان الرحيم؟ إذا أويت إلى فراشك، ليس لأنها وصية الشيطان بل لأن النبي ﷺ أقر ذلك، وإلا فالشيطان لا سمع له ولا طاعة، فلم يصبح تشريعاً بكلام الشيطان بل صار تشريعاً لما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (صدقك)، وهذه الفائدة التالية. حادي وعشرون: لما قال: (صدقك)، هو التشريع وليس كلام الشيطان. ثاني وعشرون: أن آية الكرسي تمنع شياطين الإنس والجن في ظاهر النص -سواء كان في الأمور الدينية- من أن يقترب من الإنسان؛ لأنه يقول: ولا يقربك شيطان، وكلمة (شيطان) نكرة (ولا يقربك) نفي، فلا يقربك شيطاناً حتى تصبح. ثالث وعشرون: كرامة الله تعالى لأبي هريرة عندما استطاع أن يلقي القبض على الشيطان، وليس آحاد الناس يستطيعون

القبض على الشيطان، لكن أبا هريرة استطاع أن يلقي القبض عليه، فما استطاع الشيطان أن يفر منه، فلذلك قال: (فرحمته فخلت سبيله) وإلا لو لم يخل سبيله لما استطاع الشيطان أن يهرب منه^{٤٢١}.

ما هي الوسائل التي نحذر بها من الشيطان؟؟

- الحذر والحيلة واحذ التأهب
- الاعتصام والالتزام بالكتاب والسنة
- الالتجاء والاحتماء بالله تعالى (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ) (المؤمنون)
- الإستعاذه بالله
- الاشتغال بذكر الله تعالى
- أن يلتزم الإنسان بالصحة الصالحة
- مخالفة الشيطان في كل الأمور
- الاستغفار^{٤٢٢}.

أسباب فضل آية الكرسي:

إن قال قائل: ما هي الميزة الموجودة في آية الكرسي حتى تمنع الشياطين من إيدائنا؟
 فالجواب: إن هذه الآية هي أعظم آية في كتاب الله تعالى، كما أخبر النبي ﷺ ذلك الصحابي، وأن هذه الآية إذا قرأها رجل في دبر كل صلاة -أي: بعد كل صلاة- لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه النسائي رحمه الله وغيره، فآية الكرسي إذاً تقرأ قبل النوم وكذلك في أدبار الصلوات، وهي أفضل آية في كتاب الله عز وجل. ومن أسباب فضلها:

- ١- اشتغالها على الاسم الأعظم: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥] في البقرة، وفي آل عمران {الْم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: ١-٢]، وفي طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: ١١١]. ٢- وكذلك فإن هذه الآية هي عشر جمل مستقلة:
 - أ- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [البقرة: ٢٥٥] متفرد بالألوهية.
 - ب- {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥] الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، والقيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد: ٣٣] .. {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم: ٢٥] فكل الموجودات لا قوام لها إلا بالله عز وجل، ولا غنى لها عن الله عز وجل أبداً، فكل الموجودات مفتقرة إلى الله.

^{٤٢١} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٢ / ١٤٤) وفتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (٤ / ٤٨٩)

^{٤٢٢} - <http://knowingallah.com/v-2291/Document.aspx?id=2291>

ج- { لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ } [البقرة: ٢٥٥] لا تعتريه سبحانه وتعالى غفلة ولا ذهول، ولا نعاس، ولا نوم: أي: استغراق في النوم وغياب عن الوعي أبداً.

د- { لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [البقرة: ٢٥٥] الجميع عبيده وتحت قهره وملكه: { إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } [مريم: ٩٣].

هـ- { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } [البقرة: ٢٥٥] لا يتجاسر أحد أن يشفع لأحد عند الله إلا إذا أذن الله، ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام لكي يشفع لا بد أن يستأذن، وإذا أراد يوم القيامة أن يستأذن يأتي تحت العرش ويخر ساجداً، فيدعه الله ما شاء أن يدعه، ويعلمه من المحامد ويفتح عليه من الثناء أشياء لم يعلمها أحداً فيعلمه إياها، وبعد ما يقولها ينتظر الناس النتيجة، ويسجد من تحت العرش ما شاء الله أن يسجد من الوقت، بعد ذلك يقول: (يا محمد! ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع) فهذا سيد الخلق لا يمكن أن يشفع إلا إذا أذن الله.

و- { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [البقرة: ٢٥٥] إحاطته سبحانه وتعالى بجميع الكائنات، وإحاطته بالحاضر والماضي والمستقبل، والجن من الغيب، والله سبحانه وتعالى يحيط بهم ويعلمهم { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [البقرة: ٢٥٥].

ز- { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ } [البقرة: ٢٥٥] فلا يطلع أحد على شيء من علم الله إلا من أطلعهم الله، ولولا أنه أطلعهم ما اطلعوا ولا عرفوا.

ح- { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ } [البقرة: ٢٥٥] الكرسي: موضع قدمي الرب سبحانه وتعالى، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، الكرسي عظيم جداً وفي غاية الاتساع وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ [البقرة: ٢٥٥] هذا الكرسي كيف العرش؟ { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ } [البقرة: ٢٥٥] لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بسطت ووصل بعضها ببعض ما كانت في الكرسي إلا مثل الحلقة في صحراء من الأرض، والسماوات السبع والأرضين لو بسطت ووصل بعضها ببعض فإن مساحتها بالنسبة للكرسي مثل الحلقة التي ألقيت في صحراء من الأرض، هذا الكرسي الذي هو موضع قدمي الرب فكيف العرش العظيم؟ (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة في الأرض) . الآن نسبة كل السماوات السبع والأرضين إلى الكرسي مثل حلقة في صحراء، والكرسي نسبته إلى العرش -أيضاً- مثل حلقة في صحراء، والله أكبر من العرش، وهذا يعطيك معنى عظيماً عندما تقول: الله أكبر من كل شيء، السماوات والأرض تضيع في الكرسي، والكرسي يضيع في العرش، والله أكبر من الكرسي ومن العرش ومن السماوات ومن الأرض، استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، فعندما نقول: الله سبحانه وتعالى عظيم كبير، فهو شيء لا يوصف أبداً، ولا يمكن أن يتخيله المتخيلون ولا يصفه الواصفون. نحن -الآن- في الأبعاد الفلكية هذه عقولنا تضيع ولا نستطيع جمع مسافات هذه السنوات الضوئية، وهذه كلها لا

شيء بالنسبة لله سبحانه وتعالى، وبالنسبة للعرش والكرسي، ولذلك فإن الله عز وجل من عظمته أنه خلق هذه الأشياء العظيمة وهي لا تقارن به سبحانه.

ط- { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا } [البقرة: ٢٥٥] لا يثقله، ولا يكرثه، ولا يعجزه، ولا يتعبه، ولا يشق عليه حفظ السماوات والأرض ومن فيهن، فهو سهل يسير عليه سبحانه وتعالى. أنت كم تستطيع أن ترعى من ولد في نفس الوقت؟ المرأة كم تستطيع أن ترعى من الولد في البيت في نفس الوقت؟ تحافظ عليهم؟ إذا زادوا عن عدد معين هذا يسقط، وهذا يجرح، وهذا يصطدم بجدار، وهذا يضرب، وهذا وهذا، لا تستطيع السيطرة عليهم، فالله سبحانه وتعالى لا يئوده حفظ كل من السماوات والأرض وما فيهما من الإنس والجن والملائكة وجميع العوالم، وهذا شيء يسير على الله سبحانه وتعالى.

ي- { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [البقرة: ٢٥٥] آخر جملة في الآية هي قوله: { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [البقرة: ٢٥٥] كقوله تعالى: الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ [الرعد: ٩]. فهذه تبين لنا بجلاء عظم قدرة الله عز وجل، وأنه سبحانه قائم على جميع الأشياء التي منها الجن، وأنه لا يخرج شيء منها عن ملكه، فالتحصن بهذه الآية التي معنا: أنك تلتجئ إلى الله، وتعتصم به وبقدرته وبحفظه وكلاءته ورعايته فيقيك من شر الشيطان، فإنك في الحقيقة إذا قرأتها بهذه النية فأنت تلتجئ إلى من لا ينام ولا يغفو ولا يسهو، وأن له ما في السماوات وما في الأرض، وأن الجن هؤلاء والشياطين لا يخرجون عن ملكه ولا عن قدرته، وأنه يعلم حركات الجن والشياطين، ولا يئوده حفظهما وما فيهما { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [البقرة: ٢٥٥] فأنت في الحقيقة تعتصم بالله بقدرته وبعظمته، فلذلك ينحيك هذا الاعتصام ويحفظك بالتأكيد إذا كنت بالله مؤمناً وعليه متوكلاً ولا بد من هذا، والمسألة مسألة يقين وتوكل^{٤٢٣}.

وسائل التوقي من الشيطان:

إذا قال قائل: ما هي الوسائل التي نستطيع أن نحذر بها من الشيطان؟
فالجواب:

الوسائل كثيرة، فمن ذلك:

- ١- الحذر، والحيلة -أخذ التأهب- والاعتصام والالتزام بالكتاب والسنة.
- ٢- الالتجاء إلى الله والاحتماء به سبحانه وتعالى: { وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ } [المؤمنون: ٩٦-٩٨].

^{٤٢٣} - http://islamnour.over-blog.com/article-٦٣٥٧٥٠٦٠.html

http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=FullContent&audioid=٢٣٢٠٩٢

٣- الاستعاذة عند دخول الخلاء، وعند الغضب، وعند الجماع: (اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا). عند الغضب: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم). وعند دخول الخلاء: (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث).. (إذا نطق الحمار تعوذوا بالله من الشيطان الرجيم - لماذا؟- لأنه رأى شيطاناً). عند قراءة القرآن تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، حتى أولادك وأهلك تعوذهم، وكان الحسن والحسين يعوذهما النبي ﷺ بقوله: (أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة) والهامة: مفرد الهوام، وهو كل من يهم بسوء.

٤- الاشتغال بذكر الله تعالى مما يحمي العبد من الشيطان، وعلى رأس الذكر القرآن، وعلى رأس القرآن آية الكرسي. والأذكار كثيرة، وآية الكرسي واحدة من هذه الأذكار، وإذا لازم الإنسان الصالحين فإن في ذلك حفظاً له من الشيطان؛ لأن الذئب يأكل من الغنم القاصية، فالذي يتفرد عن جماعة المسلمين فإن الشيطان يتسلط عليه، (الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد) ولذلك إذا كان الإنسان مع القوم الصالحين فإنه يحمي نفسه من الشيطان.. الشيطان يأكل بشماله وأنت تأكل بيمينك.. الشيطان يشرب بشماله وأنت تشرب بيمينك.. الشيطان يعطي بشماله وأنت تعطي بيمينك.. الشيطان يأخذ بشماله وأنت تأخذ بيمينك، حتى اللقمة إذا وقعت منك لا تدعها للشيطان، وإذا علمت أن العجلة من الشيطان كما قال النبي ﷺ: (العجلة من الشيطان) فلا تستعجل بل تتأن، التثاؤب مدخل للشيطان فعليك أن تسد الطريق عليه وتضع يدك عند الثاؤب على فمك، الاستغفار -مثلاً- يقطع الطريق على الشيطان فعليك أن تلزمه... وهكذا. فهناك وسائل كثيرة تنجي العبد من الشيطان، فينبغي الالتزام بها، والحفاظة عليها، وهذا ذكر بعض ما تضمنه حديث أبي هريرة من الفوائد، والله سبحانه وتعالى أعلم.^{٢٤}

فقه الحديث :

فقه الحديث: دل هذا الحديث على ما يأتي:

أولاً: أن الوكيل إذا تصرف في الشيء الذي وكل عليه، فمكّن غيره من الأخذ منه، أو أقرض، وأسلف منه، بدون إذن موكله، فإن ذلك يجوز بموافقة موكله. وإجازته له، فإن لم يجزه، لا يجوز تصرفه هذا ولا يصح شرعاً، وهو ما ترجم له البخاري، أمّا دليل جوازه إذا أجازته موكله وأمضاه فهو حديث الباب، حيث إن هذا الشخص المجهول. كان يأخذ كل ليلة من طعام صدقة الفطر الذي كان أبو هريرة وكيلاً عليه، ولم ير أبو هريرة في ذلك حرجاً ما دام رسول الله - ﷺ - قد أجازته وأمضاه بعد علمه به.

^{٢٤} - http://www.islamprophet.ws/ref/ ٣٤٧

ثانياً: فضل آية الكرسي، وأنها حصن منيع لقارئها تصونه من كل مكروه وتحفظه من جميع الآفات والمخاوف والأرواح الشريرة من الجن والشياطين طوال تلك الليلة حتى الصباح لقوله في الحديث: " فاقراً آية الكرسي من أولها حتى تختتم، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان " فقد صدّق رسول الله - ﷺ - هذه المقالة حيث قال: " أما إنه قد صدقك ".

ثالثاً: أن الحكمة ضالة المؤمن، وأن كلمة الحق مقبولة من قائلها سواء كان صالحاً أو فاسقاً، فإن العبرة بالقول لا بقائله، قال العيني: وفيه جواز تعلم العلم ممن لم يعمل بعلمه.^{٤٢٥}



^{٤٢٥} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٢٢)

قصة الرجل الذي جامع في نهار رمضان

عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ. قَالَ: «مَا لَكَ؟» قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتَقُهَا؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قَالَ: لَا، فَقَالَ: «فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا». قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أَتَى النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ - وَالْعَرَقُ الْمَكْتُلُ - قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» فَقَالَ: أَنَا، قَالَ: «خُذْهَا، فَتَصَدَّقْ بِهِ» فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعْلَى أَفْقَرِ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَنَيْهَا - يُرِيدُ الْحَرَتَيْنِ - أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»^{٤٢٦}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: هَلَكْتُ، قَالَ: «وَلِمَ؟» قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى أَهْلِي فِي رَمَضَانَ، قَالَ: «فَاعْتَقِ رَقَبَةً» قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي، قَالَ: «فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا» قَالَ: لَا أَجِدُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ، فَقَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» قَالَ: هَا أَنَا ذَا، قَالَ: «تَصَدَّقْ بِهِذَا» قَالَ: عَلَى أَحْوَجَ مِنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا بَيْنَ لَابَنَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَحْوَجُ مِنَّا، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، قَالَ: «فَأَنْتُمْ إِذَا»^{٤٢٧}

وَعَنْ عَبَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: أَتَى رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فِي رَمَضَانَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، احْتَرَقْتُ، احْتَرَقْتُ، فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا شَأْنُكَ؟» فَقَالَ: أَصَبْتُ أَهْلِي، قَالَ: «تَصَدَّقْ» فَقَالَ: وَاللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَالِي شَيْءٌ، وَمَا أَقْدَرُ عَلَيْهِ، قَالَ: «اجْلِسْ» فَجَلَسَ، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ رَجُلٌ يَسُوقُ حِمَارًا عَلَيْهِ طَعَامٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ

^{٤٢٦} - صحيح البخاري (٣/ ٣٢) (١٩٣٦) وصحيح مسلم (٢/ ٧٨١) - (١١١١)

[ش(هلكت) فعلت ما يستوجب الهلاك والعقوبة. (وقعت على امرأتى) جامعتها. (رقبة) عبد مملوك أو أمة. (تعتقها) تحررها من الرق. (فمكث) جلس ينتظر. (الحرتين) مثنى حرة وهي أرض ذات حجارة سوداء والمدينة بين حرتين. (أنيا به) هي الأسنان الملاصقة للرباعيات وهو علامة شدة ضحكته صلى الله عليه وسلم وكان ذلك منه تعجبا من حال الرجل وسرورا من حسن توسله وتلفه للوصول إلى مقصوده]

^{٤٢٧} - صحيح البخاري (٧/ ٦٦) (٥٣٦٨) ومستخرج أبي عوانة (٢/ ٢٠٢) (٢٨٥١) [ش (فأنتم إذا) أي أنتم حينئذ أحق بهذا التمر]

قَالَ أَبُو عَوَانَةَ: فِيهِ دَلِيلٌ أَنَّ مَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فَضْلٌ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَلِعِيَالِهِ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ أَنْ يُكْفِّرَ مِنْ قُوْتِهِ وَقُوْتِ عِيَالِهِ، وَعَلَى إِجَارَةِ إِطْعَامِ عِيَالِهِ مِنْ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، مستخرج أبي عوانة (٢/ ٢٠٣)

الْمُحْتَرِقُ آفَافًا؟» فَقَامَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَصَدَّقْ بِهَذَا» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغَيَّرَنَا؟ فَوَاللَّهِ، إِنَّا لَجِيَاعٌ، مَا لَنَا شَيْءٌ، قَالَ: «فَكُلُّوهُ»^{٤٢٨}

الفوائد المستنبطة:

- ١- دلّ الحديث على الجلوس عند أهل الفضل والعلم؛ لقول الراوي: "بينما نحن جلوس عند رسول الله" وهذا الجلوس له فوائد التي لا تحصى.
- ٢- ظاهر الحديث ترك الرجل للسلام، ولعل السبب يرجع إلى ذهوله عن السلام لخطورة ما ارتكبه من الجماع.
- ٣- في الحديث دلالة على أن المستفتي يذهب إلى المفتي في مكانه، ويسعى حتى يصل إليه؛ لأن الأمر يتعلّق بدينه، فالرجل ذهب للنبي -ﷺ-.
- ٤- الرجل قطع كلام أهل ذلك المجلس، وعلى هذا يجوز قطع الحديث إن كان هناك ما يستدعي كما في قصة هذا الرجل.
- ٥- دلّ الحديث على أن مجلس النبي -ﷺ- مفتوحاً لمن أراد الدخول، وعلى هذا ينبغي أن يكون العالم في استقباله للناس في بيته.
- ٦- في الحديث دلالة على أن العالم عليه أن ينفع الناس، ويفتي في كل وقت، فالرجل عندما وقعت عليه الواقعة ذهب للنبي -ﷺ- في الوقت الذي يستطيع الوصول إليه، وهذا مما يجعل أناس يتعلّقون بالعالم، ويكون أقرب إلى قلوبهم.
- ٧- عدم ذكر اسم الرجل حينما يكون له أمر مخرج، إذا لم يترتب على بيان اسمه أمر ذا بال، ولهذا لم يذكر أبو هريرة -رضي الله عنه- اسم الرجل، ولم يسأله النبي -ﷺ-.
- ٨- في الحديث جواز قول "هلكت" للنفس إن وُجد سبب ذلك، ولهذا لم ينكر النبي -ﷺ- على الرجل قوله ذلك.
- ٩- في الحديث الاستفسار عن الكلام المبهم، فالرجل قال: "هلكت"، فاستفسر النبي -ﷺ- عن ذلك.
- ١٠- يدل على التلميح دون التصريح فيما يستحي من ذكره ويستقبح، ولهذا قال الرجل: "أصبت أهلي"، وفي رواية: "وقعت على أهلي"، ولم يصرح بغيره.
- ١١- قول الرجل: "هلكت" تدل على أن الرجل كان متعمداً، لعلمه أنه فعل ما يسبب له الهلاك، وعلى هذا فلا يصح الاحتجاج بعموم الحديث على أن الناسي عليه الكفارة.
- ١٢- فيه عرض الرجل ما يصيبه على أهل العلم.

^{٤٢٨} - صحيح مسلم (٢/٧٨٣) - ٨٧ - (١١١٢)

١٣- فيه قرب العالم من الناس، بحيث كلما أصابهم أمر فزعوا إليه، وهذا لا يكون إلا مع المخالطة والقرب.

١٤- في الحديث البحث عن حل لما يواجه الإنسان من مشكلات، وأن مجرد كتمها والسكوت عنها لا يحل المشكلة، ولهذا الرجل لم يكتم الأمر، وإنما طلب النبي -ﷺ- لعرضها عليه.

١٥- يدل الحديث على أنه لا بأس للإنسان الذي يبحث عن حل لمشكلة أن يصرح بذنبه، ويظهر ما خفي من أمره.

١٦- كما يدل على أن ذكر الذنب على سبيل الندم لا يذم، وغير مستقبح. دل قول الرجل: "هلكت"، وفي رواية: "احتقرت"، على أن الوقوع في الذنوب يعتبر هلاكاً، وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- في كتابه "الجواب الكافي" كثيراً من آثار الذنوب والمعاصي على الإنسان، وهي جديرة بالمطالعة.

١٧- دلّ الحديث على أن المعترف بالذنب لا يلام على ذنبه، ولا يعزرر، ويكتفى بندمه واعترافه وطلبه الخروج مما هو فيه.

١٨- في الحديث دلالة على أن المذنب عليه أن يندم من ذنوبه، ولهذا أتى الرجل نادماً فقال: "هلكت" وهي كلمة تدل على ندم وحرقة في القلب، والندم أول مراتب التوبة.

١٩- في الحديث أن العالم الذي يستفتيه الناس لا يغضب من أسئلتهم، فهي متعددة ومتنوعة، وبعضها وقوع في الحرمات وغير ذلك، مما يستلزم على العالم أن يكون بهم رحيماً.

٢٠- دلّ الحديث على أن الرجل المستفتي يصدق في قوله عن نفسه، فإن الرجل في الحديث ادّعى الفقر، وعدم الاستطاعة على الصيام، وعدم وجود رقبة يعتقها، ومع ذلك لم يسأله النبي -ﷺ- البينة.

٢١- في الحديث دلالة على أن المفتي يبدأ بذكر الكفارة ما دام حكم الفعل معلوماً، فالنبي -ﷺ- لم يذكر حكم الجماع في نهار رمضان؛ لأن الرجل يعرف ذلك بدلالة الحال، ولهذا اكتفى بذكر الكفارة.

٢٢- الحديث نصّ على أن الجماع في نهار رمضان يفطر. الحديث نصّ أيضاً على أن كفارة الجماع في نهار رمضان هي ثلاثة أمور: "إعتاق رقبة، فإن لم يستطع فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً".

٢٣- دلّ الحديث على أن كفارة الجماع على الترتيب؛ لأن النبي -ﷺ- رتب الكفارة على الرجل ترتيباً، ولم يضع الخيار أمامه.

وهذه مسألة اختلف فيها أهل العلم على قولين، الصحيح منهما -فيما يظهر والله أعلم-: أن الكفارة على الترتيب وليست على التخيير، استدلالاً بواقع الحوار بين النبي -ﷺ- وبين الرجل.

- ٢٤- أمر النبي -ﷺ- الرجل أن يعتق رقبة، ولم يحدد له الإيمان من عدمه، وعلى هذا اختلف أهل العلم في هذه المسألة: هل يشترط الإيمان في عتق كفارة الجامع في نهار رمضان أم لا يشترط؟ والمسألة محتملة لقوة الأدلة فيها، وأصلها مسألة أصولية وهي:
- إذا اختلف السبب واتحد الحكم، هل يحمل المطلق على المقيد؟^{٤٢٩}
- والأقرب -والله أعلم- أن الجامع في نهار رمضان يعتق رقبة مؤمنة قياساً على غيرها من الكفارات.
- ٢٥- الحديث نصّ على أن الشهرين متتابعان في كفارة الجامع في نهار رمضان، فلا يجوز قطعهما إلا بعذر، لقوله -ﷺ-: ((فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين)).
- ٢٦- الحديث أيضاً نصّ على أن عدد المساكين ستين مسكيناً، لقوله -ﷺ-: ((فهل تجد إطعام ستين مسكيناً))، وعلى هذا فلا يصح إطعام ثلاثين مسكيناً يومين، لأن العدد منصوص عليه.
- ٢٧- الحديث نص على أن الذين يصرف لهم الإطعام في كفارة الجامع هم فئة المساكين.
- ٢٨- إطلاق قول النبي -ﷺ-: ((إطعام ستين مسكيناً)) ودعوى الرجل الفقير يدل على أن ضابط الفقر والمسكنة يرجع للعرف؛ لأن النبي -ﷺ- أطلق لفظ المساكين، وأوكل فهم ذلك للأعرابي، وبالتأكيد أنه يفهم الكلمة حسب عادته وعرفه.
- ٢٩- الحديث دلّ على أن إخبار الإنسان عن فقره، وضعف حالته المادية، وظروفه المعيشية لا يدخل في باب الشكوى المذمومة، ولهذا ذكر الرجل فقره للنبي -ﷺ-.
- ٣٠- الحديث يدل على جواز قول: "لا" للأكابر وأهل الفضل، فقد قال الرجل: "لا"، للنبي -ﷺ-، وقد كررها بتكرار السؤال.
- ٣١- الحديث يدل على أن المسلم يسأل عن دينه ولو كان سؤاله مما يستحى منه، فلا ينال العلم مستحٍ ولا مستكبر.
- ٣٢- الحديث يدل على السؤال في محضر من القوم، فلا يشترط في السؤال الخفاء، وإنما يجوز ذكره على المألّ من الناس، فقد ذكر الرجل سؤاله بين أناس كثير، كما يفهم من قول الراوي: "بينما نحن جلوس عند رسول الله"، ويدل عليه أيضاً قول النبي -ﷺ-: ((أين السائل؟))، فلو كان العدد قليلاً لم يجهله النبي -ﷺ-.

^{٤٢٩} - أصول الفقه - أسامة سليمان (١/ ٥، بترقيم الشاملة آليا) والتجوير شرح التحرير (٦/ ٢٧٤١) والمطلق والمقيد (ص: ٢٤٩) وحاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (٢/ ٨٧) وشرح تنقيح الفصول (ص: ٢٦٧) وشرح قواعد الأصول ومعاقد الفصول (١٦/ ١٤، بترقيم الشاملة آليا) وشرح مختصر التحرير للفتوح (٥٣/ ١٣، بترقيم الشاملة آليا) ومختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٣/ ٤٠٢)

٣٣- يستنبط من الحديث أنه يجوز إطالة الجلوس عند الإنسان إن كانت لا تضر، فقد كان القوم جلوساً عند النبي -ﷺ- قبل مجيء الرجل، واستمر الرجل أيضاً جالساً معهم حتى أتى النبي -ﷺ- بعرق فيه تمر، ولا شك أن هذا الجلوس طويل نوعاً ما.

٣٤- دلّ الحديث على جواز قول: "أنا"، فقد قال الرجل حينما سأل النبي -ﷺ-: ((أين السائل))، قال الرجل: "أنا".

وإنما يكره قول: "أنا"، حينما يكون على سبيل الفخر والكبر، كما قال إبليس: "أنا خير منه".
٣٥- دلّ الحديث على مراعاة فقه الأولويات، فالنبي -ﷺ- قال للرجل: ((خذ هذا وتصدّق به))، مع وجود فقراء أشد فقراً من هذا الرجل، إلا أن هذا الرجل يريد خلاص ذمته وبراءتها، فقدمه النبي -ﷺ- على غيره.

٣٦- يؤخذ من الحديث أن أهل العلم والفضل عليهم إنهاء حاجات الناس دون تطويل أو مفاطلة، فالرجل بمجرد شكواه للنبي -ﷺ-، قال له النبي -ﷺ-: ((خذ هذا وتصدّق به)).

٣٧- يستفاد من الحديث حسن الطلب بالأسلوب المناسب، فالرجل طلب طعاماً لأهله بأسلوب مناسب فحصل له مقصوده، وكم ضيع سوء الأسلوب من حق، فضلاً عن جلب نفع خارجي.

٣٨- دلّ الحديث على جواز الضحك أمام الناس ما لم يخل بالآداب، فقد ضحك النبي -ﷺ- بين القوم حتى بدت أنيابه.

٣٩- على القول بأن ضحكه -ﷺ- تعجباً من حال الرجل؛ فيدل على جواز الضحك في حال التعجب، وأن الإنسان يكتفي به عن التوبيخ.

٤٠- دلّ الحديث على خروج الأسنان في الضحك أمام الغير، وأن ذلك لا يخل بالمروءة، فقد خرجت أنياب النبي -ﷺ- أمام ذلك المجلس.

٤١- دلّ ظاهر الحديث على جواز المسألة لمن كان محتاجاً.

٤٢- في الحديث بيان لخصلة يجبل عليها الإنسان، وهو حب الطمع والتزود، فالرجل بعد أن كان يسأل عن مخرج له من ذنبه الذي فعله، أصبح يسأل لأهله الطعام، ومع ذلك تعامل النبي -ﷺ- مع هذا الموقف بما يفيد فن التعامل مع الخصال الفطرية في البشر.

٤٣- في الحديث رافة العالم بالناس واللين معهم، بما في ذلك من وقع في الذنب، وأسرف على نفسه بالمعاصي.

٤٤- في الحديث دليل على أن للذنب حرارة عند المؤمن، ولهذا قال الرجل كما في بعض الروايات: "احترقت"، وهكذا حال المؤمن مع الذنوب، فيرى أنها تحرقه، ولأنها مهلكة كما قال الرجل: "هلكت"، وهذا الشعور هو الذي يجعل المؤمن كلما وقع في الذنب تاب وأناب ورجع واستغفر، على النقيض من ذلك الرجل متبلد الحس يتهاون بذنوبه مما يجعلها تستمر وتكثر ولم يلق لها بالاً.

٤٥- الحديث دلّ على جواز كثرة الأسئلة للحاجة، فقد سأل النبي ﷺ - ثلاثة أسئلة متوالية: ((هل تجد رقبة تعتقها؟))، ثم قال: ((هل تستطيع صيام شهرين متتابعين؟))، ثم قال: ((هل تجد إطعام ستين مسكيناً؟)) وذلك للحاجة إلى ذلك.

والنهي الوارد عن كثرة الأسئلة في قوله ﷺ -: ((نهي عن كثرة السؤال))^{٤٣٠}، تحمل على الأسئلة التي لا فائدة منها جمعا بين الأمرين.

٤٦- يدل الحديث على جواز سؤال العالم لغيره فيما يخصه من أسرار وشؤون إن ترتب على ذلك حاجة، فقد كانت أسئلة النبي ﷺ - فيما يخص الرجل من شؤون خاصة تتعلق بحالته المادية، وقدرته الجسمية، والدافع لذلك لتكون الفتوى صحيحة.

٤٧- على المفتي أن يفتي غيره بالتفصيل وليس بالإجمال، فقد فصل النبي ﷺ - الحكم بالنسبة للرجل، ولم تكن فتوى النبي ﷺ - بمحتملة مبهمة، وإنما يعطي المستفتي حقه من الفهم والدراية.

٤٨- دلّ الحديث على أن كفارة المجمع في نهار رمضان إن كانت صيام شهرين متتابعين فهي مبنية على الاستطاعة، ولهذا قال النبي ﷺ - للرجل: ((هل تستطيع صيام شهرين متتابعين؟))، فعلى هذا يدور الحكم مع علته وجوداً وعدمًا، فمن كان مستطيعاً لم ينتقل إلى الإطعام، ومن لم يستطع أطعم.

٤٩- لم يستفصل النبي ﷺ - عن سبب عدم الاستطاعة، فلم يقل له: لم لا تستطيع صيام الشهرين، مما يدل على أن الرجل مصدق في أقواله بالإضافة إلى ترك الاستفصال فيما لا داعي له.

٥٠- لم يسأل النبي ﷺ - عن امرأة الرجل، ولهذا اختلف أهل العلم في هذه المسألة: هل على المرأة كفارة؟

على قولين كلاهما له حظ من النظر، وحجة من لم يوجب هو ترك النبي ﷺ - الاستفصال عن المرأة في هذا الحديث، ولعل السر في ذلك أن المرأة عليها شبهة الإكراه.

٥١- في الحديث التعاون مع المذنبين، وإيجاد حلول لذنوبهم ومشكلاتهم، فقد ضحك النبي ﷺ - مع أن الرجل مذنب، وساعده في التكفير عن ذنبه.

٥٢- في الحديث رحمة الله بعبده، فالرجل وقع في الذنب وانتهك حرمة الشهر، ومع كل ذلك فقد رزقه الله - سبحانه وتعالى -، فسبحان من لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

٥٣- في الحديث قرب الفرج، فكل من أصيب بهم وغم فليعلم أن فرج الله قريب، فالرجل وقع في الذنب مع قلة في ذات اليد، فبعد هذه الحالة الصعبة جاء فرج الله.

^{٤٣٠} - صحيح البخاري (١٢٤/٢) (١٤٧٧) وصحيح مسلم (٣/١٣٤١) - (٥٩٣)

٥٤- لله حكمٌ في تقدير الذنب على العبد لا يعلمها إلا هو - سبحانه وتعالى-، وهذا يرجع إلى اسم الله الحكيم، ومن الحكم الظاهرة في هذا الحديث معرفة الأحكام الشرعية، بالإضافة إلى ما رزقه الرجل من طعام لأهل بيته.

٥٥- الملاحظ أن الرجل فقير فقر مدقع، حتى أنه حلف أن ما بين لابي المدينة أهل بيت أفقر من أهل بيته، ومع ذلك يمارس حياته الطبيعية من جماع وغيره، بمعنى آخر أن هم الحياة الصعبة لم يمنعه من ممارسة حياته الطبيعية، وهذا من أنجح العلاجات لمن تراكت عليه الموموم ألا يجعل الهم يمنعه حياته، فإن التفاؤل والأمل وتناسي الموموم مما يخففها.

٥٦- في الحديث دلالة على أساليب الأعراب مع النبي -ﷺ-، ففي رواية أنه أعراي، وقرائن الأحوال من أفعال هذا الرجل تدل على أنه من الأعراب، فمقاطعة الحديث، ودخوله بدون استئذان، وألفاظه "هلك" "احترقت"، وللأعراب قصص شيقة، وأساليب مثيرة مع النبي -ﷺ-.

٥٧- في الحديث سكوت المفضول بين يدي الفاضل، فالصحابة الجلوس لم يتكلم أحد منهم، ولم يقاطع النبي -ﷺ-، وهذا أدعى لسماع العلم ووعيه.

٥٨- في الحديث جواز قول: "ويلك" للرجل، ففي رواية: أن النبي -ﷺ- قال للرجل: ((ويلك))، وعلى هذا بوب البخاري على هذا الحديث: باب قول ويلك للرجل^{٤٣١}.

٥٩- في الحديث أن كثرة الحلف لا تدم إن كان لها ما يدعو، فالرجل حلف مرتين؛ "والذي بعثك بالحق ما أجد غيرها، وضرب صفحة عنقه"، ثم قال "فو الله ما بين لابتيتها أهل بيت أفقر من أهل بيتي" وعلى هذا تدم كثرة الحلف فيما لا داعي له، أو عبثاً بدون فائدة.

٦٠- العرق يساوي (١٥) صاعاً، والصاع أربعة أمداد، وعلى هذا فلكل مسكين (مد)؛ لأن عدد المساكين (٦٠)، وقد اختلف أهل العلم في هذه المسألة:

ما مقدار الإطعام الوارد في الكفارة؟

فمن قال المقدار هو (مد) لكل مسكين يستدل بهذه الرواية، ومن قال بأن العبرة بمطلق الإطعام فيستدل بتعدد روايات العرق التي وردت، مما يدل على أن المراد إطعام المساكين بدون تحديد مقدار معين، والأمر سهل في ذلك -ياذن الله-.

٦١- الحديث يدل على أن الجامع في نهار رمضان يقتصر على الثلاثة الخصال في الكفارة، ولا يجب عليه غيرها.

^{٤٣١} - صحيح البخاري (٣٧ / ٨) باب ما جاء في قول الرجل ويلك

- ٦٢- في الحديث حرص المسلم على براءة ذمة إخوانه، وسعيه في تخليصها، فالنبي -ﷺ- لم يكتف بالفتوى للرجل الجامع في نهار رمضان، وإنما سعى في تخلص ذمته مما علق فيها من حق لله، وقال: ((خذ هذا وتصدق به))، وهكذا يكون المسلم مع إخوانه، وهذا مما يتعبد فيه المرء لربه.
- ٦٣- في الحديث على المفتي أن يذكر الحكم ويستفصل تأكيداً، ولا يستدل بظاهر حال المستفتي، فالنبي -ﷺ- سأل الرجل: ((هل تجد رقبة))، ((هل تجد إطعام ستين مسكيناً))، مع أن الرجل ظاهره الفقر، فلم يكتف النبي -ﷺ- بظاهر الحال لوجود احتمال، وإنما سأل عن قدرته.
- ٦٤- دلّ الحديث على عظم ذنب الجامع في نهار رمضان، فقد رتب عليه الشريعة كفارة مغلظة، فنعوذ بالله من الذنوب.
- ٦٥- دلّ الحديث على أن الكفارة تخرج الإنسان من الذنب، وهذا من رحمة الله بعباده.
- ٦٦- دلّ الحديث على أن الإنسان يملك صدقته، ويتصرف بها كيفما يشاء، فالرجل قال له النبي -ﷺ-: ((خذ هذا وتصدق به))، مع أنه في الأصل هو صدقة على الرجل.
- ٦٧- في الحديث جواز مساعدة الرجل في كفارته، فالنبي -ﷺ- أعطى الرجل عرقاً لأجل أن يكفر عن ذنبه.
- ٦٨- دلّ الحديث على أن حدود المدينة النبوية ما بين الحرتين، لقوله: "ما بين لابتيتها يريد الحرتين".
- ٦٩- في الحديث دلالة على أن الراوي يبين معنى الكلمات الغريبة ليفهما سامعها وقارئها، فقد قال الراوي: "لابتيتها -يريد الحرتين-"، فهذا بيان لمعنى غريب.
- ٧٠- في الحديث جواز الادخار، لقول النبي -ﷺ- للرجل: ((أطعمه أهلك))، ومعلوم أن العرق لا يمكن الفراغ منه إلا في عدة أيام.
- ٧١- في الحديث جواز الهبة؛ لأن النبي -ﷺ- وهب الرجل العرق من التمر.
- ٧٢- دلّ الحديث على أن الهبة تملك بالقبض من غير صيغة قولية.
- ٧٣- في الحديث دلالة على أن أهل الفضل والكرم يطمع بكرمهم، فعليهم أن يزدادوا ويتحلوا بمكارم الأخلاق.
- ٧٤- يجوز للإنسان أن يصرح بلفظ الفقر عن نفسه وأهل بيته ما دام كلامه صحيحاً، ولهذا قال الرجل: "ما بيت لابتيتها أهل بيت أفقر من أهل بيتي".
- ٧٥- في الحديث جواز الحلف بدون استحلاف، وأن النهي عن كثرة الحلف تنصرف إلى ما لا فائدة منه، فالرجل حلف؛ "والذي بعثك بالحق" من غير أن يطلب النبي -ﷺ- منه اليمين.
- ٧٦- في الحديث جواز الإلحاح إن كانت الحاجة داعية، فالرجل ألح على النبي -ﷺ- في إعطائه الصدقة وذلك لفقره.

٧٨- في الحديث جواز إظهار المعصية لمن يرجو تخليصه منها، فالرجل أظهر معصيته وأمام الناس أيضاً إلا أن ذلك في سبيل التخلص منها.

٧٩- وفي الحديث أيضاً وجوب السؤال عما يفعله الإنسان مخالفاً لأوامر الشريعة، فلا يجوز للإنسان أن يترك دينه من غير سؤال؛ إذ قد يترتب على فعله أمور لا يحسن تركها.

٨٠- اختلف أهل العلم في مسألة، وهي:

إن لم يستطع الجامع الخصال الثلاث فهل تسقط الكفارة؟ أم تبقى ديناً في رقبتة؟
على قولين، ومن يقول بأن الكفارة تسقط يستدل بأن النبي -ﷺ- لم يذكر للرجل شيئاً بعد أن ذكر الرجل أنه لا يستطيع.

فهذه ثمانون فائدة من هذا الحديث العظيم، سائلاً الله أن ينفعني به، وأن يشرح صدري للنور والهدى،
وصلّى الله وسلم على نبينا محمد. ٤٣٢



٤٣٢ - <http://islamselect.net/mat/> ٩٦٢٦٢

وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١٦٥ / ٤) وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢٠٧ / ٨) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٩ / ١١) وعون المعبود وحاشية ابن القيم (١٥ / ٧) ونيل الأوطار (٢٥٤ / ٤)

قصة موت أبي طالب عم النبي ﷺ على دين قومه

عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ» فَتَنَزَّلَتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]. وَتَنَزَّلَتْ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦] ٤٣.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ"، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَتَنَزَّلَتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣] ٤٤.

شرح المفردات ٤٥:

(عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ) هو سعيد بن المسيب بن حزن قال العلماء: يحتمل أن يكون المسيب حضر هذه القصة، وكان الثلاثة يومئذ كفارا فمات أبو جهل على كفره وأسلم الآخرون .

(لما حضرت أبا طالب الوفاة) حضرت علامات الوفاة، وإلا فلو كان انتهى إلى المعايضة لم ينفعه الإيمان لو آمن ، ويدل على الأول ما وقع من المراجعة بينه وبينهم.

(آخر ما كلمهم به: على ملة عبد المطلب) وفي رواية " هو على ملة عبد المطلب " وأراد بذلك نفسه. ويحتمل أن يكون قال " أنا " فغيرها الراوي أنفة أن يحكي كلام أبي طالب استقباحا للفظ المذكور؛ وهي من التصرفات الحسنة .

من فوائد الحديث ٤٦:

٤٣ - صحيح البخاري (٥٢/٥) (٣٨٨٤)

[ش (تبين لهم) ظهر لهم وثبت بموتهم على الكفر. (أصحاب الجحيم) المستحقون لدخول النار والخلود فيها. / التوبة ١١٣ / . (لا تهدي من أحببت) ليس في قدرتك أن تدخل في الإسلام كل من رغبت في هدايته. / القصص ٥٦ /]

٤٤ - صحيح البخاري (٦٩/٦) (٤٦٧٥)

٤٥ - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦/٢٠١) وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/١٥٨) وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/٢٨١) وفتح الباري - ابن حجر (١٣/٢٩٤).

أبو طالب بن عبد المطلب هو عم الرسول ﷺ، كفل الرسول ﷺ بعد موت جدّه عبد المطلب، وبقي أبو طالب حول الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها، يدافع عنه، ويحميه، إلى سنة ثمان من البعثة، وهو لم يفارقه، يدافع عنه، ويحميه من أذى قومه، ويصبر معه على مضايقات المشركين، وبذل معه شيئاً كثيراً، وحرص النبي ﷺ على هدايته، لعلّ الله أن ينقذه من النار، ومن ذلك أنه لما حضرته الوفاة جاء إليه، لعله يسلم وينقذ نفسه من النار، ولكن الله بحكمته البالغة لم يكتب له الهداية فمات على دين قومه.

حرص النبي ﷺ على الدعوة إلى الله، وصبره على ذلك. خطر الرفقة السيئة، وأنها من أعظم أسباب الغواية والضلال، وقد شبه النبي ﷺ جليس السوء بنافخ الكبر؛ إما أن يحرق ثيابك، أو تجرد منه رائحة كريهة.

أهمية البداية في الدعوة إلى الله، بالدعوة إلى التوحيد لأنه أصل الدين الذي لا يصح شيء إلا به. لما نزل قوله تعالى: { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) } [التوبة: ١١٣، ١١٤]، انتهى ﷺ عن الاستغفار لعمه أبي طالب، وتبرأ من الشرك وأهله. ولكن الله عز وجل أذن لرسوله ﷺ أن يشفع له، لأنه قام بسعي مشكور في الدفاع عن النبي ﷺ وعن الإسلام. فشفع النبي ﷺ فيه فكان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه، فعن عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحْطُوكَ وَيَعْضُبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»^{٤٣٧} أن الأعمال بالخواتيم، فلو أسلم أبوطالب لنفعه ذلك.

أن الهداية في كتاب الله تحيي ويراد بها تارة الدلالة والإرشاد فالنبي ﷺ يهدي إلى صراط مستقيم، أي يدل الناس عليه ويدعوهم إليه بأقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة كما قال تعالى في { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى

^{٤٣٦} - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦/ ٢٠١) وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/ ١٥٨) وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/ ٢٨١) وفتح الباري - ابن حجر (١٣/ ٢٩٤).

^{٤٣٧} - صحيح البخاري (٨/ ٤٦) (٦٢٠٨) وصحيح مسلم (١/ ١٩٤) (٣٥٧) - (٢٠٩) [ش (بحوطك) قال أهل اللغة يقال حاطه يحوطه حوطا وحياطة إذا صانه وحفظه وذبح عنه وتوفر على مصالحه (ضحضاح) الضحضاح ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين واستعير في النار (الدرك) قال أهل اللغة في الدرك لغتان فصيحتان مشهورتان فتح الرء وإسكانها وقرئ بهما في القراءات السبع وقال أبو حاتم جمع الدرك بالفتح أدراك كجمل وأجهال وفرس وأفراس وجمع الدرك بالإسكان أدرك كفلس وأفلس أما معناه فقال جميع أهل اللغة والمعاني والغريب وجماهير المفسرين الدرك الأسفل قعر جهنم وأقصى أسفلها قالوا ولجهنم أدراك فكل طبقة من أطباقها تسمى دركا]

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { [الشورى: ٥٢]، وتأتي الهداية ويراد بها التوفيق والإلهام، كما في قول الله تعالى: {
إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } [القصص: ٥٦] ومعناها : أن الله - جل وعلا - يجعل في قلب العبد من
الإعانة الخاصة بحيث يقبل الهدى ويسعى فيه . فجعل هذا في القلوب ليس إلى النبي ﷺ ؛ إذ القلوب
بيد الله يقبلها كيف يشاء^{٤٣٨}، فهو وحده الذي يجعل من يشاء مسلما مهتديا، مما يوجب تعلق
القلوب بالله تعالى وحده.



^{٤٣٨} - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٤٤٨) (٢١٤٠) صحيح

المقداد واللين

عَنِ الْمَقْدَادِ، قَالَ: أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي، وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ، فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْطَلَقَ بِنَا إِلَى أَهْلِهِ، فَإِذَا ثَلَاثَةُ أَعْنَزٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اِحْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا»، قَالَ: فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ نَصِيْبِهِ، وَتَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيْبُهُ، قَالَ: فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَيُصَلِّي، ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ، فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيْبِي، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الْأَنْصَارَ فَيَتَحَفُّوهُ، وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ، فَأَتَيْتُهَا فَشَرِبْتُهَا، فَلَمَّا أَنْ وَعَلْتُ فِي بَطْنِي، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ، قَالَ: نَدَمَنِي الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: وَيَحْكُ، مَا صَنَعْتَ أَشْرَبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ، فَيَجِيءُ فَلَا يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ، وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى قَدَمِي خَرَجَ رَأْسِي، وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي خَرَجَ قَدَمَايَ، وَجَعَلَ لَا يَجِبُنِي التُّومُ، وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ، قَالَ: فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ: الْآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي»، قَالَ: فَعَمَدْتُ إِلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ فَأَنْطَلَقْتُ إِلَى الْأَعْنَزِ أَيُّهَا أَسْمَنُ، فَادْبَحُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ، وَإِذَا هُنَّ حُفْلٌ كُلُّهُنَّ، فَعَمَدْتُ إِلَى إِنْاءٍ لَلْ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فِيهِ، قَالَ: فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّى عَلَنَهُ رَغْوَةٌ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَشْرَبْتُمْ شَرَابَكُمْ اللَّيْلَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاولَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاولَنِي، فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوَى وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ، ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِحْدَى سَوَاتِكَ يَا مَقْدَادُ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَكَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا هَذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، أَفَلَا كُنْتَ آذَنْتَنِي فَنَوْقِظُ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا»، قَالَ: فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَبَالِي إِذَا أَصَبْتُهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ^{٤٣٩} وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: حَدَّثَنِي الْمَقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، قَالَ: جِئْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي قَدْ كَادَتْ تَذْهَبُ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَقْبَلُنَا أَحَدٌ حَتَّى أَنْطَلَقَ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَحْلِهِ وَلِلَّ مُحَمَّدٍ ثَلَاثَةُ أَعْنَزٍ يَحْتَلِبُونَهَا فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوزَعُ اللَّبَنَ بَيْنَنَا وَكُنَّا نَرْفَعُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَصِيْبَهُ فَيَجِيءُ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُ الْيَقْظَانَ وَلَا يُوقِظُ النَّائِمَ فَقَالَ لِي الشَّيْطَانُ: لَوْ شَرِبْتَ هَذِهِ الْجُرْعَةَ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْتِي الْأَنْصَارَ فَيَتَحَفُّوهُ فَمَا زَالَ

حَتَّى شَرِبْتُهَا فَلَمَّا شَرِبْتُهَا نَدَمَنِي وَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ يَجِيءُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَلَا يَجِدُ شَرَابَهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ، فَمَا صَاحِبَايَ فَشَرِبَا شَرَابَهُمَا وَنَامَا وَأَمَّا أَنَا فَلَمْ يَأْخُذْنِي النَّوْمُ وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ لِي إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي بَدَتْ فِيهِ قَدَمَايَ وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى قَدَمَيَّ بَدَا رَأْسِي وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا كَانَ يَجِيءُ فَصَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى شَرَابِهِ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا فَرَفَعَ يَدَهُ فَقُلْتُ: يَدْعُو عَلَيَّ الْآنَ فَأَهْلِكُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي وَاسْقِ مَنْ سَقَانِي» فَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ وَأَخَذْتُ الشَّمْلَةَ وَأَنْطَلَقْتُ إِلَى الْأَعْنَزِ أَجْسُهُنَّ أَيُّهِنَّ أَسْمَنُ كَيْ أَدْبَحَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا حُفْلٌ كُلُّهُنَّ فَأَخَذْتُ إِنَاءً لَالٌ مُحَمَّدٌ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْلُبُوا فِيهِ فَحَلَبْتُ حَتَّى عَلَتْهُ الرِّغْوَةُ ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاوَلَنِي فَشَرِبْتُ، ثُمَّ نَاوَلَنِي فَشَرِبْتُ، ثُمَّ ضَحَكْتُ حَتَّى أُلْقَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ لِي: «إِحْدَى سَوَاتِكَ يَا مِقْدَادُ» فَأَنْشَأْتُ أُخْبِرُهُ بِمَا صَنَعْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا كَانَتْ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَوْ كُنْتُ أَيْقَظْتُ صَاحِبِيكَ فَأَصَابَا مِنْهَا» فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَبَالِي إِذَا أَصَبْتُهَا أَنْتَ وَأَصَبْتُ فَضْلَكَ مَنْ أَخْطَأْتُ مِنَ النَّاسِ^{٤٤٠}

غريب الحديث :

قول الرَّجُل : ((إني مجهودٌ)) ؛ أي : قد أُصِيبنا بجهد . وهو هنا : المشقة ، والجوع .
وقول أزواج النبي — ﷺ — : ((ليس عندنا إلا ماء)) ؛ يدلُّ على شدة حالمهم ، وضيق عيشهم .
وكان هذا — والله أعلم — في أول الأمر . وأما بعد ذلك لما فتحت خيبر ، فقد كان النبي — ﷺ — يجلس لأهله قوت سنتهم . ويحتمل أن يكون بعد ذلك ، وأن أزواج النبي — ﷺ — كنَّ يتصدقن بما كان عندهن ، ويؤثرن غيرهن بذلك وييقن على ما يفتح الله تعالى ، ولا يطلبن من النبي — ﷺ — لسقوط ذلك عنه بالذي دفع لهنَّ .

وقوله : ((عجب الله من صنيعكما بضيفكما)) ؛ أي : رضي بذلك ، وعظَّمه عند ملائكته ، كما يباهي بأهل عرفة الملائكة . وهذا الحديث يدلُّ : على فضل أبي طلحة ، وأهل بيته — رضى الله عنهم — ، وأنَّهم المعنيون بقوله تعالى : { ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة } . و((الخصاصة)) : الجوع والفاقة .

وقول المقداد : ((قد ذهبت أسمعنا وأبصارنا)) ؛ أي : ضعفت حتى قاربت الذهاب .
وقوله : ((فجعلنا نعرض أنفسنا)) ؛ أي : نتعرَّض لهم ليطعمونا ، وذلك لشدة ما كانوا عليه من الجوع ، والضعف .

^{٤٤٠} - مسند أبي داود الطيالسي (٤٧٧/٢) (١٢٥٦) صحيح

وقوله : ((فليس أحدٌ منهم يقبلنا)) ؛ أي : يطعمنا . وظاهر حالهم : أن ذلك الامتناع ممن تعرضوا له إنما كان لأنهم ما وجدوا شيئاً يطعمونهم إيَّاه ، كما اتفق للنبي ﷺ — حيث طلب جميع بيوت نسائه ، فلم يجد عندهم شيئاً ؛ فإنَّ الوقت كان شديداً عليهم .

وقوله : ((فيسلّم تسليماً لا يوقظ نائماً ، ويسمع اليقظان)) ؛ فيه دليل على مشروعية السَّلام عند دخول البيت . وقد استحبّه مالك . وأن ذلك مما ينبغي أن يكون برفض ، واعتدال .

و ((الجرعة)) : الشربة الواحدة - بضم الجيم - وبالفتح : المصدر المحدود .

وقوله : ((وغلت في بطني)) ؛ أي : دخلت ، فكل من دخل في شيء فهو واغل فيه . ومنه قول الشاعر :

فاليوم أشربُ غير مُسْتَحَقِّبٍ إثمًا من الله ولا واغل

يقال : وغلْتُ ، أُغِلَّ ، وغلوا ، ووغلاً . وهو ثلاثي . فأما ((أوغل)) : رباعياً ، فهو بمعنى : السَّير الشديد ، والإمعان فيه ، قاله الأصمعي . ومنه قوله — ﷺ — : ((إن هذا الدِّينَ متينٌ ، فأوغل فيه برفق)) ؛ أي : فسر فيه برفق .

و ((الشَّمْلَة)) : كساء صغير يشتمل به ؛ أي : يُلتحف به على كيفية مخصوصة ، قد ذكرناها في الصلاة .

وقوله: ((ثم أتى المسجد)) ؛ يعني به -والله أعلم - : مسجد بيته ، أي : حيث كان يصلي النوافل .

وقوله — ﷺ — لما لم يجد شيئاً : ((اللهم أطعم من أطعمني ، وأسق من سقاني)) ؛ يدلّ على كرم أخلاقه ، ونزاهة نفسه — ﷺ — ؛ إذ لم يسأل عن نصيبه ، ولم يُعرِّج على كل ذلك ، لكنّه دعا الله تعالى .

و ((سقاني)) بمعنى يسقيني . و ((من أطعمني)) بمعنى : يطعمني . ولما فهم المقداد منه الدعاء ، وطلب أن يفعل الله ذلك معه في الحال ؛ عرف : أن الله يجيبه ، ولا يردّ دعوته ، لا سيما عند شدّة الحاجة ، والفاقة . فقام لينظر له شيئاً تكون به إجابة دعوته ، فوجد الأعتر حفاً ؛ أي : ممتلئة الضروع باللبن .

و ((الرزغوة)) بضم الراء : ما يعلو اللبن عند الصب والحلب .

و ((رَوِي)) بكسر الواو ، وتحريك الياء في الماضي ، يروِي بفتح الواو وسكون الياء : في الشرب . فأما ((رَوَى)) بفتح الواو في الماضي ، وكسره في المستقبل : فهو في رواية الأخبار . ويقال أيضاً بمعنى : الاستقاء على الإبل . وهذا الحديث من دلائل نبوة النبي ﷺ — .

وقوله : ((فضحكك حتى ألقيت إلى الأرض)) ؛ كذا قيدناه مبنياً لما لم يسم فاعله . وقد وجدناه في بعض النسخ : ((ألقيت)) مبنياً للفاعل ؛ أي : ألقيت نفسي إلى الأرض من شدّة الضحك . ولما رأى النبي ﷺ — منه ذلك كره ذلك ، وقال له : ((إحدى سواتك يا مقداد)) ؛ أي : هذه

الحالة حالة سيئة من جملة حالاتك التي تسوء منكراً لذلك ؛ لأن كثرة الضحك يمت القلب ، كما قاله — ﷺ — لأبي ذر. فلما أخبره المقداد بما جرى له ، وبما أجاب الله من دعوته قال النبي — ﷺ — : ((ما هذه إلا رحمة من الله)) ؛ معترفاً بفضل الله تعالى ، وشاكراً لنعمته ، ومقرراً بمنته ، فله الحمد أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ..^{٤٤١}

الدروس والعبر :

فيه الدعاء للمُحْسِنِ وَالْخَادِمِ وَلِمَنْ سَيَفْعَلُ خَيْرًا.
وفيه ما كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْحِلْمِ وَالْأَخْلَاقِ الْمُرْصِيَةِ وَالْمَحَاسِنِ الْمُرْصِيَةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ وَالصَّبْرِ وَالْإِغْضَاءِ عَنْ حُقُوقِهِ فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْأَلْ عَنْ نَصِيهِهِ مِنَ اللَّيْلِ.
قوله في الاعتز (إِذَا هُنَّ حُفِلَ كُلُّهُنَّ) هَذِهِ مِنْ مُعْجَزَاتِ النَّبَوَّةِ وَأَثَارِ بَرَكَتِهِ ﷺ.
قَوْلُهُ (فَلَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوَى وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِحْدَى سَوَاتِكَ يَا مَقْدَادُ) مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ حُزْنٌ شَدِيدٌ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ لِكُونِهِ أَذْهَبَ نَصِيبَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَعَرَّضَ لِأَذَاهُ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوَى وَأُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ فَرِحَ وَضَحِكَ حَتَّى سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ كَثَرَةِ ضَحِكِهِ لِدَهَابِ مَا كَانَ بِهِ مِنَ الْحُزْنِ وَانْقِلَابِهِ سُرُورًا بِشَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لِمَنْ أَطْعَمَهُ وَسَقَاهُ وَجَرَّيَانِ ذَلِكَ عَلَى يَدِ الْمَقْدَادِ وَظُهُورِ هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ وَلِتَعَجُّبِهِ مِنْ قُبْحِ فِعْلِهِ أَوَّلًا وَحُسْنِهِ آخِرًا وَلِهَذَا قَالَ ﷺ إِحْدَى سَوَاتِكَ يَا مَقْدَادُ أَيَّ أَنْكَ فَعَلْتَ سُوءَةً مِنْ أَلْفَعَالَتِ مَا هِيَ فَأَخْبِرُهُ خَبْرَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا هَذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَيَّ إِحْدَاثِ هَذَا اللَّيْلِ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ وَخِلَافِ عَادَتِهِ وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى^{٤٤٢}

ساعة من الترقب والخوف :

ساعة من الترقب والخوف عاشها هذا الصحابي الكريم قد لا يشعر أحدنا بها ولكنه كان بين النجاة والهلاك وبين اليأس والرجاء لحظات عصيبة أذهب لهبها رسول الله ﷺ وجعلها بردا وسلاما على المقداد

وتأمل يا رعاك الله كيف يفسد الطمع واليأس قلب المؤمن

وكيف يعالج المربي الناجح الخطأ بإتاحة الفرص وتهوين المصائب وإذهاب السيئة بالفعل الحسن ؟^{٤٤٣}

الفوائد التربوية :

الفائدة المعرفية : — معرفة رحمة الله الواسعة .

^{٤٤١} — المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٧/ ٤٣) والجامع الصحيح للسنن والمسند (١/ ٣٤١ ، بترقيم الشاملة آليا) وجامع

الأصول (٧٧/ ٩)

^{٤٤٢} — شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤)

^{٤٤٣} — <http://alserah.org/vb/showthread.php?t=١٠٦>

الفائدة النفسية :— استشعار رحمة النبي ﷺ ورحمته بأصحابه .
الفائدة السلوكية :— الاحسان الى الاخرين ومد يد العون إليهم .^{٤٤٤}



قصة في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُكَلِّمُهُ وَيَسْتَكْثِرُنَّهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قُمْنَ فَبَادَرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ عُمَرُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ» فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهْبَنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: يَا عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهْبِنَنِي وَلَا تَهْبَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقُلْنَ: نَعَمْ، أَنْتَ أَفْظُ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»^{٤٤٥}

شرح المفردات^{٤٤٦}:

(وعنده نسوة من قريش) هن من أزواجه، والمراد أنهن يطلبن منه مما يعطينهن من النفقة.

(يُكَلِّمُهُ وَيَسْتَكْثِرُنَّهُ) والمراد أنهن يطلبن منه مما يعطينهن من النفقة.

(عالية أصواتهن على صوته) قال بعض أهل العلم: يحتمل أن يكون الرفع حصل من مجموعهن لا أن كل واحدة منهن كان صوتها أرفع من صوته، أو كن في حال المخاصمة فلم يتعمدن، أو وثقن بعفوه، ويحتمل في الخلوة ما لا يحتمل في غيرها.

(أضحك الله سنك) لم يرد به الدعاء بكثرة الضحك بل لازمه وهو السرور.

(أهبنني) من الهيبة أي توقرنني.

(أنت أفظ وأغلظ) لأن عمر رضي الله عنه كان يبالغ في الزجر عن المكروهات مطلقا وطلب المندوبات، فلهذا قال النسوة له ذلك.

(إيها ابن الخطاب) قال أهل اللغة "إيها" بالفتح والتنوين معناها لا تبتدئنا بحديث، وبغير تنوين كف من حديث عهدناه، و"إيه" بالكسر والتنوين معناها حدثنا ما شئت وبغير التنوين زدنا مما حدثتنا.

^{٤٤٥} - صحيح البخاري (١١/٥) (٣٦٨٣) وصحيح مسلم (٤/١٨٦٣) ٢٢ - (٢٣٩٦)

[ش (أفظ وأغلظ) أشد وأخشن عند إنكار المنكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان رضي الله عنه يبالغ في الزهد عن المكروهات وطلب المندوبات. (إيها) اسم بمعنى زد والمراد إظهار رضاه عن قول عمر رضي الله عنه وفعله الذي يدل على توقيره صلى الله عليه وسلم وتعظيم جانبه واستزادة منه لهذا التصرف ليزداد عمر رضي الله عنه منزلة ورفعة عند الله عز وجل]

^{٤٤٦} - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦/١٠٠) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦/١٩٤) وفتح الباري - ابن حجر (١٠/٤٧٩).

(فجا) أي طريقا واسعا ، وقوله " قط " تأكيد للنفي .

المعنى العام :

(وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ،
أَيُّ جَمَاعَةٍ مِنَ النِّسَاءِ (مِنْ قُرَيْشٍ) ، قَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ: هُنَّ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ وَزَيْنَبُ بِنْتُ
جَحْشٍ وَغَيْرُهُنَّ. وَقَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ، أَيُّ: نِسْوَةٌ مِنْ أَزْوَاجِهِ - ﷺ - وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُنَّ مَعَهُنَّ غَيْرُهُنَّ
لَكِنَّ قَرِينَةَ قَوْلِهِ: (يُكَلِّمُنَّهُ وَيَسْتَكْثِرُنَّهُ) ، تُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ أَيُّ يَسْتَكْثِرُنَّهُ فِي الْكَلَامِ، وَلَا يُرَاعَيْنِ مَقَامَ
الِاخْتِشَامِ. وَقَالَ النَّوَوِيُّ، أَيُّ: يَطْلُبْنَ مِنْهُ التَّنْفِقَاتِ الْكَثِيرَةَ، وَفِي رِوَايَةٍ: يَسْأَلْنَهُ وَيَسْتَكْثِرُنَّهُ (عَالِيَةً) :
بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ. وَقَالَ السَّيُوطِيُّ: أَوْ بِالرَّفْعِ عَلَى الْوَصْفِ اه. وَفِي رِوَايَةٍ: رَافَعَاتٍ (أَصْوَاتُهُنَّ) ،
بِالرَّفْعِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ. وَقَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ: يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا قَبْلَ النَّهْيِ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِهِ -
ﷺ - وَيُحْتَمَلُ أَنْ عُلُوَّ أَصْوَاتِهِنَّ إِنَّمَا كَانَ لِاجْتِمَاعِهِنَّ فِي الصَّوْتِ، لَا أَنَّ كَلَامَ كُلِّ وَاحِدٍ بِانْفِرَادِهِ
أَعْلَى مِنْ صَوْتِهِ - ﷺ - . أَقُولُ: لَيْسَ فِي الْكَلَامِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ رَفْعَ أَصْوَاتِهِنَّ كَانَ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ
- ﷺ - لِيُرَدَّ الْإِشْكَالُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ }
[الحجرات: ٢] الْآيَةَ. بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُنَّ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِنَّ مِنَ الْخَفْضِ وَرَفْعِ
أَصْوَاتِهِنَّ فِي كَلَامِهِنَّ مَعَهُ - ﷺ - اعْتِمَادًا عَلَى حُسْنِ خُلُقِهِ - ﷺ - . (فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ) : وَالْحَالُ
أَنَّهُ مِنَ الْأَجَانِبِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَكْثَرِهِنَّ، لَأَسِيمًا وَهُوَ غَيْرُ غَضُوبٍ غَالِبٍ عَلَيْهِ الصِّفَةُ الْجَلَالِيَّةُ (فَمَنْ)
أَيُّ: مِنْ مَكَانِهِنَّ (فَبَادَرْنَ بِالْحِجَابِ) ، أَيُّ سَارَعْنَ إِلَى حِجَابِهِنَّ عَلَى مُقْتَضَى آدَابِهِنَّ (فَدَخَلَ عُمَرُ
وَرَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَضْحَكُ) ، أَيُّ يَتَبَسَّمُ. وَمِنْ الْعَرِيبِ أَنَّ عُمَرَ مَعَ غَلَبَةِ قَهْرِهِ وَشِدَّةِ سَطْوَتِهِ كَانَ
مُظْهِرًا لِبَسْطِهِ - ﷺ - (فَقَالَ) أَيُّ: عُمَرُ كَمَا فِي رِوَايَةٍ (أَضْحَكَ اللَّهُ سَنَكَ) : وَفِي رِوَايَةٍ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ! أَيُّ أَدَامَ اللَّهُ فَرَجَكَ الْمَوْجِبَ لِبُرُوزِ سَنَكَ وَظُهُورِ نُورِكَ، لَكِنَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ سَبَبٍ وَظُهُورِ أَمْرٍ
عَجِيبٍ، فَأُطْلِعْنِي عَلَيْهِ وَشَرَّفْنِي بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ (قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : (عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ
عِنْدِي) ، أَيُّ فِي حَالَةٍ غَرِيبَةٍ وَمَقَالَةٍ عَجِيبَةٍ (فَلَمَّا سَمِعَ صَوْتَكَ) أَيُّ: بِالْإِذْنِ (ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ) .
أَيُّ بِالِانْتِقَالِ مِنْ مَكَانِهِنَّ وَإِخْفَاءِ حَالِهِنَّ وَشَأْنِهِنَّ خَوْفًا مِنْكَ وَهَيْبَةً لَكَ (قَالَ عُمَرُ) أَيُّ: خَطَابًا لَهُنَّ
(يَا عَدَوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ! أَنْهَبْنِي) : بِفَتْحِ الْهَاءِ، يُقَالُ: هَبْتُ الرَّجُلَ بِكَسْرِ الْهَاءِ إِذَا وَقَرَّتْهُ وَعَظَّمَتْهُ مِنْ
الْهَيْبَةِ أَيُّ أَتَوَقَّرْتَنِي (وَلَا تَهَبْنِ) أَيُّ: وَلَا تُعْظِمَنَّ (رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) ؟ فَقُلْنَ: نَعَمْ) ، هَذَا غَيْرُ رَاجِعٍ إِلَى
مَجْمُوعِ قَوْلِ عُمَرَ بَلْ إِلَى قَوْلِهِ: أَتَوَقَّرْتَنِي فَقَطْ، وَإِلَّا فَيَشْكُلُ كَمَا لَا يَخْفَى، وَلَا يَعْبُدُ أَنْ يَكُونَ نَعَمْ
تَقْرِيرًا وَتَأْكِيدًا وَمُقَدِّمًا عَلَى قَوْلِهِ: (أَنْتَ أَظْفُ وَأَغْلَظُ) ، أَيُّ أَنْتَ كَثِيرُ الْفَظِّ أَيُّ سَيِّءُ الْكَلَامِ وَكَثِيرُ
الْغَلْظِ أَيُّ: شَدِيدُ الْقَلْبِ بِخِلَافِهِ - ﷺ - فَإِنَّهُ حَسَنُ الْخُلُقِ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: { وَإِنَّكَ
لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم: ٤] وَقَالَ: { وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } [آل
عمران: ١٥٩] ، وَقَدْ قَالَ - ﷺ - عَلَى مَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا: (خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ

لِنِسَائِهِمْ) . قَالَ الطَّبِيُّ: لَمْ يُرَدَّنْ بِذَلِكَ إِثْبَاتَ مَزِيدِ الْفَظَاظَةِ وَالْغَلْظَةِ لَعُمَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَإِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا مُوَاسِيًا رَفِيقَ الْقَلْبِ فِي الْعَايَةِ، بَلِ الْمُبَالَعَةُ فِي فَظَاظَةِ عُمَرَ وَغَلْظِهِ مُطْلَقًا اهـ .

وَحُلَاصَتُهُ أَنَّ فِيكَ زِيَادَةَ فَظَاظَةٍ وَغَلْظَةٍ بِالْقِيَاسِ إِلَى غَيْرِكَ لَا بِالْقِيَاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَإِنَّهُ كَانَ رَفِيقًا حَلِيمًا جَدًّا، لَكِنْ يُشْكَلُ هَذَا بِمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي بَابِ التَّبَسُّمِ مِنْ كِتَابِ الْأَدَبِ فَقُلْنَا: إِنَّكَ أَفْظُ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - - وَيُمْكِنُ دَفْعُهُ بِأَنْ يُجْعَلَ مِنْ بَابِ الْعَسَلِ أَحَلَّى مِنَ الْخَلِّ، وَالشِّتَاءُ أَبْرَدُ مِنَ الصَّيْفِ، فَيَرْجِعُ الْمَعْنَى إِلَى أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا فِي حَالِهِ عَلَى أَعْلَى مَرْتَبَةِ كَمَالِهِ. (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : - (إِيه) : بَكْسَرِ الْهَمْزِ وَالْهَاءِ مُنَوَّنًا وَقَدْ يُتْرَكُ تَنْوِينُهُ أَيْ حَدَّثَ حَدِيثًا وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى جَوَابِهِنَّ (يَا ابْنَ الْخَطَّابِ) وَفِي رِوَايَةٍ يَا «عُمَرُ» وَقِيلَ: هُوَ اسْمُ فِعْلٍ يُطْلَبُ بِهِ الزِّيَادَةُ أَيْ اسْتَزَدَّ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ التَّصَلُّبِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: («وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا») أَيْ: ذَاهِبًا طَرِيقًا وَاسِعًا (فَطُّ إِلَّا سَلَكَ غَيْرَ فَجِّكَ) . فَفِيهِ مَنْقِبَةٌ عَظِيمَةٌ لَعُمَرَ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي وَجُوبَ الْعِصْمَةِ إِذْ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ وَسْوَستِهِ الْمُوجِبَةِ لِعَفْلَتِهِ. قَالَ الثَّوْرِبَشْتِيُّ: إِيه اسْمٌ سُمِّيَ بِهِ الْفِعْلُ لِأَنَّهُ مَعْنَاهُ الْأَمْرُ تَقُولُ لِلرَّجُلِ: إِذَا اسْتَزَدَّتهُ مِنْ حَدِيثٍ أَوْ عَمَلٍ. إِيه بَكْسَرِ الْهَاءِ، فَإِنْ وَصَلْتَ نَوَّتَ، وَقُلْتَ: إِيه حَدِيثًا، وَإِذَا أَسَكَّتَهُ وَكَفَفْتَهُ. قُلْتَ: إِيهًا عَنَّا وَمِنْ حَقِّهِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنْ يَكُونَ إِيهًا أَيْ كُفَّ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِهِ مَجْرُورًا مُنَوَّنًا وَالصَّوَابُ إِيهًا. وَرَوَى مُسْلِمٌ هَذَا الْحَدِيثَ فِي (جَامِعِهِ) ، وَلَيْسَ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي رِوَايَتِهِ ذِكْرٌ. أَقُولُ: إِذَا صَحَّتِ الرِّوَايَةُ وَطَابَقَتِ الدَّرَايةُ عَلَى مَا قَدَّمَاهُ مِنْ تَصْحِيحِ مَعْنَاهُ، فَلَا مَعْنَى لِلتَّخْطِئَةِ فِي مَبْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ.

وَقَالَ الطَّبِيُّ: مَعْنَى قَوْلِ عُمَرَ أَتَهَبْنِي وَلَا تَهَبْنِ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - - أَتَوْقِرْنِي وَلَا تُوقِرْنَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - . (فِي (شَرْحِ السُّنَّةِ) : هُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ هَبْتُ الرَّجُلَ إِذَا وَقَرْتُهُ وَعَظَّمْتُهُ، يُقَالُ: هَبِ النَّاسَ يَهَابُوكَ أَيْ وَقَرَهُمْ يُوقِرُوكَ اهـ . كَلَامُهُ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَمْرَ بِتَوْقِيرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - - مَطْلُوبٌ لِذَاتِهِ تَجِبُ الْاسْتِزَادَةُ مِنْهُ، فَكَأَنَّ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - : - (إِيه) اسْتِزَادَةٌ مِنْهُ فِي طَلَبِ تَوْقِيرِهِ وَتَعْظِيمِ جَانِبِهِ، وَلِذَلِكَ عَقِبَهُ بِقَوْلِهِ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) إلخ. فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى اسْتِزْوَاءٍ لَيْسَ بَعْدَهُ اسْتِزْوَاءٌ إِحْمَادًا مِنْهُ - ﷺ - - لِفِعَالِهِ كُلِّهَا، لَا سِيَّمَا هَذِهِ الْفِعْلَةَ.

قَالَ الثَّوْرِبَشْتِيُّ فِي قَوْلِهِ: مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا، تَنْبِيهُ عَلَى صَلَابَتِهِ فِي الدِّينِ وَاسْتِمْرَارِ حَالِهِ عَلَى الْجِدِّ الصَّرْفِ، وَالْحَقُّ الْمَحْضِ، حَتَّى كَانَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - - كَالسِّيفِ الصَّارِمِ وَالْحُسَامِ الْقَاطِعِ، إِنَّ أَمْضَاهُ مَضَى، وَإِنْ كَفَّهْ كَفَّ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَى الشَّيْطَانِ سُلْطَانٌ إِلَّا مِنْ قَبْلِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - - وَكَانَ هُوَ كَالْوَارِعِ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ، فَلِهَذَا كَانَ الشَّيْطَانُ يَنْحَرِفُ عَنِ الْفَجِّ الَّذِي سَلَكَهُ. وَكَمَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - - رَحْمَةً مُهْدَاةً إِلَى الْعَالَمِينَ، مَأْمُورًا بِالْعَفْوِ عَنِ الْمُذْنِبِينَ، مَعْنِيًا بِالصَّفْحِ عَنِ الْجَاهِلِينَ لَمْ يَكُنْ لِيُؤَاجِهَهُمْ فِيمَا لَا يُحْمَدُ مِنْ فِعْلٍ مَكْرُوهٍ أَوْ سُوءِ أَدَبٍ بِالْفَظَاظَةِ وَالْعَلَاظَةِ وَالزَّجْرِ

الْبَلِغِ، إِذْ لَا يُتَصَوَّرُ الصَّفْحُ وَالْعَفْوُ مَعَ تِلْكَ الْخِلَالِ. فَلِهَذَا تَسَامَحَ هُوَ فِيهَا وَاسْتَحْسَنَ إِشْعَارَهُنَّ الْهَيْبَةَ مِنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ النَّوَوِيُّ: هَذَا الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ مَتَى رَأَاهُ سَالِكًا فَجًّا هَرَبَ لِرَهْبَتِهِ مِنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَفَارَقَ ذَلِكَ الْفَجَّ لِشِدَّةِ بَأْسِهِ. قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ: وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ ضَرَبَ مَثَلًا بِالشَّيْطَانِ وَإِغْوَائِهِ وَأَنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَارَقَ سَبِيلَ الشَّيْطَانِ، وَسَلَكَ طَرِيقَ السَّدَادِ، وَخَالَفَ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ). وَكَذَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَأَبُو حَاتِمٍ وَلَفْظُهُمَا: فَلَمَّا سَمِعَ صَوْتَ عُمَرَ انْقَمَعَ وَسَكَنَ أَيُّ: ذَلَّلَ وَارْتَدَعَ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا عَدُوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ، الْحَدِيثُ. مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ جَوَابِهِنَّ. (وَقَالَ الْحُمَيْدِيُّ) أَيُّ: فِي جَامِعِهِ بَيْنَ الصَّحِيحَيْنِ (زَادَ الْبِرْقَانِيُّ): بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ وَقَدْ تُكْسَرُ مَنْسُوبٌ إِلَى بَرْقَانَ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى خُوَارِزْمَ (بَعْدَ قَوْلِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَضْحَكَكَ). اهـ. فَكَأَنَّهُ حَذَفَهُ بَعْضُ الرُّوَاةِ نِسْيَانًا أَوْ اخْتِصَارًا لظُهُورِهِ، أَوْ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ بَعْضِ الثَّقَاتِ أَوْ مِنْ إِدْرَاجِ بَعْضِ الرُّوَاةِ، وَالْمَعْنَى عَلَيْهِ كَمَا أَشَرْنَا فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ إِلَيْهِ. ^{٤٤٧}

من فوائد الحديث: ^{٤٤٨}

- ١ - كمال خلق النبي ﷺ وصبره وحلمه على أزواجه، ولين جانبه في معاملتهن.
- ٢ - فيه فضيلة عمر رضي الله عنه وصلابته في الدين ولذا يهرب منه الشيطان إذا رآه.
- ٣ - أن هرب الشيطان من عمر رضي الله عنه لا يلزم منه عصمته ولكنها دليل على استمرار حاله على الجد والسداد مع الصلابة في الدين - كما تقدم -.
- ٤ - كمال توقير عمر رضي الله عنه للرسول ﷺ وسروره لسروره، وغضبه على من قصر فيما يجب له ﷺ من التعظيم والتوقير.
- ٥ - مشروعية الاستئذان لمن أراد الدخول على أحد.
- ٦ - مشروعية الحجاب من الرجال الأجانب.
- ٧ - وفيه: فَضِيلَةُ عَظِيمَةِ لِعَمَرِ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَفْتَضِي أَنَّ لَا سَبِيلَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَا يَفْتَضِي وَجُوبَ الْعِصْمَةِ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا فِرَارُ الشَّيْطَانِ مِنْ أَنْ يُشَارِكُهُ فِي طَرِيقِ يَسْلُكُهَا، وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ وَسْوَستِهِ لَهُ بِحَسَبِ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ قُدْرَتُهُ، هَكَذَا قَرَّرَهُ بَعْضُهُمْ. قُلْتُ: هَذَا مَوْضِعُ التَّأْمُلِ، لِأَنَّ عَدَمَ سُلُوكِهِ الطَّرِيقَ الَّذِي يَسْلُكُ فِيهِ عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ خَوْفِهِ لَا لِأَجْلِ مَعْنَى آخَرٍ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي (الْأَوْسَطِ) مِنْ حَدِيثِ حَفْصَةَ بَلَفْظًا: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَلْقَى عُمَرَ مُنْذُ أَسْلَمَ إِلَّا خَرَّ لَوَجْهِهِ. انْتَهَى. فَالَّذِي يَكُونُ حَالُهُ مَعَ عُمَرَ هَكَذَا، كَيْفَ لَا

^{٤٤٧} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٨٩٣/٩)

^{٤٤٨} - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠٠/٦) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩٤/١٦) وفتح الباري - ابن حجر (٤٧٩/١٠). وشرح النووي على مسلم (١٣٧/٨)

يَمْنَعُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ لِأَجْلِ الْوَسْوَسةِ؟ وَتَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْ وَسْوَسةِ بَنِي آدَمَ مَا هُوَ إِلَّا بِأَنَّهُ يَجْرِي فِي عُرُوقِ بَنِي آدَمَ مِثْلَ مَا يَجْرِي فِي الدَّمِّ، فَالَّذِي يَهْرَبُ مِنْهُ وَيَخْرُ عَلَى وَجْهِهِ إِذَا رَأَاهُ كَيْفَ يَجِدُ طَرِيقًا إِلَيْهِ؟ وَمَا ذَاكَ إِلَّا خَاصَّةٌ لَهُ وَضَعَهَا اللَّهُ فِيهِ، فَضْلًا مِنْهُ، وَكِرْمًا، وَبِهَذَا لَا نَدْعِي الْعِصْمَةَ، لِأَنَّهَا مِنْ خَوَاصِ الْأَنْبِيَاءِ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.^{٤٤٩}



^{٤٤٩} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦ / ١٩٦)

قصة في كمال خلق النبي ﷺ وجوده

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِبُرْدَةٍ، فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ الشَّمْلَةُ، فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ شَمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكُسُوكَ هَذِهِ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَلَبَسَهَا، فَرَأَاهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذِهِ، فَاكْسُنيهَا، فَقَالَ: «نَعَمْ» فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ لَأَمَّهُ أَصْحَابُهُ، قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهَا، فَقَالَ: رَحَوْتُ بَرَكَّتْهَا حِينَ لَبَسَهَا النَّبِيُّ ﷺ، لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا^{٤٥٠}

شرح المفردات :

(بردة) هي كساء كانت العرب تلتحف به فيه خطوط ويجمع على برد.
(الشملة) شقة من الثياب ذات خمل يتوشح بها ويتلفع، وكساء من صوف أو شعر يتغطى به ويتلفف به. (حَاشِيَتُهَا) حاشيتا الثوب ناحيتاه اللتان في طرفيهما الهدب.^{٤٥١}

من فوائد الحديث :

- ١ - حسن خلق النبي، وسعة جوده، حيث كان لا يرد سائلاً عليه الصلاة والسلام.
- ٢ - قبوله عليه الصلاة والسلام الهدية.
- ٣ - محبة الصحابة رضي الله عنهم - رجالاً ونساءً - للنبي ﷺ وحرصهم على إدخال السرور عليه بالهدية ونحوها.
- ٤ - مشروعية الإنكار عند مخالفة الأدب ظاهراً وإن لم يبلغ المنكر درجة التحريم، حيث انكر الصحابة رضي الله عنهم على الرجل لما سأل النبي ﷺ البردة وعلموا حاجة النبي ﷺ إليها.
- ٥ - جواز استحسان الإنسان ما يراه على غيره من الملابس وغيرها، أما ليعرفه قدرها، وأما ليعرض له بطلبه منه حيث يسوغ له ذلك.
- ٦ - مشروعية التأسي بالنبي ﷺ في البذل والسخاء وحسن الخلق.^{٤٥٢}



^{٤٥٠} - صحيح البخاري (١٤ / ٨) (٦٠٣٦)

^{٤٥١} - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٣ / ١٤٣) وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري

(٩ / ٣٣) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨ / ٦١)

^{٤٥٢} - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٣ / ١٤٣) وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري

(٩ / ٣٣) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨ / ٦١)

قصة ماشطة بنت فرعون

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ مَرَّ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ، فَقَالَ: «يَا جَبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟» قَالَ: هَذِهِ رِيحُ مَاشِطَةِ بِنْتِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا، بَيْنَمَا هِيَ تَمْشُطُ بِنْتَ فِرْعَوْنَ، إِذْ سَقَطَ الْمَدْرَى مِنْ يَدِهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَقَالَتْ بِنْتُ فِرْعَوْنَ: أَبِي، قَالَتْ: بَلْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، قَالَتْ: وَإِنَّ لَكَ رَبًّا غَيْرَ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، اللَّهُ، قَالَتْ: فَأُخْبِرُ بِذَلِكَ أَبِي، قَالَتْ: نَعَمْ، فَأُخْبِرْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَقَالَ: أَلَيْكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَمَرَ بِقُرَّةٍ مِنْ نَحَّاسٍ، فَأُحْمِيَتْ، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَجَعَلَ يُلْقِي وَلَدَهَا وَاحِدًا وَاحِدًا، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى وَلَدٍ لَهَا رَضِيعٍ، فَقَالَ: يَا أُمَّتَاهُ اثْبَتِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ "

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي بِرَائِحَةٍ طَيِّبَةٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟» فَقَالَ: هَذِهِ مَاشِطَةُ بِنْتِ فِرْعَوْنَ، كَانَتْ تَمْشُطُهَا فَوْقَ الْمَشْطِ مِنْ يَدِهَا فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَقَالَتْ بِنْتُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ أَبِيكَ، قَالَتْ: أَقُولُ لَهُ، قَالَتْ: قُولِي، فَقَالَتْ: فَقَالَ لَهَا: أَلَيْكَ مِنْ رَبِّ غَيْرِي؟ قَالَتْ: رَبِّي وَرَبُّكَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَتْ: فَأُحْمِي لَهَا نُقْرَةً مِنْ نَحَّاسٍ، وَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَتْ: حَاجَتِي أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ عِظَامِي وَبَيْنَ عِظَامٍ وَلَدِي قَالَ: ذَلِكَ لَكَ لَمَّا لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ، فَالْقَى وَلَدَهَا فِي النُّقْرَةِ وَاحِدًا فَوَاحِدًا، وَكَانَ آخِرُهُمْ صَبِيٌّ فَقَالَ: يَا أُمَّتَاهُ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَرْبَعَةٌ تَكَلَّمُوا وَهُمْ صِبَاغٌ: ابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، وَصَبِيُّ جُرَيْجٍ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَالرَّابِعُ لَا أَحْفَظُهُ»^{٤٥٣}

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تَمْشُطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمَدْرَى مِنْ يَدِهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي، وَرَبُّ أَبِيكَ اللَّهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأُخْبِرْتُهُ فَدَعَاها، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكَ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَمَرَ بِقُرَّةٍ مِنْ نَحَّاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَتْ: أَحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ. قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضِعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهُ،

^{٤٥٣} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦٤/٧) (٢٩٠٤) صحيح

اَفْتَحِمِي ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ ، فَافْتَحَمْتُ ، قَالَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ : عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ ، وَابْنُ مَاشِطَةَ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ.^{٤٥٤}

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ مَرَّ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ، فَقَالَ : « يَا جَبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرِّيحُ ؟ » قَالَ : هَذِهِ رِيحُ مَاشِطَةَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا ، بَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي بِنْتِ فِرْعَوْنَ ، إِذْ سَقَطَ الْمَدْرَى مِنْ يَدِهَا ، فَقَالَتْ : بِسْمِ اللَّهِ ، فَقَالَتْ بِنْتُ فِرْعَوْنَ : أَبِي ، قَالَتْ : بَلْ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، قَالَتْ : وَإِنَّ لَكَ رَبًّا غَيْرَ أَبِي ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، اللَّهُ ، قَالَتْ : فَأَخْبِرِي بِذَلِكَ أَبِي ، قَالَتْ : نَعَمْ ، فَأَخْبَرَتْهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَقَالَ : أَلَيْكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، فَأَمَرَ بِنَقْرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ ، فَأُحْمِيَتْ ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَجَعَلَ يُلْقِي وَلَدَهَا وَاحِدًا وَاحِدًا ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى وَلَدٍ لَهَا رَضِيعٍ ، فَقَالَ : يَا أُمَّتَاهُ انْبِئِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ^{٤٥٥}

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ : النَّبِيُّ ﷺ " لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَّتْ بِي رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ ، فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ ؟ قَالُوا : مَاشِطَةُ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا سَقَطَ مُشْطُهَا مِنْ يَدِهَا ، فَقَالَتْ : بِسْمِ اللَّهِ ، فَقَالَتْ بِنْتُ فِرْعَوْنَ : أَبِي ، قَالَتْ : رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ أَبِيكَ ، قَالَتْ : أَوَلَيْكَ رَبٌّ غَيْرُ أَبِي ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ أَبِيكَ ، اللَّهُ . قَالَ : فَدَعَاَهَا ، فَقَالَ : أَلَيْكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ قَالَ : فَأَمَرَ بِبَقْرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا لَتُلْقَى فِيهَا ، قَالَتْ : إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً . قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَتْ : تَجْمَعُ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي مَوْضِعٍ . قَالَ : ذَاكَ لَكَ لِمَا لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ قَالَ : فَأَمَرْتُهُمْ فَأُلْقُوا وَاحِدًا وَاحِدًا حَتَّى بَلَغَ رَضِيعًا فِيهِمْ ، فَقَالَ : فَعَيَّ يَا أُمَّهُ ، وَلَا تَفَاعَسِي فَإِنَّا عَلَى الْحَقِّ قَالَ : وَتَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ : هَذَا ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَعَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ^{٤٥٦}

الغريب :

قال ابن الأثير: "النقرة قدر يسخن فيها الماء وغيره، وقيل: هو بالباء الموحدة". قلت: وهي رواية غير المصنف.

معنى القصة :

هذه قصة أمراءه كانت تعيش في قصر فرعون، كانت أمراءه صالحه تعيش مع زوجها في ظل ملك فرعون ، وكانت مربيه لبنات فرعون ، من الله عليها وعلى زوجها بالإيمان ، فعلم فرعون بإيمان زوجها فقتله، فصبرت المرأة واحتسبت وثم لم تزل تخدم وتمشط بنات فرعون ، تنفق على أولادها الخمسة ، تطعمهم كما تطعم الطير أفراخها ، فبينما هي تمشط ابنة فرعون يوما ، إذ وقع المشط من

^{٤٥٤} - مسند أحمد (عالم الكتب) (١/ ٧٨٨) (٢٨٢١) ٢٨٢٢ - صحيح

^{٤٥٥} صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦٤/ ٧) (٢٩٠٣) صحيح

^{٤٥٦} - دلائل النبوة للبيهقي مخرجا (٣٨٩/ ٢) صحيح

يديها فقالت < بسم الله > فقالت ابنة فرعون : الله أبي .. فصاحت الماشطة بابنة فرعون وقالت : كلا بل الله ربي وربك و رب أبيك ،، فتعجبت البنت أنه عبد غير أبيها ، ثم أخبرت أباها فرعون بذلك فعجب أن يوجد في القصر من يعبد غيره ، فدعا بها وقال لها : من ربك .. قالت ربي الله ، فغضب عند ذلك فرعون ، وأمرها بالرجوع عن دينها ، وحبسها وضربها ، لكنها ثبتت على الدين ، فأمر فرعون بقدر من نحاس ثم ملأت بالزيت ، ثم أحمي حتى غلا ، وأوقفها أمام القدر فلما رأت العذاب ، أيقنت إنما هي نفس واحدة ، تخرج و تلقى ربها ، فصبرت على ما أصابها فعلم فرعون أن أحب الناس إليها أولادها الخمسة الأيتام الذين تكدح وتطعمهم فأحضر أبنائها الخمسة ، تدور أعينهم لا يدرون إلى أين يساقون فلما رأوا أمهم تعلقوا بها ييكون ، فبكت وأقبلت عليهم تقبلهم ، وتبكي بين أيديهم ، ثم أخذت أصغرهم وضمته إلى صدرها ، وألصقت ثديها ، فلما رأى فرعون هذا المنظر أمر بأكبرهم فجره الجنود ثم رفعوه إلى الزيت المغلي والگلام يصيح بأمه ويستغيث ويسترحم الجنود ويتوسل إلى فرعون يحاول الفكاك والهرب ينادي أخوته الصغار ويضرب الجنود بيديه الصغيرتين ، وهم يصفعون ويضعونه ، وأمه تنظر إليه تودعه ... فما هي إلا لحظات ... حتى إذا غيَّب ذلك الصغير بالزيت ، والأم تبكي وتنظر إليه وأخوته يغطون أعينهم بأيديهم الصغيرة ، حتى إذا ذاب لحمه من على جسمه النحيل وطفحت عظامه بيضاء فوق الزيت ، نظر إليها فرعون ثم أمرها بالكفر بالله ، فأبت عليه ذلك ، وعندها غضب عليها فرعون وأمر بولدها الثاني ، فسحب من عند أمه وهو بكى ويستغيث ... فما هي إلا لحظات ... حتى ألقي في ذلك الزيت ، وهي تنظر إليه ، فطفحت عظامه بيضاء ، واختلطت بعظام أخيه ، والأم ثابتة على دينها ، موقنة ببقاء ربها ، ثم أمر فرعون بالولد الثالث فسحب ثم قرب إلى القدر المغلي ثم حمل وغيب بالزيت ، وفعل به كما فعل بأخويه ، والأم ثابتة على دينها ، عند ذلك صاح فرعون بالجنود ، وأمر بالطفل الرابع أن يلقي بالزيت ، فأقبل الجنود عليه وكان صغيرا ، قد تعلق بأثواب أمه فلما جذبه الجنود بكى وانطرح على قدمي أمه و دموعه تجري على رجليها ، وهي تحاول أن تحمله مع أخيه ، تحاول أن تودعه ، وتقبله وتشمه ، قبل أن فارقتها ، فحالوا بينه وبينها ، وحملوه من يديه الصغيرتين وهو يبكي ويستغيث ويتوسل بكلمات غير مفهومة ، وهم لا يرحمونه .. وما هي إلا لحظات .. حتى غرق الصغير بالزيت المغلي وغاب الجسد وانقطع الصوت ، وشمّت أمه رائحة لحمه وعلت عظامه صغيره بيضاء فوق الزيت يتقلب بها ، ونظرت الأم إلى العظام وقد رحل عنها إلى دار أخرى ، وهي تبكي وتقطع لفراقه .. فطالما ضمته إلى صدرها وأرضعته من ثديها .. طالما سهرت لسهره .. وبكت لبكائه .. كم ليلة بات في حجرها ولعب شعرها كم قربت منه ألغابه .. وألبسته ثيابه ، بكّت وجاهدت نفسها أن تتجلد وتتماسك ، فالتفتوا إليها ثم تدافع الجنود عليها وانتزعوا الطفل الخامس الرضيع من يديها وكان قد التقم ثديها ثم انتزع منها ، صرخ الصغير وبكت المسكينة فلما رأى الله تعالى ذلها

وانكسارها وفجيعتها بولدها ... أنطق الله تعالى الصبي في مهده وقال لها: ((يا أماه اصبري فإنك على الحق))

ثم ألقى في الزيت وانقطع صوته عنها وغيب في القدر مع أخوته ... مات ... وفي فمه بقايا من حليبها، وفي يده شعره من شعراتها ، وعلى أثوابه قطرات من دموعها .. ذهب الأولاد الخمسة .. وهاهي عظامهم يلوح بها القدر ولحمهم يفور به الزيت ، تنظر المسكينة إلى هذه العظام .. إنها عظام أولادها ، اللذين طالما ملؤوا عليها البيت ضحكا وسرورا .. إنهم فلذات كبدها .. وعصارة قلبها اللذين لما فارقوها ، كأن قلبها قد أخرج من صدرها .. طالما ركضوا إليها ، وارتموا بن يديها ، طالما ضمتهم إلى صدرها وألبستهم ثيابهم بيدها ومسحت دموعهم بأصابعها .. ثم هاهم اليوم ينتزعون من بين يديها ويقتلون أمام ناظريها .. كانت تستطيع أن تحول بينهم وبين العذاب بكلمة كفر تسمعها فرعون ، لكنها علمت أن ما عند الله خير وأبقى ... ثم لم يبق إلى هي .. أقبل عليها الجنود ثم دفعوها إلى القدر فلما حملوها ليلقوها بالزيت نظرت إلى عظام أولادها .. فتذكرت اجتماعها معهم في الحياة فالتفتت إلى فرعون وقالت: لي إليك حاجه ثم صاح بها وقال ما حاجتك فقالت أن تجمعوا عظامي وعظام أولادي فتدفنوها ف قبر واحد .. ثم أغمضت عينيها وألقيت في القدر مع أولادها واحترق جسدها وطففت عظامها .

فلله درها ما أعظم ثباتها وأكثر ثوابها ، ولقد رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء شيئا من نعيمها فحدث به أصحابه فقال لهم فيما رواه البيهقي : ((لما أسرى بي مرت بي رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة فقيل لي هذه ماشطة بنت فرعون وأولادها)) .

الله أكبر .. تعبت كثيرا لكنها استراحت كثيرا ، وقد قال الله تعالى في شأنها {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩]

مضت هذه المرأة المؤمنة إلى خالقها ، وجاورت ربها ويرجى أن تكون اليوم في جنة ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر .. يرجى أنها اليوم أحسن منها في الدنيا حالا وأكثر نعيما وجمالا

وعند البخاري عن حميد، قال: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ، لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدَ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى»

قال: وَسَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَرَوْحَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ غَدَوَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - يَعْنِي سَوْطُهُ - خَيْرٌ مِنْ

الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاعَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنْصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^{٤٥٧}

ومن دخل الجنة نسي ما أصابه في الدنيا فمن سكان الجنة؟؟ هل هم أهل شهوات ومعاصي؟ كلا والله^{٤٥٨}

إنهم .. أهل الصيام مع القيام وطيب الكلمات والإحسان
أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان
عسل مصفى ثم ماء ثم خمـــــــــــــر ثم أنهار من الالبان
وطعامهم ما تشتهي نفوسهم ولحومهم طير ناعم وسمان
وفواكه شتى بحسب مناهم يا شبعة كملت لذي الإيمان
وصحافهم ذهب تطوف عليهم بأكف خدام من الولدان
وشراهم من سلسيل مزجه الكافور ذاك شراب ذي الإيمان
والحُلِيِّ أَصْفَى لَوْلُو وزبرجد وكذلك أسورة من العقيان
هذا وخاتمة النعيم خلودهم أبداً بدار الخلد والرضوان
يا سلعة الرحمن لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن أين المشتري فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن كيف تصبر العشاق عنك وهم ذوو إيمان
والله لم تخرج إلى الدنيا للذة عيشها أو للحطام الفاني
لكن خرجت لكي تعدّ الزاد للأخرى فجئت بأقبح الخسران^{٤٥٩}

الدروس والعبر :

- ١- فيه السؤال عن كل ما يشكل على المرء معرفته على حقيقته
- ٢- وفيه أن الشهداء لهم ريح طيبة في الجنة
- ٣- وفيه حكاية ماشطة بنت فرعون في الجنة

^{٤٥٧} - صحيح البخاري (١٧/٤) (٢٧٩٥ و ٢٧٩٦)

[ش (له عند الله خير) ثواب مدخر على عمل صالح عمله في الدنيا، (موضع قيد) مقدار قيد وهو السوط المتخذ من الجلد الذي لم يدبغ. (ما بينهما) ما بين السماء والأرض. (ريحا) عطرا. (لنصيفها) حمارها وهو ما يغطي به الرأس]

^{٤٥٨} - <http://www.yzeed.com/vb/showthread.php?t=٢٨٠١>

^{٤٥٩} - نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: ٣٢٦)

٤ - وفيه أن السنة إذا وقع شيء من يد الإنسان أو تعثر أن يقول " بسم الله " لكي لا يصيبه الشيطان بسوء

٥ - وفيه أن بنت فرعون كانت تعتقد أن أباهما إله يعبد من دون الله تعالى.

٦ - وفي جواب الماشطة رضي الله عنها يبين قوة إيمانها وصدعها بالحق في وقت الحاجة والضرورة ، فلم تناور ولم تداور أبداً ، بل صدعت بالحق فهنيئاً لها. انظروا إلى قولها " قَالَتْ: بَلْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، قَالَتْ: وَإِنَّ لَكَ رَبًّا غَيْرَ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، اللَّهُ، قَالَتْ: فَأُخْبِرُ بِذَلِكَ أَبِي، قَالَتْ: نَعَمْ "

٧ - الصدع يكلمة الحق عند سلطان جائر أو طاغية متفرعن من أعظم الجهاد عند الله تعالى، فعَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغُرْزِ، أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^{٤٦٠}

٨ - كثير من الناس ينكصون على أعقابهم أمام مواجهة الباطل ، فيسقطون على الطريق ، وآخرون يصدعون بالحق فيخلدون في التاريخ .

٩ - صدعها بالحق أمام أعظم فرعون في الأرض ، ولم تخف في الله لومة لائم " فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَقَالَ: أَلَيْكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ "

١٠ - نعم إن ربها ورب فرعون ورب المخلوقات كلها هو الله تعالى وحده ، وفي هذا صفة في وجه كل طاغية وفرعون في الأرض ، فهم ليسوا أرباباً ، بل هم أخط المخلوقات عند الله تعالى .

١١ - الفراغة ليس عندهم حجة ولا برهان على كفرهم وضلالهم ، وعندما يوجههم الحق الأبلج يلجؤون إلى البطش بالحق بلا هوادة ، وهذا دليل قاطع على إفلاسهم وضحالة فكرهم العفن .

١٢ - لما صدعت بالحق هدها بشر مينة فلم تكثرث لذلك أبداً ، وقالت له ما قال السحرة له بعد إيمانهم بالحق { فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [طه: ٧٢]

١٣ - وفيه تلذذ الطغاة بقتل معارضيهم من المؤمنين واستخدام أبشع طرق القتل والتعذيب لكي يخاف الناس ويرتدعوا عن الإيمان الحق ، فقد بدأ بأكبر أولادها ووضعها في ذلك القدر الجهنمي فتفتت لحمه عن عظمه عن دمه وهي صابرة محتسبة ، وهذا أعلى أنواع الصبر ، قال تعالى: { إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزمر: ١٠]

١٤ - وفيه أن الصبر عند الصدمة الأولى فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَمْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّائِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^{٤٦١}

^{٤٦٠} - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣) (٧٧٨٦) صحيح

^{٤٦١} صحيح البخاري (٢/ ٧٩) (١٢٨٣) وصحيح مسلم (٢/ ٦٣٧) ١٥ - (٩٢٦)

- ١٥- وفيه أن المرأة تتعلق بطفلها الرضيع أكثر من غيره من أولادها ، ولذلك تقاعست من أجله " إلى أن انتهت ذلك إلى صبي لها مرضع ، كأنها تقاعست من أجله "
- ١٦- وفيه كرامة لها ولولدها الرضيع حيث أنقطه الله تعالى بالحق " قال : يا أمه ، اقتحمي ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فافتحمت "
- ١٧- وفيه دليل على مشروعية العمليات الاستشهادية واقتحام المهالك في سبيل الله تعالى ، وأن ذلك ليس من الانتحار المنهي عنه وليس إلقاء بالنفس إلى التهلكة ...
- ١٨- وفيه أنه تكلم في المهد أربعة صغار " تكلم أربعة صغار : عيسى ابن مريم عليه السلام ، وصاحب جريج ، وشاهد يوسف ، وابن ماشطة ابنة فرعون . "
- ١٩- وفيه أن السنة النبوية في معظمها قد رويت بالمعنى وليس باللفظ ولا إشكال في ذلك حيث التعبد بمعانيها وليس بألفاظها بعكس القرآن الكريم فالتعبد باللفظ والمعنى .



[ش (إليك عني) اسم فعل بمعنى تنح وابتعد. (إنما الصبر) الكامل الأجر والثواب. (الصدمة الأولى) أول وقوع المصيبة الذي يصدم القلب فجأة وأصلها من الصدم وهو الضرب في الشيء الصلب]

قصة الكفل من بني إسرائيل

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً، يَقُولُ: «كَانَ ذُو الْكِفْلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ شَيْءٍ، فَهَوِيَ امْرَأَةً، فَرَاوَدَهَا عَلَى نَفْسِهَا، وَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا، فَلَمَّا جَلَسَ مِنْهَا، بَكَتْ وَأُرْعِدَتْ، فَقَالَ لَهَا: مَا لَكَ؟ فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ لَمْ أَعْمَلْ هَذَا الْعَمَلَ قَطُّ، وَمَا عَمَلْتُهُ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ، قَالَ: فَتَدِمِ ذُو الْكِفْلِ، وَقَامَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَأَذْرَكَهُ الْمَوْتُ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، وَجَدُوا عَلَى بَابِهِ مَكْتُوبًا: إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ»

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ لَمْ أُحَدِّثْ بِهِ، وَلَكِنْ قَدْ سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ مَرَّاتٍ. قَالَ: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْكِفْلُ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمَلُهُ، فَاتَّبَعَ امْرَأَةً، فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ تُعْطِيَهُ نَفْسَهَا، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنَ الْمَرْأَةِ ارْتَعَدَتْ وَبَكَتْ، فَقَالَ: مَا يُنْكِيكَ؟ فَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ مَا عَمَلْتُهُ قَطُّ. فَقَالَ: أَكْرَهْتُكَ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنِّي حَمَلْتَنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ. فَقَالَ: اذْهَبِي فَهَنْ لَكَ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَعْصِي اللَّهَ أَبَدًا. قَالَ: فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَقِيلَ: مَاتَ الْكِفْلُ، فَوُجِدَ عَلَى بَابِ دَارِهِ مَكْتُوبٌ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لِلْكَفْلِ»^{٤٦٢}

المعنى العام :

هذا رجل أسرف على نفسه في الخطايا ولم يكن يتورع عن ذنب عمله، ثم أدركته رحمة الله وهو في سبيل ارتكاب فاحشة يجلب خطرها وهي الزنا، فلما تاب.. تاب الله عليه، ومن عليه بالفضل وأعطاه كرامة تشهد بصلاحه وتقواه، حيث مات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: إن الله قد غفر للكفل. وتعلمنا القصة أن الواجب على المسلم إن وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها؛ فأما التوبة فهي عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا ورجوعاً إلى الله والطمع في رحمته. وكلما كان الندم أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، وعلامة صحة الندم، رقة القلب والشفقة على الخلق، والتماس الأعذار للناس، خاصة الضعفاء منهم وأصحاب الحاجة.

وبهذا الندم يصدق العزم في التوجه إلى ترك هذا الذنب، فإن لم تساعد النفس في العزم على ترك الذنب لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين المترتين على الندم، فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة فيمحوها، والحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان

^{٤٦٢} - اعتلال القلوب للخرائطي (١/ ٥٧) (١٠٤) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٥٧) (٢٤٩٦) وشعب الإيمان (٩/ ٣١٨) (٦٧٠٧) والمستدرک علی الصحیحین للحاکم (٤/ ٢٨٣) (٧٦٥١) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ٢٩٧) وصحيح ابن حبان - مجزأ (٢/ ١١١) (٣٨٧) و الدعاء للضيي (ص: ٣٤٣) (١٤٦) حسن

وإما بالجوارح، فأما بالقلب فليكفرها بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو، وأما باللسان فبالاعتراف بظلم النفس مع الاستغفار فيقول: رَبِّ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي^{٤٦٣}

وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار المأثورة. وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات. ومن أهم ما يجب تداركه في التوبة الحقوق المتعلقة بالعباد، فمن تناول مثلاً مالا بغصب أو خيانة أو غش في معاملة فيجب أن يفتش عن ظلمه ليستحله أو ليؤدي حقه له أو لورثته، وليحاسب نفسه على القليل قبل أن يحاسب يوم القيامة، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات بقدر كثرة مظالمه، فهذا طريق كل تائب في رد المظالم الثابتة في ذمته.

وأما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معيناً، وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار.

وأما الإساءة إلى الناس باللسان والوقوع فيهم بالغيبة فيجب عليه أن يعتذر إلى كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله، فمن وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته، ومن مات أو غاب أو تعذر استحلاله فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات؛ لقول الله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: ١١٤].

وبذلك تعلم أن للتوبة ثلاثة شروط: أن تندم على الذنب، وأن تغفر عنه، وأن تعزم على ألا تعود إليه ثانية، وإن كان متعلقاً بحقوق العباد رددت الحق إليهم.

وإذا استجمعت التوبة شرائطها فهي مقبولة بإذن الله، فإن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، كما لا طاقة لظلام الليل مع بياض النهار، قال تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} [غافر: ٣]، وقال سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: ٢٥]، وعن أبي موسى، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النَّورُ، لَوْ كُشِفَ طَبَقُهَا أَحْرَقَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلُّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ، وَاضِعُ يَدِهِ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ لِيَتُوبَ بِالنَّهَارِ، وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ لِيَتُوبَ بِاللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^{٤٦٤}. وقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^{٤٦٥}.

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل، وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة. فاللهم بصرنا بذنوبنا لنرجع إليك، واجعل لنا من كل ذنب طريقاً للفوز بما لديك.^{٤٦٦}

^{٤٦٣} - الدعاء للطبراني (ص: ١٩٥) (٦٠٨) صحيح

^{٤٦٤} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/٤٩٩) (٢٦٦) صحيح

^{٤٦٥} - سنن ابن ماجه (٢/١٤١٩) (٤٢٥٠) صحيح لغيره

^{٤٦٦} - <http://www.ahram.org.eg/The-Writers/News/> ١٤٢١٤٣١٤.aspx

الفوائد والدروس :

- ١ - فيه تكرار الحديث من الرسول ﷺ للصحابة للتأكيد على أهمية هذه القصة وفوائدها.
 - ٢ - وفيه ذكر بعض أهل المعاصي من باب التحذير من أفعالهم
 - ٣ - وفيه أن المرأة قد تنغوي بالمال فتبيع عرضها بثمان بخس ولا سيما إذا كانت فاسقة ...
 - ٤ - وفيه أن المرأة التي أساسها صالح ولو عصت الله قد ترجع إلى الله في أي وقت كما فعلت هذه المرأة ...
 - ٥ - وفيه أن الإنسان الذي يرتكب المعصية قد تمر عليه لحظات من الخوف من الله تجعله يبتعد عن المعصية خوفاً من الله تعالى .
 - ٦ - وفيه أنه يحرم استغلال حاجة الفقراء والمساكين من أجل تمكينهم من المعصية
 - ٧ - وفيه أن العاصي إذا جاءه من يذكره الله تعالى فقد يهتدي ويتوب إلى الله تعالى .
 - ٨ - وفيه أن باب التوبة مفتوح حتى طلوع الشمس من مغربها ... فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: " الْهَجْرَةُ خَصْلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجَرَ السَّيِّئَاتِ، وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجَرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ مَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ، وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ " ٤٦٧
 - ٩ - وفيه أن التوبة تقبل حتى ما قبل اليأس من الحياة والترع الأخير ...
- فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ» ٤٦٨.
- ظَاهِرُهُ الْإِطْلَاقُ وَقَيْدُهُ بَعْضُ الْحَنْفِيَّةِ بِالْكَافِرِ (مَا لَمْ يُعْرِغْ) أَي: مَا لَمْ تَبْلُغِ الرُّوحُ إِلَى الْحُلُقُومِ، يَعْنِي: مَا لَمْ يَتَيَقَّنْ بِالْمَوْتِ فَإِنَّ التَّوْبَةَ بَعْدَ التَّيَقُّنِ بِالْمَوْتِ لَا يُعْتَدُّ بِهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} [النساء: ١٨] قِيلَ: وَأَمَّا تَفْسِيرُ ابْنِ عَبَّاسٍ حُضُورَهُ بِمُعَايِنَةِ مَلِكِ الْمَوْتِ، فَحُكْمٌ أَغْلِبِيٌّ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَرَاهُ، وَكَثِيرًا يَرَاهُ قَبْلَ الْعَرْغَةِ، وَأَعْرَبَ ابْنُ حَجَرَ فَقَالَ: وَرَدَّ بِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَرَاهُ فَمُدَّعِي الْعَدَمِ يَلْزِمُهُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ. اهـ.
- وَوَجْهُ غَرَابَتِهِ أَنَّهُ لَا دَلَالَه فِي الْآيَةِ عَلَى الرُّؤْيَةِ، وَالْمَانِعُ لَا يُطْلَبُ مِنْهُ الدَّلِيلُ، نَعَمْ لَوْ قِيلَ: ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مَا لَمْ يُعَايِنِ الرَّجُلُ مَلَكَ الْمَوْتِ، وَمَوْقُوفُهُ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ لِأَنَّ مِثْلَهُ مَا يُقَالُ مِنْ قَبْلِ الرَّأْيِ، أَوْ كَلَامُهُ حُجَّةٌ عَلَى غَيْرِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ إِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ، وَيَدُلُّ عَلَى مَا قَالَهُ بِظَاهِرِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا} [غافر: ٨٥] وَتَشِيرُ الْآيَةُ الْمَاضِيَةُ بِأَنَّ

٤٦٧ - شعب الإيمان (٩/ ٣٨٠) (٦٨٢٠) صحيح

٤٦٨ - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٣٩٥) (٦٢٨) صحيح لغيره

الْحُضُورَ حَقِيقَةً لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْمَلِكِ، وَأَمَّا لِلْمَوْتِ فَمَجَازٌ، وَالنَّسَبَةُ الْحَقِيقَةُ أَوْلَى مِنَ الْمَجَازِيَةِ، فَيَكُونُ مِنْ قَبِيلِ: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: ٨٢] فَالْتَّقْدِيرُ حَضَرَ أَحَدَهُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَتَخْصِيصُ غَيْرِهِ بِدَعْوَى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَرَاهُ مُحْتَاجٌ إِلَى دَلِيلٍ كَانَ لَهُ وَجْهٌ وَجِيهٌ، قِيلَ: جَعَلَ ابْتِدَاءَ قَبْضِ الرُّوحِ مِنَ الرَّجُلِ لِيَبْقَى الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ ذَاكِرًا، وَلِيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا، وَلِيَسْتَحِلَّ مِنَ النَّاسِ عَنِ الْمَظَالِمِ، وَلِيُوصِيَ بِالْخَيْرِ، وَلِيَكُونَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

قَالَ الطَّبِيبُ: الْغَرُغَرَةُ أَنْ يُجْعَلَ الْمَشْرُوبُ فِي الْفَمِ، وَيُرَدَّدَ إِلَى أَصْلِ الْحَلْقِ وَلَا يُبْتَلَعُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ شَرَطَ التَّوْبَةَ الْعَزْمَ عَلَى تَرْكِ الذَّنْبِ الْمُتَوْبِ مِنْهُ وَعَدَمَ الْمُعَاوَدَةِ، وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ مَعَ تَمَكُّنِ التَّائِبِ مِنْهُ وَبَقَاءِ أَوَانِ الْإِخْتِيَارِ، فَإِذَا تَيَقَّنَ الْمَوْتَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، وَهَذَا فِي التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، لَكِنْ لَوْ اسْتَحَلَّ مِنْ مَظْلَمَةٍ صَحَّ، وَكَذَا لَوْ أَوْصَى بِشَيْءٍ أَوْ نَصَّبَ وَلِيًّا عَلَى طِفْلِهِ أَوْ عَلَى خَيْرٍ صَحَّتْ وَصِيَّتُهُ. اهـ. وَجَعَلَهُ عَدَمَ الْمُعَاوَدَةِ شَرْطُ التَّوْبَةِ خِلَافُ مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَحَلِّهِ الْمُسْطَوْرِ، وَكَذَا قَوْلُهُ: لَوْ أَوْصَى الْخ. فَإِنَّهُ تَعَقَّبَهُ ابْنُ حَجَرٍ بِأَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي الْأَحْكَامِ.^{٤٦٩}

١٠ - وفيه بكاء المرأة المحتاجة خوفاً من الله تعالى لأنها لم تعمل هذه المعصية أبداً من قبل.

١١ - وفيه قد عاهد الله تعالى أن لا يرجع للمعصية مرة أخرى بسبب تلك المرأة "وَاللَّهُ لَا أَعْصِي اللَّهَ أَبَدًا".

١٢ - وفيه منقبة لذي الكفل بقبول توبته من الله تعالى " فَادْرَكَهُ الْمَوْتُ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، وَجَدُوا عَلَى بَابِهِ مَكْتُوبًا: إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ "



قصة ربح عاد

عَنْ رَجُلٍ، مِنْ رَبِيعَةَ قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ عَنْدهُ وَافِدَ عَادَ، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ وَافِدِ عَادَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا وَافِدُ عَادٍ؟» قَالَ: فَقُلْتُ: عَلَى الْخَبِيرِ بِهَا سَقَطَتْ، إِنَّ عَادًا لَمَّا أَفْحَطَتْ بَعَثَتْ قَيْلًا فَنَزَلَ عَلَى بَكْرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ فَسَقَاهُ الْخَمْرَ وَغَنَّتْهُ الْجَرَادَاتَانِ، ثُمَّ خَرَجَ يُرِيدُ جِبَالَ مَهْرَةَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ آتِكَ لِمَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ وَلَا لِأَسِيرٍ فَأُفَادِيَهُ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتُ مُسْقِيَهُ، وَاسْقِ مَعَهُ بَكْرَ بْنَ مُعَاوِيَةَ، يَشْكُرُ لَهُ الْخَمْرَ الَّتِي سَقَاهُ، فَرَفَعَ لَهُ سَحَابَاتٍ، فَقِيلَ لَهُ: اخْتَرْ إِحْدَاهُنَّ، فَاخْتَارَ السَّودَاءَ مِنْهُنَّ، فَقِيلَ لَهُ: خُذْهَا رَمَادًا رَمْدًا، لَا تَذُرْ مِنْ عَادٍ أَحَدًا، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا قَدْرُ هَذِهِ الْحَلَقَةِ - يَعْنِي حَلَقَةَ الْخَاتَمِ ثُمَّ قَرَأَ: { إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرِيمِ } [الذاريات: ٤٢] الآية^{٤٧٠}

وَعَنِ الْحَارِثِ بْنِ حَسَّانَ، قَالَ: مَرَرْتُ بِعَجُوزٍ بِالرَّبَذَةِ مُنْقَطِعٍ بِهَا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، قَالَ: فَقَالَتْ: أَيُّنَ تُرِيدُونَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: تُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَاحْمِلُونِي مَعَكُمْ، فَإِنْ لِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ، قَالَ: فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، وَإِذَا هُوَ غَاصٌّ بِالنَّاسِ، وَإِذَا رَأَيْتُ سَوْدَاءَ تَخْفِقُ، فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ قَالُوا: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَجْعَلَ الدَّهْنَاءَ حِجَازًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ تَمِيمٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّهَا كَانَتْ لَنَا مَرَّةً، فَاسْتَوْفَرَتِ الْعَجُوزُ وَأَخَذَتْهَا الْحَمِيَّةُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ نَصْرَ مُضَرِّكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَمَلْتُ هَذِهِ وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَانَتْ لِي خَصْمًا، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا قَالَ الْأَوَّلُ؟» قَالَ: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «هَبْ، يَسْتَطِيعُهُ الْحَدِيثُ» قَالَ: إِنَّ عَادًا أَرْسَلُوا وَافِدَهُمْ قَيْلًا فَنَزَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ وَغَنَّتِهِ الْجَرَادَاتَانِ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى جِبَالَ مَهْرَةَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ آتِ لَأَسْرِ فَأُفَادِيَهُ، وَلَا لِمَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتُ سَاقِيَهُ، وَاسْقِ مَعَهُ مُعَاوِيَةَ بْنَ بَكْرِ شَهْرًا، يَشْكُرُ لَهُ الْخَمْرَ الَّتِي شَرِبَهَا عَنْدهُ، قَالَ: فَمَرَّتْ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ فَنُودِيَ أَنْ خُذْهَا رَمْدًا لَا تَذُرْ مِنْ عَادٍ أَحَدًا. قَالَ أَبُو وَائِلٍ: بَلَّغْنِي أَنَّهَا إِنَّمَا أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ كَقَدْرِ مَا يُرَى مِنَ الْخَاتَمِ^{٤٧١}

[شَرْحُ الْغَرِيبِ]

خفقت الرايات : إذا حركها الهواء وجاء صوتها.

قحطت ، القحط : الغلاء ، وأصله من انقطاع المطر ، وهو سبب الغلاء.

^{٤٧٠} - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٣٩١) (٣٢٧٣) حسن

^{٤٧١} - مسند ابن أبي شيبة (٢/ ١٧٣) (٦٥٩) حسن

رمادا ، الرماد معروف ، والرمدد:أدق ما يكون منه ، ويقال : رماد رمدد ، أي : هالك ، جعلوه صفة له.

الريح العقيم : هي التي لا تلقح الشجر ، ولا تأتي بالمطر.^{٤٧٢}

الدروس والعبر :

- ١- فيه ذكر قصص الأمم الماضية للعبرة ومنهم وافد عاد
- ٢- وفيه سؤال النبي ﷺ أصحابه عما يعرفونه من اخبار وقصص عن الأمم الماضية
- ٣- وفيه يجوز للمرء الذي يعلم شيئا أن يقول " عَلَى الْخَيْرِ بِهَا سَقَطَتْ "
- ٤- وفيه أن الفاسق لا يؤمن على شيء فكيف يرسل سكير خمير للبحث عن الماء ؟
- ٥- وأن هلاك عاد كان بريح صرصر عاتية قال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ (٤٢)} [الذاريات: ٤١ ، ٤٢]
وجعلنا في قصة عاد آية لكل مُعْتَبِرٍ، إِذْ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَةً فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعًا، وَلَمْ يُبَقِّ مِنْهُمْ أَحَدًا. وَلَمْ تَنْتَرْكِ هَذِهِ الرِّيحُ الْعَقِيمُ شَيْئًا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْعِظَمِ الْبَالِي، (وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الرِّيحُ عَقِيمًا لِأَنَّهَا تُفْسِدُ وَلَا تُنْتِجُ شَيْئًا).^{٤٧٣}
- وسميت الريح التي أرسلت على عاد عقيما لأنها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا. إنما تحمل الموت والدمار. وتترك كل شيء تأتي عليه كالميت الذي رم وتحول إلى فتات! والريح قوة من قوى هذا الكون. وجند من جند الله. وما يعلم جنود ربك إلا هو. يرسلها - في اطار مشيئته وناموسه - في صورة ما من صورها، في الوقت المقدر، على من يريد، بالهلاك والدمار، أو بالحيا والحياة.
- ولا مكان في مثل هذه المواضع للاعتراض الساذج، بالقول بأن الريح تجري وفق نظام كوني وتهب هنا أو هناك تبعا لعوامل طبيعية. فالذي يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذي يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتدبيره. وهو قادر على أن يسلطها كما يريد في اطار النظام الذي قدره والعوامل التي جعلها. ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض!^{٤٧٤}
- ٦- وفيه سكوت النبي ﷺ على القصة دليل على صحتها إذ لا يسكت على باطل
- ٧- وفيه حرص النساء حتى العاجز رؤية رسول الله ﷺ
- ٨- وفيه أن بعث البعوث لمقاتلة الكفار كان من المسجد النبوي
- ٩- وفيه أنه من الرايات التي كانت ترفع للجهاد في سبيل الله راية سوداء
- ١٠- وفيه منقبة للصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه.

^{٤٧٢} - جامع الأصول (١٠ / ٣٢٠)

^{٤٧٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٩٥، بترقيم الشاملة آليا)

^{٤٧٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤٢٣٤)

- ١١- وفيه أنه قد طلب منه ﷺ الدهناء حجازاً بيننا وبين تميم .
- ١٢- وفيه أن العجوز خاصمت الرجل فاعترض عليها وتعوذ بالله مما قال الأول.
- ١٣- وفيه سؤال النبي ﷺ للرجل عن هذا الأول ما فعل ؟ يعني أنه وافد شؤم وشر كان على عاد.



قصة إسلام أبي ذر الفخاري رضي الله عنه

قال أبو حمزة: قال لنا ابن عباس: ألا أخبركم بإسلام أبي ذر؟ قال: قلنا بلى، قال: قال أبو ذر: كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل كلمه وأتني بخبره، فانطلق فلقيه، ثم رجع، فقلت ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشر، فقلت له: لم تشفني من الخبر، فأخذت جراباً وعصاً، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد، قال: فمر بي علي فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم، قال: فانطلق إلى المنزل، قال: فانطلقت معه، لا يسألني عن شيء ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحدٌ يخبرني عنه بشيء، قال: فمر بي علي، فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت: لا، قال: انطلق معي، قال: فقال ما أمرك، وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: قلت له: إن كنت علي أخبرتك، قال: فإني أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج ها هنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه، فقال له: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه فأتبعني، ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك، فمت إلى الحائط كائني أصلح نعلي وامض أنت، فمضيت ومضيت معه، حتى دخل ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض علي الإسلام، فعرضه فأسلمت مكاني، فقال لي: «يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل» فقلت: والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد وقرش فيه، فقال: يا معشر قرش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصائبي، فقاموا فضربت لأموت، فأدركني العباس فأكب علي، ثم أقبل عليهم، فقال: ويحكم، تقتلون رجلاً من غفار، ومتجركم وممركم على غفار، فأقلعوا عني، فلما أن أصبحت الغد رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصائبي فصنع بي مثل ما صنع بالأمس، وأدركني العباس فأكب علي، وقال مثل مقالته بالأمس، قال: فكان هذا أول إسلام أبي ذر رحمه الله ٤٧٥

وعن عبد الله بن الصامت، قال: قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غفار، وكأنا نوحل الشَّهر الحرام، فخرجت أنا وأخي أنيس وأمناء، فنزلنا على خال لنا، فأكرمنا خالنا وأحسن إلينا، فحسدنا قومهم فقالوا: إنك إذا خرجت عن أهلِكَ خالف إليهم أنيس، فجاء خالنا فننا علينا الذي قيل له، فقلت: أما ما مضى من معروفك فقد كدرته، ولا جماع لك فيما بعد، فقررتنا صرمتنا، فاحتملنا عليها، وتغطي خالنا ثوبه فجعل يبكي، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فنافر أنيس عن صرمتنا وعن مثلها، فأتينا

الكَاهِنَ، فَخَيَّرَ أُنَيْسًا، فَأَتَانَا أُنَيْسٌ بِصِرْمَتَيْنِ وَمِثْلَهَا مَعَهَا . قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ، يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِثَلَاثِ سِنِينَ، قُلْتُ: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، قُلْتُ: فَأَيْنَ تَوَجَّهَ؟ قَالَ: أَتَوَجَّهَ حَيْثُ يُوجِّهُنِي رَبِّي، أُصَلِّي عِشَاءً حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أَلْقَيْتُ كَأَنِّي خَفَاءُ، حَتَّى تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ. فَقَالَ أُنَيْسٌ: إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي، فَاذْهَبْ أَتَيْتُ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ، فَرَأَتْ عَلَيَّ، ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَقَيْتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ، يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ، وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعْرَاءِ. قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، فَمَا هُوَ يَقُولُهُمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشُّعْرِ، فَمَا يَلْتَمِمْ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي، أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. قَالَ: قُلْتُ: فَاكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ، قَالَ فَأَتَيْتُ مَكَّةَ فَضَعَعْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَقُلْتُ: أَيْنَ هَذَا الَّذِي تَدْعُوهُ الصَّابِيُّ؟ فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَقَالَ: الصَّابِيُّ، فَمَالَ عَلَيَّ أَهْلُ الْوَادِي بِكُلِّ مَدْرَةٍ وَعَظْمٍ، حَتَّى خَرَرْتُ مَعْشِيًا عَلَيَّ، قَالَ: فَارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ، كَأَنِّي نُصْبٌ أَحْمَرٌ، قَالَ: فَأَتَيْتُ زَمْزَمَ فَعَسَلْتُ عَنِّي الدَّمَاءَ: وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا، وَلَقَدْ لَبِثْتُ، يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ، مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ، فَسَمَنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنْكَ بَطْنِي، وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كِبْدِي سُخْفَةً جُوعَ. قَالَ فَبَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمَرَاءَ إِضْحِيَانٍ، إِذْ ضُرِبَ عَلَى أَسْمَحَتِهِمْ، فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ. وَامْرَأَتَانِ مِنْهُمْ تَدْعُوَانِ إِسَافًا، وَنَائِلَةً، قَالَ: فَأَتْنَا عَلَيَّ فِي طَوَافِهِمَا فَقُلْتُ: أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى، قَالَ: فَمَا تَنَاهَا عَنْ قَوْلِهِمَا قَالَ: فَأَتْنَا عَلَيَّ فَقُلْتُ: هَنُ مِثْلُ الْخَشَبَةِ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَكْنِي فَاذْهَبَا تَوَلَّوْا، وَتَقُولَانِ: لَوْ كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ أَنْفَارِنَا قَالَ فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَهُمَا هَابِطَانِ، قَالَ: «مَا لَكُمَا؟» قَالَتَا: الصَّابِيُّ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا، قَالَ: «مَا قَالَ لَكُمَا؟» قَالَتَا: إِنَّهُ قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَمْلَأُ الْفَمَ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى اسْتَلَمَ الْحَجَرَ، وَطَافَ بِالْبَيْتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ، ثُمَّ صَلَّى فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ - قَالَ أَبُو ذَرٍّ - فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلُ مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، قَالَ فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ» ثُمَّ قَالَ «مَنْ أَنْتَ؟» قَالَ قُلْتُ: مِنْ غِفَارٍ، قَالَ: فَأَهْوَى بِيَدِهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: كَرِهَ أَنْ انْتَمَيْتُ إِلَى غِفَارٍ، فَذَهَبْتُ أَخْذُ بِيَدِهِ، فَقَدَعَنِي صَاحِبُهُ، وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: «مَتَى كُنْتَ هَاهُنَا؟» قَالَ قُلْتُ: قَدْ كُنْتُ هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ، قَالَ: «فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟» قَالَ قُلْتُ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمَنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنْكَ بَطْنِي، وَمَا أَجِدُ عَلَى كِبْدِي سُخْفَةً جُوعَ، قَالَ: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ، فَاذْهَبْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَابًا، فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَيْبِ الطَّائِفِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا، ثُمَّ غَبَرْتُ مَا غَبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ وَجَّهَتْ لِي أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ، لَا أَرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ، فَهَلْ أَنْتَ مُبْلَغٌ عَنِّي قَوْمَكَ؟ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ» فَأَتَيْتُ أُنَيْسًا فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، قَالَ: مَا بِيَ رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ،

فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَآتَيْنَا أُمَّنًا، فَقَالَتْ: مَا بِي رَغْبَةً عَنْ دِينِكُمَا، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَاحْتَمَلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غَفَارًا، فَأَسْلَمَ نَصْفُهُمْ وَكَانَ يُؤْمُهُمْ أَيْمَاءُ بْنُ رَحْضَةَ الْغَفَارِيُّ وَكَانَ سَيِّدَهُمْ. وَقَالَ نَصْفُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا، فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَسْلَمَ نَصْفُهُمْ الْبَاقِي وَجَاءَتْ أَسْلَمُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِخْوَتُنَا، نُسَلِّمُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، فَأَسْلَمُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «غَفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ»^{٤٧٦}

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غَفَارًا، وَكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أُنَيْسٌ، وَأُمَّنًا، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا، فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا، قَالَ: فَحَسَدْنَا قَوْمَهُ . فَقَالُوا لَهُ: إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أُنَيْسٌ، قَالَ: فَجَاءَ خَالُنَا فَنَبَأَ عَلَيْنَا مَا قِيلَ لَهُ، فَقُلْتُ: أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَ وَلَا جَمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدُ، قَالَ: فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا، وَتَعَطَّى خَالُنَا بَثْوَبَةَ، وَجَعَلَ يَبْكِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ، فَتَنَافَرَ أُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا، فَآتَى الْكَاهِنَ فَخَبَّرَ أُنَيْسًا عَلَيْهِ، قَالَ: فَآتَانَا بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا، وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ سِنِينَ، فَقُلْتُ: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قُلْتُ: أَتَيْنَ تُوْجَّهْ؟ قَالَ: حَيْثُ وَجَّهْنِي

٤٧٦ - صحيح مسلم (٤/ ١٩١٩) - ١٣٢ - (٢٤٧٣)

[ش (فتا) أي أشاعه وأفشاه (صرمتنا) الصرمة هي القطعة من الإبل وتطلق أيضا على القطعة من الغنم (فنافر) قال أبو عبيد وغيره في شرح هذا المنافرة المفاخرة والحاكمة فيفخر كل واحد من الرجلين على الآخر ثم يتحاكما إلى رجل ليحكم أيهما خير وأعر نفرا وكانت هذه المفاخرة في الشعر أيهما أشعر (عن صرمتنا وعن مثلها) معناه تراهن هو وآخر أيهما أفضل وكان الرهن صرمة ذا صرمة ذاك فأيهما كان أفضل أخذ الصرمتين فتحاكما إلى الكاهن فحكم بأن أنيسا أفضل وهو معنى قوله فخير أنيسا أي جعله الخيار والأفضل (خفاء) هو الكساء وجمعه أخفية ككساء وأكسية (فراث علي) أي أبطأ (أقرأ الشعر) أي طرقه وأنواعه (فتضعفت) يعني نظرت إلى أضعفهم فسألته لأن الضعيف مأمون الغائلة دائما (الصباي) منصوب على الإغراء أي انظروا وخذوا هذا الصباي (نصب أحم) يعني من كثرة الدماء التي سالت مني بضرهم والنصب والنصب الصنم والحجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عنده فيحمر بالدم وجمعه أنصاب ومنه قوله تعالى وما ذبح على النصب (عكن بطني) جمع عكنة وهو الطي في البطن من السمن معنى تكسرت أي انتنت وانطوت طاقات لحم بطنه (سخرقة الجوع) بفتح السين وضمها هي رقة الجوع وضعفه وهزاله (قمرأ) أي مقمرة (إضحيان) أي مضيفة منورة يقال ليلة إضحيان وإضحيانة وضحيان ويوم أضحيان (أسمختهم) هكذا هو في جميع النسخ وهو جمع سماخ وهو الخرق الذي في الأذن يفضي إلى الرأس يقال صماخ وسماخ والصاد أفصح وأشهر والمراد بأسمختهم هنا آذاهم أي ناموا قال الله تعالى فضرنا على آذاهم أي أمتناهم (وامراتين) هكذا هو في معظم النسخ بالياء وفي بعضها وامراتان بالألف والأول منصوب بفعل محذوف أي ورأت امرأتين (فما تناهتا) أي ما انتهتا (هن مثل الخشبة) هن مثل الخشبة (الهن والهنة بتخفيف نوهما هو كناية عن كل شيء وأكثر ما يستعمل كناية عن الفرج والذكر فقال لهما أو مثل الخشبة في الفرج وأراد بذلك سب إساف ونائلة وغيظ الكفار بذلك (تولولان) الولولة الدعاء بالويل (أنفارنا) الأنفار جمع نفر أو نفرير وهو الذي ينفر عند الاستغاثة (تملأ الفم) أي عظيمة لا شيء أقبح منها كالشيء الذي يملأ الشيء ولا يسع غيره وقيل معناه لا يمكن ذكرها وحكايتها كأنها تسد فم حاكيتها وتملؤه لاستعظامها (فقد عني) أي كفي يقال قدعته وأقدعه إذا كفه ومنعه (طعام طعم) أي تشبع شاربها كما يشبعه الطعام (غيرت ما غيرت) أي بقيت ما بقيت (وجهت لي أرض) أي أريت جهتها (أراها) ضبطوه أراها بضم الهزة وفتحها (يثر) هذا كان قبل تسمية المدينة طابة وطيبة وقد جاء بعد ذلك حديث في النهي عن تسميتها يثر (ما بي رغبة عن دينكما) أي لا أكرهه بل أدخل فيه (فاحتملنا) يعني حملنا أنفسنا ومتاعنا على إبلنا وسرنا (إيماء) الهمة في أوله مكسورة على المشهور وحكى القاضي فتحها أيضا وأشار إلى ترجيحه وليس براجح]

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَصْلَى عِشَاءً حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ السَّحَرِ أُلْقِيَتْ كَأَنِّي خِقَاءٌ يَعْنِي خِبَاءً حَتَّى تَعْلُونِي الشَّمْسُ، قَالَ: فَقَالَ أَنَيْسُ إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ، فَاكْفِنِي حَتَّى آتِيكَ، فَانْطَلِقْ أَنَيْسُ، فَرَأَتْ عَلَيَّ يَعْنِي: أَبْطَأً، ثُمَّ جَاءَ، فَقُلْتُ: مَا حَبْسُكَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَهُ، قَالَ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ لَهُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ، وَكَانَ أَنَيْسُ أَحَدَ الشُّعْرَاءِ، قَالَ أَنَيْسُ: وَاللَّهِ، لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْوَالِ الشُّعْرَاءِ، فَلَا يَلْتَمِمْ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ يَفْرِي أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، فَقُلْتُ: اكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَاظْطُرُّ، قَالَ: نَعَمْ وَكُنْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى حَذَرٍ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ شَتَّعُوا - شَكَّ أَبُو النَّضْرِ - بِهِ وَتَجَهَّمُوا لَهُ، قَالَ: فَاظْطَلَقْتُ فَقَدِمْتُ مَكَّةَ، فَاسْتَضَعَفْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَقُلْتُ: أَيْنَ هَذَا الَّذِي تَدْعُوهُ الصَّابِي؟ فَأَشَارَ إِلَيَّ فَقَالَ: الصَّابِي، قَالَ: فَمَالَ عَلَيَّ أَهْلُ الْوَادِي بِكُلِّ مَدْرَةٍ وَعَظُمَ فَخَرَرْتُ مَعْشِيًا عَلَيَّ، فَارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ كَأَنِّي نُصَبُّ أَحْمَرٌ، فَاتَيْتُ زَمْزَمَ، فَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا، وَغَسَلْتُ عَنِّي الدَّمَاءَ، فَلَبِثْتُ بِهَا، يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، مَا لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنْكَ بَطْنِي، وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةً جُوعٍ، قَالَ: فَبَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمَرَاءَ إِضْحِيَانٍ، إِذْ ضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أَسْمَحَتِهِمْ، فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرُ امْرَأَتَيْنِ، فَاتَّأْنَا عَلَيَّ وَهُمَا تَدْعُوَانِ إِسَافًا وَنَائِلَةً، قَالَ: قُلْتُ: أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الْآخَرَ، قَالَ: فَمَا تَنَاهَيْتَا عَلَى قَوْلِهِمَا، قَالَ: فَاتَّأْنَا عَلَيَّ فَقُلْتُ: هُنَّ مِثْلُ الْخَشْبَةِ غَيْرِ أَنِّي لَمْ أَكُنَّ، فَاظْطَلَقْنَا ثَوَلُولَانَ، وَتَقُولَانِ: لَوْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ أَنْصَارِنَا، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٌ، وَهُمَا هَابِطَانِ مِنَ الْجَبَلِ، فَقَالَ: مَا لَكُمَا؟ قَالَتَا: الصَّابِيُ بَيْنَ الْكُعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا، قَالَ: "فَمَا قَالَ لَكُمَا؟" قَالَتَا: قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَمْلَأُ الْفَمَ، قَالَ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبُهُ، فَاسْتَلَمَ الْحَجَرَ، ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ وَصَلَّى، فَاتَيْتُهُ حِينَ قَضَى صَلَاتَهُ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ حَيَّاهُ تَحِيَّةَ الْإِسْلَامِ، قَالَ: "وَعَلَيْكَ رَحْمَةُ اللَّهِ، مِمَّنْ أَنْتَ؟" قُلْتُ: مِنْ غِفَارٍ، فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى جَبْهَتِهِ هَكَذَا، قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: كَرِهَ أَنْ ائْتَمَيْتُ إِلَى غِفَارٍ، فَذَهَبْتُ أَخْذُ بِيَدِهِ، فَدَفَعَنِي عَنْهُ صَاحِبُهُ وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي، فَقَالَ: "مَتَى كُنْتَ هَاهُنَا؟" قُلْتُ: كُنْتُ هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَالَ: "فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟" قُلْتُ: مَا كَانَ لِي مِنْ طَعَامٍ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنْكَ بَطْنِي وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةً جُوعٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ" فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ، قَالَ: فَفَعَلَ فَاظْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٌ، فَاظْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَابًا فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَيْبِ الطَّائِفِ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ فَذَاكَ أَوَّلُ الطَّعَامِ أَكَلْتُهُ بِهَا، قَالَ: فَغَبَّرْتُ مَا غَبَّرْتُ، فَلَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: "إِنِّي وَجَّهْتُ إِلَى أَرْضِ ذَاتِ النَّحْلِ وَلَا أَحْسِبُهَا إِلَّا يَثْرِبَ"، فَهَلْ أَنْتَ مُبْلَغٌ عَنِّي قَوْمَكَ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ، وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ؟ قَالَ: فَاظْطَلَقْتُ حَتَّى لَقِيتُ أَخِي أَنَيْسًا، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَقَالَ أَنَيْسُ مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ، وَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَصَدَّقْتُ، قَالَ: فَاتَيْنَا أُمَّنَا، فَقَالَتْ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا، وَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، قَالَ: فَاحْتَمَلْنَا فَاتَيْنَا

قَوْمَنَا، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَقْدُمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَكَانَ يُؤْمُهُمْ إِيْمَاءُ بِنِ رَخْصَةِ، وَكَانَ سَيِّدَهُمْ، وَقَالَ بَقِيَّتُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحُدَيْبِيَّةَ أَسْلَمْنَا، فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ بَقِيَّتُهُمْ كُلُّهُمْ، وَجَاءَتْ أَسْلَمَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُسَلِّمُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمَ عَلَيْهِ إِخْوَانُنَا، فَأَسْلَمُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "غَفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا وَأَسْلَمَ سَأَلَهَا اللَّهُ" ^{٤٧٧}

[شَرْحُ الْقَرِيبِ]

نثا : الحديث ينثوه نشوا : إذا أظهره.

لا جماع : أي : لا بجامعة لنا معك ولا مقام.

صرمتنا : الصرمة : القطعة من الإبل نحو الثلاثين.

فنافر : المنافرة : المحاكمة تكون في تفضيل أحد الشيئين على الآخر ، يقال : نافرته ، فنفرتة ، أي : حاكمته ، فغلبته ، ونفره الحاكم في المنافرة ، أي : غلبه وحكم له.

خفاء : الخفاء بالخاء المعجمة وكسرهما : كساء يطرح على السقاء - وبالجميم المضمومة - ما رمي به السيل مما يطفو على رأسه من زبد وغيره ، والذي في الحديث هو الأول.

فراث : راث فلان علينا : أبطأ.

أقراء الشعر : طرائقه وأنواعه ، واحدها : قرء - بفتح القاف.

مدرة : المدرة : الطينة المستحجرة.

نصب : النصب : الحجر أو الصنم الذي كانوا ينصبونه في الجاهلية ويذبحون عليه ، فيحمر من كثرة دم القربان والذبائح ، أراد : أنهم ضربوه حتى أدموه ، فصار كأنه نصب أحمر.

سخفة جوع : سخفة الجوع : رفته وهزاه.

ليلة إضحيان : وإضحيان ، أي : مضية لا غيم فيها ، فقمريها ظاهر يظيئها.

ضرب على أصمختهم : الأصمخة : جمع صماخ ، وهو ثقب الأذن ، والضرب هاهنا : المنع من الاستماع ، وذلك كناية عن النوم المفرط.

إسافا ونائلة : إساف تزعم العرب أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا في الكعبة فمسخا.

هن : الهن : عني به الذكر.

لا أكني : قوله : «غير أي لا أكني» يعني : أنه أفصح باسمه ، ولم [ص: ٥٨] يكن عنه ، فيكون قد قال : أير مثل الخشبة ، فلما أراد أن يحكي قوله كنى فقال : «هن مثل الخشبة ، غير أي لا أكني».

تولولان : الولولة : الاستغاثة والصياح.

^{٤٧٧} - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٥٦٦) (١٥٧٠) صحيح

أنفارنا : الأنفار : الجماعة ، أي : من أصحابنا وجماعتنا ، وهو من النفر الذي هو من الثلاثة إلى العشرة. تملأ الفم : قولها : تملأ الفم ، أي : أنها عظيمة.
 قدعته : لا يجوز أن يقال : قدعته ، أي : منعته وكففته.
 طعام طعم : يقال : هذا طعام طعم ، أي : طعام شبع ، يعني ، أنه يشبع ويكف الجوع ويكفي منه.
 غبرت : الغابر هاهنا : الباقي ، وهو من الأضداد.
 شنفوا له : أي : أبغضوه ونفروا منه ، والشنف : البغض ، تقول : شنفته ، وشنفت له.
 تجهموا : تجهمت لفلان ، أي : تنكرت له واستقبلته بما يكره ، وفلان جهم الحيا ، أي : كرهه المنظر.

الشنّة : الزرق البالي الذي يحمل فيه الماء.^{٤٧٨}
 قوله : "ودخل منه" قال الداودي : فيه الدُخُولُ بِدُخُولِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَكَأَنَّ هَذَا قَبْلَ آيَةِ الاسْتِئْذَانِ ، وَتَعَقُّبُهُ ابْنُ التَّيْنِ فَقَالَ : لَا تُؤْخَذُ الْأَحْكَامُ مِنْ مِثْلِ هَذَا.
 قلت : وفي كلام كل منهما من النظر ما لا يخفى.
 قوله : "فسمع من قوله وأسلم مكانه" كَأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ عِلَامَاتِ النَّبِيِّ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَهَا لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي الْإِسْلَامِ ، هَكَذَا فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ ، وَمُقْتَضَاهَا أَنَّ التَّقَاءَ أَبِي ذَرٍّ بِالنَّبِيِّ ﷺ كَانَ بِدَلَالَةِ عَلِيٍّ.
 وفي رواية عبد الله بن الصّامت " أَنَّ أَبَا ذَرٍّ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ فِي الطَّوَافِ بِاللَّيْلِ ، قَالَ : فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، قَالَ : فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ حَيَّاهُ بِالسَّلَامِ ، قَالَ : مِنْ أَيْنَ أَنْتَ ؟ قُلْتُ مِنْ بَنِي غِفَارٍ ، قَالَ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ ، فَقُلْتُ كَرِهَ أَنْ انْتَمَيْتَ إِلَى غِفَارٍ " فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي شَأْنِ زَمْزَمَ ، وَأَنَّهُ اسْتَعْنَى بِهَا عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ثَلَاثِينَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.

وفيه " فقال أبو بكر : ائذن لي يا رسول الله في طعامه الليلة ، وأنته أطعمه من زيب الطائف " الحديث وأكثره مُغَايِرٍ لِمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا عَنْ أَبِي ذَرٍّ ، وَيُمْكِنُ التَّوْفِيقُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّهُ لَقِيَهُ أَوَّلًا مَعَ عَلِيٍّ ثُمَّ لَقِيَهُ فِي الطَّوَافِ أَوْ بِالْعَكْسِ ، وَحَفِظَ كُلُّ مِنْهُمَا عَنْهُ مَا لَمْ يَحْفَظِ الْآخَرُ ، كَمَا فِي رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ مِنَ الزِّيَادَةِ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا مِنَ الزِّيَادَةِ قِصَّتَهُ مَعَ عَلِيٍّ وَقِصَّتَهُ مَعَ الْعَبَّاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقال القرطبي : فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الرَّوَايَتَيْنِ تَكْلُفٌ شَدِيدٌ ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ أَقَامَ ثَلَاثِينَ لَا زَادَ لَهُ ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ زَادٌ وَقَرِيبَةٌ مَاءٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

^{٤٧٨} - جامع الأصول في أحاديث الرسول ط مكتبة الحلواني الأولى (٩/ ٥٦) وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح

قلت : وَيَحْتَمِلُ الْجَمْعُ بَأَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّادِ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا تَزَوَّدَهُ لَمَّا خَرَجَ مِنْ قَوْمِهِ فَفَرَّغَ لَمَّا أَقَامَ بِمَكَّةَ ، وَالْقُرْبَةَ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُ كَانَتْ فِيهَا الْمَاءُ حَالِ السَّفَرِ فَلَمَّا أَقَامَ بِمَكَّةَ لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى مَلِئِهَا وَلَمْ يَطْرَحْهَا ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ أَبِي قُتَيْبَةَ الْمَذْكُورَةِ " فَجَعَلَتْ لَا أَعْرِفُهُ ، وَأَكْرَهَ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ ، وَأَشْرَبَ مِنْ مَاءِ زَمَرَمَ ، وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ " الْحَدِيثِ .

قوله : " ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتبك أمري " ؛ فِي رِوَايَةِ أَبِي قُتَيْبَةَ " أَكُتِمَ هَذَا الْأَمْرُ ، وَارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ " .

وَفِي رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ " إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضُ ذَاتِ نَحْلٍ ، فَهَلْ أَنْتَ مُبْلَغٌ عَنِّي قَوْمِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ " فَذَكَرَ قِصَّةَ إِسْلَامِ أَخِيهِ أُنَيْسٍ وَأُمَّهُ وَأَنَّهُمْ تَوَجَّهُوا إِلَى قَوْمِهِمْ غِفَارَ فَأَسْلَمَ نِصْفَهُمْ ، الْحَدِيثِ .

قوله : " لِأَصْرُخَنَّ بِهَا " ؛ أَيِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَرْفَعُ صَوْتَهُ جَهَارًا بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَأَنَّهُ فَعِمَهُمْ أَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ بِالْكِتْمَانِ لَيْسَ عَلَى الْإِجَابِ بَلْ عَلَى سَبِيلِ الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ بِهِ قُوَّةَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا أَقْرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ ، يُؤْخَذُ مِنْهُ جَوَازُ قَوْلِ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ يُخْشَى مِنْهُ الْأَذْيَةَ لِمَنْ قَالَهُ وَإِنْ كَانَ السُّكُوتُ جَائِزًا ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ ذَلِكَ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْمَقَاصِدِ ، وَبِحَسَبِ ذَلِكَ مُتَرَتِّبٌ وَجُودُ الْأَجْرِ وَعَدَمُهُ .

قوله : " ثُمَّ قَامَ الْقَوْمُ " ؛ فِي رِوَايَةِ أَبِي قُتَيْبَةَ " فَقَالُوا قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّبَابِيِّ " بِالْيَاءِ اللَّيْنَةِ " فَقَامُوا " وَكَانُوا يُسَمُّونَ مَنْ أَسْلَمَ صَابِيًا لِأَنَّهُ مِنْ صَبَا يَصْبُو إِذَا انْتَقَلَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ .

قوله : " فَضَرَبُوهُ حَتَّى أَوْجَعُوهُ " ؛ فِي رِوَايَةِ أَبِي قُتَيْبَةَ " فَضَرَبْتُ لَأَمُوتَ " أَيِ ضَرَبْتُ ضَرْبًا لَا يُبَالِي مَنْ ضَرَبَنِي أَنْ لَوْ أَمُوتَ مِنْهُ .

قوله : " فَأَقْلَعُوا عَنِّي " أَيِ كَفُّوا .

قوله : " فَأَكَبَّ الْعَبَّاسُ عَلَيْهِ " ؛ فِي رِوَايَةِ أَبِي قُتَيْبَةَ " فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالْأَمْسِ .^{٧٩}

معنى الحديث:

يروى لنا ابن عباس رضي الله عنهما هذا الحديث عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وهو يتحدث عن قصة إسلامه، فيذكر لنا أنه لما ظهر النبي - ﷺ - انتشرت أخباره في قبائل العرب، حتى وصلت إلى قبيلة غفار التي ينتسب إليها أبو ذر، فلما سمع بخروجه - ﷺ - أرسل أخاه إلى مكة، ليأتيه بخبره، فلما رجع قال له: ما عندك؟ أي ما الذي عرفته من أخبار محمد وحقائق دينه، فأقسم بالله أنه رأى رجلاً يأمر بكل خير وينهى عن كل شر، وفي رواية: " رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق، وكلام ما هو بالشعر " قال: " فقلت له: لم تشفني " أي لم تأتني بالجواب الكافي الشافي. قال: " ثم أقبلت إلى مكة،

^{٧٩} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١٧٥ / ٧)

فجعلت لا أعرفه " أي فجعلت نفسي كأني لم آت مكة للتعرف على النبي - ﷺ - " وأكره أن أسأل عنه " أي ولا أريد أن أسأل عنه أحداً خشية أن تعلم قريش " وأشرب من ماء زمزم " أي أكتفي في طعامي وشرابي بماء زمزم، لأني لا أجد غيره كما في رواية مسلم عن عبد الله بن الصامت، أنه قال: " ما كان في طعام إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عكن بطني " قال: فمر بي علي بن أبي طالب صدفة " فقال: كأن الرجل غريب " أي أظنك غريباً " قلت: نعم، فذهب بي إلى المنزل لا يسألني عن شيء " على عادة العرب لا يسألون الضيف عن أمره حتى يخبرهم بنفسه " فلما أصبحت، غدوت إلى المسجد، فمر بي علي " مرة أخرى " فقال: أما نال للرجل يعرف منزله " أي أما أن لك أن تعرف مسكنك الذي تريد التزول فيه، يريد إرشاده إلى ما قدم إليه وقصده " قال: قلت: لا " أي لم أصل إلى شيء حتى الآن " فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة " أي فسأله عن أمره وقصته، فأخبره أبو ذر رضي الله عنه بقصته بعد أن وثق به، وهو معنى قوله: " قلت له: بلغنا أنه خرج ها هنا رجل يزعم أنه نبي " إلخ أي يدعى النبوة فأردت أن أتعرف على حقيقته " قال: أما إنك قد رشدت " بفتح الراء والشين أي اهتديت ووصلت إلى مقصودك " هذا وجهي إليه فاتبعني، ادخل حيث أدخل " أي إني متوجه إليه، فاتبعني وسر معي حيث سرت قال: " ودخلت معه على النبي - ﷺ - فقلت له: اعرض علي الإسلام " أي بين لي أركانه وشرائعه " فعرضه فأسلمت مكاني " أي فأسلمت حالاً " فقال لي: يا أبا ذر أكتم هذا الأمر " يعني فأمره النبي - ﷺ - بإخفاء إسلامه خوفاً عليه من إيذاء قريش له، وحرصاً على سلامته منهم " فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم " أي لأرفعن صوتي بالشهادتين عالياً في وسطهم " فجاء إلى المسجد وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأعلن إسلامه أمامهم " فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ " أي الخارج عن دينه، المفارق لملة آبائه وأجداده " فضربت لأموت " أي فضربوني ضرباً شديداً قاصدين بذلك قتلي والقضاء علي " فأدركني العباس " يعني فأنتقذني منهم العباس رضي الله عنه " فأكب علي " أي ألقى بنفسه علي ليحول بينهم وبينني، وحذرهم من قبيلتي، فقال: " ويلكم تقتلون رجلاً من غفار، ومتحركم وممركم على غفار " أي كيف تقتلون هذا الرجل وهو من غفار فتعرضون قوافلكم التجارية للخطر، حيث أن تجارتكم إنما تمر عليها " فأقلعوا عني " أي تركوه " فلما أصبحت الغد رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس " إلخ. أي فعاودت مقالتي هذه في صبيحة اليوم الثاني، وعاودت قريش ضربها لي، وأدركني العباس فأنتقذني منهم، كما فعل في اليوم الأول " قال: فكان هذا أول إسلام أبي ذر " أي كانت هذه قصة دخوله في الإسلام.

فقه الحديث: دل هذا الحديث على ما يأتي: أولاً: قصة إسلام أبي ذر وهو الصحابي الجليل جندب بن جنادة بن السكن بن قيس، وقيل: جندب ابن جنادة بن سفيان بن عبيد، ينتهي نسبه إلى غفار، كان من السابقين إلى الإسلام وكان طويلاً أسمر اللون نحيفاً أحبه رسول الله - ﷺ - كثيراً، وكان يبدؤه

بالحديث إذا حضر، ويتفقده إذا غاب، وهو من أزهّد الصحابة رضي الله عنهم قال فيه رسول الله - ﷺ -: " أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها، وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد نشب فيها بشيء غيره " أخرجه أحمد في مسنده. ثانياً: فضل ماء زمزم وما أودع الله فيها من الخصاص حيث جعلها الله رواءً وغذاءً وشفاءً، حتى أن أبا ذر رضي الله عنه عاش عليها خمسة عشر يوماً كما في رواية مسلم حيث قال: فاحتبأت بين الكعبة وبين أستانها خمس عشرة يوم وليلة مالي طعام ولا شراب إلا ماء زمزم. والمطابقة: في كون أبي ذر رضي الله عنه تحدث في هذا الحديث عن قصة إسلامه، وهو ما ترجم له البخاري والله أعلم.^{٤٨٠}

الدروس والعبر :

وفي الحديث ما يدلّ على حسن تأتّي العباس وجودة فطنته حيث توصّل إلى تخليصه منهم بتخويفهم من قومه أن يقاصوهم بأن يقطعوا طرق متجرهم ، وكان عيشهم من التجارة ، فلذلك بادروا إلى الكف عنه.

وفي الحديث دلالة على تقدّم إسلام أبي ذرّ ، لكن الظاهر أن ذلك كان بعد المبعث بمدة طويلة لما فيه من الحكاية عن عليّ كما قدّمناه ، ومن قوله أيضاً في رواية عبد الله بن الصّامت " إنني وجهت إليّ أرض ذات نخل " ، فإن ذلك يشعر بأن وقوع ذلك كان قرب الهجرة والله أعلم.^{٤٨١}

وقال العيني : " وفي الحديث: دلالة على تقدم إسلام أبي ذرّ ، ولكن الظاهر أنه بعد البعث بمدة طويلة لما فيه من الحكاية عن عليّ ، رضي الله تعالى عنه ، من مخاطبته لأبي ذرّ وتضيفه إياه ، والأصح أن سنه حين البعث كان عشر سنين ، وقيل: أقل من ذلك ، فظهر من ذلك أن إسلام أبي ذرّ بعد البعث بمدة بأكثر من سنتين بحيث يتهيأ لعليّ ما فعله "^{٤٨٢}

قوله : فكنت أول من حيّاه بتحية الإسلام فقال عليك ورحمة الله هكذا هو في جميع النسخ وعليك من غير ذكر السلام وفيه دلالة لأحد الوجهين لأصحابنا أنه إذا قال في ردّ السلام وعليك يجرئه لأن العطف يقتضي كونه جواباً والمشهور من أحواله ﷺ وأحوال السلف ردّ السلام بكماله فيقول وعليكم السلام ورحمة الله أو ورحمته وبركاته "^{٤٨٣}

وقوله في هذا الحديث : ((إنها مباركة)) ؛ أي : إنها تظهر بركتها على من صحّ صدقه ، وحسنت فيها نيته ، كما قد روى العقيلي أبو جعفر من حديث أبي الزبير عن جابر : أن النبي - ﷺ - قال : ((ماء زمزم لما شرب له)) . فينبغي أن يتبرك بها ، ويحسن النية في شربها ، ويحمل من مائها ، فقد

^{٤٨٠} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢٣٠ / ٤)

^{٤٨١} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١٧٦ / ٧)

^{٤٨٢} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨٧ / ١٦)

^{٤٨٣} - شرح النووي على مسلم (٣٠ / ١٦)

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : أنها كانت تحمل من ماء زمزم ، وتخبر أن رسول الله ﷺ — كان يحمله . قال : حديث حسن غريب .^{٤٨٤}

وقوله : ((غفار ، غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله)) ؛ إنما دعا النبي ﷺ — محبر لهاتين القبيلتين ؛ لأنَّهُما أسلمتا طوعاً من غير قتال ، ولا إكراه ، ويحتمل أن يكون ذلك خبراً عما فعل الله بهاتين القبيلتين من المغفرة ، والمسالمة لهما . وكيف ما كان فقد حصل لهما : فخر السابق ، وأجر اللاحق ، وفيه مراعاة التجنيس في الألفاظ .^{٤٨٥}

وفي قوله : (غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله) ، الدعاء للمؤمنين بالمغفرة، تَفَاءَلَ لهما (ﷺ) ، من أسمائهما فألاً حسناً، وكان يعجبه الفأل الحسن، وقال الخطابي: وقوله: (غفار غفر الله لها) ، فرى، والله أعلم، إنما خصهم بالدعاء والمغفرة لمبادرتهم إلى الإسلام وبحسن بلائهم فيه، ودعا لأسلم؛ لأن إسلامهم كان سلماً من غير حرب، ويقال: كان مع رسول الله (ﷺ) يوم حنين من أسلم أربعمائة ومن غفار مثلها.^{٤٨٦}

وقوله: " غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله " فيه لُغَمَاءُ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ دُعَاءٌ لَهَا واستغفار، وَإِنَّمَا اسْتَعْفَرَ لَهَا تَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ، لِأَنَّهُمَا أُسْلِمَتَا طَوْعاً مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ، وَكَانَ غِفَارٌ تَزَنُ بِسِرْقَةِ الْحَاجِّ، فَأَحَبُّ أَنْ يَمْحُو عَنْهُنَّ تِلْكَ السَّبَّةَ السَّبَبَةَ، وَأَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ مَا سَبَقَ مِنْ ذَلِكَ مَغْفُورٌ بِإِسْلَامِهِمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنِ الْقَبِيلَتَيْنِ، فَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَنَعَ مِنْ أَذَاهُمَا وَحَرْبِهِمَا. والمسالمة: الصُّلْحُ عَلَى تَرْكِ الْقِتَالِ وَالْأَذَى، وَلَمَّا سَالَمَتْ أُسْلِمَ، فَجَاءَتْ طَوْعاً، فَدَخَلَتْ فِيْمَا دَخَلَتْ فِيهِ غِفَارٌ قَالَ: " أُسْلِمَ سَالَمَهَا اللَّهُ " .

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ اخْتِيَارِ الْكَلَامِ الْمُنَاسِبِ الْمُتَجَانِسِ، لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ: غِفَارٌ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا، فَلَمَّا قَالَ: " غفر الله لها " . وَقَالَ: " أُسْلِمَ سَالَمَهَا اللَّهُ " دَلٌّ عَلَى اخْتِيَارِ ذَلِكَ. وَإِنَّمَا يُخْتَارُ مِثْلُ هَذَا لِأَنَّهُ أَحْلَى فِي السَّمْعِ.^{٤٨٧}

قلت : وقد ظهر بين حديث عبدالله بن الصامت ، وبين حديث عبدالله بن عباس تباعد واختلاف في موضع من حديث أبي ذر هذا بحيث يبعد الجمع بينهما فيه . وذلك : أن في حديث ابن الصامت : أن أبا ذر لقي النبي ﷺ — أول ما لقيه ليلاً ، وهو يطوف بالكعبة ، فأسلم إذ ذاك بعد أن أقام ثلاثين بين يوم وليلة ، ولا زاد له ؛ وإنَّما اغتذى بماء زمزم . وفي حديث ابن عباس : إنه كان له قرينة

^{٤٨٤} - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٠/ ١٢٧)

^{٤٨٥} - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٠/ ١٢٨)

^{٤٨٦} - شرح صحيح البخارى لابن بطال (٣/ ٧)

^{٤٨٧} - كشف المشكل من حديث الصحيحين (١/ ٣٥٥)

وزاد ، وأن عليًّا — رضى الله عنه — أضافه ثلاث ليال ، ثم أدخله على النبي — ﷺ — في بيته فأسلم ، ثم خرج فصرخ بكلمتي الإسلام. وكل واحد من السندين صحيح ، فالله أعلم أي المتين الواقع ، ويحتمل أن يقال : إن أبا ذر لما لقي النبي — ﷺ — حول الكعبة وأسلم ، لم يعلم به إذ ذاك علي ؛ إذ لم يكن معهم ، ثم إن أبا ذر بقي مستترًا بحاله ، إلى أن استتبعه علي ، ثم أدخله على النبي — ﷺ — فجدد إسلامه ، فظن الراوي : أن ذلك أول إسلامه ، وفي هذا الإحتمال بُعد ، والله أعلم بحقيقة ذلك . ولم أر من الشارحين لهذا الحديث من تنبّه لهذا التعارض ، ولا لهذا التأويل .^{٤٨٨}



^{٤٨٨} — المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٠ / ١٣٠)

قصة موت أبي طالب على الكفر

عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أَتِهِ عَنْهُ» فَتَزَلَّتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]. وَتَزَلَّتْ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦] ^{٤٨٩}

وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ"، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتِهِ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦] ^{٤٩٠}

الغريب :

[ش (لما حضرت أبا طالب الوفاة) المراد قربت وفاته وحضرت دلائلها وذلك قبل المعاينة والترع ولو كان في حال المعاينة والترع لما نفعه الإيمان]

[ش (تبين لهم) ظهر لهم وثبت بموتهم على الكفر. (أصحاب الجحيم) المستحقون لدخول النار والخلود فيها. / التوبة ١١٣ / . (لا تهدي من أحببت) ليس في قدرتك أن تدخل في الإسلام كل من رغبت في هدايته. / القصص ٥٦ /]

الدروس والعبر :

((من يهده الله فلا مضل له)) الهادي والمضل هو الله -جل وعلا-، فإذا أراد الله هداية شخص لو اجتمعت الخلائق على إضلاله فلن يستطيعوا، ومن أراد الله ضلاله فلو اجتمعت الأمم على هدايته لم يستطيعوا، والعبرة بأبي طالب الذي نفع النبي ﷺ -بماله وجاهه، وانتفعت به الدعوة، ومع ذلك

^{٤٨٩} - صحيح البخاري (٥٢ / ٥) (٣٨٨٤)

^{٤٩٠} - صحيح مسلم (١ / ٥٤) ٣٩ - (٢٤)

حرص عليه النبي ﷺ - أن يقول: لا إله إلا الله عند احتضاره عند وفاته ((قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله)) وعنده قرناء السوء "أترغب عن ملة عبد المطلب؟" فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، فأنزل الله - جل وعلا-: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [سورة القصص] هذه عبرة، نعم على الإنسان أن يحرص على هداية والديه وعلى هداية أولاده وزوجه وأقاربه ومعارفه الأقرب فالأقرب، ثم يشمل خيره ودعوته إلى الأقارب والجيران والجماعة، ثم يمتد نفعه إلى الأمة، لكن لا يضمن، عليك بذل السبب، وأما النتيجة والاستجابة بيد الله - جل وعلا-، وإذا نظرنا في سير الأنبياء وجدنا بعضهم لم يستجب له أحد ألبتة، يأتي النبي وليس معه أحد، يأتي النبي ومعه الرجل والرجلان، يأتي النبي ومعه الرهط، وبعض الأنبياء أقرب الناس إليه كنوح زوجته وولده ما استطاع هدايتهم هداية التوفيق والقبول، وإن كان قد بذل السبب إلى آخر لحظة في هدايتهم هداية الدلالة والإرشاد، وبهذا يُعلم أن الإنسان لا يهدي مهما بذل ومهما كان عنده من علم وطريقة وأسلوب، فلا يقول: إنه يهدي.

وتجد بعض العامة الذين ليس لديهم شيء من العلم تجد العالم العامل الحريص المتحري المحترق على نفع الناس لاسيما الأقارب تجده يحرص وي بذل الغالي والرخيص لنفع أولاده فلا يستطيع، وشخص من عامة الناس يقول: والله ما علمت أن أولاده يحفظون القرآن حتى دعي إلى الحفل، وكان من بين الحفظة كاملاً اثنان من أولاده هل هذا بذل شيء؟ الهداية بيد الله - جل وعلا-، لكن مع ذلك لا نقول: الهداية بيد الله ولا نبذل السبب، نحن مطالبون ببذل السبب.^{٤٩١}

وعيادة الذمي أو الكافر إذا كانت فيها مصلحة وفائدة كأن يدعى إلى الإسلام ويرغب فيه، فإن ذلك أمرٌ مطلوب، وأما إذا لم يترتب عليها مصلحة، ولا يكون من ورائها فائدة؛ فلا يعاد.

فالحاصل أن زيارة الكافر إذا كانت من أجل دعوته إلى الإسلام، ورُجي في ذلك المصلحة فلا بأس بها، وأما إذا كانت لغير ذلك، أو لم يظن من ورائها مصلحة فلا يُزار. وقوله: (الحمد لله الذي أنقذه بي من النار) يعني: أن الله تعالى أنقذه من دخول النار والخلود بسبب إسلامه. وهذا الحديث يدل على أن الإسلام يعرض على الصغير، فقد يسلم ويحسن إسلامه ولو كان صغيراً، وأن ذلك ليس مقصوراً على الكبار.^{٤٩٢}

وروى أحمد من طريق أبي حازم عن أبي هريرة في قصة أبي طالب، قال: فأنزل الله: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} (القصص: ٥٦). وهذا كله ظاهر على أنه مات على غير الإسلام. فإن قلت: ذكر

^{٤٩١} - شرح المهر في الحديث - عبد الكريم الخضير (١٩ / ٤٦)، بترقيم الشاملة (آليا) وشرح رياض الصالحين (٤ / ٥١٠)

^{٤٩٢} - شرح سنن أبي داود - عبد المحسن العباد (١٦ / ٣٧٤)

السُّهَيْلِيُّ أَنَّهُ رَأَى فِي بَعْضِ كُتُبِ الْمَسْعُودِيِّ أَنَّهُ أَسْلَمَ. قُلْتُ: مِثْلَ هَذَا لَا يُعَارِضُ مَا فِي الصَّحِيحِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.^{٤٩٣}

وَقَالَ صَاحِبُ (التَّلْوِيحِ) : وَتَبِعَهُ صَاحِبُ (التَّوْضِيحِ) : هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ مَرَاسِيلِ الصَّحَابَةِ لِأَنَّ الْمَسِيبَ مِنْ مَسَلْمَةِ الْفَتْحِ عَلَى قَوْلِ مُصْعَبٍ، وَعَلَى قَوْلِ الْعَسْكَرِيِّ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَأَيَّامًا كَانَ فَلَمْ يَشْهَدْ وَفَاةَ أَبِي طَالِبٍ لِأَنَّهُ تَوَفَّى هُوَ وَخَدِيجَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. فِي أَيَّامٍ مُتَقَارِبَةٍ فِي عَامٍ وَاحِدٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، نَحْوِ الْخَمْسِينَ، وَرَدَ عَلَيْهِمَا بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْمَسِيبِ مُتَأَخِّرًا إِسْلَامَهُ أَنْ لَا يَشْهَدْ وَفَاةَ أَبِي طَالِبٍ كَمَا شَهِدَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةٍ وَهُوَ يَوْمئِذٍ كَافِرٌ ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ. انْتَهَى. قُلْتُ: حُضُورُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةٍ وَفَاةَ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ كَافِرٌ ثَبِتَ فِي: (الصَّحِيحِ) وَلَمْ يَثْبُتْ حُضُورُ الْمَسِيبِ وَفَاةَ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ كَافِرٌ لَا فِي: (الصَّحِيحِ) وَلَا فِي غَيْرِهِ، وَبِالْإِحْتِمَالِ لَا يَرُدُّ عَلَى كَلَامِ بَعْضِ الْإِحْتِمَالِ، فَافْهَمُ.^{٤٩٤}



^{٤٩٣} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٧ / ١٨)

^{٤٩٤} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩ / ١٠٥)

قصة أهل نجران

عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ، صَاحِبَا نَجْرَانَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَا عَنَّا لَا نُفْلِحُ نَحْنُ، وَلَا عَقْبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ «لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقًّا أَمِينًا»، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ» فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»^{٤٩٥}

الغريب :

[ش (العاقب) صاحب مشورتهم واسمه عبد المسيح. (السيد) رئيسهم واسمه الأيهم. (صاحباً نجران) من أكابر النصارى فيها. (يلاعناه) يباهله بأن يدعو كل فريق بالعذاب على المبطل. (ما سألنا) الذي طلبته منا من الجزية]

[ش (فاستشرف) أي تطلعوا إلى الولاية ورغبوا فيها حرصاً على أن يكون هو الأمين الموعد في الحديث لا حرصاً على الولاية من حيث هي]

ترجمة الراوي :

عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ بْنِ هِلَالِ بْنِ وَهَبِ بْنِ ضَبَّةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ فَهْرِ، لَمْ يُعَقَّبْ، وَأُمُّ أَبِي عُبَيْدَةَ أُمُّ غَنَمِ بِنْتُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْعَدَاءِ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَمِيرَةَ بْنِ وَدِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ فَهْرِ، وَقِيلَ أُمِّمَةٌ بِنْتُ غَنَمِ بْنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ ثُمَّ قَدِمَ مَكَّةَ حَتَّى هَاجَرَ مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَصَدَ أَبَاهُ فَقَتَلَهُ مُشْرِكًا، وَبَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى سَرِيَّةٍ جَيْشِ ذَاتِ الْخَبَطِ قَبْلَ السَّاحِلِ، وَبَعَثَهُ أَمِينًا وَوَالِيًا إِلَى أَهْلِ نَجْرَانَ، فَقَالَ: "لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقًّا أَمِينًا" وَقَالَ: "هُوَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ"، أَخَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ، حَضَرَ السَّقِيفَةَ مَعَ الصِّدِّيقِ وَالْفَارُوقِ، فَبَايَعَ الصِّدِّيقَ بَعْدَ أَنْ نَدَبَهُ الصِّدِّيقُ لِلْمُبَايَعَةِ وَرَضِيَهُ لَهَا، وَكَانَ أَحَدَ أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ بِالشَّامِ، عَزَلَ بِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، كَانَتْ لَهُ عَقِصَتَانِ يَخْضِبُ بِالْحِنَاءِ وَالْكَتَمِ، أَثَرَمَ نَحِيفًا، خَفِيفَ اللَّحْيَةِ، طَوَالًا أَجَنًّا، تُوفِّيَ فِي طَاعُونِ عَمَوَّاسَ سَنَةِ ثَمَانَ عَشْرَةَ بِالْأَرْدُنِّ، وَقَبِرَ بَيْسَانَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانَ وَخَمْسِينَ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَصَلَّى عَلَيْهِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَاسْتَخْلَفَ خَالَهُ عِيَاضُ بْنُ غَنَمٍ الْفَهْرِيُّ، فَافْتَرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَكَانَ نَقَشُ خَاتَمِهِ: الْخُمْسُ لِلَّهِ^{٤٩٦}

معنى الحديث :

^{٤٩٥} - صحيح البخاري (١٧٢ / ٥) (٤٣٨٠) وصحيح مسلم (٤ / ١٨٨٢) ٥٥ - (٢٤٢٠)

^{٤٩٦} - معرفة الصحابة لأبي نعيم (١ / ١٤٨)

معنى الحديث: أن النبي - ﷺ - كتب إلى أهل نجران كتاباً قال فيه: " من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران، فإني أحمّد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. أمّا بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحرب، والسلام " فقدم إليه وفد من أشرفهم منهم " العاقب " أميرهم و " السيد " مستشارهم فسألهم وسألوه عن عيسى، فأنزل الله تعالى في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية، فتصدى النبي - ﷺ - بعد نزول هذه الآيات لمناقشتهم، وأقام عليهم الحجة والدليل القاطع على أن عيسى ليس إلهاً ولا ابناً لله تعالى كما يزعمون، ولكنه عبد الله ورسوله (١)، فلما أصرّوا على عقيدتهم أمره الله تعالى بمباهلتهم، ومعنى " المباهلة " أن يجتمع الطرفان رجالاً ونساءً وأطفالاً ويتهلأ إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى، ولذلك عبّر عنها في الحديث بالملاعنة حيث قال " يريدان أن يلاعنه " أي يلاعنا النبي - ﷺ - حين طلب منهم ذلك، فقال أحدهما لصاحبه وهو العاقب: لا تفعل، والله لقد علمتم أن محمداً لني مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خير صاحبكم، وما لاعن قوم نبياً قط فيبقى كبيرهم أو ينبت صغيرهم، " لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا " أي لهلك نحن وأبناؤنا و " قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا " أي نعطيك ما تطلبه منا " وابعث معنا رجلاً أميناً " قال ابن كثير (١): فأتوا النبي - ﷺ - فقالوا: قد رأينا أن لا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا فقال رسول الله - ﷺ -: " ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين " فاستشرف له أصحاب رسول الله - ﷺ - " أي فتطلع لهذا المنصب أصحاب النبي - ﷺ - لا رغبة في الإمارة، ولكن حرصاً على هذه الصفة الكريمة صفة الأمانة " فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال: هذا أمين هذه الأمة " فوصفه بهذه الصفة الكريمة. ٤٩٧

الدروس والعبر :

دل هذا الحديث على ما يأتي:

أولاً: عزم النبي - ﷺ - وتصميمه على مباهلة وفد نجران تنفيذاً لأمر الله تعالى في قوله عز وجل (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)، أما نصارى نجران فإنهم أحجموا ووجّهوا عن المباهلة خشية أن يصابوا بسوء، قال الإمام محمد عبده : وهذا الطلب - أي طلب النبي - ﷺ - المباهلة - يدل على قوة يقين صاحبه، وثقته بما يقول، كما يدل امتناع من دعوا إلى ذلك من أهل الكتاب على امترائهم فيما يعتقدون، وكونهم على غير بينة ولا يقين.

٤٩٧ - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ٣٨٣)

ثانياً: أن في الحديث منقبة عظيمة لأبي عبيدة رضي الله عنه حيث وصفه بأنه أمين هذه الأمة، وتلك صفة عظيمة أشرأبت لها أعناق كبار الصحابة.

ثالثاً: جواز صلح أهل الكتاب - كما قال ابن القيم - على ما يريد الإمام من الأموال والثياب وغيرها، ويجري ذلك مجرى ضرب الجزية عليهم. رابعاً: أن للإمام أن يبعث الرجل العالم إلى أرض الهدنة في مصلحة الإسلام، وأنه ينبغي أن يكون أميناً، وهو الذي لا غرض له ولا هوى، وإنما مراده مجرد مرضاة الله تعالى ورسوله. اهـ. كما أفاده ابن القيم.^{٤٩٨}

فَكَانَ قَوْلُهُ ﷺ فِيهِ: " حَقٌّ أَمِينٌ حَقٌّ أَمِينٌ " إِبْنَاتُهُ لِأَبِي عُبَيْدَةَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْأَمَانَةِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ هُوَ دُونُهُ فِيهَا، وَلَيْسَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِهَا، فَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: " وَلَا حَقٌّ فِيهَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ "، هُوَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَعَلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِسْتِحْقَاقِ لَهَا، وَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْتَحِقِّينَ لَهَا مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ فِي اسْتِحْقَاقِهَا. وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَسَّأَلُهُ التَّوْفِيقَ.^{٤٩٩}



^{٤٩٨} - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤ / ٣٨٤)

^{٤٩٩} - شرح مشكل الآثار (٦ / ٣٢١)

قصة المقداد بن الأسود يوم بدر

عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنَ الْمَقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفِكَ «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ» يَعْنِي: قَوْلُهُ ٥٠٠

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ الْمَقْدَادُ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } وَلَكِنْ امْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ، «فَكَانَ سُرِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» ٥٠١

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَقَدْ شَهِدْتُ مِنَ الْمَقْدَادِ مَشْهَدًا لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى لِمُوسَى: { اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } ، وَلَكِنْ نُقَاتِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، قَالَ: «فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُشْرِقُ وَجْهُهُ لِذَلِكَ وَسَرَّهُ وَأَعْجَبَهُ» ٥٠٢

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: لَقَدْ شَهِدْتُ مِنَ الْمَقْدَادِ مَشْهَدًا لَأَنْ أَكُونَ أَنَا صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، وَكَانَ رَجُلًا فَارِسًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا غَضِبَ احْمَرَّتْ وَجَتَّاهُ، فَأَتَاهُ الْمَقْدَادُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَقَالَ: " أَبَشِّرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَوَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَكُونَنَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، أَوْ يَفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ " ٥٠٣

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَاسِحِ الْحَضْرَمِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُبَيْدُ بْنُ عَبْدِ، قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْقِتَالِ، فَرُمِيَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِسَهْمٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْجَبَ هَذَا وَقَالُوا حِينَ أَمَرَهُمْ بِالْقِتَالِ: إِذَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا نَقُولُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: { اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، إِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ. ٥٠٤

٥٠٠ - صحيح البخاري (٧٣/٥) (٣٩٥٢)

[ش (صاحبه) صاحب ذلك المشهد. (عدل به) من كل شيء يقابل به ويوزن من أمور الدنيا]

٥٠١ - صحيح البخاري (٥١/٦) (٤٦٠٩)

٥٠٢ - الجهاد لابن أبي عاصم (٢/٥٥٦) (٢٢١) صحيح

٥٠٣ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/١٧٢) صحيح

٥٠٤ - مسند أحمد (عالم الكتب) (٦/٦١) (١٧٦٤١) ١٧٧٩١ - صحيح

وَعَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ، سَمِعَ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ: «إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نُخْرِجَ قَبْلَ هَذَا الْعِيرِ؟ لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِمَنَاهَا»، فَقُلْنَا: نَعَمْ، فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا، فَلَمَّا سَرْنَا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، قَالَ لَنَا: «مَا تَرَوْنَ فِي الْقَوْمِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أُخْبِرُوا بِمَخْرَجِكُمْ؟»، فَقُلْنَا: لَا وَاللَّهِ مَا لَنَا طَاقَةٌ بِقِتَالِ الْعَدُوِّ، وَلَكِنْ أَرَدْنَا الْعِيرَ، ثُمَّ قَالَ: «مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ الْقَوْمِ؟» فَقُلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ الْمَقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو: إِذَنْ لَا نَقُولُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢٤] ، قَالَ: فَتَمَنَيْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَوْ أَنَّا قُلْنَا كَمَا قَالَ الْمَقْدَادُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَنَا مَالٌ عَظِيمٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال: ١٢] وَقَالَ: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ} [الأنفال: ٧] وَالشُّوْكَةُ الْقَوْمُ وَغَيْرُ ذَاتِ الشُّوْكَةِ الْعِيرُ، فَلَمَّا وَعَدَنَا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا الْقَوْمَ وَإِمَّا الْعِيرَ طَابَتْ أَنْفُسُنَا، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا لِيَنْظُرَ مَا قَبْلَ الْقَوْمِ؟، فَقَالَ: رَأَيْتُ سَوَادًا وَلَا أَدْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُمْ هُمْ هَلُمُّوا أَنْ تَتَعَادَ» فَفَعَلْنَا، فَإِذَا نَحْنُ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَتَنَا، فَسَرَّهُ ذَلِكَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَقَالَ: «عَدَّةُ أَصْحَابِ طَالُوتَ» ثُمَّ إِنَّا اجْتَمَعْنَا مَعَ الْقَوْمِ فَصَفَّفْنَا، فَبَدَرَتْ مِنَّا بَادِرَةٌ أَمَامَ الصَّفِّ، فَظَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «مَعِيَ مَعِيَ» ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْشِدُكَ وَعَدَكَ»، فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَشِيرَ عَلَيْكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلُ مَنْ يُشِيرُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْظَمُ مَنْ أَنْ تَنْشُدَهُ وَعَدَهُ، فَقَالَ: «يَا ابْنَ رَوَاحَةَ لَأَنْشُدَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ»، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَرَمَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ، فَانْهَزَمُوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: ١٧] فَقَتَلْنَا وَأَسْرَنَّا، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى أَنْ يَكُونَ لَكَ أَسْرَى، فَإِنَّمَا نَحْنُ دَاعُونَ مُؤَلَّفُونَ، فَقُلْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ: إِنَّمَا يَحْمِلُ عُمَرُ عَلَى مَا قَالَ حَسَدًا لَنَا، فَتَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَيْقَظَ ثُمَّ قَالَ: «ادْعُوا لِي عُمَرَ»، فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٧] " ٥٥٠

[شَرْحُ الْغَرِيبِ]

[ش (صاحبه) صاحب ذلك المشهد. (عدل به) من كل شيء يقابل به ويوزن من أمور الدنيا]

سري: عن الحزرون وغيره : إذا كشف عنه ما به.

الدروس والعبر :

كانت كلمات سعد مشجعة لرسول الله ﷺ وملهبة لمشاعر الصحابة فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال.

إن حرص النبي ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات؛ ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فإما إلى العلياء، وإما تحت الغبراء.^{٥٠٦}

وفي الحديث أهمية الشورى في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وبهذا النص الجازم: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» .. يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم - حتى ومحمد رسول الله - ﷺ - هو الذي يتولاه. وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه .. أما شكل الشورى، والوسيلة التي تتحقق بها، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها. وكل شكل وكل وسيلة، تتم بها حقيقة الشورى - لا مظهرها - فهي من الإسلام.

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة! فقد كان من جرائها ظاهرياً وقوع خلل في وحدة الصف المسلم! اختلفت الآراء. فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون في المدينة محتمين بها، حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه الأزقة. وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين.

وكان من جراء هذا الاختلاف ذلك الخلل في وحدة الصف. إذ عاد عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الجيش، والعدو على الأبواب - وهو حدث ضخم وخلل مخيف - كذلك بدا أن الخطة التي نفذت لم تكن - في ظاهرها - أسلم الخطط من الناحية العسكرية. إذ أنها كانت مخالفة «للسوابق» في الدفاع عن المدينة - كما قال عبد الله ابن أبي - وقد اتبع المسلمون عكسها في غزوة الأحزاب التالية، فبقوا فعلاً في المدينة، وأقاموا الخندق، ولم يخرجوا للقاء العدو. منتفعين بالدرس الذي تلقوه في أحد! ولم يكن رسول الله - ﷺ - يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج.

فقد كان لديه الإرهاس من رؤياه الصادقة، التي رآها، والتي يعرف مدى صدقها. وقد تأولها قتيلاً من أهل بيته، وقتلى من صحابته، وتأول المدينة درعا حصينة .. وكان من حقه أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجة للشورى .. ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات. لأن إقرار المبدأ، وتعليم الجماعة، وتربية الأمة، أكبر من الخسائر الوقتية.

^{٥٠٦} - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص: ٣٩٥)

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة. أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أخرج الظروف وأمام النتائج المريعة التي انتهت إليها المعركة! ولكن الإسلام كان ينشئ أمة، ويربيها، ويعدها لقيادة البشرية. وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة، أن تربي بالشورى وأن تدرب على حمل التبعة، وأن تخطئ - مهما يكن الخطأ جسيما وذا نتائج مريعة - لتعرف كيف تصحح خطأها، وكيف تحتل تبعات رأيها وتصرفها. فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ ..

والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة. واختصار الأخطاء والعثرات والخسائر في حياة الأمة ليس فيها شيء من الكسب لها، إذا كانت نتيجته أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية. إنها في هذه الحالة تتقي خسائر مادية وتحقق مكاسب مادية. ولكنها تخسر نفسها، وتخسر وجودها، وتخسر تربيتها، وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية. كالطفل الذي يمنع من مزاوله المشي - مثلا - لتوفير العثرات والخطبات، أو توفير الحذاء! كان الإسلام ينشئ أمة ويربيها، ويعدها للقيادة الراشدة. فلم يكن بد أن يحقق لهذه الأمة رشدًا، ويرفع عنها الوصاية في حركات حياتها العملية الواقعية، كي تدرب عليها في حياة الرسول - ﷺ - وبإشرافه. ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى، ويمنع تدريب الأمة عليها تدريبًا عمليًا واقعيًا في أخطر الشؤون - كمعركة أحد التي قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائيا، وهي أمة ناشئة تحيط بها العداوات والأخطار من كل جانب - ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة - لو كان وجود القيادة الراشدة في الأمة يكفي ويسد مسد مزاوله الشورى في أخطر الشؤون، لكان وجود محمد - ﷺ - ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى - كافيا لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى! - وبخاصة على ضوء النتائج المريعة التي صاحبته في ضلل الملابس الخطيرة لنشأة الأمة المسلمية. ولكن وجود محمد رسول الله - ﷺ - ومعه الوحي الإلهي ووقوع تلك الأحداث، ووجود تلك الملابس، لم يبلغ هذا الحق. لأن الله - سبحانه - يعلم أن لا بد من مزاولته في أخطر الشؤون، ومهما تكن النتائج، ومهما تكن الخسائر، ومهما يكن انقسام الصف، ومهما تكن التضحيات المريعة، ومهما تكن الأخطار المحيطة لأن هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة، المدربة بالفعل على الحياة المدركة لتبعات الرأي والعمل، الواعية لنتائج الرأي والعمل .. ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي، في هذا الوقت بالذات.^{٥٠٧}

وفي الحديث فضيلة كبرى لأصحاب الرسول ﷺ، ويكفيهم في هذا قول الله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا

^{٥٠٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٠٦)

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا { [الفتح: ٢٩]

إِنْ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، بَلَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ، وَإِنَّ أَصْحَابَهُ يَتَصَفُّونَ بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ الْحَسَنَةِ، فَهُمْ أَشِدَّاءُ غَلَاظُ الْقُلُوبِ عَلَى الْكُفَّارِ، وَهُمْ رُحَمَاءُ مُتَوَادُّونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَرَاهُمُ النَّاطِرُ إِلَيْهِمْ دَائِبِينَ عَلَى أَدَاءِ الصَّلَاةِ، مُخْلِصِينَ فِيهَا لِلَّهِ، مُحْتَسِبِينَ أَجْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، يَتَّبِعُونَ بِصَلَاتِهِمْ رِضَا اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ، تَتْرُكُ نَفْسُهُمُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَثَرًا عَلَى وُجُوهِهِمْ، فَهِيَ هَادِئَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَهَذِهِ هِيَ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ فِي التَّوْرَةِ. وَجَاءَ وَصْفُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّ أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ سَيَكُونُونَ قَلِيلِينَ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلِظُونَ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلِظُونَ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ فُرُوعَهُ (شَطْأَهُ) الَّتِي تَتَفَرَّغُ مِنْهُ عَلَى جَوَانِبِهِ، فَيَقْوَى وَيَتَحَوَّلُ مِنَ الدَّقَّةِ إِلَى الْغَلْظَةِ، وَيَسْتَقِيمُ عَلَى أَصُولِهِ فَيُعْجِبُ بِهِ الزُّرَّاعَ لِخَصْبِهِ، وَقُوَّتِهِ، وَحُسْنِ مَظْهَرِهِ، وَقَدْ نَمَّاهُمْ اللَّهُ وَأَكْثَرَ عَدَدَهُمْ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، الْعَامِلِينَ لِلصَّالِحَاتِ، بِأَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ، وَأَنْ يُجْزَلَ لَهُمُ الْأَجْرَ وَالْعَطَاءَ، وَأَنْ يُدْخِلَهُمْ جَنَّاتِهِ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ أَبَدًا^{٥٠٨}.

إنَّها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع. صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة. فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» ولقطة تصور هيتهم في عبادتهم: «تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا» .. ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويحيش بها: «يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا» .. ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحتهم وسماتهم: «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» .. «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ» .. وهذه صفتهم فيها .. ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل .. «كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» «فَآزَرَهُ» .. «فَاسْتَغْلَظَ» «فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ» .. «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» .. «لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» ..

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد - ﷺ - صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» .. ثم ترسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع. والمؤمنون لهم حالات شتى. ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة. وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة .. وإرادة التكریم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها. التكریم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة. إرادة التكریم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أهم: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» .. أشداء

^{٥٠٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٩١، بترقيم الشاملة آليا)

على الكفار وفيهم آبائهم وإخوانهم وذوو قراباتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعا. رحاء بينهم وهم فقط إخوة دين. فهي الشدة لله والرحمة لله. وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة. فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء. وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوانهم فيها. قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله. وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة: «تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا» .. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم فعبّر عنها تعبيرا يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا.

واللقطة الثالثة مثلها. ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم: «يَتَغَوَّنَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا» .. فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشغلون به.

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمّر في ملاحظتهم، ونضحها على سماتهم: «سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» .. سيماهم في وجوههم من الوضاعة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف. وليست هذه السيماء هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله: «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» .. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة. واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها. فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة. ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاعة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاعة وصباحة ونبلا.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة. إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ» .. وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها.

«وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» .. وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه، أنهم: «كَزَّرَعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» .. فهو زرع نام قوي، يخرج فرخه من قوته وخصوبته. ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده. «فَأَزْرَهُ». أو أن العود آزر فرخه فشده. «فَاسْتَعْلَظَ» الزرع وضخمت ساقه وامتلأت. «فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ» لا معوجا ومحنيا. ولكن مستقيما قويا سويا ..

هذه صورته في ذاته. فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع، العارفين بالنامي منه والذابل. المثمر منه والبائر. فهو وقع البهجة والإعجاب: «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ». وفي قراءة يعجب «الزارع» .. وهو

رسول الله - ﷺ - صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج .. وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس. فهو وقع الغيظ والكمد: «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» .. وتعمد إغاطة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة هي زرعة الله. أو زرعة رسوله، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاطة أعداء الله! وهذا المثل كذلك ليس مستحدثاً، فهو ثابت في صفحة القدر. ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ومن معه إلى هذه الأرض. ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة .. صحابة رسول الله - ﷺ - .. فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود. وتبقى نموذجاً للأجيال، تحاول أن تحققها، لتحقيق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» .. وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعد ما تقدم من صفاتهم، التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة. مغفرة وأجر عظيم .. وذلك التكريم وحده حسبهم. وذلك الرضى وحده أجر عظيم. ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ.

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم. وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم. وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وفي كتاب الله. وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم. وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم. وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه .. ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه. إلا من بعيد؟! اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم: فيقرب له البعيد؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد!!!^{٥٠٩}.

جيل قرآني فريد :

هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان . وأن يقفوا أمامها طويلاً . ذلك أنها ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها لقد خرجت هذه الدعوة جيلاً من الناس - جيل الصحابة رضوان الله عليهم - جيلاً مميزاً في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه . ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى .. نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ . ولكن لم يحدث قط أن تجتمع مثل ذلك العدد الضخم ، في مكان

^{٥٠٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٦٦)

واحد ، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة . هذه ظاهرة واضحة واقعة ، ذات مدلول ينبغي الوقوف أمامه طويلاً ، لعلنا نتهدي إلى سرّه .

إن قرآن هذه الدعوة بين أيدينا ، وحديث رسول الله - ﷺ - وهديه العملي ، وسيرته الكريمة ، كلها بين أيدينا كذلك ، كما كانت بين أيدي ذلك الجبل الأول ، الذي لم يتكرر في التاريخ .. ولم يغب إلا شخص رسول الله - ﷺ - فهل هذا هو السر ؟

لو كان وجود شخص رسول الله - ﷺ - حتمياً لقيام هذه الدعوة ، وإيتائها ثمراتها ، ما جعلها الله دعوة للناس كافة ، وما جعلها آخر رسالة ، وما وكل إليها أمر الناس في هذه الأرض ، إلى آخر الزمان ..

ولكن الله - سبحانه - تكفل بحفظ الذّكر ، و علم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله - ﷺ - ويمكن أن تؤتي ثمارها . فاختاره إلى جواره بعد ثلاثة وعشرين عاماً من الرسالة ، وأبقى هذا الدّين من بعده إلى آخر الزمان .. وإذن فإن غيبة شخص رسول الله - ﷺ - لا تفسر تلك الظاهرة ولا تعللها .

فلنبحث إذن وراء سبب آخر . لننظر في النبع الذي كان يستقي منه هذا الجيل الأول ، فلعل شيئاً قد تغير فيه . ولننظر في المنهج الذي تخرجوا عليه ، فلعل شيئاً قد تغير فيه كذلك .

كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن . القرآن وحده . فما كان حديث رسول الله - ﷺ - وهديه إلا أثراً من آثار ذلك النبع . فعن سعد بن هشام ، قال : سألت عائشة ، فقالت : أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ فقالت : كان خلقه القرآن^{٥١٠} . كان القرآن وحده إذن هو النبع الذي يستقون منه ، ويتكيفون به ، ويتخرجون عليه ، ولم يكن ذلك كذلك لأنه لم يكن للبشرية يومها حضارة ، ولا ثقافة ، ولا علم ، ولا مؤلفات ، ولا دراسات .. كلا !

فقد كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوروبا تعيش عليه ، أو على امتداده . وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها ، وهو ما يزال ينبوع التفكير الغربي حتى اليوم . وكانت هناك حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك . وحضارات أخرى قاصية ودانية : حضارة الهند وحضارة الصين إلخ . وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها ، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة .. فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده .. في فترة تكونه .. وإنما كان ذلك عن " تصميم " مرسوم ، ونهج مقصود . يدل على هذا القصد غضب رسول الله - ﷺ - وقد رأى في يد عمر بن الخطاب

^{٥١٠} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٨ / ٣٠٥) (٢٥٣٠٢) ٢٥٨١٦ - صحيح

- رضي الله عنه - صحيفة من التوراة . فعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : " لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا ، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيًّا مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي " ٥١١ .

وإذن فقد كان هناك قصد من رسول الله ﷺ - أن يقصر النبع الذي يستقي منه ذلك الجيل .. في فترة التكون الأولى .. على كتاب الله وحده ، لتخلص نفوسهم له وحده . ويستقيم عودهم على منهجه وحده . ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يستقي من نبع آخر . كان رسول الله ﷺ - يريد صنع جيل خالص القلب . خالص العقل . خالص التصور . خالص الشعور . خالص التكوين من أى مؤثر آخر غير المنهج الإلهي ، الذي يتضمنه القرآن الكريم . ذلك الجيل استقى إذن من ذلك النبع وحده . فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد .. ثم ما الذي حدث ، اختلطت النبائع . ! صبت في النبع الذي استقت منه الأجيال التالية فلسفة الإغريق ومنطقهم ، وأساطير الفرس وتصوراتهم ، وإسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى ، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات . واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم ، وعلم الكلام ، كما اختلط بالفقه والأصول أيضاً . وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الأجيال بعد ذلك الجيل ، فلم يتكرر ذلك الجيل أبداً .

وما من شك أن اختلاط النبع الأول كان عاملاً أساسياً من عوامل ذلك الاختلاف البين بين الأجيال كلها وذلك الجيل المميز الفريد .

هناك عامل أساسي آخر غير اختلاف طبيعة النبع . ذلك هو اختلاف منهج التلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد ..

إنهم - في الجيل الأول - لم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصد التذوق والمتاع . لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته . إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه ، كما يتلقى الجندي في الميدان " الأمر اليومي " ليعمل به فور تلقيه ! ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها فعن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن .

٥١١ - شعب الإيمان - (١ / ٣٤٩) (١٧٦) صحيح لغيره

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .^{٥١٢}

هذا الشعور .. شعور التلقي للتنفيذ .. كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من المتاع وآفاقاً من المعرفة ، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع ، وكان ييسر لهم العمل ، ويخفف عنهم ثقل التكليف ، ويخلط القرآن بذواتهم ، ويحوط في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي ، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحف ، إنما تتحول آثاراً وأحداثاً تحول خط سير الحياة .

إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح : روح المعرفة المنشئة للعمل . إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي ، ولا كتاب أدب وفن ، ولا كتاب قصة وتاريخ - وإن كان هذا كله من محتوياته - إنما جاء ليكون منهاج حياة . منهاجاً إلهياً خالصاً . وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً ، يتلو بعضه بعضاً : { وَفَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } [الإسراء : ١٠٦]

لم يتزل هذا القرآن جملة ، إنما نزل وفق الحاجات المتجددة ، ووفق النمو المطرد في الأفكار والتصورات ، والنمو المطرد في المجتمع والحياة ، ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية . وكانت الآية أو الآيات تنزل في الحالة الخاصة والحادثة المعينة تحدث الناس عما في نفوسهم ، وتصوّر لهم ما هم فيه من الأمر ، وترسم لهم منهج العمل في الموقف ، وتصحح لهم أخطاء الشعور والسلوك ، وتربطهم في هذا كله بالله ربهم ، وتعرفهم بصفاته المؤثرة في الكون ، فيحسون حينئذ أنهم يعيشون مع الملائ الأعلى ، تحت عين الله ، في رحاب القدرة . ومن ثم يتكيفون في واقع حياتهم ، وفق ذلك المنهج الإلهي القويم .

إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول . ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرّج الأجيال التي تليه . وما من شك أن هذا العامل الثاني كان عاملاً أساسياً كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد .

هناك عامل ثالث جدير بالانتباه والتسجيل .

لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية . كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية . وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف

^{٥١٢} - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (١ / ٨) وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة - (١ / ٨٠) وإسنادهما صحيح

، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام ! وبهذا الإحساس كان يتلقى هَدْي الإسلام الجديد ، فإذا غلبته نفسه مرة ، وإذا اجتذبت عاداته مرة ، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة .. شعر في الحال بالإثم والخطيئة ، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه ، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهدْي القرآني .

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية ، فهو قد انفصل نهائياً من بيئته الجاهلية واتصل نهائياً ببيئته الإسلامية . حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي ، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .

وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعُرفُها وتصورها ، وعاداتها وروابطها ، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته .

وكان هذا مفرق الطريق ، وكان بدء السير في الطريق الجديد ، السير الطليق مع التخفيف من كل ضغط للتقاليد التي يتواضع عليها المجتمع الجاهلي ، ومن كل التصورات والقيم السائدة فيه . ولم يكن هناك إلا ما يلقاه المسلم من أذى وفتنة ، ولكنه هو في ذات نفسه قد عزم وانتهى ، ولم يعد لضغط التصور الجاهلي ، ولا لتقاليد المجتمع الجاهلي عليه من سبيل .

نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم . كل ما حولنا جاهلية .. تصورات الناس وعقائدهم ، عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم . حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ، ومراجع إسلامية ، وفلسفة إسلامية ، وتفكيراً إسلامياً .. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية !!

لذلك لا تستقيم قيم الإسلام في نفوسنا ، ولا يتضح تصور الإسلام في عقولنا ، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذي أنشأه الإسلام أول مرة .

فلا بد إذن - في منهج الحركة الإسلامية - أن نتجرد في فترة الحضانة والتكوين من كل مؤثرات الجاهلية التي نعيش فيها ونستمد منها . لا بد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص الذي استمد منه أولئك الرجال ، النبع المضمون أنه لم يختلط ولم تشبه شائبة . نرجع إليه نستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني ولكافة الارتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق ، وجود الله سبحانه .. ومن ثم نستمد تصوراتنا للحياة ، وقيمنا وأخلاقنا ، ومنهجنا للحكم والسياسة والاقتصاد وكل مقومات الحياة . ولا بد أن نرجع إليه - حين نرجع - بشعور التلقي للتنفيذ والعمل ، لا بشعور الدراسة والمتاع . نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون ، لنكون .

وفي الطريق سنتقي بالجمال الفني في القرآن وبالقصص الرائع في القرآن ، ومشاهد القيامة في القرآن .. وبالمنطق الوجداني في القرآن ..

وبسائر ما يطلبه أصحاب الدراسة والمتاع . ولكننا سنتقي بهذا كله دون أن يكون هو هدفنا الأول . إن هدفنا الأول أن نعرف : ماذا يريد منا القرآن أن نعمل ؟ ما هو التصور الكلي الذي يريد منا أن نتصور ؟ كيف يريد القرآن أن يكون شعورنا بالله ؟ كيف يريد أن تكون أخلاقنا وأوضاعنا ونظامنا الواقعي في الحياة ؟

ثم لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية .. في خاصة نفوسنا .. ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلي ولا أن ندين بالولاء له ، فهو بهذه الصفة .. صفة الجاهلية .. غير قابل لأن نصطلح معه . إن مهمتنا أن نغير من أنفسنا أولاً لنغير هذا المجتمع أخيراً .

إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع . مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه . هذا الواقع الذي يصطدم اصطداماً أساسياً بالمنهج الإسلامي ، وبالتصور الإسلامي ، والذي يجرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش .

إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته ، وألا نعدّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيراً لنتقي معه في منتصف الطريق . كلا ! إننا وإياه على مفرق الطريق ، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق !

وسنلقى في هذا عنثاً ومشقة ، وستفرض علينا تضحيات باهظة ، ولكننا لسنا مخيرين إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول الذي أقر الله به منهجه الإلهي ، ونصره على منهج الجاهلية . وإنه لمن الخير أن ندرك دائماً طبيعة منهجنا ، وطبيعة موقفنا ، وطبيعة الطريق الذي لا بد أن نسلكه للخروج من الجاهلية كما خرج ذلك الجيل المميز الفريد ..^{٥١٣}

جبن بني إسرائيل :

قال تعالى : { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) } [المائدة]

وهكذا يخرج الجبناء فيتوقحون ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون ! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين بل إنهما لصنوان في كثير من الأحيان. يدفع الجبان إلى

^{٥١٣} - معالم في الطريق بتحقيقي (ص: ١٦)

الواجب فيجب. فيخرج بأنه ناكل عن الواجب، فيسب هذا الواجب ويتوقع على دعوته التي تكلفه ما لا يريد! «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا. إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» ..

هكذا في وقاحة العاجز، الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان! «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ»! ..

فليس برهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال! «إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» .. لا نريد ملكا، ولا نريد عزاً، ولا نريد أرض الميعاد .. ودونها لقاء الجبارين!

هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام. نهاية الجهد الجهيد. والسفر الطويل. واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل! نعم ها هي ذي نهاية المطاف .. نكوصاً عن الأرض المقدسة، وهو معهم على أبوابها. ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق .. فماذا يصنع؟ ومن يستجير؟

«قَالَ: رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي. فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» ..

دعوة فيها الألم. وفيها الالتجاء. وفيها الاستسلام. وفيها - بعد ذلك - المفاصلة والحسم والتصميم! وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه .. ولكن موسى في ضعف الإنسان المخدول. وفي إيمان النبي الكليم. وفي عزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجهاً إلا الله. يشكو له بثه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين. فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق .. ما يربطه بهم نسب. وما يربطه بهم تاريخ. وما يربطه بهم جهد سابق. إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله. وقد فصلوه. فانبث ما بينه وبينهم إلى الأعماق. وما عاد يربطه بهم رباط .. إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون .. إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون ..

هذا هو أدب النبي. وهذه هي خطة المؤمن. وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون .. لا جنس. لا نسب. لا قوم. لا لغة. لا تاريخ. لا وشيجة من كل وشائج الأرض إذا انقطعت وشيجة العقيدة وإذا اختلف المنهج والطريق .. واستجاب الله لنبيه. وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين.

«قَالَ: فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ. فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».

وهكذا أسلمهم الله - وهم على أبواب الأرض المقدسة - للتيه وحرم عليهم الأرض التي كتبها لهم. والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل. جيل يعتبر بالدرس، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها صلب العود .. جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب.

ويتركهم السياق هنا - في التيه - لا يزيد على ذلك .. وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني، على طريقة القرآن في التعبير .

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس - مما قصه الله عليهم من القصص - فحين واجهوا الشدة وهم قلّة أمام نفير قريش في غزوة بدر، قالوا لنبيهم - ﷺ - إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم. «فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» لكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون .. وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التربية بالقصص عامة وبعض جوانب حكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل ..^{٥١٤}

وفيه أهمية الثبات عند الشدائد

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال:

[٤٥

يَحْثُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، لِيَتَّقُوا قُلُوبُهُمْ، وَتَثْبُتَ نُفُوسُهُمْ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الْفَوْزِ وَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنْ أَسْبَابِ الْفَوْزِ بِالْفَلَاحِ وَبِرِضْوَانِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ.^{٥١٥}

فالثبات للعدو، والتصميم على لقائه في عزم وإصرار، دون أن يقع في النفس أي هاجس يهيجس بها للفرار، أو التراجع، أو أخذ الجانب اللين من مواقف القتال - هو السلاح العامل بمالا تعمله كثيرة العدد والعدد، لكسب المعركة، وتحقيق النصر..

ولن يكون ذلك الموقف متاحا للإنسان وهو يواجه وجوه الموت، إلا إذا شد عزمه بالإيمان بالله، وملا قلبه يقينا بالجزاء الذي أعدّه الله له، ومن هنا كان ذكر الله، والإكثار من ذكره في هذا الوطن، هو الزاد الذي يتزود به المجاهد، للصبر على الشدائد، والثبات في وجه الموت الذي يراه رأى العين، فيما يقع بين يديه من جئت وأشلاء..

فذكر الله سبحانه وتعالى، في هذا الوطن الذي تصرخ فيه في كيان الإنسان دواعي الحرص على الحياة، وطلب السلامة، وحب البقاء - هو الذي يمسك الإنسان على البلاء، ويسوغ له طعم الموت، والاستشهاد في سبيل الله، ابتغاء الفوز برضاه، ولقائه - جل شأنه - على الوعد الذي وعد به المجاهدين في سبيله! ومن أجل هذا كان الفرسان والأبطال، يصحبون معهم من يؤثرون بالحب، من زوجات وخليلات، ليكون في صحبتهم لهم تذكير حي بالموقف الذي يجب أن يأخذوه في ميدان القتال، حتى يكونوا موضع إعجاب وتقدير، عند من يحبونهم ويفعلون الشيء الكثير الذي يرضيهم، ويتزلم من قلوبهم منزل الإعزاز والإكبار.. فإذا لم يكن في صحبة البطل زوجه أو خليلته، استحضر صورتهما في خياله، وتمثل شخصها حاضرا معه، يشهد بلاءه واستبساله.. يقول عنتره لحبوبته.. عبلة:

ولقد ذكرتكَ والرماح كأنها ... أشيطان بثر في لبات الأدهم

^{٥١٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٥٣)

^{٥١٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٠٦، بترقيم الشاملة آليا)

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولباته حتى تسربل بالدم

ويقول أيضا:

ولقد ذكرتكَ والرماح نواهل ... مني، وبيض الهند تقطر من دم

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ويقول الحارث بن حلزة أحد أصحاب المعلقات:

على آثارنا بيض كرام ... نحاذر أن تفارق أو تمهونا

يقن جيانا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا

فكيف إذ ذكر المؤمن ربه، واستحضر جلاله، وعظمته، في هذا الموقف الذي ينتصر فيه الله، ويجاهد في سبيله، ويعمل على مرضاته، ويطلب المثوبة من جزيل عطاياه؟ إن الذي يذكر الله في هذا الوطن، ذكرا ينبعث من قلبه، ويتحرك من وجدانه - يستخف بالموت، ويلذ له طعمه، ويجد أن حياته التي يقدمها لله ليست شيئا إلى جانب الحياة الأخرى التي هو صائر إليها، وواحد ما قدم لها.. وهذا هو الذي أمسك بالمجاهدين في سبيل الله على حياض الموت، فكتبوا بدمائهم تلك الوثائق الخالدة على الزمن، في التضحية والفداء.^{٥١٦}

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر. فأثبت الفريقين أغلبهما. وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسينين: الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟! وأما ذكر الله كثيرا عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة، وحكاها عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي.

ومما حكاها القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأة، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاعني، قولهم: «وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» ..

ومما حكاها كذلك عن الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، وهي تواجه جالوت وجنوده: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» .. ومما حكاها عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة: «وَكَايْنِ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلٍ مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا

^{٥١٦} - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٢٦)

كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا، وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» ..

ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصبة المسلمة فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدوا. وقد حكى الله - فيما بعد - عن العصبة التي أصابها القرح في «أحد» فلما دعيت إلى الخروج ثاني يوم، كان هذا التعليم حاضرا في نفوسها: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^{٥١٧}

وقد حذر الله تعالى من الهروب من المعركة، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَذْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) } [الأنفال: ١٥، ١٦]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَبِمُوَاجَهَةِ الْكَافِرِينَ بِقُلُوبٍ مُؤْمِنَةٍ، وَيَحْثُثُهُمْ عَلَى عَدَمِ الْفِرَارِ وَتَوَلِّيَةِ الظُّهُورِ لِلْأَعْدَاءِ، وَإِنْ كَانَ الْكَافِرُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِدَدًا، لِأَنَّ الْفِرَارَ يُحْدِثُ الْوَهْنَ فِي الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُقَاتِلِ.

وَلَكِنَّهُ تَعَالَى سَمَحَ لِلْمُقَاتِلِ بِحُرِّيَّةِ الْحَرَكَةِ أُنْثَاءَ الْمَعْرَكَةِ، كَانَ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ فِي الْمَعْرَكَةِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، لِنُصْرَةِ فَرِيقٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ لِسَدِّ ثَغْرَةٍ نَفَذَ مِنْهَا الْعَدُوُّ، فَالْمُهْمُ هُوَ أَنْ يَكُونَ هَدَفُ الْمُقَاتِلِ الْمُسْلِمِ النَّصْرَ أَوْ الشَّهَادَةَ، وَإِطَاعَةَ أَمْرِ الْقِيَادَةِ. أَمَّا الَّذِينَ يَتْرُكُونَ الْمَعْرَكَةَ فِرَارًا وَهَرَبًا مِنَ الْمَوْتِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَوَعَّدُهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.^{٥١٨}



^{٥١٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٦٦)

^{٥١٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٧٦، بترقيم الشاملة آليا)

قصة جابر ومال البحرين

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ لَقَدْ أُعْطِيتُكَ هَكَذَا، وَهَكَذَا». ثَلَاثًا، فَلَمْ يَقْدَمْ مَالُ الْبَحْرَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ذَيْنِ أَوْ عِدَّةٌ فَلْيَأْتِنِي، قَالَ: جَابِرٌ: فَجِئْتُ أَبَا بَكْرٍ فَأَخْبَرْتُهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطِيتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا» ثَلَاثًا، قَالَ: فَأَعْطَانِي، قَالَ جَابِرٌ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ فَسَأَلْتُهُ فَلَمْ يُعْطِنِي، ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَلَمْ يُعْطِنِي، ثُمَّ أَتَيْتُهُ الثَّلَاثَةَ فَلَمْ يُعْطِنِي، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِي، ثُمَّ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِي، ثُمَّ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِي، فَإِنَّمَا أَنْ تُعْطِنِي وَإِنَّمَا أَنْ تَبْخَلَ عَنِّي، فَقَالَ: أَقُلْتَ تَبْخُلُ عَنِّي؟ وَآيُ دَاءٍ أَدُوُّ مِنَ الْبُخْلِ، قَالَهَا ثَلَاثًا، مَا مَنَعْتُكَ مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيكَ، وَعَنْ عَمْرٍو، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: "جِئْتُهُ، فَقَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ: عُدَّهَا، فَعَدَدْتُهَا، فَوَجَدْتُهَا خَمْسَ مِائَةٍ، فَقَالَ: خُذْ مِثْلَهَا مَرَّتَيْنِ" ٥١٩

[شرحُ الغريب]

حنا : يحثي ويحثو بيديه : إذا سفا بهما الشيء. ٥٢٠

الدروس والعبر :

قَالَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ: لَمَّا كَانَ وَعْدُهُ - ﷺ - لَا يَجُوزُ أَنْ يُخْلَفَ نَزَلُوا وَعَدُهُ مَنَزَلَةَ الضَّمَانِ فِي الصَّحَّةِ فَرَفًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَجُوزُ أَنْ يَفِيَّ وَأَنْ لَا يَفِيَّ، وَأَشَارَ غَيْرُ وَاحِدٍ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ - ﷺ - وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ - أَوْلَى النَّاسِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ أَدَّى أَبُو بَكْرٍ مَوَاعِيدَهُ عَنْهُ وَلَمْ يَسْأَلْ جَابِرًا الْبَيِّنَةَ عَلَى مَا ادَّعَاهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَدَّعِ شَيْئًا فِي ذِمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ - وَإِنَّمَا ادَّعَى شَيْئًا فِي بَيْتِ الْمَالِ الْمَوْكُولِ أَمْرُهُ إِلَى اجْتِهَادِ الْإِمَامِ فَوْفَاهُ لَهُ أَبُو بَكْرٍ.

هَذَا وَفِي رَوَايَةِ لِلْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ " فَاتَّيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ فَلَمْ يُعْطِنِي ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَلَمْ يُعْطِنِي ثُمَّ أَتَيْتُهُ الثَّلَاثَةَ فَقُلْتُ: سَأَلْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِي فَإِنَّمَا أَنْ تُعْطِنِي وَإِنَّمَا أَنْ تَبْخَلَ عَلَيَّ، قَالَ: قُلْتُ: تَبْخُلُ عَلَيَّ وَآيُ دَاءٍ أَدُوُّ مِنَ الْبُخْلِ مَا مَنَعْتُكَ مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيكَ " وَإِنَّمَا أَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ إِعْطَاءَ جَابِرٍ حَتَّى قَالَ لَهُ ذَلِكَ، إِنَّمَا لِأَمْرِ أَهَمُّ مِنْهُ أَوْ خَشْيَةٍ أَنْ يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى الْحَرَصِ عَلَى الطَّلَبِ، أَوْ لِنَلَا يَكْثُرَ الطَّالِبُونَ لِمِثْلِ ذَلِكَ وَلَمْ يُرِدْ بِهِ الْمَنَعَ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِذَا قَالَ لَهُ مَا مَنَعْتُكَ مِنْ مَرَّةٍ. . . إلخ. ٥٢١

وفيه فضيلة لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما

٥١٩ - صحيح البخاري (١٧٢/٥) (٤٣٨٣) وصحيح مسلم (٤/١٨٠٦) ٦٠ - (٢٣١٤)

٥٢٠ - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦/٤٣٧) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٨/٢٩) و

جامع الأصول (١١/٦٤٤)

٥٢١ - شرح الزرقاني على الموطأ (٣/٨١)

وفيه وفاء الصديق لأي وعد وعد به النبي ﷺ، وهذا من فضائل الجمة ..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ أَتَفَقَ زَوْجًا، أَوْ قَالَ: زَوْجَيْنِ، مِنْ مَالِهِ - أَرَاهُ قَالَ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ - دَعَتْهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ: يَا مُسْلِمُ، هَذَا خَيْرٌ هَلُمَّ إِلَيْهِ "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذَا رَجُلٌ لَا تَوَى عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ إِلَّا مَالُ أَبِي بَكْرٍ» ، قَالَ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: وَهَلْ نَفَعَنِي اللَّهُ إِلَّا بِكَ، وَهَلْ رَفَعَنِي اللَّهُ إِلَّا بِكَ؟^{٥٢٢}
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ» ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: مَا أَنَا وَمَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا لَكَ.^{٥٢٣}

وفيه أنه يجب على الراعي أن يعطي الرعية حقوقها كاملة غير منقوصة، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء: ٥٨]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا. وَأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْأَمَانَاتِ الْوَاجِبَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ: مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ . . .) وَمِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ (كَالْوَدَائِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْتَمَنُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ بِيَدِ أَصْحَابِهَا وَتَأْتِقُ وَبَيِّنَاتٍ عَلَيْهَا) . هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُ حِجَابَةُ الْكَعْبَةِ. وَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ طَافَ الرَّسُولُ ﷺ بِالْكَعْبَةِ، ثُمَّ دَعَا بِعُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، وَأَخَذَ مِنْهُ مُفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَدَخَلَهَا. فَجَاءَهُ الْعَبَّاسُ (وَقِيلَ بَلْ جَاءَهُ عَلِيٌّ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْمَعْ لَنَا حِجَابَةَ الْكَعْبَةِ مَعَ السَّقَايَةِ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْمِفْتَاحَ، وَخَرَجَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ. وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ، وَأَنْ يَكُونَ الْعَدْلُ عَامًا لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَلِكُلِّ أَحَدٍ، وَأَنْ لَا يَمْنَعَهُمْ مِنْ إِقَامَةِ الْعَدْلِ حَقْدٌ أَوْ كَرَاهِيَةٌ أَوْ عَدَاوَةٌ.

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وَيَعْظُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، هُوَ الشَّرْعُ الْكَامِلُ، وَفِيهِ خَيْرُهُمْ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِ الْعِبَادِ، بَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ، فَيَجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ بِمَا يَسْتَحِقُّ.^{٥٢٤}

وفي النهي عن البخل وأنه قبيح جداً ، قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد: ٣٨]

إِنَّكُمْ يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ مُجَاهَدَةِ أَعْدَائِهِ، وَفِي سَبِيلِ نَصْرِ دِينِهِ. وَمَنْ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَبْخُلُ بِالْإِنْفَاقِ فِي هَذَا السَّبِيلِ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَجْرِمُهَا

^{٥٢٢} - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٦٩) (٣٢) صحيح

^{٥٢٣} - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٣٩٣) (٥٩٥) صحيح

^{٥٢٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٥١، بترقيم الشاملة آليا)

ثَوَابَ اللَّهِ، وَيَحْرِمُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ، وَعَنْ أَمْوَالِهِمْ وَعَنْ جَهَادِهِمْ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَإِنَّمَا حَتُّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ وَالْبَذْلِ لِيَنَالُوا الْأَجْرَ وَالْمَثْوَةَ.

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى لَهُمْ: إِنَّهُمْ إِنْ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، وَعَنِ اتِّبَاعِ شَرْعِهِ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِهْلَاكِهِمْ، وَعَلَى الْإِثْنَانِ بِقَوْمٍ آخَرِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لِأَوَامِرِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِشَرَائِعِهِ، وَلَا يَكُونُونَ أَمْثَالَ مَنْ أَهْلَكَهُمْ فِي الْبَخْلِ وَالتَّبَاطُؤِ عَنِ الْجِهَادِ.^{٥٢٥}

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: حَظَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالْبَخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا»^{٥٢٦}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي جَوْفِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ.^{٥٢٧}
وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»^{٥٢٨}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاحِشَ، وَالْمُتَفَحِّشَ، وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ هِيَ الظُّلُمَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ»^{٥٢٩}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ. وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ، وَأَكْبَرُ الدَّاءِ الْبُخْلُ»^{٥٣٠}
وفيه حرص الصديق على تقدير الناس أشياءهم وإعطاء كل ذي حق حقه ...

^{٥٢٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

^{٥٢٦} - سنن أبي داود (١٣٣/٢) (١٦٩٨) صحيح

^{٥٢٧} - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبلة (١٣/٥٤٨) (٢٧١٤٠) صحيح

^{٥٢٨} - صحيح مسلم (٤/١٩٩٦) ٥٦ - (٢٥٧٨)

[ش (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) قال القاضي قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلا حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد وبه فسروا قوله تعالى قل من ينحيكم من ظلمات البر والبحر أي شدائدهما ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات (واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم) قال القاضي يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبر عنهم به في الدنيا بأنهم سفكوا دماءهم ويحتمل أنه هلاك الآخرة وهذا الثاني أظهر ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة قال جماعة الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده]

^{٥٢٩} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/٥٨٠) (٥١٧٧) صحيح

^{٥٣٠} - تهذيب الآثار مسند عمر (١/١٠٠) (١٦٣) ضعيف



قصة إسلام دوس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرِوٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكَتْ عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأَتِ بِهِمْ»^{٥٣١}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرِوٍ الدَّوْسِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَهُ، فَقَالَ النَّاسُ هَلَكْتَ دَوْسُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأَتِ بِهِمْ، مَرَّتَيْنِ»^{٥٣٢}

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، فِي قِصَّةِ الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرِوٍ الدَّوْسِيِّ قَالَ: كَانَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرِوٍ يُحَدِّثُ أَنَّهُ قَدِمَ مَكَّةَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهَا فَمَشَى إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ الطُّفَيْلُ سَرِيعًا شَاعِرًا لَبِيبًا فَقَالَ لَهُ: يَا طُفَيْلُ إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا وَهَذَا الرَّجُلُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، قَدْ عَضَلَ بِنَا وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسَّحْرِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أُخِيهِ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، وَأَنَا أَخْشَى عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ، فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْكَ فَلَا تُكَلِّمُهُ وَلَا تَسْمَعْ مِنْهُ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا بِي حَتَّى أَجْمَعْتُ أَنْ لَا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا أَكَلِّمُهُ حَتَّى حَشَوْتُ أُذُنِي حِينَ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ كُرْسُفًا فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ، قَالَ: فَغَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ قَالَ: فَقُمْتُ مِنْهُ قَرِيبًا، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ قَالَ: سَمِعْتُ كَلَامًا حَسَنًا قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَأَتَكُلُّ أُمِّي، وَاللَّهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ، مَا يَخْفَى الْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ؟ إِذَا كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا فَبَلَّغْتُهُ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُهُ، قَالَ: فَمَكَثْتُ حَتَّى انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ فَاتَّبَعْتُهُ حَتَّى إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَوْمَكَ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا الَّذِي قَالُوا، فَوَاللَّهِ مَا بَرَحُوا يُخَوِّفُونِي أَمْرًا حَتَّى سَدَدْتُ أُذُنِي بِكُرْسُفٍ لَأَنْ لَا أَسْمَعَ قَوْلَكَ، ثُمَّ أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِيهِ، فَسَمِعْتُ قَوْلًا حَسَنًا فَأَعْرَضَ عَلَيَّ أَمْرًا، قَالَ: فَعَرَضَ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيَّ الْقُرْآنَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قَطُّ أَحْسَنَ، وَلَا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ قَالَ: فَأَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أَمْرٌ مُطَاعٌ فِي قَوْمِي، وَأَنَا رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ وَدَاعِيهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي آيَةً تَكُونُ لِي عَلَيْهِمْ عَوْنًا فِيمَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَالَ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً"، قَالَ: فَخَرَجْتُ إِلَى قَوْمِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِشَنِيَّةٍ تُطْلَعُنِي عَلَى الْحَاضِرِ، وَقَعَ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيَّ مِثْلَ الصَّبَاحِ، قَالَ: فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ فِي غَيْرِ وَجْهِي، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَطُتُوا أَنَّهَا مُثْلَةٌ وَقَعَتْ فِي وَجْهِي لِفِرَاقِ دِينِهِمْ قَالَ: فَتَحَوَّلَ فَوَقَعَ فِي رَأْسِ سَوْطِي فَجَعَلَ الْحَاضِرُ يَقُولُ: وَمِنْ ذَلِكَ النُّورِ فِي

^{٥٣١} - صحيح البخاري (١٧٤/٥) (٤٣٩٢) وصحيح مسلم (١٩٥٧/٤) - (٢٥٢٤)

^{٥٣٢} - مسند الحميدي (٢٣٧/٢) (١٠٨١) صحيح

سَوْطِي كَالْفَنْدِيلِ الْمُعَلَّقِ، وَأَنَا أَهْطُ إِلَيْهِمْ مِنَ الشَّيْءِ، قَالَ: حَتَّى جِئْتُهُمْ فَأَصَبَحْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا نَزَلْتُ أَتَانِي أَبِي وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَالَ: فَقُلْتُ: إِلَيْكَ عَنِّي يَا أَبُةَ فَلَسْتُ مِنْكَ، وَلَسْتُ مِنِّي، قَالَ: وَلِمَ يَا بُنَيَّ؟ قَالَ: قُلْتُ: [ص: ١٥٦٤] أَسَلَمْتُ، وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ أَبِي: يَا بُنَيَّ فَدِينِي دِينُكَ، فَاعْتَسَلَ فَطَهَرَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ جَاءَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتَنِي صَاحِبَتِي، فَقُلْتُ لَهَا: إِلَيْكَ عَنِّي، فَلَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي، قَالَتْ: لِمَ يَا ابْنِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ الْإِسْلَامُ، أَسَلَمْتُ وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَتْ: فَدِينِي دِينُكَ قَالَ: قُلْتُ: فَادْهَبِي إِلَى حِمَى ذِي الشَّرَى فَتَطْهَرِي مِنْهُ، وَكَانَ ذُو الشَّرَى صَنْمًا لِدَوْسٍ وَكَانَ الْحِمَى حِمَى لَهُ حَمَوُهُ، بِهِ وَشَلٌّ مِنْ مَاءٍ يَهْبِطُ مِنَ الْجَبَلِ قَالَ: قَالَتْ: يَا ابْنِي أَنْتَ وَأُمِّي أَتَخْشَى عَلَيَّ الْفِتْنَةَ مِنْ ذِي الشَّرَى شَيْئًا؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا أَنَا ضَامِنٌ كَذَلِكَ قَالَ: فَذَهَبَتْ فَاعْتَسَلَتْ، فَجَاءَتْ فَعَرَضْتُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ فَأَسَلَمَتْ ثُمَّ دَعَوْتُ دَوْسًا إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَبَطَّوْا، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ: إِنَّهُ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى دَوْسٍ الدَّيْرُ، فَادْعُ اللَّهُمَّ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ، وَارْفُقْ بِهِمْ"، قَالَ: فَارْجَعْتُ فَلَمْ أَزَلْ بِأَرْضِ دَوْسٍ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَضَى بَدْرًا وَأُحُدًا وَالْخَنْدَقَ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ أَسْلَمَ مَعِيَ مِنْ قَوْمِي وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَيْرٍ حَتَّى نَزَلْتُ الْمَدِينَةَ بِسَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ بَيْتًا مِنْ دَوْسٍ، ثُمَّ لَحَقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِخَيْرٍ، فَأَسْهَمَ لَنَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: ابْعَثْنِي إِلَى ذِي الْكُفَّينِ - صَنْمِ عَمْرِو بْنِ حُمَمَةَ - فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ طُفِيلُ بْنُ عَمْرِو يَقُولُ وَهُوَ يُوقِدُ عَلَيْهِ النَّارَ، وَكَانَ مِنْ خَشَبٍ:

[البحر الرجز]

يَا ذَا الْكُفَّينِ لَسْتُ مِنْ عِبَادِكَ ... مِلَادُنَا أَقْدَمُ مِنْ مِلَادِكَ

إِنِّي حَشَوْتُ النَّارَ فِي فُؤَادِكَ

ثُمَّ رَجَعَ طُفِيلُ بْنُ عَمْرِو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى قَبِضَ اللَّهُ رَسُولَهُ، فَلَمَّا ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ خَرَجَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَجَاهَدَ مَعَهُمْ أَهْلَ الرَّدَّةِ حَتَّى فَرَّغُوا فِي طَلْحَةَ الْأَسَدِيِّ، وَمِنْ أَرْضِ نَجْدٍ كُلِّهَا فَسَارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْيَمَامَةِ مَعَهُ ابْنُهُ عَمْرُو بْنُ الطُّفَيْلِ، فَرَأَى رُؤْيَا وَهُوَ مُوجَّهٌ إِلَى الْيَمَامَةِ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ [ص: ١٥٦٥] رُؤْيَا فَأَعْبَرُوهُمَا لِي، رَأَيْتُ كَأَنَّ رَأْسِي حُلِقَ، وَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ فَمِي طَائِرٌ وَأَنَّهُ أَتَيْتَنِي امْرَأَةً فَأَدْخَلْتَنِي فِي فَرْجِهَا، وَأَرَى ابْنِي يَطْلُبُنِي طَلَبًا حَثِيثًا ثُمَّ رَأَيْتُهُ خَنَسَ عَنِّي، قَالُوا: خَيْرًا قَالَ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ وَاللَّهِ أَوْلَتْهَا قَالُوا: مَاذَا أَوْلَتْ؟ قَالَ: أَمَّا حَلْقُ رَأْسِي فَوَضَعُهُ، وَأَمَّا الطَّائِرُ الَّذِي خَرَجَ مِنْ فَمِي، فَرَوْحِي، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ الَّتِي أَدْخَلْتَنِي فَرْجَهَا فَالْأَرْضُ تُخْفَرُ لِي فَاتَّجَبَّبُ فِيهَا، وَأَمَّا طَلَبُ ابْنِي إِيَّايَ ثُمَّ خَنَسَهُ عَنِّي فَإِنِّي أَرَاهُ سَيُجْهَدُ أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَنِي، فَتَقِيلُ الطُّفِيلُ رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ بِالْإِمَامَةِ شَهِيدًا، وَجَرَحَ ابْنُهُ عَمْرُو بْنُ الطُّفَيْلِ جِرَاحَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ مِنْهَا حَتَّى قُتِلَ عَامَ الْيَرْمُوكِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَهِيدًا^{٥٣٣}

المعنى العام :

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ) : - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - (قَالَ: جَاءَ الطُّفَيْلُ) : بِالتَّصْغِيرِ (ابْنُ عَمْرِو الدَّوْسِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : وَيُقَالُ لَهُ ذُو الثَّوْرِ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَتَى النَّبِيَّ - ﷺ - بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: اجْعَلْ لِي آيَةً. فَقَالَ: (اللَّهُمَّ نَوِّرْ لَهُ) فَسَطَعَ لَهُ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخَافُ أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ مِثْلُهُ، فَتَحَوَّلَ إِلَى طَرَفِ سَوْطِهِ، فَكَانَ يُضِيءُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ، فَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمَ أَبُوهُ وَلَمْ تُسَلِّمْ أُمُّهُ، وَأَجَابَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَحْدَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقَدُّمِ إِسْلَامِهِ، وَقَدْ جَزَمَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّهُ قَدِمَ بِخَيْرٍ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَكَأَنَّهُ قَدَمَتْهُ الثَّانِيَةَ، كَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ حَجَرٍ. وَقَالَ الْمُؤَلِّفُ: أَسْلَمَ وَصَدَّقَ النَّبِيَّ - ﷺ - بِمَكَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بِلَادِ قَوْمِهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى هَاجَرَ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَهُوَ بِخَيْرٍ مِمَّنْ تَبِعَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فَلَمْ يَزَلْ مُقِيمًا عِنْدَهُ إِلَى أَنْ قُبِضَ النَّبِيُّ - ﷺ - وَقُتِلَ يَوْمَ الْإِمَامَةِ شَهِيدًا، وَقِيلَ: قُتِلَ عَامَ الْيَرْمُوكِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ، رَوَى عَنْهُ جَابِرٌ وَأَبُو عُدَادَةَ فِي الْحِجَازِ (فَقَالَ) أَيُّ: الطُّفَيْلُ (إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكْتَ) أَيُّ: اسْتَحَقَّتْ الْهَلَاكُ (عَصَتْ) : بَيَّانٌ لِمَا قَبْلَهُ (وَأَبَتْ) أَيُّ: امْتَنَعَتْ عَنِ الطَّاعَةِ (فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ) ، أَيُّ: بِوُقُوعِ الْعَذَابِ (فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ فَقَالَ) : ، أَيُّ: لِكُونِهِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَهُدًى لِلنَّاسِ (اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ) أَيُّ: إِلَى الْمَدِينَةِ مُهَاجِرِينَ، أَوْ قَرِيبَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَقْبِلْ بِقُلُوبِهِمْ إِلَى قَبُولِ الدِّينِ.^{٥٣٤}

الدروس والعبر :

وفي صحيح البخاري بَابُ الدُّعَاءِ لِلْمُشْرِكِينَ بِالْهُدَى لِيَتَّالِفَهُمْ^{٥٣٥} وهو ظاهرٌ فيما تَرَجَّمَ لَهُ وَقَوْلُهُ " لِيَتَّالِفَهُمْ " مِنْ تَفَقُّهِ الْمُصَنِّفِ إِشَارَةً مِنْهُ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ تَارَةً يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَتَارَةً يَدْعُو لَهُمْ.

فالحالة الأولى حَيْثُ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيَكْثُرُ أَذَاهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي قَبْلَ هَذَا بَابٍ. والحالة الثانية حَيْثُ تَوْمَنُ غَائِلَتُهُمْ وَيُرْجَى تَأْلِفُهُمْ كَمَا فِي قِصَّةِ دَوْسٍ.^{٥٣٦}

وَقَالَ الْكُرْمَانِيُّ: هُمْ طَلَبُوا الدُّعَاءَ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُ اللَّهِ، ﷺ دَعَا لَهُمْ، وَذَلِكَ مِنْ كَمَالِ خَلْقِهِ الْعَظِيمِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ. قُلْتُ: لَا شَكَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَمَعَ هَذَا، كَانَ يَحِبُّ دُخُولَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ، فَكَانَ لَا يَعَجَلُ بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ مَا دَامَ يَطْمَعُ فِي إِجَابَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، بَلْ كَانَ يَدْعُو

^{٥٣٣} - معرفة الصحابة لأبي نعيم (١٥٦٢/٣) (٣٩٥٢ و ٣٩٥٣) حسن

^{٥٣٤} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٨٧٤/٩)

^{٥٣٥} - صحيح البخاري (٤٤/٤)

^{٥٣٦} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١٠٨/٦)

لَمَنْ يَرْجُو مِنْهُ الْإِنَابَةَ، وَمَنْ لَا يَرْجُوهُ، وَيَخْشَى ضَرَرَهُ وَشَوْكَتَهُ يَدْعُو عَلَيْهِ كَمَا دَعَا عَلَى قُرَيْشٍ كَمَا
مر. ٥٣٧

قَوْلُهُ: (وَأَتَتْ بِهِمْ) أَي: مُسْلِمِينَ، أَوْ كِنَايَةً عَنِ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا مِنْ خَلْقِهِ الْعَظِيمِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ
حَيْثُ دَعَا لَهُمْ وَهُمْ طَلَبُوا الدُّعَاءَ عَلَيْهِمْ، وَحَكَى ابْنُ بَطَالٍ أَنَّ الدُّعَاءَ لِلْمُشْرِكِينَ نَاسَخَ الدُّعَاءَ عَلَيْهِمْ
وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ } (آل عمران: ٨٢١) ثُمَّ قَالَ: وَالْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّ لَا نَسْخَ
وَأَنَّ الدُّعَاءَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ جَائِزٌ. ٥٣٨

وفيه مشروعية رفع اليدين في الدعاء

وَحَاصِلُهُ أَنَّ الرَّفْعَ فِي الْاسْتِسْقَاءِ يُخَالِفُ غَيْرَهُ إِمَّا بِالْمُبَالَغَةِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ الْيَدَانِ فِي حَذْوِ الْوَجْهِ مَثَلًا
وَفِي الدُّعَاءِ إِلَى حَذْوِ الْمُنْكَبِينَ، وَلَا يُعَكَّرُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ ثَبَتَ فِي كُلِّ مِنْهُمَا " حَتَّى يَرَى بَيَاضَ إِبْطِئِهِ
" بَلْ يُجْمَعُ بَأَنَّ تَكُونُ رُؤْيَا الْبَيَاضِ فِي الْاسْتِسْقَاءِ أَبْلَغَ مِنْهَا فِي غَيْرِهِ.

وَإِمَّا أَنَّ الْكَفَّيْنِ فِي الْاسْتِسْقَاءِ يَلِيَانِ الْأَرْضَ وَفِي الدُّعَاءِ يَلِيَانِ السَّمَاءَ، قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: وَبِتَقْدِيرِ تَعَذُّرِ
الْجَمْعِ فَجَانِبِ الْإِثْبَاتِ أَرْجَحُ. قُلْتُ: وَلَا سِيَّمَا مَعَ كَثْرَةِ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ فِيهِ
أَحَادِيثَ كَثِيرَةً أَفْرَدَهَا الْمُنْذِرِيُّ فِي جُزْءٍ سَرَدَ مِنْهَا التَّوَوِيَّ فِي "الْأَذْكَارِ" وَفِي "شَرْحِ الْمُهَذَّبِ"
جُمْلَةً.....

وَأَمَّا مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ رُؤَيْبَةَ، قَالَ: رَأَى بَشَرَ بْنَ مَرْوَانَ عَلَى الْمَنْبَرِ رَافِعًا يَدَيْهِ، فَقَالَ:
«فَبَحَّ اللَّهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُولَ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ
الْمُسَبِّحَةَ» ٥٣٩.

فَقَدْ حَكَى الطَّبْرِيُّ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ أَخَذَ بِظَاهِرِهِ وَقَالَ: السُّنَّةُ أَنَّ الدَّاعِيَ يُشِيرُ بِإِصْبَعٍ وَاحِدَةٍ،
وَرَدَّهُ بِأَنَّهُ إِنَّمَا وَرَدَ فِي الْخُطْبِ حَالِ الْخُطْبَةِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ فَلَا مَعْنَى لِلتَّمَسُّكِ بِهِ فِي
مَنْعِ رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ مَعَ ثُبُوتِ الْأَخْبَارِ بِمَشْرُوعِيَّتِهَا.

وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ وَغَيْرُهُمَا عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
قَالَ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا» ٥٤٠. بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ
وَسُكُونِ الْفَاءِ أَيْ خَالِيَةً وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ.

قَالَ الطَّبْرِيُّ: وَكَرِهَ رَفْعَ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ ابْنُ عُمَرَ وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعَمٍ، وَرَأَى شَرِيحَ رَجُلًا يَرْفَعُ يَدَيْهِ
دَاعِيًا فَقَالَ: مَنْ تَتَنَاولُ بِهِمَا لَا أُمَّ لَكَ؟ وَسَاقَ الطَّبْرِيُّ ذَلِكَ بِأَسَانِيدِهِ عَنْهُمْ. وَذَكَرَ ابْنُ التَّيْنِ عَنْ

٥٣٧ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٠٨ / ١٤)

٥٣٨ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٠ / ٢٣)

٥٣٩ - صحيح مسلم (٢ / ٥٩٥) ٥٣ - (٨٧٤) [ش (على أن يقول بيده) أي يشير بيده فهو من إطلاق القول على الفعل]

٥٤٠ - سنن أبي داود (٢ / ٧٨) (١٤٨٨) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٣ / ١٦٠) (٨٧٦) صحيح

عبد الله بن عمر بن غانم أنه نقل عن مالك أن رفع اليدين في الدعاء ليس من أمر الفقهاء ، قال : وقال في "المدونة" ويختص الرفع بالاستسقاء ويجعل يوطئهما إلى الأرض. وأما ما نقله الطبري عن ابن عمر فإنما أنكر رفعهما إلى حدو المنكبين وقال : ليجعلهما حدو صدره ، كذلك أسنده الطبري عنه أيضاً.

وعن ابن عباس أن هذه صفة الدعاء.

وأخرج أبو داود والحاكم عن ابن عباس، قال: «المسألة أن ترفع يديك حدو منكبيك، أو نحوهما، والاستغفار أن تشير بأصبع واحدة، والابتهال أن تمد يديك جميعاً»^{٥٤١}.

وعن عمير، مولى أبي اللحم، أنه: «رأى رسول الله ﷺ عند أحجار الزيت قريباً من الزوراء يدعو رافعاً كفيه قبل وجهه لا يجاوز بهما رأسه»^{٥٤٢}

وعن سهل بن سعد، قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ شاهراً يديه يدعو على منبر ولا غيره، ولكن رأيتُه يقول هكذا» وقال أبو سعيد: بأصبعه السبابة من يده اليمنى يقوسها.^{٥٤٣}

وأخرج الطبري من وجه آخر عنه قال : يرفع يديه حتى يجاوز بهما رأسه.

وقد صح عن ابن عمر خلاف ما تقدم أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" من طريق القاسم بن محمد " رأيت ابن عمر يدعو عند القاص يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه باطنهما مما يليه وظاهرهما مما يلي وجهه.^{٥٤٤}



^{٥٤١} - سنن أبي داود (٧٩ / ٢) (١٤٨٩) صحيح

^{٥٤٢} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦٢ / ٣) (٨٧٨) صحيح

^{٥٤٣} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦٥ / ٣) (٨٨٣) صحيح لغيره

^{٥٤٤} - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة (١١ / ١٤٢)

حبس الشمس لنبي الله يوشع بن نون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ مَلَكٌ بُضِعَ امْرَأَةٌ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا؟ وَلَمَّا بَيْنَ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلْفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وَلَادَهَا، فَعَزَا فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحَبَسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ يَعْنِي النَّارَ لِتَأْكُلَهَا، فَلَمْ تَطْعَمْهَا فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيَبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزَقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَلْيَبَايِعْنِي قَبِيلَتِكَ، فَلَزَقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتْ النَّارُ، فَأَكَلَتْهَا ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ رَأَى ضَعْفَنَا، وَعَجَزَنَا فَأَحْلَاهَا لَنَا " ٥٤٥

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ غَزَا بِأَصْحَابِهِ، فَقَالَ: لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ بَنَى دَارًا لَمْ يَسْكُنْهَا، أَوْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَمْ يَدْخُلْ بِهَا، أَوْ لَهُ حَاجَةٌ فِي الرُّجُوعِ، قَالَ: فَلَقِيَ الْعَدُوَّ عِنْدَ غِيُوبَةٍ الشَّمْسِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، وَإِنِّي مَأْمُورٌ، فَاحْبِسْهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَقْضِيَ بَيْنِي، وَبَيْنَهُمْ فَحَبَسَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَفَتَحَ اللَّهُ لَهُ فَجَمَعُوا الْغَنَائِمَ، فَلَمْ تَأْكُلْهَا النَّارُ، وَكَانُوا إِذَا غَنَمُوا غَنِيمَةً بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا النَّارَ، فَأَكَلَتْهَا، فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيَأْتِنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلْيَبَايِعْنِي، فَأَتَوْهُ فَبَايَعُوهُ فَلَزَقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ بِيَدِهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ غَلَلْتُمَا، فَقَالَا: أَجَلُ صُورَةٍ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَاءَا بِهَا، فَأَلْقَاهَا فِي الْغَنَائِمِ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّارَ فَأَكَلَتْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ اللَّهَ أَطْعَمَنَا الْغَنَائِمَ رَحْمَةً رَحِمَنَا بِهَا، وَتَخَفِيفًا خَفَفَهُ عَنَّا لِمَا عَلِمَ مِنْ ضَعْفِنَا» ٥٤٦

الغريب :

[ش (بضع) بضم الباء هو فرج المرأة أي ملك فرجها بالنكاح

(خلفات) جمع خلفه ككلمة وكلمات وهي الحامل من الإبل

(ولادها) أي نتاجها وقال النووي وفي هذا الحديث أن الأمور المهمة ينبغي أن لا تفوض إلا إلى أولي

الحزم وفراغ البال لها ولا تفوض إلى متعلق القلب بغيرها لأن ذلك يضعف عزمه ويفوت كمال بذل

وسعه

٥٤٥ - صحيح البخاري (٤/ ٨٦) (٣١٢٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٦) ٣٢ - (١٧٤٧)

٥٤٦ - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ١٣٥) (٤٨٠٧) صحيح

(فأدى للقرية) هكذا هو في جميع النسخ فأدى بهمزة قطع قال القاضي كذا هو في جميع النسخ فأدى رابعي إما أن يكون تعدية لدنا أي قرب فمعناه أدى جيوشه وجموعه للقرية وإما أن يكون أدى بمعنى حان أي قرب فتحها من قولهم أدنت الناقة إذا حان نتاجها ولم يقولوه في غير الناقة (اللهم احبسها) قال القاضي اختلف في حبس الشمس المذكور هنا فقل ردت على أدراجها وقيل وفقت ولم ترد وقيل أبطى حركتها (فأقبلت النار) أي من جانب السماء لتأكله كما هو في السنة من الأمم الماضية لغنائهم وقرابينهم المتقبلة

(فأخرجوا له مثل رأس بقرة) أي كقدره أو كصورته من ذهب كانوا غلوه وأخفوه (بالصعيد) يعني وجه الأرض

(فطيبها) أي جعلها لنا حلالا بجنا ورفع عنا محقتها بالنار تكرمة لنا^{٥٤٧}

معنى الحديث :

قوله : "غزا نبي من الأنبياء" ؛ أي أراد أن يغزو ، وهذا النبي هو يوشع بن نون كما رواه الحاكم من طريق كعب الأحبار وبين تسمية القرية كما سيأتي .

وقد ورد أصله من طريق مرفوعة صحيحة أخرجه أحمد من طريق هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : "قال رسول الله ﷺ إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس .

وأغرب ابن بطال فقال في "باب استئذان الرجل الإمام" : في هذا المعنى حديث لداود عليه الصلاة والسلام أنه قال في غزوة خرج إليها " لا يتبعني من ملك بضع امرأة ولم ين بها ، أو بنى داراً ولم يسكنها " ولم أقف على ما ذكره مسنداً .

لكن أخرج الخطيب في "دَم النجوم" له من طريق أبي حذيفة والبخاري في "المبتدأ" له بإسناد له عن علي قال : "سأل قوم يوشع منه أن يطلعهم على بدء الخلق وآجالهم ، فأراهم ذلك في ماء من غمامة أمطرها الله عليهم ، فكان أحدهم يعلم متى يموت ، فبقوا على ذلك إلى أن قاتلهم داود على الكفر ، فأخرجوا إلى داود من لم يحضر أجله فكان يقتل من أصحاب داود ولا يقتل منهم ، فشكا إلى الله ودعاه فحبست عليهم الشمس فزيد في النهار فاختلطت الزيادة بالليل والنهار ، فاختلط عليهم حسابهم .

قلت : وإسناده ضعيف جداً ، وحديث أبي هريرة المشار إليه عند أحمد أولى ، فإن رجال إسناده محتج بهم في الصحيح ، فالمعتمد أنها لم تحبس إلا ليوشع ، ولا يعارضه ما ذكره ابن إسحاق في

^{٥٤٧} -الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١١/ ٤٤ ، بترقيم الشاملة آليا) وجامع الأصول (٢/ ٧١٦) وفتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٢٢٣) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٥/ ٤٢)

"الْمُبْتَدَأُ" مِنْ طَرِيقِ يَحْيَى بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ " أَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَمَرَ مُوسَى بِالْمَسِيرِ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ أَمَرَهُ أَنْ يَحْمِلَ تَابُوتَ يُوسُفَ فَلَمْ يُدَلَّ عَلَيْهِ حَتَّى كَادَ الْفَجْرُ أَنْ يَطْلُعَ.

وَكَانَ وَعَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُؤَخَّرَ الطُّلُوعَ حَتَّى فَرَّغَ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ فَفَعَلَ ، لِأَنَّ الْحَصَرَ إِنَّمَا وَقَعَ فِي حَقِّ يُوشَعَ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ فَلَا يَنْفِي أَنْ يُحْبَسَ طُلُوعُ الْفَجْرِ لغيره.

وَقَدْ اشْتَهَرَ حَبْسُ الشَّمْسِ لِيُوشَعَ حَتَّى قَالَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصِيدَةٍ :

فَوَاللَّهِ لَا أَدْرِي أَأَحْلَامُ نَائِمٍ ... أَلَمْتُ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرِّكْبِ يُوشَعَ

وَلَا يُعَارِضُهُ أَيْضًا مَا ذَكَرَهُ يُونُسُ بْنُ بَكِيرٍ فِي زِيَادَاتِهِ فِي مَغَازِيِ ابْنِ إِسْحَاقَ " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَخْبَرَ قُرَيْشًا صَبِيحَةَ الْإِسْرَاءِ أَنَّهُ رَأَى الْعَبْرَ الَّتِي لَهُمْ وَأَنَّهَا تَقْدُمُ مَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ ، فَدَعَا اللَّهَ فَحُبِسَتْ الشَّمْسُ حَتَّى دَخَلَتِ الْعَبْرُ " وَهَذَا مُنْقَطِعٌ ، لَكِنْ وَقَعَ فِي "الْأَوْسَطِ لِلطَّبْرَانِيِّ" مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ الشَّمْسَ فَتَأَخَّرَتْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ " وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَوَجْهُ الْجَمْعِ أَنَّ الْحَصَرَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا مَضَى لِلْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ فَلَمْ تُحْبَسِ الشَّمْسُ إِلَّا لِيُوشَعَ وَلَيْسَ فِيهِ نَفْيٌ أَنَّهَا تُحْبَسُ بَعْدَ ذَلِكَ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَرَوَى الطُّحَاوِيُّ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي "الْكَبِيرِ" وَالْحَاكِمُ وَابَيْهَقِيُّ فِي "الدَّلَائِلِ" عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ أَنَّهَا ﷺ دَعَا لَمَّا نَامَ عَلَى رُكْبَةٍ عَلَيَّ فَفَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَرَدَّتْ الشَّمْسُ حَتَّى صَلَّى عَلَيَّ ثُمَّ غَرَبَتْ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْمُعْجَزَةِ وَقَدْ أَخْطَأَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ بِإِيرَادِهِ لَهُ فِي "الْمَوْضُوعَاتِ" وَكَذَا ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي "كِتَابِ الرَّدِّ عَلَى الرَّوَافِضِ" فِي زَعْمِ وَضْعِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا مَا حَكَى عِيَاضٌ أَنَّ الشَّمْسَ رُدَّتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ لَمَّا شَغِلُوا عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ فَرَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْهِ حَتَّى صَلَّى الْعَصْرَ.

كَذَا قَالَ وَعَزَاهُ لِلطُّحَاوِيِّ ، وَالَّذِي رَأَيْتُهُ فِي "مُشْكِلِ الْإِتَارِ لِلطُّحَاوِيِّ" مَا قَدَّمْتُ ذِكْرَهُ مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ فَإِنْ ثَبَتَ مَا قَالَ فَهَذِهِ قِصَّةٌ ثَلَاثَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَاءَ أَيْضًا أَنَّهَا حُبِسَتْ لِمُوسَى لَمَّا حَمَلَ تَابُوتَ يُوسُفَ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا وَجَاءَ أَيْضًا أَنَّهَا حُبِسَتْ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَهُوَ فِيمَا ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ ثُمَّ الْبَغَوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " قَالَ لِي عَلِيٌّ : مَا بَلَغَكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى حِكَايَةَ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ " رُدُّوْهَا عَلَيَّ " ؟ فَقُلْتُ : قَالَ لِي كَعْبٌ : كَانَتْ أَرْبَعَةُ عَشَرَ فَرَسًا عَرَضَهَا ، فَغَابَتِ الشَّمْسُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ الْعَصْرَ ، فَأَمَرَ بِرَدِّهَا فَضَرَبَ سُوقَهَا وَأَعْنَاقَهَا بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهَا ، فَسَلَبَهُ اللَّهُ مُلْكَهُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا لِأَنَّهُ ظَلَمَ الْخَيْلَ بِقَتْلِهَا.

فَقَالَ عَلِيٌّ : كَذَبَ كَعْبٌ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ سُلَيْمَانُ جِهَادَ عَدُوِّهِ فَتَشَاغَلَ بِعَرْضِ الْخَيْلِ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ الْمُوكِّلِينَ بِالشَّمْسِ بِإِذْنِ اللَّهِ لَهُمْ : رُدُّوْهَا عَلَيَّ ، فَرُدُّوْهَا عَلَيْهِ حَتَّى صَلَّى الْعَصْرَ فِي وَقْتِهَا ، وَأَنَّ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ لَا يَظْلِمُونَ وَلَا يَأْمُرُونَ بِالظُّلْمِ.

قلت : أوردَ هذا الأثرَ جماعةٌ ساكتينَ عليه جازمينَ بقولهم " قال ابنُ عباسٍ قلتُ لِعَلِيٍّ " وهذا لا يثبتُ عن ابنِ عباسٍ ولا عن غيره ، والثابتُ عن جمهورِ أهلِ العلمِ بالتفسيرِ مِنَ الصحابةِ ومن بعدهم أَنَّ الضميرَ المؤنثَ في قوله : " رُدُّوها " لِلخَيْلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^{٥٤٨}

(وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: : وفي نسخة النبي ﷺ " غزا نبي من الأنبياء ") : هو يوشع بن نون أي: أراد الغزو (" فقال لقومه: لا يتبعني ") : بتشديد الثانية وكسر الموحدة وفي نسخة بالتخفيف وكسرها أي: لا يرافقني (" رجلٌ ملك بضع امرأة ") : بضم الموحدة أي: فرجها. قال الطيبي: البضع يطلق على عقد النكاح والجماع معاً، وعلى الفرج، والمعنى نكح امرأة ولم يدخل عليها. (" وهو يريد أن يني بها ") أي: يدخل عليها (" ولما بين بها ") أي: والحال أنه لم يدخل عليها بعد (" ولا أحد ") أي: ولا يتبعني أحد (" بنى بيوتاً ") : بضم الموحدة وكسرها (" ولم يرفع سقوفها ") أي: ولم يكمل ما يتعلق بضرورة عمارتها، والظاهر أن قيد الجمع اتفاقاً، أو عادي، وإنما نهى عن متابعة هذه الأشخاص في تلك الغزاة ؛ لأن تعلق النفس يوهن عزم الأمر المهم فتفوت المصلحة: قال النووي: وفيه أن الأمور المهمة ينبغي أن لا تفوض إلا إلى أولي الحزم وفراغ البال لها، ولا تفوض إلى متعلق القلب بغيرها ؛ لأن ذلك يضعف عزمه. (" ولا رجلٌ اشترى غنماً ") : جنس (" ، أو خلفات ") : جمع الخلفة بفتح المعجمة وكسر اللام الحامل من النوق و (أو) : للتبويح (" وهو ينتظر ولادها ") : بكسر الواو أي: نتاجها، والضمير إلى الخلفات، وهو من باب الاكتفاء ؛ لأنه يعلم منها حكم الأخرى؛ إذ التقدير: ولاد كل واحدة منها، أو ولاد المذكورات، ونظيره قوله تعالى: {والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها} [التوبة: ٣٤] قال الطيبي: يحتمل أن يرجع الضمير إلى الطائفتين من الغنم والابل على التغليب، (" فعزا ") أي: قصد الغزو وشرع في سفره (" فدنا من القرية ") : قال الطيبي: كذا في البخاري وفي مسلم: فأدنى. قال النووي في شرح مسلم: هكذا هو في جميع النسخ بهمز القطع، وكذا عن القاضي عياض أيضاً، وهو إما أن يكون تعدية لدنا. بمعنى قرب أي: أدنى جيوشه إلى القرية، وإما أن يكون بمعنى حان أي: حان فتحها من قولهم: أدنت الناقة إذا حان وقت نتاجها، ولم يقل في غير الناقة. في النهاية: فأدنى بالقرية هكذا جاء في مسلم، وهو افتعل من الدنو وأصله أدنى فأدغم التاء في الدال اهـ. فيكون من قبيل قوله: أدان من الدين، وحاصله أنه قرب من القرية (" صلاة العصر ") أي: وقتها، والمراد آخر أجزائه لقوله: (" ، أو قريباً من ذلك ") أي: من آخر العصر، فأو للتريديد احتياطاً، ويمكن أن يكون الشك من الراوي (" فقال ") أي: ذلك النبي للشمس: إنك مأمورة أي: بالسَّير (وأنا مأمور) أي: بفتح القرية في النهار، وذلك أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس

خَافَ أَنْ تَغِيبَ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ مِنْهُمْ، وَيَدْخُلَ السَّبْتُ فَلَا يُحِلُّ لَهُ قِتَالُهُمْ فِيهِ فَدَعَا اللَّهَ. (" وَقَالَ: اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحَبِسَتْ ") أَيِ: الشَّمْسُ (" حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ ") .

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: اخْتَلَفُوا فِي حَبْسِ الشَّمْسِ، فَقِيلَ رُدَّتْ عَلَى أَذْرَاجِهَا، وَقِيلَ: وَقَفَتْ بِلَا رَدٍّ، وَقِيلَ: بَطَأَ تَحَرُّكُهَا. قُلْتُ: أَوْسَطُهَا ؛ لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ فِي مَعْنَى الْحَبْسِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مُعْجَزَاتِ النُّبُوَّةِ. قَالَ: وَقَدْ رُوِيَ «أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ حَبِسَتْ لَهُ الشَّمْسُ مَرَّتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ حِينَ شَغَلُوا عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَزَدَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ حَتَّى صَلَّى الْعَصْرَ» قَالَهُ الطَّحَاوِيُّ، وَقَالَ: رَوَاهُ ثِقَاتٌ، وَالثَّانِيَةُ صَبِيحَةَ الْإِسْرَاءِ حِينَ انْتَهَرَ الْعِيرَ الَّتِي أَخْبَرَ بِوُصُولِهَا مَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ. وَفِي الْمَوَاهِبِ: وَأَمَّا رَدُّ الشَّمْسِ لِحُكْمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرُوِيَ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُوحِي إِلَيْهِ، وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمْ يُصَلِّ الْعَصْرَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَصْلَيْتَ يَا عَلِيُّ ؟ " قَالَ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ فِي طَاعَتِكَ وَطَاعَةِ رَسُولِكَ فَارْزُدْ عَلَيْهِ الشَّمْسَ، " . قَالَتْ أَسْمَاءُ: فَرَأَيْتَهَا غَرَبَتْ، ثُمَّ رَأَيْتَهَا طَلَعَتْ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ، وَوَقَعَتْ عَلَى الْجِبَالِ وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ بِالصَّهْبَاءِ فِي خَيْبَرَ » ، وَرَوَاهُ الطَّحَاوِيُّ فِي مُشْكِلِ الْحَدِيثِ كَمَا حَكَاهُ الْقَاضِي فِي الشِّفَاءِ، وَقَالَ شَيْخُنَا يَعْزِي الْعَسْقَلَانِيُّ، قَالَ أَحْمَدُ: لَا أَصِلَ لَهُ، وَتَبِعَهُ ابْنُ الْجَوَازِيِّ فَأَوْرَدَهُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ، وَلَكِنْ قَدْ صَحَّحَهُ الطَّحَاوِيُّ، وَالْقَاضِي عِيَّاضُ وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَنْدَهَ وَابْنُ شَاهِينَ وَغَيْرُهُمْ فِي الشِّفَاءِ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخْبَرَ قَوْمَهُ بِالرُّفْقَةِ وَالْعَلَامَةِ الَّتِي فِي الْعِيرِ قَالُوا: مَتَى تَجِيءُ، قَالَ: يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَشْرَفَتْ قُرَيْشٌ يَنْظُرُونَ وَقَدْ وَلَّى النَّهَارُ، وَلَمْ تَجِءِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرِيدَ لَهُ فِي النَّهَارِ سَاعَةً وَحَبِسَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» . وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ أَيْضًا فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَرَ الشَّمْسَ فَتَأَخَّرَتْ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ» اهـ.

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ رَدَّ الشَّمْسِ بِمَعْنَى تَأْخِيرِهَا، وَالْمَعْنَى أَنَّهَا كَادَتْ أَنْ تَغْرُبَ فَحَبَسَهَا فَيَنْدَفِعُ بِذَلِكَ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ، وَمَنْ تَعَقَّلَ وَاضْعَهُ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى صُورَةِ فَضِيلَةٍ، وَلَمْ يَلْمَحْ إِلَى عَدَمِ الْفَائِدَةِ فِيهَا، فَإِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ بَعِيثُوبَةُ الشَّمْسِ تَصِيرُ قَضَاءً، وَرُجُوعَ الشَّمْسِ لَا يُعِيدُهَا أَدَاءً اهـ. مَعَ إِنَّهُ يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى الْخُصُومَاتِ وَهُوَ أَبْلَغُ فِي بَابِ الْمُعْجَزَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِتَحْقِيقِ الْحَالَاتِ. قِيلَ: يُعَارِضُهُ قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: " «لَمْ تُحْبَسِ الشَّمْسُ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا لِيُوشَعَ بْنِ نُونٍ» " وَيُجَابُ بِأَنَّ الْمَعْنَى لَمْ تُحْبَسْ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِي إِلَّا لِيُوشَعَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(فَجَمَعَ الْعَنَائِمَ فَجَاءَتْ يَعْزِي النَّارَ ") : تَفْسِيرٌ مِنْ بَعْضِ الرُّوَاةِ (" لِتَأْكُلَهَا ") : مُتَعَلِّقٌ بِجَمْعِ (" فَلَمْ تَطْعَمَهَا ") أَيِ: لَمْ تَأْكُلْهَا فِيهِ تَفْنُنٌ فِي الْعِبَارَةِ وَالْمَعْنَى فَلَمْ تَحْرِقْهَا وَلَمْ تَعْدِمْهَا؟ قَالَ النَّوَوِيُّ: وَكَانَتْ عَادَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنْ يَجْمَعُوا الْعَنَائِمَ فَتَجِيءَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهَا عَلَامَةً لِقَبُولِهَا وَعَدَمِ الْغُلُولِ فِيهَا (" فَقَالَ ") أَيِ: ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لِقَوْمِهِ: (" إِنْ فِيكُمْ ") أَيِ: فِيمَا بَيْنَكُمْ إِجْمَالًا (")

غُلُولًا") : بِالضَّمِّ، وَيُحْتَمَلُ الْفَتْحُ بِمَعْنَى غَالٍ ("فَلْيَبَايَعْنِي") : بِسُكُونِ اللَّامِ وَيُسَكَّنُ ("مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ. فَلَزَقْتُ") : بِكَسْرِ الزَّايِ أَيُّ: فَفَعَلُوا فَلَصِقَتْ ("يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فَيْكُمُ") أَيُّ: عَلَى الْخُصُوصِ ("الْغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ") : بِجَرٍّ مِثْلٍ عَلَى الْوَصْفِ وَفِي نُسخَةٍ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ حَالٌ أَيُّ: مُمَثِّلًا لِرَأْسِ بَقَرَةٍ وَقَوْلُهُ: "مِنْ الذَّهَبِ") : بَيَانٌ لِرَأْسِ الْأَوَّلِ فَتَأَمَّلْ ("فَوَضَعَهَا") أَيُّ: النَّبِيُّ الرَّأْسُ وَأَنْتَ ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْغَنِيمَةُ ("فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا". زَادَ) أَيُّ: أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (فِي رِوَايَةٍ) أَيُّ: لَهُمَا، أَوْ لِأَحَدِهِمَا، أَوْ لِغَيْرِهِمَا ("فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ قَبْلَنَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ الْغَنَائِمَ") أَيُّ: سَتَرْنَا عَلَيْنَا وَتَوَسَّعَ لِلدُّنْيَا وَهُوَ تَصْرِيحٌ بِمَا عَلِمَ ضِمْنًا (وَرَأَى ضَعْفَنَا وَعَجَزَنَا) اسْتِنَافٌ بَيَانٌ ("فَأَحَلَّهَا لَنَا") : إِعَادَةٌ لَتَرْثَبِ الْحُكْمِ وَالْأَوَّلِ لِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ. (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) ٥٤٩.

الدروس والعبر من القصة:

- ١- أَنَّ فِتْنِ الدُّنْيَا تَدْعُو النَّفْسَ إِلَى السَّهْلِ وَمَحَبَّةَ الْبَقَاءِ ؛ لِأَنَّ مَنْ مَلَكَ بَضْعَ امْرَأَةٍ وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا أَوْ دَخَلَ بِهَا وَكَانَ عَلَى قُرْبٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ قَلْبَهُ مُتَعَلِّقٌ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهَا وَيَجِدُ الشَّيْطَانُ السَّبِيلَ إِلَى شُغْلِ قَلْبِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَكَذَلِكَ غَيْرُ الْمَرْأَةِ مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا.
 - ٢- أَنَّ الْأُمُورَ الْمُهَمَّةَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُفَوَّضَ إِلَّا لِحَازِمٍ فَارِغٍ الْبَالِ لَهَا ؛ لِأَنَّ مَنْ لَهُ تَعَلُّقٌ رَبِّمَا ضَعُفَتْ عَزِيمَتُهُ وَقَلَّتْ رَغْبَتُهُ فِي الطَّاعَةِ ، وَالْقَلْبُ إِذَا تَفَرَّقَ ضَعُفَ فِعْلُ الْجَوَارِحِ وَإِذَا اجْتَمَعَ قَوِيَ.
 - ٣- أَنَّ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ كَانُوا يَغْزُونَ وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَ أَعْدَائِهِمْ وَأَسْلَابَهُمْ ، لَكِنْ لَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بَلْ يَجْمَعُونَهَا ، وَعَلَامَةُ قَبُولِ غَزْوِهِمْ ذَلِكَ أَنْ تَنْزَلَ النَّارُ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهَا ، وَعَلَامَةُ عَدَمِ قَبُولِهِ أَنْ لَا تَنْزَلَ وَمِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ الْقَبُولِ أَنْ يَقَعَ فِيهِمْ الْغُلُولُ ، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ وَرَحِمَهَا ، فَأَحَلَّ لَهُمُ الْغَنِيمَةَ ، وَسَتَرَ عَلَيْهِمُ الْغُلُولَ، فَطَوَى عَنْهُمْ فَضِيحَةَ أَمْرِ عَدَمِ الْقَبُولِ ٥٥٠.
- فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْحِكْمَةُ فِي أَكْلِ النَّارِ غَنَائِمَهُمُ وَالتَّحْلِيلِ لَنَا؟ قُلْتَ: جَعَلَ هَذَا فِي حَقِّهِمْ حَتَّى لَا يَكُونَ قِتَالُهُمْ لِأَجْلِ الْغَنِيمَةِ لِقُصُورِهِمْ فِي الْإِخْلَاصِ، وَأَمَّا تَحْلِيلُهَا فِي حَقِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلِكُونِ الْإِخْلَاصِ غَالِبًا عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَحْتَاجْ إِلَى بَاعِثٍ آخَرَ. ٥٥١.



٥٤٩ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٦٠١)

٥٥٠ - الجامع الصحيح للسنن والمسند (١١/ ٤٤)، بترقيم الشاملة (آيا) وجامع الأصول (٢/ ٧١٦) وفتح الباري شرح صحيح

البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٢٢٣) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٥/ ٤٢)

٥٥١ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٥/ ٤٤)

ابتلاء نبي الله أيوب عليه السلام

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ لَبِثَ فِي بَلَاءِهِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَحْصَى إِخْوَانِهِ، كَانَا يَعْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لصاحبه: تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرَحِمَهُ اللَّهُ، فَيَكْشِفُ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَ إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرٌ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ، فَأَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً أَنْ يُذْكَرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقِّ قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتْ أَمْرَاتُهُ بِيَدِهِ فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: ٤٢] فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَبَلَّغَتْهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيُّ بَارِكَ اللَّهُ، فَبَكَى هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا الْمُبْتَلَى، وَاللَّهُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرُ الْقَمْحِ، وَأَنْدَرُ الشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ، أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَتْ، وَأَفْرَغَتْ الْأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّى فَاضَتْ»^{٥٥٢}

الأندر: البيدر: الجرث: الموضع الذي يُدرَس فيه القمح ونحوه وتحفف فيه الثمار.

الدروس والعبر من القصة:

١- لا بد أن يتلى المؤمن في هذه الدار حتما مقضيا ، قال تعالى: {وَلَبِئْسَ لَكُمْ بَشِيرٌ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)} [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]

يُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ سَيَبْلُوهُمْ وَيَخْتَبِرُهُمْ بِقَلِيلٍ (بَشِيرٌ) مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، وَيَذْهَابُ بَعْضُ الْمَالِ، وَيَمُوتُ بَعْضُ الْأَصْحَابِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَحْبَابِ، وَيَنْقُصُ غُلَّالُ الْمَزَارِعِ. . . فَمَنْ صَبَرَ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ أَتَابَهُ، وَمَنْ قَنَطَ وَلَجَّ أَحَلَّ بِهِ عِقَابَهُ. وَيُبَشِّرُ اللَّهُ الصَّابِرِينَ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ فِي أُمُورِهِمْ. أَمَّا الصَّابِرُونَ الَّذِينَ خَصَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَشْرَى فَهُمْ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنَ اللَّهِ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ مُصِيبَةٌ صَبَرُوا، وَتَمَسَّكُوا بِقَوْلِهِمْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أَيُّ إِنَّهُمْ عِبِيدُ اللَّهِ وَمُلْكُهُ، وَإِنَّهُمْ رَاجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

^{٥٥٢} - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٥٨/٧) (٢٨٩٨) صحيح

يُثْنِي اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّابِرِينَ، وَيُخَبِّرُ بَأْسَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، وَأَنَّهُمْ يَجِدُونَ أَثَرَهَا فِي بَرْدِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ الْمُصِيبَةِ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الْمُهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ، وَإِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَأَنَّهُمْ اسْتَسْلَمُوا لِقَضَاءِ اللَّهِ فَلَمْ يَسْتَحْذِ الْجَزَعُ عَلَيْهِمْ.^{٥٥٣}

لا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات .. لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف. والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التحلي عنها عند الصدمة الأولى. فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين. وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها .. كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها. كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها .. إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرا مما يتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه .. وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها .. وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا ..

ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى. فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد. والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله .. الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده. لا يجد سندا إلا سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر .. لا شيء إلا الله .. لا قوة إلا قوته .. لا حول إلا حوله .. لا إرادة إلا إرادته .. لا ملجأ إلا إليه .. وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح ..

والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» .. إنا لله .. كلنا .. كل ما فينا .. كل كياناتنا وذاتياتنا .. لله .. وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير .. التسليم .. التسليم المطلق .. تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهها لوجه بالحقيقة الوحيدة، وبالتصور الصحيح. هؤلاء هم الصابرون .. الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل ..

^{٥٥٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل: «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» .. صلوات من ربهم .. يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه .. وهو مقام كريم .. ورحمة .. وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون .. وكل أمر من هذه هائل عظيم ..

إن الله يضع هذا كله في كفة. ويضع في الكفة الأخرى أمرا واحدا .. صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .. إنه لا يعدمهم هنا نصرا، ولا يعدمهم هنا تمكينًا، ولا يعدمهم هنا مغنا، ولا يعدمهم هنا شيئا إلا صلوات الله ورحمته وشهادته .. لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها.

فكان من ثم يجردها من كل غاية، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية - حتى الرغبة في انتصار العقيدة - كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته .. كان عليهم أن يمحضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون .. هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تمفؤ إليها قلوبهم وحدها .. فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها.

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء. جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات. وجزاء على الخوف والجوع والشدة. وجزاء على القتل والشهادة .. إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء. أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور. هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين.^{٥٥٤}

٢- الصبر عاقبته إلى خير في الدنيا والآخرة. قال تعالى: {إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠]

فيأخذ قلوبهم بهذه اللمسة في موضعها المناسب، ويعالج ما يشق على تلك القلوب الضعيفة العلاج الشافي، وينسم عليها في موقف الشدة نسمة القرب والرحمة. ويفتح لها أبواب العوض عن الوطن والأرض والأهل والإلف عطاء من عنده بغير حساب .. فسبحان العليم بهذه القلوب، الخبير بمدخلها ومسارها، المطلع فيها على خفي الدبيب.^{٥٥٥}

وفيه دعوة للمؤمنين إلى الصبر، الذي هو ملاك كل أمر يراد منه الخير الكثير الدائم الذي لا ينقطع .. إن كل ثمرة إنما تكون قيمتها بقدر ما يبذل فيها من جهد، وما يحتمل في سبيلها من عناء ومعاناة .. ومن طلب ثمرة بلا عمل، فقد طلب رياء من سراب! وفي قوله تعالى: «بغير حساب» - إشارة إلى أن

^{٥٥٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٥٧)

^{٥٥٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٣٢)

جزاء الصبر جزاء عظيم، وأن ميزان العمل الذي ينجى في أعقاب الصبر يرجح جميع الأعمال كلها، حيث ينال الصابر جزاء صبره، ما يشاء من فضل وإحسان، بلا حساب! ^{٥٥٦}

٣- شدة تعظيم أيوب ؛ لربه فقد كان يُكْفَر عن الذين يتنازعون ، فيذكرون الله خشية أن يُذَكَّرَ اللهُ إلا في حق.

٤- عِظَمَ وفاء زوجة أيوب ؛ لزوجها ، وبرّها به ، وكذا صديقه ، فalmصائب تكشف معادن البشر.

٥- القصة أيوب عليه السلام في القرآن الكريم

قال تعالى: {وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِبُأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)}

[ص:]

وَأَذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ قِصَّةَ نَبِيِّ اللَّهِ وَعَبْدِهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِجَسَدِهِ حَتَّى أَرَهَقَهُ الْمَرَضُ، وَابْتَلَاهُ بِأَوْلَادِهِ فَمَاتَ مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ، وَتَفَرَّقَ مَنْ تَفَرَّقَ، وَابْتَلَاهُ بِهَلَاكِ مَالِهِ، حَتَّى لَمْ يَعدْ عِنْدَهُ مَا يَكْفِي لِعَيْشِهِ، فَصَبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا. وَلَمَّا طَالَ بِهِ الْبَلَاءُ دَعَا رَبَّهُ مُتَضَرِّعًا: {أَنِّي مَسَّنِيَ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} كَمَا جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى.

وَهُنَا قَالَ: لَقَدْ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ، إِذْ أَنَّ أَيُّوبَ لَمَّا طَالَ بَلَاؤُهُ تَخَلَّى عَنْهُ أَهْلُهُ وَأَصْدِقَاؤُهُ إِلَّا زَوْجَتَهُ، وَقَلَّةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الْأَصْحَابِ.

فَأَخَذَ الشَّيْطَانُ يُوسِسُ لَهُؤُلَاءِ الْمُقِيمِينَ عَلَى الْإِحْلَاصِ لِأَيُّوبَ لِيُنْفِرَهُمْ مِنْهُ، وَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ كَانَ يُحِبُّ أَيُّوبَ مَا ابْتَلَاهُ.

فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِدَعَاءِ أَيُّوبَ لَمَّا رَأَى إِخْلَاصَهُ لِرَبِّهِ، وَنُفُورَهُ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ.

فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ يَضْرِبَ بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ فَيَتَفَجَّرَ مِنْهَا الْمَاءُ، وَفِي هَذَا الْمَاءِ الْمُتَفَجِّرِ شِفَاؤُهُ فَفَعَلَ، فَتَفَجَّرَ الْمَاءُ فَشَرِبَ وَغَتَسَلَ فَبَرِيءَ، وَعَادَ إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا عَادَتْ إِلَيْهِ صِحَّتُهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَهْلَهُ بَعْدَ التَّفَرُّقِ وَالتَّشْتُّتِ، وَأَكْثَرَ نَسْلَهُمْ حَتَّى صَارُوا ضِعْفِي مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِأَيُّوبَ، وَجَزَاءً لَهُ عَلَى صَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ وَإِنَابَتِهِ إِلَى اللَّهِ، وَتَذَكُّرِهِ لَذَوِي الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ الْفَرَجُ، وَعَاقِبَةُ التَّقْوَى وَالْإِحْلَاصِ وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَتَخَلَّى عَنْ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ، بَلْ يَرْعَاهُمْ وَيُعِزُّهُمْ وَيُقْوِيهِمْ. ^{٥٥٧}

هو دعوة أخرى إلى النبي الكريم من الله سبحانه وتعالى، أن يذكر هذا الذي يذكره له ربه من أمر عبد من عباده الصالحين، ونبي من أنبيائه المقربين، هو أيوب عليه السلام..

^{٥٥٦} - التفسير القرآني للقرآن (١٢ / ١١٣١)

^{٥٥٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٨٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

والذي يدعى النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى تذكره، والوقوف على موضع العبرة والعظة منه، من أمر أيوب - عليه السلام - هو ضراسته لربه، ولجوؤه إليه، فيما مسه من ضرر..

وأيوب - عليه السلام - إنما يقف على حدود هذا الأدب النبوي الرفيع، حين يرفع إلى الله - سبحانه - شكواه مما به، ولا يسأل العافية، وكشف الضرر..

فذلك إلى الله سبحانه وتعالى، حسب مشيئته وإرادته في عبده.. فقد يكون هذا البلاء خيرا له من العافية.. وإنه كبشر، يشكو إلى ربه ما يجد من آلام، ويفوض الأمر إليه سبحانه فيما يريد به.. ولو أنه استطاع ألا يشكو لفعل، فالله سبحانه وتعالى أعلم بحاله، ولكنها، أنات موحجوع، وزفريات محموم! «أني مسني الشيطان بنصب وعذاب».. والنصب، كالنصب، وهو الرهق والتعب، والعذاب: الألم الناجم عن هذا التعب. وفي إسناد المس إلى الشيطان، إشارة إلى أن هذا الذي نزل بأيوب، هو من الأسباب المباشرة، التي تجيء من النفس الأمارة بالسوء، ومثل هذا ما كان من موسى عليه السلام، حين قتل المصري فقال: «هذا من عمل الشيطان».

قوله تعالى: «اركض برحلك هذا مغتسل بارد وشراب».

وهذا جواب الحق سبحانه وتعالى على ما سأله أيوب، ولم يفصل بين السؤال والجواب فاصل، للإشارة إلى أن الإجابة كانت متصلة بالسؤال والطلب، من غير تراخ.. فما هو إلا أن سأل، حتى وجد ما طلب حاضرا..

وهذا يشير إلى أن أيوب صبر زمنا طويلا لا يشكو، فلما شكا، أزال الله سبحانه شكاته..

والركض: الجري، والمراد به الضرب بالرجل على الأرض بقوة، حيث أن الرجل تخذ الأرض وتضربها أثناء الجري..

وقد ضرب أيوب برجله الأرض، كما أمره ربه، فتفجر نبع من الماء! وماذا يعمل أيوب بهذا الماء؟ هكذا وقف عليه متسائلا.. فكشف له ربه عما وراء هذا الماء، فقال له: «هذا مغتسل بارد وشراب».. إنه ماء عذب، بارد سائغ للشاربين.. فاغتسل به، واشرب منه.

قوله تعالى: «ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب».

أي وهبنا له أهله، الذين كانوا قد نفروا منه، وتخلوا عنه أثناء محنته، فلما لبس ثوب العافية، وخرج من ضباب الحنة، عاد إليه أهله، وعاد إليه الغرباء، فكانوا له مثل أهله، تقربا إليه، وتوددا له، إذ أفاض الله سبحانه وتعالى عليه من الخير، ما جعل العيون تتطلع إليه، والآمال تتجه نحوه.. وهكذا الناس.

والناس من يلق خيرا قائلون له... ما يشتهي ولأم المخطئ المهبل

وفي التعبير بالهبة عن عودة أهله وغير أهله إليه في قوله تعالى: «ووهبنا له أهله ومثلهم معهم» - في هذا التعبير إشارة إلى أن هذا التحول في حال «أيوب» من تلك العزلة الموحشة بينه وبين أهله وغير

أهله، إلى إقبال القريب والبعيد عليه، وتوددهم له - إنما كان هبة من هبات الله له، ورحمة من رحماته، على هذا العبد الذي ابتلى هذا الابتلاء العظيم، فصبر راضيا بأمر الله سبحانه وتعالى فيه.. والله سبحانه وتعالى يقول: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» (١٠: الزمر) .. وفي ذلك ذكرى وموعظة لأولى الألباب، الذين يأخذون العبر من الأحداث التي تمر بهم، أو بالناس من حولهم. قوله تعالى: «وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب» . الضغث: الخليط من كل شيء.. والمراد به هنا، مجموعة من العידان الدقيقة، من حطب أو غيره.. والحنث: الذنب المؤثم، واليمين الغموس.

والآية معطوفة على قوله تعالى: «ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب» الذي هو اعتراض بين الآيتين اللتين يحملان خطابا من الله سبحانه وتعالى إلى «أيوب» .. فالأمر الموجه من الله سبحانه وتعالى إلى «أيوب» هو: «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ... وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث» .. وقد جاء قوله تعالى: «ووهبنا له أهله ومثلهم معهم» بين الأمرين - إشارة إلى أن هذه الأوامر ليست تكليفا، كما هو الشأن في الأمر، وإنما هي دعوة إلى تناول هذا العطاء الكريم من رب كريم، إلى عبده الصابر الشكور.. فهذان الأمران، يحملان هبات من عند الله، كما يحمل الخبر في قوله تعالى: «ووهبنا له أهله ومثلهم معهم» ..

فإن قوله تعالى: «اركض برجلك» يحمل إليه الشفاء والعافية، وقوله تعالى: «وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث» يحمل إليه الوفاء بيمينه، ويدفع عنه الحرج.. إذ كان قد حلف وهو في حال مرضه أن يضرب امرأته، مائة سوط على أمر خرجت به عن رأيه.. وكان من لطف الله به وبامرأته، أن جعل تحلة يمينه بأن يضربها بعرجون يحمل مائة أو أكثر من الشماريخ!!^{٥٥٨}

وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة مشهورة وهي تضرب مثلا للابتلاء والصبر. ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها. والحد المأمون في هذه القصة هو أن أيوب - عليه السلام - كان كما جاء في القرآن عبدا صالحا أوبا وقد ابتلاه الله فصبر صبرا جميلا، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعا ولكنه ظل على صلته بربه، وثقته به، ورضاه بما قسم له.

وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له - ومنهم زوجته - بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه. وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء. فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عددا عينا - قيل مائة. وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقي من إيذاء الشيطان، ومداخله إلى نفوس خلصائه، ووقع هذا الإيذاء في نفسه: «أَتَيْتُ الشَّيْطَانَ بُنْصَبٍ وَعَذَابٍ» ..

^{٥٥٨} - التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٠٩٥)

فلما عرف ربه منه صدقه وصبره، ونفوره من محاولات الشيطان، وتأذيه بها، أدركه برحمته. وأنهى ابتلاءه، ورد عليه عافيته .. إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفي ويرأى: «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ. هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» ..

ويقول القرآن الكريم: «وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ» .. وتقول بعض الروايات: إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم، وليس في النص ما يحتم أنه أحيا له من مات. وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين. وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية. مما يصلح ذكرى لذوي العقول والإدراك. والمهم في معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يتلهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه.

فأما قسمه ليضربن زوجه. فرحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العידان بالعدد الذي حدده. فيضربها به ضربة واحدة. تجزئ عن يمينه، فلا يحنث فيها: «وَاْخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ» .. هذا التيسير، وذلك الإنعام، كانا جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا، نَعْمَ الْعَبْدُ، إِنَّهُ أَوَّابٌ» ..^{٥٥٩}



^{٥٥٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨١٠)

النبي الذي أحرق قرية النمل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: " نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأَخْرَجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِنَتْنِهَا فَأَحْرَقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ
٥٦٠

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " أَنَّ نَمْلَةً قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأَحْرَقَتْ،
فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟ " ٥٦١

الغريب:

لَدَغَتْهُ: أَيُّ قَرَصَتْهُ . جَهَازِهِ: مَتَاعُهُ .

وَقَرْيَةِ النَّمْلِ: مَوْضِعُ اجْتِمَاعِهِمْ.

فَهَلَّا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ: فَهَلَّا أَحْرَقَتْ نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ الَّتِي آذَنَتْكَ ، بِخِلَافِ غَيْرِهَا فَلَمْ يَصْدُرْ مِنْهَا جِنَايَةٌ

دروس وعبر من القصة :

١- قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنْ كَانَ هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي أَحْرَقَ قَرْيَةَ النَّمْلِ هُوَ هَذَا الْقَائِلُ، فَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي جَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ إِحْرَاقِ قَرْيَةِ النَّمْلِ تَشْبِيهًا لَهُ عَلَى إِعْرَاضِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَفْعَلَ بِعِبَادِهِ مِنْ رَحْمَةٍ وَعَذَابٍ، لَأَنَّ الْخَلْقَ خَلَقَهُ، وَالْمُلُوكَ مُلْكُهُ، وَلَيْسَ أَمْرٌ وَلَا لَهُ زَاجِرٌ، فَلَا يَكُونُ لَهُ أَنْ يُخَالَفَ أَمْرُهُ، وَيُحْدِثَ فِي مُلْكِهِ بَغْيٌ إِذَنْ، بَلْ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ شَاءَ لِمَا شَاءَ، فَإِنْ رَحِمَهُمْ وَنَعَّمَهُمْ، فَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ هُوَ عَذَّبَهُمْ وَأَلَمَّهُمْ فَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُوزُ، وَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَذَّبَ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَعَذَّبَهُمْ، وَهُوَ لَهُمْ غَيْرُ ظَالِمٍ»، فَهُوَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ إِنَّمَا يُسْأَلُ مَنْ هُوَ تَحْتَ قُدْرِهِ لِعِيره، وَفَوْقَهُ أَمْرٌ وَلَهُ سَانٌّ سَنَ لَهُ سَنَةٌ، وَبَيْنَ لَهُ طَرِيقُهُ، وَأَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، وَحَدَّ لَهُ حُدُودًا، فَإِنْ جَاوَزَهَا أَوْ عَدَلَ عَمَّا سَنَّ لَهُ مِنَ السَّنَةِ وَخَالَفَ الْأَمْرَ، وَارْتَكَبَ التَّهْيَ، وَقَعَ عَلَيْهِ السُّؤَالُ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ جَائِرًا ظَالِمًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء: ٢٣]

[ص: ١٩٠] فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا النَّبِيُّ لَمَّا قَالَ مَا قَالَ فِي الْآيَةِ الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى كَانَ مَعْنَى ذَلِكَ شِبْهَ الْإِعْرَاضِ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَسَأَلَ عَمَّا لَا يَتَّبِعِي لَهُ السُّؤَالُ عَنْهُ، ابْتِلَاءُ اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّمْلَةِ الَّتِي عَضَّتْهُ، فَأَحْرَقَ قَرْيَتَهَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: فَهَلَّا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ، كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ لَهُ: إِنَّكَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ مِنْهُي جَنَّتْ عَلَيْكَ نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ، فَأَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنْهَا، فَكَيْفَ تَعْتَرِضُ عَلَى مَلِكٍ

٥٦٠ - صحيح البخاري (٤/ ١٣٠) (٣٣٩) وصحيح مسلم (٤/ ١٧٥٩) - (٢٢٤١)

٥٦١ - صحيح مسلم (٤/ ١٧٥٩) - (٢٢٤١)

يَفْعَلُ فِي مُلْكِهِ مَا شَاءَ لِيَكُونَ ذَلِكَ زَجْرًا لَهُ عَنْ مِثْلِ مَا أَتَى مِنَ الِاعْتِرَاضِ، وَتَأْدِيًّا فِيمَا تَعَدَّى عَنْ طُورِ الْعُبُودِيَّةِ، وَلَمْ يَسْتَسْلِمِ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْقَادِرِ الْجَبَّارِ الْقَهَّارِ، وَيَكُونَ إِحْرَاقُهُ إِيَّاهَا نَوْعًا مِنَ الْإِفْئَاءِ وَالْقَتْلِ مَعَ جَوَازِ ذَلِكَ فِي شَرِيعَتِهِ، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ ارْتِكَابَ ذَنْبٍ وَجَنَائَةٍ عَلَى أُمَّةٍ لَا ذَنْبَ لَهَا، كَمَا كَانَ تَنْفُ الرِّيشِ وَالتَّعْذِيبُ بِالشَّمْسِ لِلطَّيْرِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ جَائِزًا لِسُلَيْمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، حِينَ تَوَعَّدَ الْهَدُودَ، فَقَالَ {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ} [النمل: ٢١] ، وَكَمَا جَازَ فِي شَرِيعَتِهِ إِثْلَافُ الْخَيْلِ الْجِيَادِ الَّتِي ضَرَبَ أَعْنَاقَهَا وَسَوْفَهَا، لَا لِلْقُرْبَانِ وَلَا ذَبْحًا، كَمَا يَذْبَحُ الْبَهَائِمَ لِلانْتِفَاعِ بِهَا، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِ خَمْسٍ فِي الْحَرَمِ بَعِيرٍ جَنَائَةٍ، وَهِيَ: «الْفَارَةُ، وَالْحَيَّةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْغَرَابُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ» وَفِي خَبَرٍ آخَرَ: «وَالْحِدَاةُ» ، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَلَهُ كَذَا» ، وَنَهَى عَنْ اسْتِحْبَابِهَا

فَعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ الْجُشَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [ص: ١٩١] قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَتَلَ حَيَّةً، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ كَافِرًا»

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَيَّاتِ: «مَا سَلَمْنَا هُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ، فَمَنْ تَرَكَ مِنْهُنَّ خَيْفَةً فَلَيْسَ مِنَّا» ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ الْكَلَابِ فَكَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَتْلُ النَّمْلِ كَانَ غَيْرَ مِنْهُيَّ عَنْهُ، أَوْ مَأْمُورٌ بِهِ فِي شَرِيعَةِ ذَلِكَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَذَلِكَ الْإِحْرَاقُ إِذْ لَيْسَ هُوَ إِلَّا الْإِهْلَاكُ وَالْإِفْئَاءُ بِالْأَلَمِ، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِحْرَاقِ بَعْضِ الْكُفَّارِ، ثُمَّ نَهَى عَنْهُ، وَسَمَلَ أَعْيُنَ قَوْمٍ، فَكَانَ أَمْرُهُ بِهِ سَابِقًا جَائِزًا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ، وَسَمَلَ أَعْيُنَ قَوْمٍ، وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي الشَّمْسِ يَسْتَسْفُونَ فَلَا يُسْقُونَ حَتَّى مَاتُوا، ثُمَّ نَهَى بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْمِثْلَةِ فَكَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَانَ مُبَاحًا إِهْلَاكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ النَّمْلُ، كَمَا أَنَّهُ مُبَاحٌ قَتْلُ أُمَمٍ خَمْسٍ وَإِهْلَاكُهُمْ، فَكَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَانَ مُبَاحًا إِحْرَاقُ مَا جَازَ إِهْلَاكُهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ النَّبِيُّ أَهْلَكَ وَأَفْنَى مَا يَجُوزُ لَهُ إِهْلَاكُهُ، وَإِفْنَاؤُهُ بِالْمِ النَّارِ، كَمَا جَازَ إِهْلَاكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْمِ الْقَتْلِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ، إِنَّمَا نَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ بِأُمَّةٍ لَمْ يَجْنِ عَلَيْهِ مِنْهَا إِلَّا وَاحِدَةٌ، فَقَوْلُهُ: «أَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ» دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَحْرَقَ وَاحِدَةً مِنْهَا لَمْ يُعَاتَبْ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا عُوتِبَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِلانْتِقَامِ لِنَفْسِهِ، وَالتَّشْفِي مِنْهَا، لَا لِأَمْرِ سَبَقَ، وَكَانَ الْفِعْلُ مُبَاحًا غَيْرَ مِنْهُيَّ عَنْهُ^{٥٦٢}

٢- هَذَا الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ جَائِزًا فِي شَرْعِ ذَلِكَ النَّبِيِّ جَوَازُ قَتْلِ النَّمْلِ وَجَوَازِ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ ، وَأَمَّا فِي شَرْعِنَا فَلَا يَجُوزُ إِحْرَاقُ الْأَحْيَاءِ بِالنَّارِ إِلَّا فِي الْقِصَاصِ بِشَرْطِهِ ؛ فَإِذَا أَحْرَقَ إِنْسَانًا فَمَاتَ بِالْإِحْرَاقِ ، فَلَوْلِيهِ الْاِقْتِصَاصُ بِإِحْرَاقِ الْجَانِي .

^{٥٦٢} - بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص: ١٨٩)

٣- لَا يَجُوزُ قَتْلُ النَّمْلِ كَمَا لَا يَجُوزُ قَتْلُ غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا الصَّائِلَ (أَيِ الْمُعْتَدِي) ، وَالْمُؤْذِي مِنْهَا ؛ فَيَجُوزُ قَتْلُهُ ؛ فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةِ وَالنَّحْلَةِ وَالصُّرْدُ وَالصُّرْدُ». (صحيح رواه أبو داود).

وَالصُّرْدُ: طَائِرٌ ضَخْمُ الرَّأْسِ وَالْمِنْقَارِ لَهُ رِيشٌ عَظِيمٌ نِصْفُهُ أَيْضٌ وَنِصْفُهُ أَسْوَدٌ .

٤- يُسْتَتْنَى مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَجُوزُ قَتْلُهَا الْفَوَاسِقُ الْخَمْسُ، فَإِنَّهُمْ يَقْتُلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ مَنْ قَتَلَهُنَّ وَهُوَ مُحَرَّمٌ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ: الْعُقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ وَالْغُرَابُ وَالْحِدَاةُ» (رواه البخاري).

٥- الْحَيَوَانُ يُسَبِّحُ اللَّهَ تَعَالَى حَقِيقَةً ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ لَا أَنْ كُلُّ شَيْءٍ يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٤٤) .



لو تركها لدارت إلى يوم القيامة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ ذَا حَاجَةٍ، فَخَرَجَ يَوْمًا وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِهِ شَيْءٌ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: لَوْ أَنِّي حَرَكْتُ رَحَايَ وَجَعَلْتُ فِي تَنُورِي سَعَفَاتٍ فَسَمِعَ جِيرَانِي صَوْتَ الرَّحَى وَرَأَوْا الدُّخَانَ، فَظَنُّوا أَنَّ عِنْدَنَا طَعَامًا وَلَيْسَ بِنَا خَصَاصَةً، فَقَامَتْ إِلَى تَنُورِهَا فَأَوْقَدَتْهُ وَقَدْ تَحَرَّكَ الرَّحَى، فَأَقْبَلَ زَوْجُهَا وَقَدْ سَمِعَ الرَّحَى، فَقَامَتْ إِلَيْهِ تَفْتَحُ لَهُ الْبَابَ، فَقَالَ: مَا كُنْتَ تَطْحِنِينَ؟ فَأَخْبَرَتْهُ، فَدَخَلَ وَإِنَّ رَحَاهُمَا لَتَدُورُ، وَتَصُبُّ دَقِيقًا، فَلَمْ يَبْقَ فِي الْبَيْتِ وَعَاءٌ إِلَّا مُلِئَ، ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَى تَنُورِهَا فَوَجَدَتْهُ مَمْلُوءًا خَبْزًا، فَأَقْبَلَ زَوْجُهَا فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَمَا فَعَلْتَ الرَّحَى؟» قَالَ: رَفَعْتُهَا وَنَفَضْتُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ تَرَكْتُمُوهَا مَا زَالَتْ كَمَا هِيَ لَكُمْ حَيَاتُكُمْ»^{٥٦٣}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَصَابَ رَجُلًا حَاجَةٌ فَخَرَجَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا مَا نَعْتَجِنُ وَمَا نَحْتَبِزُ، فَجَاءَ الرَّجُلُ وَالْجَفْنَةُ مَلَأَى عَجِينًا، وَفِي التَّنُورِ جُنُوبُ الشَّوَاءِ، وَالرَّحَا تَطْحَنُ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ قَالَتْ: مِنْ رِزْقِ اللَّهِ، فَكَنَسَ مَا حَوْلَ الرَّحَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ تَرَكْتُمُوهَا لَدَارَتْ أَوْ قَالَ: طَحَنَتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^{٥٦٤}

الغريب:

الْبَرِّيَّةُ: الصحراء.

الْجَفْنَةُ: إناءٌ كبير يُعْجَنُ بِهِ ، ويقدم به الطعام.

التَّنُورُ: الفرن يُخَبَزُ فِيهِ.

الشَّوَاءُ: اللحم الصالح للشواء.

دروس وعبر من القصة:

- ١- إثبات الكرامة لعباد الله الصالحين ، وقد دلَّتْ على ذلك نصوص كثيرة ، تبلغ مبلغ التواتر. والإيمان بكرامات الأولياء من عقيدة أهل السنة والجماعة. ولكن لا تكون الكرامة إلا للأولياء الأتقياء ؛ فخوارق العادات قد تجري على يد أفسد أهل الأرض ، ومن ذلك ما أخبرنا به الرسول ﷺ عن الدجال.
- ٢- عَظَمَ فَضْلُ الدُّعَاءِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ اسْتَجَابَ دُعَاءَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ.^{٥٦٥}



^{٥٦٣} -دلائل النبوة للبيهقي مخرجا (١٠٦ / ٦) حسن

^{٥٦٤} - المعجم الأوسط (٣٧١ / ٥) (٥٥٨٨) حسن

^{٥٦٥} - http://www.rada.net/vb/showpost.php?p=٨٣٣١٦&postcount=١١

ميت أحياء الله تعالى

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ؛ فَإِنَّهُ كَانَتْ فِيهِمْ الْأَعَاجِيبُ» ثُمَّ أُنْشِأَ يُحَدِّثُ ﷺ؛ قَالَ: خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَتَوْا مَقْبَرَةً لَهُمْ مِنْ مَقَابِرِهِمْ، فَقَالُوا: لَوْ صَلَّيْنَا رَكَعَتَيْنِ وَدَعَوْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُخْرِجَ لَنَا رَجُلًا مِمَّنْ قَدْ مَاتَ؛ نَسْأَلُهُ عَنِ الْمَوْتِ؟ قَالَ: فَفَعَلُوا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَطْلَعَ رَجُلٌ رَأْسَهُ مِنْ قَبْرِ مَنْ تِلْكَ الْمَقَابِرِ، خِلَاسِيٌّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ، مَا أَرَدْتُمْ إِلَيَّ؟ فَقَدْ مِتُّ مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ، فَمَا سَكَنتُ عَنِّي حَرَارَةُ الْمَوْتِ، حَتَّى كَانَ الْآنَ، فَادْعُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِي يُعِيدَنِي كَمَا كُنْتُ^{٥٦٦}

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، - أَرَاهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَرَجُوا يَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ، وَيُفَكِّرُونَ فِيهَا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَقْبَرَةٍ، فَسَأَلُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُخْرِجَ إِلَيْهِمْ مَيِّتًا مِنْ أَهْلِهَا، فَيَسْأَلُونَهُ عَنِ الْمَوْتِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَجُلٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، مَاذَا أَرَدْتُمْ؟ فَقَالُوا: دَعَوْنَا اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ إِلَيْنَا مَيِّتًا نَسْأَلُهُ عَنِ الْمَوْتِ، كَيْفَ هُوَ؟ قَالَ: قَدْ رَكِبْتُمْ مَيِّتًا أَمْرًا عَظِيمًا، لَقَدْ وَجَدْتُ طَعْمَ الْمَوْتِ مِائَةَ عَامٍ، فَدَعَوْتُمُ اللَّهَ وَقَدْ سَكَنَ عَنِّي، فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يُعِيدَنِي كَمَا كُنْتُ. قَالَ: فَدَعَوُا اللَّهَ، فَأَعَادَهُ كَمَا كَانَ^{٥٦٧}

الغريب:

خِلَاسِيٌّ: أَسْمَرُ اللَّوْنِ.

دروس وعبر من القصة:

١ - قدرة الله على إحياء الموتى.

٢ - يستحب لمن أراد أن يدعو بأمر عظيم أن يصلي قبل دعائه ركعتين.^{٥٦٨}



^{٥٦٦} - الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٧) (٨٨) حسن

^{٥٦٧} - البعث لابن أبي داود (ص: ١٧) (٥) حسن

^{٥٦٨} - http://www.man.alafdal.net/topic۲۶۷۱bad-elr۲ -

عاقبة الغش

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: " أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَبِيعُ الْخَمْرَ فِي سَفِينَةٍ لَهُ وَمَعَهُ قِرْدٌ فِي السَّفِينَةِ، وَكَانَ يُشْرِبُ الْخَمْرَ بِالمَاءِ، فَأَخَذَ الْقِرْدُ الْكَيْسَ فَصَعَدَ الذُّرْوَةَ وَفَتَحَ الْكَيْسَ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ دِينَارًا وَيُلْقِيهِ فِي السَّفِينَةِ، وَدِينَارًا فِي الْبَحْرِ حَتَّى جَعَلَهُ نِصْفَيْنِ " ٥٦٩

الغريب :

الدَّقْلُ : خشبة يُمدُّ عليها شِرَاعُ السفينة .

لم تكن الخمر محرمة في شريعة ذلك الرجل، وكذلك كانت في أول الإسلام. ولعل هذا كان جائزاً في ملتهم، أو أنه حكاية يحكيها النبي ﷺ، وليس معناه جواز بيع الخمر، ولكن المعنى: أن هذا الإنسان ذهب ببيع الخمر في قرية، فركب سفينة وسافر إلى هذه القرية، فلما نزل في القرية وجد أن الذين يريدون أن يشتروا الخمر كثير، فزادها ماء وضاعفها أضعافاً بالماء، وباعها للناس، وأخذ المال. ٥٧٠

دروس وعبر من القصة:

١- تحريم الغش كخلط اللبن بالماء. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَتَأَلَّتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي» ٥٧١

فهو لما خدع الناس، وأخذ أموالهم، سلط الله القرد على إتلاف ماله.

فهذا المثل يذكره النبي ﷺ عبرة وعظة لكل تاجر؛ حتى لا يغش ولا يخدع.

فإذا أخذ المال من الغش فماله محكوم عليه بالخسران وبالهلاك.

وسيرى ذلك في يوم من الأيام.

فتجد التاجر من هؤلاء معه النقود الكثيرة جداً وقد سلط الله عليه البلاء كله.

وهو يخاف أن يصرف النقود ويقول: إنه يحتاجها في مرض كذا، أو للأولاد، ثم تسرق منه نقوده، ولا يعرف أين ذهبت؟ ٥٧٢

٥٦٩ - شعب الإيمان (٧/ ٢٣٠) (٤٩٢٤) وصحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٥٩) (١٧٧٠) حسن

٥٧٠ - شرح الترغيب والترهيب للمنذرى - حطبية (٢٩/ ٦، بترقيم الشاملة آليا)

٥٧١ - صحيح مسلم (١/ ٩٩) (١٠٢)

[ش (صبرة طعام) قال الأزهري الصبرة الكومة المجموعة من الطعام سميت صبرة لإفراغ بعضها على بعض ومنه قيل للسحاب فوق السحاب صبير (أصابته السماء) أي المطر]

٥٧٢ - شرح الترغيب والترهيب للمنذرى - حطبية (٢٩/ ٦، بترقيم الشاملة آليا)

٢- المال الحرام قد يهلك في الدنيا قبل الآخرة. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ، أُعِيدُكَ بِاللَّهِ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، إِنَّهَا سَتَكُونُ أُمَرَاءُ، مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضُ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُعْنِهِمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْهُ، وَسِيرُدُ عَلَيَّ الْحَوْضُ، يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ، الصَّلَاةُ قُرْبَانٌ، وَالصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَالنَّاسُ غَادِيَانِ، فَمُبْتَاعُ نَفْسِهِ، فَمُعْتَقُ رَقَبَتِهِ، وَمُؤَبِّقُهَا، يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ».^{٥٧٣}

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، قَالَ: " كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ مَمْلُوكٌ يُعْلُ عَلَيْهِ ، فَأَتَاهُ لَيْلَةً بِطَعَامٍ فَتَنَاوَلَ مِنْهُ لُقْمَةً ، فَقَالَ لَهُ الْمَمْلُوكُ: مَا لَكَ كُنْتَ تَسْأَلُنِي كُلَّ لَيْلَةٍ وَلَمْ تَسْأَلْنِي اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ الْجُوعُ ، مِنْ أَتَيْنَ جِئْتُ بِهِذَا؟ قَالَ: مَرَرْتُ بِقَوْمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَرَقِيتُ لَهُمْ فَوَعَدُونِي ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ الْيَوْمُ مَرَرْتُ بِهِمْ فَإِذَا عُرْسٌ لَهُمْ فَأَعْطُونِي ، قَالَ: إِنْ كَدْتُ أَنْ تُهْلِكَنِي ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي حَلْقِهِ فَجَعَلَ يَتَقَيَّأُ ، وَجَعَلْتُ لَا تَخْرُجُ ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ لَا تَخْرُجُ إِلَّا بِالْمَاءِ ، فَدَعَا بِطَسْتٍ مِنْ مَاءٍ فَجَعَلَ يَشْرَبُ وَيَتَقَيَّأُ حَتَّى رَمَى بِهَا ، فَقِيلَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ كُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ هَذِهِ اللَّقْمَةِ ، قَالَ: لَوْ لَمْ تَخْرُجْ إِلَّا مَعَ نَفْسِي لَأَخْرَجْتُهَا ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالْتَّارُ أَوْلَى بِهِ» ، فَخَشِيتُ أَنْ يَنْبُتُ شَيْءٌ مِنْ جَسَدِي مِنْ هَذِهِ اللَّقْمَةِ »^{٥٧٤}



^{٥٧٣} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٩ / ٥) (١٧٢٣) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ» يُرِيدُ: لَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْفِعْلِ وَالْعَمَلِ، وَهَذِهِ لَفْظَةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ لِأَهْلِ الْحِجَازِ وَقَوْلُهُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ» يُرِيدُ بِهِ جَنَّةَ دُونَ جَنَّةٍ، لِأَنَّهَا جَنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدُ الزَّوْنِ، وَلَا يَدْخُلُ الْعَاقُ الْجَنَّةَ، وَلَا مَتَانٌ» يُرِيدُ جَنَّةَ دُونَ جَنَّةٍ، وَهَذَا بَابُ طَوِيلٍ سَنَذْكُرُهُ فِيمَا بَعْدُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ إِنْ قَضَى اللَّهُ ذَلِكَ وَشَاءَ

^{٥٧٤} - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١ / ٣١) صحيح

سَقَى كَلْبًا فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مَثَلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^{٥٧٥}

الغريب :

بَيْنَا: بَيْنَمَا.

يَلْهَثُ: لَهَثَ الْكَلْبُ: أَخْرَجَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ.

الثَّرَى: الْأَرْضُ التَّدِيَّةُ.

خُفَّهُ: السَّخْفُ: مَا يُلبَسُ فِي الرَّجُلِ مِنْ جِلْدٍ رَقِيقٍ.

ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ: أَيُّ أَمْسَكَ أَحَدُ خُفَّيْهِ الَّذِي فِيهِ الْمَاءُ بِفَمِهِ، وَإِنَّمَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يُعَالِجُ بِيَدَيْهِ لِيَصْعَدَ مِنَ الْبِئْرِ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصُّعُودَ مِنْهَا كَانَ عَسِرًا .

رَقِيَ: صَعِدَ.

وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا: أَيُّ فِي سَقَى الْبَهَائِمِ أَوْ الْإِحْسَانِ إِلَى الْبَهَائِمِ .

فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ: أَيُّ كُلِّ كَبِدٍ حَيَّةٌ ، وَالْمُرَادُ رُطُوبَةُ الْحَيَاةِ ، أَوْ لِأَنَّ الرُّطُوبَةَ لَازِمَةٌ لِلْحَيَاةِ فَهُوَ كِتَابَةٌ ، أَيُّ الْأَجْرِ ثَابِتٌ فِي إِرْوَاءِ كُلِّ كَبِدٍ حَيَّةٍ .

قَالَ الدَّوْدِيُّ : الْمَعْنَى: فِي كُلِّ كَبِدٍ حَيٍّ أَجْرٌ ، وَهُوَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانَ .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: إِنَّ عُمُومَهُ مَخْصُوصٌ بِالْحَيَوَانَ الْمُحْتَرَمِ — وَهُوَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهِ — فَيَحْصُلُ الثَّوَابُ بِسَقْيِهِ ، وَيَلْتَحِقُ بِهِ إِطْعَامُهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ .

وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ: لَا يَمْتَنِعُ إِجْرَاؤُهُ عَلَى عُمُومِهِ ، يَعْنِي: فَيُسَقَى ثُمَّ يُقْتَلُ لِأَنَّا أَمَرْنَا بِأَنْ نُحْسِنَ الْقِتْلَةَ وَنُهَيِّنَا عَنْ الْمِثْلَةِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: غُفِرَ لِمَرْأَةٍ مُؤْمِسَةٍ، مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْتَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ^{٥٧٦}

^{٥٧٥} -صحيح البخاري (٣/ ١١١) (٢٣٦٣)

^{٥٧٦} -صحيح البخاري (٤/ ١٣٠) (٣٣٢١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بَيْتَهُ، قَدْ أَذْلَعَ لِسَانَهُ مِنْ الْعَطَشِ، فَزَعَتْ لَهُ بِمَوْقِفِهَا فَغَفِرَ لَهَا»^{٥٧٧}

الْبَغِي: الزَّانِيَةُ ، وَالْبَغَاءُ هُوَ الزِّنَا .

رَكِي: بَيْتُهُ.

يُطِيفُ بَيْتَهُ: يَدُورُ حَوْلَهَا.

أَذْلَعَ لِسَانَهُ: أَي أَخْرَجَهُ لِشِدَّةِ الْعَطَشِ .

الْمُوقُ: الْخُفُّ: وَهُوَ مَا يُلبَسُ فِي الرَّجْلِ مِنْ جِلْدٍ رَقِيقٍ.

زَعَتْ لَهُ بِمَوْقِفِهَا: أَي أَخْرَجَتْ لَهُ الْمَاءَ بِخُفِّهَا مِنَ الْبَيْتِ.

المعنى العام :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: (بَيْنَمَا) - بَيْنَمَا، وَفِي رِوَايَةٍ بِدُونِهَا - (رَجُلٌ) قَالَ الْحَافِظُ: لَمْ يُسَمَّ (يَمْشِي بِطَرِيقٍ) ، وَلِلدَّارِ قُطْنِي فِي الْمَوْطَاتِ مِنْ طَرِيقِ رَوْحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ مَالِكٍ: " يَمْشِي بِفَلَاةٍ "، وَلَهُ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ: " يَمْشِي بِطَرِيقِ مَكَّةَ "، (إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بَيْتًا فَتَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ) مِنْهَا، (وَأَخْرَجَ) مِنَ الْبَيْتِ، وَفِي رِوَايَةٍ: " ثُمَّ خَرَجَ "، (فَإِذَا كَلَبَ) ، وَفِي رِوَايَةٍ: " فَإِذَا هُوَ بِكَلَبٍ "، (يَلْهَثُ) - بَفَتْحِ الْهَاءِ، وَمُثَلَّثَةً - أَي يَرْتَفِعُ نَفْسُهُ بَيْنَ أَضْلَاعِهِ، أَوْ يُخْرِجُ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ حَالَ كَوْنِهِ (يَأْكُلُ الثَّرَى) - بَفَتْحِ الْمُثَلَّثَةِ، وَالْقَصْرِ - الثَّرَابَ النَّدِيَّ (مِنَ الْعَطَشِ) ، وَيَجُوزُ أَنْ " يَأْكُلُ " خَبَرُ ثَانٍ، (فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلَبُ) - بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ - (مِنَ الْعَطَشِ) الشَّدِيدِ الَّذِي أَصَابَهُ (مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ مِنِّي) ، وَفِي رِوَايَةٍ " بِي "، وَزَادَ ابْنُ حِبَّانَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ أَبِي صَالِحٍ: " فَرَحِمُهُ "، وَ " مِثْلُ " ضَبَطَهُ الْحَافِظُ وَغَيْرُهُ بِالنَّصْبِ نَعْتًا لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَي بَلَغَ مَبْلَغًا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ مِنِّي، قَالَ فِي الْمَصَابِيحِ: وَلَا يَتَعَيَّنُ لِحَوَازِ أَنْ الْمَحْذُوفَ مَفْعُولٌ بِهِ، أَي عَطَشًا، وَضَبَطَهُ الْحَافِظُ الدِّمِيَّاطِيُّ وَغَيْرُهُ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ يَبْلُغُ، فَهُمَا رِوَايَتَانِ، (فَتَنَزَلَ الْبَيْتَ فَمَلَأَ خُفَّهُ) مَاءً، (ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ) لِيَصْعَدَ مِنَ الْبَيْتِ لِعُسْرِ الرُّقِيِّ مِنْهَا، (حَتَّى رَقِيَ) - بَفَتْحِ الرَّاءِ، وَكَسْرِ الْقَافِ - كَصَعْدِ وَزْنًا وَمَعْنَى، وَمُقْتَضَى كَلَامِ ابْنِ التَّيْنِ أَنَّ الرُّوَايَةَ رَفَى بِفَتْحِ الْقَافِ، فَإِنَّهُ قَالَ: كَذَا وَقَعَ، وَصَوَابُهُ: رَفَى عَلَى وَزْنِ عِلْمٍ، وَمَعْنَاهُ: صَعِدَ، قَالَ تَعَالَى: {أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ} [الإسراء: ٩٣] (سورة الإسراء: الآية ٩٣) ، وَأَمَّا رَفَى بِفَتْحِ الْقَافِ، فَمِنَ الرُّقْيَةِ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ، وَخَرَجَهُ عَلَى لُغَةٍ طَيِّبَةٍ فِي مِثْلِ: بَقِيَ يَبْقَى وَرَضَى يَرْضَى يَأْتُونَ بِالْفَتْحَةِ مَكَانَ الْكُسْرَةِ، فَتَقَلَّبَ الْيَاءُ أَلْفًا، وَهَذَا دَأْبُهُمْ فِي كُلِّ مَا هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، انْتَهَى.

قَالَ فِي الْمَصَابِيحِ: وَلَعَلَّ الْمُقْتَضِيَ لِإِثَارِ الْفَتْحِ هُنَا - إِنَّ صَحَّ - قَصْدُ الْمُرَاوَجَةِ بَيْنَ رَقَى وَسَقَى، وَهِيَ مِنْ مَقَاصِدِهِمُ الَّتِي يَعْتَمِدُونَ فِيهَا تَغْيِيرَ الْكَلِمَةِ عَنْ وَضْعِهَا الْأَصْلِيِّ.

(فَسَقَى الْكَلْبَ) ، زَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ: " حَتَّى أَرَوَاهُ " ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، أَيْ جَعَلَهُ رِيَانًا، (فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ) ، أَثْنَى عَلَيْهِ، أَوْ قَبَلَ عَمَلَهُ ذَلِكَ، أَوْ أَظْهَرَ مَا جَازَاهُ بِهِ عِنْدَ مَلَائِكَتِهِ.

(فَغَفَرَ لَهُ) ، الْفَاءُ لِلْسَّبَبِيَّةِ، أَيْ بِسَبَبِ قَبُولِهِ غَفَرَ لَهُ، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ دِينَارٍ بِذَلِكَ: " فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ " ،

(فَقَالُوا) : أَيْ الصَّحَابَةُ، وَسُمِّيَ مِنْهُمْ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ بْنِ جُعْشُمٍ عِنْدَ أَحْمَدَ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَابْنُ حِبَّانَ

(يَا رَسُولَ اللَّهِ) الْأَمْرُ كَمَا قُلْتَ، (وَإِنَّ لَنَا فِي) سَقَى (الْبَهَائِمِ) ، أَوْ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهَا (لَأَجْرًا) ثَوَابًا؟

(فَقَالَ) - ﷺ -: (فِي كُلِّ كَبِدٍ) - بَفَتْحِ الْكَافِ، وَكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ - وَيَجُوزُ سُكُونُهَا، وَكَسْرُ

الْكَافِ، وَسُكُونُ الْمُوَحَّدَةِ -: رَطْبَةٌ بِرُطُوبَةِ الْحَيَاةِ مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانَ، أَوْ لِأَنَّ الرُّطُوبَةَ لَازِمَةٌ لِلْحَيَاةِ

فَيَكُونُ كِتَابَةً عَنْهَا، أَوْ هُوَ مِنْ بَابِ وَصْفِ الشَّيْءِ بِاعْتِبَارِ مَا يُؤُولُ إِلَيْهِ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: فِي كُلِّ كَبِدٍ

حَرَّى لِمَنْ سَقَاهَا حَتَّى تَصِيرَ رَطْبَةً (أَجْرًا) بِالرَّفْعِ، مُبْتَدَأٌ قُدِّمَ خَبَرُهُ، أَيْ حَاصِلٌ وَكَانَتْ فِي إِرْوَاءِ كُلِّ

ذِي كَبِدٍ حَيَّةٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ " فِي " سَبَبِيَّةٌ كَقَوْلِكَ: فِي النَّفْسِ الدِّيَّةُ، قَالَ الدَّوْدِيُّ: الْمَعْنَى: فِي كُلِّ

كَبِدٍ حَيٍّ، وَهُوَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانَ، قَالَ الْأَبِيُّ: حَتَّى الْكَافِرُ، وَيَذُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيُطْعَمُونَ

الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: ٨] (سورة الإنسان: الآية ٨) ؛ لِأَنَّ الْأَسِيرَ إِنَّمَا

يَكُونُ فِي الْأَغْلَبِ كَافِرًا، انْتَهَى.

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الْمَلِكِ: هَذَا الْحَدِيثُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ أَمَرَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ، وَقَوْلُهُ:

فِي كُلِّ كَبِدٍ، مَخْصُوصٌ بِبَعْضِ الْبَهَائِمِ مِمَّا لَا ضَرَرَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ بِقَتْلِهِ كَالْخَنَزِيرِ لَا يَجُوزُ أَنْ

يَقْوَى لِيَزْدَادَ ضَرَرُهُ، وَكَذَا قَالَ النَّوَوِيُّ: عُمُومُهُ مَخْصُوصٌ بِالْحَيَوَانَ الْمُحْتَرَمِ، وَهُوَ مِمَّا لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهِ

فَيَحْصُلُ الثَّوَابُ بِسَقْيِهِ، وَيَلْتَحِقُ بِهِ إِطْعَامُهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْإِحْسَانِ.

وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ: لَا يَمْنَعُ إِجْرَاؤُهُ عَلَى عُمُومِهِ، يَعْنِي: فَيَسْقَى، ثُمَّ يَقْتُلُ لِأَنَّا أَمَرْنَا بِأَنْ نُحْسِنَ الْقِتْلَةَ،

وَنُهَيْنَا عَنِ الْمُثْلَةِ، وَفِيهِ جَوَازُ حَفْرِ الْبَارِ فِي الصَّحَرَاءِ لِنُتْفَاعٍ عَطِشَانَ وَغَيْرِهِ بِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ سَاغَ مَعَ مَطْنَةِ الْاسْتِضْرَارِ بِهَا مِنْ سَاقِطِ بَلِيلٍ، أَوْ وَقُوعِ بَهِيمَةٍ، وَنَحْوِهَا فِيهَا؟ أُجِيبَ

بِأَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْمَنْفَعَةُ أَكْثَرَ وَمُتَحَقِّقَةً، وَالْاسْتِضْرَارُ نَادِرًا، أَوْ مَطْنُونًا غَلَبَ النُّتْفَاعُ، وَسَقَطَ الضَّمَانُ،

فَكَانَتْ جُبَارًا، فَلَوْ تَحَقَّقَتِ الضَّرُورَةُ لَمْ يَجْزُ، وَضَمِنَ الْحَافِرُ، وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْإِحْسَانِ وَأَنَّ سَقَى

الْمَاءِ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرْبَاتِ.

وَأَخْرَجَهُ الْبَحَارِيُّ فِي الشُّرْبِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ، وَفِي الْمَظَالِمِ عَنِ الْقَعْنَبِيِّ، وَفِي الْأَدَبِ عَنْ إِسْمَاعِيلَ، وَمُسْلِمٍ فِي الْحَيَوَانِ عَنْ قُتَيْبَةَ بْنِ سَعِيدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْجِهَادِ عَنِ الْقَعْنَبِيِّ، كُلُّهُمْ عَنْ مَالِكٍ بِهِ.^{٥٧٨}

يقص علينا رسول الله ﷺ قصة رجل مؤمن كان يمشي بطريق أو بادية فعطش عطشا شديدا فترل بئرا شرب منها حتى روي، ثم خرج منها فإذا به يجد كلبا قد أخرج لسانه من شدة الظما يلحس به الأرض الندية لعل في رطوبتها ما يقلل من حرارة العطش.

فقال في نفسه أو بلسانه: لقد بلغ هذا الحيوان الدرجة التي بلغتها في العطش، وآله منه ما آلمني، فترل إلى البئر ثانية وملاً خفه بالماء، وأمسكه بضمه لتخلص له يداه ويمسك بهما في جدارن البئر عند الصعود ثم صعد فسقى الكلب من خفه.

فشكر الله هذا الصنيع. وما شكره إلا عفوه عن ذنوبه السالفة. بل من شكره المنّ بنعمه على المحسنين من عباده.

فسأل الحاضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لنا في البهائم إذا دفعنا عنها الأذى. وأحسنّا إليها أجر وثواب؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «في كل كبد رطبة أجر»، وهذه الجملة تعم كل حيوان من كلب أو قط أو جمل أو بقرة أو شاة... إلخ، وتشمل دفع أنواع الأذى عنه من عطش، أو جوع أو مرض أو حر، أو برد، أو حمل ثقيل، أو عمل شديد، أو غير ذلك مما يتأذى به الحيوان، وتشمل إيصال ضروب النفع له من تقديم الطعام والشراب والسكن له وإزالة الدرن عن جسمه. بل الكبد الرطبة تشمل الإنسان والحيوان. فكل عمل عمله تزيل به ضرا. أو تجلب به نفعا لإنسان أو حيوان لك أجر فيه.

ولا تستكثر الشكر من الله والمغفرة لهذا الذي أنقذ الكلب من ظمئه. فإنه نزل البئر له خاصة ليسقيه. وملاً خفه بالماء. وذلك مما يضر بجلده. وأمسكه بضمه وذلك مما يعافه المتكبرون. وعانى ما عانى من التزول والصعود مثل ما عانى لنفسه. كل ذلك تجشمه في سبيل رأفته بالحيوان الظمان. وهل ترى نفسا تبلغ منها الرحمة بالحيوان هذا المبلغ لا تكون رحمتها بالناس أشد؟ إن هذا العمل ليدل على شعور راق. ورحمة فياضة. سكنت تلك النفس العالية. فكانت لا ريب خليقة بهذا الجزاء. والراحمون يرحمهم الرحمن، ولعلك عرفت من هذا الحديث تربية الشدائد للنفوس. وأنها تدعوها للخير. وتلفتها إلى مثل ما حل بها. فتعمل على دفعه كما عملت لنفسه. ومن ذاق الآلام المريرة شعر بالام الناس. وتلك حكمة من حكم الصيام أنه يزكي في الناس الشعور بحال البائسين فيمدون أيديهم بالإحسان إليهم.

^{٥٧٨} - شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٤٨٢)

فالحديث يحث على الرأفة بالحيوان ودفع الضر عنه. ويجذب النصب في سبيله ويعظم الأجر على ذلك. وهذا الحديث أصل في إنشاء جمعيات الرفق بالحيوان. ويشكر للذين يقيمون حياضا في الطرق ليشرب منها الحيوان.^{٥٧٩}

العبرة من القصتين :

- ١- عَظُمَ أَجْرُ مَنْ أَحْسَنَ إِلَى الْحَيَوَانِ.
- ٢- الْحَثُّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا حَصَلَتْ الْمَغْفِرَةُ بِسَبَبِ سَقْيِ الْكَلْبِ فَسَقْيِ الْمُسْلِمِ أَعْظَمُ أَجْرًا.
- ٣- عَظُمَ فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَسِعَةَ رَحْمَتِهِ ؛ فَهُوَ يُعْطِي الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ.
- ٤- فِي هَذَا الْحَدِيثِ: فَضْلُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْحَيَوَانِ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ.^{٥٨٠}
- ٥- الْبَلَاغَةُ النَّبَوِيَّةُ

فهذا ونحوه من الفن البديع النادر، وهو مع ذلك لا يأتي في كلامه - ﷺ - إلا في مثل ما رأيت، فلا يراد منه استجلاب العبارة، ولا صناعة الخيال، فيظن من لا يميز ولا يحقق أن خلو البلاغة النبوية من فن وصف الطبيعة والجمال والحب، دليل على ما ينكره أو يستجفيه، ويقول: بداوة وسذاجة ونحو ذلك مما تشبهه الغفلة على جهلة المستشرقين ومن في حكمهم من ضعاف أدبائنا وجهلة كتابنا، وإنما انتفى ذلك عن النبي - ﷺ -؛ لانتفاء الشعر عنه، وكونه لا ينبغي له كما بسطناه في موضعه ؛ فعمله أن يهدي الإنسانية لا أن يزين لها، وأن يدلها على ما يجب في العمل لا ما يحسن في صناعة الكلام، وأن يهديها إلى ما تفعله لتسمو به لا إلى ما تتخيله لتلهو به. والخيال هو الشيء الحقيقي عند النفس في ساعة الانفعال والتأثر به فقط، ومعنى هذا أنه لا يكون أبداً حقيقة ثابتة، فلا يكون إلا كذباً على الحقيقة.

ثم هو - ﷺ - ليس كغيره من بلغاء الناس: يتصل بالطبيعة ليستملي منها؛ بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها الأزلي ليملي فيها، وقد كانت آخر ابتسامته له في الدنيا ابتسامته للصلاة ، يتهلل لطهارة النفس المؤمنة وجمالها قائمة بين يدي خالقها، منسكباً في طهارتها روح النور، وكل إنسان إنما يبدو الكون في عينه على ما يرى مما يشبه ما في نفسه، فكل ما رآه المصلي الخاشع في صلاته يبدو له كأنه يصلي في ضرب من العبادة على نحو من الدين، وكل ما رآه السكران في سكره يكاد يراه متخبطاً يعربد ما يتماسك!^{٥٨١}

^{٥٧٩} - الأدب النبوي (ص: ٤١)

^{٥٨٠} - تطريز رياض الصالحين (ص: ١٠٧)

^{٥٨١} - السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية (ص: ٧٢)

فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَى الْبَهَائِمِ وَالْحَيَوَانَ لَا يَجُوزُ وَلَا يَحِلُّ وَأَنَّ فَاعِلَهَا يَأْتِمُ فِيهَا لِأَنَّ النَّصَّ إِذَا وَرَدَ بَأَنَّ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ أَجْرًا وَحَسَنَاتٍ قَامَ الدَّلِيلُ بَأَنَّ فِي الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِنَّ وَزْرًا وَذُنُوبًا وَاللَّهُ يَعْصِمُ مَنْ يَشَاءُ وَهَذَا مَا لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَدْفَعٌ لَهُ وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هَرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَطْلَقَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ فَعُذِّبَتْ فِي ذَلِكَ فَهَذَا يُبَيِّنُ لَكَ مَا قُلْنَا وَهُوَ أَمْرٌ لَا تَنَازُعَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِيهِ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ نَفَقَاتِ الْبَهَائِمِ الْمَمْلُوكَةِ عَلَى مَالِكِيهَا وَهَذَا مَا لَا خِلَافَ فِيهِ أَيْضًا وَلَا فِي الْقَضَاءِ بِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ٥٨٢

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى الْحَيَوَانَ الْمُحْتَرَمِ وَهُوَ مَا لَا يُؤْمَرُ بِقَتْلِهِ فَأَمَّا الْمَأْمُورُ بِقَتْلِهِ فَيُمْتَلُ أَمْرُ الشَّرْعِ فِي قَتْلِهِ وَالْمَأْمُورُ بِقَتْلِهِ كَالْكَافِرِ الْحَرْبِيِّ وَالْمُرْتَدِّ وَالْكَلْبِ الْعَقُورِ وَالْفَوَاسِقِ الْخَمْسِ الْمَذْكُورَاتِ فِي الْحَدِيثِ وَمَا فِي مَعْنَاهُنَّ وَأَمَّا الْمُحْتَرَمُ فَيَحْصُلُ الثَّوَابُ بِسَقْيِهِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِ أَيْضًا بِإِطْعَامِهِ وَغَيْرِهِ سَوَاءٌ كَانَ مَمْلُوكًا أَوْ مُبَاحًا وَسَوَاءٌ كَانَ مَمْلُوكًا لَهُ أَوْ لغيرِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ٥٨٣

فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْحُضُّ عَلَى اسْتِعْمَالِ الرَّحْمَةِ لِلخَلْقِ كُلِّهِمْ كَافِرِهِمْ وَمُؤْمِنِهِمْ وَلِجَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَالرَّفَقِ بِهَا. وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَغْفِرُ اللَّهُ بِهِ الذُّنُوبَ وَيَكْفِرُ بِهِ الْخَطَايَا، فَيَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤْمِنٍ عَاقِلٍ أَنْ يَرْغِبَ فِي الْأَخْذِ بِحُظِهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَيَسْتَعْمِلَهَا فِي أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَفِي كُلِّ حَيَوَانٍ، فَلَمْ يَخْلُقْهُ اللَّهُ عَبَثًا، وَكُلُّ أَحَدٍ مُسْتَوِلٍ عَمَّا اسْتَرْعِيهِ وَمُلْكُهُ مِنْ إِنْسَانٍ أَوْ بَهِيمَةٍ لَا تَقْدِرُ عَلَى النُّطْقِ وَتَبْيِينِ مَا بِهَا مِنَ الضَّرَرِ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَرْحَمَ كُلُّ بَهِيمَةٍ وَإِنْ كَانَتْ فِي غَيْرِ مُلْكِهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الَّذِي سَقَى الْكَلْبَ الَّذِي وَجَدَهُ بِالْفَلَاةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُلْكًا فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ بِتَكْلِيفِ التَّزْوَلِ فَيَالْبُئْرَ وَإِخْرَاجِهِ الْمَاءَ فِي خَفِهِ وَسَقْيِهِ إِيَّاهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا فِي مَعْنَى السَّقْيِ مِنَ الْإِطْعَامِ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ). مِمَّا يَدْخُلُ فِي مَعْنَى سَقْيِ الْبَهَائِمِ وَإِطْعَامِهَا التَّخْفِيفُ عَنْهَا فِي أَحْمَالِهَا وَتَكْلِيفُهَا مَا تَطِيقُ حَمْلَهُ، فَذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهَا وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا، وَمِنْ ذَلِكَ تَرْكُ التَّعْدِي فِي ضَرْبِهَا وَأَذَاهَا وَتَسْخِيرُهَا فِي اللَّيْلِ وَفِي غَيْرِ أَوْقَاتِ السَّخَرَةِ، وَقَدْ نَهَيْتُ فِي الْعَبِيدِ أَنْ نَكْلِفَهُمُ الْخِدْمَةَ فِي اللَّيْلِ فَإِنْ لَهُمْ اللَّيْلُ وَلَوْ أَلَيْهِمُ النَّهَارُ، وَالْوَابُ وَجَمِيعُ الْبَهَائِمِ دَاخِلُونَ فِي هَذَا الْمَعْنَى. ٥٨٤

بَيَّانُ اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ الْأَوَّلِ فِيهِ الْإِحْسَانُ إِلَى كُلِّ حَيَوَانٍ بِسَقْيِهِ أَوْ نَحْوِهِ، وَهَذَا فِي الْحَيَوَانَ الْمُحْتَرَمِ، وَهُوَ مَا لَا يُؤْمَرُ بِقَتْلِهِ وَلَا يُنَاقِضُ، هَذَا مَا أَمَرْنَا بِقَتْلِهِ أَوْ أُبِيحَ قَتْلُهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا شَرَعَ لِمَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَمَرْنَا بِالْإِحْسَانِ الْقَتْلَةِ. الثَّانِي: فِيهِ حُرْمَةُ الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ، وَإِثْمُ فَاعِلِهِ، فَإِنَّهُ ضَدُّ الْإِحْسَانِ الْمُؤَجَّرِ عَلَيْهِ، وَقَدْ دَخَلَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ النَّارَ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ. الثَّلَاثُ: قَالَ

٥٨٢ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٢ / ٨)

٥٨٣ - شرح النووي على مسلم (١٤ / ٢٤١)

٥٨٤ - شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩ / ٢١٩)

بعض المالكية: أراد البخاري بإيراد هذا الحديث طهارة سُور الكلب، لأن الرجل ملاً خفه وسقاه به، ولا شك أن سُوره بقي فيه. وأجيب: بانه ليس فيه أن الكلب شرب الماء من الخُف، إذ قد يجوز أن يكون غرفه به ثم صب في مكان غيره، أو يمكن أن يكون غسل خفه إن كان سقاه فيه، وعلى تقدير: أن يكون سقاه فيه لا يلزمنا هذا، لأن هذا كان في شريعة غيرنا على ما رواه النسائي عن أبي هريرة. وقال الكرماني: أقول فيه دغدغة، إذ لا يعلم منه أنه كان في زمن بعثة رسول الله ﷺ أو كان قبلها أو كان بعدها قبل ثبوت حكم سُور الكلاب، أو أنه لم يلبس بعد ذلك، أو غسله. قلت: لا حاجة إلى هذا التردد، فإنه روي عن أبي هريرة أنه: كان في شريعة غيرنا، على ما ذكرنا. الرابع: يفهم منه وجوب نفقة البهائم المملوكة على ماليتها بالإجماع.^{٥٨٥}

وقال الداودي: هذا عام في جميع الحيوانات. وقال أبو عبد الملك: هذا الحديث كان في بني إسرائيل، وأما الإسلام فقد أمر بقتل الكلاب فيه. وأما قوله: (في كل كبد)، فمخصوص ببعض البهائم مما لا ضرر فيه لأن المأمور بقتله كالحزير لا يجوز أن يقوى ليزداد ضرره، وكذا قال النووي: إن عموم مخصص بالحيوان المحترم، وهو ما لم يؤمر بقتله فيحصل الثواب بسقيه، ويلتحق به إطعامه وغير ذلك من وجوه الإحسان إليه. قلت: القلب الذي فيه الشفقة والرحمة ينجح إلى قول الداودي، وفي القلب من قول أبي عبد الملك حازاة، ويتوجه الرد على كلامه من وجوه: الأول: قوله: كان في بني إسرائيل، لا دليل عليه، فما المانع أن أحدا من هذه الأمة قد فعل هذا، وكوشف للنبي ﷺ بذلك وأخبره بذلك حثاً لأمته على فعل ذلك، وصدور هذا الفعل من أحد من أمته يجوز أن يكون في زمنه، ويجوز أن يكون بعده، بأن يفعل أحد هذا. وأعلم النبي ﷺ بذلك أنه سيكون كذا وأخبره بذلك في صورة الكائن، لأن الذي يُخبره عن المستقبل كالواقع لأنه مخبر صادق، وكل ما يُخبره من المغيبات الآتية كائن لا محالة. والثاني: قوله: وأما الإسلام، فقد أمر بقتل الكلاب لا يقوم به دليل على مدعاه، لأن أمره ﷺ بقتل الكلاب في أول الإسلام، ثم نسخ ذلك بإباحة الانتفاع بها للصيّد وللماشية والزرع، ولا شك أن الإباحة بعد التحريم نسخ لذلك التحريم، ورفع لحكمه. والثالث: دعوى الخصوص تحكم ولا دليل عليه، لأن تخصيص العام بلا دليل إلغاء لحكمه الذي تناوله، فلا يجوز، والعجب من النووي أيضا أنه ادعى عموم الحديث المذكور للحيوان المحترم، وهو أيضا لا دليل عليه، وأصل الحديث مبني على إظهار الشفقة لمخلوقات الله تعالى من الحيوانات، وإظهار الشفقة لا يُنافي إباحة قتل المؤذي من الحيوانات، ويفعل في هذا ما قاله ابن التيمي: لا يمتنع إجراؤه على عموم، يعني: فيسقي ثم يقتل، لأننا أمرنا بأن نحسن القتل ونهينا عن المثلة، فعلى قول مدعي الخصوص: الكافر الحربي والمُرْتَد الذي استمر على ارتداده إذا قدما للقتل، وكان العطش قد غلب

عَلَيْهِمَا، يَنْبَغِي أَنْ يَأْتَمَّ مِنْ يَسْقِيهِمَا لِأَنَّهُمَا غَيْرَ مُحْتَرَمِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَا يَمِيلُ قَلْبُ شَفُوقٍ فِيهِ رَحْمَةً إِلَى مَنَعِ السَّقْيِ عَنْهُمَا، يَسْقِيَانِ ثُمَّ يَقْتُلَانِ.

ذَكَرَ مَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ: قَالَ بَعْضُهُمْ: فِيهِ: جَوَازُ السَّفَرِ مُتَّفَرِّدًا وَبِغَيْرِ زَادٍ. قُلْتُ: قَدْ وَرَدَ النَّهْيُ عَنْ سَفَرِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ، وَالْحَدِيثُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَجُلًا كَانَ مُسَافِرًا، لِأَنَّهُ قَالَ: (بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي)، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَاشِيًا فِي أَطْرَافِ مَدِينَةٍ أَوْ عِمَارَةٍ، أَوْ كَانَ مَاشِيًا فِي مَوْضِعٍ فِي مَدِينَتِهِ. وَكَانَ خَالِيًا مِنَ السَّكَّانِ. فَإِنْ قُلْتُ: قَدْ مَضَى فِي أَوَائِلِ الْبَابِ أَنَّ فِي رِوَايَةِ الدَّارَقُطْنِيِّ: يَمْشِي بِفَلَاةٍ، وَفِي رِوَايَةِ أُخْرَى: يَمْشِي بِطَرِيقِ مَكَّةَ؟ قُلْتُ: لَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ الْمَذْكُورُ مُسَافِرًا، وَلَكِنْ سَلِمْنَا أَنَّهُ كَانَ مُسَافِرًا لَكِنْ يَحْتَمَلُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ قَوْمٍ فَأَنْقَطَعَ مِنْهُمْ فِي الْفَلَاةِ لَضَرُورَةٍ عَرَضَتْ لَهُ، فَجَرَى لَهُ مَا جَرَى فَلَا يَفْهَمُ مِنْهُ جَوَازُ السَّفَرِ وَحْدَهُ فَأَفْهَمَ. وَأَمَّا السَّفَرُ بِغَيْرِ زَادٍ، فَإِنْ كَانَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ الزَّادُ فِي طَرِيقِهِ فَلَا بَأْسَ، وَإِنْ كَانَ يَتَحَقَّقُ عَدَمُهُ فَلَا يَجُوزُ لَهُ بِغَيْرِ الزَّادِ. وَفِيهِ: الْحَثُّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ، لِأَنَّهُ إِذَا حَصَلَتِ الْمَغْفِرَةُ بِسَبَبِ سَقْيِ الْكَلْبِ، فَسَقَى بَنِي آدَمَ أَكْثَرَ أَجْرًا. وَفِيهِ: أَنَّ سَقْيَ الْمَاءِ مِنْ أَكْثَرِ الْقُرْبَاتِ. قَالَ بَعْضُ التَّابِعِينَ: مَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ فَعَلَيْهِ بِسَقْيِ الْمَاءِ، فَإِذَا غُفِرَتْ ذُنُوبُ الَّذِي سَقَى كَلْبًا فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ سَقَى مُؤْمِنًا مُوَحَّدًا وَأَحْيَاهُ بِذَلِكَ؟ وَقَالَ ابْنُ السَّيْنِ: وَرُويَ عَنْهُ مَرْفُوعًا: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ فِي السِّيَاقِ، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ: أَرَى مَلَكَيْنِ يَتَأَخَّرَانِ وَأَسْوَدَيْنِ يَدْنَوَانِ، وَأَرَى الشَّرَّ يَنِمُّ وَالْخَيْرَ يَضْمَحِلُّ، فَأَعْنِي مِنْكَ بِدَعْوَةِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَشْكُرُ لَكَ الْيَسِيرَ، وَاعْفُ عَنْهُ الْكَثِيرَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ: أَرَى مَلَكَيْنِ يَدْنَوَانِ وَالْأَسْوَدَيْنِ يَتَأَخَّرَانِ، وَأَرَى الْخَيْرَ يَنِمُّ وَالشَّرَّ يَضْمَحِلُّ. قَالَ: فَمَا وَجَدْتَ أَفْضَلَ عَمَلِكَ؟ قَالَ: سَقَى الْمَاءِ. وَفِي حَدِيثٍ سُئِلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: سَقَى الْمَاءِ. وَفِيهِ: مَا احْتَجَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ الصَّدَقَةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِعُمُومِ قَوْلِهِ: أَجْرُ. وَفِيهِ: أَنَّ الْجَازَاةَ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ قَدْ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَنْسِ الْأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ عَذَبَ بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَحَلُّهُ، مَا إِذَا لَمْ يُوجَدْ هُنَاكَ مُسْلِمٌ، فَالْمُسْلِمُ أَحَقُّ. قُلْتُ: هَذَا قِيدٌ لَا يَعْتَبَرُ بِهِ، بَلْ تَجُوزُ الصَّدَقَةُ عَلَى الْكَافِرِ، سَوَاءً يُوجَدْ هُنَاكَ مُسْلِمٌ أَوْ لَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَيْضًا: وَكَذَا إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ الْبَهِيمَةِ وَالْآدَمِيِّ الْمُحْتَرَمِ وَاسْتَوِيََا فِي الْحَاجَةِ، فَالْآدَمِيُّ أَحَقُّ. قُلْتُ: إِنَّمَا يَكُونُ أَحَقُّ فِيمَا إِذَا قَسَمَ بَيْنَهُمَا، يَخَافُ عَلَى الْمُسْلِمِ مِنَ الْهَلَاكِ، أَوْ إِذَا أَخَذَ جُزْءًا لِلْبَهِيمَةِ يَخَافُ عَلَى الْمُسْلِمِ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يُوجَدْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا يَنْبَغِي أَنْ لَا تَحْرَمَ الْبَهِيمَةُ أَيْضًا، لِأَنَّهَا ذَاتُ كَبِدٍ رَطْبَةٍ. ^{٥٨٦}

قوله: رطبة، أي برطوبة الحياة يعني في الإحسان إلى كل ما له حياة أجر، قيل: هذا في بني إسرائيل، أما في الإسلام فهو مخصص بما لم يؤمر بقتله وإهلاكه كالكلب والخنزير، وردّ بأنه لا حاجة إليه فإن الأمر بالقتل لا يستلزم أن لا يكون في الإحسان إليه أجراً.^{٥٨٧}

وقد استدل بعض المالكية للقول بطهارة الكلب بإيراد المؤلف هذا الحديث في هذه الترجمة من كون الرجل سقى الكلب في حفّه، واستباح لبسه في الصلاة دون غسله إذ لم يذكر الغسل في الحديث، وأجيب باحتمال أن يكون صب في شيء فسقاه أو لم يلبسه، ولئن سلمنا سقيه فيه فلا يلزمنا لأنه وإن كان شرع غيرنا فهو منسوخ في شرعنا.^{٥٨٨}

وفي هذا الحديث الحثّ على الإحسان وأن الماء من أعظم القربات، وعن بعض الصالحين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء..^{٥٨٩}

وفي الحديث جواز حفر الآبار في الصحراء لانتفاع عطشان وغيره بها. فإن قلت: كيف ساغ مع مظنة الاستضرار بها بساقط لبيل أو وقوع بهيمة أو نحوها فيها؟ أجيب: بأنه لما كانت المنفعة أكثر ومتحققة والاستضرار نادراً ومظنوناً غلب الانتفاع وسقط الضمان فكانت جباراً فلو تحققت المضرة لم يجوز وضمن الحافر.^{٥٩٠}

غَايَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَى الْحَيَوَانَ الْمَمْلُوكِ أَوْلَى مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَى غَيْرِهِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ مُصَرِّحَةٌ بِأَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَى غَيْرِ الْمَمْلُوكِ مُوجِبٌ لِلْأَجْرِ وَفَحْوَى الْخَطَابِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَمْلُوكَ أَوْلَى بِالْإِحْسَانِ لِكَوْنِهِ مَحْبُوسًا عَنْ مَنَافِعِ نَفْسِهِ بِمَنَافِعِ مَالِكِهِ، وَأَمَّا أَنَّ الْمُحْسِنَ إِلَيْهِ أَوْلَى بِالْأَجْرِ مِنَ الْمُحْسِنِ إِلَى غَيْرِ الْمَمْلُوكِ فَلَا، فَأَوْلَى مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى وَجُوبِ إِنْفَاقِ الْحَيَوَانَ الْمَمْلُوكِ حَدِيثُ الْهَرَّةِ، لِأَنَّ السَّبَبَ فِي دُخُولِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ النَّارِ لَيْسَ مُجَرَّدُ ذَلِكَ الْإِنْفَاقِ، بَلْ مَجْمُوعُ التَّرْكِ وَالْحَبْسِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ ثَابِتًا فِي مِثْلِ الْهَرَّةِ، فَثُبُوتُهُ فِي مِثْلِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تُمْلِكُ أَوْلَى لِأَنَّهَا مَمْلُوكَةٌ مَحْبُوسَةٌ مَشْغُولَةٌ بِمَصَالِحِ الْمَالِكِ. وَقَدْ ذَهَبَتِ الْعَتَرَةُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ إِلَى أَنَّ مَالِكَ الْبَهِيمَةِ إِذَا تَمَرَّدَ عَنْ عَافِيَتِهَا أَوْ بَيْعَهَا أَوْ تَسْيِيهَا أُجْبِرَ كَمَا يُجْبَرُ مَالِكُ الْعَبْدِ بِجَامِعِ كَوْنِ كُلِّ مِنْهُمَا مَمْلُوكًا ذَا كَبَدٍ رَطْبَةٍ، مَشْغُولًا بِمَصَالِحِ مَالِكِهِ مَحْبُوسًا عَنْ مَصَالِحِ نَفْسِهِ. وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ إِلَى أَنَّ مَالِكَ الدَّابَّةِ يُؤْمَرُ بِأَحَدِ تِلْكَ الْأُمُورِ اسْتِصْلَاحًا لَا حَتْمًا، قَالُوا: إِذَا لَا يَثْبُتُ لَهَا حَقٌّ وَلَا خُصُومَةٌ وَلَا يُنْصَبُ عَنْهَا فِيهَا كَالشَّجَرَةِ. وَأُجِيبَ بِأَنَّهَا ذَاتُ رُوحٍ مُحْتَرَمَةٍ فَيَجِبُ حِفْظُهَا كَالْأَدَمِيِّ، وَأَمَّا الشَّجَرُ فَلَا يُجْبَرُ عَلَى إِصْلَاحِهِ إِجْمَاعًا لِكَوْنِهِ لَيْسَ بِذِي رُوحٍ فَافْتَرَقَا، وَالتَّخْيِيرُ بَيْنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ

^{٥٨٧} - موطأ محمد بشرح اللكنوي (٢٤٠ / ٣)

^{٥٨٨} - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢٥٦ / ١)

^{٥٨٩} - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢٠٢ / ٤)

^{٥٩٠} - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢٦٩ / ٤)

إِنَّمَا هِيَ فِي الْحَيَوَانِ الَّذِي دَمُهُ مُحْتَرَمٌ، وَأَمَّا الْحَيَوَانُ الَّذِي يَحِلُّ أَكْلُهُ فَيُخَيَّرُ الْمَالِكُ بَيْنَ تِلْكَ الْأُمُورِ
الثَّلَاثَةِ أَوْ الذَّبْحِ.^{٥٩١}



^{٥٩١} - نيل الأوطار (٧ / ٨)

تَجَاوَزَ عَنِ النَّاسِ، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ

قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ رَجُلًا كَانَ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَتَاهُ الْمَلِكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ، قِيلَ لَهُ: انْظُرْ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أَبَايَعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَأُجَارِيهِمْ، فَأَنْظَرُ الْمُوسِرَ، وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ، فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ" ٥٩٢
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنْكَ، فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ" ٥٩٣

الغريب :

أُجَارِيهِمْ: التجاوز: المسامحة في الاقتضاء والاستيفاء، وقبول ما فيه نقص يسير. ٥٩٤

المعنى العام :

(وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَانَ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ") بِحَذْفِ صَدْرِ الصَّلَاةِ، وَفِي نُسخةٍ صَحِيحَةٍ: فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ عَلَى الْأَصْلِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ لَا تَكُونُ إِلَّا جُمْلَةً (" أَتَاهُ الْمَلِكُ ") : أَي: عِزْرَائِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَوْ بَعْضُ أَتْبَاعِهِ، وَجُمِعَ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّعَارُضُ فِي ذَلِكَ بِأَنَّ الْمُقَدَّمَاتِ قَدْ يَتَوَلَّاهَا هُوَ وَقَدْ يَتَوَلَّاهَا أَتْبَاعُهُ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ وَمَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَوْ الْعَذَابِ يَتَنَاولُونَهَا مِنْهُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ - تَعَالَى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} [السجدة: ١١] وَأَمَّا الْقَابِضُ الْحَقِيقِيُّ فَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمر: ٤٢] (" فَقِيلَ لَهُ ") : أَي قَالَهُ سُبْحَانَهُ أَوْ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ، وَمَا أَبْعَدَ مَنْ قَالَ: أَوْ بَعْضُ النَّاسِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ قَبْلَ قَبْضِ رُوحِهِ كَمَا يَفْتَضِيهِ أَوَّلُ الْحَدِيثِ، وَقَالَ الْمُظْهِرُ: هَذَا السُّؤَالُ مِنْهُ كَانَ فِي الْقَبْرِ. قَالَ الطَّبِيبُ - رَحِمَهُ اللَّهُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْقِيَامَةِ. (" هَلْ عَمِلْتَ مِنْ شَيْءٍ ") وَفِي نُسخةٍ بِتَقْدِيمِ اللَّامِ أَي: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ عَلِمْتَ بِهِ. (" قَالَ: مَا أَعْلَمُ. قِيلَ لَهُ: انْظُرْ ") : أَي: تَفَكَّرْ وَتَدَبَّرْ (" قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ ") : أَي قَبْلَ ذَلِكَ (" أَبَايَعُ النَّاسَ ") : أَي أَعَامِلُهُمْ (فِي الدُّنْيَا) : أَي فِي أُمُورِهَا (وَأُجَارِيهِمْ) : أَي أَحْسِنُ إِلَيْهِمْ حِينَ اتَّقَاضَاهُمْ (فَأَنْظَرُ الْمُوسِرَ) : مِنْ الْإِنْظَارِ، أَي أُمَهِّلُ الْعَنِيَّ (وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ) : أَي أَعْفُو عَنِ الْفَقِيرِ وَإِبْرَاءِ ذِمَّتِهِ عَنِ الدَّيْنِ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ (فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ) : قَالَ التَّوَوِيُّ

٥٩٢ - صحيح البخاري (٤/ ١٦٩) (٣٤٥١)

٥٩٣ - صحيح مسلم (٣/ ١١٩٦) ٣١ - (١٥٦٢)

٥٩٤ - جامع الأصول (١/ ٤٣٩) وجامع الأصول (١٠/ ٣٥٢)

- رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ فَضْلٌ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ وَالْوَضْعُ عَنْهُ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا، وَفَضْلُ الْمُسَامَحَةِ فِي الْإِقْتِضَاءِ مِنَ الْمُسْرِ، وَفِيهِ عَدَمُ احْتِقَارِ أَفْعَالِ الْخَيْرِ، فَلَعَلَّهُ يَكُونُ سَبَبًا لِلْسَّعَادَةِ وَالرَّحْمَةِ. (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) ^{٥٩٥}.

من عبر القصة:

١- سعة رحمة الله لأ فقد غفر الله له بهذا العمل على الرغم من قلته.

٢- فضل إنظار الموسر والتجاوز عن المعسر . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ، طَلَبَ غَرِيمًا لَهُ، فَتَوَارَى عَنْهُ ثُمَّ وَجَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي مُعْسِرٌ، فَقَالَ: اللَّهُ؟ قَالَ: اللَّهُ؟ قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيهُ اللَّهُ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيَنْفَسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعُ عَنْهُ» ^{٥٩٦}.

(فقال الله قال الله) الأول قسم سؤال أي أبالله؟ وباء القسم تضرع كثيرا مع الله قال الرضى وإذا حذف القسم الأصلي أعني الباء فالمختار النصب بفعل القسم ويختص لفظة الله بجواز الجر مع حذف الجار بلا عوض وقد يعوض عن الجار فيها همزة الاستفهام أو قطع همزة الله في الدرج

(كرب) جمع كربة وهي الغم الذي يأخذ بالنفس

(فلينفس) أي يمد ويؤخر المطالبة وقيل معناه يفرج عنه



^{٥٩٥} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٩٠٨ / ٥)

^{٥٩٦} - صحيح مسلم (١١٩٦ / ٣) - ٣٢ - (١٥٦٣)

أَخْرَغُصْنَ شَوْكَ عَنِ الطَّرِيقِ ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكَ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخْرَعَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»^{٥٩٧}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «غَفِرَ لِرَجُلٍ أَخَذَ غُصْنَ شَوْكَ عَنِ طَرِيقِ النَّاسِ ذَنْبُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَا تَأَخَّرَ».^{٥٩٨}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَأَنَّهُ تُؤْذِي النَّاسَ»^{٥٩٩}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُنَحِّينَ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ " ^{٦٠٠}

غريب الحديث :

قَوْلُهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ أَيُّ رَضِيَ بِفِعْلِهِ وَقَبِلَ مِنْهُ.

[ش (يتقلب في الجنة) أي يتنعم في الجنة بماذا بسبب قطعه الشجرة]

«لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ» () أَي: يَمْشِي وَيَتَبَخَّرُ أَي يَرْدُدُ وَيَتَنَعَّم " «فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ» " فِي تَعْلِيلِيَّةٍ أَي لَأَجْلِهَا وَيَسَبِّهَا " «كَأَنَّهُ تُؤْذِي النَّاسَ» " أَي يَتَأَذُّونَ بِهَا وَفِيهِ مُبَالَغَةٌ عَلَى قَتْلِ الْمُؤْذِي وَإِزَالَتِهِ بِأَيِّ وَجْهِ يَكُونُ.

المعنى :

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : «مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ» () أَي: ظَاهِرُهُ لَا فِي جَنْبِهِ " فَقَالَ: لَأُنَحِّينَ " بِتَشْدِيدِ الْحَاءِ أَي: لَأُبْعِدَنَّ " هَذَا عَنِ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ " بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ اسْتَنْافَ فِيهِ مَعْنَى التَّعْلِيلِ أَي: لِكَيْلَا يُؤْذِيَهُمْ " فَأَدْخَلَ " مَاضٍ مَجْهُولٌ " الْجَنَّةَ " بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ أَي: فَنَحَاهُ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ كَذَا قَدَرَهُ بَعْضُهُمْ، قَالَ الطَّبِيبُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : يُمَكِّنُ أَنْ إِدْخَالَ الْجَنَّةِ بِمُجَرَّدِ النَّيَّةِ الصَّالِحَةِ وَإِنْ لَمْ يُنَحِّهِ وَأَنْ يَكُونَ قَدْ نَحَاهُ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) . ^{٦٠١}

من عبر القصة:

^{٥٩٧} - صحيح البخاري (١/ ١٣٢) (٦٥٢) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٢١) (١٢٧) - (١٩١٤)

^{٥٩٨} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٩٧) (٥٣٩) حسن

^{٥٩٩} - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢١) (١٢٩) - (١٩١٤)

^{٦٠٠} - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢١) (١٢٨) - (١٩١٤)

^{٦٠١} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٤٠)

١ - يه فضيلة إمطة الأذى عن الطريق وهو كل مؤذ وهذه الإمطة أدنى شعب الإيمان كما سبق في الحديث ٦٠٢ أنها أدنى شعب الإيمان ٦٠٣.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس» ٦٠٤.

[ش (يتقلب في الجنة) أي يتنعم في الجنة بملاذها بسبب قطعه الشجرة]

٢ - قال أبو عبد الله: ففي هذا دليل أن الرجل لم يكن هو الملقى للغصن على الطريق فيكون واجباً عليه أن يمسحها إنما كان متطوعاً بإمطتها، وكذلك الأخبار التي جاءت في إمطة الأذى عن الطريق يدل على أنها فضيلة وتطوع من ذلك ٦٠٥.

٣ - قال أبو حاتم: الله جلّ وعلا أجل من أن يشكر عبده، إذ هو البادئ بالإحسان إليهم، والمتفضل بإثامهم عليهم، ولكن رضا الله جلّ وعلا بعمل العبد عنه يكون شكراً من الله، جلّ وعلا على ذلك الفعل. ٦٠٦.

٤ - أما جزاء من قام بهذه الحقوق فهي المثوبة الحسنى في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا فالثناء الحسن من الناس، وحسن السيرة، وقرب الناس منه، ومؤازرته في كل شئون الحياة، والطمأنينة والسكينة التي تنزل على قلبه فيحيا في دنياه حياة هنيئة بحبه لإخوانه وحب إخوانه له، وفي الآخرة يكون له الثواب العظيم، والمقام في جنات عدن عند مليك مقتدر، يتقلب كما مر في الحديث في أغصان الجنة التي أعد الله له ولكل من يدخلها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر، على قلب بشر. ٦٠٧.

٥ - في هذا الحديث: فضيلة كل ما نفع المسلمين وأزال عنهم ضرراً، وأن ذلك سبب للمغفرة ودخول الجنة. ٦٠٨.

٦ - وفيه أيضاً دليل على أن الجنة موجودة الآن؛ لأن النبي ﷺ رأى هذا الرجل يتقلب فيها، وهذا أمر دل عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة؛ أن الجنة موجودة الآن، ولهذا قال الله تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران: ١٣٣)، أعدت: يعني هيئت. وهذا دليل على أنها موجودة الآن، كما أن النار أيضاً موجودة الآن، ولا تغنيان أبداً. خلقهما الله — عز وجل — للبقاء، لا فناء لهما، ومن دخلهما لا يفنى أيضاً، فمن

٦٠٢ - شرح النووي على مسلم (١٣/ ٦٢)

٦٠٣ - فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٣٩)

٦٠٤ - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢١) - ١٢٩ - (١٩١٤)

٦٠٥ - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٨١٠)

٦٠٦ - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٩٥)

٦٠٧ - الحديث الموضوعي - جامعة المدينة (ص: ٤٠٢)

٦٠٨ - تطريز رياض الصالحين (ص: ١٠٧) وشرح النووي على مسلم (١٣/ ٦٢)

كان من أهل الجنة بقى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً الآبدى. ومن كان من أهل النار من الكفار دخلها خالداً مخلداً فيها أبداً الآبدى.

وهذا الحديث دليل على أن من أزال عن المسلمين الأذى فله هذا الثواب العظيم في أمر حسي، فكيف بالأمر المعنوي؟ هناك بعض الناس — والعياذ بالله — أهل شر وبلاء، وأفكار خبيثة، وأخلاق سيئة، يصدون الناس عن دين الله، فيأزله هؤلاء عن طريق المسلمين أفضل بكثير وأعظم أجراً عند الله. فإذا أزيل أذى هؤلاء، إذا كانوا أصحاب أفكار خبيثة سيئة إلحادية، يرد عليها، وتبطل أفكارهم.^{٦٠٩}

قال المهلب: إمطة الأذى وكل ما يؤذى الناس في الطرق مأجور عليه، وفيه: أن قليل الأجر قد يغفر الله به كثير الذنوب، وقد قال النبي: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق). وفيه: دليل أن طرح الشوك في الطريق والحجارة والكناسة والمياه المفسدة للطرق وكل ما يؤذى الناس تخشى العقوبة عليه في الدنيا والآخرة.^{٦١٠}

وفيه فضيلة إمطة الأذى عن الطريق، وهي أدنى شعب الإيمان، فإذا كان الله عز وجل يشكر عبده ويعفو له على إزالة غصن شوك من الطريق، فلا يدري ما له من الفضل والثواب إذا فعل ما فوق ذلك.^{٦١١}

وأعلم أن الشخص يُؤجر على إمطة الأذى، وكل ما يؤذي الناس في الطريق، وفيه دلالة على أن طرح الشوك في الطريق والحجارة والكناسة والمياه المفسدة للطرق وكل ما يؤذي الناس يخشى العقوبة عليه في الدنيا والآخرة، وكما شك أن نزع الأذى عن الطريق من أعمال البر، وأن أعمال البر تكفر السيئات وتوجب الغفران، وكما ينبغي للعاقل أن يحقر شيئاً من أعمال البر، أما ما كان من شجر فقطعه وألقاه، وأما ما كان موضوعاً فأمطه، والأصل في هذا كله قوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً خَيْرًا يَرَهُ} (الزلزلة: ٧). وإمطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان.^{٦١٢}

٧- من أحسن المصالح التي يقوم عليها اجتماع الناس في التمدن الحاضر والزمها - مصلحة التنظيف في الإدارات البلدية وأنت ترى أن الأحاديث النبوية المتقدمة قد انتظمت ذلك التنظيف بالترهيب من التقدير وكل مؤذ، والترغيب في إزالتها. فوضع الإسلام بذلك أصل هذه المصلحة قبل أن يعرفها تمدن اليوم. فعلى المسلم أن يلتزم ذلك كأمر ديني يثاب عليه عند ربه، ليكون دافعه إلى القيام به من نفسه، ورقبيه في تنفيذه ضميره الديني وإيمانه، وقد شهد التاريخ لمدن الإسلام أيام مدنيته الزاهرة بانفرادها بين مدن عصرها النظافة وحسن المظهر، وما ذلك إلا من تطبيق مثل ما تقدم مما وضعه

^{٦٠٩} - شرح رياض الصالحين (٢/ ١٧٥)

^{٦١٠} - شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٦٠٠)

^{٦١١} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٥/ ١٧٢)

^{٦١٢} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٢٣)

الإسلام من أصول المصالح التي تقوم عليها الحياة، و يترقى بها المجتمع. فعلينا -معشر المسلمين- أن نعي بما دعتنا إليه هذه الأحاديث النبوية الشريفة لنكون بين الناس مثلاً حسناً راقياً في النظافة البلدية، لنفع أنفسنا ومجتمعنا ونرفع اسم ديننا، ونفوز بالأجر والرضى من ربنا.^{٦١٣}

٨- وقال الطيبي: يمكن إن إدخاله الجنة بمجرد النية الصالحة، وإن لم ينحه وأن يكون قد نحاه- انتهى. وفي الحديث فضل إمطة ما يؤذي الناس عن طريقهم. وفيه إن قليل الخير يحصل به كثير الأجر. وفيه التنبيه على فضيلة كل ما نفع المسلمين وأزال عنهم ضرراً^{٦١٤}

وفيه إن قليل الخير يحصل به كثير الأجر. وفيه التنبيه على فضيلة كل ما نفع المسلمين وأزال عنهم ضرراً^{٦١٥}

٩- وفيه مدى مخالفة المسلمين لتعاليم دينهم ، فترى بعضهم لا يكتفي بعدم تنحية الأذى عن طريق المسلمين ، بل يرمي مخلفات منزله وبقايا ما يأكله في طريق المسلمين .

الشجرة التي يجوز قطعها هي المؤذية للمسلمين ، أما إذا كانت نافعة للمسلمين كالشجرة التي يستظل الناس في ظلها ، فلا يجوز قطعها ، وقد تهدد الرسول ﷺ قاطعها بالنار في الحديث عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " قَاطِعُ السِّدْرِ يُصَوَّبُ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ " ^{٦١٦}



^{٦١٣} - مجالس التذكير من حديث البشير النذير (ص: ١٤٦)

^{٦١٤} - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٣٤٠)

^{٦١٥} - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٣٤٠)

^{٦١٦} - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٢٣٣)(١١٧٦٨) صحيح

الرجل الذي غفر له بهجرته

عَنْ جَابِرٍ أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ؟ - قَالَ: حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لِلَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَوُوا الْمَدِينَةَ، فَمَرَضَ، فَجَزَعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ، فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجمَهُ، فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ، فَرَأَاهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَأَاهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةً، وَرَأَاهُ مُعْطِيًا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِهَجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُعْطِيًا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ، فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ وَلِيْدَيْهِ فَاغْفِرْ»^{٦١٧}

الغريب :

قوله : هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ ؟ :

الحِصْنُ : واحدُ الحصون ، وهي القصورُ والقلاعُ التي يتحصَّن فيها.

وحصين : فعيلٌ للمبالغة ، أي : شديدُ المنع لمن فيه.

وَمَنْعَةٌ : تروى بفتح النون وسكونها ، وفي "الصحيح" : "يقالُ : فلانٌ في عِزٍّ وَمَنْعَةٍ بالتحريك ، وقد يَسْكُنُ عن ابن السَّكِّيت ، ويقالُ : المَنْعَةُ بالتحريك : جمع مانع ، ككافرٍ وكَفَرَةٍ ، أي : هو في عِزٍّ وعشيرةٍ يَمْنَعُونَهُ".

وقوله : وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَاجْتَوَى الْمَدِينَةَ ، فَمَرَضَ فَجَزَعَ ، فَأَخَذَ ، هكذا صوابُ الرواية بتوحيد رَجُلٍ ، وَعَطَفَ ما بعده على ما قبله على الإفراد ، وهي روايةُ عبد الغافر . وعند غيره تَخْلِيطٌ ؛ فمنهم من جَمَعَ ، فقال : رِجَالٌ ، فَاجْتَوُوا الْمَدِينَةَ ، ثم قال بعده : فَمَرَضَ فَجَزَعَ على الإفراد.

والأوَّلُ : أصوب.

وَاجْتَوَى الْمَدِينَةَ ، أي : كرهها ؛ يقال : اجْتَوَيْتُ الْمَدِينَةَ : إذا كرهتها ، وإنْ كَانَتْ مُوَافِقَةً لَكَ فِي بَدَنِكَ ، قال الخطَّابي : "أصلُ الاجْتِوَاءِ : اسْتِيبَالُ الْمَكَانِ ، وكراهةُ المقامِ فيه ؛ لِضَرِّ لَحِقِهِ ، وأصلُهُ : من الجَوَى ، وهو فسادُ الجَوَفِ".

وقوله : فَأَخَذَ مَشَاقِصَ ، فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجمَهُ :

المَشَاقِصُ : جمعُ مَشَقَصٍ ، وهو السهمُ العريض ، وقال الداودِيُّ : هو السَّكِّينُ.

^{٦١٧} - صحيح مسلم (١٠٨ / ١) - ١٨٤ - (١١٦)

وَالْبَرَاجِمُ وَالرَّوَاغِبُ : مفاصلُ الأصابعِ كُلِّها ، وقال أبو مالك في كتاب "خَلْقِ الْإِنْسَانِ" :
"الرَّوَاغِبُ : رُؤُوسُ الْعِظَامِ فِي ظَهْرِ الْكَفِّ ، وَالْبَرَاجِمُ : هِيَ الْمَفَاصِلُ الَّتِي تَحْتَهَا".

وقوله : شَخَبَتْ يَدَاهُ هُوَ بِالْحَاءِ الْمُعْجَمَةِ ، وَفَتَحَهَا فِي الْمَاضِي ، وَضَمَّهَا فِي الْمَضَارِعِ ، وَقَدْ تُفْتَحُ ،
وَمَعْنَاهُ : سَالَ ، قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ : "كُلُّ شَيْءٍ سَالَ ، فَهُوَ شُخْبٌ - بَضَمَ الشَّيْنُ وَفَتَحَهَا - وَهُوَ : مَا
خَرَجَ مِنَ الضَّرْعِ مِنَ اللَّبَنِ ، وَكَأَنَّهُ الدُّفْعَةُ مِنْهُ" ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ : "شُخْبٌ فِي الْأَرْضِ ، وَشُخْبٌ فِي
الْإِنَاءِ!" ، يُقَالُ لِلَّذِي يُصِيبُ مَرَّةً ، وَيَخْطِئُ أُخْرَى ؛ تَشْبِيهًا لَهُ بِالْحَالِبِ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ.

وقوله : غَفَرَ لِي بِهَجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ : دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكِبَائِرَ قَدْ تُغْفَرُ بِفِعْلِ الْقَوَاعِدِ ، وَفِيهِ نَظَرٌ سَيَأْتِي فِي
الطَّهَارَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وقوله : لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ : دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَغْفِرَةَ قَدْ لَا تَتَنَاوَلُ مَحَلَّ الْجَنَايَةِ ، فَيَحْصُلُ مِنْهُ
تَوَازُعُ الْعِقَابِ عَلَى الْمَعَاقِبِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ — ﷺ — : اللَّهُمَّ ، وَلِيَدَيْهِ فَاعْفِرْ .

وَالظَّاهِرُ : أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَدْرَكَتْهُ بَرَكَةُ دَعْوَةِ النَّبِيِّ — ﷺ — ، فَغُفِرَ لِيَدَيْهِ ، وَكُمِّلَ لَهُ مَا بَقِيَ مِنَ
الْمَغْفِرَةِ عَلَيْهِ ؛ وَعَلَى هَذَا : فَيَكُونُ قَوْلُهُ : لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ مِمَّا مَتَدًّا إِلَى غَايَةِ دَعَايِ النَّبِيِّ — ﷺ —
— لَهُ ؛ فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ : لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ مَا لَمْ يَدْعُ لَكَ النَّبِيُّ — ﷺ — .^{٦١٨}

من عبر القصة :

فِيهِ حُجَّةٌ لِقَاعِدَةِ عَظِيمَةِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ أَوْ ارْتَكَبَ مَعْصِيَةً غَيْرَهَا وَمَاتَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ
فَلَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَا يُقْطَعُ لَهُ بِالنَّارِ بَلْ هُوَ فِي حُكْمِ الْمَشِيئَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ الْقَاعِدَةِ وَتَقْرِيرُهَا وَهَذَا
الْحَدِيثُ شَرَحٌ لِلْأَحَادِيثِ الَّتِي قَبْلَهُ الْمُؤَهِّمُ ظَاهِرُهَا تَخْلِيدُ قَاتِلِ النَّفْسِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ فِي
النَّارِ وَفِيهِ إِثْبَاتُ عُقُوبَةِ بَعْضِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي فَإِنَّ هَذَا عُقُوبٌ فِي يَدَيْهِ فَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْمُرْجئةِ
الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَعَاصِيَ لَا تَضُرُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^{٦١٩}

وقال القرطبي :

"وهذا الحديث : يَقْتَضِي أَنَّ قَاتِلَ نَفْسِهِ لَيْسَ بِكَافِرٍ ، وَأَنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَقْتَضَى
قَوْلِهِ تَعَالَى : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} .

وهذا الرجلُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَتَى بِمَا دُونَ الشَّرْكِ ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْقَاتِلِ لِنَفْسِهِ
الْمَذْكُورِ فِي حَدِيثِ جُنْدُبٍ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَعَذِّبَهُ".^{٦٢٠}

^{٦١٨} - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٨٦ / ٢)

^{٦١٩} - شرح النووي على مسلم (١٣١ / ٢)

^{٦٢٠} - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٨٧ / ٢)

أما امتناع رسول الله ﷺ من الحصن فإن التحصن بالجدران فعل الجبان، وإِنَّمَا التحصن بالسُّيُوف والمبارزة فعل الشجاع. وسمي الحصن حصناً من الإمتناع. والمنعة: ما تمنع. وهذا إِنَّمَا عرضه عَلَيْهِ لما كَانَ بِمَكَّةَ. ٦٢١

قَالَ التَّوْرِبِشْتِيُّ: هَذَا الْحَدِيثُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ ذِكْرُ رُؤْيَا أُرِيهَا الصَّحَابِيُّ لِلإِعْتِبَارِ بِمَا يُؤَوَّلُ تَعْبِيرُهُ، فَإِنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: "اللَّهُمَّ وَلِيْدِيهِ فَاعْفِرْ". مِنْ جُمْلَةِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْخُلُودَ غَيْرُ وَاَقِعٍ فِي حَقِّ مَنْ أَتَى بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَإِنْ قَتَلَ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ دَعَا لِلْجَانِي عَلَى نَفْسِهِ بِالمَغْفِرَةِ، وَلَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ بَعْدَ أَنْ نُهِيَ عَنْهُ. ٦٢٢

قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ الْمَذْكُورُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَعَلَ بِنَفْسِهِ مَا فَعَلَ مِمَّا ذَكَرَ فِيهِ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَهُ عِلَاجٌ تَبْقَى بِهِ بَقِيَّةُ يَدِيهِ فَفَعَلَ مَا فَعَلَ لِيَسْلَمَ لَهُ نَفْسُهُ وَتَبْقَى لَهُ بَقِيَّةُ يَدِيهِ فَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَذْمُومًا وَكَانَ كَرَجُلٍ أَصَابَهُ فِي يَدِهِ شَيْءٌ فَخَافَ إِنْ لَمْ يَقْطَعْهَا أَنْ يَذْهَبَ بِهَا سَائِرُ بَدَنِهِ وَيُتْلَفَ بِهَا نَفْسُهُ فَهُوَ فِي سَعَةٍ مِنْ قَطْعِهَا فَإِنْ لَمْ يَقْطَعْهَا، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ بِذَلِكَ يَسْلَمَ لَهُ بِذَلِكَ بَقِيَّةُ بَدَنِهِ وَيَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ مَاتَ مِنْهَا أَنَّهُ غَيْرُ مَلُومٍ فِي ذَلِكَ وَلَا مُعَاقَبٌ عَلَيْهِ وَكَذَلِكَ هَذَا الرَّجُلُ فِيمَا فَعَلَ بِبِرَاجِمِهِ حَتَّى كَانَ مِنْ فِعْلِهِ تَلَفُ نَفْسِهِ، وَهُوَ خِلَافُ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ طَاعَةً لَهَا أَوْ مُتَرَدِّيًا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ لِيَتْلَفَ نَفْسُهُ أَوْ مُتَحَسِّيًا لِسَمِّ لِيَقْتُلَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَمْ يَبَيِّنْ بِحَمْدِ اللَّهِ فِيمَا رَوَيْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُضَادًّا وَلَا اخْتِلَافًا فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَدِي هَذَا الرَّجُلِ بِالْعُفْرَانِ وَدَعَاؤُهُ لِيَدِيهِ بِذَلِكَ دَعَاءٌ لَهُ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ جَنَائَةٍ كَانَتْ مِنْهُ عَلَى يَدِيهِ اسْتَحَقَّ بِهَا الْعُقُوبَةُ فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعُفْرَانِ لِيَدِيهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ غُفْرَانًا لَهُ قِيلَ لَهُ مَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْتُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ الدُّعَاءِ لِيَدِي ذَلِكَ الرَّجُلِ كَانَ لِإِشْفَاقِهِ عَلَيْهِ وَلِعَمَلِ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ كَانَ فِي قَلْبِهِ فَدَعَا لَهُ بِذَلِكَ لِهَذَا الْمَعْنَى لَا لِمَا سِوَاهُ كَمَا قَدْ رُوِيَ عَنْهُ مِمَّا عَلَّمَهُ حُصَيْنَا الْخَزَاعِيُّ أَبَا عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهِ، فَعَنَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَهُ أَبَاهُ حُصَيْنًا بَعْدَ مَا أَسْلَمَ فَقَالَ: "قُلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَخْطَأْتُ وَمَا عَمَدْتُ وَمَا جَهَلْتُ وَمَا عَلِمْتُ" فَكَانَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ تَعْلِيمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُصَيْنًا أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مَا أَخْطَأَ يَعْنِي الْخَطَأَ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْعَمَدِ، وَذَلِكَ مِمَّا هُوَ غَيْرُ مَأْخُودٍ بِهِ وَلَا مُعَذَّبٍ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} [الأحزاب: ٥] فَكَانَ الْخَطَأُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ تَعَمَّدُ الْقُلُوبِ مَعْفُومًا عَنْهُ غَيْرُ مَأْخُودٍ بِهِ صَاحِبُهُ وَكَانَ أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ حُصَيْنًا أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ بِغُفْرَانِهِ إِيَّاهُ لَهُ عَلَى الرَّهْبَةِ مِنَ اللَّهِ وَالتَّعْظِيمِ لَهُ وَالْخَوْفِ مِمَّا عَسَى أَنْ يَكُونَ يُخَالِطُ قَلْبَ الْمُخْطِئِ فِي حَالِ خَطِيئَةٍ مِنْ مِثْلِ إِلَى مَا أَخْطَأَ

٦٢١ - كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ١٠٤)

٦٢٢ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٢٦٣)

به ، وكذلك ما في حديث جابر من دعاء رسول الله ﷺ بالغفران للرجل المذكور فيه يحتمل أن يكون لمثل هذا أيضا والله نسأله التوفيق^{٦٢٣}

وظاهر حديث جابر المذكور يخالفهما فإن الرجل الذي قطع براحمه بالمشاقص ومات من ذلك أخبر بعد موته الرجل الذي رآه في المنام بأن الله تعالى غفر له، ووقع منه - ﷺ - التقرير لذلك بل دعا له. ويمكن الجمع بأنه لم يرد قتل نفسه بقطع البراجم، وإنما حملة الضجر وما حل به من المرض على ذلك بخلاف الرجل المذكور في حديث جندب فإنه قطع يده مريدا القتل نفسه، وعلى هذا فتكون الأحاديث الواردة في تخليد من قتل نفسه في النار وتحريم الجنة عليه مقيدة بأن يكون مريدا للقتل.^{٦٢٤}



^{٦٢٣} - شرح مشكل الآثار (١/ ١٨٥)

^{٦٢٤} - نيل الأوطار (٧/ ٦٠)

قصة الخصومة بين العمرين

قَالَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَأَنْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ» قَالَ: وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ" قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: "غَامَرَ: سَبَقَ بِالْخَيْرِ" ٦٢٥

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ» فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ» ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَتَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَنَّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُودِي بَعْدَهَا ٦٢٦

التعليق على القصة:

هذا الحديث فيه وقوع شيء من الخلاف كما يقع بين البشر بين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فأخطأ أبو بكر في حق عمر ثم ندم أبو بكر، فأراد أن يستسمح من عمر (فتأبى عليه) فذهب أبو بكر إلى النبي - ﷺ - حاسراً ثوبه عن ركبته فما رآه النبي - ﷺ - على هذه الحالة قال: (أما صاحبكم فقد غامر) يعني دخل في غمرة الخصومة وقيل سبق بالخير، فسلم أبو بكر على النبي - ﷺ - وجلس إليه وقص عليه القصة، وقال: كان بيني وبين ابن الخطاب شيء من المحاورة والمراجعة والمقابلة

٦٢٥ - صحيح البخاري (٥٩/٦) (٤٦٤٠)

[ش (محاوره) مجادلة ومجاوبة. (غامر) سبق بالخير وزاحم فيه وخاصم من أجله]

٦٢٦ - صحيح البخاري (٥/٥) (٣٦٦١)

[ش (أبدى) أظهر. (صاحبكم) يعني أبا بكر رضي الله عنه. (غامر) رمى بنفسه في الأمور الخطرة. (فأسرعت إليه) بالكلام الغليظ. (يتمعر) يتغير لونه من الضجر. (وأساني) من المواساة وهي التسلية والسعي في إزالة الهم وتفريج الكرب]

والمعاقبة فأسأت إليه، أي فأغضبته، أي أن أبا بكر أغضب عمر، فانصرف عنه مغضباً فاتبعه أبو بكر قال أبو بكر: ثم ندمت على ما كان فسألته أن يغفر لي، أي أن يستغفر لي فلم يفعل حتى أغلق بابيه في وجهي فأبى، وفي رواية: (فتبعته إلى البقيع حتى خرج من داره وتحرز مني بداره) فاعتذر أبو بكر إلى عمر فلم يقبل منه فقال النبي - ﷺ -: (يغفر الله لك يا أبا بكر) ثلاثاً ثم إن عمر ندم فذهب إلى بيت أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لكي يصفاه ويعتذر منه، فسأل عنه فقالوا: خرج من المنزل، فذهب عمر إلى النبي - ﷺ - فوجده عنده، فلما سلم عمر وجلس عنده جعل وجه النبي - ﷺ - يتمعر يعني تذهب نظارته من الغضب، وكان النبي - ﷺ - أبيضاً جميلاً كأن القمر يجري في وجهه - ﷺ - فجعل وجهه يحمر من الغضب. وفي رواية: "فجلس عمر فأعرض عنه النبي - ﷺ - ثم تحول فجلس إلى الجانب الآخر فأعرض عنه، ثم قام فجلس بين يديه فأعرض عنه، فقال عمر: يا رسول الله ما أرى إعراضك إلا لشيء بلغك عني، فما خير الحياة وأنت معرض عني؟" أي خير لي في هذه الحياة إذا كنت معرضاً عني، فقال: (أنت الذي اعتذر إليك أبو بكر فلم تقبل منه؟! وفي رواية: (يسألك أخوك أن تستغفر له فلا تفعل) فقال: والذي بعثك بالحق ما من مرة يسألني إلا وأنا أستغفر له، وما خلق الله من أحد أحب إلي منه بعدك" فقال أبو بكر: "وأنا والذي بعثك بالحق كذلك".

ولما تمعر النبي - ﷺ - أشفق أبو بكر أن يكون من رسول الله - ﷺ - لعمر ما يكره، فجنأ أبو بكر أي برك على ركبتيه وهو يقول للنبي - ﷺ -: والله أنا كنت أظلم، قال ذلك؛ لأنه كان هو البادئ، فجعل أبو بكر يعتذر حتى لا يجد النبي - ﷺ - في نفسه على عمر.

يقول أبو بكر: أنا كنت أظلم ثم إن النبي - ﷺ - بين فضل الصديق - رضي الله عنه - فأخبرهم بأن الله بعثه فقلتم: (كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله). وآساني من المواساة، وصاحب المال يجعل يده ويد صاحبه في ماله سواء، ولهذا سميت مواساة. يقول النبي - ﷺ - "فهل أنتم تاركو لي صاحبي" وفي رواية: "تاركوه" وحزم بعضهم بأن خطأ ووجه بعضهم ببعض الوجوه في اللغة لما قال لي النبي - ﷺ - فهل أنتم تاركو لي صاحبي فهل أنت تاركو لي صاحبي فما أبعدها.

فوائد القصة:

هذه الحادثة يؤخذ منها فوائد متعددة فمن هذه الفوائد:

١. فضل الصديق - رضي الله تعالى عنه - ومكانته في الإسلام: فهو السابق إلى الإسلام، وأكثر من نفع الدعوة على الإطلاق، واسى النبي - ﷺ - بأهله، وماله، ونفسه، فعن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، "فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: { أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ } [غافر:

٢٨] ٦٢٧، وهو الذي دفع ماله كله في سبيل الله، وهو الذي حمى النبي - ﷺ - في الهجرة وكان يدعو إلى الله وأسلم على يده عدد من كبار الصحابة - رضي الله عنهم - وهو الوزير الأول للنبي - ﷺ - وصاحب الرأي الأعظم بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو أفضل الأمة بعد النبي - عليه الصلاة والسلام - وهو خليفته من بعده، وهو الذي تصدى للمرتدين لما غمى الأمر على عدد من الناس بعد النبي - ﷺ - فقام بالأمر بعده وقف ذلك الموقف المشهود.

وكان أفقه الصحابة لما مات - عليه الصلاة والسلام - واضطرب الأمر عندما تلى عليهم قول الله: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠] وقوله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤] فكان الناس سمعوها لأول مرة، فعلم الناس أن النبي - ﷺ - مات ٦٢٨.

وهو الذي قال في قتال المرتدين في ذلك الموقف العظيم فعن أبي هريرة، قال: لَمَّا تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالُهُ وَنَفْسُهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ"، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَقَالًا كَانُوا يُؤْذُونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَفَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ». ٦٢٩

وهو الذي أنقذ المسلمين في سقيفة بني ساعدة من التفرق والتمزق - رضي الله عنه - وهو الذي استتب بسببه الأمر لما كفر العرب أجمعون إلا أهل المدينة، ومكة، طائفة قليلة من العرب، وبدأ في عهده التجهيز لغزو فارس والروم. وهو أحب الرجال إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - وبنته أحب النساء إلى النبي - ﷺ - فحصل أنه حدث بينه وبين عمر هذه الخصومة ٦٣٠.

٢. والفائدة الثانية: أن الفاضل لا ينبغي له أن يغاضب من هو أفضل منه: وينبغي أن يحفظ له حقه،

٦٢٧ - صحيح البخاري (١٠/٥) (٣٦٧٨)

[ش (أن يقول ربي الله) لأنه يقول ذلك ويدعوكم إليه. (الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدقه. (ربكم) خالقكم ورازقكم وهو الله سبحانه وتعالى]

٦٢٨ - صحيح البخاري (٦/٥) (٣٦٦٧)

٦٢٩ - صحيح البخاري (٩/٩٤) (٧٢٨٤) وصحيح مسلم (١/٥١) (٣٢) - (٢٠)

[ش (حق المال) أي داخل تحت الاستثناء الراجع للعصمة المبيح للقتال. (عقلا) هو الحبل الذي تشد به يد البعير مع ذراعه حتى لا يشرد. (عناق) العناق الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة]

٦٣٠ - انظر فضائله في صحيح البخاري مع الشرح، ٢٠/٧ وما بعدها. كتاب الفضائل. ط/ دار الريان للتراث. القاهرة وصحيح مسلم شرح النووي ١٤٩/٥. كتاب فضائل الصحابة. ط/ دار الريان للتراث وغيرها من كتب الفضائل.

وأن الشخص الفاضل ينبغي أن يكون له مكانه في المجتمع، ولا يرد عليه، ولا يمنع طلبه، وإنما يعطى حقه ويلبي حاجته وطلبه، لفضله ومكانته.

٣. جواز مدح المرء في وجهه إذا أمنت الفتنة: فإن الأصل عدم جواز مدح المرء في وجهه، ولكن إذا أمنت الفتنة جاز ذلك، كما مدح النبي - ﷺ - أبا بكر في محضر من الصحابة لما علم الله أن أبا بكر من الأتقياء الذين لا يغترون بالمدح والثناء. والنبي - ﷺ - صاحب الوحي هو الذي مدح الصديق في حضرة الصحابة، فإذا أُن أفتان والاغترار على الشخص جاز مدحه للمصلحة؛ كبيان فضله حتى يعطى حقه، ولا يعتدى عليه، ويتجرأ عليه الناس.

٤. أن الغضب يحمل الإنسان على ارتكاب خلاف الأولى، وترك الأفضل أو ترك ما ينبغي فعله في ذلك الموقف، فيصرف الإنسان عن الرؤية الصحيحة، فلا يتخذ الموقف الصحيح.

٥. أن الفاضل في الدين يسرع الرجوع إلى الحق: فإن الناس يخطئون، والصحابة بشر يخطئون، ولكن ما هو الفرق بيننا وبين الصحابة؟ الفرق أن الصحابة أخطأهم معدودة، ولكن إذا أخطئوا سرعان ما يرجعون إلى الصواب - رضي الله تعالى عنهم - فالمشكلة حصلت بين أبي بكر وعمر، فبسرعة رجع أبو بكر وبسرعة رجع عمر، فندم أبو بكر ليس بعدها بساعات طويلة وأيام أو شهور؛ وإنما ندم مباشرة فرجع إلى بيت عمر، ولما أخطأ عمر ولم يقبل اعتذار أبي بكر ندم عمر بسرعة، وذهب إلى بيت الصديق. وهذه الميزة وهي سرعة الرجوع إلى الحق هي التي ميزت أولئك القوم حتى صاروا أفضل الأمة، واختارهم الله لصحبة نبيه، ونصرة دينه، والجهاد مع نبيه محمد - ﷺ - ومعايشة نزول الوحي، فهم أنصاره ووزرائه - رضي الله عنهم - وهم أفقه الأمة وأعلمها بالحلل والحرام، وأبرها قلوباً - رضي الله تعالى عنهم - ولا يبغضهم إلا منافق ولا يسبهم إلا ملعون.

وفي أبي بكر وعمر ينطبق قول الله - تعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١]. فهؤلاء المتقون إذا مسهم طائف من الشيطان من غضب أو خصومة أو سوء تفاهم فسرعان ما يتذكرون، فيرجعون إلى الصواب والحق، فإذا هم مبصرون.

فالصحابة بشر يخطئون وهل هناك أعظم وأفضل من أبي بكر وعمر - رضي الله تعالى عنهما - بعد النبي - ﷺ -؟! ومع ذلك حصل منهم ما يحصل من البشر من سوء التفاهم. فهم بشر يقع منهم الخطأ وليسوا ملائكة، ولكنهم راجعين إلى الحق.

٦. استحباب سؤال الاستغفار والتحلل من المظلوم: فإن الإنسان إذا ظلم أخاه، أو تعدى عليه، أو أساء إليه، أو أخطأ في حقه، فإن المندوب له أن يأتيه، ويطلب منه أن يستغفر له، وأن يتحلل من هذا المظلوم. ويقول له: "سامحي حللي استغفر لي تجاوز عني" ونحو ذلك، فمن كانت له عند أخيه مظلمة فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، ولكن بالحسنات والسيئات.

٧. أن الإنسان إذا غضب على صاحبه فرمى نسي اسمه وربما نسبته إلى أبيه أو جده: كما قال أبو بكر - رضي الله عنه - كان بيني وبين بن الخطاب شيء.

٨. أن الركبة ليس بعورة؛ لأن أبا بكر جاء وقد حسر عن ركبتيه، والنبي - ﷺ - لم ينكر عليه. ٦٣١
٩. أن الإنسان لا ينبغي له أن يرد اعتذار من اعتذر إليه وأن يغلق الباب في وجهه، أو يرفض قبول الاعتذار، وهذه يعملها عدد من الناس، فمن فجورهم في الخصومة تراهم لا يقبلون الاعتذار، ولا يرجعون عن خطئهم، وربما ييقون سنوات، ولا يقبلون الاعتذار، وكلما حاول الشخص أن يعتذر إليهم لم يقبلوا منه، ربما إلى الممات لا يقبلون المذرة ولا يسامحون، فهذه ليست من شيم المؤمنين، ولا من أخلاق المتقين، وإنما هذه من صفات المعاندين الذين ركب الشيطان على رؤوسهم فنفخهم، فجعلوا يرفضون الاعتذار والعودة والقبول للحق، وإنما شيم الرجال المؤمنون أن يكونوا لينين يقبلون عذر من اعتذر إليهم.

١٠. أن النبي - ﷺ - كان يعرف بالتوسم حال أصحابه: فلمجرد ما رأى أبا بكر قال: (أما صاحبكم فقد غامر) فعرف ما به من هيئته، وشكله، ومنظره، وطريقة تشميره عن ثيابه.

١١. أن الإنسان إذا أراد أن يستسمح من آخر فليأت به في بيته: فهذا أبو بكر لما أخطأ في حق عمر لحقه إلى بتيه، وكذلك عمر لما ندم جاء إلى أبي بكر في بيته؛ لأن الإتيان إلى البيت فيه مزيد من تطيب خاطر، وإظهار الكرامة للمخطئ عليه؛ لأنه يأتيه في بيته، وفيه مزيد من الاعتناء بالاعتذار؛ لأنه ليس في الشارع أو بالهاتف أو يرسل له رسالة، أو يوكل شخصاً ويقول اعتذر لي من فلان، وإنما يأتيه في بيته. وهذا ما ينبغي أن يفعل عند حدوث الخطأ.

١٢. أن الإنسان إذا حدث بينه وبين أخيه مشكلة لم يستطع أن يحلها فإن عليه أن يلجأ إلى الله ثم إلى أهل العلم، وأن يقص القصة دون زيادة ولا نقصان: فإن أبا بكر لما أيس من مسامحة عمر له جاء إلى النبي - ﷺ - وقص عليه الخبر حتى يقوم النبي - ﷺ - بالتدخل والمصالحة أو بيان الحق في مسألة أو حكم أو ونحو ذلك.

١٣. تواضع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وذلك لما جعل يقول: "والله يا رسول الله لأننا كنت أظلم" ولم يشأ أن يسكت حتى النبي - ﷺ - يشتد على عمر أكثر؟ لم يكن يسر أبا بكر أن النبي - ﷺ - يشتد على عمر، وإنما كان أبو بكر يريد سرعة المسامحة والاعتذار، والتوبة مما بدر منه، وأن النبي - عليه الصلاة والسلام - لا يشتد على عمر، ولا يعنفه بمزيد من التعنيف؛ ولذلك تدخل أبو بكر ولم يدع النبي - ﷺ - يكمل الاشتداد على عمر وجعل يعترف، ويقول: أنا كنت أظلم، رافة ورحمة بأخيه عمر وإنقاذاً له من الموقف الحرج؛ لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - يتكلم وليس

كلامه ككلام غيره، وبحضرة الصحابة الآخرين، فهو موقف صعب على عمر، فلم يقل أبو بكر: أدعه يلقيه درساً لا ينساه حتى يتعلم مرة ثانية ألا يسئ إلي مرة ثانية؟! كما يقع من بعضنا في مثل هذا الموقف فالصديق أرفع درجة من ذلك.

١٤. أن الفاضل ينبغي أن لا يؤذى، وإنما يحفظ حقه وينشر فضله؛ كما أن النبي - ﷺ - قال: "هل أنتم تاركو لي صاحبي" فينبغي أن يشهر وتنشر فضائله بين الناس؛ إذا كان له سابقة وفضل، وأن ينوه بسابقته وفضله حتى يترك الناس إيذاءه ويعرفوا مقداره وقيمته وحقه، فيكفوا شرهم عنه. فقال - عليه الصلاة والسلام -: "إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتكم: كذبت وقال أبو بكر صدقت، وواساني بنفسه وماله فهل أنت تاركوا لي صاحبي" ^{٦٣٢}، فنوه بفضله، وقيمته، ومترلته حتى لا يعتدي عليه.

١٥. أن الإنسان المخطئ عليه أن يخشى على نفسه من العقوبة: ولذلك عمر - رضي الله عنه - لما جاء جلس عن يمين النبي - عليه الصلاة والسلام - ثم عن شماله ثم بين يديه، ثم قال: يا رسول الله فما خير الحياة وأنت معرض عني. يقول إذا أنت غضبت علي فلا خير في العيش لي، إذا غضبت علي فلا يمكن أن يطيب لي عيش، وأنت علي غضبان.

١٦. ينبغي استرضاء العالم والقدوة والكبير إذا غضب، ويسارع إلى التخفيف من غضبه، ويبادر إلى الاعتذار منه، وطلب عفوهِ ومغفرته.

١٧. فضيلة الإعلان بالرجوع عن الخطأ؛ لأن بعض الناس لا يقوى على الإعلان بالرجوع عن الخطأ، وإنما يريد أن يعتذر سراً وليس أمام الناس ولكن أبا بكر يقول و يعتذر أمام الناس "أنا كنت أظلم" أمام الجميع، وعمر جاء يعتذر أمام الجميع فلم يكن ليمنعهم عن إظهار الاعتذار أن يكون بعض الناس حاضرين ويقولون كما هو لسان حال بعض الناس اليوم يقولون نحفظ ماء وجوهنا؛ وإنما الصحابة ليس عندهم مانع أن يعتذر الإنسان ويعترف بخطئه أمام الآخرين.

١٨. أن أفضل رجلين في الإسلام بعد النبي - عليه الصلاة والسلام - ما نقص من قدرهما، ولا من قيمتهما أنهما أخطئا، فرجعا عن خطئهما: فهذه القصة نشرت وذكرها المؤلفون في كتبهم، فلا يجد الإنسان في نفسه حرجاً من أنه إذا أخطأ أن يتوب ويعتذر ويطلب العفو والمسامحة، فخطأ أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - يعلمنا كيف نتعامل مع من أخطأ، وكيف نعتذر، وهذه من بركتيهما أنهما أخطأ من أجل بيان ما ينبغي عليه الإنسان إذا أخطأ على صاحبه ورفيقه.

٦٣٢ - فَهَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فِيهِ تَخْصِيصُهُ بِالصُّحْبَةِ فِي قَوْلِهِ: " «فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟» " وَبَيَّنَ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى النَّاسِ قَالَ: " إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا "، قَالُوا: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ؛ فَهَذَا يُبَيِّنُ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يُكَذِّبْهُ قَطُّ، وَأَنَّهُ صَدَّقَهُ حِينَ كَذَّبَهُ النَّاسُ طَرًّا. وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ صَدَّقَهُ قَبْلَ أَنْ يُصَدِّقَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَةَ وَهَذَا حَقٌّ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا بُلِّغَ الرِّسَالَةَ قَامَنَ. منهاج السنة النبوية (٨/ ٤٢٣)

١٩. ومن الفوائد أهمية تقديم المال والدعم للدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى -: وأن الإنسان إذا قدم المال والنفس للدعوة إلى الله، فإن ذلك مما يرفع قدره ومترلته، ويستوجب صيانة حرمة، والكف عن إيذائه؛ لأن التقديم في سبيل الدعوة عبادة عظيمة ومنفعته نفعه متعدية للآخرين، من نشر العلم وإيصال الهداية إلى الآخرين، والتسبب في إنقاذ ناس من النار ولذلك الصديق من أسباب علو مترلته قال: ووإساني بنفسه وماله فتصديق أبو بكر للداعية الأول، النبي - ﷺ - مواساة بالنفس، فقد عرض نفسه للخطر في عدد من المواضع من أجل النبي - ﷺ - ووإسائه كذلك بماله، فتقديم الجهد، وتقديم التضحية لا شك أن لها فضل عظيم؛ لأن الدعوة مجال لهداية للناس ونشر النور إلى الآخرين.

٢٠. إن الإنسان كلما كانت سابقته أقدم في الدعوة وتقدمه أكثر من غيره كلما كان أفضل: ولذلك الله - عز وجل - قال: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: ١٠].

فالذي أنفق في وقت غربة الدين، وفي وقت ضعف المسلمين في المرحلة المكية، وفي زمن الاضطهاد وفي وقت الحاجة الماسة؛ لا شك أن بذله أكثر أجراً من غيره ممن بذل في وقت الرخاء والسعة، ولذلك فإن المبادرة لتقديم والعطاء والبذل في الدعوة وفي سبيل الله يكون أجره أكبر وأعظم ممن تأخر ولم يسارع؛ مع أن لكلهم أجر، وكلاً وعد الله الحسنى.

قصة أخرى تشابه قصة العمرين مع التعليق عليها:

عَنْ رَبِيعَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: كُنْتُ أُخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: يَا رَبِيعَةُ، أَلَا تَزَوِّجُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوِّجَ، مَا عِنْدِي مَا يُقِيمُ الْمَرْأَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْكَ شَيْءٌ، فَأَعْرَضَ عَنِّي فَخَدَمْتُهُ مَا خَدَمْتُهُ ثُمَّ قَالَ لِي الثَّانِيَةَ: يَا رَبِيعَةُ، أَلَا تَزَوِّجُ؟ فَقُلْتُ: مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوِّجَ، مَا عِنْدِي مَا يُقِيمُ الْمَرْأَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْكَ شَيْءٌ، فَأَعْرَضَ عَنِّي، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا يُصْلِحُنِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَعْلَمُ مِنِّي، وَاللَّهِ لَنْ قَالَ: تَزَوِّجْ لَأَقُولَنَّ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرْنِي بِمَا شِئْتَ، قَالَ: فَقَالَ: يَا رَبِيعَةُ، أَلَا تَزَوِّجُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى مُرْنِي بِمَا شِئْتَ، قَالَ: انْطَلِقْ إِلَى آلِ فُلَانٍ حَيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَ فِيهِمْ تَرَاخٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْ لَهُمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تُزَوِّجُونِي فُلَانَةَ لِمَرْأَةٍ مِنْهُمْ، فَذَهَبْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ، بِأَمْرِكُمْ أَنْ تُزَوِّجُونِي فُلَانَةَ فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللَّهِ، وَبِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهِ لَا يَرْجِعُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا بِحَاجَتِهِ فزَوِّجُونِي وَالْطُّفُونِي، وَمَا سَأَلُونِي الْبَيِّنَةَ، فَارْجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَزِينًا، فَقَالَ لِي: مَا لَكَ يَا رَبِيعَةُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَيْتُ قَوْمًا كِرَامًا فزَوِّجُونِي، وَأَكْرَمُونِي وَالْطُّفُونِي وَمَا سَأَلُونِي بَيِّنَةً، وَلَيْسَ عِنْدِي صَدَاقٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا بُرَيْدَةُ الْأَسْلَمِيُّ، اجْمَعُوا لَهُ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَجَمَعُوا لِي وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ

، فَأَخَذْتُ مَا جَمَعُوا لِي فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ : اذْهَبْ بِهَذَا إِلَيْهِمْ فَقُلْ : هَذَا صَدَاقُهَا ، فَأَتَيْتُهُمْ فَقُلْتُ : هَذَا صَدَاقُهَا فَرَضُوهُ وَقَبِلُوهُ ، وَقَالُوا : كَثِيرٌ طَيِّبٌ ، قَالَ : ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حَزِينًا فَقَالَ : يَا رِبِيعَةُ ، مَا لَكَ حَزِينٌ ؟ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا رَأَيْتُ قَوْمًا أَكْرَمَ مِنْهُمْ رَضُوا بِمَا آتَيْتُهُمْ وَأَحْسَنُوا وَقَالُوا : كَثِيرًا طَيِّبًا ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أَوْلِمُ ، قَالَ : يَا بُرَيْدَةُ ، اجْمَعُوا لَهُ شَاةً ، قَالَ : فَجَمَعُوا لِي كَبِشًا عَظِيمًا سَمِينًا ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اذْهَبْ إِلَى عَائِشَةَ فَقُلْ لَهَا : فَلَتَبِعْتُ بِالْمِكْتَلِ الَّذِي فِيهِ الطَّعَامُ ، قَالَ : فَأَتَيْتُهَا فَقُلْتُ لَهَا مَا أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : هَذَا الْمِكْتَلُ فِيهِ تِسْعُ أَصْعٍ شَعِيرٍ لَا وَاللَّهِ إِنْ أَصْبَحَ لَنَا طَعَامٌ غَيْرُهُ ، خُذْهُ فَأَخِذْنَاهُ ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ وَأَخْبَرْتُهُ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ ، فَقَالَ : اذْهَبْ بِهَذَا إِلَيْهِمْ فَقُلْ : لِيُصْبِحَ هَذَا عِنْدَكُمْ خُبْرًا ، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِمْ ، وَذَهَبْتُ بِالْكَبِشِ ، وَمَعِيَ أَنَاسٌ مِنْ أَسْلَمَ فَقَالَ : لِيُصْبِحَ هَذَا عِنْدَكُمْ خُبْرًا ، وَهَذَا طَبِيخًا ، فَقَالُوا : أَمَّا الْخُبْزُ فَسَنَكْفِيكُمْوهُ وَأَمَّا الْكَبِشُ فَانْكَفُونَا أَنْتُمْ ، فَأَخَذْنَا الْكَبِشَ أَنَا وَأَنَاسٌ مِنْ أَسْلَمَ فَذَبَحْنَاهُ وَسَلَخْنَاهُ ، وَطَبَخْنَاهُ ، فَأَصْبَحَ عِنْدَنَا خُبْزٌ ، وَلَحْمٌ فَأَوْلَمْتُ ، وَدَعَوْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَانِي بَعْدَ ذَلِكَ أَرْضًا ، وَأَعْطَى أَبَا بَكْرٍ أَرْضًا ، وَجَاءَتِ الدُّنْيَا فَاخْتَلَفْنَا فِي عِدْقِ نَخْلَةٍ فَقُلْتُ : أَنَا هِيَ فِي حَدِّي ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : هِيَ فِي حَدِّي ، فَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ كَلَامٌ ، فَقَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ كَلِمَةً كَرِهَهَا وَنَدِمَ ، فَقَالَ لِي : يَا رِبِيعَةُ رُدِّي عَلَيَّ مِثْلَهَا حَتَّى تَكُونَ قِصَاصًا ، قَالَ : قُلْتُ : لَا أَفْعَلُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَتَقُولَنَّ ، أَوْ لَأَسْتَعْدِينَ عَلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، قَالَ : وَرَفَضَ الْأَرْضَ وَأَنْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنْطَلَقْتُ أَثْلُوهُ ، فَجَاءَ نَاسٌ مِنْ أَسْلَمَ فَقَالُوا لِي : رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ ، فِي أَيِّ شَيْءٍ يَسْتَعْدِي عَلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَالَ لَكَ مَا قَالَ ، فَقُلْتُ : أَتَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ هَذَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ، هَذَا ثَانِيِ اثْنَيْنِ ، وَهَذَا ذُو شَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ ، إِيَّاكُمْ لَا يَلْتَفِتُ فِيرَاكُمْ تَنْصُرُونِي عَلَيْهِ فَيَعْضِبُ فَيَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَعْضِبُ لِعَضْبِهِ ، فَيَعْضِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعَضْبِهِمَا فَيُهْلِكَ رِبِيعَةَ ، قَالُوا : مَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ : ارْجِعُوا ، قَالَ : فَأَنْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَبِعْتُهُ وَحَدِي ، حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ كَمَا كَانَ ، فَرَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ فَقَالَ : يَا رِبِيعَةُ ، مَا لَكَ وَلِلصَّدِيقِ ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَانَ كَذَا كَانَ كَذَا ، قَالَ لِي كَلِمَةً كَرِهَهَا فَقَالَ لِي : قُلْ كَمَا قُلْتُ حَتَّى يَكُونَ قِصَاصًا فَأَيَّبْتُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَجَلٌ فَلَا تَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ قُلْ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، فَقُلْتُ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ .

قَالَ الْحَسَنُ : فَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَبْكِي ٦٣٣ .

فالتشابه بين القصتين أيضاً أنه حصل شيء من سوء التفاهم بين أبي بكر - رضي الله عنه - وبين ربيعة الأسلمي - رضي الله عنه -؛ هي السرعة العجيبة في رجوع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -

والاعتذار والتنازل عن الأرض أصلاً. ثم إن ربيعة - رضي الله عنه - يعرف قدر الصديق ولذلك قال: أتدرون ما هذا هذا أبو بكر الصديق، ثاني اثنين، هذا ذو شيبة المسلمين. هذا شيبتنا، وهذا كبيرنا فهذا لو غضب ربما يغضب الله علينا! فبسبب أننا إذا أغضبناه ربما يغضب النبي - ﷺ - ثم يغضب الله علينا. كذلك فإن ربيعة لم يرد أن يتكلم على الصديق؛ لأنه يعرف أن الصديق مقامه عظيم، فاستعظم أن يرد عليه، فهو لم يرفض أن يرد عليه لأجل إحراج الصديق، ولكن قدر الصديق وفضله وعظمته عنده، هو الذي منعه أن يرد عليه، فكيف يتقص منه وفي مثل هذه الحالة؟ ما هو الحل؟ الحل: أن يقول المخطئ عليه للمخطئ غفر الله لك، وهو ما علمه النبي - ﷺ - لربيعة، فقال له: لا ترد عليه، ولكن قل: "غفر الله لك يا أبا بكر فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر". وفيها خوف الصديق ورقته، وتأثره، وكيف أنه ولى وهو يبكي.

فهذه القصة لوحدها فيها فوائد كثيرة في مسألة تيسير الزواج، والمهور، وكيفية استقبال الناس لصاحب الدين إذا جاءهم يريد الزواج منهم، وكيف يجمع المهر، وكيف تيسر الأمور، وكيف حل المشكلات بين أهل الزوجة والزوج، وأهل الزوجة والشخص المتقدم، وكيف أن الدنيا سبب المشكلات بين الناس عامة، والإخوان خاصة.

وأهم هذه الفوائد :

(١) ما قاله ربيعة: (وجاءت الدنيا فاختلطنا في عذق نخلة) فطيلة الحياة تمشي الأمور بالأخوة بدون اختلاف، فإذا جاءت الدنيا فكل واحد يقول: أعزل نصيبي عن نصيبك، وهنا يحدث الخلاف، فهذه الدنيا سبب الخلاف، وهي التي تجر إلى الخصومة؛ ثم تجر إلى الكلام الذي لا يليق بين الإخوان.

(٢) كيف أن الصديق أراد أن يتحلل من أخيه في الدنيا قبل الآخرة.

(٣) أن الإنسان لا يستعين بقوم على الباطل: فالنبي - عليه الصلاة والسلام - أخبر أن الذي يعين قومه على غير الحق مثل البعير المتردي بذنبه، فإذا تردى الإنسان بذنبه فهل لأحد يخرج؟! أو تردى في بئر هل لأحد أن يسحبه؟! لا يمكن ذلك أبداً، ولذلك يدفعونه إلى الهلاك دفعاً، فرجوعه صعب إذا قام قومه معه في الباطل؛ فإن رجوعه صعب فهذه قصة الصديق - رضي الله عنه - في المرتين تبين أشياء كثيرة من حقوق الإخوة، ماذا يجب أن يكون عليه الحال بين الإخوة؟ وتبين الخلاف بينهم لا يمكن منعه بالكلية لكن إذا حصل ما هو الموقف الصحيح كيف تعالج الأمور؟.

الخلاصة تعريفية:

إن للقصص فوائدها وثمراتها، وخاصة إذا كانت من قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أو من قصص الصحب الكرام - رضي الله عنهم وأرضاهم - وجمعنا بهم في الجنة، ولا أدل على ذلك من قصة اختلاف أبي بكر مع عمر، وما جرى بينهما من حوار ومحادثة، فاختلفا فأغضب أبي بكر عمر؛ فانصرف عنه عمر، ثم بعد فترة قصيرة تبعه أبو بكر يسأله العفو والمسامحة، فرفض عمر طلبه، حتى أنه

أغلق بابه في وجه أبي بكر فانصرف أبو بكر إلى الرسول - ﷺ - وهو حاسر ثوبه عن ركبتيه، فلما رآه النبي قال: أما صاحبكم فقد غامر، ومعنى غامر " أي دخل في غمرة الخصومة " حتى أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان يقول: أنا كنت أظلم منه بعد أن رأى معاتبة النبي - ﷺ - لعمر وشدته عليه، وهذا الخطأ منهما لا يعد سيئة، بل يعد حسنة من حسناتهما - رضي الله عنهما - حيث أنهما علما أننا إذا اختلفنا وأخطأ بعضنا على بعض، كيف يعتذر ويطلب المسامحة، وأضف إلى ذلك بعض الفوائد التي استخرجها العلماء من هذه الحادثة. فمن أرواها فليراجعها في مضامها، مع أن العلماء - رضي الله عنهم - ذكروا هذا الحديث وهذه القصة في كتاب فضائل الصحابة ومنهم الإمام البخاري في موضعين في صحيحه والإمام مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي بكر - رضي الله عنه - وكذلك قصة أبي بكر مع ربيعة الأسلمي ذكرها الإمام أحمد في مسنده. ^{٦٣٤}



^{٦٣٤} - <http://www.startimes.com/f.aspx?t=٢٤٣٩٨١٠٩>

<http://www.sama-alorobah.com/vb/showthread.php?t=١٠٤٢٥٦>

قصة الثلاثة العظماء الذين أخرجهم الجوع

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَاعَةٍ لَا يَخْرُجُ فِيهَا وَلَا يَلْقَاهُ فِيهَا أَحَدٌ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟» فَقَالَ: خَرَجْتُ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ وَالسَّلِيمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ عُمَرُ، فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَرُ؟» قَالَ: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَنَا قَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ ذَلِكَ، فَانْطَلِقُوا إِلَى مَنْزِلِ أَبِي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الْأَنْصَارِيِّ» وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ النَّخْلِ وَالشَّاءِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَدَمٌ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَقَالُوا لَامْرَأَتِهِ: أَيْنَ صَاحِبُكَ؟ فَقَالَتْ: انْطَلَقَ يَسْتَعْدِبُ لَنَا الْمَاءَ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ جَاءَ أَبُو الْهَيْثَمِ بِقِرْبَةٍ يَزْعُبُهَا فَوَضَعَهَا ثُمَّ جَاءَ يَلْتَرِمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُفِدِّيهِ بِأَبْيِهِ وَأُمِّهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِمْ إِلَى حَدِيقَتِهِ فَبَسَطَ لَهُمْ بَسَاطًا، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى نَخْلَةٍ فَجَاءَ بِقِنْوٍ فَوَضَعَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفَلَا تَنْقِيتَ لَنَا مِنْ رُطْبِهِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَخْتَارُوا، أَوْ قَالَ: تَخَيَّرُوا مِنْ رُطْبِهِ وَبُسْرِهِ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطْبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ»، فَانْطَلَقَ أَبُو الْهَيْثَمِ لِيَصْنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَذْبَحَنَّ ذَاتَ دَرٍّ»، قَالَ: فَذَبَحَ لَهُمْ عَنَاقًا أَوْ جَدْيًا فَأَتَاهُمْ بِهَا فَأَكَلُوا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ لَكَ خَادِمٌ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَإِذَا أَتَانَا سَبِيٌّ فَأَتِنَا» فَأَتِيَ النَّبِيَّ ﷺ بِرَأْسَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ فَأَتَاهُ أَبُو الْهَيْثَمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَرِ مِنْهُمَا»، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ اخْتَرْ لِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ، خُذْ هَذَا فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي وَاسْتَوْصَ بِهِ مَعْرُوفًا»، فَانْطَلَقَ أَبُو الْهَيْثَمِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَأَخْبَرَهَا بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: مَا أَنتَ بِبَالِغٍ مَا قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا أَنْ تَعْتَقَهُ، قَالَ: فَهُوَ عَتِيقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْثُ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بَطَانَتَانِ بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبَطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا، وَمَنْ يُوقِ بَطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ»^{٦٣٥}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْدِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِدْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَرُطْبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدِّيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ، وَالْحُلُوبَ»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاءِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ

^{٦٣٥} - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٨٥) (٢٣٦٩) صحيح

وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ ٦٣٦

[شَرْحُ الْغَرِيبِ]

يستعذب : يقال : استعذب القوم ماءهم : إذا استقوه عذبا، واستعذبه : عده عذبا ، ويستعذب لفلان من بئر كذا ، أي : يستقى له .
المدية : السكين .

الحلوب : الشاة التي هي معدة للحلب ، يقال : شاة حلوب ، وناقاة حلوب ، بغير هنا .
نكب : نكب عن الشيء - مشددا ومخففا - : عدلت عنه ، تركته إلى غيره .
ذات الدر : ذات اللبن ، وهي الحلوب أيضا .

يزعبها : أي : يحملها ، ويقال : جاءنا سيل يزعب زعبا ، أي : يتدافع في الوادي .
حديقته : الحديقة : البستان المحوط عليه ، ويقال للجماعة من النخل : حديقة .
بقنو : القنو : العذق من الرطب .

العناق : الأنتى من ولد المعز .
البطانة : داخلية الرجل ، وأهل مشورته .

لا تألوه خبالا أي : لا تقصر في إفساد حاله ، والمشورة عليه بما يضره . ٦٣٧

شرح الحديث :

الحديث يقول فيه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - : خرجت ألقى رسول الله ﷺ - وانظر في وجهه والتسلیم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر! فقال النبي ﷺ - : (ما جاء بك يا عمر؟) قال: الجوع يا رسول الله! وفي رواية مسلم: خرج رسول الله ﷺ - ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر! فقال: (ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة) أي: الساعة غير المعتادة التي لا يخرج فيها الناس عادة، قالوا: الجوع يا رسول الله! قال رسول الله: (وأنا، والذي نفسي بيده، لأُخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا) ٦٣٨ وهذا فيه بيان ما كان عليه النبي ﷺ - وكبار أصحابه في التقلل من الدنيا، وما ابتلوا به من الجوع، وضيق العيش في أوقات. فقال لهم: (فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم) وأبو الهيثم - رضي الله عنه - اسمه مالك بن التيهان، فقال النبي ﷺ - : (قوموا) فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، وكان مالك بن التيهان - رضي الله عنه - رجلاً كثير النخل والشاة، والشاة هي الغنم جمع شاة، فوجدوا الرجل، ولم يكن عنده خدم، فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ وفي رواية مسلم: فلما

٦٣٦ - صحيح مسلم (١٦٠٩/٣) - ١٤٠ - (٢٠٣٨)

٦٣٧ - جامع الأصول في أحاديث الرسول ط مكتبة الحلواني الأولى (٤/٦٩٣)

٦٣٨ - رواه مسلم (١٦٠٩/٣) برقم (٢٠٣٨) .

رأهم المرأة قالت: مرحباً وأهلاً! فقال لها رسول الله - ﷺ -: (أين فلان) فقالت: خرج يستعذب لنا الماء، أي: يطلب لنا الماء العذب الذي لا ملوحة فيه، ثم بعد ذلك جاء أبو الهيثم - رضي الله عنه - بقربة يزعبها، ومعنى يزعبها: أي أنه احتملها وهي ممتلئة، يتدافع بها ويحملها لثقلها، فلما رأى النبي - ﷺ - هش له غاية الهشاشة، والتزمه وعانقه وضمه لجناحه، ثم انطلق بهؤلاء الثلاثة الضيوف الكرام إلى حديقته الغناء ذات الشجر، فجاء بقنو وهو العذق من الرطب، فيه بسر وتمر ورطب، نفس العذق فيه بسر وتمر ورطب! ولما جاء به وضعه بين أيديهم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: (أفلا تنقيت لنا من رطبه) أي هلا اخترت من الرطب! فقال أبو الهيثم: إني أردت أن تختاروا أو تخيروا من رطبه وبسره.. التمر قبل أن يصبح رطباً يكون بساً، وبعد ذلك يتحول إلى رطب.. تمر النخلة أول ما يطلع يكون طليحاً، ثم بعد ذلك يصبح بلحاً، ثم بعد ذلك يصبح بساً، ثم بعد ذلك يصبح رطباً، ولما أكل النبي - ﷺ - قال: (هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة)، وفي رواية مسلم: فلما أن شعبوا ورووا قال رسول الله - ﷺ - لأبي بكر وعمر: (والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم) ولما أراد الرجل أن يذبح لهم شاة، قال النبي - ﷺ -: (لا تذبحن ذات دَرٍ يعني: ذات لبن، (إياك والحلوب) فذبح لهم عناقاً وهي الأنثى من أولاد المعز، أو جدياً من أولاد المعز، وهو الذكر يسمى: جدياً وقدمه إليهم. ثم سأله النبي - ﷺ -: هل له خادم في هذا المال، يحتاج إلى من يخدمه؟! قال: لا. قال: (فإذا أتانا سبي) أي أسارى من أسرى المشركين (فأتنا). فجيء إلى النبي - ﷺ - برأسين من العبيد، وجاء أبو الهيثم، فقال النبي - عليه الصلاة والسلام -: (اختر واحداً منهما) فقال أبو الهيثم: أنت اختر لي يا رسول الله! فقال النبي - ﷺ - توطئة وتمهيداً قبل الاختيار: (إن المستشار مؤتمن) يعني الذي يطلب منه الرأي والشورى، والنصيحة، فلا بد أن يؤدي الأمانة، ولا يجوز له أن يخونه؛ بأن يكتم ما به مصلحة له فأشار - عليه الصلاة والسلام - إلى واحد منهما، قال: (خذ هذا فإن رأيتَه يصلي) أي: ظهرت عليه آثار الصلاح، وكان يصلي، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فأعطاه العبد، وقال له: (استوص به معروفاً) أي: اصنع به معروفاً، وأحسن إليه. ثم إن النبي - ﷺ - لما أعطاه هذا العبد ورجع إلى بيته، قال بعد ما سأله المرأة: النبي - ﷺ - أوصاني بأن استوصي به خيراً، فقالت المرأة: ما أنت ببالح ما قال فيه النبي - ﷺ - إلا أن تعتقه، يعني: أحسن شيء تستوصي به خيراً أن تعتقه، فقال الرجل: هو عتيق! فمتى ما تلفظ الإنسان بالعتق فهو عتيق فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - - في إثر ذلك -: (إن الله لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان) والبطانة: هم خاصة الرجل الذين يعرفون أسرارهم لثقتهم بهم، شبههم ببطانة الثوب؛ لأن البطانة مما يلي الجسد من الداخل، فشبه الخاصة، وأهل سره وأهل ثقته بالبطانة من قريهم بالرجل ومن علمهم بباطنه وحقيقته أمره وأسراره، ثم قال: (بطانة تأمره بالمعروف) وهو ما عرفه الشرع، وحكم بحسنه (وتنهاه عن المنكر) وهو ما أنكره الشرع

ونهى عن فعله، (وبطانة لا تألوه خبالاً) يعني: لا تقصر في إفساد أمره؛ كقوله - تعالى -: {لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران: ١١٨] ^{٦٣٩} يعني يأمرهم بالشر، ويسعون في إفسادهم (ومن يوق بطانة السوء فقد وقى)، هل كان النبي - عليه الصلاة والسلام - له بطانتان؟ قيل: إن المراد بالبطانتين في حقه - ﷺ - الملك وشیطان النبي - عليه الصلاة والسلام - ولكن الله أعانه عليه فدخل في الإسلام، وقيل: أسلم، يعني: سلم من شره، فما من نبي ولا غيره من الخلفاء إلا وله بطانتان، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَمَّتِي تَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ عَمَلًا فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا، إِنْ نَسِيَ ذِكْرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ» ^{٦٤٠}

ولو أن الإنسان لم يوجد له بطانة من أهل الخير، فإن نفسه أماراة بالسوء، فقد وقى الشر كله.

فوائد الحديث:

أولاً: جواز الإخبار عن الضرر: يجوز للإنسان أن يخبر بما ناله من ألم، إذا لم يكن ذلك على سبيل التشكي وعدم الرضاء، بل للتسليّة والتصبر، فأبو بكر قال: أخرجني الجوع، وعمر قال: أخرجني الجوع، والنبي - ﷺ - قال: وأنا ما أخرجني إلا هذا، كل واحد قد أخبر الآخرين بما ناله من الجوع، كل واحد يخبر صاحبه بظرفه لعله يساعده، ويسليه بكلمة طيبة فهذا لا بأس به.

أنواع الشكوى:

شكوى العبد لإخوانه إذا أصيب بفقر، أو ألم، أو مرض تكون على حالين: الحال الأولى/ أن يخبرهم بذلك لكي يسألوه ويصبروه فهذا لا بأس به، وهو من باب التواصي بالصبر. الحال الثانية/ إذا كان على سبيل التشكي والتبرم والتضجر من قضاء الله وقدره، والشكاية للمخلوقين، وإذلال النفس، وطلب ما في اليد، فهذا مذموم.

ثانياً: زهد النبي ﷺ وأصحابه:

من هذا الحديث يتضح ما كان عليه النبي - ﷺ - من الزهد في الدنيا هو ووزيره أبو بكر وعمر، وهؤلاء أعظم الناس على الإطلاق في ذلك الوقت، والنبي - عليه الصلاة والسلام - أعظم الناس في كل وقت. الإمام الأعظم ووزيره ما عندهم في بيوتهم شيء، هذا شيء عجيب! إنه شيء يسترعي الانتباه ويستدعي الوقوف!! قائد الأمة وإمام الأمة ما عنده شيء في البيت! ووزيره الأول أبو بكر الصديق ما عنده شيء في البيت! والوزير الثاني عمر بن الخطاب ما عنده شيء! كلهم أخرجهم

^{٦٣٩} - {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَآ أَنتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضُكُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَلِيمٌ بِدَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ أَلَّ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)} [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠]

الجوع في ساعة لا يخرج الناس في مثل هذا! ما الذي أخرجهم؟ إنه الجوع! فهذا يبين لنا ما كان عليه الرسول -ﷺ- وكبار أصحابه من التقلل في الدنيا، وما ابتلوا به من الجوع وضيق العيش.

ثالثاً: جواز الاستطعام عند الضرورة:

فلا بأس على الإنسان إذا اشتكى ضرراً أو جوعاً أن يأتي على صاحب له، ليس بينه وبينه حرج أو كلفة، فيطعم عنده، وهذا يسميه العلماء الإدلال على الأخ، أو الصاحب، ما دامت بينه وبينه مكانة ومعزة كبيرة، وأخوة عالية، ولا يتضرر إذا أتاه، ولا يثقل عليه، فإنه لا بأس بأن يأتي. وكفى شرفاً لأبي الهيثم ابن التيهان أن يكون ضيفه رسول الله -ﷺ-.

رابعاً: اصطحاب الإخوان: إذا ذهب الإنسان إلى شخص لطعام وكان يعلم أن هذا الشخص لا يتحرج من الإتيان بآخرين فإنه لا بأس أن يصطحبهم، ولا يعتبر أمراً مذموماً إذا علم رضاه، وأنه لا يثقل عليه ولا يخرجه وعنده ما يكفي الجميع. وأما إذا ذهب الإنسان ومعه شخص، ولا يدري هل صاحب البيت يأذن أو لا يأذن! فإنه يستأذن لهذا الشخص، فيقول: يا صاحب الدار أنا مدعو عندك، ومعى أخي فلان لم يُدع، هل تسمح له فيدخل، أم ينصرف فيرجع؟! فإذا أذن صاحب البيت بلا إحراج، فإنه لا بأس أن يدخل هذا الشخص.

خامساً: إكرام العظماء:

الإنسان إذا كان غنياً عليه أن يستخدم غناه في طاعة الله، فيكرم أهل العلم والصالحين، ويفرح إذا قدم عليه الضيوف الصالحون، ولهذا أبو الهيثم فرح جداً بقدوم النبي -ﷺ- عليه الصلاة والسلام - وقام يعتنقه وقال: من أكرم أضيافاً مني، أي: لا أحد اليوم أكرم أضيافاً من محمد -ﷺ- وأبو بكر وعمر، من بقي أكرم أضياف من هؤلاء؟ لا أحد! وهذا الإكرام والفرح من علامات الإيمان، إذ جاؤوا من غير دعوة بل مفاجأة فهذا أمر سار لدى المؤمن.

سادساً: الكلام مع المرأة الأجنبية:

يجوز الكلام مع المرأة الأجنبية إذا كان بغير فتنة، ولا محذور شرعي، فالنبي -ﷺ- لما جاء إلى هذا الرجل، قال للمرأة: (أين صاحبك) والصاحب هو الزوج، والدليل على أن الزوج يسمى صاحباً أو الزوجة تسمى صاحبة: قول الله - تعالى -: { وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ } [المعارج: ١٢] فالزوجة تسمى صاحبة، والزوج صاحبها؛ لأن بينهما مصاحبة، يصاحبها في هذه الحياة بالعيشة الزوجية، فقال: (أين صاحبك؟) فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء فرحبت بهم قائلة: مرحباً وأهلاً، وتركتهم يدخلون.

سابعاً: إدخال المرأة البيت من يرضاه زوجها:

يجوز للمرأة أن تدخل إلى بيت زوجها من كانت تعلم يقيناً أن زوجها لا يمانع في دخوله، أما إذا كان زوجها منعها من إدخال فلان من الناس، فلا يجوز لها أن تدخله، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ،

وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ عَنْ غَيْرِ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ يُؤَدِّي إِلَيْهِ شَطْرَهُ»^{٦٤١} فلا تدخل أحداً في البيت، لا جاره، ولا قريبه، ولا بعيدة إلا لمن أذن. ثامناً: حرمة الخلوة بالأجنبية:

فالنبي - ﷺ - جاء ومعه أبو بكر وعمر وهم جماعة من الصالحين، لا يخشى من دخولهم إلى البيت، ولكن ينبغي الحذر الشديد من إدخال الأجانب إلى البيت، إلا إذا كانوا أناساً صالحين تعرف الزوجة يقيناً أن الرجل لا مانع لديه من دخولهم، أما أن يدخل رجل فقط فلا يجوز أن يخلو بالمرأة، ولو كان من أصلح الصالحين!! فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِ اللَّهِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ} [المتحنة: ١٢] إِلَى قَوْلِهِ {غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٧٣]، قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ، قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ بَايَعْتِكَ» كَلَامًا، وَلَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ: «قَدْ بَايَعْتِكَ عَلَى ذَلِكَ»^{٦٤٢}؛ لِأَنَّ الْمُبَايَعَةَ يَضَعُ كَفَّهُ فِي يَدِ الْمُبَايَعِ وَيَعَاهِدُهُ بِاللَّهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا، وَلَا يَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا مَعَ الْحَاجَةِ لَوْضَعِ الْيَدِ فِي الْبَيْعَةِ، وَمَعَ هَذَا فَالنَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَا بَايَعَ النِّسَاءَ مَصَافِحَةً، إِنَّمَا يُبَايِعُهُنَّ كَلَامًا {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعُهُنَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المتحنة: ١٢] قَالَ فِيهَا فَبَايَعُهُنَّ، فَالْمُبَايَعَةُ كَانَتْ بِالْكَلَامِ..

فإذن لا تجوز الخلوة لا مع صالح ولا مع غير صالح، ولا تجوز المصافحة لا من صالح ولا من غير صالح فهي حرام، أما دخول البيت فيكون بإذن الزوج، أو من كانت تعلم يقيناً أن الزوج لا يمانع في دخولهم، وكانوا صالحين لا يخشى منهم؛ لأن الفاجر إذا دخل فقد يفضي دخوله إلى حرام مع المرأة.

^{٦٤١} - صحيح البخاري (٣٠/٧) (٥١٩٥) وصحيح مسلم (٢/١٠٣٥) - ٦٣ (١٤١٨)

[ش (لا تأذن في بيته) أي لا تسمح بالدخول إلى مسكنه لأحد يكرهه وتعلم عدم رضاه بدخوله امرأة كانت أم رجلاً يجوز له الدخول عليها وأما الرجل الذي لا يجوز الدخول عليها فلا تسمح له بالدخول حتى ولو كان زوجها يرضى بذلك. (يؤدي إلى شطره) يعطى نصف الأجر وقيل أن المراد إذا أنفقت على نفسها زيادة عن القدر المعتاد غرمت له الزيادة (في الصوم) أي رواه بأسناد آخر في الصوم خاصة ولم يذكر فيه الإذن والإنفاق]

^{٦٤٢} - صحيح البخاري (١٥٠/٦) (٤٨٩١) وصحيح مسلم (٣/١٤٨٩) - ٨٨ (١٨٦٦)

[ش (يمتنح) يختبر واختبارهن كان أن يستحلفن ما خرجن من بغض زوج ونحوه وما خرجن إلا حبا لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ورغبة في دين الله عز وجل. (يبايعنك) يعاهدنك ويعاقدنك على الإسلام. / المتحنة ١٢. / وتمتها {على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنین ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم}. (ببهتان يفتريه) بولد ينسبه إلى الزوج وهو ليس منه. (بين أيديهن وأرجلهن) وصف لحال الولد عندما يولد أو هو كناية عن البطن الذي تحمله فيه وهو بين يديها والفرج الذي تلده به وهو بين رجليها. (معروف) هو كل ما وافق طاعة الله تعالى وشرعه. (الشرط) وهو ما ذكر في الآية. (كلاماً) أي يبايعها بالكلام ولا يصافحها باليد كما كان يبايع الرجال]

وثانياً قد يسرق ويهرب. وثالثاً: قد يضع فيه سحراً أو يضع فيه شيئاً، وكم من أناس ابتلوا في بيوتهم بسبب دخول أناس فجرة فسقة إلى البيوت! وقد يطلعون على أسرار في البيوت، فلذلك لا يدخل الإنسان بيته إلا من يثق به خصوصاً في هذا الزمان، فالإنسان في هذا الزمن يجب أن يتحرى في دخول بيته أكثر من أي زمن آخر؛ لأن الفتن فيه قد عمت، وكثرت فيه المحرمات، والفحش والفسوق والعصيان، فيجب الحذر التام من إدخال الأشخاص المشبوهين إلى البيوت.

تاسعاً: تقديم شيء للضيف أثناء انتظار الطعام:

من أدب الضيافة استحباب المبادرة إلى إكرام الضيف بما يتيسر ريثما ينضج الطعام، فإذا جاءك ضيف فجأة، ولم تستعد لطبخ وليمة ولا ذبيحة ولا شيء فتفعل كما فعله هذا الصحابي، أولاً جاء لهم بعذق بسر وتمر ورطب يأكلون من هذا البسر والرطب والبلح لتسكين جوعتهم في البداية، ريثما يصنع لهم طعاماً. وبعضهم استدلوا به على تقديم الفاكهة على الخبز واللحم، وأن الله يقول أيضاً { وَفَاكِهَةً مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) } [الواقعة: ٢٠، ٢١] وأنه قدم الفاكهة على الطعام، لكن الصحيح أنه ليس في هذه الآية ما يدل على ذلك،^{٦٤٣} فهذا كلام عن نعيم الجنة، ونعيم أهل الجنة يختلف بأنواعه عن نعيم أهل الدنيا، والفاكهة سواء وضعت قبل الطعام أو بعد الطعام فالكل يصح، والأفضل أن يكون على حسب ما تعود عليه الناس.

عاشراً: السؤال عن النعيم يوم القيامة:

سيسأل العبد يوم القيامة عن المباحات وهذه هي الطامة الكبرى؛ لأننا إذا كنا سنسأل عن المباحات فما بالك بغيرها؟! والنبى - ﷺ - لما فسر الآية فسرهما بهذا الشيء الواقعي الذي حصل {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: ٨] فقال لهم: (ظل بارد وماء بارد وفاكهة ولحم لتسألن يومئذ عن النعيم) فهذا هو الذي يسأل عنه يوم القيامة! مع أن هذا حصل للنبى - ﷺ - الظل البارد والماء البارد والفاكهة واللحم - في وجبة واحدة وهي إحدى المرات النادرة في حياته!!

ونحن نقول: الحمد لله، فكل يوم - تقريباً - عندنا الظل والماء البارد والفواكه واللحم، فإذا لم يوجد دجاج، فسمك وإذا ما وجد سمك فالحمد لله، فالحمد لك الحمد! ونسأ الله العفو والعافية - لا شك أن السؤال سيكون شاقاً علينا- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: ابْنُ أُخْتِي «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ»، فَقُلْتُ يَا خَالَةَ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: " الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِيرَانٌ مِّنْ

^{٦٤٣} - وأيضاً فالآية تعدد لذات الجنة ونعيمها المطلق، وليس المقصود الترتيب هنا، والواو لا تدل على الترتيب بل تدل على الجمع المطلق، ومحاولة الاستدلال بذلك على تقديم الفاكهة نوع من التكلف الذي نهى الله عنه.

الأنصار، كَانَتْ لَهُمْ مَنَاجِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا "٦٤٤" يعني ليس هناك شيء يطبخ، بل كانوا يأكلون التمر والماء.

الحادية عشرة: الجود من الموجود:

على الإنسان ألا يتكلف فوق طاقته، وعلى الضيف ألا يشق على المضيف، ولهذا قال النبي - ﷺ -: (لا تذبحن ذات در) أي: ذات اللبن لا تذبجها، ولكن اتركها للبن؛ لتستفيد منها في الحلب، دع الحلوب لتستفيد منها واذبح غيرها، فیرشد الضيف إلى انتقاء ما لا يضر بمصلحته، أو ما لا يجرمه من الانتفاع به.

الثانية عشرة: المكافأة على المعروف:

فإن النبي - ﷺ - لما طعم عنده سألته، قائلاً له: (هل لك خادم؟) قال: لا، قال: (فإذا أتانا سي فأتني) ولما أتاه السي كافأه بعبد على هذه الوجبة. فعن أبي هريرة، قال: خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج فيها، ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: «ما جاء بك يا أبا بكر؟»، فقال: خرجت ألقى رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر، فقال: «ما جاء بك يا عمر؟»، قال: الجوع يا رسول الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «وأنا قد وجدت بعض ذلك»، فأنطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير التخل والشاء، ولم يكن له خادم، فلم يجدوه، فقالوا لامراته: أين صاحبك؟، فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء، فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يزعبها، فوضعها، ثم جاء يلتزم النبي ﷺ، ويفديه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته، فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة، فجاء بقم، فوضعه، فقال النبي ﷺ: «أفلا تنقيت لنا من رطب»، فقال: يا رسول الله، إني أردت أن تختاروا أو قال: تخيروا من رطبه وبسره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله ﷺ: " هذا والذي نفسي بيده من التعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد " فأنطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً فقال النبي ﷺ: «لا تذبحن ذات در» قال: فذبح لهم عناقاً، أو جدياً، فأتاهم بها، فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «هل لك خادم؟»، قال: لا، قال: «فإذا أتانا سبي فأتتنا»، فأتى النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم، فقال النبي ﷺ: «اختر منها» فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال النبي ﷺ: «إن المستشار مؤتمن، خذ هذا، فإنني رأيته يصلي، واستوص به معروفاً»، فأنطلق أبو الهيثم إلى امرأته، فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت: ما أنت ببالح ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن نعتقه، قال: فهو عتيق، فقال النبي ﷺ: " إن الله لم

٦٤٤ - صحيح البخاري (١٥٣/٣) (٢٥٦٧) وصحيح مسلم (٤/٢٢٨٣) - (٢٩٧٢)

[ش(وما أوقدت. .) كناية عن طبخ شيء من اللحم أو سواه. (يعيشكم) يقيتكم من الطعام. (الأسودان) غلب التمر على الماء فقليل أسودان وكان الغالب في تمر المدينة الأسود. (منائح) جمع منيحة وهي الشاة أو الناقة التي تعطي للغير ليحلبها وينتفع بلبنها ثم يردها على صاحبها وقد تكون عطية مؤبدة بعينها ومنافعها كالهبة. (يمنحون) من المنح وهو العطاء]

يَبْعَثُ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَّهُ بِطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبَطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ حَبَالًا، وَمَنْ يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ^{٦٤٥}

الثالثة عشرة: مشروعية الاستشارة:

على الإنسان أن يأخذ رأي الصلحاء والعقلاء في اختيار الأشياء؛ لأن النبي - ﷺ - لما أحضر الرأسان وأتاه أبو الهيثم قال - عليه الصلاة والسلام - : (اختر منهما) فقال: يا نبي الله! اختر لي أنت، أي أنت: أعلم بمصلحتي من نفسي فاختر لي.

الرابعة عشرة: المستشار مؤتمن:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»^{٦٤٦}
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»^{٦٤٧}

فهذا أمر يدل على الوجوب، فلا بد أن تبذل له الوسع في نصحه، فلا تختار له بدون تفكير وتأن، وإنما يجب أن تفكر وتجتهد وتبذل الوسع في الدلالة على الخير، وتخبره هل هذا أفضل له أم غيره؟! وهذه مسألة تحتاج إلى تحر ونظر وتفكير.

صفات المستشار المؤتمن:

أولاً: أن يعرف ظرف المستشار وحاله وقدرته.

ثانياً: أن يفكر وينظر في المسألة.

ثالثاً: يستشعر بأن القضية أمانة.

رابعاً: ألا يكتم رأياً فيه المصلحة لمن استشاره، بل يؤديها بكل نصح ووضوح، لا كما يفعل بعض الناس ويقول: سأشير عليه في أي شيء، قد لا يكون مفيداً أو فائدته بسيطة، وأسبقه إليه فهذا لا يجوز، فما دام قد استشارك وعرض عليك الأمر فلا بد من الوفاء. وبعض الناس من خيانتهم في الإشارة أنهم إذا جاء رجل يقول: عندي صفقة تجارية مع فلان كذا ومع فلان كذا، فيقول له: خذ هذه واترك تلك ويدله على الأقل!! ثم يذهب ويأخذ تلك ويسبقه.. فهذه خيانة، ومن خيانة المستشار أن يكتم المصلحة، ولا يفكر جيداً فيما يشير به.

^{٦٤٥} - السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٢١٢) (٦٥٨٣) صحيح

^{٦٤٦} - سنن أبي داود (٤/ ٣٣٣) (٥١٢٨) صحيح

^{٦٤٧} - صحيح مسلم (٤/ ١٧٠٥) - (٢١٦٢)

[ش (فسمته) تسميت العاطس أن يقول له يرحمك الله ويقال بالسين المهملة والمعجمة لغتان مشهورتان قال الأزهري قال الليث التسميت ذكر الله تعالى على كل شيء ومنه قوله للعاطس يرحمك الله قال ثعلب يقال سميت العاطس وشمته إذا دعوت له بالهدى وقصد السميت المستقيم قال والأصل فيه السين المهملة فقلبت شينا معجمة وقال صاحب المحكم تسميت العاطس معناه هداك الله إلى السميت]

الخامسة عشرة: بيان خطورة البطانة:

فهذه المرأة لما كانت بطانة صالحة لزوجها أشارت عليه بعق العبد، فعن أبي هريرة، قال: خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج فيها، ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: «ما جاء بك يا أبا بكر؟»، فقال: خرجت ألقى رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر، فقال: «ما جاء بك يا عمر؟»، قال: الجوع يا رسول الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «وأنا قد وجدت بعض ذلك»، فأنطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير النخل والشاء، ولم يكن له خادم، فلم يجدوه، فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟، فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء، فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقرية يزعمها، فوضعها، ثم جاء يلتزم النبي ﷺ، ويفديه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديثه، فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة، فجاء بقم، فوضعه، فقال النبي ﷺ: «أفلا تنقيت لنا من رطبه؟»، فقال: يا رسول الله، إني أردت أن تختاروا أو قال: تخيروا من رطبه وبسره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله ﷺ: " هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد " فأنطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً فقال النبي ﷺ: «لا تدبحن ذات در» قال: فدبح لهم عناقاً، أو جدياً، فأتاهم بها، فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «هل لك خادم؟»، قال: لا، قال: «إذا أتانا سبي فائتنا»، فأتى النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم، فقال النبي ﷺ: «اختر منها» فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال النبي ﷺ: «إن المستشار مؤتمن، خذ هذا، فإنني رأيته يصلي، واستوص به معروفاً»، فأنطلق أبو الهيثم إلى امرأته، فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت: ما أنت ببالح ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن نعتقه، قال: فهو عتيق، فقال النبي ﷺ: " إن الله لم يبع نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومن يوق بطانة السوء فقد وقي " ٦٤٨

وترجع خطورة البطانة للآتي:

أولاً: لأنهم يعرفون أسرار الإنسان.

ثانياً: لأن العادة - في الغالب - أنه يتأثر منهم، ويقتنع بإشارتهم، ويعمل برأيهم، فإذا كانوا بطانة خير كانت أعماله خيراً؛ لأن البطانة يشيرون عليه بالخير، وإذا كانوا أهل سوء فهو يتأثر بهم؛ لأنهم ندماؤه وجلساؤه وأهل ثقته وخاصته والمقربون إليه! فإن دلوه على شر فإنه سيفعل شراً - في الغالب - فمن وقي بطانة الشر فقد وقي.

السادسة عشرة: الشر محيط بنا!

فإنسان لا يكاد يسلم من بطانة سوء: إما صديق سوء، أو قريب سوء، أو زوجة سوء، ولهذا قال - ﷺ -: (إن الله لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان) وذلك لأن النفس أمارة بالسوء، فيجب على العبد مجانبة الشر مهما استطاع.

السابعة عشرة: اختيار الخليل الصالح:

فالسعيد من وفي بطانة سوء، وأنه يجب على الإنسان أن ينقي بطانته فينخلهم نخلًا، وينظر في هؤلاء المقرين إليه جلسائه، وأصدقائه ندمائه، وأصحاب سره وأهل ثقته، من منهم الصالح؟! فيحتفظ به ويضعه على رأسه، ومن منهم صاحب سوء؟! فهذا يتخلص منه ويستغي عنه ويبيعه؛ لأنه لا خير للإنسان في الاحتفاظ ببطانة سوء، ولا يكاد يوجد إنسان منا إلا ويختلط بأشخاص سيئين، وأشخاص طيبين، ولكن قد يكون عند الواحد وجود الطيبين أكثر، وعند واحد وجود السيئين أكثر، ولا يسلم أحد من التعرض لشخص سيئ، فينبغي تركه وهجره ومقاطعته والاستغناء عنه.^{٦٤٩}

الثامنة عشرة: أهل الشر يحكمون التخطيط للشر:

كثير من الناس غرضهم الإفساد، فهم لا يقصرون في إفساد العبد، بل يبذلون المحاولات الشديدة لإفساده؛ ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام -: (وبطانة لا تألوه خبالاً) يعني أن هذه البطانة ليس تأثيرها عليه تأثيراً عشوائياً. بمجرد وجودهم فقط، وإنما هم يخططون لإفساده، فهم يجتهدون ولا يتركون وسيلة لإفساده إلا سلكوها، ولذلك فإن هذه المسألة في غاية الخطورة؛ لأن هناك أناساً نذروا أنفسهم للشر، يندسون للإفساد، ويشغلون ليلاً ونهاراً، كما قال - تعالى -: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣٣]

التاسعة عشر: أن النفوس عند بعضها:

فبعض الصالحين قد تتوافق مشاعرهم وأحوالهم مع بعض، ومما يثير الانتباه: أن هؤلاء جاعوا معاً وخرجوا معاً بدون اتفاق، فكل واحد خرج من بيته ثم اتضح في النهاية أن سبب الخروج واحد عند الجميع، بدون سبق علم، ولهذا تجد الناس القريبين من بعض، كالأصدقاء والخلان أحياناً تتوافق مشاعرهم على شيء واحد. فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الْأُرُوحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اتَّخَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»^{٦٥٠}

^{٦٤٩} - إذا كانت المصلحة الشرعية من مخالطته تدعو إلى هدايته وبعده عن فسقة وسوءه، فهذا لا بد منه فالرسول ﷺ جالس الكفار لهدايتهم ودخل مجالسهم.

^{٦٥٠} - صحيح البخاري (٤/ ١٣٤) (٣٣٣٦) معلقا وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٣١) ١٥٩ - (٢٦٣٨)

[ش (الأرواح جنود مجندة) قال العلماء معناه جموع مجتمعة وأنواع مختلفة وأما تعارفها فهو لأمر جعلها الله عليه وقيل إنها موافقة صفاتها التي جعلها الله عليها وتناسبها في شيمها وقيل إنها خلقت مجتمعة ثم فرقت في أجسادها فمن وافقه في شيمه ألفه ومن باعده نافرته وخالفه]

العشرون: اختيار العمال والخدم الصالحين:

لأن النبي - ﷺ - لما اختار لأبي الهيثم خادماً اختاره بناءً على كونه رآه يصلي، فهو رجل صالح. فلو عرض على الإنسان خادمة تصلي وأخرى لا تصلي، أو سائق يصلي وآخر لا يصلي، أو موظف يصلي وآخر لا يصلي، فيختار الذي يصلي؛ لأن - الغالب - أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، نعم! قد يوجد كافر عنده أمانة، وآخر يصلي ولكنه خائن!! هذا لا شك موجود، ولكن المصلي أكثر أمانة من غيره، فعلى الأقل أن بينه وبين الله صلة: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥]، فإذا انتقاء المصلين في الأعمال يؤخذ من هذا الحديث، ولا يعني هذا أنك لا تنظر إلى الصفات الأخرى فلا يكفي أن يكون مصلياً فقط، فقد يكون غشياً لا يفهم، ولكن حاول أن يجمع بين الأمانة والذكاء والقوة كما قال - تعالى -: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦]، والأمانة تدخل فيها الصلاة؛ لأن الصلاة أمانة و(القوي): أي الخبير القادر، فأتضح بهذا أن على الإنسان أن يعتمد المصلي كأساس له، ويبحث أيضاً عن الصفات الجيدة في المصلي.

٨- الصلاة علامة التقوى : (خذ هذا فإني رأيته يصلي) .

٩- وصية الرسول ﷺ بالخدم لاسيما المصلين : (استوص به معروفاً)

١٠- حب الصحابة لتحرير الأرقاء ، وموافقته لزوجته الصالحة على إعتاقه .

١١- على المسلم العاقل أن ينتقي أصحابه من أهل الصلاح ليدكروه بالخير ، ويشجعوه عليه ، وأن يتعد عن قرناء السوء كيلا يذكره بالشر ويحسنوه إليه ، وكذلك شأن الزوجة الصالحة والشريرة لها تأثير على الزوج .

١٢- جواز المعانقة لغير القادم من سفر .

مسائل في الضيافة:

هذا الحديث اشتمل على مسألة الضيافة وما يتعلق بها، فلعلنا نشير إشارة سريعة إلى بعض الأمور المتعلقة بالضيافة:

أولاً: إكرام الضيف المسافر: إن إكرام الضيف من آداب الإسلام، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^{٦٥١}

وضيافة المسلم المسافر المحتاج واجبة على النازل به مجاناً يوماً وليلة، فإذا نزل مسافر على رجل في طريق المسافرين، وله مزارع وبيت فإنه يجب عليك أن يبذل له ضيافة يوماً وليلة مجاناً، على قدر

^{٦٥١} - صحيح البخاري (١١/٨) (٦٠١٨) وصحيح مسلم (١/٦٨) - (٤٧)

الكفاية، وهذا الحق يمكن أن يطالب به عند القاضي، بمعنى أن يذهب إلى قاضي البلد ويقول: نزلت عند فلان في طريق السفر وأبى أن يضيفني مع أنه قادر، والقاضي يرغمه شرعاً على إضافته، فالضيافة هنا واجبة، ويأخذ القاضي من صاحب المكان مالاً بقدر الضيافة، ولو بغير إذنه، ويعطيه للضيف. ويسن أن يكرمه يوماً وليلة ثانية وثالثة، فالواجبة الأولى، والثانية والثالثة مستحبة، وبعد الثلاثة الأيام من حقه أن يسرحه، ولا يجوز الإثقال على الإنسان بأن يرقد عند الضيف أكثر من ثلاثة أيام؛ فعَنْ أَبِي شَرِيحٍ الْعَدَوِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أُذُنَايَ، وَأَبْصَرْتُ عَيْنَايَ، حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ» قَالَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةً عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^{٦٥٢} أي لا يجوز للضيف أن يقيم عند صاحب البيت بعد ثلاثة أيام، من غير استدعاء من صاحب البيت، ومن الناس من يسكن مكة والمدينة، فيأتي إليهم ناس من الخارج، ويجلسون عندهم أسبوعاً أو عشرة أيام، أو شهراً، فهذا ضيف ثقيل دم، لأن هذا المكث حرام وفيه إحراج، إلا إذا كان الإنسان تطيب نفسه للضيف ويأنس به، ويرغب منه أن يجلس عنده، أما أن يأتي ويجلس ويضع عنده أولاده وأهله فهذا من سوء الأخلاق وسداجة النفس ودناءتها، فلا يجوز له أن يفعل ذلك. وكذلك فإن الإنسان يكرم من نزل عليه حتى علف الدابة، وكل ما يحتاجه الضيف على حسب القدرة والطاقة.

ثانياً: الخروج مع الضيف إلى باب الدار: ينبغي للمضيف أن يخرج مع ضيفه إلى باب الدار، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مِنَ السُّنَّةِ إِذَا دَعَوْتَ الرَّجُلَ إِلَى مَنَزْلِكَ فَإِذَا خَرَجَ تَخْرُجُ مَعَهُ إِلَى بَابِ الدَّارِ»^{٦٥٣} وهذا من مكارم الأخلاق.

ثالثاً: كذلك من السنة للضيف أن لا يقعد في صدر المجلس إلا إذا أذن صاحب البيت؛ لأن صاحب البيت أحق بصدر مجلسه، وصدر دابته من غيره.

رابعاً: صون العين عن عورات المنزل: إذا جلس الضيف في المجلس فلا يجلس في المكان الذي يرى فيه ما وراء الباب إذا انفتح، أو ما وراء الستار حتى لا يطلع على عورات صاحب البيت.

قصة لطيفة:

وقد حدثت قصة لطيفة بين أبي عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - والإمام أحمد.. وأبو عبيد من كبار أئمة اللغة، والإمام أحمد - رحمه الله - معروف من هو؟ قال أبو عبيد القاسم بن سلام: زرت الإمام أحمد، فلما دخلت قام فاعتنقني وأجلسني في صدر مجلسه، فقلت: أليس يقال: صاحب البيت

^{٦٥٢} - صحيح البخاري (١١/٨) (٦٠١٩) وصحيح مسلم (٣/١٣٥٢) - (٤٨)

^{٦٥٣} - الكنى والأسماء للدولابي (٢/٦٧٧) (١١٩٢) والمعجم الأوسط (٨/٩) (٧٧٩٣) والكامل في ضعفاء الرجال (٢/١٧٩)

أو المجلس أحق بصدر بيته أو مجلسه؟ قال: نعم يَقْعُدُ وَيُقْعَدُ من يريد. أي إذا كان هذا حقه فآثر به آخر فإن له الحق أن يجلس، قال أبو عبيد: قلت في نفسي: خذ يا أبا عبيد فائدة! ثم قلت: لو كنت آتيك على قدر ما تستحق لأتيتك كل يوم، يعني: يا أحمد تستحق أن يأتيتك الواحد كل يوم؛ لما يوجد عندك من الفائدة، وأنه يجب أن يقدرك، قال: لا تقل ذلك فإن لي إخواناً ما ألقاهم كل سنة إلا مرة، أنا أوثق في مودتهم ممن ألقى كل يوم، أي: يوجد ناس بيني وبينهم علاقات، ما ألقاهم في السنة إلا مرة، أعز عليّ من أناس أراهم كل يوم. فالمسألة ليست بكثرة التردد، وإنما بالمنازل التي في القلوب، قال: قلت هذه أخرى يا أبا عبيد، فلما أردت القيام قام معي، قلت: لا تفعل يا أبا عبد الله! فقال: قال الشعبي: من تمام زيارة الزائر أن تمشي معه إلى باب الدار، وتأخذ بركابه، قلت: يا أبا عبد الله! من عن الشعبي؟ قال ابن أبي زائدة عن مجاهد عن الشعبي يعني السند الذي بينك وبين الشعبي كم؟ قال ابن أبي زائدة عن مجاهد عن الشعبي، قلت: (هذه ثالثة يا أبا عبيد). وهكذا كان السلف - رحمهم الله تعالى - يتعلمون ويذهب بعضهم إلى بعض من أجل أن يتعلموا الفوائد.

إبراهيم عليه السلام يعلم الناس الضيافة:

لقد ضرب إبراهيم الخليل - عليه السلام - المثل العظيم في إكرام الضيف؛ فإنه جاءه ضيوف من الملائكة كما قال - تعالى -: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاعَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بَعْلَامَ عَلِيمٍ (٢٨) { [الذاريات].

آداب الضيافة كما في قصة إبراهيم مع ضيوفه:

هذه الآيات اشتملت على آداب الضيافة من قبل إبراهيم الخليل - عليه السلام - فتعالوا بنا ننهي هذا الموضوع باستعراض بعض الفوائد في الضيافة التي حصلت من إبراهيم الخليل - عليه السلام -:
أولاً: أنه قرب الطعام إليهم: ولم يأمرهم بالقيام إلى الطعام، وهذا واضح من قوله: ((فقربه إليهم)) حتى يكفيهم مؤنة الإتيان إلى الطعام، فمن التكرم أن تأتي بالطعام إلى الضيف، لكن مع كثرة الأطعمة التي نضعها اليوم يمكن أن الواحد يمكث نصف ساعة وهو ينقل الأطعمة إلى الضيف، ولذلك لو أنه جهز السفرة ثم قربهم إليها فلا بأس بذلك.

ثانياً: السرعة في الإتيان بالطعام: من أين أخذناه؟ من حرف الفاء ((فجاء بعجل سمين)) وليس: ثم جاء، فإن الفاء تدل على الترتيب والتعقيب، أي المباشرة والسرعة.

ثالثاً: إحضار الطعام بدون إعلامهم لئلا يخرجوا، وبعض الناس يقول: هل تريدون غداء؟ لو كان صادقاً لآتى بالغداء قبل أن يخبرهم، وأما إبراهيم الخليل فإن الله قال عنه في الآية: ((فراغ إلى أهله)) وراغ: ذهب خفية لئلا يخرجهم، فما أحسوا به لما ذهب، بل انسل خفية وأتاهم بالطعام.

رابعاً: اختيار أحسن الطعام: ((فجاء بعجل سمين))، وفي الآية الأخرى ((فجاء بعجل حنيد)) والحنيد ما هو؟ إنه المشوي على الحجارة المحماة، وهو ألد الطعام وأصحها، فالمشوي على الحجارة المحماة من أحسن اللحم فاسأل به خبيراً، والمقصود أنك إذا سألت الذين يشوون على الحجارة لقالوا إن ذلك اللحم لذيد جداً، ويقال أن طعام الكبراء من هذا النوع؛ لأن فيه صحة ولذة، ونضجاً على الحجارة. خامساً: أسلوب العرض الجميل: فلما قرب به إليهم ولم يمدوا أيديهم قال: ((ألا تأكلون)) أسلوب عال في غاية اللطف!

سادساً: حسن الاستقبال: من أين يؤخذ؟ يؤخذ من أن إبراهيم كان بابه مفتوحاً ((إذ دخلوا عليه)) والكريم دائماً بابه مفتوح.

سابعاً: أنهم لما قالوا له: ((سلاماً قال سلام)). فسلاماً هذه جملة فعلية، وسلامٌ جملة اسمية، لأن سلاماً مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره فسلموا سلاماً، وسلام مبتدأ، أو خبر ((سلام قوم منكرون)) فهي جملة اسمية، والجملة الاسمية تفيد استقرار المعنى وثباته أكثر مما تفيد الجملة الفعلية، ولهذا قال -تعالى-: {وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً} [النساء: ٨٦].

ثامناً: قوله: ((منكرون)) أي الضيوف الذين لا أعرفهم، فهو يرحب بمن يعرف ومن لا يعرف، هذا من كرمه - عليه السلام - فهو يكرم الجميع وجاء بعجل حنيد لناس لا يعرفهم. تسعاً: الإنسان يراقب أحوال الضيف حتى يعينه على المقصود، قال -تعالى-: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ} [هود: ٧٠] وفي الآية الأخرى ((ألا تأكلون)) فالإنسان يراعي أحوال الضيف، وماذا يريد وما ينقصه، وبعض الناس يضعون السفرة ويمشون، ولا يدرون ماذا يحتاج الضيوف! فتفقد أحوال الضيوف على المائدة من إكرامهم.

عاشراً: المبالغة في الإكرام: فهو ذبح لهم عجلاً، ولم يذبح لهم ثوراً، أو جاموساً، كبيراً قد قسي لحمه واشتد عظمه، فالعجل الذي هو صغار البقر لحمه طري.

الحادي عشر: من إكرام الضيف أن يتكلم معه ويحدثه، ليحصل الاستئناس، ولذلك رخص النبي - ﷺ - في السمر للمصلي والمسافر، والذي عنده ضيف فلا بأس أن يسمر معه في الليل، وإلا فإن الأصل أن بعد العشاء نوم. فعَنْ سَيَّارِ بْنِ سَلَامَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَأَبِي عَلَى أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، فَقَالَ لَهُ أَبِي: كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ؟ فَقَالَ: «كَانَ يُصَلِّي الْمَجْرِي، الَّتِي تَدْعُونَهَا الْأُولَى، حِينَ تَدْحَضُ الشَّمْسُ، وَيُصَلِّي الْعَصْرَ، ثُمَّ يَرْجِعُ أَحَدُنَا إِلَى رَحْلِهِ فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ - وَنَسِيتُ مَا قَالَ فِي الْمَغْرِبِ - وَكَانَ يَسْتَحِبُّ أَنْ يُؤَخَّرَ الْعِشَاءُ، الَّتِي تَدْعُونَهَا الْعَتَمَةُ، وَكَانَ يَكْرَهُ

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلام على عباده الذين اصطفى، ومنهم محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

/٥٢٦٥٦iraq.com/vb/tvhttp://www.roo

قصة استسقاء النبي ﷺ وسرعة نزول المطر

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَرَعَةً، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا وَضَعَهَا حَتَّى تَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مَنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لَحْيَتِهِ ﷺ، فَمَطَرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَمِنَ الْعَدِ وَبَعْدَ الْعَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ، حَتَّى الْجُمُعَةِ الْآخَرَى، وَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ - أَوْ قَالَ: غَيْرُهُ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَهْدِمُ الْبِنَاءَ وَغَرِقَ الْمَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا» فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلَّا انْفَرَجَتْ، وَصَارَتِ الْمَدِينَةُ مِثْلَ الْجَوْبَةِ، وَسَالَ الْوَادِي قَنَاةً شَهْرًا، وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَّا حَدَّثَ بِالْجُودِ^{٦٥٦}.

شرح المفردات : ٦٥٧

(سَنَةٌ) أي: قحط وجذب.

(قَرَعَةٌ) أي: قطعة.

(إِلَّا انْفَرَجَتْ) أي: تقطعت السحاب وزال عنها.

(الْجَوْبَةُ) الفرجة، ومعناه تقطع السحاب عن المدينة وصار مستديرًا حولها وهي خالية منه. (الوادي قَنَاةً) قَنَاة: اسم واد من أودية المدينة، وقوله: وسال الوادي قَنَاةً، أي: الوادي المعروف: قَنَاة، على البذل من الوادي.

المعنى العام :

(وَعَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ) ، أي: قَحْطٌ (عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -) أي في زمانه (فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ - يَخْطُبُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكَ الْمَالُ) ، أي الْمَوَاشِي، لِأَنَّهَا أَكْثَرُ أَمْوَالِهِمْ، وَهَلَكَهَا إِمَّا بِنَعِيرِهَا أَوْ بِمَوْتِهَا (وَجَاعَ الْعِيَالُ) ، وَهُوَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ مَنْ يَلْزِمُهُ النَّفَقَةُ مِنَ الْأَهْلِ، (فَادْعُ اللَّهَ لَنَا) . أي: مُتَضَرِّعًا إِلَيْهِ (فَرَفَعَ يَدَيْهِ) ، أي: بِالسُّؤَالِ لَدَيْهِ (وَمَا نَرَى) ، أي: نَحْنُ (فِي السَّمَاءِ قَرَعَةً) ، بَفَتْحِ الْقَافِ وَالزَّايِ أي: قِطْعَةً مِنَ السَّحَابِ (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا وَضَعَهَا) ، أي: يَدُهُ، وَأَفْرَدَ الضَّمِيرَ بِاعْتِبَارِ إِرَادَةِ الْجِنْسِ (حَتَّى تَارَ

^{٦٥٦} - صحيح البخاري (١٢/٢) (٩٣٣) وصحيح مسلم (٢/٦١٤) - (٨٩٧)

[ش (سنة) شدة وجهد وقحط. (العيال) هم كل من يعوله الرجل ويقوم بالإنفاق عليه. (قرعة) قطعة غنم أو الغنم الرقيق. (ثار) هاج وانتشر. (السحاب) الغيم. (يتحادر) يتزل ويقطر. (حوالينا) أنزل المطر في جوانبنا. (الجوبة) الفرجة المستديرة في السحاب أو أحاطت بها المياه كالخوض المستدير. (قناة) اسم لواد معين من أودية المدينة. (بالجود) المطر الغزير]

^{٦٥٧} - جامع الأصول (٦/٢٠٢) والديباج على مسلم - (٢/٤٧٢) فتح الباري - ابن حجر (١٣/٢٩٤).

(السَّحَابُ) ، أَي: سَطَعَ وَظَهَرَ جِنْسُ السَّحَابِ ظُهُورًا كَامِلًا (أَمْثَالُ الْجِبَالِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مَنَبَرِهِ ، حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ) : فِي النِّهَايَةِ ، أَي يَنْزِلُ وَيَقْطُرُ ، وَهُوَ يَتَفَاعَلُ مِنَ الْحُدُورِ ضِدَّ الصُّعُودِ يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى اِهـ. وَالْمَعْنَى حَتَّى يَتَسَاقَطَ الْمَطَرُ. (عَلَى لِحْيَتِهِ) : وَقِيلَ: يُرِيدُ أَنَّ السَّقْفَ قَدْ وَكَفَ حَتَّى نَزَلَ الْمَاءُ عَلَيْهِ ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْمَلَكِ. وَلَا يَخْفَى بَعْدَهُ (فَمُطِرْنَا) : بِصِغَةِ الْمَفْعُولِ أَي: جَاءَنَا الْمَطَرُ (يَوْمَنَا) ، أَي: بَقِيَّةَ يَوْمِنَا (ذَلِكَ) ، وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ (وَمِنَ الْغَدِ وَمِنْ بَعْدِ الْغَدِ) : يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَبْعِيضِيَّةٍ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا ابْتِدَائِيَّةٌ لِقَوْلِهِ: (حَتَّى) ، أَي: إِلَى (الْجُمُعَةِ الْآخَرَى ، وَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ) : حَالٌ أَي: وَقَدْ قَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ بَعَيْنِهِ (أَوْ غَيْرُهُ) : مِنَ الْأَعْرَابِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ. قَالَ الْحَافِظُ الْعَسْقَلَانِيُّ: وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ ، وَهَذَا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ غَيْرُ الْأَوَّلِ ، وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى جَاءَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ فِي الْجُمُعَةِ الْآخَرَى ، وَهَذَا يَقْتَضِي الْجَمْعَ بِكَوْنِهِ وَاحِدًا ، فَلَعَلَّ أَنْسَا ذَكَرَهُ بَعْدَ أَنْ نَسِيَهُ ، أَوْ نَسِيَهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَهُ. قُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ تَرَدَّدَ فِي كَوْنِ الْقَائِمِ الثَّانِي هُوَ الْأَوَّلُ ، لَكِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ تَارَةً أَنَّهُ هُوَ ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْجَزْمِ ، وَتَارَةً أَنَّهُ غَيْرُهُ ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالتَّنْكِيرِ ، وَتَارَةً أَتَى بِصِغَةِ الشَّكِّ لِاسْتِثْنَاءِ الْأَمْرَيْنِ عِنْدَهُ ، فَالشَّكُّ مِنْهُ لَا مِنْ غَيْرِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(فَقَالَ) ، أَي: الْقَائِمُ (يَا رَسُولَ اللَّهِ! تَهْدَمُ) : بِتَشْدِيدِ الدَّالِ ، أَي: خَرِبَ (الْبِنَاءُ ، وَغَرِقَ الْمَالُ) : بِكَسْرِ الرَّاءِ أَي: صَارَ غَرِيقًا (فَادْعُ اللَّهَ لَنَا ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا) ، أَي: أَمْطِرْ حَوَالَيْنَا بِفَتْحِ اللَّامِ أَي: فِي مَوَاضِعِ الْمَنَافِعِ الْحَاصِلَةِ لَنَا ثُمَّ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ. (وَلَا عَلَيْنَا) ، أَي: لَا تُمَطِّرْ فِي مَوَاضِعِ الْمَضَرَّةِ الْوَاقِعَةِ عَلَيْنَا. قَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ ، أَي: أَنْزِلِ الْغَيْثَ فِي وَضْعِ النَّبَاتِ لَا عَلَى الْأَبْنِيَةِ يُقَالُ: قَعَدَ حَوْلَهُ وَحَوْلَهُ وَحَوْلِيهِ وَحَوْلِيهِ بَفَتْحِ اللَّامِ ، وَلَا يُقَالُ حَوَالِيهِ بِكَسْرِ اللَّامِ ، قَالَهُ الْجَوْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ ، ثُمَّ قَالَ: وَفِي قَوْلِهِ: (وَلَا عَلَيْنَا) بَيَانٌ لِلْمُرَادِ بِقَوْلِهِ: (حَوَالَيْنَا) ثُمَّ فِي إِدْخَالِ الْوَاوِ هَاهُنَا مَعْنَى لَطِيفٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ طَلَبَ الْمَطَرَ عَلَى حَوَالَيْنَا لَيْسَ مَقْصُودًا لِعَيْنِهِ ، بَلْ لِيَكُونَ وَقَايَةً عَنْ أَذَى الْمَطَرِ. قُلْتُ: الْوَاوُ خَالِصَةٌ لِلْعُطْفِ لَكِنَّهَا لِلتَّعْلِيلِ كَقَوْلِهِمْ: تَجُوعُ الْحُرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِتَدْيِهَا ، فَإِنَّ الْجُوعَ لَيْسَ مَقْصُودًا بَعَيْنِهِ ، لَكِنْ لِكَوْنِهِ مَانِعًا مِنَ الرِّضَاعِ بِأُجْرَةٍ إِذْ كَانُوا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ اِهـ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ: أَوْثَرَ حَوَالَيْنَا لِمُرَاعَاةِ الْإِزْدَوَاجِ مَعَ قَوْلِهِ: عَلَيْنَا نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {مِنْ سَبِيلٍ بَنَبَلٍ يَفَيْنِ} [النمل: ٢٢] وَقَالَ الطَّبِّيُّ ، قَوْلُهُ: (وَلَا عَلَيْنَا) عُطِفَ عَلَى جُمْلَةِ (حَوَالَيْنَا) وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْوَاوُ لَكَانَ حَالًا أَي: أَمْطِرْ عَلَى الْمَزَارِعِ ، وَلَا تُمَطِّرْ عَلَى الْأَبْنِيَةِ ، وَأُدْمِجَ فِي قَوْلِهِ: عَلَيْنَا مَعْنَى الْمَضَرَّةُ كَأَنَّهُ قِيلَ: اجْعَلْ لَنَا لَا عَلَيْنَا. (فَمَا يُشِيرُ) : حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ (إِلَى نَاحِيَةٍ) ، أَي: جَانِبٍ مِنَ السَّحَابِ جَمَعَ سَحَابَةً (إِلَّا انْفَرَجَتْ) ، أَي: انْكَشَفَتْ وَتَفَرَّقَتْ (وَصَارَتْ الْمَدِينَةُ) ، أَي: جَوْهَا (مِثْلُ الْجَوْبَةِ) ، بِفَتْحِ الْحِيمِ وَسُكُونِ الْوَاوِ الْفُرْجَةُ فِي السَّحَابِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَطَرَ أَوْ الْغَيْمَ انْكَشَفَ عَمَّا يُحَادِثُنَا ، وَأَحَاطَ بِمَا حَوْلَنَا بِحَيْثُ صَارَ جَوْ الْمَدِينَةِ مِثْلَ الْجَوْبَةِ خَالِيًا عَنِ السَّحَابِ ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ وَهُوَ الْجَوْ ، وَأَقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ ، كَذَا ذَكَرَهُ شَارِحُ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى حَتَّى صَارَتْ الْمَدِينَةُ مِثْلَ الْحُفْرَةِ

الْمُسْتَدِيرَةِ الْوَاسِعَةِ، وَصَارَ الْعِمْ مُحِيطًا بِأَطْرَافِ الْمَدِينَةِ مُنْكَشِفًا عَنْهَا. (وَسَالَ الْوَادِي قَنَاةً) : بِالضَّمِّ عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ أَوْ بَيَانٌ لِلْوَادِي، وَهِيَ عَلِمَ لَهُ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ، وَفِي نُسْخَةٍ بِالْفَتْحِ بِتَقْدِيرِ أَعْنِي، وَفِي أُخْرَى بِتَنْوِينِهَا (شَهْرًا)، ظَرَفُ سَالٍ. قَالَ مِيرُكٌ: أَعْرَبَ قَنَاةَ بِالضَّمِّ عَلَى الْبَدَلِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ قَنَاةَ اسْمُ الْوَادِي، وَلَعَلَّهُ مِنْ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ مَا جَاوَرَهُ أَقُولُ: فَالْقَنَاةُ اسْمُ أَرْضٍ بِجَنْبِ الْوَادِي، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مَحْفُورَةٌ فِي الْأَرْضِ يَكُونُ نَهْرٌ فِي بَطْنِهَا يُقَالُ لَهَا بِالْفَارِسِيَّةِ: كَارِيزٌ، وَسُمِّيَ بِهَا لِطُولِهَا الْمُشَبَّهِةِ بِالْقَنَاةِ، وَهِيَ الرُّمْحُ، وَقِيلَ هُوَ بِالتَّنْصِبِ وَالتَّنْوِينِ عَلَى التَّشْبِيهِ أَيْ سَالَ مِثْلَ قَنَاةٍ. قِيلَ وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ حَتَّى سَالَ وَادِي قَنَاةَ شَهْرًا، وَصَحَّحَ بغيرِ تَنْوِينٍ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ اهـ. كَلَامُهُ نَاقِلًا عَنْ الْعَسْقَلَانِيِّ.

وَقَالَ شَارِحٌ: قَنَاةٌ نُصِبَ عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ سَالَ أَيْ: سَالَ الْوَادِي سَائِلًا مِثْلَ الْقَنَاةِ، وَلَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْقَنَاةِ الِاسْتِمْرَارُ عَلَى الْجَرِيِّ حَسُنَ أَنْ يُجْعَلَ حَالًا مِنَ الْوَادِي، وَيَجُوزُ فِيهِ الْمَصْدَرُ أَيْ سَيْلَانُ الْقَنَاةِ. وَقَالَ الطَّبِيُّ: نُصِبَ عَلَى الْحَالِ أَوْ الْمَصْدَرِ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ أَيْ: مِثْلَ الْقَنَاةِ، أَوْ سَيْلَانِ الْقَنَاةِ فِي الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ وَالْقُوَّةِ وَالْمَقْدَارِ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ: قَنَاةٌ بَفَتْحِ الْقَافِ وَالتَّنْوِينِ الْمُخَفَّفَةِ عَلِمَ عَلَى أَرْضِ ذَاتِ مَزَارِعٍ نَاحِيَةِ أُحُدٍ، وَوَادِيهَا أَحَدُ أَوْدِيَةِ الْمَدِينَةِ الْمَشْهُورَةِ قَالَهُ الْحَازِمِيُّ، وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمَخْزُومِيُّ فِي أَخْبَارِ الْمَدِينَةِ: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَمَّاهُ وَادِي قَنَاةً تَبَعَ الْيَمَانِيَّ، لَمَّا قَدِمَ يَثْرِبَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَقِيلَ الْفُقَهَاءُ يَقُولُونَهُ بِالتَّنْصِبِ وَالتَّنْوِينِ يَتَوَهَّمُونَهُ قَنَاةً مِنَ الْقَنَاةِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي حَزَمَ بِهِ بَعْضُ الشُّرَاحِ، وَقَالَ: الْمَعْنَى عَلَى التَّشْبِيهِ أَيْ: سَالَ مِثْلَ الْقَنَاةِ، وَعِبَارَةُ الْبُخَارِيِّ: حَتَّى سَالَ الْوَادِي قَنَاةَ شَهْرًا. قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: قَنَاةٌ عَلِمَ مَوْضِعُ. قِيلَ: إِنَّهُ الْوَادِي الَّذِي عِنْدَهُ قَبْرُ حَمْزَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ يَأْتِي مِنَ الطَّائِفِ. وَقِيلَ: نُصِبَ قَنَاةٌ عَلَى التَّمْيِيزِ، أَيْ: مَقْدَارُ قَنَاةٍ بِنَاءً عَلَى أَنَّ تَفْسِيرَ قَنَاةٍ بِالرُّمْحِ أَوَّلَى مِنْهُ بِحُفْرَةٍ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ قَلَمًا بَلَغَ الْقَنَاةُ فِي كَثْرَةِ مِيَاهِهَا مَبْلَغَ السُّيُولِ، وَفِيهِ بَحْثٌ لَا يَخْفَى عَلَى ذَوِي النَّهْيِ. (وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَتِهِ)، أَيْ: مِنْ جَوَانِبِ الْمَدِينَةِ (إِلَّا حَدَثَ)، أَيْ: أَخْبَرَ (بِالْجَوْدِ) : بَفَتْحِ الْجِيمِ وَسُكُونِ الْوَاوِ أَيْ الْمَطَرِ الْكَثِيرِ.

(وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ) : بِالْمَدِّ، وَفِي نُسْخَةٍ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ جَمْعُ الْآكَمَةِ، وَهِيَ التَّلُّ وَالرَّابِيَّةُ، وَقِيلَ الْآكَمَةُ يُجْمَعُ عَلَى أَكَمٍ، وَيُجْمَعُ الْآكَمُ عَلَى آكَامٍ كَجَبَلٍ وَجِبَالٍ، وَيُجْمَعُ الْآكَامُ عَلَى أَكُمٍ مِثْلُ كِتَابٍ وَكُتُبٍ، وَيُجْمَعُ الْآكَمُ عَلَى آكَامٍ كَعُنُقٍ وَأَعْنَاقٍ. وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: هُوَ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ مَمْدُودَةٌ وَكَسْرِهَا مَقْصُورَةٌ جَمْعُ آكَمَةٍ مُحَرَّكَةٍ، وَهُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ. (وَالظَّرَابِ) : بِكَسْرِ الظَّاءِ الْمُعْجَمَةِ أَيْ: الْجِبَالِ الصَّغَارِ (وَبُطُونِ الْأَدْوِيَةِ)، أَيْ: الْخَالِيَةِ عَنِ الْأَبْنِيَةِ (وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ)، أَيْ: الْمُنتَجِ لِلثَّمَرِ (قَالَ)، أَيْ: أَنَسُ (فَأَقْلَعَتْ)، وَفِي نُسْخَةٍ بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ: كَفَّتِ السَّحَابُ عَنِ الْمَطَرِ، وَقِيلَ: انْكَشَفَتْ، وَالتَّائِيثُ لِأَنَّهُ جَمْعُ سَحَابَةٍ يُقَالُ: أَقْلَعُ الْمَطَرُ

انْقَطَعَ، وَفِي الْقَامُوسِ. أَقْلَعَتْ عَنْهُ الْحُمَى تَرَكْتُهُ، وَالْإِقْلَاعُ عَنِ الْأَمْرِ الْكَفُّ، وَفِي الْمَشَارِقِ: أَقْلَعَ الْمَطَرُ كَفًّا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي} [هود: ٤٤] اهـ. وَتَبَيَّنَ أَنَّ صِبْغَةَ الْمَفْعُولِ مِنْ رِوَايَةِ الْمَجْهُولِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ). قَالَ التَّوَوِيُّ: فِيهِ اسْتِحْبَابُ طَلَبِ انْقِطَاعِ الْمَطَرِ عَنِ الْمَنَازِلِ، وَالْمَرَاقِ إِذَا كَثُرَ وَتَضَرَّرُوا بِهِ، وَلَكِنْ لَا يُشْرَعُ لَهُ صَلَاةٌ وَلَا اجْتِمَاعٌ فِي الصَّحَرَاءِ. (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) ^{٦٥٨}.

من فوائد الحديث ^{٦٥٩}:

- الحديث علم من أعلام نبوة النبي ﷺ، وشاهد على صدقة، وقرب مكانه من ربه، واستجابته لدعائه.
- أن الإمام راع ومسؤول عن رعيته، فيلزمه حيابتهم وإجابتهم فيما سألوه مما لا بد لهم منه.
- حسن خلق النبي ﷺ، حيث كان لا يرد من سألته حاجة.
- استحباب طلب انقطاع المطر عن المنازل إذا كثر وتضرروا به.
- أدب النبي ﷺ وخلق العظيم؛ لأنه لم يدع الله ليرفع الغيث جملة لئلا يرد على الله فضله وبركته وما رغب إليه فيه، وسأله إياه، بل قال: (اللهم حوالينا ولا علينا) وفي بعض الروايات أنه قال: (اللهم على رؤوس الجبال والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر)؛ لأن المطر لا يضر نزوله في هذه الأماكن، بل يبقى نفعه وخصبه فيها.
- مشروعية الاستسقاء في خطبة الجمعة.
- وجواز الدعاء ولو كان إلى غير القبلة، واستقبالها في الدعاء - في غير الخطبة - أولى وأكمل.
- في الحديث مشروعية رفع اليدين في الخطبة في الاستسقاء خاصة دون غيره من الدعاء، لأنه لم يؤثر عنه عليه الصلاة والسلام رفع اليدين إذا دعا في الخطبة.
- جواز مكالمة الإمام في الخطبة للحاجة، وأنها لا تنقطع بالكلام، ولا تفسد جمعة المتكلم مع الإمام.
- في الحديث جواز سؤال الدعاء من أهل الخير، ومن يرجى منه القبول، وإجابتهم لذلك.
- رحمة الله تعالى بعباده، وإغاثة لهم إذا استغاثوا به وصدقوا في اللجوء إليه.
- أنه لا يستغاث ولا يدعى، ولا يطلب منه تفريج الكربات، وإزالة الشدائد إلا الله تعالى، فقد سأل الأعرابي النبي ﷺ أن يدعو الله تعالى لهم أن يغيثهم.



^{٦٥٨} - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٨٠١)

^{٦٥٩} - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ٢٣٧)

الفهرس العام

٦	إبليس وعرشه الذي على الماء
١١	قصة خلق آدم
١٣	جحود آدم عليه السلام ونسيانه
٢٢	قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
٢٧	قصة الأعمى والأقرع والأبرص
٣١	قصة أم زرع
٤٣	قصة رجل أوصى بنيه : إذا أنا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في البحر
٤٦	قصة الرجل الذي وجد الكنز من العقار الذي اشتراه
٤٩	كيفية الطهارة في شريعة بني إسرائيل
٥١	قصة التفاخر بالأنساب بين الرجلين على عهد موسى
٥٣	قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً
٥٧	أهمية خطبة الحاجة وتأثيرها على النفوس
٦١	النص الكامل لخطة الحاجة :
٦٣	قصة الرجل الذي كان يتجاوز عن الموسر ويخفف عن المعسر
٦٤	قصة من نكا قرحته حتى مات
٦٦	قصة كسوف الشمس على عهد النبي ﷺ
٦٨	قصة الرجل الذي سقى السحاب أرضه
٧٢	قصة سقي الكلب العطشان
٧٥	قصة غرق فرعون
٧٩	قصة عمرو بن عامر الخزاعي
٨١	قصة الرجل الذي قال لصاحبه المذنب : والله لا يغفر لك
٨٤	قصة المرأة القصيرة من بني إسرائيل
٨٦	قصة أصحاب الغار
٩٥	قصة الرجل الذي خسف به وهو يجز إزاره من الخيلاء
٩٧	قصة الرجل الذي استسلف ألف دينار
١٠١	قصة المرأتين اللتين تحاكمتا في ابنتهما إلى داود وسليمان عليهما السلام

١٠٦	ثلاثة من الصبيان تكلموا في المهد
١١٥	قصة المسخ في بني إسرائيل
١٢٢	قصة الأمة التي فقدت من بني إسرائيل
١٢٤	قصة الرجل الذي زار أخاه في الله
١٢٨	قصة اغتسال موسى عريانا وفرار الحجر بثوبه
١٣٢	قصة الرجل الذي تصدق على السارق والزانية والغني
١٣٥	قصة إيثار صحابي
١٤٠	قصة سليمان عليه السلام حينما قال : لأطوفن الليلة
١٤٣	قصة موسى والخضر عليهما السلام
١٥١	قصة كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك
١٧٤	قصة زيد بن أرقم مع عبد الله بن أبي بن سلول المنافق
١٧٦	صحابي جليل يتحدث عن إسلامه
١٨٢	قصة إسلام سيد أهل اليمامة
١٩٠	قصة الإفك
١٩٩	فوائد من قصة الإفك
٢٠٥	قصة استضافة الأنصاري رضي الله عنه للنبي ﷺ وصاحبيه
٢١٠	قصة استضافة جابر بن عبد الله للنبي ﷺ يوم الخندق
٢١٦	قصة سعد بن معاذ مع بني قريظة
٢١٨	قصة أصحاب الأخدود
٢٣٨	قصة الأعرابي الذي أراد قتل النبي ﷺ
٢٤١	قصة (جوع) أبي هريرة رضي الله عنه مع النبي ﷺ
٢٤٥	قصة النفر من الصحابة مع الحي الذين أبوا أن يضيفوهم
٢٥١	قصة الأنصاري يوم حنين
٢٥٥	قصة الواهة نفسها للنبي ﷺ
٢٦٣	قصة أم سليم مع أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنهما
٢٦٧	قصة اليهودية التي أهدت للنبي ﷺ شاة مسمومة
٢٧١	قصة قتل عدو الله أبي جهل
٢٧٦	قصة إسلام أم أبي هريرة رضي الله عنهما

٢٧٦		قصة إسلام أم أبي هريرة رضي الله عنهما
٢٧٩		قصة ضياع عقد عائشة رضي الله عنها
٢٨٥		قصة في فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه
٢٨٧		قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان
٢٩٩		قصة الرجل الذي جامع في نهار رمضان
٣٠٨		قصة موت أبي طالب عم النبي ﷺ على دين قومه
٣١١		المقداد واللبن
٣١٦		قصة في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٣٢١		قصة في كمال خلق النبي ﷺ وجوده
٣٢٢		قصة ماشطة بنت فرعون
٣٢٩		قصة الكفل من بني إسرائيل
٣٣٣		قصة ريح عاد
٣٣٦		قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه
٣٤٧		قصة موت أبي طالب على الكفر
٣٥٠		قصة أهل نجران
٣٥٣		قصة المقداد بن الأسود يوم بدر
٣٦٩		قصة جابر ومال البحرين
٣٧٣		قصة إسلام دوس
٣٧٨		حبس الشمس لنبي الله يوشع بن نون
٣٨٤		ابتلاء نبي الله أيوب عليه السلام
٣٩١		النبي الذي أحرق قرية النمل
٣٩٤		لو تركها لدارت إلى يوم القيامة
٣٩٥		ميت أحياء الله تعالى
٣٩٦		عاقبة الغش
٣٩٨		سَمَى كَلْبًا فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ
٤٠٨		تَجَاوَزَ عَنِ النَّاسِ ، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ
٤١٠		أَخْرَ غُصْنٌ شَوْكًا عَنِ الطَّرِيقِ ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ
٤١٤		الرجل الذي غفر له بهجرته

٤١٨		قصة الخصومة بين العمرين
٤٢٨		قصة الثلاثة العظماء الذين أخرجهم الجوع
٤٤٤		قصة استسقاء النبي ﷺ وسرعة نزول المطر

القصص في السنة النبوية

دروس وعبر

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

حقوق الطبع لكل مسلم